حقائق ورقائق
(٢)

الكلمات المقدسة

رواية

د. نور الدين أبو لحية

دار الأنوار للنشر والتوزيع

حقائق ورقائق

(2)

الكلمات المقدسة

د. نور الدين أبو لحية

الطبعة الثانية

1436 – 2015

دار الأنوار للنشر والتوزيع

1

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

المقدمة

هذه الطبعة الثانية من كتابي [الكلمات المقدسة]، وهو من جملة الكتب المهتمة بعرض الحقائق القرآنية، والبرهنة عليها، والدعوة إلى تفعيلها في الحياة(1).

وقد ضمنت المعاني الواردة فيها على شكل رحلة يقوم بها رجل دين مسيحي إلى الإسكندرية، هو وأخوه التوأم [الذي يمثل نفسه وهواه المانع له من الإيمان] لطباعة الكتاب المقدس، وفي كل يوم من الأيام يلتقي بشخص من عمال المطبعة أو غيرهم، يثير له شبهات حول الكتاب المقدس، ويدعوه إلى مقارنتها بالقرآن الكريم.

وهي من خلال تلك الحوارات الكثيرة تحاول إثبات قدسية الكلمات التي تنزلت على محمد ﷺ ، وعقد المقارنات العلمية والدقيقة والموضوعية بينها وبين الكتاب المقدس، وقد اشتملت المقارنات على عشرة نواح، هي: الحفظ، والربانية، والحق،

---

1) من كتبي التي تناولت بعض الجوانب المرتبطة بالقرآن الكريم، ولعلها تكمل النقص الوارد في هذا الكتاب:

1 . **معجزات علمية**: وهو يشمل ما ورد في القرآن الكريم من حقائق علمية معجزة، تعتبر من أقوى البراهين المعاصرة، وخاصة للباحثين والعلماء، وهو الجزء الثالث من هذه السلسلة.

2 . **القرآن والأيدي الآثمة**: وهو في نقد التعامل السلبي الذي حصل من بعض الأمة نحو القرآن الكريم، لأن البعض للأسف يحاكم القرآن إلى أقوال المفسرين أو الفقهاء أو التاريخ، وهو الجزء 19 من هذه السلسلة.

والحقيقـة، والعقلانيـة، والروحانيـة، والشـمول، والأدب، والتربيـة، والجمال.

وهي تجمع بذلك أكثر مـا كتب في الموضـوع من مقارنـات بين القرآن الكـريم والكتـاب المقـدس.. ولـذلك اسـتفدت من كـل مـا كتب حول ذلك من كتابات القدماء والمحدثين، مع تطويـع الأفكـار المطروحة للقالب الروائي الذي أردنا من خلاله تبسيط الــبراهين، وتوضيحها ليفهمها الجميع.

لأن الغرض الذي هـدفنا إليـه من خلال هـذه السلسـلة [حقـائق ورقائق] هو صياغة الحقائق في قوالب أدبيـة مبسـطة تحمـل من الجاذبية واليسر ما يجعلها في متناول كل قارئ.. ولــذلك لم نبـالغ كثيرا في التوثيق والتدقيق الأكاديمي حتى لا يشـتت ذهن القـارئ، وحتى لا يتضخم الكتاب، لأن الهـدف هـو الحقيقـة وليس القـائلين بها.

البداية

لا أزال أذكر ذلك اليوم المبارك من شهر رمضان المعظم، وفي ليلة من ليالي الوتر منه، حينها كنت معتكفا في مسجد من المساجد، وكنت حريصا على أن أصادف ليلة القدر، تلك الليلـة الـتي نـزل فيهـا القرآن الكريم.. والتي أخبر اللـه تعـالى أنهـا أفضـل من ألـف شـهر.. ولـذلك كنت أتنقـل بين القـراءة والـذكر والصـلاة والـدعاء رجـاء أن يضاعف لي كل ذلك.

لكني فجأة تألمت لحالي، ونظرت إلى نفسي نظـرة احتقـار على تلك التصرفات التي كنت أقوم بها من غير وعي..

لقد كان لساني يردد كلمات ربي المقدسة من غير أن أنفعل لها، أو أتأثر بها، وكأنني أقرأ قصيدة أو روايـة.. لا كلام اللـه مبـدع الوجـود جميعا..

لقد كنت منشغلا بجمع الحسنات، وما يتبعها من الأجـور عن تـدبر القرآن الكريم والتأثر به والترقي من خلاله في معارج الكمال.

لقد كنت أرتل الكلمات التي تختصر كل حقـائق الوجـود، وتصـفها وصفا دقيقا.. بل تعطي الحلول لكل المشكلات.. بل تجمع كـل سـنن الكون والحيـاة والمجتمـع في كلمـات معـدودات.. ومـع ذلـك لم أكن أستفيد منها إلا تلك الحركات التي يتحرك بها لساني.

لذلك ثـرت على نفسـي، وغضـبت عليهـا غضـبا شـديدا.. ولسـت أدري كيـف رحت أتجـول في أنحـاء المسـجد لأنفس عن نفسـي مـا عراها من الآلام.

وقد شاء الله أن تكون تلك الحركة مفتاحا لبركات عظيمة عرفت من خلالها عظمة الكلمات المقدسة التي كلمنا الله بها..

لقد رأيت في ركن من أركان المسجد شيخا وقورا، يقـرأ القـرآن

الكـريم من أعمـاق أعماقـه.. ويبكي أثنـاء قراءتـه، وينفعـل انفعـالا شديدا، وكأن زلزالا قد نزل بكيانه جميعا، فهزه، وحركه.

اقتربت منه رجاء أن يتنزل علي من الأحوال مـا تـنزل عليـه، وأن أذوق من المعـارف مـا ذاقـه، وأن يتحـرك من كيـاني مـا تحـرك من كيانه.

أحس الشـيخ بحركـتي، فـالتفت إلي، وقـال بلهجـة فيهـا بعض العجمة: هل أحضرت قلمك معك؟

قلت متعجبا: وما حاجتي للقلم.. أنا جئت لأعتكف بهـذه المناسـبة العظيمة.. ومن يعتكـف لا يحتـاج إلى قلم، ولا إلى قرطـاس، ولا إلى دواة، يكفيه مصحف ومسبحة.

قـال: أحيانـا يكـون القلم هـو هادينـا للمصـحف والمسـبحة.. ألم يقسم الله بالقلم، وبما يسطرون؟

قلت: بلى.. ولكن ما علاقة ذلك بهذا؟

قال: لقد أخبر الله تعالى أنه علم الإنسان بالقلم..

قلت: ذلك صحيح، فقد كان من أول مـا نـزل من القـرآن الكـريم قوله تعالى: {اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5) } [العلق: 3 - 6]

قال: فأحضر قلمك ودواتـك والقـراطيس لأحكي لـك رحلـتي إلى الكلمات المقدسة عساك تخرج بها من ألمك الذي عـراك.. وعسـاك تبلغها لمن ينتفع بها.

قلت: رحلتك إلى الكلمات المقدسة.. من أنت.. ؟

قال: أظن أنك عرفت من خلال لهجتي أنني لست من أهـل هـذه البلاد.

قلت: أجل.. فلهجتك وملامحـك تـدل على أنـك من أوروبـا أو من

أمريكا.

قال: ذلك صحيح .. أنا من ألمانيا..

قلت: مبارك لك هداية الله.. لاشك أنك سمعت تصريحات البابا الذي هو ابن بلدك حول الإسلام(1) .

ابتسم، وقال: لقد كان ذلك البابا شقيقي التوأم في يوم من الأيام.

تفرست في ملامحه جيدا، فوجدته يشبهه تماما، فازداد عجبي، وصحت: أرى أن هناك شبها كبيرا بينكما.

قال: لقد ذكرت لك أن البابا كان أخي التوأم..

قلت: كيف هذا .. إن هذا لعجيب؟

قال: وما العجب في ذلك.. الله يهدي من يشاء .. كيف يشاء .. متى يشاء.

قلت: صدقت في هذا.. فكيف اهتديت إلى ربك؟

قال: لقد هداني ربي إليه من خلال كلماته المقدسة.. لقد من الله علي برحلة مباركة سمعت فيها ما ملأني هداية ونورا عشت به طول عمري.

قلت: وأخوك التوأم.

قال: تلك قصة طويلة لا يعنيك منها شيئا.. لا يعنيك من قصتي إلا رحلتي للكلمات المقدسة.. فإن شئت أن أمليها عليك فأحضر قلمك

---

1) أشير إلى [بابا الفاتيكان بنديكت السادس عشر]، وقد كانت تصريحاته المسيئة للإسلام داعيا لي لكتابه سلسلة [أشعة من شمس محمد ﷺ] والتي حاولت أن تكون موسوعة شاملة في الرد على الشبهات التي تثار كل حين.

وقراطيسك، وتعال.. فما جئت هذه البلاد، وما دخلت هذا المسـجد إلا لأجل أن أمليها عليك لتبلغها للعالم.

قلت: ولكني نويت الاعتكاف هذه الليلة.

قال: عندما تسمع قصتي، وتعرف قيمة الكلمـات المقدسـة الـتي كان يرددها لسانك، حينها تكون روحك دائما في حال اعتكاف، وقلبك دائما في حال سجود.

أسرعت إلى محفظتي، وأحضرتها، وأخرجت قلمي وقراطيســي، وقلت: ها أنذا بين يديك امل علي ما تشاء.

***

اعتدل الشيخ في جلسته، ثم قال: لقـد كـانت رحلـة جميلـة تلـك التي قمت بها قبل أكثر من أربعين سنة، كان الهدف الظاهر منها هـو الإشراف على طبعة جديدة من طبعات الكتاب المقدس، والتي تمت تحت رعاية ونفقة كنيستنا في الإسكندرية، ولكن الهدف الخفي الذي أراده الله هو أن أتنعم في هذه الرحلة بالاستنارة بـأنوار كلمـات اللـه المقدسة.

سأحدثك من الأول.. من أول الرحلة.

حــزمت أمتعــتي، أنــا وأخي.. وركبنــا الطــائرة الــتي تقلنــا إلى الإسكندرية، وقد شاء الله أن يختلف مجلسي عن مجلس أخي.. ذلك شيء لم نخطـط لـه، ولكن المقـادير الـتي شـاءت أن أتعـرض لتلـك الأشعة العظيمة هي التي دبرت لذلك وقدرته.

فتحت الكتاب المقدس الذي كنت أحمل نسخة منـه في محفظـة صغيرة أحملها، ثم رحت أقرأ فيـه.. كنت أمـر أثنـاء قراءتـه بمواقـف مضطربة:

ففي مواضع أشعر أنه كلام الله الجميل المتـدفق بينـابيع الرحمـة واللطف والمودة، وأشعر حينها بأن كل ذرة من ذرات الوجـود تشـهد

له بذلك، بل تترنم معي، وأنا أرتله بخشوع وتدبر.

وفي مواضـع أشـعر أنـه لغـو أو لهـو فـارغ لا يعنيـني، ولا يعـني البشرية المتشوفة للخلاص.. لكني أعتذر بيني وبين نفسي للـه الـذي أتهم كلامه بهذه التهم.

وفي مواضع أشعر بأنه كتاب خطير.. لو سرت تعاليمه إلى الأرض لأحـرقت الأخضـر واليـابس، ومحت معهـا كـل وجـود اجتمـاعي على الأرض.

أحيانا أشـعر أنـه كلام من اللـه المتعـال.. وأحيانـا أشـعر أنـه كلام حكواتي فارغ يهتم بالتفاصيل التي لا حاجة لها..

أحيانـا أشـعر أنـه كلام ينبـع من منـابع تمتلئ بالعنصـرية والحقـد واللاإنسانية.. وأحيانا أشعر أنه كلام يفيض من منابع الرحمـة والحنـان والإنسانية.

كنت أشعر بكل ذلـك التنـاقض، وأنـا أقـرأ الكتـاب المقـدس على كرسـيي في الطـائرة الـتي امتطيتهـا مـع أخي، ونحن راحلان إلى الإسكندرية.

فجأة تحركت الطائرة حركة شديدة، حتى ظننا أننا سنسقط.. ثم ازدادت حركتهـا شـدة.. وازدادت قلـوب النـاس هلعـا.. ولسـت أدري كيـف سـقط الكتـاب المقـدس من يـدي من حيث لا أشـعر.. وكيـف امتلأت من الـرعب كمـا امتلأ سـائر النـاس.. لا فـرق بين صـالحهم ومنحرفهم.

لكني التفت إلى الـذي يجلس بجـاني.. فـإذا بي أراه سـاكنا هادئـا مطئمنـا، وكـأن شـيئا لم يحصـل .. لقـد بـدا لي حينهـا في قمـة قمم الجمال والكمال والسلام والطمأنينة.

لا أخفيـك أني – بمجـرد أن زالت المخـاوف – رحت أحـاول أن ألتمس كل السبل للتعرف عليه، وعلى سر هدوئه.

لكنه بادرني بذلك، وهو يسلم لي الكتـاب المقـدس الـذي سـقط من يدي، ويقول: خذ الكتاب الذي كنت تقرؤه فيه.. لقـد سـقط منك من حيث لا تشعر.

قلت: شكرا جزيلا .. إنه الكلمات المقدسة الـتي أنزلهـا اللـه على أنبيائه.

قال: ولكني لا أرى آثارها عليك.

قلت: ما تقصد؟

قال: أكنت بالفعل تقرأ الرسالة التي أرسلها ربك لك؟

قلت: أجـل.. لقـد أرسـلها لي كمـا أرسـلها لجميـع البشـرية على لسان أنبيائه.

قال: ولكني لم أر على وجهك أي علامة تـدل على أن الـذي تقـرأ كلامه هو الله.

قلت: وهل تحدث كلمات الله أثرا على الوجوه؟

قال: أجل.. أليست كلمات مقدسة؟

قلت: بلى.. هي كلمات مقدسة.

قال: إن الكلام المقدس يقدس صاحبه، ويطهره، ويملأ بالطمأنيـة قلبه، وبالانشراح صدره، وبالأسارير الصافية صفحة وجهه.

قلت: ألم تر ذلك حدث لي أثناء قراءته؟

قال: أنا لا أتهمك.. ولكـني أسـأل: هـل كنت تقـرأ حقيقـة الكتـاب المقدس؟

فتحت الكتاب، وقلت: انظر ها هو.. الكتاب المقدس.

قال: ليس الشأن في غلافه.. إنما الشأن في محتواه.

قلت: وهــل تتصــور المطــابع تتلاعب بالكتــاب المقــدس لهــذه الدرجة؟

قال: ألا يمكن أن تستبدل هذه المطـابع أغلفـة الكتب الـتي ظلت مكدسة في خزائنها بأغلفة للكتاب المقدس لتنشـر سـلعها، وتكسـب من وراء ذلك؟

قلت: إنه الكتاب المقدس يا رجل!!

قال: أنـا لا أفكـر إلا بعقلي، فلـذلك لا أتيقن إلا بعـد أن أشـك، ولا أطمئن إلا بعد أن أضطرب.

قلت: أتريد أن تشككني في الكتـاب المقـدس.. في كلمـات ربي المقدسة؟

قـال: لا.. أنـا لا أعطيـك الشـك، ولا اليقين.. ولكـني أدعـوك إلى البحث عن اليقين الذي لم ترثه.. فلا خير في يقين يورث.

قلت: أتريد مني أن أضع الكتاب المقدس على مشرحة البحث؟

قال: وما الذي يمنعك من ذلك؟

قلت: ربي.. إذا قــال لي ربي يــوم الدينونــة: كيــف تشــك في كلامي؟.. وكيـف تضـعه في مشـرحة البحث كمـا تضـع أي كلام، فمـا عساي أقول له؟

قـال: قـل لـه: يـارب.. لقـد رأيت كلامـك المقـدس يحـذرنا من المتنبئين الكذبة، فخشـيت أن يختلـط كلامـك الجميـل بكلام الكذبـة.. وخشيت فوق ذلك أن أحمل صورة مشوهة عنـك بسـبب مـا يرجـف الكذبة عليك.. الكذبة الذين حملوا أقلام الكتبة.

قلت: أترى ذلك مجديا لي عند ربي؟

قال: بل ذلك ما يجديك عند ربك.. ألم يخلق الله لك عقلا؟

قلت: بلى.. ولولاه ما تحدثت معك، وناقشتك.

قال: لم ناقشتني؟

قلت: لأبحث عن الحقيقة.

قال: فناقش كلام ربك لتبحث فيه عن الحقيقة.. فلا خير في حقيقة لا تناقش.

قلت: ولكن كيف أبحث عن الحقيقة في هذا.. لو كان مؤلف هذا الكتاب بيننا لذهبت إليه، وتحدثت معه عن سر كل كلمة قالها.

قال: والله معنا لا يغيب.. لقد وضع في عقولنا برامج الحكمة التي نميز بها بين الحق والباطل.

قلت: ولكني لا أرى الناس يستعملونها.

قال: لأنهم يبحثون عن المكاسب، لا عن الحقائق.

قلت: فما الطريق إلى الحقيقة؟

قال: الكلمات المقدسة تتصف بعشر صفات.. لا تكون مقدسة إلا بها.

قلت: فما هي؟

قال: لقد سجلتها في هذه الورقة.. فخذها واحتفظ بها.

أعطاني ورقة صغيرة، قرأتها أمامه:(الحفظ، والربانية، والحق، والحقيقة، والعقلانية والروحانية، والشمول، والأدب، والتربية، والجمال)

قلت: ما هذه الكلمات؟.. أتراك كنت تحل الكلمات المتقاطعة؟

قال: لا.. هذه أسوار الكلمات المقدسة التي تحميها من كذب الكذبة الذين يلبسون لباس الكتبة.

قلت: فما الحفظ؟

قال: أن لا يصلك كتاب ربك إلا من الأيدي الطاهرة..

قلت: ولكني لا يمكنني أن أمنعه من الأيدي النجسة.

قال: لا تمنعه منها.. ولكن امنعها من الانفراد به.

قلت: لم؟

قال: لئلا تنجسه.

قلت: لم أفهم سر ذلك.

قال: أرأيت لو انفرد اللصوص والمجرمون ببنك من البنـوك.. ولم يكن معهم رقيب ولا حفيظ.. هل سيتركونه سليما معافى؟

قلت: بل سيسطون عليه لا محالة.

قال: فهذه أموال لا تضر ولا تنفع.. احتاجت كـل أولئـك الحفظـة.. فكيف بالكلمات المقدسة التي تفسر حقيقة الوجود، ومصير الوجود؟

قلت: فهمت هذا، فما الربانية؟

قال: لن يكون الكلام مقدسا حتى يكون ربانيا.

قلت: فما الحق؟

قال: هل ترى في الكون أي عبث أو شيء لا قيمة له؟

قلت: لا.. ليس في مخلوقات ربك عبث.

قال: وليس في كلام ربك عبث ولا لغو ولا باطل.

قلت: فما الحقيقة؟

قال: هي الصدق الذي لا يحتاج برهانا.

قلت: فما العقلانية؟

قال: كلام ربك لا يتناقض مع خلق ربك، وبرمجة ربك.

قلت: فما الروحانية؟

قال: الكلام المقدس هو الذي يجعل روحك مقدسة.

قلت: فما الشمول؟

قال: كلام ربـك يغنيـك عن كلام غـيره.. فيشـفي حاجتـك، ويسـد خلتك.

قلت: فما الأدب؟

قال: هو الذي يرفـع إنسـانيتك عن البهيميـة، ويرفـع حقيقتـك عن المستنقعات.

قلت: فما التربية؟

قال: الكلام المقدس سلم ترتقي به في مراتب الكمال.

قلت: فما الجمال؟

قال: الكلام المقدس يجـذب القلـوب والنفـوس، فتمتلئ بالرفعـة والراحة.

قلت: فكيف أتعلم علوم هذه الأسوار؟

قال: بالصدق.. بالصدق وحـده تصـل إلى الأشـعة الـتي تطـل من شمس الحقيقة.

لست أدري كيف جاءت المضـيفة المشـؤومة لتطلب أوراقـه، ثم ليسير معها، ويتركني في حيرتي، ويترك معي تلك الورقة التي كـانت خريطتي في البحث عن الكلمات المقدسة.

أولا ـ الحفظ

بعد أن وصلنا الإسكندرية، وفي اليوم الأول.. خرجت من البيت أبحث عن مكتبة سمعت عنها كثيرا إبان طلبي العلم.. هي مكتبة خاصة مملوءة بالمخطوطات القيمة، ورثها رجل من أهل الإسكندرية عن أجداده، وقد سمعت أنه رجل لطيف يسمح لكل من قصد مكتبته بالاستفادة منها كما يشاء.. وقد سمعت في نفس الوقت أنه رجل غريب الأطوار.. فلذلك حذرني منه بعضهم قبل رحلتي.

لم أصدق كل ما سمعت.. فذهبت أبحث عن المكتبة حتى وجدتها.

كانت مكتبة رائعة الجمال.. يدل تصنيف الكتب فيها على اهتمام صاحبها بها، وعلى ما له من ثقافة.

كان اسمه المعلق على لافتتها بالبنط العريض يدل على كونه مسيحيا، بل من عائلة عريقة في المسيحية.. وقد كانت المخطوطات التي تمتلئ بها المكتبة دليلا على كون هذه العائلة قد توارثت العلم كابرا عن كابر.

رحب بي صاحب المكتبة شخصيا، وأخبرني باستعداده لدلالتي على أي كتاب أريده، بل دلالتي على الكتب التي أحتاجها، وأنه يكفي أن أخبره عن الموضوع الذي أريد ليدلني على المراجع التي كتبت عنه.

قلت: لا شك أنك قد اطلعت على الكثير من هذه الكتب.

قال: أجل.. إن حياتي كلها مرتبطة بهذه المكتبة.. أنا عاشق لها.. لقد ترك والدي ثروة ضخمة تقاسمها إخوتي.. ورضيت من قسمتي بهذه المكتبة.. قلت لهم: خذوا كل ما تريدون.. دعوا لي فقط هذه الكتب أتنسم عبيرها.

قلت: ومن أين تقتات؟.. أراك تفتح أبوابها للراغبين بالمجان.

قال: من عرف كيف يتغـذى بالكلمـات الطـاهرة لم يحتج إلى أي غذاء.. فللكلمات خلقنا لا للأقوات.

قلت: ذكرتني بقول يوحنا:(في البدء كان الكلمة..)(يوحنا:1/1)

قال: أنت تهتم بالكتاب المقدس إذن.. لقد خصصـت جناحـا كبـيرا في المكتبة للكتب المقدسة جمعت فيه مخطوطاتها وتفاسيرها.

قلت: فدلني عليه.

سار معي إلى ركن جميل.. هو أجمل أركان القاعـة.. وقـال: هـذا هو ركن الكتب المقدسـة.. وقـد سـميته (الكلمـات المقدسـة).. ولا يدخل أحد إلا بإذني، وبعد أن ألمس فيه صدق الطلب.

قلت: فقد لمست في صدق الطلب إذن.

قال: أصدقك بأني قد ارتحت كثيرا لمرآك.. لست أدري.. لعل لي علاقة بك من قديم لا أعرفها..

قلت: أنا لا أعرفك.. ولا أذكر أني رأيتـك من قبـل.. بالإضـافة إلى أني غريب عن هذه البلاد.

قال: لا أقصد علاقتنا هنا.. بل أقصد علاقتنا هناك في العالم الــذي لم تكن معنا فيه أجسادنا.

قلت: لا أذكرشيئا عن ذلك العالم.

قـال: ولا أنـا.. ولكن أحيانـا أتخيـل أني أذكـر أشـياء.. ثم أنسـى.. لست أدري.. دعنا من هذا.. هذا هو ركن الكتب المقدسة.

سرت في الركن.. فوجدت كتبا مقدسة من كل الأديـان.. ولكـني فوجئت بالقرآن الكريم.. وهو يحتل أفضل المواقع وأعلاها..

قلت: أليس هذا هو كتاب المسلمين المقدس؟

قال: بلى.. هو كتابهم المقدس.

قلت: أرى أن لـك اهتمامـا خاصـا بـه.. فـأنت تضـع مصـحفه في محمل خاص بخلاف سائر الكتب.

قال: أصدقك القول.. فمع أني مسيحي.. بل من عائلة عريقة في تدينها بالمسيحية.. بل من عائلة كان الكثـير من أفرادهـا رجـال دين.. إلا أنـه لم يحـظ كتـاب من الكتب بالأهميـة عنـدي كمـا حظي كتـاب المسلمين المقدس.. إني أقرؤه ولا أمل من قراءته.

قلت: لم؟

قال: لست أدري.. كأني أجـده يخـاطبني.. يعرفـني بالعـالم الـذي جئت منه.. والذي نسيته، ولم تبق لي منه إلا ذكريات نسيتها..

قلت: وكتابنا المقدس بعهديه.. أتراك هجرته؟

قال: لا.. ولكني كلما مددت يدي لأقرأ ما فيه كلما وجـدتني أعـود لأحمل كتاب المسلمين لقراءته من جديد.

قلت: لعلك مغرم بالأدب.. فأنت تحب جمال أسلوبه.

قال: ليس هذا فقط.. لقـد تعـاملت مـع نفسـي كمـا أتعامـل مـع الأجنبي.. ورحت أحلل أسرار انجذابي للقرآن وثقتي فيه.. والتي تربو على ثقتي في كتابنا المقدس.

قلت: فما وجدت من هذه الدراسة التحليلية؟

قال: أشياء كثيرة جدا لا يمكنني أن أفصل لك ذكرها هنا.. ولكـني من خلال اهتمـامي بالأسـانيد عـرفت أن القـرآن هـو الكتـاب الوحيـد المحفوظ حفظا صحيحا من بين جميـع الكتب المقدسـة.. وقـد كـان ذلك مثار عجب عندي..

لقد ظللت أقول لنفسي: لو كان هذا الكتاب كاذبا على الله، فهـل يأذن الله بحفظه بهذه الصورة العجيبـة.. لكـأن الكـون كلـه خرسـانة مسـلحة حمي بهـا هـذا الكتـاب.. فلم يجـرؤ جميـع اللصـوص على

الاقتراب منه.

قلت: كيف عرفت ذلك؟.. إن البحث في هذا ليس بالسهولة التي تتصورها.

قال: أجل.. ولكن الله يسر لي هذه المكتبة الضخمة التي ترجع الكثير من نسخها إلى القرون المتطاولة.. وقد بحثت فيها، فوصلت إلى الحقيقة التي ذكرتها لك.

قلت: فهل ستفصل لي خلاصة ما وصلت إليه؟

قال: إن لم يشغلك ذلك عما جئت من أجله.

قلت: لا.. لعلي لم أحضر إلا لأجل هذا.

قال: ألم أقل لك: كأني أعرفك.. لقد مررت في يوم من الأيام بنفس الحالة التي تمر بها.. لكني لا أجرؤ على قول شيء.. لأني لا أكاد أذكر شيئا.

***

اتخذنا مجلسا صالحا في [ركن الكلمات المقدسة]، وراح يحدثني عن نتائج ما قام به من بحث حول تميز القرآن الكريم.

قال: أول ما شدني إلى القرآن أنه الكتاب المقدس الوحيد الذي حفظ من أي تغيير وتبديل.. بل هو الكتاب الوحيد الذي لا يزال يقرأ باللغة التي نزل بها.. بل بنفس مخارج الحروف التي كان ينطق بها محمد.. بل إن المسلمين لا يكتفون بحفظه مكتوبا كما نحفظ كتبنا، بل يضمون إليه حفظه في صدورهم.. حتى الأعاجم منهم يحفظونه.

قلت: وما الذي شدك إلى هذا؟

قال: شدني إلى هذا مقارنتي له بما تعامل به قومي وقومك مع كتبنا المقدسة.. لقد أهانوا قداستها بما أوقعوا فيها من تحريفات.

قلت: أنت مسيحي، وتقول بوقوع التحريف في كتبنا؟

قال: أنا مسيحي نعم.. ولكني مع ذلك إنسان عاقل.. يستعمل عقله.. ولا يمكنني أن ألغي عقلي.. ولا أرى أن مسيحيتي تتنافى مع استعمالي لعقلي.. لقد قمت بدراسة لكتبنا المقدسة من ناحية مدى الوثوق فيما دون فيها، وقد خرجت بنتائج مذهلة.

قلت: فما الذي خرجت به؟

قال: لقد عرفت أن الحفظ بمعناه الحقيقي الكامل لم يتحقق في كتبنا، ولا في كتب اليهود التي نستمد منها، ولا في أي كتاب من الكتب التي تملأ أرجاء هذه القاعة، ما عدا كتاب المسلمين.. لقد أضيفت كتب كثيرة، وكلام كثير للكتب المقدسة جعلنا لا نستطيع التمييز بين المقدس منها وغير المقدس.

وقد ذكر كتاب المسلمين المقدس هذا، بل ذكر علله النفسية والاجتماعية، فقال:{ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ} (البقرة:79)

بل وصف طريقة تلاعبهم بالكتاب وصفا دقيقا، فقال:{ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} (آل عمران:78)

لقد مارس كثير من رجال الدين الذين امتلأوا بحب الدنيا هذه التجارة الرخيصة، تجارة التلاعب بالكتب المقدسة.

قلت: وكتاب المسملين؟

قال: لقد توفرت ظروف كثيرة لكتاب المسلمين جعلته محفوظا حفظا تاما لا يزاد فيه حرف واحد، ولا ينقص منه حرف واحد.

أذكر أني قرأت عن أحد صحابة محمد.. هو عالم من علمائهم

الكبار.. يقول متوجها للذين استهواهم ما في كتبنا من قصص:(يا معشر المسلمين، كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء، وكتابكم الذي أنزل الله على نبيه، أحدث أخبار الله تقرؤونه محضًا لم يشب؟ وقد حَدَّثكم الله تعالى أن أهل الكتاب قد بدلوا كتاب الله وغيروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا: هو من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلا؛ أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مُسَاءلتهم؟ ولا والله ما رأينا منهم أحدًا قط سألكم عن الذي أنزل إليكم)[1]

لعل العناية الإلهية التي وعدت بحفظه جعلته بمنأى عن كل ما لحق بكتبنا من تحريفات..

أخذ مصحفا، وفتحه على مواضع محددة، وقال: اسمع.. إن إله المسلمين يعد بحفظ كتابه وعدا جازما، وهو ما تخلو منه كتبنا.. اسمع إليه، وهو يقول:{ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} (الحجر:9)ـ بل هو يخبر بأن هذا الكتاب الذي أحمله لن يزاحمه أي باطل قدسيته، اسمع إليه:{ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} (فصلت:41 ـ 42)

بل هو يخبر أن مهمة جمعه تعود إليه، فيقول:{ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ} (القيامة: 17)

إن هذه الآيات وحدها تحمل إعجازا عظيما.. إنها تتحدى كل تلك الجيوش التي جيشت لتحريف هذا الكتاب أو تبديله أو محوه.

قلت: إن استنتاجك هذا يستدعي أدلة كثيرة..

قال: سأذكرها لك.. ولكن قبل أن نتحدث عن ذلك.. أو لنفهم ذلك.. فلنرجع إلى كتابنا المقدس الذي دنسته أيادي المحرفين.

لقد ذكرت لك أن كتاب المسلمين يحوي الوعد بحفظه، وأنه لن يصيبه سوء..

---

(1) رواه البخاري.

قلت: أجل.. لقد قرأت لي منه ما يدل على ذلك.

قال: وهذا ما تخلو منـه كتبنـا المقدسـة.. فهي لا تحـوي أي دلالـة على أنها ستحفظ من التغيير والتبديل.. بل قد نص كتـاب المسـلمين على أن مهمة حفظ هذه الكتب كانت موكولة إلى رجال الدين الـذين استهواهم الطمع، فراحوا يبدلون ويغيرون.

اسمع ما يقول كتاب المسلمين..

فتح المصحف، وراح يقرأ:{ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُـدىً وَنُـورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْـتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَـاتِي ثَمَنـاً قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَـا أَنْـزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَـافِرُونَ} (المائدة:44)

ثم أغلق المصحف، وقال: لطالما شـدت هـذه الآيـة انبتـاهي.. إن قرآن المسلمين يحمـل احترامـا كبـيرا للكتب المقدسـة.. إنـه يصـف التوراة بأن فيها هدى ونور.. ولكن هذا الاحترام لا يحول بينه، وبين أن يذكر ما حصل فيها من تحريف..

وهـو يحلـل أسـباب ذلـك في أمـرين: أشـار إلى الأول منهمـا في قوله:{ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ }

وأشار إلى الثاني في قوله:{ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً }

إنهما سببان خطيران.. أو مرضان قاتلان: الرغبة والرهبة.. الرغبة في المتاع القليل.. والرهبة من العناء القصير..

قلت: دعنا من كتاب المسلمين.. ولنرجع إلى كتابنا.

قال: مما ينقضي دونه العجب أن كتابنا المقدس نفسه يحوي هذه الحقيقة.. فهو لا يحمل أي وعد بحفظ ما فيه.. بل هو يخـبر أن حفـظ ما فيه كان موكولا لناس معينين ذوي أنساب معينـة.. وهـذا مـا أتـاح لهم أن يتلاعبوا به كما يشاءون.

انتظر.. سوف آتيك بشهادات كثيرة تثبت ما أقول.

ذهب إلى رف من الرفوف.. وحمل نسخة من الكتاب المقـدس.. وقال: اسمع ما يقول:(أَمَرَ مُوسَى اللاوِيِّينَ حَامِلِي تَابُوتِ عَهْـدِ الـرَّبِّ: (خذوا كتاب التوراة هذا وضعوه بجانب تابوت عهد الرب إلهكم ليكون هناك شاهدا عليكم. لأني أنا عارف تمردكم ورقابكم الصلبة. هوذا وأنا بعـد حي معكم اليـوم قـد صـرتم تقـاومون الـرب فكم بـالحري بعـد مـوتي! اجمعـوا إلي كـل شـيوخ أسـباطكم وعرفـاءكم لأنطـق في مسامعهم بهذه الكلمات وأشهد عليهم السـماء والأرض. لأني عـارف أنكم بعد مـوتي تفسـدون وتزيغـون عن الطريـق الـذي أوصـيتكم بـه ويصيبكم الشر في آخر الأيام لأنكم تعملـون الشـر أمـام الـرب حـتى تغيظوه بأعمال أيديكم) سفر التثنية (31: 25-29)

ثم أغلق الكتاب، وقال:كيف ترى موسى، وهو يردد هذا الكلام؟

قلت: كأني أراه حزينا متأسـفا على حـال قومـه.. وهـو في نفس الوقت خائف من تلاعبهم بالرسالة التي جاء بها، وبالألواح التي أنزلت عليهم.

قال: أجل.. لقد غاب عنهم أربعين يوما فقط، ومع ذلك لم يصبروا على التغيـير والتبـديل.. بـل راحـوا يعبـدون العجـل الـذي صـنعه لهم السامري.. ومع أن هارون كان معهم إلا أنه لم يكن ليفعل شيئا أمـام ما جبلوا عليه من تمرد..

التـوراة تـذكر هـذا.. والقـرآن يـذكره [1].. ولكن اسـمع لقـرآن المسلمين، فهو يصور هذا التغيير تصويرا جميلا..

فتح المصحف، وأخذ يقرأ بتدبر وخشوع:{ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى}(طه: 83) الله يخاطب موسى في جبل الطور عند المناجاة.

ويذكر الله ما أجاب به موسى، فيقول:{ قَالَ هُمْ أُولَاء عَلَى أَثَـرِي

---

(1) ولكن الفرق بينهما عظيم فالتوراة تجعل هارون هو الذي قام بدور السامري كما في سفر الخروج (32/1-7)

وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى } (طه:84).. فيجيبه الله:{ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ } (طه: 85).. وحينذاك يرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا على سرعة تغيرهم.. اسمع:{ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي }(طه: 86)

لكن كبرياءهم وصلافتهم جعلتهم لا يبالون بغضب موسى، ولا بما يقولون، بل يردون عليه قائلين:{ مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ }(طه: 87 ـ 88)

هؤلاء هم بنو إسرائيل.. فهل تتصور أنهم سيحفظون ما أؤتمنوا عليه من كتاب؟

قلت: إن ألم موسى يبدو جليا في وصيته.. وكأنه يحاول أن يجد حيلة يحفظ بها كتابه من التغيير.. إنه يأمر بحفظه في تابوت العهد.. ثم يأمر بقراءته على بني إسرائيل، لعل فيهم من يحفظه، ويورث حفظه.. ولكنه في نفس الوقت يعلم أنه سيأتي اليوم الذي يغيرون فيه كتابهم.. بل يرى أن ذلك اليوم قريب جدا.. لقد قال لهم:(لأني عارف أنكم بعد موتي تفسدون وتزيغون عن الطريق الذي أوصيتكم به ويصيبكم الشر في آخر الأيام لأنكم تعملون الشر أمام الرب حتى تغيظوه بأعمال أيديكم)

فتح الكتاب المقدس، ثم قال: بل إن موسى يردد هذه الوصية كثيرا.. فهو يعلم ما سيلحق كتابه.. اسمع ما يقول:(لا تزيدوا على الكلام الذي أنا أوصيكم به ولا تنقصوا منه لتحفظوا وصايا الرب إلهكم التي أنا أوصيكم بها)(التثنية: 4/ 2)

صمت قليلا، ثم قال: ليس موسى وحده من قال هذا.. كل الأنبياء تحدثوا عن هذا..

اسمع ما يقول النبي إرميا:(فقال الرب لي.بالكذب يتنبأ الأنبياء

باسمي.لم أرسلهم ولا أمرتهم ولا كلمتهم.برؤيا كاذبة وعرافة وباطــل ومكر قلوبهم هم يتنبأون لكم) (إرميا: 14:14)

وهو يقـول:(الأنبيـاء يتنبـأون بالكـذب والكهنـة تحكم على أيـديهم وشعبي هكذا أحب.وماذا تعملون في آخرتها)(إرميا:5: 31)

قلت: ولكن يا سيد.. ليست هناك أمة خلت من المتنبـئين الكذبـة حتى ما ذكرت عن المسلمين قد ظهـر فيهم كثـير من المتنبـئين بعـد محمد.

قال: نعم.. لقد ظهر فيهم مسـيلمة، والأسـود، وطلحـة، وغـيرهم كثير.

قلت: فلم تشنع علينا؟

قال: هل رأيت في كتاب المسلمين سفرا أو سـورة أو حـتى آيـة لمسيلمة أو للأسود، أو لطلحة؟

قلت: لا.. حـــتى أن المســـلمين يطلقـــون على مســـيلمة لقب الكذاب.

قال: وهذه ميزتهم.. فكتابهم لم يخـترق من الأنبيـاء الكذبـة.. نعم ظهر أدعياء حاولوا أن يخترقوا كلام نبيهم، ولكنـه لم يجـرؤ أحـد على أن يخترق كتاب ربهم.

لكن بني إسرائيل اخترقوا الجميـع.. اسـمع إلى أرميـا:(أمـا وحي الرب فلا تذكروه بعد لان كلمة كل إنسان تكـون وحيـه إذ قـد حـرّفتم كلام الإله الحي رب الجنود إلهنا) (إرميا: 23: 36)

وهو يقول:(هكذا قال رب الجنود لا تسـمعوا لكلام الانبيـاء الـذين يتنبـأون لكم.فـانهم يجعلـونكم بـاطلا.يتكلمـون برؤيـا قلبهم لا عن فم الرب)(إرميا: 23 /16)

وهو يقول:(لم أرسل الأنبياء بل هم جـروا.لم أتكلم معهم بـل هم

تنبأوا) (إرميا: 23 /21)

فمن هم هؤلاء الأنبياء؟.. ولو كـانوا جميعـا قـد تنجسـوا.. جميعـا.. فكيف تصدقونهم!؟

وهو يقول:(لأن الأنبياء والكهنة تنجسوا جميعا بل في بيتي وجدت شرهم يقول الرب)(إرميا: 23 /11)

وهو يصرح بكـل ألم قـائلا:(كيـف تقولـون نحن حكمـاء وشـريعة الرب معنا.. حقا إنه إلى الكذب حوّلها قلم الكتبة الكاذب) (إرميا: 8: 8)

ألا ترى هذا النص صريحا في وقـوع التحريـف.. إن إرميـا هنـا هـو المتحدث لا رحمة الله الهندي، ولا ديدات.. إنه يخبرنا بالحقيقة المــرة التي لا نجرؤ على التصريح بها..

قلت: لا.. يا صاحبي.. هو لا يقصد هذا.. هـو يقصـد ذلـك التحريـف المعنوي الذي لحق الكتاب المقدس.

قال: لا.. إنه يتحدث عن أقلام الكتبة.. هـو يتحـدث عن الكتبـة، ولا يتحـدث عن المـؤولين.. هـو يتحـدث عن الكتبـة المختصـين بالنقـل والنسخ.. فهم الذين غيروها وبدلوها وحرفوها وحولوها إلى الكذب.

بل هو يصرح بالسبب الذي ذكـره القـرآن.. وهـو الرغبـة.. اسـمع إليـه، وهـو يقـول:(لأنهم من صـغيرهم إلى كبـيرهم كـل واحـد مولـع بالربح ومن النبي إلى الكاهن كل واحد يعمل بالكذب)(إرميا:6: 13)

ليس إرميا وحده الذي صـرح بـه.. اسـمع مـا جـاء في المزامـير: (اليوم كله يحرفون كلامي.عليّ كل افكارهم بالشر) (مزمور:56/ 5)

واسمع ما جاء في (حزقيال):(ستاتي مصيبة على مصيبة.ويكــون خبر على خبر.. فيطلبون رؤيا من النبي.. والشـريعة تبـاد عن الكـاهن والمشورة عن الشيوخ) (حزقيال:7 / 26)

واسمع ما يقول إشعيا:(ويل للذين يقضون أقضية الباطل وللكتبة الذين يسجلون جورا ليصدوا الضعفاء عن الحكم ويسلبوا حق بائسي شعبي لتكون الارامل غنيمتهم وينهبوا الايتام) (إشعياء:10 /1-2)

إن إشعيا يتحدث عن المطامع التي جرت القضاة والكتبة إلى التحريف.. إنه يتحدث عن بيع كتاب الله بثمن بخس كما قال كتاب المسلمين.

بل هو يصرح بذلك قطعا لكل تأويل، فيقول:(ويل للذين يتعمقون ليكتموا رأيهم عن الرب فتصير اعمالهم في الظلمة ويقولون من يبصرنا ومن يعرفنا. يا لتحريفكم. هل يحسب الجابل كالطين حتى يقول المصنوع عن صانعه لم يصنعني. أو تقول الجبلة عن جابلها لم يفهم)(إشعياء: 29 /15-16)

وهو يقول:(ويل للبنين المتمردين يقول الرب حتى انهم يجرون رأيا وليس مني ويسكبون سكيبا وليس بروحي ليزيدوا خطيئة على خطيئة) (إشعياء: 30 /1)

حفظ الكتاب المقدس

قلت: سمعت هذه النصوص.. ولكني مع ذلك لا أستطيع أن أكتفي بها للدلالة على وقوع التحريف، أنا إنسان عاقل، ويغلب علي الحس.. ولا يكفيني الكلام المجمل الذي قد يساء فهمه.

قال: لن تجد عندي إلا ما يرضيك.. فأنا مثلك تماما.. ألم أقل لك بأن معرفة بيننا كانت؟.. ولكني نسيت أين ومتى..

لقد دفعتني هذه النصوص للبحث.. لقد جعلت الكتاب المقدس مادة للبحث من هذه الناحية.

قلت: فماذا وجدت؟

قال: ثلاثة أنواع من التحريف، لا يصيب واحد منها كتابا إلا رفع

الثقة عنه.

قلت: فما هي؟

قال: الزيادة، والنقصان، والتبديل.

قلت: وهل حفظ كتاب المسلمين من هذه التحريفات؟

قال: أجل.. وسنبحث معا في هذا الركن من المكتبة لترى بعينيـك صدق ما رأيته.

1 ـ الزيادة:

قلت: فلنبدأ بأول التحريفات.. وهو الزيادة.

قال: لا يصح نسبة القدسية إلى كتاب إلا إذا ثبت بالـدليل القـاطع أن هذا الكتاب منسوب للنبي الذي جاء به.. فالكتب المقدسة تسـتمد قدسيتها من نسبتها إلى الله.. فلذلك يؤثر فيها كل تـدخل بشـري قـد يغير ما أراد الله أن يقوله لنا.

قلت: ألم يتحقق هذا في كتبنا؟

قال: لا.. لقد ذكرت لك أن كتاب المسلمين أشـار إلى هـذا النـوع من التحريف، فقال:{ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُـونَ الْكِتَـابَ بِأَيْـدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُـونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْــلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ }(البقرة: 79)

وهو ما أشار إليه إرميـا قبـل ذلـك بقولـه:(وأقـاوم الأنبيـاء الـذين يسخرون ألسنتهم قائلين: الـرب يقـول هـذا. هـا أنـا أقـاوم المتنبـئين بأحلام كاذبة ويقصونها مضلين شعبي بأكاذيبهم واستخفافهم) (إرميــا: 23 /31 ـ 32)

قلت: إن رفوف المكتبة تمتلئ بنسخ الكتاب المقدس.. فلنحــاول التأكد من هذا.. أنا لا تكفي لإقناعي الأحكام العامة.

قال: أنا مثلك تماما.. لقد أخبرتك أني أعرفك.. لكن أين..

قلت: الكتاب المقدس قسمان: العهد القديم، والعهد الجديد، فهل دخل التحريف بالزيادة كلا القسمين.

العهد القديم:

قال: أجل.. ولنبدأ **بالعهد القديم**.. ولنبدأ القصة من أولها..

قلت: أجل.. فلن يفهم آخر القصة إلا بمعرفة أولها.

قال: فلنبدأ بالسند من أوله.. لقد نزلت التوراة على موسى.. وكان ينبغي أن يحفظها جميع بني إسرائيل لتنقل إلينا بعد ذلك بالتواتر كما حفظ جميع المسلمين قرآنهم، ونقلوه إلينا بالتواتر.

قلت: ألم يحصل ذلك؟

قال: لا.. لم يسلم موسى التوراة إلى بني إسرائيل.

قلت: لم؟

قال: لقد كان يخاف من اختلافهم من بعده في تأويلها.. لقد ذكرنا ما جاء في سفر التثنية أن موسى قال لبني إسرائيل:(خذوا كتاب التوراة هذا، وضعوه بجانب التابوت عهد الرب إلهكم ليكون هناك شاهداً عليكم لأني أنا عارف بتمردكم ورقابكم الصلبة، هو ذا أنا بعد حي معكم اليوم قد صرتم تقاومون الرب فكم بالحري بعد موتي) (سفر التثنية:24:31)

قلت: فمن تكفل بحفظ التوراة من بني إسرائيل؟

قال: لقد سلمها موسى إلى كهنة بني لاوي، فهم حاملو تابوت عهد الرب، كما في (سفر التثنية:9/31)

قلت: فهل حافظ بنو لاوي على الثقة التي وضعها موسى فيهم؟

قال: يؤكد المؤرخون أن التوراة ظلت صحيحة في أيدي اليهود لم

يغـيروا منهـا حرفـاً واحــداً إلى زمن الأســر البـابلي عنــدما حــاربهم نبوخذنصر ملك بابل عام 588 ق.م تقريباً فقام بـدك أسـوار القـدس وأحرق المدينة والهيكل بعد أن أخـذ منـه التـابوت، وتتبـع الهـارونيين، وسـائر الكهنــة فقتلهم، ثم سـبى اليهــود جميعــاً إلى بابــل مقيــدين بالسلاسل، ولم يترك فيها إلا شرذمة قليلة.

وفي هذه الحادثة انعدمت التوراة وسائر أسفار العهد القديم التي كانت مصنفة.

رأى استغرابي، فقال: لا تستغرب.. فنحن واليهود نقر بذلك.. لقـد قتل جميع الهارونيين الذين كانوا يحفظـون التـوراة، ولم تكن التـوراة محفوظة على ألسنة بني إسـرائيل، فضـاعت وانـدثرت كمـا انـدثرت أمتهم، وتشتت بين نهري دجلة والفرات ومـا حولهـا، فـذابوا بين تلـك الشعوب وعبـدوا آلهتهم، واسـتمر هـذا النفي إلى عـام 583ق.م، ثم عاد كثير منهم إلى فلسطين، فأعادوا بناء المدينة والهيكل.

قلت: لا يهمنــا الهيكــل ولا المدينــة.. مــاذا حصــل للتــوراة؟ هــل استعادوها؟

قال: في عام 458ق.م عاد عزرا إلى القدس، ومعـه جماعـه من الكتبة اللاويين، وكان أول ما اهتموا به هو كتابة التوراة.

قلت: كيف.. وقد ضاعت؟

قال: لقد قام عزرا بجمع أسـفار التـوراة مـرةً أخـرى، فجمـع من محفوظاته، ومن الفصـول الـتي يحفظهـا الكهنـة مـا لفـق منـه هـذه التوراة التي بأيديهم، ولذلك بالغوا في تعظيمه غاية المبالغة، وزعمــوا أن النور على الأرض إلى الآن يظهر على قبره.

قلت: والتــوراة الــتي كتبهــا موســى.. أي النســخة الأصــلية من التوراة؟

قال: لم يعد لها أي أثر.

قلت: فأين ذهبت؟

قال: هذا ما لا يجد له أحد جوابا.

قلت: أليس من الممكن أن يكون عزرا والكتبة قد أعادوا التــوراة كما هي بنسختها الأصلية؟

قال: لقد وضعت هذا الاحتمال.. ولكني ببحث بسـيط يعتمـد على الحس وحده عرفت استحالة ذلك.. لقد تضخمت التوراة كثيرا مقارنة بالتوراة التي أنزلت علي موسى.

أخذ نسخة من التوراة كانت بجانبه، وقال: انظر.. هذه هي التوراة بأسفارها الخمسة.. فهي تملأ 379 صفحة بالحروف الصغيرة.

قلت: وما في ذلك؟

قال: لو ذهبنا نبحث عن عدد صفحات النسخة الأصلية من التوراة لم نجد هذا العدد.

قلت: لقد ذكرت أنها ضاعت، فكيف عرفت عدد صفحاتها؟

قال: ذلك يسير.. فقد ورد في صفتها ما يبين حجمها.. يذكر سـفر الخروج (24: 12)، أن موسى تلقي التوراة مكتوبة على لوحين من حجـر، وهـذا نص مـا ورد:(وقـال الـرب لموسـى: اصـعد إلى الجبـل وامكث هناك لأعطيك الوصايا والشرائع التي كتبتها على لوحي الحجر لتلقنها لهم)

ويـذكر سـفر الخـروج أيضـا في (32:ـ 15):(ثم نـزل موسـى وانحدر من الجبل حاملا في يده لـوحي الشـهادة، وقـد نقشـت كتابـة على وجهي كل منهمـا، وكـان اللـه قـد صـنع اللـوحين ونقش الكتابـة عليهما)

وقد نص كتاب المسلمين على هذا، فقد ورد فيه:{ وَكَتَبْنَـا لَـهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِـيلاً لِكُـلِّ شَـيْءٍ فَخُـذْهَا بِقُـوَّةٍ وَأْمُـرْ

قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ}(لأعراف:145)

وورد فيه:{ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}(لأعراف:150)

قلت: لا مانع عقلاً من أن يكون اللوحان اللذان كتبت عليهما التوراة من العظم والاتساع، بحيث يملأ المسطر عليها 379 صفحة من الورق كما نراها الآن.

قال: ولكن التوراة نفسها تدفع هذا الاحتمال حين تحدد حجم اللوحين بالتابوت الذي أمر الله موسى أن يصنعه ويحفظ فيه التوراة، فقد جاء في سفر الخروج (25: 10، 16):(تابوتاً من خشب طوله ذراعان ونصف وعرضه ذراع ونصف وارتفاعه ذراع ونصف، وتضع في التابوت الشهادة التي أعطيك)

قلت: ألا يمكن أن يكون ما كتب على اللوحين، بلغت حروفه حداً من الصغر، بحيث إذا نقلت كلماته على الورق، ملأت صفحات عديدة.. فنحن نرى الآن القرآن كتاب المسلمين يكتب في صفحة واحدة لا تزيد كثيراً عن ذراع في ذراع.

قال: يمكن ذلك.. ولكن التوراة نفسها تدفع هذا الاحتمال حين تحدد لنا الزمن الذي يستغرقه كتابتها وقراءتها، بحيث لا يبقى لدينا أدنى شك في تقدير حجمها، وأنها لا تزيد عن كلمات لا تملأ أكثر من بضع ورقات.. يقول كاتب سفر التثنية(31:ـ 9):(وكتب موسى كلمات هذه التوراة وسلمها للكهنة بني لاوي حاملي تابوت عهد الرب وإلى سائر شيوخ بني إسرائيل. وأمرهم موسى قائلا:(في ختام السبع السنوات، في ميعاد سنة الإبراء من الديون، في عيد المظال عندما يجتمع جميع الإسرائيليين للعبادة أمام الرب إلهكم في الموضع الذي يختاره، تتلون نصوص هذه التوراة في مسامعهم)

قلت: ولكن.. أليس من الجائز أن يكون موسى قد تلقى مع

اللوحين نصوصا أخرى، وأن المجموع هو ما يطلق عليه التوراة؟

قال: وضعت هذا الاحتمال.. لكني وجدت نصوصا تنفيـه، فقـد ورد في سفر الملوك الأول (8:ـ 9) أن سليمان حين نقـل التـابوت إلى المعبد الذي بناه، لم يكن فيه سـوى اللـوحين، وهـذا نصـه:(وَلَمْ يَكُنْ فِي التَّابُوتِ سِوَى لَـوْحَيِ الْحَجَـرِ اللَّذَيْنِ وَضَـعَهُمَا مُوسَـى فِي حُـورِيبَ حِينَ عَاهَدَ الرَّبُّ أَبْنَاءَ إِسْرَائِيلَ بَعْدَ خُرُوجِهِمْ مِنْ دِيَارِ مِصْرَ)

قلت: فقد استدللت بالحجم إذن على الزيادات الـتي حصـلت في التوراة؟

قال: لا.. ليس بالحجم الحسي وحده.. بل بحجم المضمون أيضا.. فالتوراة تعين لنا على لسان موسى قبل موته مضمونها، وأنها عبــارة عن الوصايا العشر، وأنها فقط مـا كتب في اللـوحين:(ودعـا موسـى جميع إسرائيل، وقال لهم: اسمع يا إسرائيل الفرائض والأحكـام الـتي أتكلم بها في مسامعكم اليوم وتعلموها واحترزوا لتعملوها، فقال: أنــا هو الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية، لا يكن لك آلهة أخرى أمامي، لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً.. لا تنطق باسم الرب إلهك باطلاً.. لا تقتل، ولا تزن، ولا تسرق، ولا تشـهد على قريبـك زور، ولا تشته امرأة قريبـك، ولا تشـته بيت قريبـك ولا حقلـه ولا عبـده ولا أمته ولا ثوره ولا حمـاره ولا كـل مـا لقريبـك، هـذه الكلمـات كلم بهـا الرب كل جماعتكم في الجبـل من وسـط النـار والسـحاب والضـباب وصوت عظيم ولم يزد، وكتبها على لوحين من حجر وأعطاني إياهـا) (تثنية:5: 1، 22)

رأى صمتي، فقال: أعلم أنك لم تقتنع بعد.. يحـق لـك ذلـك.. أنت مثلي.. من الصـعب إقناعـك بشـيء.. ومـع ذلـك فسـأذكر لـك مـا لا يمكنك دفعه.

أجبني.. أرأيت لو أن مؤلفا من القرن العاشـر ألـف كتابـا يتحـدث فيه عن أحداث القرن الحادي عشر.. هل تجزم بتصديق نسبة الكتاب إلى صاحبه.

قلت: لا.. ولا أظن عاقلا يمكن أن يصـدق نسـبة هـذا الكتـاب إلى صاحبه.

قال: فقد حصل هذا في التوراة.. إنها ـ بكل أسف ـ تـذكر أحـداثاً حصلت بعد وفاة موسى في سيناء.. اسمع..

فتح التوراة، وأخذ يقـرأ:(وأكـل بنـو إسـرائيل المن أربعين سـنة، حـتى جـاءوا إلى أرض عـامرة، أكلـوا المن حـتى جـاءوا إلى أرض كنعان)(خروج: 16/35)

أتدري متى جاءوا إلى أرض كنعان؟

قلت: أجل.. بعد وفاة موسى حين دخلـوا الأرض المقدسـة، وقـد أشار إلى ذلك سفر يشـوع، فقـد جـاء فيـه:(فحـل بنـو إسـرائيل في الجلجال.. في عربـات أريحـا، وأكلـوا من غلـة الأرض.. وانقطـع المن في الغد عند أكلهم من غلة الأرض)(يشوع 5/10 - 12)

قال: فكيف يتحدث موسى عن أمر حدث بعد وفاته؟

قلت: أليس من الممكن أن يكون إخباراً بالغيب؟

قال: لا.. لقـد جـاء بصـيغة الخـبر الماضـي، وهي بصـيغ التـأريخ لا بصيغ النبوءات.. وأنت تعرف صيغ النبوءات في الكتاب المقدس.

صمت، فقال: ليس ذلك فقط.. اسـمع مـا جـاء في سـفر العـدد، فإن كاتبه يشعرك أنه قد كتبه بعد جلاء بني إسرائيل من بريـة سـيناء ودخولهم فلسطين فهو يقـول:(ولمـا كـان بنـو إسـرائيل في البريـة، وجدوا رجلاً يحتطب في السبت)(العـدد 15/32) فالكـاتب ليس في البرية حتماً.. مع أن موسى كان قد مات في البرية قبل دخول الأرض المقدسة.

ليس هذا فقط.. اسمع ما ورد في التثنية:(وسـكنوا مكـانهم كمـا فعل إسرائيل بأرض ميراثهم التي أعطاهم الرب)(التثنية: 2/12)

ألا يدل هذا على أن الكاتب قد أدرك دخول بــني إســرائيل الأرض المقدسة، وهو ما حصل بعد وفاة موسى؟

واسمع ما جاء في سفر التكوين ـ الـذي من المفـترض أن يكـون كاتبه موسى ـ:(اجتاز أبرام في الأرض إلى مكان شـكيم إلى بلّوطـة مورة. وكان الكنعانيون حينئذ في الأرض (فلسطين))(التكوين 12/5 - 6)

ألا تــرى أن الكــاتب قــد أدرك خــروج الكنعــانيين من الأرض بعــد دخول بني إسرائيل، وذلك ـ حتما ـ ليس موسى؟

واسمع ما يقول نفس السفر:(وكان الكنعانيون والفرزّيون حينئـذ ساكنين في الأرض)(التكوين 13/7).. واسمع:(وهـؤلاء هم الملـوك الذين ملكوا في أرض أدوم قبلما ملكَ مِلِكٌ لبني إسـرائيل)(التكـوين 36/31)

فالكــاتب لا يتحــدث عن دخــول بين إســرائيل الأرض المقدســة، فحسب .. بل يتحدث عن عهد الملكية الذي كان بعـد موسـى بأربعـة قرون.

التفت إلي، فرآني صامتا، فقال: هل سمعت كاتبا يخبر عن وفاتـه والمحل الذي دفن فيه.

قلت: يمكن أن يكون ذلك في حالـة واحـدة.. وهي أن يكـون قـد كتب كتابه بعد وفاته..

قـال: فاسـمع هـذا الخـبر الـذي ورد في أسـفار موسـى، والـتي يفترض أن يكون كاتبها هو موسى:(فمات هنـاك موسـى عبـد الـرب في أرض مؤاب حسب قول الرب، ودفنه في الجواء في أرض مؤاب مقابـل بيت فغـور، ولم يعـرف إنسـان قـبره إلى هـذا اليـوم، وكـان موسى ابن مائة وعشرين سـنة حين مـات، ولم تكـل عينـه ولا ذهبت نضارته، فبكى بنو إسرائيل في عربات مؤاب ثلاثين يوماً، فكمُلت أيام بكاء مناحة موسى)(التثنية 34/5 - 8)

ألا ترى أن النص يتحدث عن الماضي البعيـد؟.. إنـه ليس نبـوءة.. فهو لا يخبر عن المستقبل.. وليست هناك أي دلالة على ذلك.

كان ينظر إلي، ويتفرس في مـدى تـأثير أدلتـه على وجهي، قـال: أجبني.. لو جاءك رجل بمخطوطة تتحدث عن التلفزيون.. وقـال لـك: إنها من القرن العاشر.. هل تراك تصدقه.. أم تجعل وصف التلفزيون فيها دليلا على أنها مخطوطة مزورة.

قلت: بـل أعتبرهـا مـزورة.. إلا إذا أثبت لي بالسـند الصـحيح، أو بالدليل العلمي القوي أنها من القرن العاشر.. وحينذاك أعتبرها نبوءة لا خبرا.

قال: فإذا لم يأتك بأي من االأمرين.. بل كان في المخطوطـة مـا يدل على أنها كتبت في قرنك، لا في القرن العاشر.

قلت: حينـــــذاك لا يبقى إلا أن أواجهــــه بالجقيقـــــة، وهي أن المخطوطة مزورة.

قال: هـذا نفسـه مـا حـدث للتـوراة.. فقـد ذكـرت أسـماء كثـيرة لمسميات لم يعرفهـا بنـو إسـرائيل إلا بعـد موسـى، ولم تسـم بهـذه الأسماء إلا بعد قرون من وفـاة موسـى.. وسأضـرب لـك أمثلـة على ذلك.

جـاء في سـفر التكـوين:(ثم رحـل إسـرائيل ونصـب خيمتـه وراء مجدل عدر) (التكوين:35/21) وهذا اسم لمنارة في هيكـل سـليمان بنيت بعد موسى بأربعمائة سنة.

وجاء في نفس السـفر:(وتبعهم إلى دان)(التكـوين 14/14) مـع أنها سميت بهذا الاسم في عهد القضاة، أي بعد موسى بما يربو على مائة سنة، كما ورد في سفر القضاة:(وجاءوا إلى لايش.. ودعوا اسم المدينة دان، باسم دان أبيهم)(القضاة: 18/27 - 29)

التفت إلي، فرآني صامتا، فقال: قد تتهمني في بحثي.. وقـد تظن

أن هنـاك أجوبـة على مـا طرحتـه من إشـكالات.. لا.. لـدي شـهادات كثيرة على ما أقول.

قام إلى المكتبة، وأخذ مخطوطا، وقال: لعـل من أولهـا مـا كتبـه ابن عـزرا، وهـو الحـبر اليهـودي الغرنـاطي (تـ 1167م) فقـد ألغـز ملاحظته فقال في شرحه لسفر التثنيـة:(فيمـا وراء نهـر الأردن.. لـو كنت تعرف سـر الإثـني عشـر.. كتب موسـى شـريعته أيضـاً.. وكـان الكنعاني على الأرض.. سيوحي به على جبل الله.. هـا هـوذا سـريره، سرير من حديد، حينئذ تعرف الحقيقة)

قلت: ولكن ابن عزرا لم يصرح بشيء..

قـال: هـو لم يجـرؤ على التصـريح.. ولكن إلغـازه لا يشـير إلا إلى ذلك.. ولهذا فسر اليهودي الناقد اسبينوزا قول ابن عزرا بأنه أراد بـأن موسى لم يكتب التوراة لأن موسى لم يعبر النهـر، ثم سـفر موسـى قـد نقش على اثـني عشـر حجـراً بخـط واضـح، فحجمـه ليس بحجم التوراة، ثم لا يصح أن تقول التوراة بأن موسى كتب التوراة، ثم كيف يذكر أن الكنعـانيين كـانوا حينئـذ على الأرض؟، فهـذا لا يكـون إلا بعـد طـردهم منهـا، وأمـا جبـل اللـه فسـمي بهـذا الاسـم بعـد قـرون من موسى، وسرير عوج الحديدي جاء ذكره في التثنيـة (3/11-12) بمـا يدل على أنه كتب بعده بزمن طويل.

قلت: لقد حل اسبينوزا اللغز حلا جيدا.

قال: لقد حللت اللغز قبل أن أرى حل اسبينوزا.. هـو واضـح لكـل من تأمل مـا قالـه ابن عـزرا.. لأني نفسـي كنت أسـتغرب مثـل تلـك النصوص.

سـكت قليلا، ثم قـال: ليس ابن عـزرا وحـده.. هنـاك جمـوع من المشككين..

أخذ كتابا آخر، وفتحه، وقال: في القرن التاسع عشر صرح القس نورتن بعدم صحة نسبة الأسفار لموسى فقال::(التوراة جعلية يقينـاً،

ليست من تصنيف موسى)

التفت إلي، فرآني مستغرقا في دهشـتي، فقـال: فهـل تـرى بعـد ذلك أن هذه الأسفار الخمسة من كلام موسى أو كلام الله؟

قلت: ولكن الكتـاب المقـدس، أو العهـد القـديم منـه ليس تـوراة موسى فحسب.

قـال: لقـد بحثت فيهـا جميعـا، فوجـدت في كـل واحـد منهـا من الدلائل ما يشير إلى أن تلك الأسفار بين احتمالين:

إما أن الأنبياء لم يكتبوها إطلاقا.. وإما أنهم كتبوها، ولكن تحريفات كثيرة دخلت عليها.

قلت: كيف عرفت ذلك؟

قال: سنبحث هذا مع بعضـنا هنـا.. خـذ نسـخة من العهـد القـديم، وافتحها.. ولنبدأ بسفر يشوع.. إن قراءة متأنيـة لهـذا السـفر تكشـف عن تأخر تاريخ كتابته عن يشوع بسنين طويلة فقد جاء فيه خبر موت يشوع.. افتح (يشوع: 24:29ـ30) واقرأ علي.

فتحت في الموضع الذي حـددت، وقـرأت:(مـات يشـوع بن نـون عبد الرب ابن مائة وعشر سنين، فدفنوه في تخم ملكه)

قال: هل رأيت كتابا يذكر مؤلفه فيه تاريخ وفاته، بل المحل الـذي دفن فيه؟

صمت، فقال: ليس ذلك فقط.. بـل إن السـفر يـذكر أحـداثاً بعـد موته، كتعظيم بني إسرائيل له بعد موته.. انظر (يشوع 24:31)

ليس ذلـك فقـط، بـل السـفر برمتـه يتحـدث عن يشـوع بضـمير الغائب (انظر 8:35، 6:27)

دعنا من سفر يشوع.. وافتح سفر القضاة.. إن هذا السفر يتحدث عن الفترة التي تلت يشوع، والتي سبقت الملكية، وهي فترة مبكـرة

من تاريخ بني إسرائيل.

ولكن السفر يحوى ما يدل على أنه كتب في عهـد الملـوك، فقـد جاء فيه:(في تلك الأيام لم يكن ملك في إسـرائيل)(قضـاة 25:21)وفيه:(وفي تلك الأيام لم يكن ملك في إسرائيل)(قضاة 6:17)

بل إن الأب لوفيفر يقول:(إن سفر القضاة أعيدت كتابته وعدلت مرات كثيرة قبل أن يصل إلى صيغته النهائيـة، وأن أحداثـه التاريخيـة تعوزها الدقة)، وقومي وقومك يعترفون بأنـه لا يعلم كـاتب السـفر.. ويظنون أنه صموئيل.

افتح سفرا صموئيل الأول والثاني.. هذان السفران ينسبان للنـبي صـموئيل، لكن الجـزء الأول أو السـفر الأول يـذكر وفـاة صـموئيل ودفنه.. افتح(صموئيل (1) 1:25)

فتحت، وقـرأت:(فمـات صـموئيل فـاجتمع إسـرائيل، ونـدبوه، ودفنوه)

قال: من الذي أكمل السفر وكتب الثاني؟

صـمت، فقـال: يقـول منقحـو الكتـاب المقـدس الـذي راجعـه القسيس فانت السكرتير العـام لجمعيـة الكتـاب المقـدس بـنيويورك بأن مؤلف السفرين مجهول، ويحتمل أن يكون عـزرا هـو الـذي كتبـه وراجعه.

افتح سفر أيوب.. لقد جاء في وسط السفر ما يـدل على أن ثمـة كاتباً آخر غير أيـوب قـد تـدخل في السـفر، ففي نهايـة الأصـحاح 31 تجد:(تمت أقـوال أيـوب)(أيـوب 40:ـ 31).. لكن لم ينتـه السـفر حينذاك بل استمر بعده أحد عشر إصـحاحاً تحـدثت عن أيـوب.. وفي نهاية السفر:(وعاش أيـوب بعـد هـذا مائـة وأربعين سـنة ورأى بنيـه، وبـني بنيـه إلى أربعـة أجيـال، ثم مـات أيـوب شـيخاً وشـبعان الأيـام) (أيوب: 16: 42ـ17)

افتح سفر المزامير.. عدد المزامير مائة وخمسون مزموراً تنسب إلى مــؤلفين مختلفين، إذ ينســب لــداود ثلاثــة وســبعون مزمــوراً، ولموسى مزمور واحد، ولأساف أحد عشر مزموراً، ولبني قورح أحــد عشر مزمـوراً، ومزمـوران لسـليمان، وآخـر لايثـان، وتسـمى البـاقي بالمزامير اليتيمة التي لايعرف من قائلها.. فكيف وصـفت بـالوحي؟.. وهل كان بنو قورح أيضاً أنبياء؟

والمتأمل في المزامـير يـدرك بوضـوح أن المزامـير تعـود للقـرن السادس قبل الميلاد وتحديداً إلى أيام السبي البابلي، وذلك يظهر من أمثلة متعددة سنراها جميعا.. افتح (79: 1 - 2)، واقرأ علي.

فتحت، وقرأت:(اللهم إن الأمم قد دخلوا ميراثك، ونجسوا هيكــل قدسك، وجعلوا أورشليم أكوامـاً، دفعـوا جثث عبيـدك طعامـاً لطيـور السماء)

قال: اقرأ (147: 2)

قــرأت:(الــرب يبــني أورشــليم، يجمــع منفى إســرائيل يشــفي المنكسري القلوب، ويجبر كسرهم)

قال: اقرأ (137: 1)

قرأت:(على أنهار بابل جلسنا.. بكينا أيضا عندما تذكرنا صـهيون.. لأنه هنـاك سـألنا الـذين سـبونا كلام ترنيمـة، ومعـذبونا سـألونا فرحـاً قائلين: رنموا لنا من ترنيمات صهيون)

قال: أترى أن هذه المزامير كتبت في عهد داود؟

قلت: أرى أنها تأخرت عن داود مالا يقل عن أربعة قرون.

قال: فكيف تصح نسبتها إليه إذن؟

افتح سـفر إشـعيا.. ينسـب هـذا السـفر للنـبي إشـعيا في القـرن الثامن قبل الميلاد، فقد عاصر الملك عزيا ثم يوثام ثم أحاز ثم حزقيا،

ولكن السفر يتحدث عن الفترة الممتدة بين القرنين الثامن والسادس قبل الميلاد مما يؤكد أن ثمة كاتبا أو كاتبين قد كتبوا ذلك بعد إشعيا، ومن أمثلة ذلك حديثه عن بابل الدولة العظيمة وتنبؤه بإنهيارها.

وأيضاً حديثه عن كورش الفارسي الذي ردّ اليهود من السبي.. انظر (28:44 ـ 1:45).. كما يتحدث عن رجوع المسبيين والشروع في بناء الهيكل في الاصحاحات 56 - 66.

افتح سفر إرمياء.. هذا السفر لا تصح نسبته للنبي إرمياء إذ هو من عمل عدة مؤلفين بدليل تناقضه في ذكر الحادثة الواحدة، ومن ذلك تناقضه في طريقة القبض على إرمياء وسجنه.. انظر: (إرمياء 37: 11 - 15 و 38: 13)

كما أن السفر يحمل اعترافاً بزيادة لغير إرمياء ففيه:(فأخذ إرمياء درجاً آخر، ودفعه لباروخ بن نيريا الكاتب، فكتب فيه عن فم إرميا، كل كلام السفر الذي أحرقه يهوياقيم ملك يهوذا بالنار، وزيد عليه أيضاً كلام كثير مثله)(33:ـ 36)، وفي موضع آخر:(إلى هنا كلام إرمياء)(64: 51).. ومع ذلك يستمر السفر، فمن أكمله؟

افتح سفر دانيال.. لا يمكن أن يكون هذا السفر قد كتب في ذلك الزمن البعيد الذي روي أنه عاش دانيال فيه أي عندما سقطت بابل في يد الملك الفارسي كورش عام 538 ق. م بل لا بد أن يكون هذا السفر قد كتب بعد ذلك بثلاثة قرون أو أربعة.

قلت: كيف عرفت ذلك؟

قال: أولاً: يتضمن هذا السفر كلمات مقدونية مع أن اليهود في الأسر البابلي لم يكونوا قد خالطوا اليونان، ولا حكت أسماعهم للغة اليونانية.. ثانياً: هذا السفر فيه وصف للكلدانيين لا يتسنى الإتيان به لكاتب سابق على عصر الاسكندر.. ثالثاً: اقتبس طرفاً من أقوال أرميا وحزقيال وزكريا مع أن هؤلاء الأنبياء متفرقون في الزمن، فأرميا بداية الأسر وحزقيال في وسطه وزكريا في أواخر الدولة

الفارسية.

قلت: فهذه الأسفار جميعا تفتقر إلى الأسـانيد الـتي تثبت نسـبتها لمؤلفيها؟

قال: أجـل.. وليس هـذا قـولي فقـط.. بـل هـو قـول كـل محقـق مدقق.. وسأذكر لك بعض الشهادات المؤيدة لهذا.

قام وأخرج كتابا من رف من رفوف ذلـك الجنـاح، وقـال: سـأقرأ لـك هنـا بعض مـا جـاء في الدراسـة القيمـة المسـماة:(مـدخل إلى الكتـاب المقـدس)، والـتي نقلتهـا الرهبانيـة اليسـوعية من الترجمـة المسكونية الفرنسية للكتاب المقدس[1].

فتح الكتاب، وأخذ يقرأ:(مـا هـو الكتـاب المقـدس؟ تكفي نظـرة نلقيها على الفهرس لنرى: أنه مكتبة، بل مجموعة كتب مختلفة جداً.. ذلك أنهـا تمتـد على أكـثر من عشـرة قـرون، وتنسـب إلى عشـرات المـؤلفين المختلفين، بعضـها وضـع بالعبريـة مـع بعض المقـاطع بالآرامية، وبعضها الآخر باليونانية، وهي تنتمي إلى أشد الفنون الأدبيـة اختلافـاً كالروايـة التاريخيـة ومجموعـة القـوانين والصـلاة والقصـيدة الشعرية والرسالة والقصة)

أغلـق الكتـاب، ثم قـال: هـذا الكلام لم يقلـه مسـلم.. ولم يقلـه شـيوعي يكـره الأديـان.. هـذا الكلام قالـه رجـال دين.. ورجـال دين يعتقدون أن هذا هو كتابهم المقدس.. ومع ذلك، فهو يتضـمن اعترافـاً صريحاً لا لبس فيه أن هذه الأسـفار المجمعـة باسـم (العهـد القـديم) والمعروفة باسم (الكتاب المقدس) ليست من عند الله مباشـرة ولا أوحى اللـه بهـا لأحـد من أنبيائـه، بـل هي عمـل مـؤلفين ومحـررين استلهموا أعمالهم من تقاليد الشـعب وآلامـه وأحلامـه.. وكـانت تلـك الصياغات ديناميكية، أي أنها قابلة دوماً للتغيير، وليست ثابتة.. بل كان القراء ينقحونها ويعلقون عليها.. بـل ويقـوم بعضـهم بإعـادة صـياغتها مرة أخرى بحيث يغير النصوص السابقة.

---

(1) إصدار الرهبانية اليسوعية، بيروت، دار المشرق، 1985م، كتب الشريعة الخمسة.

ثم فتح الكتــاب على موضــع معلم عليــه، وقــال: وتقــول هــذه الدراســة أيضــاً:(لم يكن هنـاك حـدود للكتابـات المعـترف بهـا لـدى حاخامات اليهود باعتبارها وحياً من الله، لأن الإضافات كانت مستمرة والقائمة مفتوحة)

ويقول الآباء اليسوعيون في مقدمة الكتـاب المقـدس:(كثـير من علامات التقدم تظهـر في روايـات هـذا الكتـاب وشـرائعه ممـا حمـل المفســرين من كاثوليــك وغــيرهم على التنقيب عن أصـل الأســفار الخمسة الأدبي فما من عالم كاثوليكي في عصرنا يعتقــد أن موســى ذاته قد كتب كل البانتاتيك منذ قصة الخلق إلى قصة موته، كما أنـه لا يكفي أن يقال أن موسى أشـرف على وضـع النص الـذي دونـه كتبـة عديدون في غضـون أربعين سـنة بـل يجب القـول مـع لجنـة الكتـاب المقدس البابويـة (1948) أنـه يوجـد ازديـاد تـدريجي في الشـرائع الموسوية سببته مناسبات العصـور التاليـة الاجتماعيـة والدينيـة تقـدم يظهر أيضاً في الروايات التاريخية)[1]

قلت: هذا اعتراف خطير..

قال: هذا غيض من فيض.. الاعترافات كثيرة جدا..

العهد الجديد:

قلت: إن كل ما ذكرته مرتبط بالعهد القـديم، فهـل أصـاب العهـد الجديد ما أصاب العهد القديم؟

قال: أجل.. وعدم السند الصحيح في العهد الجديد أخطر منـه في العهد القديم.

قلت: كيف ذلك؟.. أليس العهد الجديد متأخرا عن العهد القديم؟

قال: نعم.. ولكن الظروف التي مـرت بهـا المسـيحية في بـدايتها جعلت من الإنجيل الواحد الذي جـاء بـه المسـيح أناجيـل عديـدة، بـل

(1) الكتاب المقدس للآباء اليسوعيين:1 / 4 .

أضافت كتبا كثيرة للعهد الجديد.

قلت: فكيف نعرف مدى صحة أسانيد العهد الجديد؟

قال: إن ذلك يستدعي معرفة الكتبة الذين كتبوه.. لقد كان جهلنـا بكتبة العهد القديم هو الذي جعلنا نشك في كثير مما ورد فيه..

قلت: ولكن كتبة العهد الجديد معروفون؟

قال: دعنا نسير رويدا.. ولنبدأ بالأناجيل المعروفة لنعـرف علاقتهـا بالكتبة، ثم علاقة الكتبة بالمسيح..

الأناجيل:

نهض من مكانه، ثم أخذ كتابا صغيرا.. وقـال: فلنبـدأ بـأول إنجيـل يطالعك، وأنت تقرأ الكتاب المقدس، إنه إنجيـل مـتى.. وهـو يتكـون من ثمانية وعشرين إصحاحاً تحكي ـ كسائر الأناجيل ــ حيـاة المسـيح ومواعظه من ميلاده حتى رحيله.

قلت: هذا الإنجيل من أهم الأناجيل، وأقربها لعهـد المسـيح.. فقـد كتبه متى، وهو أحد التلاميذ الإثـنى عشـر الـذين اصـطفاهم المسـيح، وقد كتبه مـا بين 37 -ـ 64 م، لليهـود المتنصـرين.. وهـو لقربـه من المسيح ألف بالعبرانية[1].

قال: فهل النسخ التي تعتمد اليوم من هذا الإنجيل نسخ عبرانية؟

قلت: لا.. لا توجد أي نسخة عبرانية من هـذا الإنجيـل اليـوم.. كـل المخطوطات الموجودة مخطوطات يونانية.

قلت: إذن لا يحـق لـك أن تفـرح بقـرب هـذا الإنجيـل من عهـد المسيح.

قلت: لم؟

---

(1) يرى بعضهم أنه ألف بالسريانية أو اليونانية.

قال: لأن الأصل الذي كتبه يوحنـا مفقـود.. ولم يبـق إلا الترجمـة.. ونحن لا نعـرف المـترجم.. فنحن تحت رحمتـه.. فكيـف ننسـب كتابـا مقدسا لمترجم لا نعرفه.. وليس لدينا الأصـل الـذي نعـرف بـه مـدى صحة الترجمة.

قلت: أليس من المحتمل أن يكون متى هـو الـذي ترجمـه.. فقـد قيل بذلك؟

قال: وقيل غير ذلـك.. فقـد ذكـر القـديس جـيروم (420م)(أن الذي ترجم متى من العبرانية إلى اليونانية غـير معـروف).. بـل لعـل مترجمه أكثر من واحد، كما قال بابياس.

وقـد قـال نـورتن الملقب بــ (حـامي الإنجيـل) عن عمـل هـذا المترجم المجهول:(إن مترجم متى كان حـاطب ليـل، مـا كـان يمـيز بين الرطب واليابس، فما في المتن من الصحيح، والغلط ترجمه)

ليست هذه شهادات مسـلمين.. إنهـا شـهادات قديسـين.. اسـمع شهادة أسقف هرابوليسن وهـو الأسـقف بابيـاس 155م حيث قـال: (قد كتب متى الأقوال بالعبرانية، ثم ترجمهـا كـل واحـد إلى اليونانيـة حسب استطاعته)

قلت: أراك بدأت تشكيكي في هذا الإنجيل انطلاقا من ترجمته؟

قـال: أجـل.. من أهم مـا يمكن أن يـؤثر في الكتـاب المقـدس ترجمتـه.. خاصـة إن كـان المـترجم غـير أمين.. ولهـذا كـان احتفـاظ الكتاب المقدس للمسـلمين بلغتـه الأصـلية من أكـبر دواعي إعجـابي وثقتي.

قلت: فلنحسن الظن بالمترجم.. لماذا نسيء الظن؟

قال: لقد خطر هذا على بالي.. ولذلك رحت أبحث عن متى، وعن صلته بالإنجيل المنسوب إليه؟

قلت: ولماذا تبحث عن متى؟..

قال: لقد ذكرت لـك أني لا أتيقن إلا بعـد أن أشـك.. ألسـت مثلي في هذا.. بلى.. أنت مثلي.. لقد ذكرت لي ذلك.

قلت: إن متى معـروف.. فهـو أحـد التلاميـذ الاثـنى عشـر، وكـان يعمل عشاراً في كفر ناحوم، وقد تبع المسيح بعد ذلك.

والمصادر التاريخية تذكر أنه رحـل إلى الحبشـة، وقتـل فيهـا عـام 70 م، وقد ذكر في العهد الجديد مرتين في إنجيله، أما المـرة الأولى فعندما ناداه المسيح، وهو في مكان عملـه في الجبايـة (انظـر مـتى 10/3، ولوقا 6/15) والثانية في سياق تعداده لأسماء التلاميذ الاثـني عشر (انظر متى 10/3)

قـال: ولكن مـرقس ولوقـا ذكـرا أن العشـار هـو لاوي بن حلفي (انظر مرقس 2/15، ولوقا 5/27) ولم يذكرا متى .. فمن نصدق؟

قلت: يمكن أن نصدق الجميع بأن نعتبر متى العشـار هـو لاوي بن حلفي.

قال: وما أدلة ذلك؟

قلت: لا يعقل أن إنجيلاً خطـيراً كهـذا.. والـذي هـو أول الأناجيـل.. ينسب إلى شخص مجهول.. بالإضافة إلى هذا فقـد ذكـر بابيـاس في القرن الثاني الميلادي أن متى قد جمع أقوال المسيح.

ومما زادني وثوقـا في هـذا أن مـتى كـان جابيـا.. والجـابي عـادة يحتفظ بالسجلات بأمانة ودقة.. فلـذلك احتفـظ هـذا الإنجيلي بـأقوال المسيح بكل دقة.

قال: لا بأس.. إشاراتك جميلـة.. ولكن عنـد دراسـتنا الموضـوعية لإنجيل متى نجد أنه لا يمكن أن يكون مؤلفه هو متى حواري المسيح.

قلت: كيف ذلك؟

قـال: أجبـني أولا.. هـل يمكن لتلميـذ تـربى على يـدي المسـيح،

وشاهد أحواله أن ينقل سيرة حياة المسيح عمن لم يعـرف المسـيح، ولم يره، ولم يتأدب على يديه؟

قلت: لا.. المعاصر أولى من غيره.

قال: لقد لاحظت من خلال دراستي الموضوعية لهـذا الإنجيـل أن كاتبه ليس متى الحواري.

قلت: ما تقول؟

قال: اصبر علي.. لقد رأيت كاتب هذا الإنجيل الذي هو في الأصل متى يعتمـد في إنجيلـه على إنجيـل مـرقس، فقـد نقـل من مـرقس ستمائة فقرة من فقرات مرقس الستمائة والاثني عشر.

وليست هذه ملاحظتي فقط.. بل يقول ج ب فيلبس في مقدمتـه لإنجيـل مـتى:(إن القـديس مـتى كـان يقتبس من إنجيـل القـديس مرقس، وكان ينقحه محاولاً الوصول إلى تصور أحسن وأفضل لله)

ويضيف القس فهيم عزيـز أن اعتمـاد مـتى على مـرقس حقيقـة معروفة لدى جميع الدارسين، فإذا كان متى هو كاتب الإنجيل، فكيـف ينقل عن مرقس الذي كان عمره عشر سنوات أيام دعوة المسـيح؟ كيف لأحد التلاميذ الإثني عشر أن ينقل عنه؟

بالإضـافة إلى هـذا.. فـإن هنـاك في إنجيـل مـتى مـا يؤكـد هـذه الشكوك..

لقد ذكر متى العشار مرتين، ولم يشر أي إشارة إلى أنه الكـاتب، فقد ذكره بين التلاميذ الإثنى عشـر، ولم يجعلـه أولاً ولا آخـراً، ثم لمـا تحدث عن اتباعه للمسيح قال:(وفيما يسوع مجتاز هناك رأى إنسـاناً جالساً عند مكان الجباية اسمه متى فقـال لـه: اتبعـني فقـام وتبعـه) (متى: 9/9)

ألا ترى أنه استخدم أسلوب الغائب.. فلو كـان هـو الكـاتب لقـال: (قال لي).. (تبعته).. (رآني)

قلت: فمن مؤلف إنجيل متى إذن إذا لم يكن هو متى؟

قال: هذا سؤال وجيه.. سألته لنفسي.. وقد حاولت أن أدرس المؤلف دراسة نفسية، وقد وجدت أنه ــ كما يظهر في إنجيله ـ مسيحي يهودي يربط بين التوراة وحياة المسيح.

وقد وجدت كولمان يصل إلى نفس النتيجة، فهو يصفه بقوله: (يقطع الحبال التي تربطه باليهودية مع حرصه على الاستمرار في خط العهد القديم، فهو كاتب يهودي يحترم الناموس، ويعتبر بذلك من البعيدين عن مدرسة بولس الذي لا يحترم الناموس، فهو يقول: (فمن نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى وعلم الناس، هكذا يدعى أصغر في ملكوت السماوات)(متى 5/19).

وانطلاقا من هذا يرجح كولمان أنه عاش في فلسطين، ويرجح فنتون أنه كتب في حوالي الفترة من 85 - 105م، مع أن متى مات سنة70.. وهو يقارب ما ذهب إليه البرفسور هارنج حين قال:(إن انجيل متى ألف بين 80 - 100م)

قلت: ولكن ما تقول فيما ذكر بابياس من أن متى كتب وجمع أقوال المسيح؟

قال: ولكن هل ما تراه في هذا الإنجيل هو أقوال المسيح.. إنه قصة كاملة عن المسيح وليس جمعاً لأقواله.

زيادة على ذلك.. فإن كثيرا من الأناجيل ضاعت.. وقد يكون إنجيل متى الحقيقي من بينها..

زيادة على ذلك.. فإن من الأناجيل التي رفضتها الكنيسة إنجيلاً يسمى إنجيل متى.. أليس من المحتمل أن يكون بابياس قد عناه بقوله هذا؟

أعاد إنجيل متى إلى محله من الرفوف، وقال: فلننتقل إلى إنجيل آخر..

أخذ كتابا آخر أصغر حجما، وقال: هذا إنجيل مـرقس.. وهـو ثـاني الأناجيل التي تطالعنا في العهد الجديد.

أراني إياه، ثم قال: انظر إليـه إنـه أقصـر الأناجيـل، ولهـذا يعتـبره النقاد أصح إنجيل يتحدث عن حياة المسيح.. بل هم يكادون يجمعــون على أنه أول الأناجيل تأليفاً.. وقد عرفنـا أنهم يـذكرون أن مـتى نقـل إنجيله عنه.

فتح أول صـفحة، وقـال: هـذا الإنجيـل هـو الوحيـد بين الأناجيـل المسمى بإنجيل المسيح.. فأول فقرة فيه:(بدء إنجيل يسوع المسيح ابن الله)(مرقس 1/1)

وهو يتكون من من ستة عشر إصحاحاً، تحكي قصـة المسـيح من لدن تعميده على يد يوحنـا المعمـداني إلى قيامـة المسـيح بعـد قتلـه على الصليب.

قلت: فيمكن الاعتماد على الإنجيل إذن.. واعتباره كتابا مقدسا.

قال: ألا تعرف من هو مرقس؟

قلت: أعلم أنه ليس من الحـواريين.. ولا علم لي بتفاصـيل حياتـه بعد ذلك.

قال: هنا ترى الفرق عظيما بين أسانيد المسلمين وأسـانيدنا.. إن المسلمين يتشـددون كثـيرا في الـرواة.. حـتى الـرواة الـذين ينقلـون أحاديث نبيهم.. بل حتى النـاقلين للأخبـار والتـواريخ.. فكيـف بكتـابهم المقدس؟

إن كل راو من رواة هذه النصوص المقدسة وغير المقدسة يحمل تراجم مفصلة عن حياته، ثم حكما عليه بعد ذلك بالقبول أو الـرفض.. وهذا ما نفتقده نحن في أهم مصادر ديننا.

قلت: فمن هو مرقس؟

قال: يتفق المحققون في ترجمته على ما رددته مصـادرنا، والـتي يجمعهـا مـا جـاء في قـاموس الكتـاب المقـدس عنـه، فهـو الملقب بمرقس، واسمه يوحنـا، وقـد رافـق برنابـا وبـولس في رحلتهمـا، ثم فارقهما، ثم عاد لمرافقة بولس.

وهم يتفقون على أنه كان مترجماً لبطرس الـذي لـه علاقـة بهـذا الإنجيل.

ويذكر المؤرخ يوسيبوس أنه - أي مرقس - أول من نادى برسـالة الإنجيل في الإسكندرية، وأنه قتل فيها.

ومصادرنا لا تتفـق على المحـل الـذي كتب فيـه إنجيلـه.. فبعضـها تذكر أنه كتبه في روما.. وبعضها ترى أنه كتبه في الإسـكندرية.. وهي ترى أن كتابته تمت ـ على اختلاف في هذه المصادر ــ بين عـام 39 ـ 75م.. ورجح أكثرها أن كتابته تمت بين 44 -ـ 75م.. وهم يعتمـدون في ذلك على شهادة المؤرخ ايرينايوس الذي قال:(إن مــرقس كتب إنجيل بعد موت بطرس وبـولس).. ويـرى اسـبينوزا أن هـذا الإنجيـل كتب مرتين إحداهما قبل عام 180م والثانية بعده.

وأقدم ذكر لهذا الإنجيل ورد على لسان المؤرخ بابياس (140م) حين قال:(إن مرقس ألف إنجيله من ذكريات نقلها إليه بطرس)

وقد كتب هذا الإنجيل باللغة اليونانية، ويذكر البعض أنه كتب باللغة الرومانية أو اللاتينية.

قلت: لقد ذكرت ترجمته.. فهل هناك ما يستدعي الشـك في هـذا الإنجيل؟

قال: إذا طبقنا المقاييس العلمية الدقيقة في النقل.. فإن شـكوكا كثيرة تعترض الباحث المنصف.

قلت: مثل ماذا؟

قال: أولا.. مـرقس ليس من تلاميـذ المسـيح، بـل هـو من تلاميـذ

بولس وبطرس.. وبولس الذي تتلمذ عليه مرقس لم يكن من تلاميـذ المسيح.. بل كان أعدى أعـداء المسـيحيين، وللبـاحث المنصـف معـه مواقف لا مجال لذكرها هنا.. ولم يكن له من الشـهرة مـا يمكننـا من الحكم عليه وعلى روايته.. لقد قال المفسر نينهـام مفسـر لوقـا:(لم يوجد أحد بهذا الاسم عرف أنه كان على صلة وثيقـة، وعلاقـة خاصـة بيسوع، أو كانت له شهرة خاصة في الكنيسة الأولى)

بل قال مؤرخ آخر.. هو المؤرخ بابياس (140م):(اعتـاد الشـيخ يوحنا أن يقول: إذ أصبح مرقس ترجماناً لبطرس دون بكل تدقيق كل ما تـذكره، ولم يكن مـع هـذا بنفس الـترتيب المضـبوط مـا رواه من أقوال وأفعال يسوع المسيح، وذلك لأنه لم يسمع من السيد المسـيح فضلاً عن أنه لم يرافقه، ولكن بالتبعية كما قلت، التحق ببطرس الذي أخذ يصـوغ تعـاليم يسـوع المسـيح لتـوائم حاجـة المسـتمعين، وليس بعمل رواية وثيقة الصلة بيسوع وعن يسوع لأحاديثه)

قلت: أرى شكوكا كثيرة تراودك حول هذا الإنجيل.

قـال: أجـل.. الإنجيـل في الأصـل هـو مـا أنـزل على المسـيح.. فالكتاب المقدس ـ في أصله ـ هو كلام الله الذي أنـزل على عبـاده.. لكني بمطالعة هـذا الإنجيـل أراه مجـرد سـيرة للمسـيح تحمـل بعض أقواله، وهي بالتالي تحمل أثـرا لشخصـية الكـاتب، ومـا يتصـوره عن المسيح ودين المسيح.

قلت: لا.. أنت تحمل تصورا خاطئـا للإنجيـل.. أنت تقـارن الإنجيـل بالقرآن، وتدعو الإنجيل لأن يكون مثـل القـرآن.. نعم، القـرآن ــ كمـا يدعي محمد ـ هو كلام الله.. وكل ما فيه كلام اللـه.. ولكن الإنجيـل لا يعني ذلك.. إن كلمة إنجيل ـ وهي كلمة ليست عربية ـ تعني البشارة، أي أن الإنجيل هو البشارة بيسـوع المسـيح، وهـذه البشـارة تتضـمنها هذه الأناجيل التي بين أيدينا.

قال: لقـد بحثت في هـذه المسـألة.. وطـالعت الكتـاب المقـدس بدقة لأعرف حقيقة الإنجيل.. فوجدت ما ذكرته لك.. اسمع من إنجيل

مرقس نفسه ما الذي ورد فيه.

قلب بعض الصفحات، وقـرأ:(ويقـول قـد كمـل الزمـان واقـترب ملكوت الله.فتوبوا وآمنوا بالانجيل) (مرقس:1 /15)

المسيح يدعوهم هنا إلى الإيمان بالإنجيل.. أي إنجيل يقصـد.. هـل يقصد حياته، أم أقواله؟

قلب صفحات أخرى، وقـرأ:(الحـق أقـول لكم حيثمـا يكـرز بهـذا الإنجيل في كل العالم يخبر أيضا بما فعلته هذه تذكارا لها)(مـرقس: 14 /9) هو هنا يشير إلى شيء معروف يسميه الإنجيل.

ثم قـرأ:(وقـال لهم اذهبـوا إلى العـالم اجمـع واكـرزوا بالانجيـل للخليقة كلها)(مرقس:.16 /15)

قلت: لا أرى أن هـذه النصـوص تتعـارض مـع مـا ذكـرت لـك.. فالمسيح يأمرهم بالتبشير بظهوره وأقواله.

قـال: ولكن كيـف يقـول: (توبـوا وآمنـوا بالانجيـل)، والإنجيـل لم يكتمل بعد؟.. ألا ترى أن أهم أبواب الإنجيل عندنا هي صـلب المسـيح وقيامته؟

سكت، فقال: ومع ذلك.. سأقرأ لك من مرقس نفسه ما ينفي ما ذكرت.. اسمع.. قال مرقس:(فأجاب يسوع وقال: الحـق أقـول لكم ليس احد ترك بيتا او اخوة او اخوات او ابا او اما او امـرأة او اولادا او حقولا لاجلي ولاجل الإنجيل)(مرقس: 10/ 29)

ألا ترى المسيح يفرق بين نفسه وبين الإنجيل.. ألا يدلك هـذا على أنه كان هناك إنجيل بالفعل في زمن المسيح؟

بـل إني أرى أن اتفـاق الجميـع على وضـع كتب يتفقـون على تسميتها الإنجيل دليل على أنه كان هناك بالفعل كتاب للمسيح اسـمه الإنجيل.. ولكنه ضاع دون أن نعلم أين ضاع ولا كيف ضاع.. صـدقني.. إن حياة المسيح تمتلئ بأسرار كثيرة يصعب فكها.

قلت: فأنت تعتمد على هـذه الأدلـة لتنفي صـفة الإنجيـل عن كـل الأناجيل.

قال: أنا لا أنفي عنها الصدق في كثـير ممـا حـدثت بـه من سـيرة المسيح.. ولكنني أراها كتب سيرة وتاريخ.. ولا أراهـا كتبـا تحمـل تلـك القداسة التي يحمل الكتاب الذي لا يتكلم فيه إلا الله.

ذلك أن قداسة الكتاب المقدس تكتسب من وحي الله..

اسمع.. سنرجع إلى كتـاب المسـلمين المقـدس.. وهـو كتـاب لم أسمع منه إلا الصدق.. إنـه يخـبر أن هنـاك كتابـا أنـزل على المسـييح اسمه الإنجيل.. وقد وصفه وصفا دقيقا.

أخذ مصحفا، وأخذ يقرأ:{ وَقَفَّيْنَـا عَلَى آثَـارِهِمْ بِعِيسَـى ابْنِ مَـرْيَمَ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْأِنْجِيلَ فِيهِ هُدىً وَنُـورٌ وَمُصَـدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ }(المائدة: 46) ا

واسمع..:{ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُـلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَـى ابْنِ مَـرْيَمَ وَآتَيْنَـاهُ الْأِنْجِيـلَ وَجَعَلْنَـا فِي قُلُـوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُـوهُ رَأْفَـةً وَرَحْمَـةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَـا حَـقَّ رِعَايَتِهَـا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ}(الحديد:27)

إن القرآن الكريم يخبر عن تنزيل الإنجيـل على المسـيح.. ويخـبر أن فيه هدى ونورا.

قلت: القـرآن يخـبر أن اللـه آتى المسـيح الإنجيـل.. ولم يـذكر الإنزال.

قال: لقد عبر في مواضع أخرى عن ذلك بالإنزال.. اسمع ما يقول القرآن:{ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَـا بَيْنَ يَدَيْـهِ وَأَنْـزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْأِنْجِيلَ }(آل عمران:3).. لقد ذكر هنا الإنزال.. وقرنه بالتوراة ليـدل على أن الأصل في الكتاب المقدس هو كلام الله المنزل.

وفي آية أخرى ورد:{ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَـاجُّونَ فِي إِبْـرَاهِيمَ وَمَـا

أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْأِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ}(آل عمران:65)

وفي آية أخرى:{ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْأِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}(المائدة:47)

وفي آية أخرى:{ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْأِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ}(المائدة:66)

وفي آية أخرى:{ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْأِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ}(المائدة:68)

بل إن القرآن يذكر بعض ما كان في ذلك الإنجيل، فيقول:{ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْأِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً}(الفتح:29)

قلت: فأنت بهذا تنفي صفة القداسة عن كل العهد الجديد.. لأن كل كتاب أو رسالة فيه هي كلام بشر.

قال: أنا لا أنفي عنها القداسة مطلقا.. ولكني أرى أن الكتبة ذكروا أشياء هي حقيقة من الإنجيل الحقيقي.. وأشياء أخرى كثيرة لا علاقة لها بالإنجيل.. وسنعرف ذلك في محله من مناقشتنا هذه.

قلت: فلنعد إلى مرقس.. أرانا قد أطلنا الحديث عنه.

قال: نعم.. لأنه أقرب الأناجيل المعروفة إلى الصحة، ومع ذلك تعتريه كل هذه الشبهات.

قلت: ألديك شكوك أخرى فيه؟

قال: أجل.. الإسناد بين المسيح ومرقس منقطع.. فلهذا لو طبقنا مقاييس المسلمين في دراسة الأسانيد على هذا الإنجيل لرأينا أنه من الأسانيد المنكرة التي لا يمكن التعويل عليها.

لا أنكر أن أحداثا كثيرة ذكرها مرقس أو ذكرها الإنجيليون من بعده لا شك في صحتها، ومثل ذلك أقوالا كثيرة للمسيح.. ولكن أي شيء منها غير صحيح.. هذا هو محل الشك.

أرجع إنجيل مرقس، وأخذ إنجيلا آخر أكبر حجما، وقال: هذا هو إنجيل لوقا.. إنه ثالث الأناجيل وأطولها، فهو يتكون من أربعة وعشرين إصحاحاً، يتحدث الإصحاحان الأولان عن النبي يحيى وولادة المسيح، ثم تكمل بقية الإصحاحات سيرة المسيح إلى القيامة بعد الصلب و كاتبه هو لوقا.. أتعرف من هو لوقا؟

قلت: أجل.. هو كاتب الإنجيل المسمى باسمه.

قال: أتعرف علاقته بالمسيح؟

قلت: لا أكتمك بأنه لم يكن لي اهتمام كبير في التدقيق في هذه الأمور.. فلهذا تعامل معي كعامي فيها.

قال: لا علاقة للوقا بالمسيح.. بل إنه كتب إنجيله حوالي عام 60 ميلادي، والأصل الذي كتب عنه إنجيله غير موجود.. لكن أدلة كثيرة تدل على أنه اعتمد في مصادره على مرقس، فنقل عنه ثلاثمائة وخمسين من فقراته التي بلغت ستمائة وإحدى وستين فقرة، كما نقل عن متى أو عن مصدر أخر مشترك بينه وبين متى.

وبذلك تكون الثقة في إنجيله بقدر الثقة في المصادر التي اعتمد عليها.

أما عن شخصيته.. فإن الغموض يكتنفها هي الأخرى.. فبعضهم يذكر أنه كان رومانياً، وبعضهم يذكر أنه كان أنطاكياً، وبعضهم يذكر

غير ذلك.

واختلفوا في مهنته، فبعضهم يذكر أنه كان طبيبـاً، وبعضـهم يـذكر أنه كان مصوراً.

واختلفوا في اللغة التي كتب بها إنجيله..

واختلفوا في السنة التي ألف فيها إنجيله بين 53 - 80 م.

تقدم إلي، وسلمني نسخة من إنجيل لوقا، وقال: خـذ، واقـرأ أول هذا الإنجيل.

فتحت، وقرأت من (إنجيل لوقا 1:4):(إذا كان كثيرون قد أخـذوا بتأليف قصة في الأمور المتيقنة عندنا، كمـا سـلمها إلينـا الـذين كـانوا منذ البدء معاينين وخداماً للكلمـة، رأيت أنـا أيضـاً ــ إذ قـد تتبعت كـل شـيء من الأول بتـدقيق ــ أن أكتب على التـوالي إليـك أيهـا العزيـز ثاوفيلس، لتعرف صحة الكلام الذي علمت به)

قال: هل ترى أن مثل هذا الكلام أنزل على المسيح؟

وهـل تـرى لوقـا ملهمـا في قولـه هـذا الكلام؟.. وهـل تـراه كتب إنجيله بوحي من الله؟.. إنه لم يـدع أى الهـام إلهى أو الهـام من روح القدس كما نسب له فيما بعد، بل لم يكن يعرف أنهم سيعلون شـأن ما كتب كما فعل القوم لاحقا.

هو لم يذكر إلا أنه قرر أن يكتب ما يعرفه بعد أن تتبع كـل شـيء، أي أنـه قـام بـالبحث والتـدقيق والتمحيص، ممـا يعـني أنـه قـد كتبـه بكلماته البشرية وأفكاره الخاصة، وهو يعلم بالتأكيد بأنـه لم يـوح إليـه من الله لكتابة هذا الإنجيـل لأنـه لم يتحـدث عن وحي سـماوي، فقـد قال:(إذ قـد تتبعت كـل شـيء من الأول) فـأين نـرى وحي اللـه في ذلك؟

ثم إنه إذا كان لا يعرف شيئا عن الإلهام، فكيف ينسب لـه الإلهـام الذي لم يعرفه هو، بل نفاه حيث ذكر تتبعه للأحداث كما رويت له.

سكت قليلا، ثم قال: أتعرف العزيز ثاوفيلس؟

قلت: لا.. ولكن اسمه يحفظه الجميع..

قال: أجل.. لقد شرفه لوقا شرفا لم يحظ به قائد غيره.

قلت: أكان قائدا؟.. كنت أظنه رجل دين.

قال: لا.. لقد كان قائدا، ولا يعـرف بالضـبط في أي وقت عـاش.. بعضهم يذكر أنه عاش في القرن الثاني، وبعضهم يذكر أنه عـاش في القرن الرابع للميلاد.

قلت: ولكن لوقا عاش قبل ذلك.. فكيـف يكتب كتابـه لـه؟.. هـل من الممكن أن يكون لوقا قد عاش 200 سنة؟

قال: هذا ما يؤيد شك من شك في نسبة هذا الإنجيل إلى لوقا.

ثم أجبني.. هـل تـرى في هـذا الإهـداء الـذي خص بـه هـذا القائـد رائحة كتاب إلهي؟

ألا ترى أن رسائل لوقا الشخصية إلى ثـاوفيلس أصـبحت أناجيـل مقدسة؟

أليس من الممكن أن يكون لوقا قـرر بـأن يكتب إنجيلـه لأنـه أراد أن يرضي الرئيس أو القائد في ذلك العصر، وهو ثاوفيلس؟

أليست هذه الفقرة التي قرأتها ترينا بأن لوقا ما كـان ليكتب هـذا الإنجيل لو لم يكن من أجل ذلك القائد.. وأنه خطاب شخصـي.. وأنـه قام بتأليفه.. وبدافع شخصي.. وأنه نقل عن مراجع بتدقيق؟

أرجع إنجيل لوقا، وأخذ إنجيلا آخر، وقال: هذا هو إنجيل يوحنا.. إنه رابع الأناجيل.. ومع ذلك، فهو أكثر الأناجيل أهمية بين قومي وقومك.. بل هو المصدر الرسـمي لعقيـدتنا.. ذلـك لأن الغـرض من كتابتـه هـو إثبات لاهوت المسيح.

قلت: لا يمكنك أن تشكك في صحة هذا الإنجيل.. فالسند فيه ليس منقطعا كما زعمت في سائر الأناجيل.. فكاتبه هو يوحنا بن زبدى الصياد، وهو صياد سمك جليلي تبع وأخوه يعقوب المسيح، كما أن والدته سالومة كانت من القريبات إلى المسيح، بل يرجح بعضهم بأنها أخت مريم والدة المسيح.

قال: قد كنت أقول هذا.. وأمتلئ فرحا وأنا أعتقده لولا أن ظلالا كثيرة من الشك كانت تحوم حول عيني لتمنعني من التمتع بذلك الفرح.

قلت: فهلا طردتها بنور اليقين.

قال: وأين نور اليقين؟

قلت: اسمع إلي جيدا.. وسأذكر لك من الأدلة ما يطرد عنك ما تتوهمه من أوهام.

قال: لو فعلت ذلك.. فإني سأبقى مدينا لك طول حياتي.

قلت: هناك أربعة أدلة على أن هذا الإنجيل من كتابة يوحنا تلميذ المسيح.

قال: فما أولها؟

قلت: لقد كان كاتب الإنجيل يهودياً فلسطينياً، ويظهر هذا من معرفته الدقيقة التفصيلية لجغرافية فلسطين، والأماكن المتعددة في أورشليم وتاريخ وعادات اليهود...بل يظهر من الأسلوب اليوناني للإنجيل بعض التأثيرات السامية.

قال: فهل ترى كونه يهوديا فلسطينينا كافيا للدلالة على كونه من تلاميذ المسيح؟

وهل ترى معرفته بجغرافية فلسطين، وبعادات اليهود كافية لاعتباره فلسطينيا أو يهوديا.. إنك ألماني ومع ذلك تعرف العربية،

وتعرف عادات العرب.. بل تعرف من الشـوارع العربيـة مـا لا يعرفـه العرب أنفسهم؟

قلت: صدقت في هذا..

قال: فكيف يعتبر هذا دليلا على كونه من تلاميذ المسيح؟

إن هذا الكلام لو استدل به محقق في أي قضية بسيطة أو معقدة لرمي خارج وظيفته.

قلت: لدي دليل ثان.

قال: ما هو؟

قلت: ممــا يــدل على كــون الكــاتب واحــداً من تلاميــذ المســيح اسـتخدامه أسـلوب المتكلم الجمـع، وفي ذكـره كثـيرا من التفاصـيل الخاصة بعمل المسيح، ومشاعر تلاميذه.

قال: إن أي كاتب أعطي قدرة على التعبير يمكنه أن يفعل هــذا.. ولو طبقنا هذه المقاييس على الدراسة الموضوعية لأي نص لتسربت نصوص كثيرة يتقنها الوضاعون والكاذبون.

وهل ترى أي قاض في الدنيا يقبل مثل هذا الدليل في قضايا البيع والشــراء.. لا في إثبــات كتــاب يؤخــذ منــه تصــور كلي عن الكــون والإنسان والحياة؟

هات الدليل الثالث.

قلت: اعذرني.. هذا ما لدي من أدلة..

قال: لقد ذكرت أن لديك أربعة أدلة.

قلت: أجل.. كان لدي أربعـة.. ولكـني أرى أن مـا بقي منهـا أوهن من أن يسـتدل بـه.. لقـد كـان معلمنـا يـذكر لنـا من الأدلـة أن كـاتب الإنجيل هو التلميذ الذي كـان المسـيح يحبـه.. وكـان هـذا التلميـذ هـو

يوحنا نفسه.

قال: هل علمت مدى ضعف الأدلة التي يستدل بها قومي وقومك.. لكأني بهم يتلاعبون بعقولنا.. أو لكأني بهم بحسبون أنا لا عقول لنا نفكر بها.

قلت: ولكن لا يحق لك الإنكار لأجل الإنكار.. أليس الأصل حسن الظن؟

قال: صدقت.. وهذا ما انطلقت منه في دراستي الموضوعية لهذا الإنجيل.. ولكن أدلة كثيرة جعلتني أسيء الظن بهذا الإنجيل، وبكاتب هذا الإنجيل.

قلت: فاذكر لي ما توصلت إليه.

قال: اذكر لي متى كتب يوحنا هذا الإنجيل.

قلت: كتب بعد حوالي ستين عاما من رحيل المسيح على حسب ما يذكر المؤرخون[1].

قال: فمثل هذا كيف يحفظ ما قاله المسيح؟

قلت: يمكن أن يحصل هذا.

قال: لا بأس.. أتعلم المصادر التي اعتمد عليها يوحنا في إنجيله؟

قلت: لا شك أنها مصاحبته للمسيح.

قال: لا.. إن أغلب مافي إنجيل يوحنا من رسائل بولس؟ وستعرف من هو بولس.. بل قد جاء في دائرة المعارف الفرنسية التي لم يكتبها المسلمون أن إنجيل يوحنا ومرقص من وضع بولس..

قلت: أهذا ما يشككك في إنجيل يوحنا؟

قال: ليس هذا فقط.. بل يشككني أمر خطير يتفق عليه جميع

---

(1) كتب إنجيل يوحنا في حوالي 90 - 95 م.

العقلاء.

قلت: ما هو؟

قال: قبل أن أجيبك عنـه أريـد ان تـذكر لي أول جملـة بـدأت بهـا سائر الأناجيل.

قلت: أول جمله في إنجيل متىّ تقول:(كتاب ميلاد يسوع المسيح ابن داود ابن إبراهيم) (متى:1/1)

وأول جملـة في إنجيـل مـرقس:(بـدأ إنجيـل المسـيح ابن اللـه) (مرقس:1/1)

وأول جملة في إنجيل لوقـا:(إذا كـانوا كثـيرين قـد أخـذوا بتـأليف قصته)(لوقا:1/1)

قال: وبينهـا جميعـا أول جملـة في إنجيـل يوحنـا:(في البـدء كـان الكلمة..) (يوحنا:1/1)

قلت: وما الغرابة في ذلك؟

قال: إن يوحنا يوضح مقصده من هذا الإنجيل، فهـو يريـد أن يثبت فيه ما ذكره في هذه المقدمة.. ولهذا لا يوجد مثـل هـذا الكلام إلا في إنجيل يوحنا ورسائل بولس، بينما تخلو الأناجيل الثلاثة من دليل واضح ينهض في إثبات ألوهية المسيح.

ولعل خلو هذه الأناجيل عن الدليل هو الذي دفـع يوحنـا، أو كـاتب إنجيل يوحنـا لكتابـة إنجيـل عن لاهـوت المسـيح، فكتب مـا لم يكتبـه الآخرون، وجاءت كتابته مشبعة بالغموض والفلسفة الغريبـة عن بيئـة المسيح البسيطة التي صحبه بها العوام من أتباعه[1].

---

(1) ينبه ديدات إلى أن هذا النص قد انتحله كاتب الإنجيل من فيلون الإسكندراني(ت 40م)، وأنه بتركيباته الفلسـفية غـريب عن بيئـة المسـيح وبسـاطة أقوالـه وعاميـة تلاميـذه، وخاصة يوحنا الذي يصفه سفر أعمال الرسـل بأنـه عـامي عـديم العلم، فيقـول:« فلمـا رأوا مجاهرة بطرس ويوحنا، ووجدوا أنهما إنسانان عديما العلم وعاميان تعجبوا »(أعمال 4/13)

قلت: فـأنت تسـتدل بـاختلاف مقدمـة إنجيـل يوحنـا عن سـائر مقدمات الأناجيل على اختلافه عنها.

قال: ليست المقدمة وحدها.. لقد كانت المقدمـة هي الإعلان عن المقصد الذي قصده يوحنا من إنجيله.. والذي أعلن عنه بعد ذلك بكل صراحة بقوله:(وأما هذه فقد كتبت لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله)(يوحنا:20 / 3)

بعـد هـذا نـرى أن أشـياء كثـيرة يخـالف بهـا هـذا الإنجيـل سـائر الأناجيل:

فلا توجد في هـذا الإنجيـل حادثـة التجلي: أي تغـير هيئـة المسـيح على الجبل، لأن المجد الثابت و المتواصل للمسـيح الأرضـي لا يـترك مجالاً لمثل هذا الأمر.

وفيه إشارات لكون المسيح كلي العلم، ولكون قدرة المسيح غير البارزة، و لكن الموجودة الكامنة، قدرة لا حد لها.. بل إن فيه تصـويرا للمسيح على أنه لا يعتريه التعب ولا الجوع ولا العطش، وفيـه عـرضٌ للمسيح باعتباره شخصا ذا سيطرة وتسيير كاملين ومسـتديمين لكـل ما يفعله وما يحصل له حتى موته.

وهـو ينفـرد بالتصـريح باتحـاد الأب والابن حيث يقـول:(أنـا والأب واحــد) (يوحنــا:10/30)، ويقــول:(كــل من رآني فقــد رأى الأب) (يوحنا:14/9)

قلت: وسائر الأناجيل؟

قال: في الأناجيـل الثلاثـة المتشـابهة.. أي أناجيـل مـتى ومـرقس ولوقـا يـرى المسـيح محـدوداً ضـمن حـدود حياتـه الأرضـية ومنصـبه الرسالي.. فهي تعبِّر عما قاله المسيح ومـا فعلـه في حين أن إنجيـل

وفيلــون الإســكندراني (20 ق . م ـ 40 م) يهــودي عــاش في العصــر الهلنســتى بالإسكندرية، وهو فيلسوف ومفكر كان متأثراً بالفلسفة اليونانية، فقد كان يعتبر أن العقل أو اللوجوس هو الذي صدر عنه وجود كـل المخلوقـات . وكـان يكـني هـذا (اللوجـوس) بقولـه (الكلمة) ومن المعروف أن يوحنا كتب إنجيله بعد وفاة (فيلون) واسـتعار منـه (مصـطلح الكلمة)

يوحنا هو تفسير لما يمثله المسيح، فهو يعبِّر عن فهم المعنى الألوهي للمسيح، ذلك الفهم والتصور الذي تطور و نما في الدوائر المســيحية في نهاية القرن الميلادي الأول.

قلت: فكيف تفسر هذا الاختلاف؟

قال: لقد كان يوحنا ـ كما كان بولس ـ مهتما بانتشـار الـدين بغض النظر عن الاهتمام بصفائه.. لهذا جاء إنجيل يوحنـا ليعـبر عن رغبـات المتدينين الجدد الممتلئين بالوثنية.

ولهذا كان الترحيب و التهليل لفكرة المسيح إلهاً استجابة طبيعيــة لجماعة تـؤمن بإلـه يُعتقـد فيـه أن من شـأنه أنـه يكشـف عن نفسـه للإنسان ويعرِّف نفسه للإنسان.. ومن هنا نجد إنجيل يوحنا يحدثنا عن الابن الوحيد الذي أظهر اللهَ وعرَّفَه فيقول:(اللـه لم يـره أحـد، الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبَّـر) (يوحنا:1 / 18).. ويخبرنا أيضاً أن الابن (خرج من عند الآب و أتى إلى العالم)(يوحنا:16/ 28)

قلت: أهذا استنتاج استنتجته.. أم حقائق توصلت إليها؟

قال: بل حقـائق توصـلت إليهـا.. إن الـراوي الـذي يـدخل دوافعـه الشخصية في روايته يجعل روايته محل شك.

قلت: فما يثبت ذلك الشك؟

قال: بمقارنة ما ذكره بما ذكره غيره.

قلت: لم أفهم سر المقارنة.

قال: أرأيت لو أن شاهدا وقف في المحكمة، وقال أمام القاضي: غرضي من شهادتي أن أثبت لك أن المتهم مجرم.. ثم راح يــذكر من عنده أمورا كثيرة تثبت دعواه.. أيكتفي القاضي بهذه الشهادة؟

قلت: لو اكتفى بها لتوصل الناس إلى اتهام بعضهم بعضا من دون أي عناء.. فما أسهل أن يلفقـوا مـا شـاءوا من القصـص ليرموهـا في

وجوه هؤلاء القضاة الأغبياء.

قال: لقد كنا نحن جميعا أغبياء.. يأتينا رجل مثل يوحنا.. لا نعرفـه.. ولا نعرف حقيقة علاقته بالمسيح.. ليقول لنا غرضـي أن أثبت لكم أن المسيح هو الكلمة، وأن الكلمة هو الله.. فنندفع إلى تصديقه مكـذبين كل ما نعرفه من أمور متيقنة.

قلت: أليس لك دوافع من رد هذا الإنجيل.. فتتهم أنت أيضا؟

قال: لقد حسبت حسابا لهذا الاحتمـال، فلـذلك رحت أبحث عمن يؤيد هذا من الشهود العدول.

قلت: فمن وجدت؟

قال: كثيرون.. انتظر قليلا، سأحضـر قـاموس الكتـاب المقـدس.. ففيه كلام يؤيد ما أقول.

بحث عن الكتاب، ثم قال: يقـول محـررو الكتـاب:(كـان الـداعي الآخـر إلى كتابـة الإنجيـل الرابـع تثـبيت الكنيسـة الأولى في الإيمـان بحقيقة لاهـوت المسـيح وناسـوته، ودحض البـدع المضـلة الـتي كـان فسادها آنذاك قد تسرب إلى الكنيسة، كبدع الـدوكينيين والغنوصـيين والكيرنثيين والأبيونيين.. ولهذا كانت غايته إثبات لاهوت المسيح)

أتدري بم ذكرني هذا النص؟

قلت: بم؟

قال: بكذاب ظهر في المسلمين كان يضع الأحاديث، ويلفقها راويا لها عن نبي المسلمين.. طبعا علماء المسلمين كشـفوه.. فقـد كـانوا يتعاملون كما تتعامل أجهزة المخابرات مع كل من يروي حديثا.. كـان اسم هذا الكذاب نوح بن أبي مريم.

قلت: وما وجه الشبه بينهما؟

قال: لقـد قيـل لهـذا الكـذاب:(من أين لـك عن عكرمـة عن ابن

عباس في فضائل القرآن سورة سـورة؟)، فقـال:(رأيت النـاس قـد أعرضوا عن القـرآن واشـتغلوا بفقـه أبي حنيفـة ومغـازي محمـد ابن إسحاق فوضعت هذه الأحاديث حسبة)

لقد تصور أنه يكذب لصالح نبيهم ودينهم وكتابهم، ومع ذلك سموه الكذاب.. لأن الدين الحق لا ينبغي أن ينصر بأهوائنا.

قلت: أرأيت لو أن هذا الرجل كان بيننا.

قال: لو كان بيننا لجعلوه قديسا.. ولا يبعـد أن يجعلـوا مـا اقترفـه من كذب رسائل من الرسائل تضم إلى رسائل العهد الجديد.

أصـدقك يـا صـاحبي أن البـون بيننـا وبينهم عظيم جـدا في هـذا الباب.. هم متحرون أخطر من كل متحر.. لا يبحثون إلا عن الحقيقة.. ومن مصادرها الصحيحة.

قلت: عد بنا إلى يوحنا.

قال: لقد ذكـرت لـك أني لم أكتـف بمـا توصـلت إليـه، بـل رحت أبحث في قوائم الشهود الواعين.. فوجدت الكثير يؤيدني.

لقد وجدت أن ثمة إنكار قديماً لصحة نسبته ليوحنا، وقد جـاء هـذا الإنكار على لسـان عـدد من الفـرق المسـيحية القديمـة، منهـا فرقـة ألوجين في القرن الثاني، كما قال صاحب كتاب (رب المجد):(وجد منكرو لاهوت المسيح أن بشارة يوحنا هي عقبة كـؤود، وحجـر عـثرة في سبيلهم، ففي الأجيال الأولى رفض الهراطقة يوحنا)

قلت: ولكنه يسميهم هراطقة.

قال: هذه عادتنا في التعامل مع من يخالفنا.. فلا تنظـر إلى بـذاءة لسانه، وانظر إلى نتيجة ما قاله.. إنه يصرح بأن هذا الإنكـار امتـد من الأجيال الأولى.

وقد قالت دائرة المعارف البريطانية تؤكد هذا.. انتظر..

أخذ جزءا من دائرة المعارف البريطانية، وراح يقرأ:(هناك شهادة إيجابية في حق أولئك الـذين ينتقـدون إنجيـل يوحنـا، وهي أنـه كـانت هناك في آسيا الصغرى طائفة من المسيحيين ترفض الاعتراف بكونه تـأليف يوحنـا، وذلـك في نحـو 165م، وكـانت تعـزوه إلى سـرنتهن (الملحد) ولا شك أن عزوها هذا كان خاطئاً)

قلت: إن دائرة المعارف البريطانية تكذب هذه النسبة.

قال: لا يهمنا صدقها أو كذبها.. ولكن ما يهمنـا هـو أن هنـاك شـكا في النسبة.

قلت: ولكن هؤلاء نسبوه لملحد.

قال: وذلك ما قد يقوي الشـك.. لقـد حـاول الملاحـدة أن يضـعوا الأحاديث الكثيرة في الإسلام ليحطموا بها بنيان الإسلام، ويحرفوا بهـا عقائده، لكن صيارفة الحديث تصدوا لهم.

قلت: فأين صيارفتنا؟

قال: للأسف لم يكن لنا صيارفة..

الرسائل:

سكت قليلا، ثم قال: هذا هو الجزء الأول من العهد الجديـد.. وهـو الأصل الذي كان ينبغي على الكنيسة أن تكتفي به.. لأنه ـ على الأقـل ـ يرتبط بالمسـيح.. وفيـه كثـير من نفحـات الصـدق.. ولكن الـذي لم يسـتطع عقلي أن يتقبلـه هـو تلـك الكتب الزائـدة الـتي أقحمت في الكتاب المقدس إقحاما، مع أنه لا علاقة لمؤلفيها بالمسيح.

وهي لم تكتف بـأن تكـون كتبـا زائـدة.. بـل راحت تحـرف الكتب الأصلية، وتنسخ أحكامها.. فإن شئت أن نبحث في حقيقتها فعلنا.

قلت: المنهج العلمي يقتضي ذلك.. فلنفعل ما تتطلبه الحقيقة.

نظر إلي بسرور، وقال: لقد بدأت تفهمني.. نحن الآن نقترب أكثر

فأكثر من بعضنا.

سـار إلى رف من الرفـوف، وقـال: هـذه هي ملحقـات الكتـاب المقدس.. لا شك أنك تعرفها.

قلت: وهل في ذلك شك.. أنسيت أني رجل دين؟

قال: عفوا.. لم أقصد ذلك.. بل قصدت أن تعدها لي لننطلــق في البحث عن حقيقتها.

قلت: لا تثريب عليك.. نعم.. لقد ألحق بالأناجيل الأربعـة عـدد من الرسائل، وهي سفر أعمـال الرسـل، ورسـائل بـولس الأربـع عشـر، ورسـالة يعقـوب، ورسـالتا بطـرس، ورسـائل يوحنـا الثلاث، ورسـالة يهوذا، ورؤيا يوحنا اللاهوتي.. وهي خاتمة هذه الملحقات.

قال: فلنبدأ بأولها.

قلت: أعمـال الرسـل هـو أولهـا.. وهـو سـفر يتكـون من ثمـان وعشـرين إصـحاحاً، تتحـدث عن الأعمـال الـتي قـام بهـا الحواريـون والرسل الذي نزل عليهم روح القدس يوم الخمسـين (2/1 -ـ 4)، من دعوة ومعجزات، كما يتحدث عن شاول ودعوتـه ورحلاتـه وقصـة تنصره وبعض معجزاته.

قال: أتعلم من هو مؤلف هذا السفر؟

قلت: أجل.. هو لوقا، مؤلف الإنجيل الثالث، وما في افتتاحيته يدل على ذلك، فقد جاء فيها:(الكلام الأول أنشأته يـا ثـاوفيلس عن جميـع ما ابتدأ يسوع يفعله..) (أعمال 1/1).

قـال: فقـد عرفنـا أن لوقـا لم يكن حواريـا.. ولم يكن لـه علاقـة بالمسيح.. فكيف يكون كتابه مقدسا؟

قلت: لقد انعقدت المجامع على هذا.

قال: نعم.. لقد انعقدت تلك المجامع المشـؤومة على هـذا.. لقـد

انتقت ما رأته صالحا لإرضاء الأباطرة والوثنيين وردمت ما سوى ذلك.

صمت قليلا، ثم قال: ومع ذلك.. فإن هناك شكا في نسبة هذا السفر للوقا.

قلت: ما تقول؟.. وهل طال الشك هذه الملحقات أيضا؟

قال: لقد اختلف إنجيل لوقا مع سفر الأعمال في مسألة الصعود إلى السماء.. حيث يفهم من إنجيل لوقا أن صعود المسيح للسماء كان في يوم القيامة، كما في (لوقا 24/13 -ـ 51)، بينما نراه في أعمال الرسل يتحدث عن ظهور المسيح بعد القيامة، فقد ذكر ظهوره بعد أربعين يوماً، كما في(أعمال الرسل: 1/3).. وهذا الاختلاف يملؤنا بالشك في صحة نسبة هذا السفر إلى لوقا.

قلت: ورسائل بولس.. أتشك فيها أيضا؟

قال: هي الأجزاء الوحيدة من الكتاب المقدس التي قد لا يشك فيها أحد.

قلت: فقد ظفرنا بمصدر موثوق إذن.

قال: نعم لك أن تثق بها.. ولكن ليس لك أن تثق به.

قلت: ما تقصد.. فمن هي؟.. ومن هو؟

قال: هي رسائله.. وهو شخصه.

قلت: فما الذي يرفع الثقة عن شخصه؟

قال: لقد تتبعت سيرته، ثم قرأت رسائله قراءة متأنية، فاتضح لي بعد جهد مضن صدق مقالة المسلمين فيه.

قلت: وما يقولون؟

قال: سأقرأ عليك ما يقول بعضهم فيه.

ذهب إلى كتاب في المكتبة، لم أتبينه، وقلب صفحاته إلى أن وجد النص الذي يريد، ثم راح يقرأ:(.. إن كان بولس عند أهــل التثليث في رتبــة الحــواريين، لكنــه غــير مقبــول عنــدنا، ولا نعــده من المؤمــنين الصــادقين، بــل من المنــافقين الكــذابين، ومعلمي الــزور، والرســل الخداعين، الذين ظهروا بالكثرة بعد عروج المسيح)

انتفضت غاضبا.. وقلت: أغلق هذا الكتـاب أو احرقـه.. هـذا كتـاب هرطقات.

قال: اصبر.. ألم نتفق على البحث العلمي العقلي المجرد؟.. دعنا نسمع لهؤلاء، فقد يكون لديهم من الحقيقة ما ليس لدينا.

واصل القراءة، وواصلت الاستماع.. قال: لقد ذكر هذا الكاتب سر موقفه من بولس، فقال:(هو خرق الدين المسيحي، وأباح كل محرم لمعتقديه، وكان في ابتداء الأمر مؤذياً للطبقة الأولى من المسـيحيين، جهراً، لكنه لما رأى أن هذا الإيذاء الجهري لا ينفع نفعاً معتداً به، دخــل على سـبيل النفـاق في هـذه الملـة وادعى رسـالة المسـيح، وأظهـر الزهد الظاهري. ففعل في هذا الحجاب ما فعـل، وقبلـه أهـل التثليث لأجــل زهــده الظــاهري، ولأجــل فــراغ ذمتهم عن جميــع التكــاليف الشرعية. كما قبل أناس كثـيرون من المسـيحيين في القـرن الثـاني منتش الذي كان زاهداً مرتاضاً وادعى أنه هو البارقليط الموعــود بــه، فقبلوه لأجل زهده ورياضته)

قلت: أنت تنقل من المسلمين.. وهم أعداء ما جهلوا..

قال: ألسنا نبحث عن الحقيقة؟

قلت: بلى.. ولكن من فم الأصدقاء.. لا من أفواه الأعداء.

قال: ولكن هؤلاء الذين نتصـورهم أعـداء صـادقون، وهم ينهجـون المنهج الصحيح للحقيقة.. إنهم يطبقون مـا ورد في كتـابهم المقـدس الذي ينهاهم عن الجور حتى مع الأعداء.. إنه يقول لهم بقوة وحزم:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَــنَآنُ

قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}(المائدة:8)

ويقول لهم بلطف ومودة ناصحا ومربيا:{ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً}(الاسراء:36)

فهو لذلك قد زودهم بالمنهج الصحيح للبحث عن الحقيقة.

قلت: دعنا منهم.. ولنعد إلى بولس.. ورسائل بولس.

قال: نعم هذه الرسائل قد تكون نسبتها صحيحة إلى بولس.. فهي تمتلئ بعبارات تدل على أنه كاتبها.. وهي لذلك تصطبغ بالصبغة الشخصية له، فهي ليست لاهوتية الطابع، بل رسائل شخصية لها ديباجة وخاتمة..

ومع ذلك كله، فليس ثمة إجماع على صحة نسبة هذه الرسائل إلى بولس، بل إن بعض المحققين يميل إلى أن أربع رسائل منسوبة إليه كتبت بيد بعض تلاميذه بعد وفاته بعشرين سنة كما ذكرت دائرة المعارف البريطانية.

بل إن أرجن يشكك ـ في شرحه لإنجيل يوحنا ـ بجميع رسائل بولس المرسلة إلى الكنائس فيقول:(إن بولس ما كتب شيئاً إلى جميع الكنائس، والذي كتبه هو سطران أو أربعة سطور)

قلت: عرفت موقفك من بولس.. فلنرجع إلى الرسائل الأخرى وأصحابها.

قال: أنت تعرف أنها سبع رسائل: ثلاث منها ليوحنا، وثنتان لبطرس، وواحدة لكل من يهوذا، ويعقوب، ثم رؤيا يوحنا اللاهوتي.

فلنؤخر الكلام عن الرؤيا.. ولنبدأ بالرسائل.

قلت: هذه الرسائل تكتسب قدسيتها من كون مؤلفيها من

التلاميذ الإثنى عشر:

فبطرس هو صياد سمك في كفر ناحوم، ويعرف بسمعان، بل إن محرري قاموس الكتاب المقدس يرجحون كونه من تلاميذ يوحنا المعمدان قبل صحبته المسيح، وذلك مما يزيدنا به ثقة.

ولذلك يتقدم على سائر تلاميذ المسيح، وقد دعا في أنطاكية وغيرها، ثم قتل في روما في منتصف القرن الميلادي الأول.

وأما يعقوب، فهو ابن زبدى الصياد ـ أخو يوحنا الإنجيلي ـ وهو من المقربين للمسيح، وقد تولى رئاسة مجمع أورشليم سنة 34م، وقد كانت وفاته قتلاً على يد أغريباس الأول عام 44م[1].

أما يهوذا، فقد اختلفت فيه المصادر، فبعضها يذكر أنه يهوذا أخو يعقوب الصغير أي انه ابن زبدى، وبعضها يذكر أنه الحواري الذي يدعى لباوس الملقب تداوس.. ولا يهم هذا الاختلاف ما دام لا يخرجه عن الحواريين.

قال: عندما أنظر إلى الطريقة التي تعامل بها المسلمون مع التراث العظيم الذي وصلهم من النصوص أشعر بالأسى والحزن.

قلت: لم؟

قال: إن المسلمين فرقوا بين كلام ربهم المقدس، وكلام نبيهم، وكلام أصحابه من بعده.. فوضعوا كل شيء في محله الصحيح.

بل إنهم في تعاملهم مع كلام أصحابه لم يثبتوا إلا ما يتعلق بآرائهم وأقوالهم جاعلين لأنفسهم كل الحرية في مناقشتهم والرد عليهم.

قلت: ونحن؟

قال: نحن وضعنا الكل في سلة واحدة.. ثم اعتبرنا الكل مقدسا.. بل إنا اكتفينا بأقوال من نعتبرهم تلاميذا أو تلاميذ التلاميذ ونسينا كلام

---

[1] هذا على الأرجح، وقد ذهب آخرون إلى أن اليهود قتلوه حين طرحوه من جناح الهيكل ورموه بالحجارة سنة 62م .

المسيح والأنبياء.. بل نسخنا كلام المسيح والأنبياء.. فكيف نسمي هذا (كلمات مقدسة)

قلت: ولكن أليس الإلهام وحيا؟

قال: وهل أخبر المسيح أن الرسائل الشخصية لتلاميذه، أو تلاميـذ تلاميذه ستتحول وحيا إلهيا.. إن الإلهام هو أخطـر خرافـة أوقعتنـا في المتاهة التي لم نخرج منها.

قلت: أليس الإلهام مصدرا من مصادر الحقيقة؟

قال: لو فتحنا هذا الباب لم نخرج.. ما أسهل أن يدعي أي مشعوذ أنه ملهم.. بل ما أسرع أن يدعي جميع من يملـك نفسـا مريضـة أنـه يوحى إليه..

أتعلم.. لقد تعـرض المسـلمون لهـذا النـوع من النـاس.. بـل نص قرآن المسلمين على وجـود هـذا النـوع من النـاس، فقـال:{ وَكَـذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُـلِّ نَبِيٍّ عَـدُوّاً شَـيَاطِينَ الْأِنْسِ وَالْجِنِّ يُـوحِي بَعْضُـهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُـرُوراً وَلَـوْ شَـاءَ رَبُّكَ مَـا فَعَلُـوهُ فَـذَرْهُمْ وَمَـا يَفْتَـرُونَ} (الأنعام:112)

قلت: فكيف نفرق بينهما؟

قال: وحي الشياطين ليس له إلا هـدف واحـد هـو نسـخ كلام رب العالمين وتحريفه.. فهل ترى فرقا بين كلام المسيح وكلام التلاميذ؟

قلت: إن شئت الحقيقة، أنا أرى فروقا كثيرة بينهما.

قـال: فكيـف تزعمـون أن الكـل مقـدس!؟.. المقـدس معصـوم محفوظ.

ثم صمت قليلا، ثم قال: ومع كل هذا.. فنسبة هـذه الرسـائل إلى كاتبيهـا كـانت محـل جـدل طويـل في القـرون الأولى، لقـد وقـع في أكثرهـا نفس الخلاف الـذي وقـع في رسـالة بـولس إلى العبرانـيين..

بالإضـافة إلى أن الاعـتراف برسـالة بطـرس الثانيـة ورسـالتي يوحنـا الثانية والثالثة ورسالتي يعقوب ويهوذا ورؤيا يوحنا اللاهوتي تـأخر إلى أواسط القرن الرابع الميلادي.

قلت: فما تقول في رؤيا يوحنا اللاهوتي؟

ابتسم، وقال: وما تقول أنت؟

قلت: هي رؤيا عظيمة، ولكني لا أكاد أفهمها.

ابتسم، وقال: حدثني بعقلك.. لا بما لقنته.

قلت: لست أدري ما أقول.

قال: أعرف القيود التي تحول بينك وبين أن تقول ما تريـد.. ولكن لا بأس سأقول أنا.. أنا المتحرر من سـلطان الكنيسـة.. المتحـرر من كل القيود.. عدا قيود العقل والمنطق.

سرني قوله هـذا.. على الأقـل سأسـمع بـأذني مـا لم أجـرؤ على قوله بلساني.

قال: أنت تعلم أن هذا السفر يحوي رؤيا منامية غريبـة، ليس لهـا من غاية غـير تقريـر ألوهيـة المسـيح، وإثبـات سـلطانه في السـماء، وخضوع الملائكة له.. بالإضـافة إلى بعض التنبـؤات المسـتقبلية الـتي صيغت بشكل رمزي غامض.

أول ما يشدك إلى هذه الرؤيا هو الأسلوب الذي يوصف اللـه بـه، إنه يصف الله، فيقول:(من أجل ذلك هم أمام عرش الله، ويخدمونـه نهاراً وليلاً في هيكله، والجالس على العرش يحل فوقهم، لن يجوعـوا بعد ولن يعطشوا بعد، ولا تقع عليهم الشمس ولا شيء من الحرّ، لأن الخروف الذي في وسـط العـرش يرعـاهم ويقتـادهم إلى ينـابيع مـاء حيّة، ويمسـح اللـه كـل دمعـة من عيـونهم)(الرؤيـا 7/15 ـ 18).. ألا ترى أنه يصف ربه على أنه خروف.. أي وصف هذا؟.. وأي أدب هذا؟

ولا يكتفي بــذلك.. بــل يصــور الصــراع بين التــنين وملائكتــه مــع الخروف الجالس على العرش وملائكتـه، فيقـول:(هـؤلاء سـيحاربون الخروف، والخروف يغلبهم، لأنه رب الأرباب وملـك الملـوك، والـذين معه مدعوون ومختارون ومؤمنون)(الرؤيا 17/14)

.. سأكتفي بهذا..

قلت: هذه معاني رمزية قـد لا يفهمهـا أنـا ولا أنت.. ولكن ذلـك لا يضرها.

قال: إذا كنت أنا وأنت.. ونحن ندرس الكتاب المقدس، ونتفرغ له لم نفهم هذا الكلام، فكيـف يكـون كلامـا مقدسـا يـوحي بـه اللـه إلى عباده ليقرؤوه ويتعرفوا عليه من خلاله!؟

قارن ذلك الوصف لله مع ما ورد في كتـاب المسـلمين المقـدس الذين نضحك عليه، ونسخر منه:

لقد ورد فيه قوله:{ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِـنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَـا فِي السَّـمَاوَاتِ وَمَـا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْـفَعُ عِنْـدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِـعَ كُرْسِـيُّهُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلا يَـؤُودُهُ حِفْظُهُمَـا وَهُـوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}(البقرة:255)

وورد فيه:{ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يَذْرَأُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّـمِيعُ الْبَصِـيرُ} (الشورى:11)

إن إله المسلمين إله قدوس مـنزه عن كـل نقص، بـل مـنزه عن كل كمال لا يليق به.. وهو الذي يتناسب مع صانع هذا الكون.. فالكون يدل على أن صانعه منزه كامل.. فكيف ننزل بهـذا الإلـه الكامـل إلى هذا الوصف الذي وصفه به يوحنا في رؤيا منامية.

صـمت، فقـال: ألا تسـتغرب أن تسـطر رؤيـا منامية في سـبعة

وعشرين صفحة؟

قلت: لا حرج في ذلك.. فهي ليست رؤيا كسائر الرؤى.

قـال: صـدقت.. هي ليسـت رؤيـا كسـائر الـرؤى.. فلنـترك هـذا.. ولنترك اعتبارها من الإلهام الذي توحيه الشياطين.. ولنترك كونهـا من رجل لا علاقة له بالمسيح.. فلنترك كل ذلك..

ومع ذلك نجد تشكيكات أخـرى.. لا من المسـلمين.. بـل من آبـاء الكنيسة الأوائل.. فهذا كيس برسبتر الروم (212م)يقول:(إن سفر المشاهدات (الرؤيا) من تصنيف سرنتهن الملحد)، ومثل هـذا قالـه ديونسيش الذي هو من قدماء الآباء.

اسمع ما ورد في مدخل هذا السفر:(لا يأتينا سـفر يوحنـا بشـيء من الإيضاح عن كاتبه لقد أطلق على نفسه اسم يوحنـا، ولقب نـبي، ولم يذكر قط أنه أحد الإثنى عشر.. هناك تقليد كنسي وهـو أن كـاتب الرؤيا هو الرسول يوحنا.. بيد أنه ليس في التقليد القديم إجمـاع على ذلك، وقد بقي المصدر الرسولي لسـفر الرؤيـا عرضـة للشـك، وآراء المفسـرين في عصـرنا متشـعبة، ففيهم من يؤكـد أن الاختلاف في الإنشاء والبيئة والتفكير اللاهوتي تجعل نسـبة الرؤيـا والإنجيـل الرابـع إلى كاتب واحد أمراً عسيراً.

يخالفهم آخرون يرون أن الرؤيا والإنجيل يرتبطان بتعليم الرسـول على يد كتبة ينتمون إلى بيئات أفسس)

2 ـ النقصان

قلت: قد علمت أدلتك على وجود الزيادة، فما أدلة نقصان الكتاب المقدس؟

أشار إلى ركن فارغ في الكتاب المقـدس، وقـال: هـل تـرى هـذا الركن؟

قلت: أجل.. ولكنه فارغ.. هلا اشتريت الكتب التي تملؤه ليتناسـق

مع غيره؟

قال: لقد ظللت طول عمـري أبحث عن الكتب الـتي تملـؤه، فلم أجدها.

قلت: لـو أنـك حسـبت أطـوال الكتب وأحجامهـا، وذهبت إلى أي مطبعة لطبعت لك الحجم الذي تريد، وبالألوان التي تريـد.. فيتناسـق هذا الركن مع سائر الأركان.

ابتسم، وقال: إنك تذكرني بما يفعل قومي وقومك حين يتلاعبـون بالكتب المقدسة.. ولكني لا أستطيع أن أفعل هـذا.. لقـد تـركت هـذا الركن، وفي نفسي حلم عظيم أرجو أن ييسر الله لي تحقيقه.

قلت: وما هو؟

قال: أن يرزقـني تلـك الأسـفار المقدسـة الـتي خبأهـا قومنـا في سراديب النسيان، فأنقصوها من الكتاب المقدس.

قلت: وهل حصل النقص في الكتاب المقدس؟

قال: أجل.. وهو كثير.. وقد أشـار إليـه قـرآن المسـلمين، فقـال: { إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَـا أَنْـزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَـابِ وَيَشْـتَرُونَ بِـهِ ثَمَنـاً قَلِيلاً أُولَئِكَ مَـا يَـأْكُلُونَ فِي بُطُـونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}(البقرة:174)

قلت: يمكن لكتاب المسلمين أن يقول أي شيء.. ولكني أريد أن أبحث عن مدى صـدق ذلـك في الواقـع.. فهـل هنـاك شـك في نقص بعض الكتب المقدسة؟

قال: أجل.. ولننتهج النهج الذي استعملناه سـابقا..هنـاك نقص في الصحف، وهناك نقص في الكلمات.

الصحف الناقصة:

قلت: فلنبدأ بالصحف التي تتصور نقصانها.

قال: أجل.. ولنبدأ بأسفار العهد القديم.

قلت: هل هناك صحف ناقصة من العهد القديم؟.. إني أراه ضخما لا يحتاج إلى أي زيادة.

قال: يمكنك أن تقسم كتب العهد القديم التي أصيبت بهـذا الـداء إلى قسمين: قسم فقد مطلقا، ولم نعد نعرفه إلا من خلال النصـوص التي تذكره أو أتشير إليه.. وقسم لم يفقد، ولكن طوائـف كثـيرة من أهـل ديننـا ينكرونـه، من غـير حجـة تـدل على إنكـاره إلا كـونهم لا يرتضونه.

قلت: هذا كلام مجمل.. فهات تفاصيله.

قـال: فلنبـدأ بالقسـم الأول.. ذلـك القسـم الـذي تـركت لـه هـذا الركن.. وأنا آسف حزين على الثروة المقدسة التي أضاعها قومنا.

قلت: وما هي؟

قال: إذا رأيت كتابـا تثـق فيـه يرجـع إلى بعض المراجـع، أو يثـني عليه، أو يقدح فيه.. أيبقى عندك شك في وجود ذلك المرجع؟

قلت: لا.. إلا إذا كذبت بالمصدر الذي ذكر ذلك.

قال: فإن كان الكتاب المقدس هو الذي ذكر ذلك.

قلت: حينها.. أعتبر من الهرطقة أن أكذبه.

قال: فاحذر من الهرطقة.. واعلم أن هناك أسفارا كثيرة ضاعت.. سأذكر لك منها ما يشير إليه الكتاب المقدس فقط:

منها سفر حروب الرب، وقد جاء ذكر اسم هذا السـفر في سـفر العدد (21/ 14)

ومنها سفر ياشر، وقد جاء ذكر اسم هذا السفر في سفر يشـوع(10 / 13)

ومنها سفر أمور سليمان، وقد جاء ذكره في سفر الملوك الأول (11: 41)

ومنها سفر مرثية أرميا، وجاء ذكـر هـذه المرثيـة في سـفر أخبـار الأيام الثاني (35: 25)

ومنها سفر أخبار ناثان النبي.. وسفر أخيا النبي الشيلوني.. وسفر رؤى يعدو الرائي.. وقد جاء ذكر هذه الاسفار جميعـا في سـفر أخبـار الايام الثاني (9: 29)

ومنها سفر أخبار جاد الرائي، وقد جاء ذكره في سفر أخبار الأيـام الأول (29:31)

ومنها كتاب العهد لموسى، وقد جاء ذكره في سفر الخـروج (24 : 7)

وغيرها..

قلت: علمت أمثلة القسم الأول.. فما أمثلة القسم الثاني؟

قال: هي أسفار كثيرة أيضا حذفنها طائفة كبيرة من قومنا.. وهي تتشير إلى طبيعة الانتقاء التي لا نزال نجني شوكها.

قلت: أي طائفة.. وما الكتب التي حذفتها؟

قال: كلنا تلك الطائفة.. كلنا حذفنا من الكتاب المقدس بأهوائنا ما لم نرغب فيه.. كما أنا كنا أثبتنا فيه ما أملاه علينا الهوى.

قلت: حدثني عن الطائفة المحددة والكتب المحددة.

قال: أحـدثك عنهـا كمثـال لتلاعبنـا بالكتـاب المقـدس، لا كحقـائق نهائية محصورة.

قلت: أعلم ذلك.

قال: فتلك الطائفة إذن هي طائفة البروتسـتانت الـتي انتقت من

الكتاب المقدس ما تراه، وحذفت منه ما لم تره[1].

ثم قام إلى ركن من المكتبة، واخذ نسـخة من الكتـاب المقـدس، وقال: انظر هذه الطبعة من الكتاب المقدس، هي طبعـة دار الكتـاب المقدس.. انظر إلى فهرستها.. فلن تجد بعضاً من الأسفار المقدسـة الـتي حـذفها البروتسـتانت مخـالفين بـذلك كـل المسـيحيين من الأرثوذكس والكاثوليك.. فهم في كافة أنحاء العالم يؤمنون بقانونيتها.

قلت: أنت تقصـد الأسـفار القانونيـة الثانيـة.. أو مـا يسـميه البروتستانت (الأبوكريفا) التي تعني (المخفية)

قال: أجل.. وهم يعتبرونها بهذه التسمية أسفاراً مدسوسة، لأنها لا ترقى إلى مستوى الوحي الإلهي كما أنها تضـم موضـوعات غـير ذات أهمية وخرافات لا يقبلونها.

قلت: أعرف هذه الأسفار.. وقومي من الكاثوليـك يـدافعون عنهـا أي دفاع:

أولها سفر **طوبيا**، ويضم 14 أصحاحا، ومكانه بعد سـفر نحميـا.. وهذا السفر يتحدث عن طوبيا الذى سمى هـذا السـفر باسـمه، وهـو رجل من سبط نفتالي سباه (شلمنآسـر) ملـك أشـور، وسـكن أثنـاء السبي في مدينة نينوى مع حنة امرأته وابنه الذى كان له نفس الاسم (طوبيا)، ومن المرجح أن يكون طوبيا الابن هو الذي كتب هذا السـفر قبل مولد السيد المسيح بزمان.

وهو سفر يتضمن وصفاً لسيرة عائلة إسرائيلية تقيـة عاشـت في زمن الأسر الأشورى نحو سنة 722ق.م وتقلبت عليها الأحـوال، وقـد نال جميع أفراد هذه العائلة كرامه وثنـاء بسـبب محـافظتهم الدقيقـة على شريعة الرب ولإحسانهم إلى الذين يحبونها.

ولست أدري ما الذي حال بين البروتسنت وهذا السـفر.. مـع أنـه

1() المعلومات المنقولة هنا عن الخلاف بين الكاثوليك والبروتستنت في اعتبـار هـذ الأسفار مستفادة من مقال منقول من موقع كنيسة السيدة العذراء مريم بدرياس.

جاء فى القانون 27 لمجمـع قرطاجنـة اعـتراف صـريح بقانونيـة هـذا السفر وسفر يهوديت.. كما سماه القـديس كبريـانوس فى مقـال لـه بأنه (كتاب طوبيا الموحى به من الله)

زيادة على هذا.. فقد استشهد بالسفر الكثير من المشـاهير الآبـاء الأولين في كتابتهم.. بل قد وردت اقتباسات من هذا السفر في العهد الجديد نقلها عنه في الإنجيل والرسائل كـل من مـتى ولوقـا وبـولس الرسول.

ومنها سفر **يهوديت**، وهو يتكون السفر من ستة عشر أصحاحاً.. ويحكي حكاية بطلة يهوديـة أنقـذت بمعونـة الـرب وبـذكائها وحكمتهـا شعبها من بطش أعدائه[1].

قال: كاتب هذا السفر مجهول، وهو قـد كتب أولاً باللغـة العبريـة، والأصل العبري مفقود.. ولم يبق منه إلا نصه باللغة اليونانيـة، ولـذلك نجده ضمن باقي أسفار العهد القديم في الترجمة السبعينية للتوراة.

قلت: أجل.. ولكن هنـاك أدلـة كثـيرة تـدل على أنـه من الكتـاب المقدس.. فقد أقر مجمع نيقيـة الأول قانونيـة هـذا السـفر، واعتـبره واحداً من الأسفار الموحى بهـا، كمـا أن مجمـع قرطاجنـة في قانونـه السابع والعشـرين اعـترف بـأن هـذا السـفر من الأسـفار القانونيـة.. ويضـــاف إلى هـــذا كلـــه أن المجمعين اللـــذين عقـــد أحـــدهما في القسطنطينية وأكمل في ياش عـام 1642، والـذي عقـد ثانيهمـا في أورشليم عام 1672، قد أقر سـفر يهـوديت ضـمن الكتب المقدسـة الموحى بها قائلين عنهـا أنهـا كتب مقدسـة إلهيـة.. كمـا صـدر قـرار بنفس هذا المعـنى أيضـاً من المجمـع التريـدنتينى اعترافـاً بمجموعـة الأسفار القانونية الثانية باعتبار أنها جميعاً واردة في النسخة السبعينية التي ترجمت فيها التوراة للغة اليونانيـة سـنة 280 قبـل الميلاد، وقـد عقد هذا المجمع في ترينت عام 1456 م.

بالإضـافة إلى هـذا كلـه استشـهد الكثـير من القديسـين من آبـاء

(1) انظر الحديث عن هذا السفر، وما يحتوي عليه في الفصول التالية.

الجيـل الأول والثـاني والثـالث والرابـع وغـيرهم بسـفر يهـوديت في كتـــابتهم.. ومنهم إكليمنـــدس الرومـــانى في رســـالته الأولى إلى كورنثـوس.. والقـديس إكليمنـدس الإسـكندري في كتابـة المـربى.. والقديس أوريجانوس في كتابه الصـلاة.. والقـديس البابـا أثناسـيوس الرسـولي في خطبتـه الثانيـة ضـد أريـوس، والقـديس إيرونيمـوس والقديس أمبروسيوس وغيرهما فى كتاباتهم.

وفوق هذا.. فإن هناك اقتباسات من هـذا السـفر أوردهـا كـل من لوقا وبولس في نصوص العهـد الجديـد.. ومنهـا (فأمـا الـذين يقبلـوا البلايـا بخشـية الـرب أبـدوا جـزعهم وعـادوا تـذمرهم على الـرب، فاستأصلهم المستأصل وهلكوا بالحيات) (يهـوديت: 8:ـ 24،ـ 25)، فقد ورد ما يقابله في رسـالة بـولس الرسـول الأولى إلى كورنثـوس بقولـه:(ولا تجـرب المسـيح كمـا جـرب أيضـاً أنـاس منهم فـأهلكتهم الحيات) (1كو 10:9)

وزيـادة على هـذا، فـإن بعض الكنـائس البروتسـتانتية، كالكنيسـة الألمانية تقر هذا السفر، وتعتبره ضمن الأسفار القانونية.. بل قد كتب بعض مشـاهير الكتـاب والمـؤلفين البروتسـتانت تقريظـات عن هـذا السفر.

التفت إليه، فرأيته ينصت، وكأنه يبتسم، واصلت دفـاعي عن تلـك الأسفار، قلت: ومنها سـفر **إستير**.. وهـو السـفر السـابع عشـر من أسفار التوراة بحسب طبعة دار الكتاب المقدس، غير أنة يوضـع بعـد سفر يهوديت بحسب عقيدة الكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية.

وقد دلت البراهين التاريخية على صدق وقانونية سفر إسـتير كلـه بما فيه من إضافات يعتبرها الأرثوذكس والكاثوليك قانونية وصحيحة:

قـال: ويمكنـك أن تضـيف لمعلوماتـك عن هـذا السـفر أن كاتبـه مجهول.. ولو أن البعض يرجح أنه عزرا أو مردخاي.. ومثل ذلـك زمن كتابته فهو غير معروف على جهة التحقيق..

وأضف إلى هذا كله أن اسم (الله) لم يذكر مرة واحدة في هـذا

السفر.. ولذلك ظل موضع نقـاش كثـير إلى أن اسـتقر البروتسـتانت على قبول العشرة إصحاحات الأولى منه.. ولسـنا نـدري مـاذا يخـبئ الزمن لهذا السـفر.. هـل يمن عليـه بـالقبول.. أم سـيرمى كمـا رمي غيره!؟

قلت: ومن هذه الأسـفار **سـفر الحكمة**، وهـو سـفر يلي نشـيد الإنشاد لسـليمان الحكيم.. وهـو مكـون من 19 إصـحاحا كلهـا تفيض بأحاديث حكيمة عميقة المعاني الروحانية.. وقد ورد هذا السفر ضمن أسفار التوراة في النسخة السبعينية المترجمة إلى اليونانية.

قال: لقد ذكرت وجهة نظرك، ووجهـة نظـر الطائفـة الـتي تنتمي إليهـا.. أتـدري لم حـذفت الطائفـة المخالفـة (البروتسـتانت) هـذه الأسفار؟

انتفضت غاضبا، وقلت: البروتسنت طائفة مارقة.. ولـذلك قـامت حروب بين البروتستانت والكنيسة البابوية برئاسة البابا بولس العاشر قتل فيها عشرات الآلاف وأحرقت ودمرت فيهـا بعض المـدن ومئـات من الكنائس والأديرة.

إنك لا تعـرف مـارتن لـوثر قائـد الثـورة البروتسـتانتية.. لقـد كـان معروفا بالشطط والكبرياء.. ألم تسمع ما قال.. لقد قال:(إنني أقول بدون افتخار أنة منذ ألف سنة لم ينظف الكتـاب أحسـن تنظيـف ولم يفسـر أحسـن تفسـير ولم يـدرك أحسـن إدراك أكـثر ممـا نظفتـة وفسرتة وأدركته).. أتظن أنه بعد هذا الكلام سيبقي الكتاب المقدس على حاله.. بل إن لوثر وأتباعه حذفوا في زمانهم أسـفاراً أخـرى من العهد الجديد مثل سفر الأعمال ورسالة يعقوب.. بل قيل إنهم حـذفوا سـفر الرؤيـا، غـير أنهم أعـادوا هـذه الأسـفار لمكانهـا في الكتـاب المقدس لما قام الناس في وجوههم.

قـال: أتعلم أن مـا فعلـه البروتسـتنت هـو نفس مـا فعلـه قـومي وقومــك قبلهم في المجــامع المختلفــة مــع الموحــدين، وأســفار الموحدين؟

قلت: كيف ذلك؟

قال: سأقص عليك الحكاية من أولها.. لتعرف بعض العبث الـذي أصاب كتابنا المقدس.

قلت: لقد أنصت لي.. فها أنا أنصت لك.

قـال: أنت تعلم أن الكتـاب المقـدس بشـقه الأول نتـاج عمـل العشـرات من المـؤلفين الـذين اجتهـدوا في تسـجيل تـاريخ بـني إسرائيل.. أتدري متى اكتسبت تلك النصوص قداستها؟

قلت: منذ كتابتها اكتسبت قداستها.

قال: لا.. لقـد تـأخر ذلـك.. فالأسـفار الخمسـة أقـرت في أواخـر القـرن الرابـع قبـل الميلاد، وتحديـداً في عـام 398 حين اعـترفت الامبرطورية الفارسية بناموس اليهود حسبما جاء في دائرة المعارف الأمريكية..

ولم تعتبر هذه المجموعة معادلة لسلطة الأسـفار الخمسـة، ومـع ذلك ألحقت بها، وقد كان ينظر إليها على أنها شروح وامتداد للأسـفار الخمسة.

هذه هي المرحلة الأولى والـتي تشـكل بدايـة الاعـتراف بالكتـاب المقدس..

وبعدها بمدة طويلة.. وبالضـبط في عـام 90 م عقـد الفريسـيون مجمعاً في جامينيا، وقرروا اعتبار بعض الأسفار أسفاراً قانونيـة وهي: المزامير والأمثال ونشيد الإنشاد وراعـوث، ودانيـال، وأيـوب، وعـزرا، ونحميا، والأيام وغيرهـا .. واعتـبروا هـذه القائمـة نهائيـة ورفضـوا مـا عداها من الأسفار، وقد بلغ عدد هذه الأسفار ستاً وثلاثين سفراً.

وهذه الأسفار هي التي تبناها قومنا بعـد ذلـك.. وقـد كـان الخلاف الـذين نقلنـا عنهم هـذه الأسـفار شـديدا.. فقـد كـان الفريسـيون مثلا يعتبرون سفر دانيال قانونياً، فيما لم يعتبره الصدوقيون، وكـذلك كـان

لجماعة قمران أسفار كثيرة لم ترد في القائمة القانونية منهـا أخنـوخ واليوبيلات وغيرها، والأسفار التي لم تدخل في القائمة كـانت خمسـاً وثلاثين سفراً كما عددها تشارلس في مقدمة كتابه (أبو كريفا)

وفي مرحلة تالية.. اجتمع قومي وقومك في مجمـع (نيقيـة) سـنة 325م، وأقر المجتمعون النصارى سفر يهوديت فقط، وأبقـوا ثمانيـة أسفار مشكوكاً فيها.

وفي مرحلة تالية.. اجتمـع قـومي وقومـك في مجمـع (لوديسـيا) سنة 364م، وأقر المجتمعون سفراً آخر هو سفر استير.

وفي مرحلة تالية.. اجتمع قـومي وقومـك في مجمـع (قرطاجـة)، سنة 397م بحضور اكستاين، فأضاف المجمـع للقائمـة سـتة أسـفار هي (زوم، وطوبيـا وبـاروخ وايكليزنـا سـيتكس (يشـوع بن سـيراخ) والمكابيين الأول والثاني.

وفي مرحلة تالية.. اجتمع قومي وقومك في مجمع (ترلو) واعتـبر المجتمعون سفر باروخ جزءً من إرميا.

وفي مرحلة تالية.. اجتمع البروتسنت في مجـامعهم، وحـذفوا مـا شاءوا أن يحذفوا.

وفي مرحلة تالية.. سنجتمع نحن لنضـيف إلى كتبنـا المقدسـة مـا نضيف..

أليس كل ذلك صحيحا؟

سكت، فقال: كيف نصف الكتـاب بالقداسـة.. وهـو لا يتقـدس إلا في مجامعنا التي لا نعرف من يحضر فيها.. ولا من يقف وراءها؟

إن الكتاب المقدس ـ يا صاحبي ــ أعظم شـأنا من أن يوضـع بين يدي ثلة من الناس يلعبون بقداسته كما تلعبون بالكرة.

قلت: فلنتحدث عما تتصوره من نقص حصل للعهد الجديد.

قال: اقرأ لي مقدمة لوقا لإنجيله.

رحت أقرأ:(إذ كـان كثـيرون قـد اخـذوا بتـأليف قصـة في الأمـور المتيقنة عندنا كما سلمها إلينا الذين كانوا منذ البـدء معـاينين وخـداما للكلمة رأيت أنـا أيضـا إذ قـد تتبعت كـل شـيء من الأول بتـدقيق أن اكتب على التـوالي إليـك أيهـا العزيـز ثـاوفيلس لتعـرف صـحة الكلام الذي علّمت به)(لوقا:1: 1)

قال: ألم تر في سطور هذا الخطاب الموجه من لوقا إلى صاحب السمو ثاوفيلس ما يدلك على النقص الذي أصاب العهد الجديد؟

قلت: لا ألاحظ شيئا.. إن لوقا لم يسـم أي كتـاب ذكـر حذفـه من الكتاب المقدس.

قال: إن لوقا لا يحـذف.. ألم تعلم بـأن هـذا دور المجـامع!؟.. دور الكتبة هو الكتابة فقط.. أما المجامع فهي وحدها صاحبة الحق في أن تعطيهم شهادة القداسة التي لا تعادلها أي شهادة..

قلت: ما الذي أشار إليه لوقا من الأسفار المحذوفة؟

قال: لقد ذكر لوقا أن كثيرا من الكتبة كتبوا مثل ما كتبه لوقـا في بيان حال المسيح.

قلت: ذلك صحيح؟

قال: من الواضح جداً أنه كانت هناك كثرة في كتابـة الأناجيـل في ذلك الزمن.. فأين هي؟

قلت: لا حاجة لك للاستدلال بقول لوقا.. فهذا أمر مشتهر تقـر بـه الكنيسة.. نعم هناك أسفار كثيرة محذوفـة من الكتـاب المقـدس في شقه الجديد.

ومن أشهرها إنجيل توما ، وإنجيل بطرس ، وإنجيـل باسـيليوس ، وإنجيـل فيلب، وإنجيـل ماتيـاس ، وإنجيـل برثولمـاوس ، وإنجيـل

أندراوس ، وإنجيل الانكراتيين وإنجيل ثـداوس ، وإنجيـل غمالائيـل ، وإنجيل أبللس ، ورؤيا إستفانوس.. وغيرها من الأناجيل.

قال: فكيف اقتصـرتم على الأناجيـل الأربـع؟.. ألكم أنتم ــ أيضـا ـ غرام بالأربع حال بينكم وبين سائر الأعداد؟

قلت: هـذا يعـود إلى مجامعنـا الـتي قـررت ذلـك.. فقـد حـرمت المجامع الأولى قـراءة الكتب الـتي تخـالف الكتب الأربعـة والرسـائل التي اعتمدتها الكنيسة، فصار أتباعها يحرقون تلك الكتب ويتلفونها.

قـال: فـأنتم تعطـون القداسـة للمجـامع، لا للكتبـة.. فلـولا رحمـة المجـامع بلوقـا ويوحنـا وغيرهمـا مـا وصـفتموهم بالإلهـام.. ولا رتلتم أناجيلهم في المجامع.

صمت، فقال: سأقرأ لك نصا من باحث صادق.. نعم لقد اتبـع دين محمد.. ولكنه مـع ذلـك.. كـان عالمـا باحثـا.. لا يهتم بغـير البحث عن الحقيقة.

أخرج كتابا من ذلك الركن الذي كنا نقف بجانبه، وقال: اسـمع مـا يقول القس السـابق عبـد الأحـد داود.. إنـه يقـول:(إن هـذه السـبعة والعشـرين سـفراً أو الرسـالة الموضـوعة من قبـل ثمانيـة كتـاب لم تـدخل في عـداد الكتب المقدسـة باعتبـار مجموعـة هيئتهـا بصـورة رسمية إلا في القرن الرابع بإقرار مجمع نيقية سنة 325 م، لذلك لم تكن أي من هذه الرسائل مصـدقة لـدى الكنيسـة.. وهنـاك ــ أي في مجمع نيقية ـ تم انتخاب الأناجيـل الأربعـة من بين أكـثر من أربعين أو خمسين إنجيلاً، وتم انتخاب الرسـائل الإحـدى والعشـرين من رسـائل العهد الجديد من بين رسائل لا تعد ولا تحصى، وصودق عليها، وكـانت الهيئة التي اختارت العهد الجديد هي تلـك الهيئـة الـتي قـالت بألوهيـة المسيح، وكـان اختيـار كتب العهـد الجديـد على أسـاس رفض الكتب المسيحية المشتملة على تعاليم غير موافقة لعقيـدة نيقيـة وإحراقهـا كلها)[1]

---

(1) الإنجيل والصليب صفحة 14.

والغريب أن الكنيسة هي التي حددت الكتب الصحيحة الـتي يجب أن تُـداوَل وألغت البـاقي واعتبرتهـا كتبـا غـير قانونيـة، ومنهـا كتب ورسائل للمسيح نفسه، وكتاب لمريم العذراء، وأناجيل أخـرى كثـيرة للحواريين تلاميذه.

ألا تـرى أن هـذه المجـامع مارسـت دورا بوليسـيا على الكتـاب المقدس؟

إنها تريد أن تفـرض على اللـه مـا يقـول.. وتريـد أن تفـرض على الكتبة ما يلهم لهم.

أتدري سر هذا الحرص من مجمع نيقية؟

إنه ليس الإخلاص للكتاب المقدس.. بل هو الإخلاص للامبراطور.

انتفضت قائلا: كأني بك تريد أن تقـول بـأن الامـبراطور هـو الـذي حدد الكتب المقدسة، ونفى غيرها.

قال: أنا لا أقول ذلـك.. بـل التـاريخ.. وحقـائق التـاريخ.. هي الـتي تقول ذلك.. لقد قال المؤرخ (ديـورانت) في كتابـه قصـة الحضـارة: (وصـدر مرسـوم إمـبراطوري يـأمر بـإحراق كتب آريـوس جميعهـا، ويجعل إخفاء أي كتاب منها جريمة يعاقب عليها بالإعدام)

وقال آدم كلارك في المجلد السادس من تفسـيره:(إن الأناجيـل الكاذبة كانت رائجة في القرون الأولى للمسيحية، وأن فايبر بسينوس جمـع أكـثرَ من سـبعين إنجيلاً من تلـك الأناجيـل وجعلهـا في ثلاث مجلدات)

التفت إلي، وقال: ألا تزال تنكر تأثير الامبراطور على المجمع.

صمت، فقال: كل الحقائق التاريخية تدل على أنه كان للامبراطور قسطنطين دور كبير في مجمع نيقية،لأنه كان يعلق أهميـة كـبرى في تكوين كنيسة واحدة في إمبراطورية واحدة.

لــذلك فقــد كـان ينتقي الأسـاقفة المنـوط بــهم الإشـتراك في المجمع، وبما أنـه طـوال سـنوات كثـيرة كـان هنـاك مقاومـة ــ على أساس الكتاب المقدس ــ للفكـرة القائلـة أن يسـوع هـو اللـه أو ابن الله، وفي محاولة لحل الجدال دعا قسطنطين الإمـبراطور الرومـاني جميع الأساقفة إلى نيقية.

ولم يكن قسـطنطين مسـيحيا، ولم يتم تعميـده إلا في أواخـر حياته، بل لم يتعمد حتى صار على فراش الموت، وعنه يقـول هـنري تشادويك في كتاب (الكنيسة الباكرة):(كـان قسـطنطين كأبيـه يعبـد الشمس التي لا تقهـر واهتـداؤه لا يجب أن يفسـر أنـه اختبـار داخلي للنعمة، لقد كان قضية عسكرية، وفهمـه للعقيـدة المسـيحية لم يكن قط واضحا، ولكنه كان على يقين من أن الانتصار في المعركـة يكمن في هبة إله المسيحين)

ومن الثـابت تاريخيـا أن قسـطنطين قـد أدار المـؤتمر بصـورة واقعية، فقد كان يشـعر، بل ويتصرف كـرئيس للمجمـع، فكـان يـأمر الأساقفة بمـا يجب عملـه، ومـا يجب تركـه، وقـد أعلن في مناسـبة أخرى مؤكداً:(إني أرغب في قانون كنسي) وقد قبلت الكنيسـة كـل هذا صاغرة، لـذلك أصبح القيصر أسقفها العام (الدولي) المعترف به.

ولم يكن غـير قسـطنطين الـذي أدخـل مـا تعـارف عليـه بصـيغة (هومسـيوس) الشـهيرة في قـرارات مجمـع نيقيـة وفرضـها على الأساقفة المعارضين بإستعمال سـطوته.. زيـادة على ذلـك، فإنـه لم يكن له تأثير فعّال وغير مباشر فقـط على تكـوين العقيـدة، بـل كـان أيضاً يصوت معهم.

ومثل ذلك تحولت قـرارات المجـامع الأربعـة المسـكونية الأخـرى بهذه الطريقة إلى قوانين عامة[1].

قلت: أنت تتهم مجامعنا المقدسة.

---

(1) انظر المراجع التي تحدثت عن مجمع نيقيه: ككتاب تاريخ الأمة القبطيـة، وكتـاب ابن البطريق (نُظُم الجـوهر) الـذي ألفـه وحكى فيـه تـاريخ المجـامع، وهـو مسـيحي طبعـاً، وكتاب الروح القدس في محكمة التاريخ، للمؤلف روبرت كيل تسلر.

قال: ما أكثر ما تستغلون القداسة.. وما أكثر ما تستغلنا القداسة.. أجبني.. وكن صادقا في إجابتي.

قلت: أفي شك أنت من ذلك؟

قال: أنا لا أشك في صدقك.. ولكني أخاف من تهربك.

قلت: لا بأس.. سأكون مع الحق.. ولو على نفسي.. أو على قومي.

قال: أكبر دليل لكم.. بل الدليل الوحيد لكم على قدسية أي سفر من الأسفار هو ما أقرته المجامع الكنسية.. أليس ذلك صحيحا؟

قلت: بلى.. هو صحيح.. وهو مفخرة لنا.

قال: فأنتم تعتبرون بذلك هذه المجامع معصومة في آرائها.. بحيث لا تختار إلا المقدس حقيقة.

قلت: ذلك صحيح.. فهي معصومة في قراراتها.. ولولا ذلك لأمكننا مناقشتها فيما تختاره.. لقد جاء في وثائق المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني قولهم:(إن ما تتضمنه وتعرضه الكتب المقدسة من حقائق موحاة مكتوبٌ كله بوحي من الروح القدس، وتؤمن أمنا الكنيسة المقدسة بموجب الإيمان الرسولي أن كتب العهدين القديم والجديد كلها وبجميع أجزائها مقدسة وقانونية، فالله هو مؤلفها مكتوبةٌ بوحيٍ من الروح القدس)[1]

قال: فقد قرر المجمع المسكونى الخامس للكنيسة أن المرأة خالية من الروح الناجية التي تنجيها من جهنم..

وقرر مجمع آخر أن المرأة حيوان نجس، يجب الابتعاد عنه، وأنه لا روح لها ولا خلود، ولا تُلقَّن مباديء الدين لأنها لا تُقبَل عبادتها، ولا تدخل الجنة، ولا الملكوت، ولكن يجب عليها الخدمة والعبادة، وأن يكمم فمها كالبعير أو كالكلب العقور، لمنعها من الضحك ومن الكلام

(1) وثائق المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني ص 408.

لأنها أحبولة الشيطان.

وبنـاء على ذلـك.. أو بنـاء على هـذه الأفكـار.. وفى عـام 1500.. تشكل مجلس اجتماعي في بريطانيا لتعذيب النسـاء، وابتـدع وسـائل جديدة لتعذيبهن، وقد أحـرق الآلاف منهن وهنَّ أحيـاء، وكـانوا يصـبون الزيت المغلي على أجسامهن فقط لمجرد التسلية.. وحتى لا يختلـف عليك الأمر فقد كان القضاة هم رجال الكنيسة.

فلماذا لا تقرون بما قالت هذه المجامع؟

قلت: لقد أخطأت هذه المجامع في هذه القرارات..

قال: فالمجامع يمكن أن تخطئ.

صمت، فقال: أراك تتهرب.

لم أجد بدا من قولي: نعم.. يمكن أن تخطئ..

قال: والبابا أيضا يمكن أن يخطئ.. فقبل سنوات خـرج علينـا بابـا الفاتيكان باعتذارات رسمية عما قامت به الكنيسة في سالف عهـدها من اضـطهاد لمخالفيهـا في العقيـدة أو الـرأي.. إذن البابـا والكنيسـة والمجامع يمكن أن تخطيء؟

قلت: أجل.. ذلك صحيح.

قال: فكيـف تجعلـون مجـامعكم مقدسـة؟.. وكيـف تهبـون لهـذه المجـامع سـلطة تعـيين الكتـاب المقـدس؟.. ولمـاذا لا تطلبـون من الكنيسة أن تريكم تلك الأسفار الكثـيرة الـتي لم يـرض عنهـا أعضـاء المجـامع لتـدرس على ضـوء البحث العلمي الموضـوعي الـدقيق.. اطلبوها منهم.. واعلموا أنهم لن يسـلموكم شـيئا منهـا.. لقـد حـاولت ذلك مرارا.. أتدري لم؟

قلت: لم؟

قال: لأن سـلطتهم ترتبـط بهـذه الأسـفار.. لا بتلـك الأسـفار.. ولا

يمكن لأي مجرم في الدنيا أن يقدم دليل إدانته.

الكلمات الناقصة:

صمت قليلا، ثم قال: هذا هو النوع الأول من أنواع النقصان الــذي حصل للكتاب المقدس.. وهناك نوع آخر لا يقل خطرا.

قلت: ما هو؟

قال: إن قومي وقومك لم يكتفوا بــرفض الكتب الـتي لا تتناسـب مـع أذواقهم، بـل سـمحوا لأنفسـهم بتعـديل الكتب الـتي رضـوا عنهـا لتتناسب مع أذواقهم.

قلت: ما تقول؟

قال: لا تخف.. لست أدعي ولا أكذب.. لقد ترك القــوم أدلـة على ما فعلوه من خيانة للكتاب المقدس.

قلت: أدلة خيانة!؟

قال: أجل.. ألا تعلم أنه لا يمكن أن تكون هناك جريمة كاملة!؟

قلت: عم تتحدث؟

قال: من أكبر الأدلة علي التحريف ما تـرى في الكتـاب المقـدس من النصـوص المنقوصـة، والـتي وضـعوا مكانهـا نجومـا أو نقطـا، أو تُركت فارغة[1].

هكذا فعل قومنا مع الكتاب المقدس.. لقد وضعوا مكان النصوص الناقصة نجوما أو نقاطا أو خطوطا مستقيمة أو تركوها فارغة.

1() من ذلك على سبيل المثال: حزقيال:23عدد43:« فقلت عن البالية في الزنى الآن يزنون زنى معها وهي****»

مزمـور137 عـدد 5: أن نسـيتك يـا أورشـليم تنسـى يميـني****** ، حبقـوق 1 عـدد 1:الوحي الذي رآه حبقوق النبي ــــــــــ ، وهنا يبدوا أن الوحي الـذي رآه حبقـوق النـبي كان وحيا عظيماً جداً وسريا، لذلك وضعوا مكانه خطا.

أدركت ما يذكره، فقلت: أجل.. هناك أكثر من أربعين موضـعا في أغلب النسخ في الكتاب المقـدس وضـعت خطـوط مكانهـا.. وسـبب ذلك أنها لم تكن واضحة في المخطوطة الأصلية، لذلك كان من بــاب الأمانة ما وضعه النساخ مكانها من نجوم أو خطوط.

قـال: أهكـذا بكـل بسـاطة تتحـدثون عن الكتـاب المقـدس.. هـل الكتبة كتاب محققون.. أم أنهم حفظة لكتاب مقدس؟

قلت: هم كتبة، وهم حفاظ.

قال: فقد انفردوا بالكتاب المقدس إذن..

قلت: ما تقصد؟

قال: في العادة عندما يصعب على محقق أي مخطوطة قراءة ما فيها يلجأ إلى نسخة أخرى.. وهكذا حتى يعرف وجه الصــواب.. أليس كذلك؟

قلت: بلى ..

قال: فكيف لم يفعل هؤلاء الكتبة ذلك.. هل كانت النسخ محدودة لهذه الدرجة.. أنتم تزعمون أن للكتاب المقدس نسخا لا حصر لها.

صمت، فقال: لا بأس.. لقد حل قومي وقومك المشكلة.. وسوف تأتي أجيال لن تتساءل عن هذا؟

قلت: ما تقصد؟

قال: بعد أن أشار الناس إلى هذه الفراغات، واحتـاروا فيمـا كـان موجــود مكانهــا، وبــدأت تثــير الشــكوك في نفــوس العقلاء جــاء من علمائنا من يبيح إكمال الفراغات الناقصة في هذا الكتاب على طريقة (أكمل الفراغات).. كما كنا نتعلم في المدارس، فاختاروا كلمات على مزاجهم، وأكملوا بها النصوص الناقصة.

التفت إلي، وقال: ألا تعلم بـأن كتـاب المسـلمين المقـدس أشـار

إلى هذا.. لقد ورد فيه:{ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىَ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمُ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } (المائدة: 13)؟

لقد أخبرت هذه الآية عن هذا التلاعب الذي لا يزال مستمرا.. إن الخيانة لا تزال مستمرة.. ولسنا ندري متى تنتهي.

3 ـ التبديل

قلت: علمت أدلتك على وجود النقصان، فما مرادك من التبديل؟.. وما أدلتك عليه؟

قال: من تجرأ على أن يزيد في كلام الله ما يمليه عليه هواه.. ثم تجرأ على أن ينقص منه ما لا يتناسب مع مصالحه، لن يتخاذل عن أي تبديل قد يتصادم مع هذه المصالح التي اتخذها إلها من دون الله.

قلت: أنت تعلل التبديل.. ولا تستدل له.

قال: أحيانا يكون التعليل أعظم استدلال.. أنت ترى المسيح كيف نهض في وجوه رجال الدين اليهودي في عصره.. أليس ذلك صحيحا؟

قلت: أجل.. بل إنه لم ينهض في وجه أحد كما نهض في وجههم، ولذلك لم يقاومه أحد كما قاوموه.

قال: فهؤلاء الذين بدلوا أحكام الله، وقاوموا رسل الله، ألا يسهل عليهم أن يبدلوا كلام الله؟

قلت: فرق بين الجواز العقلي، أو الجواز العادي، وبين الوقوع الفعلي.

قال: صدقت.. ولكن.. أنت تعلم بأن الأحكام العملية، أو العقائد النظرية، مرتبطة بالكتاب المقدس.. فلذلك قد تقف تلك النصوص حجر عثرة في طريقهم.. فهل ترى فيمن قتل الأنبياء من الورع ما

يحول بينه وبين تبديل كلام الله؟

قلت: لا أزال مصرا على طلب الدليل الحسـي.. فكـل مـا تـذكره الآن مجرد استنتاجات.

قال: سأذكر لك الأدلة.. ولكن قبل ذلك.. سأرجع بـك إلى الكتـاب الذي لا أثق في كتاب في العالم مثل ثقتي فيه..

قلت: تقصد قرآن المسلمين.

قال: أجل.. إنـه يعطيـك الحقـائق من منبعهـا.. اسـمع إليـه، وهـو يقول.

فتح المصحف على مواضع محددة وراح يقرأ بخشوع، وكأنه قديم الجـذور في الإسـلام:{ مِنَ الَّذِينَ هَـادُوا يُحَرِّفُـونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِـعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيّـاً بِأَلْسِـنَتِهِمْ وَطَعْنـاً فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَـانَ خَيْـراً لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً}(النساء:46)

واسمع ما يقول في سورة أخرى:{ فَبِمَـا نَقْضِـهِمْ مِيثَـاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَـا قُلُـوبَهُمْ قَاسِـيَةً يُحَرِّفُـونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِـعِهِ وَنَسُـوا حَظّـاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِـهِ وَلا تَـزَالُ تَطَّلِـعُ عَلَى خَائِنَـةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ فَـاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}(المائدة:13)

واسـمع مـا يقـول في موضـع آخـر من هـذه السـورة:{ يَـا أَيُّهَـا الرَّسُـولُ لا يَحْزُنْـكَ الَّذِينَ يُسَـارِعُونَ فِي الْكُفْـرِ مِنَ الَّذِينَ قَـالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِـكَ لَـهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الـدُّنْيَا خِـزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ}(المائدة:41)

قلت: أنت تعلم أن عقلي عقل قاض لا تقنعه إلا الأدلة القوية.

قال: نعم العقل عقل القاضي الحكيم.. ليت كل مسيحي يكون له مثل هذا العقل.. إذن لتوحدت البشرية كلها وجهة واحدة.

لقد بحثت في هـذا كثـيرا.. وسـأذكر لـك أربعـة أمـور تـدلك على التبديلات الخطيرة التي أصابت كتابنا المقدس.

قلت: فما هي؟

قال: النسخ، والترجمات، والطبعات، والمعاني.

قلت: فحدثني عن التبديل الأول؟

قـال: أول تبـديل حصـل بالكتـاب المقـدس هـو **تبـاين نسـخه واختلافها**..

قلت: ما تقصد بذلك؟

قـال: لقـد رأيت أن للمسـلمين جميعـا مهمـا اختلفت مـذاهبهم وأعراقهم كتابا واحـدا.. ولكن الكتـاب المقـدس لـه ثلاث نسـخ.. كـل نسخة تختلف عن الأخرى.

قلت: تقصد النسخ المختلفة للتوراة.

قال: أجل.. فهناك النسخة العبرية، وهي المقبولة والمعتبرة لــدى اليهــود وجمهــور علمــاء البروتســتانت، وهي مــأخوذة من النســخة الماسورية وما ترجم عنها.

وهناك النسخة اليونانية، وهي المعتـبرة عنـد النصـارى الكاثوليـك، والأرثوذكس وهي التي تسمى السبعينية وما ترجم عنها.

وهنـاك النسـخة السـامرية، وهي المعتـبرة لـدى السـامريين من اليهود.

قلت: لا حـرج في هـذا الاختلاف.. أليس قـرآن المسـلمين يقـرأ بقراءات مختلفة؟

قال: فرق كبير بين قراءات قـرآن المسـلمين وهـذه النسـخ.. إن الخلاف بين القراءات في قـرآن المسـلمين لا يعـدو الوجـوه اللغويـة التي تقتضيها اللغة العربية.. وليس لهـا أي تـأثير في معـاني القـرآن.. بالإضافة إلى أنها نقلت تواترا عن نبيهم[1].

قلت: ونسخ الكتاب المقدس؟

قال: لو أجرينا مقارنة بين النسخ الثلاث، وجدنا الأدلة الكثيرة على ما أصاب الكتاب المقدس من تبديل.

قلت: أخيرا وصلت إلى ما أريد.

قال: منها الاختلاف في عدد الأسفار.. فبين النسـخ الثلاث اختلاف كبير في عدد الأسفار.. فالنسخة العبرية عدد أسـفارها تسـعة وثلاثين سفراً، وما عدا ذلك لا يعتبرونه مقدساً.

أما النسخة اليونانية، فهي تزيد سبعة أسفار عن النسخة العبريـة، وهذه الأسفار يعتبرها الكاثوليـك والأرثـوذكس قانونيـة ومقدسـة كمـا عرفنا ذلك سابقا.

أما النسخة السامرية، فلا تضم إلا أسفار موسى الخمسـة فقـط، وقد يضمون إليها سـفر يوشـع فقـط، ومـا عـداه فلا يعـترفون بـه ولا يعدونه مقدساً.

قلت: أعلم كل هذا.. ولكن ما دلالة هذا على التبديل؟

قال: وهل هناك أعظم من هذه الدلالة؟

قلت: لم أفهم ما تقصد.

قال: أنت زعمت بأن لك عقل قاض حكيم.

قلت: أجل.. ولست أدري هل أنت تمدحني بهذا، أم تذمني.

---

(1) سنعرض الحديث عن هذه الشبهة عند ذكرنا لحفظ القرآن الكريم.

قال: بل أمدحك.. وأصلي لله أن يملك كل مسيحي عقلا مثل عقلك، ومنطقا مثل منطقك.. الإيمان الصحيح هو الذي يقوم على المنطق الصحيح.

أخبرني لو أن ثلاثة نفر وقفوا بين يديك، وفي يد كل واحد منهم نسخة من كتاب، وكل نسخة من النسخ تختلف عن الأخرى.. وكل منهم يزعم أنه صاحب الكتاب الحقيقي.. قكيف تحكم بينهم؟

قلت: فيم؟

قال: كل منهم يريد أن يثبت أنه صاحب النسخة الأصلية..

قلت: ذلك سهل.. نتصل بالمؤلف، ليبين لنا النسخة الحقيقية لكتابه.

قال: فإن مات، أو غاب، أو لم يمكن الاتصال به؟

قلت: نبحث في تركته عن المخطوطة الأصلية للكتاب لنقارن النسخ المختلفة عليها.

قال: فإن لم يترك المؤلف أي تركة.

قلت: ننظر.. لعل النسخ متقاربة.. وأن التفاوت بينها لا يعدو التفاوت بين كلمات وحروف.. وحينها أنصحهم أن يضعوا في الهوامش ما يضعه المحققون.. فيختارون من كل نسخة ما يتناسب مع المعنى المراد.. وبذلك يرضى الجميع.

قال: فإن كان الاختلاف شديدا.. بحيث يشمل فصولا كاملة، ومباحث تامة..

قلت: حينها أؤكد جازما أن هناك إضافات في بعض النسخ، أو نقصا في بعضها.

قال: فكيف تعرف الحقيقة من الزور، والحق من الباطل؟

قلت: لا يمكن ذلك.. سيبقى الشـك لا محالـة.. لقـد أخبرتـني عن غياب المؤلف.. وعن غياب النسخة الأصلية.

قال: فكذلك الكتاب المقدس الذي تتناقلون نسخه.. لابد أن يكون بعضكم مصيبا، وبعضكم مخطئا.. ولا يمكن للمصيب أن يـتيقن دلائـل إصابته، ولا يمكن للمخطئ أن يجزم بخطئه.

صمت، فقال:: نكتفي بهذا.. فالأمثلة عن هذا أكثر من أن نعـدها.. ولننتقل إلى تحريف آخر لا يقل خطرا.. بل هو أخطر التحريفات.

قلت: تقصد الترجمات؟

قال: أجل..

قلت: وما وجه الخطورة فيهـا.. أليسـت الكلمـات المقدسـة كلام اللــه.. وكلام اللــه ينبغي أن يســمعه العــالم، جميــع العــالم، بلغاتــه المختلفة؟

قــال: أجــل.. ولكن يســمعون كلام اللــه المقدســة، لا كلمــات المترجمين المختلطة بأهوائهم.

قلت: هذا كلام عام.. لا يقبله أي قاض في الدنيا.

قال: فاسمح لي سيادة القاضي أن أذكر لـك من الأدلـة مـا يـدين هؤلاء المجرمين الذين راحوا يتلاعبون بكلام الله المقدس.

إنهم ـ سيادة القاضي ـ يغيرون معنى الكلمات، ويقلبونها قلباً حتى لا تؤدي معناها.

إنهم يضعون ترجمات لكلمات غير موجـودة، ويـتركون كلمـات بلا ترجمة.. ثم هم يترجمون كلمات بغير معناها.

قلت: هذا مثل ذاك.. البينة هي الحكم الذي يحكم بين الخصوم.

قــال: لـدي بينـات كثـيرة.. اسـمع مـا يقـول (مزمـور: 84 /6):

(عابرين في وادي البكاء يصيرونه ينبوعا أيضا ببركات يغطون مورة) هذا هو النص الذي ترجموه إلى العربية.

أما أصله الذي ترجم منه.. أي الإنجليزية.. فهو هذا:

Psalms:84:6: Who passing through the valley of Baca make it a well; the rain also filleth the pools.

قلت: فما الفرق بين الأصل والترجمة؟

قال: الفرق واضح جدا ـ سيادة القاضي ـ.. إنه فرق يغير الحقيقة تغييرا تاما.

قلت: ما تقصد؟

قال: لقد جاء لفظ Baca في النسخة الإنجليزية ـ وهو اسم علم، وليس له أي معنى في اللغة الإنجليزية ـ

قلت: سمعت ذلك.

قال: لكن المترجمين عندما ترجموه إلى العربية تعمدوا أن يحولوا كلمة Baca في الإنجليزية إلي العربية، فترجموها وادي البكاء، حتى تكون بعيده تماما عن معناها الأصلي وادي بكة (בְּעֵמֶק הַבָּכָא)، والتي تقرأ (بعيمق هبكا)، فترجمها المترجمون إلى العربية إلى وادي البكاء، وترجمتها نسخة الرهبانية اليسوعية إلى (وادي البَلَسان)

قلت: سمعت هذا.. ولكن ما الفرق بين الاسمين.. فسواء سميناها وادي بكة، أو سميناها وادي البكاء.. لا تضر التسمية.

قال: أرأيت لو وضعنا على جميع مسرحيات (شكسبير) المترجمة إلى العربية اسم (الشيخ زبير)[1] حتى توهم جميع العرب أن هذه الروايات من كتابة الشيخ زبير، لا من كتابة شكسبير.. هل يقبل ذلك

---

(1) أشير بهذا إلى نكتة منتشرة عندنا، وهي أن بعض محبي العربية ممن يزعم أن مصدر كل العلوم والآداب هم العرب، اعتبر شكسبير عربيا، وأن أصل اسمه (شيخ زبير) لكن التحريف طال اسمه كما طال اسم ابن سينا وغيره من علماء المسلمين.

ورثة شكسبير؟

قلت: لا.. لا يقبله ورثة شيكسبير.. ولا غيرهم..

قال: فهكذا فعل قومك مع وادي بكة.. لقد رأوا قـرآن المسـلمين يسمي مكة التي ولد فيها محمد بكة[1]، وهو اسم قديم لها، فخشـوا أن يتسرب إلى الناس اسم محمد عبر اسم بكة، فراحوا يحرفون، ثم يسمون التحريف ترجمة.

لم أدر بما أجيبه به.. فقال: ومثل ذلك ما ورد في (التثنية: 33 /2)، فقد جاء فيها:(جاء الرب من سيناء وأشـرق لهم من سـعير وتلألأ من جبال فاران وأتى من ربوات القدس وعن يمينه نار شريعة لهم)

هذا هو النص العربي.. أما النص الإنجليزي، فهو:

And he said، The Lord came from Sinai، and rose up from Seir unto them; he shined forth from mount Paran، and he came with ten thousands of saints: from his right hand went a fiery law for them. (KJV)

أجبني ـ حضرة القاضي ـ أين ذهبت ترجمة هذه الجملة:

and he came with ten thousands of saints[2] ..

إننا لا نجدها في النص العربي.

أتدري ما سبب ذلك.. إن هذا النص قد يشير إلى محمـد.. فلـذلك تعمدوا عدم ترجمته.. إنهـا نبـوءة صـريحة عن فتح مكـة الـتي دخلهـا محمد، ومعه عشرة آلاف مقاتل[3].

صـمت، فقـال:: نكتفي بهـذا.. هـذه مجـرد أمثلـة.. ولننتقـل إلى

1() كما قال تعالى:﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدىً لِلْعَالَمِينَ) (آل عمـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــران:96)

2() أي: وجاء مع عشرة آلاف فارس.

تحريف آخر لا يقل خطرا.. وهو في نفس الوقت تحريف متطور.

قلت: تريد اختلاف الطبعات؟

قال: أجـل.. فـأنتم تقومـون بتحـديث كتـابكم المقدسـة كـل حين ليتناسب مع التطورات المختلفة.. أليس كذلك؟

صـمت، فقـال: نعم ــ حضـرة القاضـي ــ أنت لا تكتفي بالتهمـة العارية عن الدليل.. ولذلك سأذكر لـك الأدلـة الكثـيرة الـتي تطمئنـك إلى الحكم الذي يرضي عدالتك.

لقـد ورد في (خـروج 32عـدد 28):(قتـل بـنى لاوى من عبـدة العجل 3000 رجل)، بينما نـرى هـذ النص في طبعـة 1844:(قتلـوا 23000 رجل) ، فلماذ تم تغييرها فى طبعة 1844 وما بعدها؟

هل أخطأ الرب فى الرقم الأول، أم فى الرقم الثانى؟

قلت: هذا خطا مطبعي.. الأخطاء المطبعية ممكنة.

قال: لا بأس.. يمكن أن يكون ذلك خطأ مطبعيا.. ولكن مـا تقـول فيما ورد في (صـموئيل الأول 6عـدد 19):(وَضَـرَبَ أَهْـلَ بَيْتَشَـمْسَ لأَنَّهُمْ نَظَرُوا إِلَى تَابُوتِ الرَّبِّ. وَضَرَبَ مِنَ الشَّعْبِ خَمْسِـينَ أَلْـفَ رَجُـلٍ وَسَبْعِينَ رَجُلاً)

---

(3) هذا في الكتب المطبوعة .. أما في المواقع التي ينشئونها على الإنـترنت، فحـدث ولا حـرج، ومن ذلـك مـا جـاء في موقـع البشـارة http://www.albichara.org/، فقـد ورد في ترجمة النسخة الكاثوليكية لإنجيل يوحنا الفقرة 4: 21-24 على هذا الموقع تقول:« قالَ لَها يسوع:« صَدِّقيني أَيَّتُها المَرأَة تَأتي ساعةٌ فيها تَعبُدونَ الآب لا في هذا الجَبَل ولا في أُورَشَليم أَنتُم تَعبُدونَ ما لا تَعلَمون ونَحنُ نَعبُدُ ما نَعلَم لِأَنَّ الخَلاصَ يَأتي مِنَ اليَهود ولٰكِن تَأتي سـاعةٌ - وقد حَضَرتِ الآن - فيها العِبادُ الصادِقون يَعبُدونَ الآبَ بِالرُّوحِ والحَقّ فمِثْلَ أُولئِكَ العِبـادِ يُريـدُ الآب إِنَّ اللهَ رُوح فعَلَى العِبادِ أَن يَعبُدوهُ بِالرُّوحِ والحَقّ »

وكان فى الترجمة العربية المشتركه:« قالَ لهـا يَسـوعُ:« صـدِّقيني يـا اَمـرَأةُ، يَحينُ وقتٌ يَعبُـدُ النّــاسُ فيـهِ الآبَ، لا في هـذا الجبَـلِ ولا في أُورُشـليمَ وأنتُم السّامِريّــينَ تَعبُـدونَ مَنْ تَجهَلونَهُ، ونَحنُ اليَهودَ نَعبُدُ مَنْ نَعرِفُ، لأنَّ الخلاصَ يَجيءُ مِنَ اليَهودِ ولكِنْ ستَجيءُ ساعَةٌ، بل جاءَتِ الآنَ، يَعبُدُ فيها العابِدونَ الصادِقونَ الآبَ بالرُّوحِ والحَقِّ »

حيث نلاحظ أن كلمة السامريين واليهود ليست موجودة في النسخة الأصلية.

لقــد أصــبح هــذا العــدد الضــخم في طبعــات الكتــاب المقــدس الإنجليزية والفرنسية والألمانية (70) رجلاً فقط.

فمن الذى أعطى لنفسه هذا الحق لتغيير كلمة الرب؟.. أتدري لم فعلوا ذلك؟

صمت، فقال: لقـد خـافوا أن يتشـوه الـرب في أذهـان القـارئين، فراحوا يكذبون عليه لينفوا عنه التهمة.

قلت: هذه أشياء لا علاقـة لهـا بالرحمـة وغيرهـا.. بـل هي أخطـاء فردية أكثرها مطبعي.

قال: لا بأس.. سأذكر لك بعض النصـوص لاثبـات التبـديل.. ولـدي هنا نسختان: نسخة حديثة هي من كتـاب الحيـاة للعهـد الجديـد، لـدي منها الطبعة السادسة عشر.

ولدي في نفس الوقت نسخة الملك جيمس الانجليزية المعروفة، ولدي معها ما يدعمها من الطبعة الامريكية القياسية.

هيا.. لنحاول المقارنة بين هذه الطبعات:

ولنبدأ برسالة يوحنا الاولى الاصحاح الخامس العدد 7.. اسـمع مـا تقول النسخة العربية الحديثة:(فإن الـذين يشـهدون في السـماء هم ثلاثة الآب والكلمة والروح القدس وهؤلاء الثلاثة هم واحد)

هذا النص يختفى تماما من النسخة الامريكية القياسية .. انظر.

نظرت، فرأيت النص موضوعا بين قوسين.. لقد وضـعت الجملـة (فى السماء الاب والكلمة والروح القـدس وهـؤلاء الثلاثـة هم واحـد) بين قوسين.

قلت: أنت ترى أن هذه الجملة قد وضعت بين قوسـين.. وهم قـد نبهـوا في أول الكتـاب إلى أن مـا يوضـع بين القوسـين غـير موجـود بالأصل.

قـال: وهـل تـرى القـارئ متفرغـا لقـراءة تنبيهـاتهم.. بـل اصـبر.. يوشك أن ينتزعوا القوسين ليصبح الدخيل أصلا.

ومن ذلك ما ورد في (يوحنا: 17 /3):(وهـذه هي الحيـاة الأبديـة أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته)

هذا هو نص النسخة العربية الحديثة، أما النسخة الأصلية، فقد ورد فيها النص هكذا:

And this is life eternal، that they might know thee the only true God، and Jesus Christ، whom thou hast sent.

أتدري.. لم غيروا هذا النص؟

قلت: لا..

قال: لقد رأوا المسلمين يستخدمون هذا العدد ليسـتدلوا بـه على أن الله واحد، وأن المسيح مجرد رسول.. لذلك تم تغييره بهذه الحيلة التي لم تغير المعنى كثيرا، ولكنها أبعدته عن المعنى المراد.

أتكفيك هذه النصوص، أم أزيدك؟

صمت، فقـال: أظن أنهـا تكفي.. فالـذي تجـرأ على أن يغـير نصـا واحدا لن يحول أي شيء بينه وبين تغيير غيره.

قلت: بقي **تبديل المعاني**.. فماذا تريد به؟

قال: لقد أشار إلى هذا التحريف الخطـير قـرآن المسـلمين، فقـد ورد فيه:{ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَـلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنْـزِلَ إِلَيْـكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَـوْمِ الْقِيَامَـةِ كُلَّمَـا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}(المائدة:64)

قلت: فما تشير هذه الآية؟

قـال: تشـير إلى عـادة في اليهـود نص عليهـا مـا ورد في الآيـة الأخرى:{ وَإِذْ قُلْنَـا ادْخُلُـوا هَـذِهِ الْقَرْيَـةَ فَكُلُـوا مِنْهَـا حَيْثُ شِـئْتُمْ رَغَـداً وَادْخُلُـوا الْبَـابَ سُـجَّداً وَقُولُـوا حِطَّةٌ نَغْفِـرْ لَكُمْ خَطَايَـاكُمْ وَسَـنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ}(البقرة:58)

قلت: فما معنى هذا؟

قال: لقد فسر محمد هذا، فقال: (قيل لبني إسـرائيل:{ وَادْخُلُـوا الْبَـابَ سُـجَّداً وَقُولُـوا حِطَّةٌ (البقـرة: 58)، فـدخلوا يزحفـون على أستاههم، فبدّلوا وقالوا: حطة: حبة في شعرة)[1]

قلت: ما معنى ذلك؟

قال: لقد أمروا بالتواضع عند دخولهم إلى بيت المقـدس، فراحـوا يتلاعبون ويستكبرون على بلاد الله وشعوب الله.. كما تراهم يفعلـون الآن.

قلت: وما علاقة ذلك بالتبديل؟

قال: هذا أخطر تبديل.. أن تبدل صفات الله، ويبدل شرع الله.

فهم قد بدلوا الصفات، فجعلـوا اللـه الكـريم شـحيحا صـاحب يـد مقبوضة.

وحولـوا أوامـر اللـه إلى طقـوس لا أرواح لهـا، وإلى حركـات لا مقاصد من خلفها.

قلت: هذا على حسب كتاب المسلمين.

قـال: لا.. بـل هـذا على حسـب كتابنـا المقـدس.. ألا تـرى تلـك الأوصاف التي ألصقناها بالله، والتي تقشعر من هولها القلوب.

أدركت ما يرمي إليه، فسكت، فقـال: لا تخـف.. لن أذكـر لـك مـا ورد في الكتـاب المقـدس من نصـوص في هـذا.. ولعلـك سـتجد من

1() صحيح البخاري برقم (4479).

يحدثك عنها..

ولكني سأذكر لك مثالا واحدا فقط ليكون لـك مجـرد دليـل.. لقـد جاء في سفر ميخا (1: 8) هذا الحديث عن الله:(لِهَذَا أَنُوحُ وَأُوَلْوِلُ وَأَمْشِي حَافِياً عُرْيَاناً، وَأُعْوِلُ كَبَنَاتِ آوَى، وَأَنْتَحِبُ كَالنَّعَامِ)

أما في الشريعة، فاسمع هـذه العنصـرية الـتي تفـوح من الكتـاب المقدس:(لِلأَجْنَبِيِّ تُقْرِضُ بِرِباً وَلكِنْ لأَخِيكَ لا تُقْرِضْ بِرِباً لِيُبَارِكَكَ الرَّبُّ إِلهُكَ فِي كُلِّ مَا تَمْتَدُّ إِلَيْهِ يَدُكَ فِي الأَرْضِ التِي أَنْتَ دَاخِلٌ إِليْهَا لِتَمْتَلِكَهَا) (تثنية 23: 20)

حفظ القرآن الكريم

قلت: لقد عرفنا الشـكوك الـتي يمكن توجيههـا لكثـير من أسـفار الكتاب المقدس.. فلنتحدث عن قرآن المسلمين.. هل ترى أنـه ظـل محفوظا مثل ما نطق به محمد.. لم يزيدوا حرفا واحدا.. ولم ينقصـوا حرفا واحدا.. ولم يبدلوا شيئا، ولم يغيروا.

قال: لقد بحثت في هذا بحثـا مضـنيا.. بـل لـدي ركن من المكتبـة خاص بذلك.. جمعت فيه النسخ والأسانيد.. وقد خرجت بنتيجــة قــد لا تعجبك.

قلت: ما هي؟

قال: إن كتاب المسلمين هو الكتاب الوحيد الذي حفظ.. فلم يـزد فيه حرف واحد، ولم ينقص منه حرف واحد، ولم تزده الأيـام إلا ثبوتـا ورسوخا.

أشار إلى مصحف، وقال: كل ما هو بين دفتي هذا المصحف ممــا أخبر محمد أنه نزل عليه.

قلت: إن هذا كلام مجمل يحتاج إلى توثيق وأدلــة.. ألا تعلم أن لي عقل قاض؟

قال: وأنا جاهز لذلك ـ حضرة القاضي ـ

قلت: ما هي أصناف الأدلة التي يمكن أن تستدل بها لكتـاب وجـد منذ أكثر من أربعة عشر قرنا.. هل سنبدأ الحكاية من أولها كما فعلنـا مع الكتاب المقدس؟

قـال: أجـل.. لا منـاص لمن يريـد أن يبحث في التوثيـق أن يبـدأ السند من أوله.

قلت: فما أول السند؟

قال: هو محمد.. أليس محمدا هو الذي أخبر بأن هـذا القـرآن هـو كلام الله الذي أوحى به إليه؟

قلت: بلى.. لا شك في ذلك.. وهذا مما يعلمه العالم أجمع.

قال: وهذا يحوجنا أن نتأكـد من أن محمـدا قـد ألقى إلى أصـحابه كل ما أوحي إليه، وأنه لم يمت حتى ترك كتابه في أيد أمينة.

قلت: ذلك صحيح.. وهو نفس ما فعله موسى.. فقد تـرك التـوراة عند بني هارون.

قال: ولكن هناك فرق كبير بين الأمرين.

قلت: فيم؟

قال: لقد ترك موسى الألـواح عنـد سـبط واحـد من أسـباط بـني إسـرائيل.. لكن محمـدا تـرك القـرآن عنـد الجمـاهير من النـاس من العرب والعجم.

والفـرق الثـاني، أن أصـحاب موسـى لم يحفظـوا عن ظهـر قلب كتابهم، بينما أصحاب محمد حفظوه.

قلت: أتقصد أن كتاب المسلمين محفوظ في الصدور، ومحفـوظ في السطور؟

قال: أجل.. وقد حفظ بهذا الأسلوب في كل فـترات التـاريخ بـدءا من عهد محمد.. ولذلك ذكرت لك أنه ليس هنـاك كتـاب مقـدس في الدنيا أوثق من كتاب محمد.

قلت: هذا الكلام مجمل.. وهو يحتاج إلى أدلة كثيرة جدا.

قال: الأدلة أكثر مما تتصور.. فلندخل الـبيوت من أبوابهـا.. ولنبـدأ بعهد محمد.

قلت: ولنبدأ بما ذكرت من حفظ الصدور.

قال: أول شيء قد لا تحتاج له الآن.. أو قد لا تـؤمن بـه الآن.. هـو أن تعلم بأن محمدا حفظ كل ما أوحي إليه.

قلت: هـذا يلزمـني بـأن أؤمن بأنـه أوحي إليـه فعلا، وأنـا لا أؤمن بذلك.. وأنت تشاركني في ذلك.

قال: لست أدري.. هـل أشـاركك في ذلـك، أم لا أشـاركك؟.. أنـا أشعر بأن كل ما يقوله صحيح.. فمحال على تلـك الشـمس العظيمـة أن تكذب.

قلت: فما الذي يحول بينك وبينها؟

قال: نفسي.. وأخي التوأم.. وأشـياء كثـيرة لا يمكنـني أن أذكرهـا لـك الآن.. ولكنـه مهمـا كـثرت هـذه الحجب الـتي تحـول بيـني وبين محمد.. فليس من بينها العقل.. العقل وحده يقـف في معارضـة كـل هذه الحجب.

قال ذلك بنبرة حزينة تخفي آلاما لست أدري سرها.

قلت: لا عليك.. حدثني عما يراه عقلك.. ودعنا من نفسك.

قال، وكأنه لم يسمع ما قلت له: أتدري.. إني أقرأ آية من القرآن، فأجدها تنطبق علي تماما.. لست أدري.. هل أنا هو المقصود منها، أم المقصود منها غيري.. لقـد ورد في كتـاب المسـلمين:{ وَجَحَـدُوا بِهَـا

وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً} (النمل: 14)

إن هذه الآية تصور نفسي.. فهي مستيقنة بالحقيقة التي تنتشر أشعتها، كما تنتشر أشعة الشمس.. ولكني في نفس الوقت لا أستطيع أن أنطق بالحقيقة التي يمتلئ بها قلبي وعقلي ووجداني..

قلت: دعنا من هذا.. ولنعد إلى ما كنا فيه.

قال: لقد علمت ـ من خلال القرآن ـ أن محمدا بلغ كل ما أنزل إليه من ربه.. لم ينس حرفا واحدا[1]..

قلت: ولكن القرآن الكريم أخبر بأن محمدا ينسى.. ألم تقرأ ما ورد فيه:{ سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ} (الأعلى:6 ـ 7)، فهذه الآية، والتي تليها، تدل ـ بطريق الاستثناء ـ على أن محمدًا قد أُنسي آيات لم يجد من يذكره إياها.. اقرأ الآيتين جيدا.. ألا تراها تدل على جواز النسيان على محمد؟

قال: إن ما ذكرته من الآية لا يدل على جواز نسيان محمد القرآن.. بل معنى الآية:(سنعلمك القرآن، فلا تنساه)، فهي تدل على عكس ما أوردته من الاستدلال.

قلت: والاستثناء!؟.. إنه محل الدليل.

قال: لقد ورد الاستثناء في الآية معلقا على مشيئة الله، وقد ورد في النصوص ما يبين أن رب محمد شاء أن يجمع قرآنه وبحفظه.. لقد ورد في القرآن ما يثبت هذا، لقد جاء فيه:{ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ}(القيامة:17)، وورد فيه:{ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}(الحجر:9)

ألا ترى أن هناك تناقضا لو قلنا بأن محمد نسي بعض ما أوحي إليه من ربه وهذه الآيات؟

ألا ترى أن هناك تناقضا بين دعوى النسيان، وبين ما ورد من

---

(1) سنذكر الأدلة الكثيرة على هذا في الفصول التالية.

النصوص التي تخبر بأن محمدا قـد كمـل دينـه وتمت نعمـة ربـه على أمته، ألم تقرأ تلك الآية التي لا نجد مثلها في كتبنا:{ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَـرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلا تَخْشَـوْهُمْ وَاخْشَـوْنِ الْيَـوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْأِسْلامَ دِيناً }(المائدة: 3)؟

قلت: وما تقول في الاستثناء؟.. أراك تتهرب منه.

قال: إن من خصائص القرآن الكبرى ربانيته، فهو يـدل على اللـه في كل آية، بل في كل لفظـة، ويعـرف باللـه في كـل محـل حـتى لا تنتشر الغفلة في النفوس.

قلت: وما علاقة ذلك بهذا المحل؟

قال: لو ذكر القرآن أن محمدا لن ينسى، ثم لم يستثن بذكر الله، فقد يتصور من يتصور من أن محمدا لن ينسـى، لأن لـه من الـذاكرة ما يجعله كذلك.. ولكن الاستثناء ربط ذاكرة محمد بمشيئة الله وقـوة الله.. وهو بذلك يجعل له من المدد ما يظـل يفتقـر إليـه لـو لم يـذكر الاستثناء.

ربما لن تفهم ما أقصد الآن.. سأوضح لك أكـثر.. لـو قـال الاسـتاذ لتلميـذه النجيب الحافـظ:(لن تنجح إلا أن أشـاء أنـا).. فمـا نسـبة احتمال نجاح هذا التلميذ النجيب، بعد ما قال له أستاذه هذا؟

قلت: تبقى ثابتة.. سينجح هذا التلميذ لا محالة ما دام بالصفة التي ذكرت.

قال: ولكن المعلم ذكر أنه لن ينجح إلا بمشيئته.

قلت: ربما يقصـد المعلم هنـا أن يـبين فضـله على تلميـذه.. وأنـا نجابة تلميذه وحدها لا تكفي لنجاحه، بل يحتاج معها إلى رضى أستاذه عنه.

قال: فطبق هذا المثال على ما ذكـرت من النص.. ففيـه الجـواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي.

قلت: ولكن مع ذلك لا يمكن أن نثق في الذاكرة مهما قويت.

قال: وهكذا فعل محمد.. لقد كان حريصا على كلام ربـه حرصـا لا يمكن تصوره.. وقد ذكر القرآن هذا، فهو يصـف هـذا الحـرص بقوله: { وَلا تَعْجَـلْ بِـالْقُرْآنِ مِنْ قَبْـلِ أَنْ يُقْضَـى إِلَيْـكَ وَحْيُـهُ وَقُـلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا }(طه: 114)، ويقول:{ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ}(القيامـة: 16)

قلت: عرفت حرص محمد على حفظ كتابه، فهو كتابه الـذي رفـع ذكره، وأعلى شأنه.. ولكن من الذي يضـمن لنـا صـدق حفـظ أتباعـه لهذا الكتاب.. وليس لهم من المصالح ما لمحمد.

قال: لقد جعل القرآن ومحمـد في أذهـان المؤمـنين وهممهم مـا يدعوهم إلى حفظ الكتاب الذي جاء به..

لقد ورد في القرآن أن هذا الكتاب منزل عليهم ولهم.. هو رسـالة من الله ليسمعوها ويعوها ويحفظوها.. وقد كان ذلك وحده كافيا ليملأ وعيهم بمفرداته وتراكيبه.. إن القرآن يقول للناس الذين أرسـل إليهم محمد:{ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْـرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُـونَ}(الانبيـاء:10).. فهو كتـاب ذكـرهم وشـرفهم.. وهـل يمكن لعاقـل أن ينسـى الكتـاب الذي يشرفه هذا التشريف!؟

ولهذا كان أتباع محمد يمتلئون سرورا بـالقرآن الـذي يـنزل.. لقـد كانوا يشعرون بأن الله يكلمهم.. لقد ورد هذا في القرآن، فهو يصــف هذه الحالة النفسية وصفا دقيقا، فيقول:{ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْـهُ هَـذِهِ إِيمَانـاً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُـوا فَـزَادَتْهُمْ إِيمَانـاً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ}(التوبة:124)، ويقول:{ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُـدًى وَشِـفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُـونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْـرٌ وَهُـوَ عَلَيْهِمْ عَمًى }(فصـلت:44)، ويقول:{ وَنُنزلُ مِنَ الْقُـرْآنِ مَـا هُـوَ شِـفَاءٌ وَرَحْمَـةٌ لِلْمُـؤْمِنِينَ وَلا يَزِيـدُ الظَّالِمِينَ إِلا خَسَارًا}(الإسراء: 82)، ويقول:{ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُـونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُـوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُـهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانـاً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}(لأنفال:2)

إن هذه الآيات تصف المؤمنين، وهم يتسابقون لحفظ كتاب ربهم، وهم مستبشرون بما أنزل عليهم، يبشر بعضهم بعضا به.. فهـل تـرى مثل هؤلاء سينسون ما أنزل إليهم؟

لقـد كـان الـوحي هـو الـروح الـتي أحيت العـرب وغـيرهم من الأجناس.. أو كان هو المطر الذي نزل على صـحرائهم الميتـة.. وهـل يمكن للبدوي أن ينسى الغيث الذي يأتيه بعد اليـأس، أو الحيـاة الـتي تأتيه بعد الموت!؟

نظـر إلي، فـرآني سـاكتا، فقـال: لقـد كـان من أهم مزايـا حفـظ القرآن أن محمدا كان في بيئة لم يكن فيها رجال دين.. كان كــل من حوله عبيدا أو تجارا أو عمالا بسطاء.. لقد كـانت قلـوبهم كالصـفحات البيضاء التي تحفظ ما سجل عليها نقيـا صـافيا، فلا تتصـرف فيـه، ولا تعبث به.

ولم يكتف محمد بهذه الأحوال النفسية الجميلة التي كان يعيشــها أصحابه، وهم يسمعون القرآن، بل كان يزيـد في تـرغيبهم في فضـل حفظه ووعيه وتدبره.. ليضمن أعظم حفظ له.

لقد كان يقول لهم:(مثل الذي يقـرأ القـرآن وهـو حافـظ لـه مـع السفرة الكرام البررة، ومثل الذي يقـرأ القـرآن، وهـو يتعاهـده، وهـو عليه شديد، فله أجران)[1]

وكـان يقـول لهم:(يقـال لصـاحب القـرآن إذا دخـل الجنـة: اقـرأ واصعد، فيقرأ، ويصعد بكل آية درجة، حتى يقرأ آخر شيء معه)[2]

ويبشــرهم بـأن حافـظ القـرآن سـيكون شخصـية مرموقـة في الآخرة، بحيث يشفع في أهله.. لقد قـال:(من قـرأ القـرآن وحفظـه أدخله الله الجنة، وشفعه في عشرة من أهل بيته كلهم قد اســتوجب

---

(1) رواه البخاري.

(2) رواه ابن ماجة.

النار)[1]

بل يكرم والـداه، وتعلـو منزلتهمـا، لقـد قـال:(من قـرأ القـرآن، وعمل بما فيه، ألبس والداه تاجا يوم القيامة، ضوءه أحسن من ضوء الشمس في بيوت الـدنيا - لـو كـانت فيكم، فمـا ظنكم بالـذي عمـل بهذا؟)[2] .. أتدري ما أثر هذا القول؟

قلت: ما أثره؟

قـال: لقـد وهب أكـثر المسـلمين أبنـاءهم للكتـاتيب ليحفظـوا القرآن.. ويضمنوا بذلك من الشفعاء ما يقيهم حر جهنم.

ليس ذلك فقط.. بل كان يبشرهم بأن أهل القـرآن هم أهـل اللـه وخاصته، فقد قال:(إن لله أهلين من الناس) قـالوا: يـا رسـول اللـه من هم؟ قال:(هم أهل القرآن، أهل الله وخاصته)[3]

قلت: ولكني مع ذلك قرأت حديثا لبعض أصحاب محمد يخـبر فيـه أنه لم يحفظ القرآن في عهد النـبي إلا أربعـة.. فكيـف توفـق بين مـا ذكرت، وهذا الحديث.

قال: أجل.. هذه شبهة يتعلق بها الكثير ليطعنوا في تواتر القرآن.

قلت: ولم لا تسميها دليلا على عدم تواتره؟

قـال: لأنهـا ليسـت دليلا.. لقـد بحثت في هـذا بحثـا مفصـلا.. هـذا الحديث رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن، وقـد صـرح أنس في هذه الرواية بصيغة الحصر، وهـو الـذي تعلـق بـه من تعلـق في إيـراد هذه الشبهة.

---

[1] رواه ابن ماجه، ورواه الترمذي، وقال: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ لا نَعْرِفُهُ إِلا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ وَلَيْسَ إِسْنَادُهُ بِصَحِيحٍ وَحَفْصُ بْنُ سُلَيْمَانَ يُضَعَّفُ فِي الْحَدِيثِ.

[2] أبو داود في كتاب الصلاة باب في ثواب قراءة القرآن (2/70)ح: 1453 وأحمد في مسنده: مسند المكيين (4/466) ح 15218.

[3] رواه ابن ماجه .

قلت: ألا تزال تصر على تسميتها شبهة؟

قال: سأسميها كما تشتهي.. ولكن اسمع لي.. نص الحديث هو عن أنس بن مالك الذي هو أحد أصحاب محمد، لقد قال: مات النبي ﷺ ولم يجمع القرآن غير أربعة: أبو الدرداء ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد قال: ونحن ورثناه.

وفي رواية قتادة قال: قلت لأنس بن مالك: من جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ قال أربعة كلهم من الأنصار: أبي بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت ورجل من الأنصار يكنى أبا زيد)[1]

قلت: هذا الحديث صريح لا يمكن لأحد أن يفر منه.

قال: أرأيت لو روي حديث آخر في قوة هذا الحديث من صحابي آخر، يذكر أن حفظة القرآن في عهد محمد كانوا أربعمائة، أكنت تقبله، أم ترفضه؟

قلت: دعنا من (أرأيت).. نحن الآن أمام حديث صريح.

قال: وهل قال هذا الحديث محمد؟

قلت: لقد قاله بعض أصحابه.

قلت: فماذا ذكر؟

قال: لقد أحصى حفظة القرآن في عهد محمد، فذكر أنهم أربع.

قلت: أرأيت إن جاء صحابي آخر، فأخبر بحفظه للقرآن، أو أخبر بحفظ غير الأربعة للقرآن.. أكنت تصدقه؟.. أم أنك لا تصدق غير أنس؟

لم أدر ما أجيبه به.. فقد كنت أدري ما يرمي إليه، فقال: لا شك أنك ستصدقه، لأنه لا ميزة لأنس تجعله الناطق الرسمي باسم الصحابة.. فكل صحابة محمد يمكنهم أن يعبروا عن آرائهم أو عن

---

(1) رواه البخاري ومسلم.

إحصائهم.

قلت: أجل.. فهل روي في ذلك شيء يناقض ما قال أنس؟

قال: روي الكثير.. لقد ثبت في الصحيح أنه قُتِل يوم بئر معونة سبعون مِمَّن جمع القرآن[1]، وروي أنه قتل في وقعة اليمامة مثلهم.. هؤلاء فقط من قتلوا.. فكيف بمن لم يقتل.

قلت: وما تقول في حصر أنس للأربعة؟

قال: يمكنك أن تقول الكثير.. من ذلك أن تقول أن الحصر في كلام أنس إضافي، لا حقيقي.. أي أن قول أنس (أَرْبَعَةٌ) لا مفهوم له؛ أي هم أربعة بالإضافة إلى غيرهم.

ويمكنك أن تستدل لذلك باستحالة إحاطة أنس بحال كل الصحابة، وأنَّهم لم يجمعوا القرآن كله..

ويمكنك أن تستدل لذلك باختلاف الرواية عن أنس في تحديد الأربعة، ففي رواية ذكر أبي ومعاذ وزيد وأبو زيد[2]، وفي رواية أخرى أبو الدرداء مكان أبيٍّ[3].. وهذا دليل على عدم إرادته الحصر الحقيقي، لأنه ليس معقولاً أن يكذب نفسه.

ويمكنك أن تعتبر الحصر حقيقيا.. ولكن لا على أن المراد ما توهمته من الحفظ.. بل على مراد آخر كان الصحابة يعتنون به، كما اعتنى به من بعدهم.

قلت: وماهو؟

قال: الكثير من العلوم المرتبطة بالقرآن.. مثل وجوه القراءات، فيكون المعنى حينئذ:(لم يجمعه على جميع الوجوه والقراءات التي

---

(1) رواه البخاري، ومسلم.

(2) رواه البخاري ومسلم.

(3) رواه البخاري.

نزل بِها إلا أولئك)

أو أن يكـون المـراد بجمعـه تلَقِّيـهِ من فم رسـول اللـه ﷺ بغـير واسـطة، بخلاف غـيرهم، الـذين يحتمـل أن يكونـوا قـد تلقـوا بعضـه بالواسطة.

ومع كل مـا ذكرتـه لـك من أدلـة إلا أن حـديث أنس لـو اعتبرنـاه بالمعنى الذي ذكرت من الحصر، فإنه لا يدل على انتفاء التواتر.

قلت: كيف ذلك؟

قال: لأن كل جزء منه حفظ من خلائق لا يحصون، يحصل التـواتر ببعضهم، وليس من شـرط التـواتر أن ينقـل جميعُهم جميعَـه، بـل إذا نقل كل جزء عدد التواتر صارت الجملـة متـواترة بلا شـك، ولا أظنـك تخالفني في ذلك[1].

قلت: ما الذي تقصد؟

قال: أرأيت لو أن جميع وكالات الأنباء أوردت خبرا، بعضهم فصـل فيه، وبعضهم قصر، ولكن كل جزء من أجزاء الخبر اتفـق على ذكـره الكثير.. أكنت تنكر الخبر.. لكون بعضهم لم يذكر الخبر كاملا؟

قلت: لا.. لا يمكنـــني ذلـــك.. وإلا أغلقت أي وكالـــة أنبـــاء لتعطي المبرر لسائر الوكالات لتكذيب الخبر.

قال: فهكذا الأمر.. لو فرضنا الأمر على ما قصدت.

قلت: هناك شيء آخر قد يكون محل شبهة.

قال: ما هو؟

قلت: لقـد رأيت دوران أسـانيد القـراء على ثمانيـة من الصـحابة فقط دون غيرهم.. أليس ذلك قادحا في التواتر؟

---

(1) شرح النـووي على صـحيح مسـلم (16/20)، وفتح البـاري (8/668)، والإتقـان (1/200).

قــال: ألســتم تجعلــون ناســا معيــنين في مــؤتمراتكم توكلــونهم بالنطق باسم المؤتمر؟

قلت: أجل.. ولا بد من ذلك.

قــال: فلم لم تجعلــوا كــل واحــد من المــؤتمرين يتحــدث باســم المؤتمر.

قلت: ذلك سيكلفهم عنتا.. وسيحتاج الصحفيون حينها لاســتجواب الجميع.

قــال: فهكــذا الأمــر في هــذه المســألة.. لقــد حفــظ الكثــير من الصحابة القرآن.. ولكن أسانيد التابعين توقفت على هؤلاء الثمــاني، لا لعدم وجــود غــيرهم.. بــل لكــون هــؤلاء قــد تفرغــوا للقــرآن وتعليمــه وتصحيح القراءات، كما تفرغ الناطقون في المؤتمرات.

قلت: فلم اكتفوا بالثماني؟

قال: أرأيت لو صارت الأسانيد ألفا.. من يحفظها.. ومن يهتم لها.. ألا تعلم أن التواتر لا يحتاج إلى تكلف البحث عن الأسانيد؟

قلت: ماذا تقصد؟

قــال: عنــدما يأتيــك الخــبر من كم كبــير من النــاس، فإنــك لا تهتم بدرجاتهم، ولا التفاصيل المرتبطة بهم، فالناس في العادة لا يجتمعون على الكذب، بل لا يقدرون على الاجتماع على الكذب.

قلت: كيف لا يقدرون؟

قــال: هــل يمكن أن تتصــور ناســا مختلفين، من بلاد مختلفــة، لا علاقات تربطهم، ولا مصالح تجذبهم.. ثم يتفقون بعد ذلك على روايــة قصــيدة ألقاهــا شــاعر في حفلــة من الحفلات.. فيــأتون بهــا بحروفهــا وكلماتها.. أيظل عندك بعد ذلك شك في القصيدة، وفي الشاعر الذي قالها؟

قلت: لا..

قال: فقد نقل القرآن جيوش من الناس عن جيوش من النــاس.. كلهم يحفظه حرفا حرفا، وكلمة كلمة.. فكيـف نتهمهم بالتضـييع، مـع أنه الكتاب الذي أخرجهم من البداوة إلى الحضارة، ومن الخمول إلى الشهرة، ومن الذل إلى العزة، ومن الظلمات إلى النور.

لقد كان القرآن هو الدرة اليتيمة التي أخرجتهم من الهاويـة الـتي كانوا يحبسون فيها.. أفترى من تكون له مثـل هـذه الـدرة يفـرط في حفظها، أو يتهاون في نقلها؟

قلت: عرفت كيف حفظ القرآن في الصدور.. وأنــا أعلم الــذاكرة القوية التي يتمتع بها البدو.. لكأن ذاكرتهم مسجلة تسجل كل شــيء، ولا يغيب عنهــا أي شــيء.. فحــدثني كيــف **حفــظ القــرآن في السطور** مع كونه كان في هذه البيئة التي تعتمد على الـذاكرة أكـثر من اعتمادها على التوثيق؟

قال: صدقت في هذا.. فقد كـانت بيئـة محمـد تعتمـد على توثيـق الصدور أكثر من اعتمادهـا على توثيـق السـطور.. وهي ناحيـة مهمـة ساهمت في حفظ القرآن.

قلت: كيف ذلك؟

قال: توثيق السطور قد يصبح هدفا للكتبة الكذبة.. فقـد تتـاح لهم من الفرص ما يملأون كتبهم بالكذب.

قلت: وحفظ الصدور؟

قال: حاول أن تخطئ أي عامي يحفـظ القـرآن في حـرف واحـد منه.. لقد رأيت عالما يحـاول مثـل هـذا مـع صـبي صـغير، فلم يفلح.. حرف واحد لم يستطع أن يضيفه.

لقد ذكرني ذلك بحديث قاله محمد يَحكيـه عن ربـه:(إنمـا بعثتـك لأبتليك، وأبتلي بك، وأنزلت عليك كتابـا لا يغسـله المـاء، تقـرؤه نائمـا

ويقظان)[1]، فأخبر أن القرآن لا يحتـاج في حفظـه إلى صـحيفة قـد يصيبها الماء، فيذهب ما فيها من العلم.

وعامـل آخـر جعـل من هـذا النـوع من الحفـظ أهم من حفـظ السطور هو الحفاظ على القرآن غضا طريا باللغة التي كان ينطق بها محمد.. وهو ما لم يتحقق في أي كتاب مقدس.. أليس كذلك؟

صمت، فقال: بلى.. فأكثر كتبنا منقولة عن العبريـة إلى اليونانيـة، ثم نحن لا نقرؤها باليونانية، بل نقرؤها بلغاتنا المحلية.

قلت: ولكن ـ مع ذلك ـ فإن لحفظ السطور أهميته، فكيف تسـنى لمحمد أن يحفظ كتابه بهذا الأسلوب في تلك البيئة البدوية الأمية؟

قـال: نعم هي بيئـة بدويـة أميـة.. ولكن مـع ذلـك كـان فيهـا كتبـة يكتبون، وكان للعربية حروف جميلـة تكتب بهـا.. وكـان لهم مقـاييس في الكتابة يخضعون لها.

لقد ذكر القرآن الكتابة، ونوه بهـا، ودعـا لاسـتعمالها في التوثيـق، فهو يقول:{ نْ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ}(القلم:1) ففي هذه الآية قسـم بالقلم الـذي يكتب بـه، وبالسـطور الـتي تكتب، والقسـم لا يكـون إلا بمحترم.

وهو يدعو إلى التوثيق بالكتابة في أطول آية قرآنية جاء فيها:{ يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً فَـاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَـقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ }(البقرة: 282) إني أقرأ هذه الآية، فأجد فيها من الأعماق ما لا أستطيع التعبير عنه.. إنها لا تتحدث عن الدين فقط.. بل هي قـانون حضـاري رفيـع.. انظر جيدا كم فيها من تنويه بالكتابة وبالكتبة.

قلت: حدثني عن كتابة القرآن لا عن كتابة الدين.

---

(1) رواه مسلم.

قال: أترى الذي أمر بكتابة ديـون قـد لا تضـر ولا تنفـع يغفـل عن الأمـر بكتابـة القـرآن.. لقـد كـان القـرآن أهم عنـدهم من أنفسـهم وأموالهم، فكيف تتصور غفلتهم عن كتابته؟

قلت: عـرفت حـرص أصـحاب محمـد على حفـظ كتـابهم.. ولا يستغرب منهم ذلك، فقد عاشوا مع محمد، وسمعوا منه، بـل حفظـوا القرآن على يديه.. ولكن الشك يعتري سائر الأجيال الـتي لم تسـمع، ولم تحفظ، ولم يكن لها من الهمم ما كان لأصحابه؟

قال: لا.. بل سمعت، وحفظت، وكان لها من الهمم ما لا يقل عن همم أصحابه.. فلذلك لم تزد الأيام القرآن إلا رسوخا.. لقد انبرى كـل صـحابي حافـظ يعلم أهلـه وجيرانـه وأهـل محلتـه، فصـار الحفـاظ بالآلاف.. بل صاروا على مدى العصور لا يعدون ولا يحصون..

قلت: أعلم ذلك.. ولكـني سـأورد عليـك شـبهة خطـيرة لم يقلهـا المبشرون، ولا المستشرقون.. بل ولا المستغربون.

قال: تقصد ما يقوله المتطرفون من المسـلمين[1] أولئـك الـذين يشهرون سيوف التكفير على إخوانهم.

---

(1) مع ما لهذه القضية من خطورة إلاّ أننا لا نجد صدى لهذا الاتهام عنـد من اهتمـوا بذكر مقولات الفرق المختلفـة، فلا نجـد هـذه التهمـة عنـد الأشعري في (مقالاتـه)؛ ولا عبـد القاهر البغدادي في (أصول الدين)، ولا (الفرق بين الفـرق)، ولا عنـد ابن حـزم في (الفصـل في الملل والنحل)، ولا الشهرستاني في (الملل والنحل). وهؤلاء هم قمـة من أرخـوا للفـرق الإسلامية وغيرها.

ومثل ذلـك علمـاء الكلام لا نجـد كـذلك صـدى لهـذه القضـية في كتابـاتهم الكلاميـة وهم يعرضون لأوجه إعجاز القرآن وحفظه ورعايته من الله تعالى. فيخلو من صدى هـذه القضـية كتاب (المواقف) لعضد الدين الايجي، و(الإرشاد) لإمام الحرمين الجويني، و(شرح المقاصـد) لسعد الدين التفتازاني، و(التمهيد) للباقلاني، و(أصول الدين)للبزدوي.

ونفس الموقف أيضاً عند المفسرين فمحمـد بن جريـر الطـبري، وجمـال الـدين الجـوزي، القرطبي، وأبو البركات عبدا لله بن أحمد النسفي، وابن كثير، وأبـو حيـان الأندلسـي، وجلال الدين السيوطي، وأبو السـعود، والشـوكاني، وكـل هـؤلاء لم يـذكر كلمـة واحـدة حـول هـذه القضية، لا من قريب ولا من بعيد اللهم إلاّ بعض تلميحات أوردها الفخر الـرازي في تفسـيره الكبير في هذا الموضوع لا تثبت الاتهام، بقدر ما توضح طريقة الفخر الـرازي في رد احتجـاج القاضي عبد الجبار على إنكار ما ذهب إليـه بعض الإماميـة من دخـول التحريـف في القـرآن الكريم، وتبعه في ذلك الآلوسي في (روح المعاني).

قلت: لا يهمني من هم، ولكنهم يذكرون أن الشيعة ـ تلك الطائفة الكبيرة من طوائف المسلمين ـ تنص على تحريف القرآن.

قال: لقـد قـرأت ذلـك، وبحثت فيـه، فوجدتـه لا يعـدو مـا ذكرنـاه سابقا.. هي مجرد نصوص ضعيفة تعلـق بهـا البعض ليواجهـوا التـواتر الذي اتفق جميع المسلمون عليه.

قلت: ولكن هذا التواتر تخرقه هذه الطائفة الكبيرة.

قـال: لقـد عشـت عمـرا بين الشـيعة في ديـارهم، ولم أسـمعهم يـرددون أي قـرآن غـير هـذا القـرآن الـذي تـراه.. هم يحفظونـه كمـا يحفظه إخوانهم، ويفسرونه كما يفسـرونه، ويهتمـون بترتيلـه وإقامـة المجالس لـذلك، سـواء بسـواء.. فكيـف نـترك مـا علم لمـا جهـل؟.. وكيـف نـترك التـواتر لأجـل آحـاد ضـعيفة لا يمكنهـا أن تقـاوم آحـادا صحيحة، فكيف تقاوم التواتر؟

قلت: وتلك الرواية التي استفاضت.. ألا يمكن أن تعتبر موقفا؟

قال: لقد روي مثلها عند إخوانهم من أهل السـنة.. وكلا الفـريقين يرون ضعف ما روي، ويتبرؤون منه.

ومن الروايات الواردة في كتب أهـل السـنة مـا وري عن عائشـة أنها قالت: (كانت سورة الأحزاب تقرأ في زمن رسول الله ﷺ مـائتي آية، فلما كتب عثمان المصاحف لم يقدر منها إلا على ما هو الآن)[1]

ومنها ما روي عن عبد الله بن عمر: (لا يقولن أحـدكم قـد أخـذت من القرآن كله، وما يدريه ما كله؟ قد ذهب منه قرآن كثير)[2]

ومنها ما روي عن عائشة قالت: (لقد نزلت آيـة الـرجم ورضـاعة الكبير عشراً ولقد كانت في صحيفة تحت سريري فلما مـات رسـول

---

(1) الإتقان: 3/81.

(2) المصدر نفسه 3/81.

الله ﷺ وتشاغلنا بموته دخل الداجن فأكلها)[1]

ومنها ما روي أن عمر قال لعبد الرحمن بن عوف: (لم تجد فيما أنزل علينا (أن جاهدوا كما جاهدتم أول مرة) فأنا لا نجدها؟ قال: أسقطت فيما أسقط من القرآن)[2]

ومنها ما روي عن حذيفة قال: (قرأت سورة الأحزاب على النبي ﷺ فنسيت منها سبعين آية ما وجدتها)[3]

ومنها ما روي عن ابن مسعود أنه كان يقرأ الآية هكذا:(كفى الله المؤمنين القتال بعلي بن أبي طالب)[4]

قلت: لقد أضفت إلى الشبهة أدلة أخرى.. فالفريقان إذن متفقان على تحريف القرآن؟

قال: لا.. بل الفريقان متفقان على سلامة القرآن من التحريف.. وإنما أوردت لك هذه النصوص عن أهل السنة، لترد بها على المتطرفين الذين يريدون أن يسنوا بالمسلمين سنة أقوامنا الذين اختلفوا في الكتاب المقدس.

قلت: لقد علمت إجماع أهل السنة على سلامة القرآن من التحريف.. ولكني لم أعرف موقف الشيعة.

قال: أول ما يدلك على تهافت هذا القول هو تبرؤ العلماء العدول من الفريقين منه، فقد ذكر علماء الشيعة المعتبرين الذين هم مراجع الشيعة الكبار إجماع علماء الشيعة على صيانة القرآن من التحريف بالزيادة، والنقصان، والتغيير، والتبديل، ولم يخالف هذا الإجماع إلا

1() مسند أحمد 6/269، الايضاح/218، تأويل مختلف الحديث/310.

2() كنز العمال 2/567، الاتقان 2/52 الدر المنثور 1/106.

3() الدر المنثور 5/180.

4() المصدر نفسه 5/192.

أفراد قلائل لا يعتدُ بقولهم.

وهم يـردون مـا ورد من ذلـك ردا شـديدا.. فهي عنـدهم روايـات ضعاف رويت في كتبهم، كما رويت مثلها في كتب السنة.

ولهذا اشتدوا على من جمع مثل هـذا، أو اهتم بـه كمـا هـو الحـال في موقفهم من كتاب: فصل الخطاب للنوري، وقد جمعت الكثير من آراء علماء الشيعة ابتداءً بالقرن الرابع الهجري، وانتهـاءً بهـذا القـرن، والتي تدل على أن هذه فرية لا أساس لهـا من الصـحة، وسـأقرأ لـك مما جمعته ما يدل على مدى الكذب الذي يقع فيه هؤلاء المتطرفـون ليفرقوا به وحدة أمتهم.

نهض، وأخذ أوراقا متفرقة في ركن من أركان المكتبـة، ثم قـال: اسمع ما يقول العدول من علماء الشيعة على مـر العصـور .. ثم راح يقرأ: قال الصدوق (م 381 هـ): (قال جماعة من أهل الإمامة إنـه لم ينقص منه كلمة، ولا آيـة، ولا سـورة، ولكن حـذف مـا كـان مثبتـا في مصحف أمير المؤمنين من تأويله وتفسير معانيه على حقيقـة تنزيلـه؛ وذلك كان ثابتا منزلاً، وان لم يكن من جملة كلام الله تعالى الذي هــو القرآن المعجز، وقد يسمى تأويل القرآن قرآناً)[1]

فقد وضح الصدوق علة ما ورد من نصوص في حال صحتها، وهي بذلك لا تعدو ما ورد عن السنة من تفسير مثل هـذا بـأن المـراد منـه التفسير لا الحقيقة.

وقال السيد المرتضى (م 436 هــ): (إن القـرآن كـان على عهـد رسول الله ﷺ مجموعا مؤلفا على ما هو عليه في ذلك الزمان حــتى عين النـبي ﷺ على جماعـة من الصـحابة حفظهم لـه، وكـان يعـرض على النبي، ويتلى عليه، وان جماعة من الصـحابة مثـل: عبـد اللـه بن مسـعود، وأبي بن كعب، وغيرهمـا ختمـوا القـرآن على النـبي عـدة ختمات، وكل ذلك يدل بأدنى تأمل على أنه كـان مجموعـا مرتبـا غـير مبتـور، ولامبثـوث، وأن من خـالف من الاماميـة والحشـوية لا يعتـد

(1) أوائل المقالات/54، المفيد، مكتبة الداوري، قم.

بخلافهم)[1]

وقـال الطوسـي (461 هــ): (وأمـا الكلام في زيادتـه، ونقصـانه، فمما لا يليق به، لأن الزيادة فيه مجمـع على بطلانهـا، وأمـا النقصـان منه فالظاهر أيضاً من مذاهب المسلمين خلافه، وهو الأليق بالصـحيح من مذهبنا، وهو الذي نصره المرتضى رضي اللـه عنـه، وهـو الظـاهر من الروايات.. غير أنه رويت روايات كثيرة من جهة الخاصـة والعامـة بنقصان كثير من آي القرآن، ونقل شيء منـه من موضـع إلى موضـع طريقهـا الآحـاد، ولا يسـتوجب علمـاً، فـالأولى الإعـراض عنهـا وتـرك التشاغل بها)[2]

وقال ابن طاووس (644هــ): (كـان القـرآن مصـونا من الزيـادة، والنقصان كما يقتضيه العقـل، والشـرع.. وإن رأي الاماميـة هـو عـدم التحريف)[3]

وقال العلامة الحلي (م 726 هـ): (الحق إنـه لا تبـديل، ولا تـأخير، ولا تقـديم فيـه، وإنـه لم يـزد، ولم ينقص، ونعـوذ باللـه تعـالى من أن يعتقد مثل ذلك، وأمثال ذلك فإنه يوجب التطرق إلى معجزة الرسول عليه وآله السلام المنقولة بالتواتر)[4]

وقـال زين الـدين العـاملي (م 877 هــ): (علم بالضـرورة تـواتر القرى، بجملته، وتفاصيله، وكان التشديد في حفظه أتم، حتى تنازعوا في أسـماء السـور، والتفسـيرات، وإنّمـا اشـتغل الأكـثر عن حفظـه بالتفكير في معانيه، وأحكامه، ولو زيد فيه أو نقص لعلمه كـل عاقـل، وإن لم يحفظه، لمخالفة فصاحته وأسلوبه)[5]

1() تفسير القرآن الكريم/25، عبدالله شبر، مكتبة النجاح، طهران ط 2.

2() مجمع البيان 1/15.

3() سعد السعود 193، ابن طاووس، قم منشورات الرضي، 1407 هـ.

4() أجوبة المسائل المهناوية/121، الحلي، قم مطبعة الخيام 1401 هـ.

5() التحقيق في نفي التحريف/16، عن الصراط المستقيم 1/45.

وقـال نـور اللـه التسـتري (م 1019 هــ): (مانسـب إلى الشـيعة الإمامية من القول بالتحريف ليس مما قاله جهور الإمامية، وإنما قاله شرذمة قليلة لا اعتداد بهم في جماعة الشيعة)[1]

وقال الشيخ بهاء الدين محمـد بن الحسـين الحـارثي العـاملي (م 1030هـ): (والصحيح أن القرآن العظيم محفوظ من التحريف، زيادة كانت أو نقصانا بنص آيـة الحفـظ من الـذكر الحكيم، ومـا اشـتهر بين الناس من إسقاط اسم أمير المؤمنين في بعض المواضـع، فهـو غـير معتبر عند العلماء)[2]

وقال الفاضل التوني (1071 هـ): (والمشهور بين علمائنــا الأعلام إنه محفوظ ومضبوط كما أُنزل لم يتبـدل، ولم يتغـير، حفظـه الحكيم الخبير)[3]

وقال الفيض الكاشاني (1091 هــ): يـرد على روايـات التحريـف بأنها مخالفة للقرآن: (ويرد على هذا كله إشـكال، وهـو إنـه على هـذا التقدير لم يبق لنا اعتماد على شيء من القرآن، إذ على هـذا يحتمـل في كل آية منه أن يكون محرفا، ومغيرا، ويكون على خلاف مـا أنـزل الله، فلم يبق لنا في القرآن حجة أصلاً، فتنتفي فائدته، وفائـدة الأمـر باتباعه والوصية بالتمسك به. إن خبر التحريـف مخـالف لكتـاب اللـه، مكذب له، فيجب رده والحكم بفسـاده أو تأويلـه.. ولا يبعـد أن يقـال: إن بعض المحـذوفات كـان من قبيـل التفسـير والبيـان ولم يكن من أجزاء القرآن، فيكـون التبـديل من حيث المعـنى، أي حرفـوه وغـيروا في تفسيره، وتأويله)[4]

وقال محمد بن الحسن الحـرّ العـاملي (1104 هــ): (إن من تتبـع

1() آلاء الرحمن 1/25 ـ 26.

2() المصدر السابق .

3() البرهان/113 هاشم البحراني، قم ـ إسماعيليان.

4() تفسير الصافي 1/51 ـ 52، الفيض الكاشاني ـ مؤسسة الاعلمي.

الأخبار، وتفحص التواريخ، والآثار علم علماً قطعياً بأن القرآن قـد بلـغ أعلى درجات التواتر، وأن آلاف الصحابة كانوا يحفظونه، ويتلونه، وأنه كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله مجموعاً مؤلفاً)[1]

وقال محسن الأعرجي (1227 هـ): (اتفـق الكـل ؛ لا تمـانع بينهم على عدم الزيادة.. والمعروف بين أصحابنا، حتى حكي عليه الإجمـاع، عدم النقيصة أيضاً)[2]

وقال جعفر كاشف الغطـاء (1228 هــ): (لا ريب في أن القـرآن محفـوظ من النقصـان بحفـظ الملـك الـديان، كمـا دل عليـه صـريح الفرقان، وإجماع العلماء في جميع الأزمان، ولا عبرة بالنادر، ومـا ورد من أخبار النقيصة تمنع البديهة من العمل بظاهرها)[3]

وقال إبراهيم الكلباسي الاصبهاني (1262 هـ): (إن النقصــان في الكتاب مما لا أصل له)[4]

وقـال محمـد جـواد البلاغي (1352: (ومن أجـل تـواتر القـرآن الكريم بين عامة المسلمين جيلاً بعد جيل، استمرت مادتـه، وصـورته، وقراءتـه المتداولـة على نحـو واحـد، فلم يـؤثر شـيئا على مادتـه، وصورته..)[5]

وقـال محمـد حسـين كاشـف الغطـاء (1366هــ): (وإن الكتـاب الموجود في أيدي المسلمين هو الكتاب الـذي أنزلـه اللـه إليـه صـلى الله عليه وآلـه للإعجـاز والتحـدي ولتعليم الأحكـام وتميـيز الحلال من الحرام، وإنه لا نقص فيه ولا تحريف، ولا زيـادة، والأخبـار الـواردة من

1() الفصول المهمة/166.

2() صيانة القرآن من التحريف/55.

3() التحقيق في نفي التحريف/20.

4() التحقيق في نفي التحريف/21.

5() آلاء الرحمن 1/29.

طرقنـا، أو طـرقهم الظـاهرة في نقصـه أو تحريفـه ضـعيفة شـاذة، وأخبار آحاد لا تفيد علما ولا عملاً)[1]

وقـال محسـن الأمين العـاملي، (1371 هـ): (لا يقـول أحـد من الإمامية، لا قديماً ولا حديثا: إن القرآن مزيـد فيـه قليـل، أو كثـير، بـل كلهم متفقون على عدم الزيادة، ومن يعتد بقولهم متفقـون على أنـه لم ينقص منه، ومن ينسب إليهم خلاف ذلك، فهو كاذب مفتر، متجري على الله ورسوله)[2]

وقال شرف الدين العاملي (1377 هـ): (ومن الأدلة على اعتقــاد الإمامية بعدم سقوط شيء من القرآن الكريم: صلاتهم لأنهم يوجبون قراءة سورة كاملة بعد الحمد في الركعة الأولى، والثانيـة.. وصـلاتهم بهذه الكيفية والأحكام دليل ظاهر على اعتقادهم بكون سـور القـرآن بأجمعها في زمن الرسـول صـلى اللـه عليـه وآلـه على مـا هي عليـه الآن، وإلا لما تسنى لهم هذا القول)[3]

وقـال محمـد رضـا المظفـر (1384 هـ): (.. لا يعتريـه التبـديل، والتغيير والتحريف وهذا الذي بين أيدينا نتلوه هو نفس القرآن المنزل على النـبي، ومن أدعى فيـه غـير ذلـك فهـو مخـترق، أو مغالـط أو مشتبه)[4]

وقال محسـن الحكيم (1370 هـ): (إن سـلف المسـلمين كافـة، وعلماء الإسلام عامة منذ بدء الإسلام إلى يومنا هذا، يرون أن القـرآن في تـرتيب سـوره، وآياتـه، هـو كمـا بين أيـدينا، ولم يعتقـد أحـد من السلف في التحريف)[5]

1() اصل الشيعة وأصولها/133.

2() أعيان الشيعة 1/51، محسن الأمين العاملي، دار التعارف.

3() أجوبة مسائل جار الله 28، شرف الدين العاملي، مطبعة النعمان 1386هـ.

4() عقائد الإمامية/85.

5() دراسات قرآنية/168، محمد حسين الصغير، مكتب الاعلام الإسلامي ط 2.

وقال مرتضى المطهري (1399 هـ): (وبما أن المسلمين كانوا قد اعتقدوا بأنه كلام الله وليس كلام البشر، فقد كانوا يقدسونه، ولا يسمحون لأنفسهم أن يتلاعبوا بكلمة، أو حرف منه)[1]

وقال العلامة الطباطبائي (1403 هـ) صاحب الميزان: (القرآن محفوظ بحفظ الله عن كل زيادة، ونقيصة وتغيير في اللفظ، أو في الترتيب يزيله عن الذكرية ويبطل كونه ذكرا لله سبحانه بوجه. فالذي بأيدينا منه هو القرآن المنزل على النبي صلى الله عليه وآله بعينه)[2]

وقال السيد الخوئي (1409 هـ)، وهو يورد أجوبة على الأخبار التي يفهم منها القول بالتحريف: (إن الواقف على عناية المسلمين بجمع الكتاب وحفظه وضبطه قراءة وكتابة، يقف على بطلان تلك المزعومة (التحريف) وما ورد من أخبار إما ضعيف لا يصلح للاستدلال به، أو مجعول تلوح عليه أمارات الجعل، أو غريب يقضي بالعجب، أما الصحيح منها فيرمى إلى مسألة التأويل والتفسير، وإن التحريف إنما حصل في ذلك، لا في لفظه، وعباراته)[3]، ويورد أدلة حفظ القرآن من التحريف اللغوي يقول: (إن حديث تحريف القرآن حديث خرافة، وخيال، لا يقول به إلا من ضعف عقله، أو من لم يتأمل في أطرافه حق التأمل)[4]

وقال السيد الگلپايگاني (1414 هـ): (وبعد فالصحيح من مذهبنا إن كتاب الله الكريم الذي بأيدينا بين الدفتين هو ذلك الكتاب الذي لا ريب فيه من لدن عزيز حكيم، المجموع المرتب في زمانه، وعصره بأمره بلا تحريف وتغيير وزيادة ونقصان، والدليل على ذلك تواتره بين المسلمين كلا وبعضا ترتيبا وقراءة مع توفر الدواعي لهم في حفظه

1() التعرف على القرآن الكريم/14.

2() الميزان 12/106.

3() تهذيب الأصول 2/165، السبحاني، طبعة اسلامي، 1363 هـ ش.

4() البيان/259.

وإبقائه ونقله بلا زيادة ونقيصة)[5]

قلت: ولكن ما تقول في كتاب (فصل الخطاب) الذي يذكر الأدلـة الكثيرة على تحريف القرآن؟

قال: لقد وقف علماء الشيعة موقفا متشددا من هذا الكتاب الذي يرجع إليه المتطرفون في إثبات دعاواهم، وألفـوا الكتب الكثـيرة في ذلك، ومنها كتاب (الرد على فصل الخطـاب)، وهـو كتـاب ضـخم، رد فيه على روايات فصـل الخطـاب واحـده واحـدة، ونظـر فيهـا واحـدا واحدا، وهذا المؤلف معاصر له.

ومنها كتاب (آلاء الرحمن في تفسير القرآن) للشيخ البلاغي الـذي هو معاصر للشيخ النوري، فقد رد عليه بشدة.

وقـد ذكـر الشـيخ آقـا بـزرك الطهـراني تلميـذ المحـدث المـيرزا النوري، في كتاب (الذريعة إلى تصانيف الشيعة)، تحت عنوان (فصـل الخطـاب)، على أن المـيرزا النـوري لم يكن معتقـدا بمضـامين هـذه الروايات، ولم يكن معتقدا بكـون القـرآن ناقصـا ومحرفـا، مـع علمـه بأحوال أستاذه وبأقواله.

زيادة على هذا، فإنا لو سـلمنا أن الشـيخ النـوري يعتقـد بنقصـان القـرآن، فهـو قولـه، لا قـول الطائفـة، وقـول الواحـد لا ينسـب إلى الطائفة.

زيادة على هذا كله لماذا يرجع هـؤلاء إلى رأي واحـد أو اثـنين في إثبات التحريف، ويغفلون عن الجموع الكثيرة التي تنفيـه، وتشـتد في نفيه.

قلت: إن قومنا لا يكتفون بـالكلام النظـري، بـل هم ينشـرون في كتبهم، وفي مواقعهم، وبكل ما لديهم من وسائل الإعلام سورتين من سور القرآن يتصورون أن الشيعة يقولون بقرآنيتهما.

5() صيانة القرآن من التحريف/64.

ابتسم، وقال: تقصد سورتا الولاية والنورين.

قلت: أجل.. وإن سمحت لي سأقرأهما عليك لترى مبلغ صدقي.

قال: وتحفظهما أيضا؟

قلت: كيف لا أحفظهما، وهما سلاح من أسلحتنا الحادة التي نشهرها للاستدلال على تحريف القرآن.

ابتسم، وقال: هل تعتبر ذلك النظم الغريب، وذلك الأسلوب الركيك قرآنا.. إن العجز يلوح في ألفاظه وتركيبه وفي كل كلماته..!؟

قلت: نحن لا يهمنا ركاكة ألفاظه، بل يهمنا أنه قيل بقرآنيته.

قال: ومن قال ذلك.. إن ذاكر هذه النصوص وغيرها لا يملك غير مجرد الدعوى العارية من الدليل.. وأنا أتحدى من أتى بهذا أن يذكر إسنادا واحدا لهذه النصوص.. ولو كان إسنادا ضعيفاً.

قلت: صدقتك في هذا.. كما صدقتك في غيره.. ولكن أجبني: هل ترى أن المسلمين سيظلون على هذا الاهتمام بكتابهم؟.. ألا يمكن أن تجرفهم التيارات الحديثة، فيغفلون عن كتابهم.. ويأتي من يدس فيه بعد ذلك ما يشاء؟

قال: لقد وجدت من خلال استقرائي لتأثير الأزمات في حفظ القرآن ناحية مهمة جديرة بالاهتمام.

قلت: ما هي؟

قال: لقد وجدت أنه كلما تضاءل اهتمام المسلمين بكتابهم من الناحية التنفيذية لتعاليمه، كلما اشتد حرصهم عليه من ناحية المحافظة على حروفه وكلماته.. وكأنهم يقولون في نفوسهم: نعم نحن قصرنا في كتابنا.. ولكن مع ذلك لن نحرم الأجيال التالية بركات هذا الكتاب.

طبق هذه القاعدة على عصرنا.. فسترى العجب العجاب..

إنـك تـرى القـرآن الآن في كـل مكـان.. في كـل مـنزل ومكتب وسيارة.. حتى غير المسلم يحافظ على القرآن ويحمله..

قلت: لقد ذكرتني برجل من أهـل بلـدي من ألمانيـا يفكـر في أن يكتب القرآن في صفحة واحدة..بشكل جميل.

قال: ولكنـه لم يفكـر في أن يفعـل ذلـك مـع الكتب الأخـرى.. إن هناك شيئا عجيبا في هذا الكتاب يجعل دولة كاليابان وإيطاليـا تتفننـان في طباعة المصحف بشكل جميل أنيق.

إن القـرآن يقـرأ الآن في كثـير من محطـات العـالم التلفزيونيـة والإذاعية، وهو يـترجم لكـل اللغـات، وهـو يوضـع في أجمـل الـبرامج وأحلى الحلل.. ولا يكاد يوجد في الدنيا من يجهله.

أما سر ذلك.. فإني لا أجهله.. إنه لولا أن الله أراد ان يحفظ كلامه ما قيض له كل هذه الجيوش المجيشة لتحميه.

لقد رأى الله تقصير عباده في حفظ كلامه.. فتولى حفظه بنفسه.

***

ما وصلنا إلى هذا الموضع من حديثنا حـتى دخـل رجـل المكتبـة، كان يشبهه تماما، بحيث يستحيل التفريق بينهما.

لما رآه صاحبي أعاد الكتاب الذي كان يحمله إلى مكانه، وقد بـدا عليه بعض الوجـل، قلت: مـا الـذي حصـل؟.. من هـذا الـداخل الـذي يشبهك تماما؟

قال: هذا أخي التوأم.. هذا هو الحجـاب الأكـبر الـذي يحـول بيـني وبين التمتع بأشعة شمس محمد.. ليتني أنتهي منه في يوم من الأيام.

قلت: ما تقول يا رجل.. لقد كنت أحسبك عاقلا.. فكيـف تريـد أن تقتل أخاك؟

قال: لا.. لم أقصد هذا.. أريـد إنهـاء جدلـه ولهـوه ولغـوه وحرصـه

وكبره.. والذي يحول بيني وبين الحقائق.

قلت: فكيف تقتل هذه الأدواء فيه؟

قال: ذلك يحتاج إلى أسلحة كثيرة وعلـوم كثـيرة وهمم عظيمـة.. ولن أقعد دون ذلك.. وسيأتيك اليـوم الـذي تسـمع فيـه بانتصـار حقي على بــاطلي.. وانتصــار عقلي على نفســي.. وانتصــار روحي على طيني.

قال ذلك.. ثم انصرف إلى أخيه ليبتسم في وجهه، ويجلس معه.

أما أنا فقـد انصـرفت بحـيرة جديـدة.. وببصـيص جديـد من النـور اهتديت به بعد ذلك إلى أشعة محمد.

في ذلك المساء عندما عدت إلى بيتي وجدت أخي التـوأم يحمـل ملازم من الكتاب المقدس قد تم طبعها ذلـك اليـوم، والسـرور يبـدو على وجهه، وقال: انظر.. لقـد قمنـا في هـذه الطبعـة بإنجـاز ضـخم، سيكون له تأثيره الكبير في نصرة الحقيقة.

قلت: هل نقحت الكتاب المقدس؟

قال: تستطيع أن تقول ذلك.. إنـه إنجـاز ضـخم سيسـر بـه قومنـا كثيرا.. وسترتفع بسببه درجاتنا في سلم الطريق إلى كرسي البابا.

قلت: ما فعلت بالكتاب المقدس؟

قال: لم أفعل شيئا سوى أني حذفت قوسـين كانـا يجثمـان عليـه كما تجثم العلل على القلوب.

قلت: أفي الكتاب المقدس أقواس؟.

قال: هناك أقواس أضيفت لتمهد لحذفها.. وقد نلت شرف حـذف قوسين منهما.

قلت: ما الذي تقصد؟

قال: انظر هذا النص من رسالة يوحنـا الاولى الاصـحاح الخـامس العـدد 7.. اسـمع مـا تقـول النسـخة العربيـة الحديثـة:(فـإن الـذين يشهدون في السماء هم ثلاثة الآب والكلمـة والـروح القـدس وهـؤلاء الثلاثة هم واحد)

نظرت، فرأيت النص موضوعا بين قوسين.. لقد وضـعت الجملـة (فى السماء الاب والكلمة والروح القـدس وهـؤلاء الثلاثـة هم واحـد) بين قوسين.

قال: أنت ترى أن هذه الجملة قد وضعت بين قوسين؟

قلت: أجل.. رأيتها، وقد علمت أنهم نبهوا في أول الكتـاب إلى أن ما يوضع بين القوسين غير موجود بالأصل.

قـال: فقـد قمت أنـا وأنت بهـذا الإنجـاز الضـخم.. لقـد نـزعت القوسين ليصبح النص أصلا.

قلت: ألا تعتبر ذلك تحريفا؟

قال: لقد فعله القديسـون من قبلي.. ولا يمكن أن أتقـدس إن لم أفعله.

تركته، وانصرفت إلى فراشي.. وقد كـان مـا سـمعته منـه أخطـر بكثير من كل ما سمعته من صاحبي.

وفي فراشي مددت يدي إلى محفظتي لأستخرج بعض ما أحتاجه منها، فامتدت يدي إلى الورقة التي سلمها لي صـاحبك، فعـدت أقـرأ فيها..

لقـد أيقنت حينهـا أن هـذا السـور الأول من أسـوار الكلمـات المقدسة لم يتحقق به أي كتاب في الدنيا غير القرآن الكريم.

ثانيا ـ الربانية

في اليوم الثاني.. أرسلني أخي إلى مترجم خبير باللغات الأصلية التي كتب بها الكتاب المقدس، بالإضافة إلى ما وهبه الله من مقدرة بلاغية تتيح له تقريب البعيد، وتحسين الذميم، وتقديس المدنس.

وكان لأخي مشروع كبير في إعادة ترجمة الكتاب المقدس بالإضافة إلى كتبنا الدينية إلى لغة أدبية رفيعة يفهمها العرب، ويتذوقونها.. فالعرب ــ كما عرف أخي، أو كما أوحي له ــ أمة لا تستفزها المعاني، بل تستفزها الألفاظ، ولا تسحرها الحقيقة، بل يسحرها البيان.

ولذلك كان يتصور أن القرآن ما اصطاد قلوب العرب إلا بجمال بيانه، وتناسق ألفاظه، وصورة نظمه.

وقد أوحي إلي كما أوحي إليه أن أزين لهذا المترجم أن يضع الكتاب المقدس في حلة تشبه حلة القرآن أو تدانيه، ليجذب جمال أسلوبه ما عجز أن يفعله بمعانيه.

ذهبت إلى هذا المترجم الذي كان يسكن في ضاحية المدينة، وفي ربوة منفردة عن الناس، وقد احتل مسكنه موقعا ممتازا لم أر مثله.. فهو يطل على المدينة جميعا، وفي نفس الوقت ينعزل عنها جميعا.

اقتربت من البيت الذي كانت تحيط به حديقة في غاية الجمال والتناسق، فاستقبلني حجاب بيته بالترحيب والتفتيش.. كانت الابتسامة تشرق من وجوههم، ومع ذلك كانوا يفتشوني كما تفتش الشرطة المجرمين.

بعد أن مررت عليهم.. طلبت من أحدهم أن يخبر هذا المترجم بوجودي، فقد عقد أخي لي ميعادا معه.

أوصلني إلى دار الضيافة، وهناك بقيت أنتظر صاحبي كما تنتظر

الرعية وزراءها..

بعد فترة لم تكن وجيزة جاءني صاحبي، فقلت مازحا: أهلا بالملك المتربع على عرشه.

ابتسم، وقال: ليس هناك ملك غيره.. كلنا وكلهم عبيد.

قلت: لقد جعلت من قصرك هذا قصرا ملكيا.

قال: حتى لا يحتقرني الملوك الذي استعبدوا الرعايا، أو استعبدتهم الرعايا.

لم أفهم ما كان يقصد، بل دخلت معه مباشرة في الموضوع، فقلت: جئتك لأجل أمر مهم أرجو أن لا تردني خائبا.

قال: وأرجو أن لا ترد نفسك خائبا.

قلت: كيف أرد نفسي خائبا؟

قال: إذا طلبت ما لا يمكن ترد نفسك خائبا.

قلت: لا.. بل هو ممكن سهل.. هو يصب في صميم اختصاصك.. ألست مترجما أديبا تنجذب الكلمات إلى قلمه ولسانه كما ينجذب الحديد إلى المغناطيس؟

قال: هم يقولون ذلك.. ولا يدرون المعاناة التي تعانيها روحي، وهي تبحث في قاموس عقلي عن الكلمات.

قلت: أتعلم خير ما يمكن أن توظف فيه تلك المعاناة؟

قال: أنبئني.. فلا خير في جهد يذهب إلى خير، ويترك ما فوقه.. أنا صاحب همة عالية لا أحب السفاسف، ولا أحب لكلماتي أن تقع على السفاسف.

قلت: ولذلك جئتك.. لقد تركت مترجمي الروايات وجئتك أنت لاحترامك للكلمات.

قال: لقد صدقت في بحثك، فأوصلك الذي يوصل الصادقين.

قلت: أنت تعرف أني رجل دين.. وأني زائر ببلدكم.. ولا شك أنـك تعلم بالمشروع الذي يزمع أخي على تنفيذه.. ولم يجـد ــ بعـد تقليب النظر ـ غيرك يصلح له.

وهو يضع بين يديك مـا تشـاء من أمـوال، ومـا تشـاء من مراجـع، لتخرج لنا نسخة عربية من الكتاب المقدس لا تقل جمالا عن القــرآن الذي انصرف المسلمون بجماله عن حقيقته.

مصادر القرآن الكريم

قال: هل تعرف حقيقة القرآن؟

لم أجد ما أقول، فقد فاجأني بهذا السؤال، قلت: أنا أقول فيه مـا تقول أنت، وما يقول فيه كل مسيحي صادق مخلص..

قال: وما يقول المسيحي الصادق المخلص؟

قلت: هو نسخة مشوهة من الكتاب المقدس.. استغل فيه محمـد ما أوتي من بيان.. ليؤسس دينا من مصادر لا يملكها.

قال: اسمح لي قبل أن أجيبك إلى ما سـألتني أن أزيح عنـك هـذه الشـبهة، فلا يمكنـني أن أرى الحقـائق تشـوه دون أن أذب عنهـا.. إن الكلمات التي لا تغير على الحقائق كلمات منافقة لا صادقة.

لم أكن أتصور أن يتحدث معي هذا المترجم بهذا الأسلوب، ولكني مع ذلك شعرت بسرور لا أدري سببه.. لقد كانت الأحاديث عن محمد ودين محمد وقرآن محمد تملأ صدري انشراحا.

قلت ـ بابتسـامة تملأ أسـارير وجهي ــ: قـل مـا تشـاء.. كلي آذان صاغية، فما أحلى الحقيقة المقدسة من الشبهات.

قال: أنت ترمي القرآن بأنه نسخة مشوهة من الكتاب المقدس.

قلت: هكذا يقول كل مسيحي صادق مخلص.

قـال: قـد يقـول هـذا كـل مسـيحي مخلص.. يعميـه إخلاصـه عن الحقائق، فلا يرى إلا ما يحب أن يـراه.. ولكن هـذا لن يقولـه أبـدا أي مسيحي صادق.. فالصدق يقتضي البحث الموضوعي المجرد، وهو ما قد يرضي الإخلاص، وما قد يسخطه.

قلت: تعني الاستسلام لأحكام العقل.

قـال: الاستسـلام لأحكـام الحـق.. فـالحق هـو الـذي يحررنـا من الشهوات والشبهات.

قلت: فأنت لا تقول إذن بما أقول.

قال: ما كان لي أن أقول إلا ما هداني إليه الحق.

حقائق القرآن:

سكت قليلا، ثم قال: أتعرف من أين جاء محمد بهذه الآية:{ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ } (قّ:38)

بادرت إلى الإجابة من غير تحقيق: مما ورد في الكتاب المقدس.. فقد جاء فيه:(لأنـه في سـتة أيـام صـنع الـرب السـماء والأرض، وفي اليوم السابع استراح وتنفس) (خروج31: 17).

قال: هل ترى النصان متفقان؟

قلت: أجل.. فكلا النصـين ينص على أن خلـق السـموات والأرض تم في ستة أيام.

قال: وهل تريد من القرآن أن يذكر عشرة أيـام أو عشـرين يومـا حتى يتجنب رميه بالاستمداد من الكتاب المقدس!؟

قلت: أجل.. فاتفاقه مـع الكتـاب المقـدس دليـل على اسـتمداده

منه.

قال: أرأيت لـو أن كاتبـا ذكـر أن الأرض كرويـة.. فهـل نـزعم أنـه كتاب مسروق، لأن هناك من سبقه إلى ذكر كروية الأرض!؟

قلت: لا.. فكروية الأرض حقيقة لا شك فيها.

قال: وقـد اعتـبر القـرآن خلـق السـموات والأرض في سـتة أيـام حقيقـة لا شـك فيهـا.. بـل اعتبرهـا من الحـق الـذي ورد في الكتـاب المقدس.. فلذلك اتفق معه فيها.

أم أنك تريد أن يبرز القرآن ذاتيته، ولو بالمخالفـة الـتي تـدل بحـد ذاتها على أنها تهدف إلى إبراز الذات، لا إلى إبراز الحقيقة؟

صمت، فقال: تأمل النصين جيدا.. هل تراهما متوافقان؟

قلت ـ من غير نظر ـ: لا شك في ذلك.

قال: أنت حجبت بلفظ السـتة عن جميـع الآيـة القرآنيـة.. سـأقرأ عليك الآية من جديد.. وأرجو أن تنسى كلمة (الستة)

أعاد قراءة الآية، وقال: هل اكتشفت الفرق؟

قلت: أجل.. لقد ذكر القرآن أن الله خلـق السـموات والأرض من دون أن يمسه أي تعب، بينما ذكر الكتـاب المقـدس أن اللـه اسـتراح وتنفس في اليوم السابع.

قال: فأيهمـا يتوافـق مـع العقـل؟.. هـل هـو الطـرح القـرآني، أم الطرح التوراتي؟

لم أدر بما أجيبه، فقال: أنت.. وكل مسيحي صادق.. يعلم أن الله أعلى وأعظم من أن يصـيبه التعب، وأنـه أعلى وأعظم من أن يحتـاج إلى الراحة.. الله هو القدوس الذي لا تصيبه الأعراض التي تصيبنا.

قلت: أجل.. وفي الكتاب المقدس ما يدل على هذا.

قال: فالقرآن إذن لم يستمد من الكتاب المقدس هذه المسـألة.. بل ذكر هذه المسألة ليصحح بها خطأ الكتاب المقدس.

قلت: كيف عرفت أنه لم يستمد؟

قال: سأضرب لك مثالا.. لو وقفت أمام خبير في الفلك، وذكـرت حقيقة فلكية تعرفها، فوافقك في بعضها، وصحح لك الآخر.. هل تـرى أنه استمد منك الحقيقة الأولى؟

قلت: لا.. هـو خبـير.. فكيـف يسـتمد مـني.. بـل إن في تصـحيحه لخطئي دليل على أن تلك الحقيقة كـانت بديهيـة عنـده، وأنـه يعرفهـا على حقيقتها، بخلاف معرفتي السطحية.

قال: فهكذا النصوص التي يظهر من القرآن أنها تتفق مع الكتــاب المقدس.

قلت: أهي لا تتفق؟

قال: هي تتفق.. ولا تتفق..

قلت: لم أفهم.

قال: لقد رأى القرآن أن الكتاب المقدس هو كتـاب أمـة عظيمـة من الناس، وبما أنه كتاب هداية للناس جميعا، فقـد رأى أن يـذكر مـا في هذا الكتاب من الصواب والخطأ، والحق والضلال.

قلت: فلم لم يأت بالجديد المجرد؟

قال: هو أتى بالجديد المجرد.. وأتى بالإصلاح.. ألست ترى أن كـل الأنبياء الذين جاءوا بعد موسى لم ينقضـوا النـاموس؟.. وأنهم جميعـا اكتفوا برسالة موسى.

قلت: أجل.. حتى المسيح روي عنه ذلك.

قال: فلماذا تتهمون محمدا أنـه لص على الكتـاب المقـدس.. ولا

تتهمون جميع الأنبياء.

قلت: هو لم يكن إسرائيليا.

قال: وهل الله عنصري لهذه الدرجة بحيث لا يختار إلا إسرائيليا؟

صمت، فقال: لقد ورد في القرآن تصحيح أوهـام المشـركين كمـا ورد تصحيحه لأوهام أهل الكتـاب كمـا ورد تصـحيحه للأوهـام الكثـيرة التي تعشش في عقول البشرية.

نعم أنت لا يعنيك إلا دينك.. سأذكر لك أمثلة من الكتاب المقـدس ومن القرآن، لترى كيف صحح القرآن الأوهام..

لا شك أنك تعرف هذه الآية:{ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَـرُوا أَنَّ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَـا رَتْقـاً فَفَتَقْنَاهُمَـا وَجَعَلْنَـا مِنَ الْمَـاءِ كُـلَّ شَـيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ}(الانبياء:30)

قلت: أجل.. وهي مسـتمدة ممـا ورد في أول الكتـاب المقـدس: (في البدء خلق الله السموات والارض. وكانت الارض خربـة وخاليـة وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله يرف على وجه الميـاه. وقـال اللـه ليكن نور فكان نور. ورأى الله النور انه حسن.وفصـل اللـه بين النـور والظلمة. ودعا الله النور نهارا والظلمة دعاها ليلا.وكـان مسـاء وكـان صباح يوما واحدا وقال الله ليكن جلد في وسط المياه.وليكن فاصـلا بين مياه ومياه) (تكوين:1/1-8)

قال: ألا ترى أن هناك فرقـا عظيمـا بين التعبـيرين.. القـرآن يعـبر عن الحقائق بشكل قوانين شاملة لا يمكن أن تخـترق.. هـو يـذكر أن السموات والأرض كـانت مجتمعـة، ثم تفـرقت، وهـو نفس مـا يقـول العلم[1].. وهـو يـذكر أن المـاء هـو مـادة أساسـية للحيـاة في جميـع الأشياء.. وهو نفس ما يقول العلم..

بينما التوراة قد تضم نفس الحقـائق.. ولكنهـا تعـبر عنهـا بطريقـة

(1) انظر التفاصيل المرتبطة بهذا في رسالة (معجزات علمية) من هذه السلسلة.

خرافية.. هي أقرب إلى تعبير العجائز منها إلى تعبير الله.

سكت قليلا، ثم قال: ألا تلاحظ فرقا أساسيا.. قد لا تشعر به، وقد لا يشعر به كثير من الناس؟

قلت: ما هو؟

قال: في التوراة نجد حديث غائب.. فهي تقول:(ورأى الله النـور أ حسن.وفصل الله بين النور والظلمة. ودعا الله النـور نهـارا والظلمـة دعاها ليلا).. بينما يقول القرآن:{ فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا }

ألا تعلم أنه لا يمكن لبشر أن ينسب لنفسه مثل هـذا الكلام.. إنـه كلام عظيم تنهد لـه الجبـال.. ولكن القـرآن يمتلئ بـه.. اسـمع فقـط بعض ما ورد من مادة (خلق) منسوبا إلى الله بنون التعظيم:

{ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْأِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَأٍ مَسْنُونٍ}(الحجر:26)

{وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ}(الحجر:85)

{ وَلَقَـدْ كَرَّمْنَـا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَـاهُمْ فِي الْبَـرِّ وَالْبَحْـرِ وَرَزَقْنَـاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً}(الاسراء:70)

{ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ}(الانبياء:16)

{ وَلَقَـدْ خَلَقْنَـا فَـوْقَكُمْ سَـبْعَ طَرَائِقَ وَمَـا كُنَّا عَنِ الْخَلْـقِ غَـافِلِينَ} (المؤمنون:17)

{ لِنُحْيِيَ بِـهِ بَلْـدَةً مَيْتـاً وَنُسْـقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَـا أَنْعَامـاً وَأَنَاسِـيَّ كَثِـيراً} (الفرقان:49)

{ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَـا مَـالِكُونَ} (يّـس:71)

{ فَاسْـتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَـدُّ خَلْقـاً أَمْ مَنْ خَلَقْنَـا إِنَّا خَلَقْنَـاهُمْ مِنْ طِينٍ

لازِبٍ} (الصافات:11)

سكت قليلا، ثم قال: هذه مجرد أمثلة عن كلمـة واحـدة.. لا يمكن لبشر أن ينسب لنفسه هـذه القـدرات.. أتتصـور أن محمـدا يمكن أن يقـول:{ وَالسَّـمَاءَ بَنَيْنَاهَـا بِأَيْـدٍ وَإِنَّا لَمُوسِـعُونَ}(الـذريات:47)، أو أن يقول:{ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً}(النبأ:12)

في نفس الوقت الذي يدعوه القرآن إلى غايـة التواضـع والمذلـة لله، { فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَـوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَـرِيبٌ أَمْ بَعِيـدٌ مَـا تُوعَدُونَ}(الانبياء:109).. { قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ وَمَـا أَدْرِي مَـا يُفْعَـلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِـعُ إِلَّا مَـا يُـوحَى إِلَيَّ وَمَـا أَنَـا إِلَّا نَـذِيرٌ مُبِينٌ} (الاحقاف:9).. { قُـلْ إِنْ أَدْرِي أَقَـرِيبٌ مَـا تُوعَـدُونَ أَمْ يَجْعَـلُ لَـهُ رَبِّي أَمَداً}(الجـن:25).. { قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَـا إِلَهُكُمْ إِلَـهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً}(الكهف:110)

سكت قليلا، ثم قال: لنترك هذا المثال، ولنأت بمثـال آخـر يصـحح فيه القرآن ما ورد في كتبنا.

لقد ورد في كتابنا:(وقال الله نعمل الانسان على صورتنا كشبهنا) (تكوين1:26).. فهل وافق القرآن التوراة على هذا؟

قلت: لا.. لقد ورد في القرآن مـا يـدل على مخالفـة اللـه لخلقـه، وأنه لا يشبهه شيء.

قـال: أجـل.. لقـد ورد فيـه:{ لَيْسَ كَمِثْلِـهِ شَـيْءٌ وَهُـوَ السَّـمِيعُ البَصِيرُ }(الشورى: 11).. وفيـه:{ لَمْ يَلِـدْ وَلَمْ يُولَـدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُـواً أَحَدٌ }(الإخلاص: 4)

سكت قليلا، ثم قال: لقد ورد في كتبنا:(استيقظ لماذا تتغـافى يـا رب؟)(مزامير 44:ـ 23).. وورد فيه:(فاسـتيقظ الـرب كنـائم كجبـار معيط من الخمر) (مزمور78:65).. فهل في القرآن ما يوافق هذا؟

قلت: لا.. لقد نص القرآن على خلاف هذا.. فقد ورد فيـه:{ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَـا فِي السَّـمَاوَاتِ وَمَـا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْـفَعُ عِنْـدَهُ إِلَّا بِإِذْنِـهِ يَعْلَمُ مَـا بَيْنَ أَيْـدِيهِمْ وَمَـا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُــونَ بِشَـيْءٍ مِنْ عِلْمِــهِ إِلَّا بِمَـا شَـاءَ وَسِـعَ كُرْسِـيُّهُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلا يَـؤُودُهُ حِفْظُهُمَـا وَهُـوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} (البقـرة: 255)

قال: لقد ورد في كتبنا:(يا رب حتى مـتى أدعـو وأنت لا تسـمع؟) (حبقوق 1: 2)، فهل في القرآن ما يوافق هذا؟

قلت: لا.. لقد ورد فيه الإخبار عن سماع اللـه المطلـق.. لقـد ورد فيه:{ وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى}(طـه:7)، وفيه:{ لَقَـدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَـاءُ سَـنَكْتُبُ مَـا قَـالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ}(آل عمران:181)

قـال: لقـد ورد في كتبنـا:(يـا رب الجنـود الى مـتى أنت لا تـرحم أورشليم (زكريا1:12)، وفيها:(هل إلى الدهور يرفض الرب ولا يعـود للرضا بعد؟ هل انتهت الى الأبد رحمته؟ هل نسي اللـه رأفـة أو نقص برجزه مراحمه)(مزمـور 77:ـ 7)، وفيهـا:(بـادت ثقـتي ورجـائي من الرب) (مراثي 3: 18).. فهل في القرآن ما يتفق مع هذا؟

قلت: لا.. القرآن يمتلئ بذكر رحمة الله بعباده.. بل إن أول سورة منه تبدأ بالرحمة الإلهية.. { بسم الله الرحمن الـرحيم (1) الْحَمْـدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (3)}(الفاتحة)

قـال: القـرآن كلـه حـديث عن الرحمـة الإلهيـة.. لقـد قـارنت بين القرآن والكتاب المقدس في هذا.. فلم أجد في جميـع كتبنـا نصوصـا كهذه النصوص..:{ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُـوا مِن رَّحْمَـةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِـرُ الـذُّنُوبَ جَمِيعـاً إِنَّهُ هُـوَ الْغَفُـورُ الـرَّحِيمُ } (الزمـر: 53).. { وَإِلَهُكُمْ إِلَـهٌ وَاحِـدٌ لا إِلَـهَ إِلَّا هُـوَ الـرَّحْمَنُ الـرَّحِيمُ} (البقـرة:163).. { قُـلْ لِمَنْ مَـا فِي السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُـلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ }(الأنعام: 12).. { وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُـونَ بِآياتِنَـا

فَقُـلْ سَـلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِـهِ الرَّحْمَـةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِـلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُـورٌ رَحِيمٌ}(الأنعـام:54).. { وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ}(الأنعام:133).. { فَإِنْ كَـذَّبُوكَ فَقُـلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ}(الأنعام:147).. { وَلا تُفْسِـدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْـدَ إِصْـلاحِهَا وَادْعُـوهُ خَوْفـاً وَطَمَعـاً إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}(لأعراف:56)

ابحث في جميـع كتبنـا.. بـل في جميـع كتب الـدنيا، فلن تجـد آيـة كهذه الآية:{ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ}(لأعراف: 156)

سكت قليلا، ثم قال: في كتبنا المقدسة هذا النص:(افتح عينيك يا رب، وانظر (2ملوك19: 16).. فهل في القرآن ما يتفق معه؟

قلت: لا.. القرآن يخـبر عن بصـر اللـه المطلـق.. ففيـه:{ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ }(الحجـرات: 18)، وفيه:{ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُـونَ بَصِيرٌ}(هود:1121)

قال: بل أخبر القـرآن أن من لا يبصـر لا يسـتحق أن يكـون إلهـا.. اسمع إليه:{ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَـذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعـاً وَلا ضَـرّاً قُـلْ هَـلْ يَسْـتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِـيرُ أَمْ هَـلْ تَسْـتَوِي الظُّلُمَـاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُـوا لِلَّهِ شُـرَكَاءَ خَلَقُـوا كَخَلْقِـهِ فَتَشَـابَهَ الْخَلْـقُ عَلَيْهِمْ قُـلِ اللَّهُ خَـالِقُ كُـلِّ شَـيْءٍ وَهُـوَ الْوَاحِـدُ الْقَهَّارُ}(الرعد:16)

قلت: أجل.. هناك نصوص كثيرة تدل على ذلك.

قـال: لقـد ورد في كتبنـا المقدسـة:(قـال الـرب: وأنكث ميثـاقي معهم)(لاويين26: 44)، وفيها:(قلتَ يا رب:(لا أنقض عهدي) لكنك رفضت ورذلتَ، غضبتَ على مسـيحك، نقضـتَ عهـد عبـدك، نجسـتَ تاجه في التراب.. فرّحتَ جميع أعدائه. رددتَ حـدّ سـيفه ولم تنصـره في القتال.. حتى متى يا رب تختبىء كل الاختبـاء (مزمـور89:ـ 19)،

وفيها:(لا تنقض عهدك معنا) (ارميا 14: 8)

أفي القرآن مثل هذا؟

قلت: لا.. لقد ورد في القرآن وفاء الله بوعده، وعدم وقوع التبديل على كلماته، ففيه:{ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ}(البقرة:80)، وفيه:{رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ}(آل عمران:9)، وفيه:{ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ}(الرعد: 31))

قال: لقد ورد في كتبنا المقدسة:(مع الطاهر تكون طاهرا، ومع الملتوي تكون ملتوياً) (2صمو22:ـ 27)، وفيها:(لا تقرض أخاك بربا.. للأجنبي تقرض بربا، ولكن لأخيك لا تقرض بربا لكي يباركك الرّبّ إلهك في كلّ ما تمتد إليه يدك في الأرض التي أنت داخل إليها لتمتلكها)(تثنية 23:ـ 19)، وفيها:(هذا هو حكم الإبراء: يبرى كلّ صاحب دَيْن يده ممّا أقرض صاحبه. لا يطالب صاحبه ولا أخاه. لأنّه قد نودي بإبراء للرّبّ. الأجنبي تُطالب)(تثنية 15:ـ 1)، وفيها قول المسيح:(لَيْسَ مِنَ الصَّوَابِ أَنْ يُؤْخَذَ خُبْزُ الْبَنِينَ وَيُطْرَحَ لِجِرَاءِ الْكِلاَبِ) (متّى 15: 26)

أفي القرآن مثل هذا؟

قلت: لا.. لقد ورد في القرآن:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ }(النساء: 135)، وفيه:{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} (الحجرات:13)

قال: في كتبنا المقدسة:(لأنه هكذا أحب الله العالم حتى أعطى ابنه مولوده الوحيد)(يوحنا3:ـ 16)، وفيها:(قال داود: إني أعلن قرار الرب الذي قال لي: أنت إبني. أنا اليوم ولدتُكَ)(مزمور2:7)

وفيها النصوص الكثيرة مثل هذا.. أفي القرآن مثل هذا؟

قلت: لا.. لقد تشدد القرآن في مثل هذه الألفـاظ.. بـل ورد فيـه:{ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُـلٌّ لَـهُ قَانِتُونَ (116) بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْـراً فَإِنَّمَـا يَقُـولُ لَـهُ كُنْ فَيَكُونُ (117)}(البقرة)، وفيه:{ وَقَالُوا اتَّخَـذَ الـرَّحْمَنُ وَلَـداً (88) لَقَـدْ جِئْتُمْ شَـيْئاً إِدّاً (89) تَكَـادُ السَّـمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْـهُ وَتَنشَـقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً (90) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً (91) وَمَـا يَنْبَغِي لِلـرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً (92) إِنْ كُـلُّ مَنْ فِي السَّـمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الـرَّحْمَنِ عَبْداً (93)}(مريم)

قال: أفي الكتاب المقدس مثل هذا:(قـالت مـريم للملاك: كيـف يكون هذا (أحمـل بولـد) وأنـا لسـت أعـرف رجلا؟ فقـال لهـا الملاك: الروح القدس يحلّ عليك. وقوة العلي تظلّلك)؟

قلت: لقد ورد في القرآن قوله بدل ذلـك:{ قَـالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُـونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ} (آل عمران: 47)

قال: لقد ورد في كتبنا المقدسة هذه النصـوص:(قـال اللـه لبـني اسـرائيل: حين تمضـون من أرض فرعـون: لا تمضـوا فـارغين. بـل تطلب كل امرأة من جارتها أمتعة: فضة وذهب وثياباً. وتضـعونها على بنيكم وبناتكم فتسلبون المصريين)(خروج3: 21)، وفيها:(وفعل بنو اسـرائيل بحسـب قـول موسـى: طلبـوا من المصـريين أمتعـة فضـة وأمتعة ذهب وثيابا وأعطى الرب نعمة في عيـون المصـريين فسـلبوا المصريين)(خروج12: 35)

فهل في القرآن مثل هذا؟

قلت: لا.. لقـد ورد في القـرآن:{ وَإِذَا فَعَلُـواْ فَاحِشَـةً قَـالُواْ وَجَـدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّـهَ لاَ يَـأْمُرُ بِالْفَحْشَـاء أَتَقُولُـونَ عَلَى اللّـهِ مَـا لاَ تَعْلَمُـونَ }(الأعـراف: 28)، وفيـه:{ إِنَّ اللّـهَ يَـأْمُرُ بِالْعَـدْلِ وَالإِحْسَـانِ وَإِيتَـاء ذِي الْقُـرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَـاء وَالْمُنكَـرِ وَالْبَغْيِ

يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ }(النحل: 90)، وفيه:{ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَـاتِ إِلَى أَهْلِهَـا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُـوا بِالْعَـدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً}(النساء:58)

قال: لقد ورد في كتبنا المقدسة:(أنا هو الرب.. أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء وفي الجيل الثالث والرابع)(تثنية5:ـ 7)، وفيه:(هيّئوا لبنيـه قتلاً بإثم آبائهم)(أشعيا14: 21).. أفي القرآن مثل هذا؟

قلت: لا.. لقد ورد في القرآن:{ قُلْ أَغَيْـرَ اللّـهِ أَبْغِي رَبّـاً وَهُـوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ }(الأنعام: 164)، وفيه:{ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِـدْ لَـهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً}(النساء:123)

قال: لقد ورد في كتبنا المقدسة:(اعـبروا في المدينـة وراءه (أي يهوذا) واضربوه: لا تشفق أعينكم ولا تعفوا: الشيخ والشاب والعـذراء والطفل والنساء: أقتلـوا للهلاك.. نجّسـوا الـبيت واملأوا الـدّور قتلى.. وأنا أيضاً لا تشفق عيني) (حزقيال9: 5)

قلت: لا.. لقـد ورد في القـرآن:{ وَإِنْ عَـاقَبْتُمْ فَعَـاقِبُوا بِمِثْـلِ مَـا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ}(النحل:126)

قال: بل ورد في القرآن الأمـر بالرحمـة بالمقـاتلين أنفسـهم بـأن يكتفى بالإجهاز عليهم، أو جرحهم حتي يتمكن من أسرهم، ففيه:{ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُـوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْـرِبُوا فَـوْقَ الْأَعْنَـاقِ وَاضْـرِبُوا مِنْهُمْ كُـلَّ بَنَـانٍ} (لأنفال:12)

سكت قليلا، ثم قال: لقد ورد في كتبنـا المقدسـة:(إذن: نحسـب أن الانسان يتبرر بالايمـان بـدون أعمـال النـاموس)(رومية3:ـ 28).. فهل ورد مثل هذا في القرآن؟

قلت: لا.. لقد ورد فيـه:{ أَحَسِـبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُـوا أَن يَقُولُـوا آمَنَّا

وَهُمْ لَا يُفْتَنُــونَ وَلَقَــدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَــدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ}(العنكبوت:3)، وفيه:{ أَفَمَن كَـانَ مُؤْمِنـاً كَمَن كَـانَ فَاسِقاً لَّا يَسْتَوُونَ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَـأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }(السجدة: 19)

ســكت، فــاغتنمت فرصــة ســكوته، فقلت: لقــد ورد في كتبنــا المقدسة هذا النص العظيم:(لا تقـاوموا الشـر، بـل من لطمـك على خدك الأيمن فحوّل له الآخر أيضاً. ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبــك فاترك له الرداء أيضاً)(متى5:ـ 38).. فأين هذا في كتابـه الـذي جـاء بالجهاد؟

قال: لقد جـاء في القـرآن:{ وَجَـزَاء سَـيِّئَةٍ سَـيِّئَةٌ مِّثْلُهَـا فَمَنْ عَفَـا وَأَصْلَحَ فَـأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ }(الشـورى: 40).. لقـد ذكرت هذه الآية العدل والفضل، حتى لا يعول المجـرم على الفضـل، فيقدم على إجرامه.

وفيــه الفضــل المحض المصـحوب بـالترغيب العظيم:{ وَلْيَعْفُــوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }(النور: 22)

قصص القرآن:

قلت: وعيت كل هذا، وأنا أسلمه لك، ولكن لم ذكر القــرآن نفس القصـص الـتي وردت في كتبنـا.. أليس ذلـك سـطوا؟.. أليسـت تلـك خيانة؟

قال: هذا من دلائل صدق القرآن.. بل هـو من دلائـل صـدق كتبنـا في تلك القصص.. ولكن هل ترى ما ورد في القـرآن من قصـص هـو نفس ما ورد في كتبنا؟

قلت: أجل..

قال: قصة داود مثلا ترى أنها نفس قصة داود عنـدنا.. أم أن اسـم داود فقط هو الذي نتفق عليه؟

قلت: بل نتفق على الاسم والمسمى.

قال: لقد ورد في القرآن الثناء الطيب على داود الأواب الشكور المنيب الساجد.. الذي لم تذكر له أي خطيئة.. فهل هو نفس داود الذي عندنا.

سكت، فقال: أنت تعلم أنه مختلف.. داود الذي في كتابنا وأولاده لا يختلف عن أي منحرف من المنحرفين الذين تعج بهم الشوارع.. بل إن من المنحرفين من كان له من الشهامة، فلم يقع فيما وقع فيه داود[1].

قلت: فأنت لا ترى القرآن يتفق مع كتبنا المقدسة.

قال: القرآن يصحح كتبنا المقدسة، ويهذبها، ويقومها، ولهذا اعتبر مهيمنا على سائر الكتب، أي مصلحا لها، وجامعا لما فيها من خير: { وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}(المائدة:48)

سأذكر لك مثالا آخر.. كثيرا ما أرى قومنا يتعلقون به [2].

1() سنذكر الأمثلة من الكتاب المقدس عن هذا في الفصول التالية.

2() ذكر هذه الأمثلة، وبتفصيل جميل كتاب (شبهات المشككين)، وهو من مصادرنا المهمة في الرد على الشبهات، وهو من نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية في وزارة الأوقاف المصرية، وقد جمع هذا الكتاب مائة وسبع وأربعين شبهة من الشبهات المعروفة التى قام بها المشككون ورد عليها تفصيلا.

وقد اشترك فى هذا العمل العلمى الكبير عدد من العلماء المعروفين ممن لهم باع طويل فى مجال الدراسات الإسلامية.

وقد منعنا من التوثيق الرقمي لما ننقله منه أننا استفدنا ما فيه من معلومات من نسخته الالكترونية، والتي توجد في موقع وزارة الأوقاف المصرية على هذا الرابط: http://www.islamic-council.com

قلت: ما هو؟

قال: قصة يوسف.. وسأكتفي بنقل لقطـة من قصـة يوسـف مـع امرأة العزيز، كما هي في كتبنا، وكما هي في القرآن.

تبدأ هذه اللقطة من بدء مراودة امرأة عزيز مصـر ليوسـف ليقـع معها الفحشاء، وتنتهى بقرار وضع يوسف فى السجن.. اذكر لي هــذا المشهد كما ورد في كتبنا.

رحت أقرأ ما أحفظه من هذه القصة:(وحدث بعد هذه الأمـور أن امرأة سيده رفعت عينهـا إلى يوسـف وقـالت: اضـطجع معى، فـأبى وقال لامرأة سيده: هو ذا سيدى لا يعرف معى ما فى البيت وكـل مـا له قد دفعه إلى يدى، ليس هو فى هذا البيت أعظم منى. ولم يمسك عنى شيئا غيرك لأنك امرأته. فكيف أصنع هذا الشـر العظيم، وأخطئ إلى الله، وكـانت إذ كلمت يوسـف يومًـا فيومـا أنـه لم يسـمع لهـا أن يضطجع بجانبها ليكون معها..

ثم حدث نحو هذا الوقت أنـه دخـل الـبيت ليعمـل عملـه ولم يكن إنسان من أهل البيت هناك فى البيت فأمسكته بثوبه قائلة: اضــطجع معى فترك ثوبه فى يدها وخرج إلى خارج، وكـان لمـا رأت أنـه تـرك ثوبه فى يدها، وهرب إلى خارج أنها نـادت أهـل بيتهـا وكلمتهم قائلـة: انظروا قد جاء إلينا برجل عـبرانى ليـداعبنا دخـل إلىّ ليضـطجع معى فصرخت بصوت عظيم، وكان لما سمع أنى رفعت صـوتى وصـرخت أنه ترك ثوبه بجانبى وهرب وخرج إلى خـارج. فَوَضَـعَتْ ثوبـه بجانبهـا حتى جاء سيده إلى بيته فكلمته بمثل هذا الكلام قائلة دخل إلىَّ العبـد العـبرانى الـذى جئت بـه إلينـا ليـداعبنى وكـان لمـا رفعت صـوتى وصرخت أنه ترك ثوبه بجانبى وهرب إلى خارج فكان لما سمع سيده كلام امرأته الذى كلمته به قائلة بحسب هذا الكلام صنع بى عبدك أن غضبه حمى..

فأخذ سيدُه يوسف ووضـعه فى بيت السـجن المكـان الـذى كـان

أسرى الملك محبوسين فيه)(التكوين:7/39-20)

قال: هكذا نصت التوراة.. ولكن القرآن عرض القصة بصورة مختلفة تماما.. اسمع ما ورد في القرآن من هذا المشهد:{ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتْ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (23) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (24) وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلاَّ أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (25) قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنْ الْكَاذِبِينَ (26) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنْ الصَّادِقِينَ (27) فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (28) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنْ الْخَاطِئِينَ (29) وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (30) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتْ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ (31) قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ (32) قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنْ الْجَاهِلِينَ (33) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (34) ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ (35)}(يوسف)

لاشك أنك ترى مشهدين مختلفين تماما.. مختلفين في ذكر الأحداث، ومختلفين في الدور التربوي الذي تؤديه القصة.

ففي التوراة نرى المراودة تحدث مرارًا ونُصح يوسف لامرأة سيده كان قبل المرة الأخيرة، أما في القرآن، فنرى المراودة حدثت مرة واحدة اقترنت بعزم المرأة على يوسف لينفذ رغبتها.

والتوراة تخلو من الإشارة إلى تغليــق الأبــواب وتقــول إن يوســف ترك ثوبه بجانبهــا وهــرب وانتظــرت هى قــدوم زوجهــا وقصــت عليــه القصة بعد أن أعلمت بها أهــل بيتهــا، بينمــا القــرآن يشــير إلى تغليــق الأبواب، وأن يوسف هم بالخروج، فَقَدَّتْ ثوبه من الخلف وحين وصــلا إلى الباب فوجئا بالعزيز يدخل عليهما فبــادرت المــرأة بالشــكوى فى الحال.

وفي النص التــوراتي لم يكن يوســف موجــوداً حين دخــل العزيــز، ولم يدافع يوسف عن نفسه لدى العزيز بينما نرى في النص القــرآني أن يوسف كان موجوداً حين قدم العزيــز، وقــد دافــع عن نفســه بعــد وشاية المرأة، وقال: هى راودتنى عن نفسى.

والتوراة تخلو من حديث الشاهد، وتقــول إن العزيــز حمى غضــبه على يوسف بعد سماع المرأة، بينما القرآن يذكر شهادة الشاهد كمــا يذكر اقتناع العزيز بتلــك الشــهادة ولومــه لامرأتــه وتــذكيرها بخطئهــا، وتثبيت يوسف على العفة والطهارة.

والتوراة تخلــو من حــديث النســوة اللاتى لُمْنَ امــرأة العزيــز على مراودتها فتاها عن نفســه، وهى فجــوة هائلــة فى نص التــوراة، بينمــا يذكر القرآن حديث النسوة بالتفصيل كما يذكر موقــف امــرأة العزيــز منهن ودعوتها إياهن ملتمســة أعــذارها لــديهن ومصــرة على أن ينفــذ رغبتها.

فالحادثة من حيث الأصل يتفق عليها القرآن والتوراة، ولكنهما من حيث التفاصيل يختلفان كثيرا، فالقرآن قدم للقصة خــدمتين جليلــتين، أولاهما أنه أورد جديداً مهما لم تذكره التوراة مع كونه يصب في إبراز عفاف يوسف، وهو حــديث النســوة وموقــف المــرأة منهن، وشــهادة الشاهد الذى هو من أهل امرأة العزيز.

بالإضافة إلى ذلك، فإن القــرآن خــالف التــوراة في مشــهدين من مشاهد القصة أولهما أن يوسف لم يترك ثوبه لدى المــرأة، بــل كــان لابساً إياه، ولكنه قطع من الخلف، والثاني غيــاب يوســف حين حضــر

العزيز، وإسقاطها دفاعه عن نفسه.

قلت: فخلاف القرآن للتوراة في هذا مع كون التوراة هي المصدر السابق للقرآن يدل على أن الحق مـع التـوراة لا مـع القـرآن.. أليس كذلك؟

قال: ليس بهذه السهولة يمكن الحكم على الأشياء.. دعنا نتصـور الحادثة، ثم نحكم عليها انطلاقا من كون يوسف عفيفا.. وهو ما اتفـق عليه القرآن والتوراة.

أيهما ـ في رأيك ـ يبرز عفته أكثر: أن يترك يوسف ثوبه كلـه لـدى المرأة، ويهرب، كما تقول التوراة، أو أنه لم يترك الثوب، بل أمسـكته المـرأة من الخلـف، ولمـا لم يتوقـف يوسـف اقتطعت قطعـة منـه، وبقيت ظاهرة فى ثوبه؟

أجبــني أى الروايــتين أليــق بعفــة يوســف المتفــق عليهــا بين المصدرين: أن يترك ثوبه كله، أو أن يُخرق ثوبه من الخلف؟!

صمت، فقال: إذا سلمنا برواية التوراة فيوسـف ليس عفيفـاً، بـل يكون للمرأة الحق فى دعواها ؛ لأن يوسف لا يخلع ثوبه سـليماً إلا إذا كان هو الراغب، وهى الآبية.

قلت: لكن المرأة هي التي خلعت له ثوبه.

قال: وهذا يدل على استسلامه لها.. وهو ما يصحح رغبته فيها.

لكن لو قلنا بأنه فر، وأمسكت المرأة بثوبه، لكنه ظل فارا إلى أن تقطع ثوبه، يكـون ذلـك دليلا على عفافـه، وهـو نفس مـا اسـتدل بـه الشاهد من أهلها عندما قال:{ وَإِنْ كَـانَ قَمِيصُـهُ قُـدَّ مِنْ دُبُـرٍ فَكَـذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ}(يوسف:27)، بل هو نفس مـا اسـتدل بـه العزيـز عندما صدق الشاهد:{ فَلَمَّا رَأى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ}(يوسف:28)، وهو لم يصدقه إلا لأن العقل يتوافــق مع قوله.

سكت قليلا، ثم قال: هل ترى القرآن في هذه القصة يقتبس من التوراة؟!

قلت: أصل القصة في التوراة.

قال: فرق كبير بين الاتفاق في الأصل، وبين الاقتباس..

المقتبس لا بد من أن ينقل الفكرة كلها أو بعضها، وقد رأيت أن القرآن يتجاوز كل هذا، فيأتى بجديد لم يذكر فيما سواه، بل يصحح خطأ وقع فيه ما سواه.

ليس الاختلاف بين القرآن والتوراة، أو بين القرآن وجميع الكتاب المقدس اختلافا في التعبير أو في الحَبْكِ والصياغة.. إنه اختلاف عميق يشمل الأصول والفروع.. بالإضافة إلى إحكام البناء وعفة الألفاظ وشرف المعانى.

أيهما في رأيك أعظم أدبا، وأشرف لفظا: قول التوراة:(اضطجع معى)، التي تكررها كل حين، وهي عبارة مبتذلة فاضحة تكاد تجسم معناها تجسيماً، أو عبارة القرآن التي هي { وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ }(يوسف: 23)؟

قلت: ولكن كتب التفسير التي وضعها المسلمون لتفسير القرآن تذكر ما هو أخطر مما ذكرته التوراة.

قال: دعك منها.. فلم يحرف معاني القرآن الجميلة غيرها[1].

صمت قليلا، ثم قال: فلننتقل إلى مشهد آخر من المشاهد التي اشترك القرآن مع الكتاب المقدس في ذكرها.

---

(1) لقد وردت تحريفات كثيرة في كتب التفسير لما ورد في القرآن من عفاف يوسف ﵇ ينبغي التحذير منها، بل وتطهير كتب التفسير منها، وتصور هؤلاء أن الحكمة في ذكر ذلك في القرآن الكريم أن يكون مثلا للمذنبين ليروا أن توبتهم ترجع إلى عفو الله تعالى كما رجعت ممن هو خير منهم ولم يوبقه القرب من الذنب، ولكن هذه الحكمة ليست بشيء أمام المخاطر المنجرة عن رمي الأنبياء ـ عليهم السلام ـ بمثل هذا، وأقلها سقوط منزلة الأنبياء من عيون الناس، وهو ما يمهد للتفلت من أحكام الشريعة بحجة أن الأنبياء وقعوا في مخالفتها.

التفت إلي، وقال: اذكر لي ما ورد في الكتاب المقدس من قصــة ابنى آدم.

رحت أقرأ:(حدث من بعـد أيـام أن قـابين قـدم من أثمـار الأرض قربانا للرب، وقدم هابيل أيضا من أبكـار غنمـه، ومن سـمانها، فنظـر الرب إلى هابيل وقربانه ولكن إلى قابين. وقربانـه لم ينظـر. فاغتـاظ قابين جداً وسـقط وجهـه. فقـال الـرب لقـابين لمـاذا اغتظت ولمـاذا سـقط وجهـك؟ إن أحسـنت أفلا رفـع؟. وإن لم تحسـن فعنـد البـاب خطية رابضة وإليك اشـتياقها، وأنت تسـود عليهـا. وكلم قـابين هابيـل أخاه. وحدث إذ كانا فى الحقل أن قابين قام على هابيل أخيـه وقتلـه. فقال الرب لقابين أين هابيل أخوك فقـال لا أعلم أحـارس أنـا لأخى؟ فقـال مـاذا فعلت؟ صـوت دم أخيـك صـارخ إليَّ من الأرض. فـالآن ملعون أنت من الأرض التى فتحت فاها لتقبل دم أخيك من يدك متى عملت الأرض تعود تعطيك قوتها. تائهاً وهارباً تكون فى الأرض فقـال قابين للرب: ذنبى أعظم من أن يحتمل أنك قـد طردتـنى اليـوم على وجه الأرض، ومن وجهك أختفى وأكون تائهاً وهارباً فى الأرض فيكون كل من وجـدنى يقتلـنى فقـال لـه الـرب: لـذلك كـل من قتـل قـابين فسبعة أضعاف ينتقم منه. وجعل الرب لقابين علامة لكى لا يقتله كل من وجده. فخرج قابين من لدن الرب وسـكن فى أرض نـود شـرقى عدن) (سفر التكوين:3/4-16)

قـال: لقـد ذكـر القـرآن هـذا المشـهد.. ولكن بطريقـة مختلفـة.. اسمع:{ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنْ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَـالَ إِنَّمَـا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنْ الْمُتَّقِينَ (27) لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِي إِلَيْكَ لأَقْتُلَـكَ إِنِّي أَخَـافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَـالَمِينَ (28) إِنِّي أُرِيـدُ أَنْ تَبُـوءَ بِـإِثْمِي وَإِثْمِـكَ فَتَكُـونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (29) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُـهُ قَتْـلَ أَخِيـهِ فَقَتَلَـهُ فَأَصْـبَحَ مِنْ الْخَاسِـرِينَ (30) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابـاً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَـا وَيْلَتَـا أَعَجَـزْتُ أَنْ أَكُـونَ مِثْـلَ هَـذَا الْغُـرَابِ فَـأُوَارِيَ سَـوْأَةَ أَخِي فَأَصْـبَحَ مِنْ النَّادِمِينَ (31) مِنْ أَجْـلِ ذَلِـكَ كَتَبْنَـا عَلَى بَنِي إِسْـرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَـلَ نَفْسـاً بِغَيْـرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَـادٍ فِي

الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَـا أَحْيَـا النَّاسَ جَمِيعـاً وَلَقَـدْ جَـاءَتْهُمْ رُسُـلُنَا بِالْبَيِّنَـاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِـيراً مِنْهُمْ بَعْـدَ ذَلِـكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (32)}(المائدة)

سكت قليلا، ثم قال: لقد سمعنا القصة من كلا المصـدرين.. فهـل تراهما متفقان في كل التفاصيل؟

قلت: لا.. تعبير القرآن عن القصة يختلف عن تعبير التوراة.

قال: ليست القضية قضية تعبير فقط.. الألفاظ تحمل المعاني.. لا المعاني هي التي تحمل الألفاظ.

لقد اتفق المصدران حول نقطتين اثنتين لا ثالث لهما واختلفـا في الباقي: اتفقا فى القربان، وفى قتل أحد الأخوين للآخر.

أما فيما عدا ذلك، فإن ما ورد فى القرآن يختلـف تمامـاً عمـا ورد فى التـوراة، وسـأورد لـك بعض نـواحي الاختلاف لتعـرف اسـتحالة اقتباس القرآن من التوراة:

لقد سمت التوراة أحد الأخوين بقابين، وهو القاتل، والثانى هابيل، وهو المقتول، كما وصـفت القربـانين وحـددت نوعهمـا.. والقـرآن لم يذكر كل هذه التفاصيل.. بل اكتفى بكون الأخوين من ابني آدم.

والتـوراة تـروى حـواراً بين قـابين والـرب بعـد قتلـه أخـاه، وتعلن غضـب الـرب على قـابين وطـرده من وجـه الـرب إلى أرض بعيـدة، والقرآن لم يذكر هذا الحوار، ولم يذكر أن القاتل طرد من وجهـه إلى أرض بعيدة.

والتـوراة تخلـو من أى حـوار بين الأخـوين، بينمـا يفصـل القـرآن الحديث الذى دار بين ابنى آدم، ويفصل القول عمـا صـدر من القتيـل قبل قتله وتهديده لأخيه بأنه سيكون من أصحاب النار إذا قتله ظلماً.

والتوراة تخلو من ذكر مصير جثة القتيل، وتخلو من ذكـر الغـراب الذى بعثه الله لِيُرى القاتل كيف يتصرف فى جثة أخيه.

والتوراة تنسب الندم إلى قابين القاتل لما هدده الله بحرمانه من خيرات الأرض، ولا تجعله يشعر بشناعة ذنبه، بخلاف القرآن الذي يصرح بندم القاتل بعد دفنه أخيه وإدراكه فداحة جريمته.

تأمل بعد هذا في غرض كلا القصتين، وهو ما ينبغي أن يميز الكتاب المقدس عن غيره:

التوراة لا تهدف من القصة إلا ذكر جانبها التاريخي، فلذلك تتوغل في التفاصيل التي لا أهمية لها من الناحية السلوكية، فهي تركز على التاريخ.. مجرد التاريخ.

والأخطر من هذا أن التوراة تحتوي على سوء مخاطبة قابين الرب، فتراها تذكر قوله:(أحارس أنا لأخى)، ففي هذه العبارة فظاظة لا يصح أن تصدر من إنسان نحو أبيه، فكيف تصدر من عبد لربه، ومع ذلك لا يعاقب عليها، بل يعاقب فقط على جريمته، ثم لا يذكر من عقوبته إلا أن يبعد عن الأرض الطيبة، ويحرم من خيراتها، ثم تذكر التوراة اسم هذه الأرض.. وتكتفي بذلك.

بينما نرى القرآن يجعل من القصة نموذجا صالحا لكل نفس طيبة تتصارع مع نفس خبيثة.. في القرآن الصراع ليس بين أشخاص ضمتهم الأرض بين حناياها، بل هو صراع بين الحق والباطل، والخبيث والطيب.. ولذلك يمتد تأثير القصة أبد الآباد.

اسمع قول الأخ الطيب لأخيه الخبيث:{ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنْ الْمُتَّقِينَ (27) لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِي إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (28) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (29)(المائدة).. هذا النص المهم تخلو منها التوراة، وتعرض بدله القربان الذي قدمه كلاهما لله، ثم تكتفي من ذلك القربان بذكر حسن قربان هابيل، وسوء قربان قايين، وكأن الله ينظر إلى حسن القربان لا إلى نفس المقرب.

إضافة إلى هذا كله.. فإن ما قاله هابيل لأخيه في القرآن من عدم مد يده لأخيه خوفا من الله درس تربوي عظيم يفوق كل ما نفخر به

من قول المسيح:(لا تقاوموا الشر، بل من لطمك على خـدك الأيمن فحوّل له الآخر أيضاً. ومن أراد أن يخاصـمك ويأخـذ ثوبـك فـاترك لـه الرداء أيضاً)(متى5: 38)

فإن ما ذكره القرآن أعظم من اللطم أو السرقة.. إنه القتـل.. ثم القرآن يربطـه بالجـانب الإيمـاني السـلوكي، وهـو الخـوف من اللـه، والرهبة من عقابه، بخلاف قول المسيح الذي لم يرتبط بـأي تـرغيب، ولا بأي ترهيب.

ثم إن القرآن بعد ذكر القصة يرتب عليها أحكاما عملية تشـريعية، فيبنى على القصة ذكره للحكمـة من شـريعة القصـاص العـادل الـتي شرعها الله في جميع شرائعه:{ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرائيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَـلَ نَفْسـاً بِغَيْـرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَـادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَـا قَتَـلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَـاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ}(المائدة:32)

انظر هذا الترهيب الذي تحمله هذه الآية من القتـل.. وانظـر قبـل ذلـك ذكرهـا لنـدم القاتـل بمجـرد قتلـه، لا بإبعـاده عن أرض ليسـكن غيرها.. إن القـرآن يـربي ويوجـه ويشـرع ويخـاطب النفـوس.. بينمـا تروي التوراة الحادثة كما ترويهـا العجـائز خاليـة من الـروح، مضـمخة بالخطيئة.

التفت إلي، وقال: أمازلت مصـرا على أن القـرآن اقتبس القصـة من التوراة؟

لم أدر بما أجيبه، فقال: سأضرب لك مثالا آخـر، وليكن من العهـد الجديد، من أناجيلنا.. ومن بشارة زكريا بيحيى.. أسـمعني مـا ورد من ذلك في أناجيلنا.

رحت أقرأ من إنجيل لوقا (1/7- 22):(لم يكن لهما ـ يعنى زكريا وامرأته ولد ـ إذ كانت اليصابات ـ يعـنى امـرأة زكريـا ــ عـاقراً.وكـان كلاهما متقدمين فى أيامهما فبينما هو يكهن فى نوبة غرفته أمام اللـه حسـب عـادة الكهنـوت أصـابته القرعـة أن يـدخل إلى هيكـل الـرب

ويبخر، وكان كل جمهور الشعب يصلى خارجاً وقت البخور. فظهر لـه ملاك الرب واقفاً عن يمين مـذبح البخـور. فلمـا رآه زكريـا اضـطرب ووقع عليه خوف. فقال له الملاك: لاتخف يـا زكريـا ؛ لأن طلبتـك قـد سمعت وامرأتك اليصابات ستلد لك ولداً وتسميه يوحنـا، ويكـون لـك فرح وابتهاج. وكثيرون سـيفخرون بولادتـه ؛ لأنـه يكـون عظيمـاً أمـام الرب. وخمراً ومسكراً لا يشرب، ومن بطن أمه يمتلئ بروح القــدس ويرد كثيرين من بنى إسرائيل إلى الرب إلههم، ويتقـدم أمامـه بـروح إيليا وقوته ليرد قلوب الآباء إلى الأبناء. والعصاة إلى فكر الأبرار، لكى يهئ للرب شعباً مستعدًّا. فقـال زكريـا للملاك: كيـف أعلم هـذا و أنـا شيخ وامرأتى متقدمـة فى أيامهـا فأجـاب الملاك وقـال: أنـا جبرائيـل الواقف قدام الله. وأرسـلت لأكلمـك وأبشـرك بهـذا. وهـا أنت تكـون صامتاً ولا تقدر أن تتكلم إلى اليوم الذى يكون فيه هذا لأنك لم تصدق كلامى الذى سيتم فى وقته. وكان الشعب منتظرين زكريا ومتعجــبين من إبطائه فى الهيكل. فلما خرج لم يسـتطع أن يكلمهم ففهمـوا أنـه قد رأى رؤيا فى الهيكل. فكان يومئ إليهم. وبقى صامتاً)

قال: هذه هو المشهد الإنجيلي، وسأقرأ عليك أنا المشهد القرآني الذي ذكر هذه الأحداث.. لقد جاء في القرآن:{ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَـا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَـذَا قَـالَتْ هُـوَ مِنْ عِنْـدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (37) هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (38) فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَـدِّقاً بِكَلِمَـةٍ مِنْ اللَّهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّـاً مِنْ الصَّـالِحِينَ (39) قَـالَ رَبِّ أَنَّى يَكُـونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (40) قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزاً وَاذْكُـرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ (41)}(آل عمران)

وفي سورة أخرى ورد هذا المشهد بهذه الصيغة:{ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْـدَهُ زَكَرِيَّا (2) إِذْ نَـادَى رَبَّهُ نِـدَاءً خَفِيّـاً (3) قَـالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَـيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِـدُعَائِكَ رَبِّ شَـقِيّاً (4) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتْ امْـرَأَتِي عَـاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَـدُنْكَ وَلِيّـاً (5)

يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً (6) يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيّاً (7) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنْ الْكِبَرِ عِتِيّاً (8) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً (9) قَالَ رَبِّ اجْعَل لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيّاً (10) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنْ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً (11) يَا يَحْيَى خُذْ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً (12) وَحَنَاناً مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيّاً (13) وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيّاً (14) وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً (15)}(مريم)

بعد أن أنهى قراءته الخاشعة للنص القرآني، قال: بعد أن سمعنا كلا المشهدين.. تعال نقارن بينهما على ضوء العقل والحكمة.

أولا.. لقد تقدم على قصة البشارة فى سورة آل عمران قصة نذر امرأة عمران ما فى بطنها لله محرراً، وهو لم يرد فى النص الإنجيلى.

ثم ورد الإخبار بأنها ولدت أنثى، هي مريم، مع أنها كانت ترجو أن يكون المولود ذكرا ليتمكن من خدمة الهيكل، وهذا لم يأت فى النص الإنجيلى.

ثم ورد كفالة زكريا للمولودة مريم، ووجود رزقها عندها دون أن يعرف مصدره ثم سؤاله إياها عن مصدره، وهو بدوره لم يرد فى النص الإنجيلى.

ثم إن القرآن يربط بين قصة الدعاء بمولود لزكريا، وبين قصة مولودة امرأة عمران، وهذا كذلك لا وجود له فى النص الإنجيلى.

ثم إن دعاء زكريا منصوص عليه فى القرآن، وليس له ذكر فى النص الإنجيلى.

هذا ما ورد في سورة آل عمران من المشاهد التي لم ترد في الإنجيل..

أما ما ورد فى سورة مريم، مما لم يجد نظيره في الإنجيـل، فهـو مـا رتبـه زكريـا على هبـة اللـه لـه وليًّا، وهـو أن يرثـه ويـرث من آل يعقوب.

وفيها ذكر السبب الذى حمـل زكريـا على دعـاء ربـه، وهـو خوفـه الموالى من ورائه.

وفيها كون زكريا أوحى لقومه بأن يسبحوا بكرة وعشيًّا.

وفيها الثناء على المولود يحيى من أنه بار بوالديه، عليه سلام الله يوم ولادته ويوم موته ويوم بعثه حيًّا.

وكل هذا مما اختص بـه القـرآن، ولم يـرد لـه نظـير في المشـهد الإنجيلي.. أي أن القرآن جاء بكل هذا الجديد.. فكيف يصـح أن يـدعى اقتباسه من غيره!؟

ليس ذلك فقط، بل إن القرآن صور الواقعة المقصوصـة تصـويراً أمينًا كاملاً، وجعل منها مدرسة تربوية عميقة.

وفوق ذلك خالف الإنجيل في بعض الأمور.. سـأذكر لـك منهـا مـا يمكنك من المقارنة بين كلا النصين.

أنت ترى النص الإنجيلى يعتبر الصمت الذى حصل لزكريـا عقوبـة له من الملاك.

لكن القرآن يخالف ذلك.. فيعتـبر الصـمت اسـتجابة لـدعاء زكريـا ربه، وعلامة على هذه الاستجابة..:{ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَـالَ آيَتُـكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَـةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْـزاً وَاذْكُـرْ رَبَّكَ كَثِـيراً وَسَـبِّحْ بِالْعَشِـيِّ وَالْإِبْكَارِ}(آل عمران:41).. { قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيّاً}(مريم:10)

فالصمت ـ بهذا الاعتبار ــ كـان تكريمـا لزكريـا، وليس عقوبـة من الملاك كما ينص الإنجيل.

قلت: ولكن المفسرين ينصون على ما نص عليه كتابنا.

قال: دعك منهم.. فلئن حرف الكتبة الكذبة كتبنا.. فـإن كثـيرا من مفسري المسلمين هم الذين حرفوا كتابهم.

قلت: فقد وقع التحريف إذن في كلا الكتابين.

قال: مع فرق عظيم.. تحريفنا لا يمكن تقويمه.. فالنسخة الأصلية ضاعت.

أمـا تحـريفهم.. فيمكن تقويمـه لأن القـرآن يقـرأ في كـل مكـان، وبنفس الحروف التي كان يقرؤه بها محمد.

سكت قليلا، ثم قال: هـذا الخلاف الأول.. هنـاك خلاف آخـر مهم.. هو أن النص الإنجيلى يحدد مدة الصمت بخروج زكريا من الهيكل إلى يوم ولد يحيى، بينما ينص القـرآن على أن مـدة صـمته لم تتعـد ثلاثـة أيام بلياليهن بعد الخروج من المحراب.

والنص القـرآني بهـذا أكـثر معقوليـة من النص الإنجيلي.. فكيـف يبقى نبي صامتا لا يطيق الكلام كل هذه المدة.

بعد أن أنهى مقارناته بين كلا المشهدين، قلت: ولكن لم لم يــذكر القرآن قصصا أخرى بدل هذه القصص، فينفي عنـه كـل شـبهة.. إنـه حينها يصبح كتابا مختلفا تماما.

قـال: أنت وقـومي وقومـك نطبـق على القـرآن مـا نطبقـه على القصاص والروائيين ومنتجي الأفلام.. نريد منهم إبداعا لا تربية.

سـكت قليلا، ثم قـال: إن القـرآن في هـذا المجـال بين أمـرين لا ثالث لهما.. هكذا يقول المنطق العقلي الذي نتشبث به:

هــو بين أن يـأتي بقصـص يعرفهـا النـاس، ويعرفـون تواريخهـا، والمحال التي حصلت فيها، ليجعل من ذلـك ميـدان عـبرة يـربي على أساسه الناس..

أو بين أن يـأتي بقصـص جديـدة، سـيتيه النـاس في البحث عن حقيقتها، وتاريخها، ومحالها، وينشـغلون بكـل ذلـك عن المعـاني الـتي جاء القرآن لتقريرها[1].

التفت إلي، وقال: هل ترى احتمالا آخر غير هذين؟

قلت: لا.. هـذان احتمـالان حاصـران.. ولكن لم اختـار القـرآن القصص الواردة في الكتاب المقدس، لم لم يختر غيرها؟

قـال: لـو اختـار غيرهـا من قصـص الهنـود أو الفـرس لقلتم: إن القـرآن مقتبس من الهنـود أو الفـرس.. هـو لن ينجـو لا محالـة من اتهاماتكم.. ولكنه مع ذلك اختار القصص التي في الكتـاب المقـدس.. لأنه يعترف به كتابـا مقدسـا من جهـة.. ويعـترف بمـا حصـل فيـه من تحريف، ويذكر أن من أهدافه تقويم تلك التحريفات من جهة أخرى.

وبعد ذلك، فإن تلك القصص حدثت على الأرض التي نزل فيها، أو قريبا منها، ولهذا ترى القرآن يأمر بالاعتبار بتلك القـرى الـتي لا تـزال آثار هلاكها.. اسمع ما قال القرآن في لـوط وقـوم لـوط:{ وَإِنَّ لُوطـاً لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ (133) إِذْ نَجَّيْنَـاهُ وَأَهْلَـهُ أَجْمَعِينَ (134) إِلاَّ عَجُـوزاً فِي الْغَـابِرِينَ (135) ثُمَّ دَمَّرْنَـا الآخَـرِينَ (136) وَإِنَّكُمْ لَتَمُـرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (137) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُـونَ (138)(الصـافات).. وهـو يقـول عن غـيرهم:{ قُـلْ سِـيرُوا فِي الأَرْضِ فَـانْظُرُوا كَيْـفَ كَـانَ عَاقِبَـةُ الْمُجْرِمِينَ}(النمل:69)

إن القرآن كتاب هداية.. ولـذلك لا تهمـه القصـص بقـدر مـا تهمـه العبر التي يستفاد منهـا، ولـذلك هـو يخـاطب النـاس بالقصـص الـتي يعرفونها ليربيهم بها.

قلت: ولكنه قد يخرج أحيانا عن قصصنا ليؤلف قصصا جديدة.

ضحك، وقال: أرأيت.. أنت وقومك تضعون للقـرآن فخين إن نجـا

[1] وقد ورد القرآن بمثل هذا النـوع من القصـص كقصـة أهـل الكهـف وعـاد وثمـود وغيرها.

من أحدهما وقع في الآخر.. إن أخـذ من قصصـكم قلتم: سـارق، وإن جاء بقصص أخرى لا تعرفونها قلتم: كاذب.

سـكت قليلا، ثم قـال: نعم في القـرآن قصـص جديـدة لتـورايخ لا نعرفها.. والقرآن نبه إلى عدم أهمية البحث فيها..

فلنأخذ قصة أهل الكهف مثلا.. القرآن يقص علينا قصتهم، فيقول: { أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالـرَّقِيمِ كَـانُوا مِنْ آيَاتِنَـا عَجَبـاً (9) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَـداً (10) فَضَـرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْـفِ سِـنِينَ عَـدَداً (11) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُـوا أَمَـداً (12) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْـكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَـاهُمْ هُـدًى (13)}(الكهـف) إلى آخر الآيات التي تقص قصتهم.

بهـذا اكتفى القـرآن من القصـة.. إنهم فتيـة مؤمنـون ضـحوا في سبيل إيمـانهم يالحيـاة الهنيـة الـتي ينعم بهـا سـائر النـاس، وأووا في سبيل إيمانهم إلى كهف جعله الله محل رحمة لهم.. وقد جعلهم اللـه لذلك آية.

بهذا اكتفى القـرآن ليملأ القلب بروعـة الإيمـان، وبعظمـة ارتبـاط الفتوة بالإيمان، وبعظمة إكرام الله لمن آوى إليه.

تصور لو أن الكتاب المقدس ذكر هذه القصة..

ضحك، وقال: سيذكر طول كهفهم وعرضه وعدد حجارتـه ومحـل إقامتـه.. وسيسـمي كلبهم ويـذكر من أوصـافه مـا يشـغل عن تلـك القضايا الجميلة التي جاء القرآن ليملأ النفوس بها.

القرآن يخبر عن هذا.. ويخبر عن النفوس المجادلة الـتي لا تهمهـا الحقائق بقدر ما تهمها التفاصيل.. اسـمع تعقيب القـرآن لقصـة أهـل الكهف:{ سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَـبْعَةٌ وَثَـامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُـلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِـدَّتِهِمْ مَـا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيـلٌ فَلا تُمَـارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِـرَاءً ظَـاهِراً وَلا تَسْـتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ

أَحَداً (22) وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً (23) إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً (24) وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً (25) قُلْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً (26)(الكهف)

قلت: ولكن القرآن ذكر تفاصيل لا أهمية لها فقد قال فيهم: { وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ}(الكهف: 18)، فهل ترى في ذكر تقليبهم أهم من ذكر أسمائهم أو بلدانهم؟

قال: أجل.. لأن أسماءهم لا تغنيك شيئا، بل قد تجعل من قصتهم تاريخا لا محل للعبرة فيه.

قلت: وتقليبهم ذات اليمين وذات الشمال؟

قال: تفيدك معان شعورية عظيمة.. فالله الذي آوى إليه هؤلاء، وتركوا بيوتهم وقصورهم، امتدت إليهم عناية الله، فجعلت تقلبهم ذات اليمين وذات الشمال كل حين حتى لا تتقرح جنوبهم من طول النوم على التراب.

ثم ذكرت ذلك منسوباً إلى الله، معبَّرة عنه بنون العَظَمَة تشريفاً لهم.. وتشويقا لكل من ضحى تضحيتهم، فهل هنالك عناية أكثر من هذا؟

سكت قليلا، ثم قلت: ولكن المسلمين انشغلوا بذكر التفاصيل المرتبطة بهذه القصة.

قال: المسلمون بشر.. وهم لا يختلفون عن الإسرائيليين تشوقا للتفاصيل.. ولكنهم في أثناء بحثهم ذلك كانوا مخالفين للقرآن.. والقرآن لا يمثله المسلمون.. ولا المفسرون.. القرآن تمثله حقائقه.. وألفاظه التي تحمل حقائقه.

قلت: والتفاسير؟

قال: تلك كتب منها مـا اقـترب من القـرآن ومنهـا مـا ابتعـد.. هي فهوم بشرية محدودة تأثرت ببيئاتها.. وربما تأثرت بكتبنا وأسـاطيرنا.. فلذلك لا يصـح أن نحكم على القـرآن من خلال المفسـرين.. القـرآن يوضح ذاته بذاته..

شرائع القرآن:

قلت: أسلم لك كل ما ذكرت.. بـل أراني خجلا بمـا رميت القـرآن به من ذلك.. ولكن الأمر لا يتوقف عند هذا..

قال: تقصد شرائع القرآن، واقتباسها من كتبنا المقدسة.

قلت: أجل.. اسمع ـ مثلا ـ ما ورد في التوراة من عـد المحرمـات من النساء:(عورة أبيك وعورة أمك لا تكشـف. إنهـا أمـك لا تكشـف عورتها. عورة امرأة أبيك لا تكشف. إنها عورة أبيك. عورة أختـك بنت أبيك أو بنت أمك المولودة فى الـبيت، أو المولـودة خارجـاً لا تكشـف عورتها. عورة ابنة ابنك أو ابنـة بنتـك لا تكشـف عورتهـا إنهـا عورتـك. عورة بنت امرأة أبيك المولودة من أبيك لا تكشف عورتها إنها أختـك. عورة أخت أبيك لا تكشف إنها قريبة أبيك. عورة أخت أمك لا تكشف إنها قريبة أمك عورة أخى أبيك لا تكشـف، إلى امرأتـه لا تقـرب إنهـا عمتك. عورة كنتك لا تكشف. إنها امرأة ابنك لا تكشف عورتها. عورة امرأة أخيك لا تكشف إنها عورة أخيك. عورة امرأة، وبنتها لا تكشـف، ولا تأخذ ابنة ابنتها أو ابنـة بنتهـا لتكشـف عورتهـا إنهمـا قريبتاهـا. إنـه رذيلـة. ولا تأخـذ امـرأة على أختهـا للضـر لتكشـف عورتهـا معهـا فى حياتها) (سفر اللاويين:18/ 7- 18)

ألا يتفق هذا تماما مع ما ورد في القرآن من قوله:{ وَلا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنْ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلاً (22) حُـرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـاتُكُمْ وَبَنَـاتُكُمْ وَأَخَـوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَـالاتُكُمْ وَبَنَـاتُ الأَخِ وَبَنَـاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَـاتُكُمْ اللاَّتِي أَرْضَـعْنَكُمْ وَأَخَـوَاتُكُمْ مِنْ الرَّضَـاعَةِ وَأُمَّهَـاتُ نِسَـائِكُمْ وَرَبَـائِبُكُمْ اللاَّتِي فِي حُجُـورِكُمْ مِنْ نِسَـائِكُمْ اللاَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَـإِنْ لَمْ تَكُونُـوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلا جُنَـاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلائِلُ

أَبْنَائِكُمْ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَـا قَـدْ سَـلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَـانَ غَفُـوراً رَحِيمـاً (23) وَالْمُحْصَـنَاتُ مِنْ النِّسَـاءِ إِلاَّ مَـا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَـابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِـلَّ لَكُمْ مَـا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُـوا بِـأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِـهِ مِنْ بَعْـدِ الْفَرِيضَـةِ إِنَّ اللَّهَ كَـانَ عَلِيمـاً حَكِيماً (24)(النساء)؟

قال: مع أن الأمثلة المرتبطة بهذا الأمر محصورة جدا.. بل لا تكـاد تذكر.. إلا أنه لا بأس أن أناقشك في هذا الأمر.

أنت تسلم لي بأن في الإسلام شـريعة تنتظم الحيـاة جميعـا، بمـا فيها حياة الأسرة.. أليس كذلك؟

قلت: بلى.. لقد ورد في القرآن النصوص الكثيرة الضابطة لهذا.

قال: أرأيت لو أن الشـريعة الإسـلامية لم تهتم بهـذا الجـانب، فلم تذكر المحرمات من النساء، ألا يكون ذلك تقصيرا منها؟

قلت: بـل هـو تقصـير كبـير، فهـذه ناحيـة مهمـة ينبغي على كـل شريعة أن تهتم بها.. لا الشريعة الإسلامية وحدها.

قــال: فهــل تريــد من الشــريعة الإســلامية أن لا تعــد الأم في المحرمات حتى لا نقول إنها مقتبسة من الكتاب المقدس؟

قلت: لا.. الأم يتفق عليها الجميع.

قال: والأخت؟

قلت: هي كذلك.

قال: والبنات؟

قلت: هن كذلك..

قال: وهكذا كل المحرمات..

قلت: ولكن العجب في اتفاق القـرآن مـع كـل مـا ذكـره الكتـاب المقدس.

قـال: أنت نظـرت إلى الألفـاظ، ولم تتأمـل المعـاني.. إن هنـاك فروقا كثيرة واضحة بين القرآن والكتاب المقدس، سأعدد لك بعضها، لتعرف أن التوافق في بعض الأمور لا يعني الاقتباس:

فالتوراة لا تقيم شأنًا للنسب من جهة الرضاعة، وهي تحرم نكـاح امرأة العم وتدعوها عمة، وهي تحرم نكاح امـرأة الأخ لأخيـه، وهي لا تذكر حرمة النساء المتزوجات من رجـال آخـرين زواجهم قـائم، وهي تجعل التحريم غالباً للقرابة من جهة غير الـزوج مثـل قرابـة الأب الأم العم ... وهكذا.

أما القرآن، فيحريم من الرضاعة ما يحرم من النسـب، ولا يحـرم نكاح امرأة العم ولا يدعوها عمة، ولا يحرم نكاح امـرأة الأخ لأخيـه إذا طلقها أو مات عنها أخوه، وهو يحرم نكاح المتزوجات فعلاً من آخرين زواجـاً قائمـاً ويطلـق عليهن وصـف المحصـنات من النسـاء، ويجعـل التحريم لقرابة الزوج ممن حرمت عليه، أو قرابة زوجته أحياناً.

هذه فروق مهمة تنضم تحتها فروع كثيرة تجعـل الأحكـام مختلفـة تماما بين الكتابين..

ليس لدي الوقت الكافي الذي أثبت لك فيـه قيمـة هـذه الفـروق، ولا المقاصد القرآنية منها، ولكني أردت فقط أن أثبت لك أن الاتفـاق في بعض الأمور لا يعني الاقتباس وإلا لادعى كل متقدم أن كل متأخر مقتبس منه.

بالإضـافة إلى هـذا، فـإن القـرآن يعـترف بصـحة مـا في القـرآن الكريم مما لم يمسـه التحريـف، بـل هـو يقـول لأهـل الكتـاب:{ كُـلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرائيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرائيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْـلِ أَنْ تُنَـزَّلَ التَّوْرَاةُ قُـلْ فَـأْتُوا بِـالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَـا إِنْ كُنْتُمْ صَـادِقِينَ}(آل عمران:93)

بالإضافة إلى هذا قارن بين جمال التعبير القـرآني عن المحرميـة، وبين التعبير التوراتي الموغل في الفحش والبذاءة وقارن مـا ورد في القرآن من الاختصار مـع مـا ورد في الكتـاب المقـدس من التكـرار.. فروق كبيرة لا تشمل المعنى فقط، بل تعدوه إلى التراكيب اللفظيــة نفسها، فكيف تزعم بعد ذلك أن هناك اقتباسا!؟

بيئة القرآن:

رآني مستغرقا فيما يقول، فسألني فجأة: هل قـرأت المعلقـات.. وما روي من شعر جاهلي؟

قلت: أجل.. هو شعر جميـل.. ومن قـومي من يـزعم أن محمـدا استلهم من ذلك الشعر.

قال: دعهم يقولون.. فمحمد عندهم كلأ مباح، لا يعرف إلا السطو على غـيره.. فمـرة يسـطو على كتبنـا الـتي تحـوي تـواريخ الماضـي السحيق، ومرة يسطو على شـعراء عصـره، ليسـتلهم منهـا المعـاني الرقيقة، ومرة يسطو على العلوم التي سجلها أهل عصرنا ليزين بهــا كتابه، ويثبت أنه يحوي علوما من علوم الله.

قلت: فما الذي تريد أن أقرأه عليك من هذا الشعر؟

قال: لا أريد أن تقرأ علي من أشـعارهم.. وإنمـا أريـد أن تخـبرني بمضامينها.

قلت: هي لا تعدو الأغراض المعروفة من وصف الابل أو الخيل، أو سير الليل، أو وصف الحرب، أو وصف الـروض، أو وصـف الخمـر، أو الغزل، وغير ذلك مما اشتملت عليه حياتهم وبيئتهم..

قال: أترى للبيئة التي عاشوها تأثيرا في نبوغهم؟

قلت: أجل.. ولذلك ضرب المثل بامرئ القيس إذا ركب، والنابغـة إذا رهب، وبزهير إذا رغب.

ولهذا أيضا نجد من الشعراء من يجود في المدح دون الهجو، ومنهم من يبرز في الهجو دون المدح، ومنهم من يسبق في التقريظ دون التأبين، ومنهم من يجود في التأبين دون التقريظ، وهكذا..

قال: فلنرجع إلى بيئة القرآن.. أليست هي بيئتهم؟

قلت: أجل.. هي بيئتهم بخيلها وإبلها وصحرائها وأصناف معايشها.

قال: فاصدقني.. هل ترى تأثير البيئة في القرآن؟

قلت: أجل.. ففي القرآن:{ أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (18) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (19) وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (20)(الأعلى).. فالبيئة العربية واضحة في هذه الآيات.. فلم يذكر القرآن الزرافة ولا الغزلان.. بل ذكر الإبل.. ولم يذكر البحار، بل ذكر الجبال..

قال: ألم تقرأ مقدمة الآية.. إنها تدعوهم إلى النظر.. ونظر العبرة ينصرف إلى أقرب مذكور، أم أنك تريد أن ينقلهم إلى حديقة الحيوانات ليتأملوا صنعة الله.. وكأن صنعة الله حكر على مكان دون مكان.

فلنترك لفظ (الإبل) الذي حجبك عن معناه، وننظر إلى غاية ذكرها في هذا النص، وغاية ذكرها في الشعر الجاهلي.. فهل هما متشابهتان؟

قلت: لاشك أنهما مختلفان، ففي الشعر الجاهلي نجد الوصف الطويل لها..

قال: لم توصف؟

قلت: هو تقليد ورثوه.. ولعلهم يرون في ذلك الوصف بعض الوفاء لما تقدمه لهم الإبل من الخدمات.

قال: وفي القرآن.. لم أمر بالنظر إلى الإبل؟

قلت: للتعرف على الله وعلى قدرات الله وعلى أفضال الله.

قال: فـالقرآن قـد نقلهم من عـالم إلى عـالم.. نعم هـو اسـتعمل عالمهم.. ولا بد أن يستعمل ما عرفوه لينتقل بهم إلى ما لم يعرفوه.

دعنا من هذا.. فأنت تعلم أن قارئ القـرآن لا يسـتطيع أن يعـرف بيئة القرآن.. فهو لا يذكر شيئا من تلـك البيئـة، ولا شـيئا من الأسـماء التي اعتاد بلغاؤهم على ذكرها.

قلت: هذا صحيح..

قال: فلنعد للكتاب المقدس.. ألست ترى فيه تأثير البيئة بعيدا؟

قلت: ما تقصد؟

قـال: ألسـت تقـرأ في الكتـاب المقـدس التفاصـيل الطويلـة المرتبطة بأنسابهم وحكامهم وحياتهم.

قلت: أجل.. حتى الصغير منها لا يغفل ذكـره.. ولكن هـل تسـتدل بهذا على ربانية القرآن؟

قال: أجل.. فالقرآن منزل لا وليد بيئة.. ولهـذا تـرى القـرآن يعـبر بصيغة الإنزال.

سكت قليلا، ثم قال: ألا ترى من العجب أن لا يذكر والد محمد ولا جد محمد ولا نسب محمد ولا أولاد محمد ولا أحبابه ولا أعداؤه؟

بينما نرى الكتاب المقدس يطفح بمثل هـذا.. بـل إن الإنجيـل أول ما يبدأ.. يبدأ بنسب طويل للمسيح.. وهكذا كـل الأسـفار المقدسـة لا تكاد تمر على صفحة منها إلا وتجد تأثير البيئة فيها عظيما.

قلت: كل ما قلته صحيح.. ولكن لست أدري لم تذكر هذا الآن.

قال: لأنكم توردون شبها كثـيرى ترتبـط بهـذه البـاب.. فتنحجبـون عن القرآن ببيئة القرآن.. فتزعمون أن محمدا تلقى العلم من غيره..

فلما وصل إلى درجة النبوغ فيه ادعى أنه يوحى إليه.

قلت: لا أكتمك.. نحن نقول هذا.. وننشره.. ولا نقصر في نشـره.. وفي النفس منه أشياء كثيرة إن شئت بحت لك منهـا مـا قـد يصـدك عن دفاعك هذا عن القرآن.

قال: فاذكر لي ما تشاء.

قلت: المسلمون يقولون بأن القرآن وحي الله، وأن محمدا { مَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى (4) } (النجم).. ولكن ورد في الروايات ما يدل على أنه كان يستفيد من غيره في هذا الوحي.

اسمع هذه الرواية المرتبطة بهذه الآيات:{ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَـةً فِي قَـرَارٍ مَكِينٍ (13) ثُمَّ خَلَقْنَـا النُّطْفَةَ عَلَقَـةً فَخَلَقْنَـا الْعَلَقَـةَ مُضْـغَةً فَخَلَقْنَـا الْمُضْـغَةَ عِظَامًـا فَكَسَـوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (14) } (المؤمنون)

لقد حدث زيد بن ثابت الأنصاري قال: أملى عليَّ رسولُ اللـه ﷺ هـذه الآيـة { وَلَقَـدْ خَلَقْنَـا الإِنْسَـانَ مِنْ سُـلالَةٍ مِنْ طِينٍ } إلى قولـه: { خَلْقًا آخَرَ }، فقال معاذ:{ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَـنُ الْخَـالِقِينَ }، فضـحك رسول الله ﷺ، فقال له معاذ: مم ضحكت يا رسول الله؟ قـال:(بهـا ختمت { فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ }

ابتسم، وقال: هكذا يكون الكذب وإلا فلا.

قلت: وما أدراك أن هذه الرواية مكذوبة؟

قال: لأنه من الثابت تاريخيا بالإجماع أن زيـدا بن ثـابت إنمـا كتب الوحي بالمدينة، وكذلك معاذ بن جبل إنمـا أسـلم بالمدينـة، لأنـه كـان من سكانها، بينما هذه السورة نزلت بمكة.

ثم.. بعد هذا.. من الثابت أن محمدا كان إذا نزل عليه الوحى يأخذ العرق يتصبب من جسده، ويكون فى غيبة عمن حولـه، فـإذا انقضـى

الوحى أخذ فى ذكر وتلاوة ما نزل عليه من القـرآن، وهـذا مـا تقـرره كل كتب السيرة.

وهذا يدل على أن محمـدا لا يبـدأ فى الإملاء على كـاتب وحيـه إلا بعد اكتمال نزول الوحى.

قلت: هناك شبهة أخرى.. وهي قديمة قدم القرآن.. ولعلها أول ما ووجه به محمد من التحدي.

قـال: عرفتهـا.. هي الشـبهة الـتي أثارهـا في الجاهليـة النضـر بن الحــارث [1] وغـــيره من أهـــل الجاهليـــة، وأثارهـــا في عصـــرنا المستشرقون أمثال نورمان دانيال ومن نحا نحوهم، من أن محمد ما جـاء بجديـد في القـرآن، وإنمـا أخـذ بعضـاً من اليهوديـة، وبعضـاً من النصرانية، وبعضاً من قصـص الفـرس ، فكـون من هـذا الخليـط كلـه القرآن.

قلت: أجـل.. وهـذه من الشـبه الخطـيرة الـتي لا يـزال قـومي يتعلقون بها.

قال: لقد ذكر القرآن هـذه الشـبهة.. وهـو دليـل على أنهـا شـبهة ساقطة، لأن الإنسان في العادة يفر من الأقوال التي يرى فيها خطرا عليه..

اسـمع لمـا ورد في القـرآن من تعلـق المشـركين بهـذه الشـبهة: { وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْـتَمِعُ إِلَيْـكَ وَجَعَلْنَـا عَلَى قُلُـوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُـوهُ وَفِي آَذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُـلَّ آَيَـةٍ لَا يُؤْمِنُـوا بِهَـا حَتَّى إِذَا جَـاءُوكَ يُجَادِلُونَـكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَـذَا إِلَّا أَسَـاطِيرُ الْأَوَّلِينَ } (الأنعـام:25).. { وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آَيَاتُنَا قَالُوا قَـدْ سَـمِعْنَا لَـوْ نَشَـاءُ لَقُلْنَـا مِثْـلَ هَـذَا إِنْ هَـذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ }(الأنفال:31)

---

[1] وقد نص على ذلك سعيد بن جُبَيْر، والسُّدِّيّ، وابن جُرَيج وغـيرهم؛ وكـان قـد ذهب إلى بلاد فارس، وتعلم من أخبار ملوكهم رُسْتم واسفنديار، ولما قدم وجد رسول الله ﷺ قد بعثه الله، وهـو يتلـو على النـاس القـرآن، فكـان إذا قـام ﷺ من مجلس، جلس فيـه النضـر فيحدثهم من أخبار أولئك، ثم يقول: بالله أيهما أحسن قصصا؟ أنا أو محمد؟

قلت: علمت مصادر الشبهة، فما الرد عليها؟

قال: إن هؤلاء الذين يوردون هذه الشبهة يغيبون عن المعاني العميقة التي يحويها القرآن بالجدل في الوسائل التي يستعملها.. ولو أنهم تأملوا غايات القرآن لعرفوا سر اختيار هذا النوع من القصص، والذي سماه القرآن أحسن القصص:{ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ} (يوسف:3)

فأحسن القصص هو ما توفرت فيه الواقعية بالإضافة إلى صلاحيته كنموذج سلوكي رفيع يمكن أن يحتذى.

ولهذا لما ذكر القرآن أسماء الأنبياء الذين وردت مشاهد من حياتهم فيه قال:{ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ }(الأنعام: 90)

أرأيت لو أن القرآن ذكر لهم اسما غريبا لم يعرفوه.. ثم ذكر لهم من المشاهد الرفيعة ما دعاهم إلى سلوك مثله.. أكانوا يقبلون؟

سيقولون حينها:(افتراه).. لقد ذكر القرآن هذا:{ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}(يونس:38).. { أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}(هود:13)..{ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ}(هود:35)، وغيرها من الآيات، وهي تدل على أن هناك فريقا لا بأس به من أعداء محمد كانوا يتصورونه مفتريا لتلك القصص وغيرها، مختلقا لها.

لقد كان هناك فريقان متناقضان.. لكن بغضهما لمحمد جعلهما يتفقان.

وهذان الفريقان لم يخلو منهما التاريخ.. إلى يومنا هذا لا زالت الأيام تلد هذين الصنفين من الناس: القائلين بابتداع محمد لدينه،

والقائلين بنقله عن غيره.

قلت: هنـاك شـبهة أخـرى.. لهـا أصـل قـديم، ولهـا فـروع حديثـة كثيرة.. وهي ترتبط بتعلم محمد من غيره.

قـال: أعرفهـا.. وأعـرف اسـتغلال قومنـا لهـا.. إنهم يزعمـون أن محمدا تلقى علومه التي بثها في قرآنه من أحبارنا ورهباننا.

قلت: أجل.. وفي التاريخ ما يدل على ذلـك.. ففيـه مـا يـدل على خروج محمد مع عمه أبي طالب إلى الشام ، وهناك التقى بـالراهب المعروف.

ابتسم، وقال: أهذا الحـديث تستشـهد بـه لإثبـات نبـوة محمـد، أم لإلغائها؟

قلت: بل لإلغائها.. فإن هذا الراهب هو معلم محمد[1].

قـال: كم مكث محمـد مـع هـذا الـراهب حـتى يعلمـه كـل هـذه العلوم.. وكيف يغيب عن قومه، وهم أكثر الناس عـداوة لـه أمـر هـذا الراهب؟

أنتم تستندون إلى نص يشهد فيه الراهب انطلاقا من الكتب الـتي عنده لمحمد بالنبوة، فتقلبـون النص، وتحولـون الـراهب الشـاهد إلى معلم، مع أن محمدا عاش أميا ومات أميا بشـهادة القـرآن، وبشـهادة جميع من يعرفه.

أرأيت لو ذكر لك أحد من الناس أن أولئك المجوس الذين قـدموا الهدايا للمسيح وسجدوا له.. أنهم هم الذين لقنـوه مـا لقنـوه.. أيقبـل عاقل ذلك؟

قلت: لاشـك أني لا أقبـل ذلـك.. فهـذا افـتراء لا يمكن قبولـه.. فالمسيح كان رضيعا، وأولئك كانوا عابرين.

1() وقد أطلق هذه الشبهة أمثال المستشرق نورمان دانيال الذي ذكر أن محمداً ﷺ تعلم القرآن الكريم من راهب نصراني اسمه بحيرى أو جرجيس أو سرجيوس.

قال: وهكذا أمر محمد.. فقد كان صغير السن عندما ذهب به عمه إلى الشام، زيادة على أنه كان مجرد عابر سبيل في ذلك المحل الذي كان فيه الراهب.

سكت قليلا، ثم قال: لقد درس المنصفون من قومنا هذه الأراجيف.. وخرجوا منها بما ذكرت لك:

لقد قال البروفيسور مونتجمري واط:(إن من المستبعد أن يكون محمد قد قرأ الكتب الدينية اليهودية أو النصرانية.. ومن الأرجح أنه لم يقرأ أي كتاب آخر)

وقال ج.س.هجسن:(إن قاعدة نبوة محمد من ناحية مبدأية هي نفس تجربة وأعمال أنبياء بني إسرائيل. لكنه لم يعرف شيئاً عنهم بشكل مباشر. ومن الواضح أن تجربته كانت خاصة)

وقال جون ب. نوس وديفيد س. نوس:(إن من الواجب إدراج الحديث الشريف الذي يقول إن محمداً تعلم اليهودية والنصرانية خلال رحلاته مع القافلة التجارية المتجهة للشام، وكانت الأولى بصحبة عمه أبي طالب عندما كان في سن الثانية عشرة، والثانية عندما كان عمره 25 عاماً كموظف لخديجة التي تزوجها فيما بعد، على أنه حديث غير مقبول)

وقال توماس كارلايل:(لا أعرف ماذا أقول بشأن سيرجيوس (بحيرى أو بحيرى، مهما كان اللفظ، وقد أُطلق عليه أيضاً اسم سرجيوس)، الراهب النسطوري الذي قيل إنه تحادث مع أبي طالب، أو كم من الممكن أن يكون أي راهب قد علم صبياً في مثل تلك السن، لكنني أعرف أن حديث الراهب النسطوري مبالغ فيه بشكل كبير، فقد كان عمر محمد 14 عاماً (كان عمره إما 9 أو 12 عاماً على أكثر تقدير) ولم يعرف لغةً غير لغته، وكان معظم ما في الشام غريباً وغير مفهوم بالنسبة له)

قلت: لا بأس.. فإن كل ما ذكرته صحيح.. فبحيرا لا يمكن أن يكون هو معلم محمد.. ولكن هناك قرشيا عربيا صريحا يمكن أن

يكون هو معلمه.

قال: تقصد ورقة بن نوفل؟

قلت: أجل.. وقـد ظهـر لي أن ورقـة كـان من الفرقـة الأبيونيـة.. لاشك أنك تعرفها.. فقد قال فيهـا المـؤرخ موشـيم في المجلـد الأول من تاريخه:(إن الفرقة الأبيونيـة الـتي كـانت في القـرن الأول كـانت تعتقد أن المسيح إنسان فقـط تولـد من مـريم ويوسـف النجـار مثـل الناس الآخرين وطاعة الشريعة الموسوية ليسـت منحصـرة في حـق اليهود فقط، بل تجب على غيرهم أيضاً والعمل على أحكامه ضروري للنجاة.

ولما كان بولس ينكر وجوب هذا العمل ويخاصمهم في هذا البـاب مخاصمة شديدة كانوا يذمونه ذماً شديداً ويحقـرون تحريراتـه تحقـيراً بليغاً)

ضحك، وقال: متى ينتهي قومنا من هـذه المهـازل.. إنهم يؤكـدون بذلك كل ما يذكره المسلمون من تحريفنا لكتبنا.

إن هؤلاء العابثين الذين لم يعرفـوا محمـدا ولم يعرفـوا القـرآن لا يختلفـــون عن المحـــاكم البوليســـية الـــتي يفرضـــها الظلمـــة على المستضعفين، فترمي المستضعف البسيط بأنه يخطط لعملية انقلاب ضخمة ضد الامبراطور الذي يحكمه لسبب بسيط، وهـو أنـه مـر ذات يوم على قصره، ورمى ببصره إليه معجبا بصورته.

هكذا تفعلون.. تستغلون حادثا بسيطا.. هو في حقيقته شــاهد من شواهد النبوة.. لتحطموا به صرح النبوة.

قلت: فهنـاك من هـو من أهـل مكـة، وقـد كـان محمـد يـزوره، ويتحدث إليه، ولا يبعد أن يكون قد تلقى عنه.

قال: تقصد مقالة المشركين من أعـداء محمـد:{ وَلَقَـدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَـانُ الَّذِي يُلْحِـدُونَ إِلَيْـهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـذَا لِسَـانٌ

عَرَبِيٌّ مُبِينٌ }(النحل:103)

قلت: أجل.. فقد اتهم قوم محمد محمدا أنه إنما يعلمه بشر، ويشيرون إلى رجل أعجمي كان بين أظهرهم، وهو غلام لبعض بطون قريش، وكان بياعا يبيع عند الصفا، فربما كان محمد يجلس إليه ويكلمه.

قال: ولكن القرآن أخبر أن هذا الرجل كان أعجمي اللسان، لا يعرف العربية، أو أنه كان يعرف الشيء اليسير منها، بقدر ما يَرُد جواب الخطاب فيما لا بد منه؛ فكيف يمكن أن يتلقى تعاليم دين كامل من مثل هذا؟

ولهذا ذكر القرآن رادًا عليهم في افترائهم ذلك:{ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ }، فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن، في فَصَاحته وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة، التي هي أكمل من معاني كل كتاب نزل على نبي أرسل، كيف يتعلم من رجل أعجمي؟! إن هذا لا يقوله من له أدنى مُسْكة من العقل.

بل إن الرد القرآني لا يقتصر على هذا، فقد جاءت الآيات بعدها تقول:{ إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (104) إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (105)}(النحل)

فهل يمكن لمن ينقل مثل هذا الكلام أن يكون كاذبا على الله.. لقد كان محمد ـ بشهادة قومه ـ أصدق الناس وأبرهم وأكملهم علما وعملا وإيمانا وإيقانا، معروفًا بالصدق في قومه، لا يشك في ذلك أحد منهم بحيث لا يُدْعى بينهم إلا بالأمين محمد.

قلت: لا بأس.. لقد ذكرت أن هذا الرجل لم يكن له من البلاغة ما يكفي لأن يتعلم منه محمد.. وأنا أصدقك في ذلك.. فلم يكن للعيي أن يعلم البليغ.. ولكن أليس من الممكن أن يكون محمد قد تعلم من الشعراء والبلغاء الذين كانوا يملأون جزيرة العرب؟

أنا أروي أبياتا في هذا لشـاعر عـربي مشـهور هـو امـرؤ القيس.. لاشك أنك تعرفه.. لقد كان سابقا لمحمد.. وقد نظم أبياتـا فيهـا بعض قرآن محمد..

أنا أحفظها جميعها.. اسمع:

دنت الســـاعة وانشـــق القمر   عن غزال صاد قلبي ونفر

أحـــورٌ قـــد حِـــرتُ في أوصـــافه   ناعس الطرف بعينيه حوَر

مرّ يوم العيد بي في زينة   فرمـــاني فتعـــاطى فعقر

بســـهامٍ من لحـــاظٍ فاتك   فرَّ عنّي كهشـيم المحتظر

وإذا ما غـاب عـني سـاعة   كانت السـاعة أدهى وأمر

كُتب الحُســـن على وجنته   بسـحيق المسـك سـطراً مختصر

عـادةُ الأقمـارِ تسـري في الـدجى   فـــرأيتُ الليـــل يســـري بـــالقمر

بالضحى والليل من طرته   فرقـه ذا النـور كم شـيء زهر

قلت إذ شقّ العـذار خـده   دنت الســـاعة وانشـــق القمر

ضحك، وقال: لمن هذه الأبيات؟

قلت: هي لامرئ القيس.

قال: أي امرئ القيس؟

قلت: ألا تعرفه؟.. ذلك الشاعر الجاهلي.. صاحب المعلقة.

قال: أصاحب المعلقة يمكن أن يقول هذا؟.. كيف لم توضـع هـذه الأبيات في ديوانه؟ وكيف لم يذكرها من اهتموا بشعره؟

لقـد عقـد البـاقلاني في كتابـه عن إعجـاز القـرآن فصـلا طـويلا للمقارنة بين الشعر والقرآن، وخصص منـه جـزءا كبـيراً لشـعر امـرؤ القيس، وتعرض فيه بكل أمانة لمسـألة الفـرق بين الشـعر والقـرآن، ولو كان هناك مثل هذه الأبيات لرواها.

أنـا أجـزم أن من أطلـق هـذه الشـبهة لا علاقـة لـه بالعربيـة، ولا بشعرها.. بل هو يهين الشعر الجاهلي الذي وصل أوج قوته بمثل هذه الأبيات التي يتصور أن القرآن اقتبس منها.

فهل هذا الشـعر السـلس السـهل غـير المـوزون في بعض أبياتـه شعر جاهلي؟

اسـمع هـذه الأبيـات من معلقـة امـرئ القيس لـترى الفـرق بين القصيدتين:

قِفا نَبكِ مِن ذِكرى حَــبيبٍ وَمَـــــــــــــنزِلِ	بِسِقطِ اللِوى بَينَ الدَخولِ فَحَومَـــــــــــــلِ
فَتوضِحَ فَالمِقراةِ لَم يَعفُ رَســــــــــــمُها	لِمـا نَسَـجَتها مِن جَنـوبٍ وَشَــــــــــــمأَلِ
تَـــرى بَعَـــرَ الآرامِ في عَرَصـــــــــــاتِها	وَقيعانِهـا كَأَنَّهُ حَبُّ فُلفُـلِ
كَـأَنّي غَـداةَ البَينِ يَـومَ تَحَمَّلـــــــــــوا	لَدى سَمُراتِ الحَيِّ نـاقِفُ حَنظَــــــــــــلِ
وُقوفـاً بِهـا صَـحبي عَلَيَّ مَطِيِّهُم	يَقولـونَ لا تَهلِـك أَسـىً وَتَجَمَّلِ

هـل يمكن لذواقـة للشـعر أن يقـارن ذاك الشـعر الركيـك بهـذه الأبيات القوية؟

كنت أدرك الفـرق بين القصـيدين، ولكـني أبيت إلا أن أقـول لـه: لكل شاعر قصائد قوية، وأخرى ضعيفة.. هذا مما لا يشك فيه.

قال: نعم.. صدقت في ذلك.. وأنا لا أناقشك من هـذا البـاب.. بـل أتعجب من أن تروى هذه الأبيات، ثم لا تـذكر في ديـوان الرجـل.. ولا فيمن تحدث عنه.. مع أنهـا كـان يمكن أن تصـبح سـلاحا قويـا في يـد أعدائه.

قلت: أنت تتهم قومنا بوضع هذه القصيدة إذن؟

قال: لا أتهمهم.. ولكنهم ربمـا وجـدوها في كتب المتـأخرين الـتي اشتهرت بالاقتباس من القرآن، فنسبوها لامرئ القيس.

قلت: لا.. لقـد ذكـر هـذه القصـيدة عـالم من علمـاء المسـلمين الكبار، لاشك أنك تعرفه، إنه الإمام المنـاوي في كتابـه (فيض القـدير شرح الجامع الصغير) لقد أورد تلك الأبيات في سـياق تعريفـه لأمـرؤ القيس.

قال: أتعلم متى توفي هذا الرجل؟

قلت: لا.. وما علاقة ذلك بهذا؟

قال: لقد توفي عام 1029هـ، فكيف تصله دون غيره؟

قلت: فأنت تتهم الرجل إذن مع كونه شارح أحاديث نبيكم.

قال: أنا لا أتهمـه بالوضـع، ولكـني أتهمـه بعـدم التحقيـق.. فهنـاك الكثير من الشعراء ممن يحملون اسم امرؤ القيس بعضهم جــاهلي ، وبعضهم إسلامي، فلذلك قد يحصل الخلط في الأسماء.

فمن الجاهليين امرؤ القيس بن حجـر بن الحـارث الكنـدي، الـذي

زعمتم أن هذه الأبيات تنسب إليه، وهو شاعر جاهلي، بـل هـو أشـهر الشعراء على الإطلاق، وقـد عـاش من سـنة 130 قبـل الهجـرة الى سنة 80 قبل الهجرة، وهو بالتالي لم يلتق محمدا، ولم يعرفه.

ومنهم امرؤ القيس السـكوني، وهـو شـاعر جـاهلي اسـمه امـرؤ القيس بن جبلة السكوني، وهو ممن لم يصلنا الكثير من شعره.

ومنهم امرؤ القيس الكلبي هو امرؤ القيس بن حمام بن مالك بن عبيدة بن عبد الله وهو شاعر جاهلي عاصر المهلهل بن ربيعة.

ومنهم امرؤ القيس الزهيري وهو امـرؤ القيس بن بحـر الزهـيري وهو شاعر جاهلي وصلنا القليل من شعره.

أما الشـعراء المسـلمين الـذين حملـوا هـذا الاسـم، فمنهم امـرؤ القيس بن عابس بن المنـذر الكنـدي، وقـد وفـد إلى محمـد، فأسـلم وثبت وعلى إسلامه، ولم يكن فيمن ارتد من كندة، وكان شاعراً نـزل الكوفة، ومن شعر امرئ القيس هذا:

قف بالديار وقوف حـابس ... وتـــأن إنـــك غـــير آيس

لعبت بهن العاصـــــــفات ... الرائحـات من الـروامس

مـاذا عليـك من الوقـوف ... بهالـــــك الطللين دارس

يـــــا رب باكيـــــة علي ... ومنشد لي في المجـالس

أو قائـــل: يـــا فارســـاً ... مـاذا رزئت من الفـوارس

لا تعجبـــوا أن تســـمعوا ... هلـــك امـــرؤ القيس بن عـــــــــــــــــــابس

سكت قليلا، ثم قـال: ألا تـرى كثـيرا من أوجـه التطـابق بين تلـك الأبيات المنسوبة الى امرؤ القيس الجاهلي، وهذا الشعر؟

قلت: أجل.. هناك بعض التشابه بينهما.. ولكن لا يمكن أن تنسـبها

إليه لمجرد الشبه.

قال: ولا يمكن أن تنسبها أنت لامرئ القيس الجاهلي.. فليس لديك من النصوص ولا من الأسانيد ولا من أوجه الشبه ما يمكنك أن تعتمد عليه.

صمت قليلا، فقلت: لم يبق إلا أنه من تأليفه الخاص.. ولا يتعجب من ذلك.. فقد نرى الرجل العبقري يخرج عنه من عجائب العلوم ما يظل غيره محتارا فيه.

قال: هذه شبهة قديمة ذكرها المشركون في معرض حربهم لمحمد، وقد ذكرها القرآن، فقال:{ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ } (هود:35)، وقال:{ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ }(السجدة:3)

وتلقفها عنهم الكثير من معاصري قومي وقومك[1].. هي مهرب من المهارب.. لأنهم وضعوا في أنفسهم هدفا.. ورأوا أنهم لابد أن يحتالوا بكل حيلة للوصول إليه، ولا يهمهم في ذلك استعمال الصدق أو استعمال الكذب، ولا يهمهم في نتائج بحثهم أن يصلوا إلى الحق أم إلى الباطل.

ومع أن كل ما في القرآن، وما في حياة محمد، يرد على هذه الشبهة إلا أني سأذكر لك الآن ما يبطل هذا الزعم.. لا يبطله الآن، ولكن يبطله ما سأدله عليك من طرق البحث:

اذهب، وقارن بين أسلوب القرآن وأسلوب محمد.. وارجع في ذلك إلى كتب الأحاديث التي جمعت أقوال محمد، وقارنها بالقرآن.. وكن صادقا في مقارنتك.. فستجد الفرق شاسعا بين الأسلوبين: فحديث محمد تتجلى فيه لغة المحادثة والتفهيم والتعليم والخطابة في صورها ومعناها المألوف لدى العرب كافة، بخلاف أسلوب القرآن

---

(1) وقد نصر هذه الشبهة الكثير من المستشرقين من أمثال بيرسي هورنستاين - يوليوس فلهاوزن -د.بروس و د. لوبون.

الذي لا يُعرف له شبيه في أساليب العرب.

ثم إنك تشعر عند قراءة الحديث النبوي أنك أمام شخصية بشرية تعتريها الخشـية والمهابـة والضـعف أمـام اللـه، بخلاف القـرآن الـذي يتراءى للقارىء من خلال آياته أن مصدرها ذاتا جبـارة عادلـة حكيمـة خالقة بارئة مصورة رحيمة لا تضعف حتى في مواضع الرحمة.

فلو كان القرآن من كلام محمد لكان أسـلوبه وأسـلوب الأحـاديث سواء.. أنا وأنت لنا علاقة باللغة والتعبير.. ونحن نعلم أنه من المتعـذر على الشخص الواحد أن يكون له في بيانه أسـلوبان يختلـف أحـدهما عن الآخر اختلافاً جذرياً.

لنترك هذا.. ونذهب إلى الغاية من نسبة ما ألفه إلى الله..

لقد كان أهل البلاغة يتمتعون عند العـرب بمكانـة رفيعـة، ولـو أن محمدا نسب القرآن إلى نفسه لنال من الدنيا أكـثر ممـا نالهـا بنسـبة القرآن إلى الله.

بل إنه لو فعل ذلك لُرفَع إلى مرتبة أسمى من مرتبة البشر، فـأي مصلحة أو غاية لمحمد في أن يؤلف القرآن ـ وهو عمل جبار معجـز ـ ثم يكتفي بنسبته لغيره؟

دعنا من كل هذا.. ولنذهب إلى القرآن نفسـه.. إنـه الوثيقـة الـتي نتهم محمدا بأنه افتراها على الله.. فلنذهب إليهـا، ولندرسـها دراسـة موضوعية لنرى مدى صدق هذا الادعاء..

هل يمكن لرجل أن يفتري على ربه كلاما يعاتب فيه نفسـه بمثـل هذا العتاب الشديد:{ عَفَا اللَّهُ عَنْـكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَـكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ } (التوبة:43)

هل يمكن أن يفتري محمد مثـل هـذا العتـاب:{ وَمَـا كَـانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُـوَفَّى كُـلُّ نَفْسٍ مَـا كَسَـبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ }(آل عمران:161)

ومثل هذا العتاب:{ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ }(لأنفال:67)

ومثل هذا العتاب:{ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ }(التوبة:113)

ومثل هذا العتاب:{ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ }(التحريم:1)

بل إن القرآن يحوي تهديدات صريحة شديدة للمفترين على الله، فكيف يجسر محمد أن يفتري على الله، وهو يعتقد خطر الفرية على الله؟

اسمع وأنبئني: هل يمكن أن يكون قائل هذا الكلام مفتريا وكاذبا على الله:{ فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}(آل عمران:94)..{ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ}(الأنعام:21)..{ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ}(الأنعام:93)

بل إن القرآن فوق ذلك كله لا يكتفي بالتحذيرات العامة من الافتراء.. بل هو يخص محمدا بالتهديد والوعيد إذا ما افترى على الله.. اسمع:{ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (44) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (45) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (46) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (47}(الحاقة)

واسمع:{ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ

الرَّحِيمُ }(الأحقاف:8)

واسمع هذا التهديد الخطير:{ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَـكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَـا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْـرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَـذُوكَ خَلِيلًا (73) وَلَـوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَـاكَ لَقَـدْ كِـدْتَ تَـرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَـيْئًا قَلِيلًا (74) إِذًا لَأَذَقْنَـاكَ ضِـعْفَ الْحَيَـاةِ وَضِـعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (75)} (النحل)

فهل يُعقل أن يؤلف محمد مثل هذا الكتاب، ثم يوجـه العتـاب إلى نفسه بهذه الصورة الشديدة!؟

بالإضافة إلى هذا كله.. فقد كانت تنزل بمحمد نـوازل شـديدة من شأنها أن تحفزه إلى القول، بل كـانت حاجتـه القصـوى تلح عليـه لأن يجد حلا، ولو كان الأمر إليه لوجد له مقالاً ومجالاً، ولكن كانت تمضـي الليالي والأيام الطوال، ولا يجد في شأنها قرآناً يقرؤه على الناس.

لقد حدث في أول الإسلام أن سئل عن أهل الكهف، فأجـاب بأنـه سيرد عليهم غداً على أمـل أن يـنزل الـوحي بـالرد، ولكن الـوحي لم ينزل.

لقد نـزل عليـه حينهـا مـا ورد في القـرآن من قولـه:{ وَلَا تَقُـولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (23) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُـرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِـيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا (24)}(الكهف)

أرأيت لو أن القرآن كان كلاما لمحمـد.. هـل سـيبقى طـول هـذه المدة لا يفتري كذبا يستر به نفسه، ويرد به الأراجيف عنه؟

قلت: لعــل محمــدا في ذلــك الحين لم تكن لديــه المعلومــات الكافية، فانتظر حتى اجتمعت.

ضحك، وقال: ما أسرع ما تجدون المخارج..

التفت إلي، فرآني صامتا، فقال: هؤلاء الذين يطلقـون مثـل هـذه الافـتراءات لا يعرفـون القـرآن.. ولعلهم لم يقـرؤوه مـرة واحـدة في حياتهم.

وإلا فكيف استطاع قرآن بشري أن يؤدي ذلك الدور الخطير الذي عجزت جميع الكتب المقدسة عن أدائه!؟

كيف استطاع ذلك الأُمّيّ الذي ما درس ولا تعلم ولا تتلمذ أن يأتي بذلك الإعجاز المتكامل دون أي تنـاقض، فـأقر بعظمـة هـذا التشـريع القريب والبعيد، المسلم وغير المسلم على مـدى الأزمـان المتفاوتـة والبيئات المختلفة؟

إن نظـرة القـرآن الكاملـة الشـاملة المتناسـقة للكـون والحيـاة والإنسان.. ونظرته المفصلة للمعاملات والحروب والزواج والعبـادات والاقتصاد لو كانت من صنع محمد، لما كان محمد بشراً.

إن هذه التنظيمات تعجز عن القيام بهـا لجـان كثـيرة لهـا ثقافـات عالميـة وتخصـص عميـق مهمـا أُتيح لهـا من المراجـع والدراسـات والوقت.. فكيف يستطيع رجل واحد ـ أيـاً كـانت عبقريتـه، وأيـاً كـانت ثقافته ـ أن يأتي بكل ذلك؟

ثم مـاذا عمـا في القـرآن من نـواح إعجازيـة أقـرت لهـا العلـوم المختلفة:

من أعلم محمدا بأن الأرض كروية بشكل بيضوي.. { وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا} (النازعـات:30)؟

من أعلم محمدا بأن الحياة ابتدأت من المـاء.. {وَجَعَلْنَـا مِنَ الْمَـاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ }(الانبياء:30)؟

من أعلم محمدا بنظرية انتشار الكون وتوسعه.. { وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ }(الذريات:47)؟

من أعلم محمدا بنظرية الانفجار الكبـير.. { أَوَلَمْ يَـرَ الَّذِينَ كَفَـرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا }(الانبياء:30)

قلت: بقي مصدر أستحيي من ذكـره، ولـولا أن لي دليلا عليـه مـا ذكرته.

قال: لا تستحي.. فلا حياء في الحق..

رآني صامتا، فقال: لا يمكن للشياطين إذا ما أرادوا أن يوحو لأحـد أن يوحوا لمحمد بالتعاليم التي وردت في القرآن.

هل يمكن للشياطين أن تنزل مثل هذا الكلام:{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُـوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالاً طَيِّبـاً وَلا تَتَّبِعُـوا خُطُـوَاتِ الشَّـيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَـدُوٌّ مُبِينٌ}(البقرة:168).. { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُـوا فِي السِّـلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُـوا خُطُـوَاتِ الشَّـيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَـدُوٌّ مُبِينٌ}(البقـرة:208).. { الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَـأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَـاءِ وَاللَّهُ يَعِـدُكُمْ مَغْفِـرَةً مِنْـهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}(البقرة:268)

هل يمكن للشيطان أن ينزل مثل هذه التحذيرات من نفسه؟

قلت: ولكني أروي رواية في ذلك.. وهي تصرح بما تحاول بعقلـك أن ترده.

قال: اذكر الحكاية.. فما أولعكم بالأساطير!؟

قلت: لقد ذكرت المراجع الكثيرة أن محمدا كان يقرأ فى الصـلاة بالناس سورة النجم، فلمـا وصـل إلى { أَفَـرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُـزَّى (19) وَمَنَاةَ الثَّالِثَـةَ الْأُخْـرَى (20)} (النجم) أضـاف إلى هـذه الآيـات:(تلـك الغرانيق[1]العلى، وإن شفاعتهن لترتجى)

ثم استمر فى القراءة، ثم سجد، وسجد كـل من كـانوا خلفـه من المسلمين، بل سجد معهم من كـان وراءهم من المشـركين، وقـالوا: إن محمداً أثنى على آلهتنا، وتراجع عما كان يوجهه إليها من السباب.

وقد ذكرها المفسرون عند تفسيرهم لهـذه الآيـات:{ وَمَـا أَرْسَـلْنَا مِنْ قَبْلِـكَ مِنْ رَسُـولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّـيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِـهِ فَيَنْسَـخُ اللَّهُ مَـا يُلْقِي الشَّـيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِـهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} (الحج:52)

---

(1) المراد بالغرانيق: الأصنام ؛ وكان المشركون يسمونها بـذلك تشـبيهًا لهـا بـالطيور البيض التى ترتفع فى السماء.

قال: أول ما يرد هذه القصة أنها لم تصح سندا [1].. فكل الروايات التي رويت بها أضعف من أن يستدل بها في مثل هذا الأمر الخطير.. إن مثل هذا يستدعي التواتر، فكيف يؤيد بالضعاف التي لا تصلح سندا لقضية بسيطة، فكيف بقضية خطيرة كهذه.

لقد قال ابن كثير الذي استندوا إليه في هذه الروايات:(ذكر كثير من المفسرين هنا قصة الغرانيق وما كان من رجوع كثير ممن هاجروا إلى الحبشة ظنًّا منهم أن مشركى مكة قد أسلموا.. ولكنها ـ أى قصة الغرانيق ـ من طرق كثيرة مرسلة، ولم أرها مسندة من وجه صحيح)

وقد سئل ابن خزيمة عن هذه القصة فقال:(من وضع الزنادقة)

وقال البيهقي:(هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل، ورواية البخاري عارية عن ذكر الغرانيق)

وقال ابن حزم:(والحديث الذي فيه: وانهن الغرانيق العلا، وان شفاعتهن لترجى. فكذب بحت لم يصلح من طريق النقل ولامعنى للأشتغال به، إذ وضع الكذب لا يعجز عنه أحد)

ثم بعد هذا.. لماذا لا تعود للسورة وتقرؤها بتدبر لترى الحقائق التي تحملها.. فإن كانت القداسة في شيء فهي في القرآن، لا في كتب المفسرين.. ولا يمكن أبدا أن تصير كلمات المفسرين كلمات مقدسة.. فالربانية لكلمات الله المقدسة.. لا للفهوم البشرية المدنسة.

1() من الروايات الواردة في ذلك ما روي عن سعيد بن جبير قال: لما نزلت هذه الآية:﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى) (لنجم:19)، قرأها رسول الله ﷺ فقال:« تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترجى »، فسجد رسول الله ﷺ، فقال المشركون: إنه لم يذكر آلهتهم قبل اليوم بخير، فسجد المشركون معه، فأنزل الله:﴿)وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) (الحج:52) إلى قوله:﴿ وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ) (الحج:55) أخرجه ابن جرير (17 / 120)

مصادر الكتاب المقدس

تنفس الصعداء، وقال: ها قد انتهينا من عرض القرآن على العقل والحكمة لنعرف ربانية مصدره التي لا يمكن أن يجادل فيها مجــادل.. ولنرجع إلى الكتاب المقدس.. ذلك الذي يحمل أهله سـيوف العـدواة للقرآن، ويروحون يفخرون على العالم بأنه لا يوجد كتـاب مقـدس إلا كتابهم.. وأن الكتاب المقـدس الـذي بأيـديهم هـو كتـاب اللـه الوحيـد للبشرية[1].

قلت: نعم.. أسمع قومي يقولون هذا، ويفخرون به.

قال: أهذا من الأدب مع الله؟ .. كيف يحجرون الله على أن يتكلم غير الكلام الـذي عنـدهم؟.. أتـراهم يضـعونه في الحجـز الإجبـاري؟.. بحيث لا يتكلم أي كلام إلا الكلام الذي يرضيهم..

المسلمون يقولون غير هذا.. في القرآن توجـد آيـات كثـيرة تـبين عدم محدودية كلام الله.. اسمع:{ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَـدَداً}(الكهـف:109).. واسـمع:{ وَلَـوْ أَنَّمَـا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَـجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْـرُ يَمُـدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}(لقمان:27)

أخبرني على ضوء العقل والحكمة: أيهما أقوم قيلا.. القائلون بــأن الله يتكلم لمن يشاء، وبما يشاء، ومتى يشاء.. أم القائلون بأن اللـه لا يتكلم إلا لبـــني إســـرائيل.. ثم لا يتكلم معهم إلا الكلام الـــذي يؤيـــد العنصرية التي تفوح بها عقائدهم وعباداتهم.

انظر إلى الكون الواسع.. وقل لي: هل يمكن لخـالق هـذا الكـون أن يهتم بطائفة واحـدة من النـاس، فيـدللها رغم جرائمهـا، ويشـرفها بأنبيائه وكلماته، ويترك الأمم الأخرى كالكلاب.. لا قيمة لها ولا أهمية.

قلت: نحن المسـيحيين نعتقـد إنسـانية الإنسـان.. وليس فينـا أي

---

(1) هذا ما يشيعه المسيحيون في مواقعهم التبشيرية الكثيرة.

عنصرية.

قال: قد لا تكون العنصرية فيكم.. ولكنها في كتابكم.. لو قلنـا: إن الكتاب المقدس كتبه بعض القوميين لم نبعد.

وسنستعرض الكتاب المقدس كما استعرضنا القرآن.. لـنرى هـل يمكن أن يكون مصدر هذه الأسفار جميعا مصدرا مقدسا.

مصادر العهد القديم:

قلت: فلنبدأ بأسفار العهد القديم.

قال: فلنبدأ بها، ولنقارنها بالقرآن.. كما قارنا القرآن بها..

القرآن يكثر من ذكر الله.. فلا تجد سورة ولا آيـة إلا وتتحـدث عن الله وتصفه.. حتى قال بعضهم في القرآن:(إن الله تجلى في القـرآن لعباده ليعرفوه) .. فهل تجد هـذا في الكتـاب المقـدس.. وفي عهـده القديم؟

لنفتح سفر إستير مثلا.. ونعتبره كسورة من سور القرآن.. ولنجـر مقارنـة بينـه وبين سـورة من سـور القـرآن.. أنتم تفعلـون هـذا مـع القرآن.. وأنا سأمارس نفس الأسلوب:

إنه يبدأ هكذا:(وحدث في أيام أحشـويروش، الـذي امتـد حكمـه من الهند إلى كوش، فملـك على مئـة وسـبعة وعشـرين إقليمـا، أنـه جلس ذات يـوم على عـرش ملكـه في شوشـن القصـر، في السـنة الثالثة من عهـده، وأقـام مأدبـة لجميـع رؤسـاء جيش مـادي وفـارس وقادته، ومثل أمامه نبلاء المملكـة وعظماؤهـا. وظلت الـولائم قائمـة طوال مئة وثمانين يوما، أظهر فيهـا الملـك كـل بـذخ من غـنى ملكـه وعزة جلال عظمته. وبعد أن انقضت هذه الأيـام، صـنع الملـك وليمـة لجميـع الشـعب المقيم في شوشــن العاصـمة، كبـارهم وصـغارهم، استمرت سبعة أيام في دار حديقة القصر. التي زينت بأنسجة بيضــاء وخضراء وزرقاء، علقت بحبال كتانية ملونة في حلقات فضية وأعمدة

رخامية وأرائك ذهبية وفضـية، على أرضـية مرصـوفة بجـزع من بهت ومرمر ودر ورخام أسود. وكانت الأقداح التي تقدم فيهـا الخمـور من ذهب، وآنية الموائـد مختلفـة الأشـكال، أمـا الخمـور الملكيـة فكـانت وفيرة بفضل كرم الملك. وأصدر الملك أمره إلى كبـار رجـال قصـره أن يقدموا الخمور حسـب رغبـة كـل مـدعو من غـير قيـود، وأقـامت وشتي الملكة وليمـة أخـرى للنسـاء في قصـر الملـك أحشـويروش) (إستير:1/1-9)

ويمضي السفر كما تمضي حكايات ألف ليلة وليلـة لا يتحـدث عن الله ولا يعرف به، فكيف تعتبر هذا كتابا مقدسا؟

قلت: إن هذا الكتاب يتحدث عن جزء من تاريخ بني إسرائيل.

قال: لقد مر محمد بظروف خطيرة جدا.. ولكنك لن تـرى لهـا أي أثر في كتابه.. لقد ولد له ولد واحد بعد النبوة، كان هـو الولـد الوحيـد الذكر، ومات الولد.. وحصل أن كسفت الشمس يوم موته حـتى ظن الناس أنها كسفت بسبب موت ابنـه.. لكنـه لم يسـتغل الحادثـة، ولم ينزل فيها أي قرآن.. بل قال: (إن الشمس والقمـر آيتـان من آيـات الله، وإنهما لا تخسفان لموت أحد، فإذا كان ذلك فصلوا وادعوا حـتى يكشف ما بكم) [1]

اذهب إلى القـرآن هـل تـرى فيـه تلـك المأسـاة العظيمـة الـتي حصلت للمسـلمين، وهم يـؤذون في مكـة.. لقـد ضـرب محمـد في الطائف، فلم تنزل آية واحدة في سب أهـل الطـائف ولا في لعنتهم.. ومر محمد مع عشيرته بسنين حوصروا فيها وجوعوا.. فلم تـنزل آيـة واحدة تخبر عن ذلك الموقف الشديد.. أتدري لم؟

قلت: لم؟

قال: لأن القرآن للبشرية جميعا، لا لفئة محدودة.. وهو لذلك يهتم بالتعريف بالله وبيان سبيل السـلوك إليـه، ولا يهتم بـالتواريخ القوميـة

---

(1) رواه البخاري.

التي تفوح من الكتاب المقدس.

لنرجع إلى سفر إستير.. أرانا تهنا عنه.

هـل تعلم علاقـة هـذا السـفر بالقوميـة الإسـرائيلية، إن اليهـود يعتبرون هذا السفر من الأسفار المهمة التي تحكى تاريخهم القـومي، وقد وضعوه في الأدراج الأربعة المعروفة في العبرية باسم (مجلوث) الـتي كـانوا يقرؤونهـا في المناسـبات القوميـة، كـل سـفر في حينـه ومناسبته.

وآخر هذه المناسبات هو عيد الفوريم كما يسـمونه، والـذي كـانوا يقرؤون فيه هذا السفر بالـذات تـذكاراً لخلاصـهم من المجـزرة الـتي أعدها هامان لإفنائهم كشعب.

وقد سمى هذا العيد (فوريم) نسـبة إلى (فـورا) بمعـنى قرعـة حيث ألقى هامان قرعة ليتأكد من اليوم المناسب لتنفيذ مذبحته، وقد شاع الاحتفال بهذا العيد بطقس معين.

فكـان عليهم أن يصـوموا في اليـوم الثـالث عشـر من آذار، وفي المساء حيث يبدأ أول اليوم الرابع عشر يجتمعون في المجمـع، وبعـد العبادة المسائية يقرأون سفر إستير. ولما يصلون في قراءتهم لـذكر اسم (هامان) كان كل جمهور المصـلين يصـرخون قـائلين:(ليمحى اسم ذلك الشرير) وفي اليوم التالي كانوا يعودون ثانية إلى المجمع لإتمام فرائض عبادة العيد. ثم يصرفون النهار بالفرح والبهجة وتقـديم الهدايا(1).

إذن هذا كتاب قومي، فلماذا يدرج ضمن الأسفار المقدسة.

قلت: فـأنت تـذهب إلى أن هـذا السـفر مدسـوس في الكتـاب المقدس كما يقول الهراطقة؟

قـال: لـو شـئت الصـدق.. فـإن أكـثر مـا في الكتـاب المقـدس

(1) انظر أيضاً قاموس الكتاب المقـدس طبعـة بـيروت 1964 تحت كلمـة فـوريم ص 699.

مدسوس.. الكتاب المقدس هو كلام الله المقدس، ولا ينبغي لكلام الله أن يحمل أي صفة من صفات البشر.

اختر أي سورة من سور القرآن.. وقارنها بسفر إستير.. أو أي سفر شئت.. لترى الفرق العظيم بين الكلمات المقدسة التي تصدر من مصدر علوي، وبين الكلمات المدنسة التي تنتشر من القوميات التي تمتلئ بالزهو الكاذب.

اقرأ سورة الطلاق مثلا، وهي سورة قصيرة مقارنة بسفر إستير، وهي ـ من حيث عنوانها ـ تدل على أحكام الطلاق، وهو مسألة قد لا تحتاج إلى الحديث عن الله.. ولكنك تجد فيها مثل هذه النصوص:

تبدأ السورة بهذه الآية:{ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا }(الطلاق:1)

إن هذه الآية الأولى وحدها تحتوي على اسم الله وحده أربع مرات.. وهي تحث على تقوى الله، وتنهى عن تعدي حدوده، من دون أن تخل بذكر مسألة مهمة من مسائل الطلاق.

قارن هذه الآية وحدها بسفر إستير جميعا.. إن سفر إستير كله ليس فيه ذكر لله، ولو مرة واحدة.. وليس فيه أي حث على التقوى، ولا أي نهي عن تعدي حدود الله مع أنه يفوق هذه الآية أضعافا كثيرة من حيث الحجم.

اسمع باقي السورة لتقارن بها سفر إستير.. بل لتقارن من خلالها الكتاب المقدس جميعا.. إنها نزلت في الأصل لبيان أحكام الطلاق، ولكنك تراها مملوءة بالحديث عن الله وما يقرب إليه.

قارن هذا الكلام الممتلئ بالربانية بتلك الكلمات التي يمتلئ بمثلها الكتاب المقدس ذلك الذي يمتلئ بصنع محارق لله حتى لو كانت هذه المحارق من البشر، بل من الأولاد.. هل يعقل أن يكون الله قاسيا

بهذه الدرجة، فيأذن لعبده أن يذبح ابنته، ليوفي بنذره؟

اسمع لما يقول الكتاب المقدس: (فكـان روح الـرب على يفتـاح، فعَبَرَ جلعاد ومنسَّى، وعَبَرَ مِصْفاة جلعاد ومن مصفاة جلعـاد عَبَـرَ إلى بني عَمُّون. ونذر يفتاح نذراً للرب قائلاً: إن دفعتَ بـني عمـون ليـدي، فالخارج الذي يخرج من أبواب بيتي للقائي عند رجوعي بالسلامة من عند بني عمون يكون للرب وأُصعده مُحرقـة. ثم عَبَـرَ يفتـاح إلى بـني عمون لمحـاربتهم. فـدفعهم الـرب ليـده، فضـربهم من عروعـير إلى مجيئك إلى مِنِّيت، عشرين مدينة، وإلى آبـل الكـروم، ضـربة عظيمـة جداً. فذلَّ بنوعمون أمـام بـني إسـرائيل. ثم أتى يفتـاح إلى المصـفاة إلى بيته، وإذا بابنتـه خارجـةً للقائـه بـدفوف ورقص، وهي وحيـدة. لم يكن له ابنٌ ولا ابنة غيرها. وكان لما رآها أنه مـزَّق ثيابـه وقـال: آه يـا بنتي، قد أحزنْتِني حزناً وصرتِ بين مُكدِّريَّ، لأني قــد فتحت فمي إلى الـرب ولا يمكنـني الرجـوع. فقـالت لـه: يـا أبي هـل فتحت فـاك إلى الرب؟ فافعل بي كما خرج من فِيكَ بمـا أنَّ الـرب قـد انتقم لـك من أعدائك بني عمُّون. ثم قـالت لأبيهـا: فليُفعَـلْ لي هـذا الأمـر: اتْرُكـني شهرين، فأذهب وأنزل على الجبال، وأبكي عذراويتي أنـا وصـاحباتي. فقال: اذهـبي. وأرسـلها إلى شـهرين. فـذهبت هي وصـاحباتها وبكت عذراويتها على الجبال. وكان عند نهاية الشهرين أنها رجعت إلى أبيها، ففعل بها نـذره الـذي نـذر، وهي لم تعـرف رجلاً. فصـارت عـادةً في إسرائيل أن بنات إسرائيل يذهبن من سـنة إلى سـنة ليَنُحْنَ على بنت يفتاح الجلعادي أربعة أيام في السنة) (قض 11: 29-40)

قارن هذا بما ذكره القرآن من التماس الله المخرج لأيوب ليـوفي بنذره، ولا يؤذي زوجته التي نذر أن يضربها.. لقد ذكر اللـه لـه الحيلـة للتخلص من نذره، ونص على ذلك في القرآن ليبين سعة رحمـة اللـه ولطفـه بعبـاده.. اسـمع:{ وَاذْكُـرْ عَبْـدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَـادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (41) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَـرَابٌ (42) وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (43) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِـغْثًا فَاضْـرِبْ بِـهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَـدْنَاهُ صَـابِرًا نِعْمَ الْعَبْـدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (44)(سورة ص)

فلم لم يلتمس لهذا الرجـل القاسـي مثـل هـذا المخـرج من هـذا النذر المحرم أصلا؟

وهل يمكن أن ينذر أحد أنه إن تحقق له مطلب من المطـالب أن يعصي الله، ثم يعتبر بارا بعـد ذلـك إن وفى بنـذره.. بـل يشـرف بـأن يذكر عمله هذا في الكتاب المقدس.

إن مثل هذه الأفكار لـو أذن لهـا أن تنتشـر لقضـت على البشـرية والعمران فيها منذ زمن بعيد.

فكيف تفخرون بالكتاب المقـدس، وهـو لم يطهـر من مثـل هـذه النصوص؟

أتدري بأنه حصل في عهـد محمـد نـذر مثـل هـذا.. ولكنـه لم يكن مرتبطا ببشر، بل كان مرتبطا بناقـة، ومـع ذلـك نهى رسـول اللـه ﷺ عن ذبحها، بل تعجب أن ينذر مثل هذا النذر..

اسـمع للحـديث، وقـارن بينـه وبين الكتـاب المقـدس.. الحـديث طويل.. وهو يروي قصة امرأة نجت من حادث خطـير..و(نـذرت للـه إن نجاها الله عليها لتنحرنها، فلما قدمت المدينة رآهـا النـاس فقـالوا العضباء ناقة رسول الله ﷺ فقالت: إنهـا نـذرت إن نجاهـا اللـه عليهـا لتنحرنها فأتوا رسول اللـه ﷺ فـذكروا ذلـك لـه فقـال:(سـبحان اللـه بئسما جزتها نذرت لله إن نجاها الله عليها لتنحرنها، لا وفـاء لنـذر في معصية، ولا فيما لا يملك العبد)[1]

قلت: ولكن القرآن ينص على أن إبراهيم أمر بذبح ابنه.

قال: تلك قصة أخرى.. وهي تمتلئ بالمعاني السـامية، ومـع ذلـك لم يحصل فيها أي ذبح.. ولم يكن سببها أي نذر.

اسـمع لمـا ورد في القـرآن.. وقـارن بينـه وبين مـا ذكـر الكتـاب المقدس:{ وَقَـالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَـيَهْدِينِ (99) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ

---

(1) رواه مسلم.

الصَّـالِحِينَ (100) فَبَشَّـرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (101) فَلَمَّا بَلَـغَ مَعَـهُ السَّـعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَـالَ يَـا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَـاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّـابِرِينَ (102) فَلَمَّا أَسْـلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (103) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (104) قَـدْ صَـدَّقْتَ الرُّؤْيَـا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (105) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (106) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (107) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (108) سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ (109) كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (110) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُـؤْمِنِينَ (111) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (112) وَبَارَكْنَا عَلَيْـهِ وَعَلَى إِسْـحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ (113)}(الصافات)

أتدري لم أمر إبراهيم بذبح ابنه؟

قلت: لم؟

قال: لم يكن الذبح مرادا.. ولكن إبراهيم كان معدا لمكانة عظيمة من الله تستدعي أن يكون مستسلما لله استسلاما كليا.. والله العدل يمتحن عباده ليبرز ما تبطنه نفوسـهم من طيبـة أو خبث، وكـان اللـه يعلم نفس إبراهيم الطيبة.. ولكن العالم لم يكن يعلم أن تلـك النفس يمكن ان تضحي بولدها في سبيل الله.. فأمر الله إبراهيم بذبح ابنه لا ليذبحه، وإنما ليرى العالم ذلك.. وليكون نموذجا عن الإسلام المطلـق لله.

فلما عزم إبراهيم، وحصل منه التسليم المطلق للـه، فـداه اللـه.. ومنعه من ذبح ابنه.

القرآن يشير إلى هذا عندما يقول:{ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَـاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً }(البقرة: 124)

فالكلمات التي ابتلي بها إبراهيم هي أنواع البلاء التي تعرض لها.

القصـة بهـذا لهـا معـنى صـحيح تمتلئ بـه النفس.. بخلاف قصـة الكتاب المقدس، فإنك إن ذهبت تبحث لها عن مغزى لن تجد لهــا أي مغـزى.. فـالبنت المسـكينة ذبحت لتقـرب للـرب الـذي يحب روائح

الشواء.. والسبب في كل ذلك أن أباها نـذر إن انتصـر أن يقتـل أول من يستقبله.. أي منطق هذا؟

قارن هذا بما أمر به المؤمنـون إذا انتصـروا.. لقـد أنـزلت سـورة كاملة من أجلِ هذا اسمها سورة النصر.. اسمعها:{ إِذَا جَـاءَ نَصْـرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (1) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (2) فَسَبِّحْ بِحَمْـدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (3)}(النصر)

هذه هي السـورة كاملـة.. ولكن المعـاني الجليلـة الـتي تحويهـا لا تعدلها كل تلك الإصحاحات التي امتلأت كذبا على الله.

لنواصل المقارنة بين القرآن والكتاب المقدس لـنرى حظهمـا من الربوبية:

لقد ورد في سفر آخر:(فبادرت أبيجال وأخذت مائتي رغيف خـبز وزقي خمـــر، وخمســة خرفــان مهيئــة، وخمس كيلات من الفريــك ومائتي عنقود من الـزبيب، ومـائتي قـرص من الـتين، ووضـعتها على الحمير) (صموئيل (1) 25/18).

هل هذه الكلمات التي كتبها جائع حريص هي كلمات إله؟

ليس هذا فقط.. بـل في سـفر الأيـام ((1)ـ 24 -ـ 27) قائمـة طويلة لوكلاء داود وولاته .. وفي سفر الملوك الأول إصحاحان كاملان في وصف الهيكل وطوله وعرضه وسـماكته وارتفاعـه وعـدد نوافـذه وأبوابه..وتفاصيل تزعم التوراة أنهـا المواصـفات الـتي يريـدها الـرب لمسكنه الأبدي (انظر ملوك (1) 6/1 - 7/51)

وفي أخبـار الأيـام الأول سـت عشـرة صـفحة كلهـا أنسـاب لآدم وأحفاده وإبراهيم وذريته (انظر الأيام 1/1 - 9/44)

ثم قائمة أخرى بأسماء العائدين من بابل حسب عائلاتهم، وأعـداد كل عائلة إضافة لأعداد حميرهم وجمالهم (انظر عزرا 2/1 ـ 67).. وقوائم أخرى بأعـداد الجيـوش والبـوابين من كـل سـبط، وعـدد كـل

جيش (انظر الأيام 23/1 - 27/34).

وفي سفر الخروج يأمر موسى بصناعة التابوت بمواصفات دقيقة تستمر تسع صفحات، فهل يمكن للوحي ينزل بذلك كلـه وغـيره ممـا يطول المقام بتتبعه.

وفوق هذا اللغو كله ترد قصة زنا يهوذا بكنته ثامار بعـد أن زوجهـا أبناءه واحداً بعد واحد، ثم زنى بها وهو لا يعرفها، فلمـا عـرف بحملهـا أراد أن يحرقها.. هل سمعت القصة كما يرويها الكتاب المقدس.. بـل التوراة التي هي محل اتفاق الجميع.. أين المغزى منهـا؟ امـرأة مـات عنها أزواجها واحداً بعد آخر، عاقبهم الـرب لأنهم كـانوا يعزلـون عنهـا في الجماع، ثم زنت بوالـدهم، ونتج عن هـذا السـفاح ابنـان، أحـدهما فارص ـ وهو أحـد أجـداد المسـيح ــ ثم تمضـي القصـة بلا عقوبـة ولا وعيد، بل تذكر القصة في ختامها وصفاً غريباً لهذه الزانية، فقـد خـرج يهوذا لحرقها، فلما عرف أنها حامل منه نكص قائلاً:(هي أبـر مـني)، فهل كان العزل مستحقاً للموت بينما لا عقوبة ولا حد على جريمة زنا المحارم، ثم كان هؤلاء ـ أبطال القصة ـ أجداداً لابن الله الوحيد، ففي نسب المسيح أنه من أبناء فارص بن يهوذا وثامار (متى 1/2).

أجبني صادقا: هل يمكن أن تكون هذه المعاني الممتلئة بالنجاسـة والخبث والانحراف كلمات مقدسة صدرت من الله خالق كل شيء!؟

لم أدر بما أجيبه، فقال: وفوق ذلك كله لا ترى في هذا الكتاب أي إجابة من الإجابات التي يبحث عنها الإنسان عادة في الوحي الإلهي..

هل ترى في الكتاب المقدس كلاما مفصلا عن مصير الإنسان كما تجده في القرآن؟

إن القرآن يمتلئ بذكر اليوم الآخر ابتداء من الموت إلى أن يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار.. بل فيهـا الوصـف المفصـل للجنـة والنار.. لتمتلئ النفس رغبة ورهبة.

أنتم تضـحكون من تلـك الأوصـاف وتسـتهزئون بهـا، بينمـا نـرى

الكتاب المقـدس يمتلئ بتفاصـيل من الـدنيا لا حاجـة إليهـا، وهـو في نفس الوقت ليس فيه شيء يذكر عن الآخرة والجنة والنـار[1]، حـتى أن طائفة الصدوقيين، وهي طائفة كبـيرة في اليهـود لا تـؤمن بـاليوم الآخر.

صــمت قليلا، ثم قــال: أرأيت لــو أن رجلا جاءنــا من كــوكب من الكـواكب الـتي توجـد في مجـرة من المجـرات البعيـدة، وتمكنـا من خطابه، ماذا عسانا نسأله؟

هل نبحث عنده عن تواريخنـا وأنسـابنا وبنياننـا وأكلنـا وشـربنا، أم نبحث عما يرتبط بكوكبه وتفاصيل الحياة فيه؟

قلت: لا شك أننا سنبحث معه عن كوكبه.

قال: فهكذا الأمر مع الكلمات المقدسة.

قلت: ولكنها كلمات الله للبشر.

قال: وكلمـات اللـه للبشـر هي الـتي تجيبهم عن الأسـئلة الـتي لا تعرف عقولهم الإجابة عنها.. أما الأنساب.. فلا ضرر أن تجهلهـا.. لقـد قال فيها علماء المسلمين:(هي علم لا ينفع، وجهل لا يضر)

ما فائدة أن تحدث السكير المدمن بأنسـاب بـني آدم، وأنت تريـد أن تزرع فيه الإيمان الذي يجعلـه يـرمي زجاجـة الخمـر من يـده كمـا رماها المسلمون يوم أنزل تحريم الخمر؟

ابتسم وقال: اسمح لي.. أحيانا ـ عندما أ قـرأ الكتـاب المقـدس ـ أشعر أني في حانة، ولست أمام كلمات إله.

هل يمكن لكلمات الله أن تمتلئ بهذا التمجيد للخمر الـتي نعـرف جميعا مدى خطرها على العقل والصحة والنفس والمجتمع؟

1() ففي جميع أسفار التوراة الخمسة مثلا لا نجد نصا صريحاً عن الآخرة، وأقرب نص في الدلالة على يوم القيامة ما جاء في سفر التثنية:« أليس ذلك مكنوزاً عندي مختوماً عليـه في خزائني، لي النقمة والجزاء في وقت تزل أقدامهم » (التثنية 32/34 - 35)

وفوق هذا كله لا نجد الله يسـمي نفسـه، أو يـذكر أسـماءه الـتي تدل على صفاته، بل لايرد في الكتاب المقـدس اسـمه إلا نـادراً فقـد جاء في إرمياء:(فيعرفون أن اسمي: يهوه) (إرميـا 16/21)، وأول مرة ظهر فيها هـذا الاسـم التـوراتي في سـفر الخـروج (3/15) ثم ظهر في إرمياء المذكور، وما عدا ذلك فإنه يذكر باسم السيد الرب.

بينما نجد القرآن يمتلئ باسم الله، بل بأسماء الله التي تـدل على كمالاته..:{ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الـرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (22) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّـلَامُ الْمُـؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْـرِكُونَ (23) هُـوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَـا فِي السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (24}(الحشر)

مصادر العهد الجديد:

قلت: عرفت ما أصاب العهد القـديم من تحريفـات، ولـذلك فـإن الصبغة البشرية تبدو عليه واضحة للعيان.. ولكن العهد الجديـد.. تلـك البشـارات والرسـائل.. هـل تـرى فيهـا هي الأخـرى مـا يبعـدها عن مصدرها الرباني؟

ضحك، وقال: ما الذي قاله بولس في رسالته الثانيـة إلي صـديقه تيموثاوس عندما طلب منه أن يأتي سريعا؟

قلت: لقد قال له:(بادر أن تأتي إلي سريعا، لأن ديمـاس، إذ أحب الحياة الحاضرة، تركني وذهب إلى مدينة تسالونيكي. أما كريسكيس، فقد ذهب إلى مقاطعة غلاطية، وتيطس إلى دلماطيـة ولم يبـق معي إلا لوقا وحده خذ مرقس وأحضره معك، فهو ينفعني في الخدمة. أما تيخيكس، فقد أرسلته إلى مدينة أفسس. وعندما تجيء، أحضر معـك ردائي الذي تركته عند كـاربس في تـرواس، وكـذلك كتـبي، وبخاصـة الرقوق المخطوطة)(تيموثاوس: 4: 9)

قال: فهل ترى هذا كلاما مقدسا قاله إله؟.. وهل ترى في ما قاله

لصديقه تيطس:(حالما أرسـل إليـك أرتمـاس أو تيخيكس، اجتهـد أن تأتيني إلى مدينة نيكوبوليس، لأني قررت أن أشـتي هنـاك)(تيطس: 3: 12) كلاما مقدسا لإله؟

وهل تـرى في قولـه في رسـالته إلى أهـل روميـة (16:ـ 21): (يسلم عليكم تيموثاوس معاوني، ولوكيوس وياسون وسوسـيباترس أقربائي. وأنا، ترتيـوس الـذي أخـط هـذه الرسـالة، أسـلم عليكم في الرب.يسلم عليكم غايوس، المضيف لي وللكنيسة كلها. يسلم عليكم أراستس، أمين صندوق المدينة، والأخ كوارتس) كلاما مقدسا لإله؟

وهل ترى ما جاء في رسـالته الثانيـة إلى تيموثـاوس:(سـلم على برسـكا وأكيلا، وعائلـة أونيسـيفورس. أراسـتس مـازال في مدينـة كورنثوس. أما تروفيموس، فقد تركته في ميليتس مريضـا. اجتهـد أن تجيء إلي قبـل حلـول الشـتاء.يسـلم عليـك إيوبـولس، وبـوديس، ولينوس، وكلوديا، والإخوة جميعا) (تيموثاوس: 4: 19) كلاما لإله؟

أهذا هو الكلام المقدس الذي يتصف بالربانية؟

قلت: أنت تنتقي من الكتاب المقدس ما ترمي بـه جميـع الكتـاب المقدس..

الكتاب المقدس معان كثيرة جليلة.. نعم.. قد يتخللها مـا نتصـوره أنه ليس منهـا.. ولكنهـا في جملتهـا كلمـات مقدسـة تحـوي الحقـائق الأبدية.

قال: سـأتعامل معـك بمثـل مـا تعـاملتم بـه مـع القـرآن.. ألسـتم تعتبرون التشابه الذي بين القصص القرآني وقصص الكتاب المقـدس وحده كافيا لاعتبار القرآن نسخة مشوهة عن الكتاب المقدس؟

صمت، فقال: فاقبلوا أن نتعامل مع الكتاب المقدس بمثـل هـذا.. ولكن لا في القصص وحدها، فمن السـهل على المـرء أن يخـترع أي قصة .. ولكن في قضايا الدين الأساسية.. في العقائد التي يتميز بهـا الدين عن غيره.

المسـيحية تعتمـد على المسـيح بالدرجـة الأولى.. فسـيرته هي الدين.. والدين هو سيرته.. بل إنها تجعله إلها، أو أقنوما من إله..

فإذا أثبت لك أن النصوص التي تعتمد عليها المسـيحية في إثبـات هذه العقائـد توجـد في كتب مقدسـة سـابقة عليهـا.. بـل في ديانـات سـابقة عليهـا.. هـل سـتعامل الكتـاب المقـدس بمثـل مـا تعامـل بـه القرآن.. أم ستعود إلى منطق الانحياز والكيل بالمكاييل المختلفة كما يفعل قومي وقومك؟

قلت: أهناك مصادر ترى أن قومنا استقوا منها عقائدنا غير ما في الكتاب المقدس؟

قال: كثيرون هم من قالوا بمثل ما قال قومنا، واعتقدوا ما اعتقـد قومنا[1]، ونحن لا نلتفت إليهم، لأننا نلتفت بكل أبصـارنا لتشـويه دين محمد وقرآن محمد.

وإذا سمحت لي.. فسأعرض لك مقارنة بين ما يعتقد المسيحيون في المسيح وبين بعض الديانات الوثنية التي كانت سائدة في العصور السوالف لترى مدى التقارب بين الديانتين.

أنتم تجرون كثيرا مثل هذه المقارنات وتبنون عليها نتـائج كثـيرة.. ولذلك سأنتهج هذا المنهج.. وأترك لك الحريـة في أن تبـني عليهـا مـا تشاء.

هل تعرف ديانة مثرا الفارسية؟

---

(1) ألفت كتب مهمة للدلالة على هذا لعل أهمها كتاب: Incarnation in Hinduism and Christianity: The myth of the God Man.أي « التجسد في الهندوسية والمسيحية: أسطورة الإله ـ الإنسان » لمؤلف وباحث أمريكي معاصر، وأمين مكتبة إلهيات في نيوجرسـي، يـدعى الأستاذ: دانييل إي. باسوك Daniel E. Bassuk وقد ترجمه إلى العربية وقـدّم له وعـلّق عليه: سـعـد رسـتم. و يتضمن الكتـاب عرضـاً مقارنـاً لعقيـدة التجسـد ــ أي الاعتقـاد بظهـور اللـه بشكل إنسان على الأرض ـ في الديانة الهندوسية والديانة النصرانية.

ومؤلـف الكتـاب من جملـة المحققين الغربـيين المعاصـرين الـذين ذهبـوا إلى أن عقيـدة التجسد في المسيحية عقيدة خرافيـة وفكـرة وثنيـة دخيلـة نفـذت إلى المسـيحية من وثنيـة اليونان و الرومان، الأمتان اللتان كان لهما الدور الأساسي في انتشار المسيحية.

قلت: أجـل.. هي ديانـة فارسـية ازدهـرت في فـارس في القـرن السـادس قبـل الميلاد، ثم نـزحت إلى رومـا، وصـعدت فى أوروبـا فوصلت مدنا شمالية في إنجلترا.

قال: هذه الديانة تجتمع مـع مـا تقررونـه من عقائـد في كثـير من النواحي، فهم يعتقدون في مثرا نفس ما تعقتدون في المسيح:

هم يعتبرونه وسيطا بين الله والبشر، كما تعتقدون في المسـيح.. وهم يعتقدون أنه ولد في كهـف كمـا أنكم تعتقـدون أن المسـيح ولـد في مزود البقر.. وهم يعتقدون أنه ولـد فى الخـامس والعشـرين من ديسمبر، وهو نفس اعتقادكم.. وهم يعتقدون أن له إثنا عشر حواريـا، كما تعتقدون.. وهم يعتقـدون أنـه مـات ليخلص البشـر من خطايـاهم كمـا تعتقـدون.. وهم يعتقـدون أنـه دفن وعـاد للحيـاة بعـد دفنـه كمـا تعقتـدون.. وهم يعتقـدون أنـه صـعد إلى السـماء أمـام تلاميـذه كمـا تعتقدون.. وهم يعتقدون أنه كان يدعى منقذا ومخلصـا، ومن أوصـافه أنـه كـان كالحمـل الوديـع.. وهي نفس اعتقـاداتكم وأقـوالكم.. وهم يعتقدون أن له أتباعا يعمدون باسمه، ويقيمون العشـاء المقـدس في ذكراه.

قلت: فـأنت تـرى من خلال هـذه المقارنـة أن المسـيحية نسـخة طبق الأصل من هذه الديانة؟

قال: أنا لا أقول ذلـك.. ولـو أن البـاحثين متفقـون على أن عبـادة مـثرا انتقلت إلى الدولـة الرومانيـة، وامـتزجت بعبـادة إيـزوريس المصرية، ومنهما جاءت عبادة ديمتر، وهى فى جملتها لا تعدو الديانـة المصرية الـتى حـوربت وقـد صـوروها فى صـورة أم تختضـن طفلهـا الرضيع دلالة على الحنان والبراءة..

والصـورة هي هي صـورة إيـزيس وحـوريس، ثم هى هى أيضـا صورة مريم العذراء التى تختضن المسيح.

ومع ذلك.. فلا أقول بأن هذه الديانة هي نفسها التي تسـمت بعـد ذلك بالمسيحية.

قلت: لم؟

قال: لأن ديانات أخـرى كـان لهـا نفس التطـابق مـع المسـيحية.. كانت هناك ديانة بعل، وهي ديانة بابليـة انتقلت مـع موجـة الفتوحـات البابلية إلى شمال الهلال الخصيب، وظل الكنعانيون يـدينون بهـا وفي كثير من الأحيان، وكان اليهـود يـتركون ديـانتهم ويعبـدون بعلا، ونهايـة هذا الإله تكاد تكون هي الصورة التى صورت بها نهاية المسيح:

فكل منهما أسر قبل محاكمتـه.. وكـل منهمـا حـوكم علنـا.. وكـل منهما اعتدي عليه بعـد محاكمتـه.. وكـل منهمـا نفـذ الحكم عليـه في أعلى الجبل.. وكل منهما كان معه مـذنب آخـر محكـوم عليـه.. وكـل منهما لما أراد الحاكم العفو عنه طالب الشـعب بإعدامـه هـو والعفـو عن المجرم.. وكـل منهمـا بعـد تنفيـذ الحكم عليـه ظهـر الظلام وعم اضطراب الناس، وعلا الرعد وزلزلت الأرض.. وكل منهما أقيم حرس على قبره.. وكل منهما قام من القبر وصعد إلى السماء.

قلت: هذه محض مصادفات.. ولا نستطيع أن نبني عليها أحكاما.

قال: لا بأس.. سـأورد لـك مقارنـة بين مـا تعقتدونـه في المسـيح وبين ما قاله الهنود عن إلههم كرشنا.. ولن أكتفي بالمقارنة المجردة، بل سأنقل لك النصوص لترى مدى تطابقهـا.. فـأرجو أن تقـرأ لي مـا أطلبـه منـك من نصـوص من الكتـاب المقـدس لأعرضـها على كتب الهنود.

أعجبني ما طرحه من اقتراح، فأشرت له بالقبول، قـال: ألم يــرد في الكتاب المقدس:(ولد يسوع من العذراء مريم التي اختارها اللــه والدة لابنه بسبب طهارتها وعفتها)؟

قلت: بلى..

قال: ومثل هذا ورد في كتبهم، فقـد جـاء فيهـا:(ولـد كرشـنة من

العذراء ديفاكي التي اختاراها الله والدة لابنه كذا بسب طهارتها)[1]

قلت: ولكن هذا النص وحده لا يكفي.

قال: اصبر علي ... النصوص المتطابقـة كثـيرة جـدا.. ألم يـرد في الكتاب المقـدس:(فـدخل إليهـا الملاك وقـال سـلام لـك أيهـا المنعم عليها الرب معك)(لوقا:3/28 و29)؟

قلت: بلى..

قال: وقد ورد في كتب الهنود:(قد مجد الملائكـة ديفـاكي والـدة كرشنة ابن الله وقالوا: يحق للكون أن يفاخر بابن هذه الطاهرة)[2]

ألم يرد في الكتـاب المقـدس:(لمـا ولـد يسـوع ظهـر نجمـه في المشرق وبواسطة ظهور نجمة عرف الناس محل ولادتـه)(مـتى:2/ 3)؟

قلت: بلى..

قال: فقد ورد في كتب الهنـود:(عـرف النـاس ولادة كرشـنة من نجمه الذي ظهر في السماء)[3]

ألم يـرد في الكتـاب المقـدس:(لمـا ولـد يسـوع المسـيح رتـل الملائكة فرحا وسوروا وظهر من السحاب أنغـام مطربـة) (لوقـا:2/ 13)؟

قلت: بلى..

قـال: فقـد ورد مثلهـا في كتب الهنـود، لقـد جـاء فيهـا:(لمـا ولـد

1() انظر: خرافات التوراة والإنجيل ومـا يماثلهـا من الـديانات الأخـرى ,للعلامـة دوان .278

2() كتاب تاريخ الهند:2/ 329.

3() كتاب تاريخ الهند:2/ 317و236.

كرشنة سبحت الأرض وأنارها القمـر بنـوره وتـرنمت الأرواح وهـامت ملائكة السماء فرحا وطربا ورتل السحاب بأنغام مطربة)[1]

ألم يـرد في الكتـاب المقـدس:(كـان يسـوع المسـيح من سـلالة ملوكانية ويدعونه ملك اليهود ولكنه ولد في حالة الذل والفقر بغار)؟

قلت: بلى..

قال: فقد ورد مثلها في كتب الهنود، لقد جاء فيهـا:(كـان كرشـنة من سلالة ملوكانية ولكنه ولد في غار بحال الذل والفقر)[2]

ألم يرد في الكتاب المقدس:(وعرف الرعاة يسوع وسجدوا له) (لوقا:2/ 8 -10)؟

قلت: بلى..

قال: فقد ورد مثلهـا في كتب الهنـود، لقـد جـاء فيهـا:(.. وعـرفت البقرة أن كرشنة إله وسجدت له)[3]

ألم يرد في الكتاب المقدس:(وآمن الناس بيسوع المسيح وقالوا بلاهوته وأعطوه هدايا من طيب ومر)(متى:2/2)؟

قلت: بلى..

قال: فقد ورد مثلها في كتب الهنود، لقد جاء فيها:(.. وآمن الناس بكرشنة واعترفوا بلاهوته وقدموا له هدايا من صندل وطيب)[4]

ألم يـرد في الكتـاب المقـدس:(ولمـا ولـد يسـوع في بيت لحم اليهودية في أيام هيرودس الملك إذ المجوس من المشرق قد جـاءوا

---

(1) كتاب فشنوا بورانا:502، وهو كتاب الهنود المقدس.

(2) خرافات التوراة والإنجيل وما يماثلها من الديانات الأخرى ,للعلامة دوان 379.

(3) المرجع نفسه: 279.

(4) الديانات الشرقية:500, وكتاب الديانات القديمة:2/353.

إلى أورشليم قائلين أين هو المولود ملك اليهود؟)(متى:2/1و2)؟

قلت: بلى..

قال: فقد ورد مثلها في كتب الهنود، لقد جـاء فيهـا:(وسـمع نـبي الهنود نـارد بمولـد الطفـل الإلهي كرشـنة فـذهب وزراه في كوكـول وفحص النجوم فتبين له من فحصها أنه مولود إلهي يعبد)[1]

ألم يرد في الكتاب المقدس:(ولما ولـد يسـوع كـان خطيب أمـه غائبا عن البيت وأتى كي يدفع ما عليه من الخراج للملك)(لوقـا:2/1-17)؟

قلت: بلى..

قـال: فقـد ورد مثلهـا في كتب الهنـود، لقـد جـاء فيهـا:(لمـا ولـد كرشنة كان ناندا خطيب أمـه ديفـاكي غائبـا عن الـبيت حيث أتى إلى المدينة كي يدفع ما عليه من الخراج للملك)[2]

ألم يرد في الكتاب المقدس:(وأنذر يوسف النجـار خطيب مـريم يسوع بحلم كي يأخذ الصـبي وأمـه ويفـر بهمـا إلى مصـر لأن الملـك طالب إهلاكه)(متى:2/13)؟

قلت: بلى..

قال: فقد ورد مثلها في كتب الهنود، لقد جاء فيهـا:(وسـمع نانـدا خطيب ديفاكي والـدة كرشـنه نـداء من السـماء يقـول لـه: قم وخـذ الصبي وأمه فهربهما إلى كاكول واقطع نهر جمنـة لأن الملـك طـالب إهلاكه)[3]

ألم يرد في الكتاب المقـدس:(وسـمع حـاكم البلاد بـولادة يسـوع

---

(1) تاريخ الهند:2/ 317.

(2) كتاب فشنو بورانا, الفصل الثاني,من الكتاب الخامس.

(3) كتاب فشنو بورانا, الفصل الثالث.

الطفل الإلهي وطلب قتله، وكي يتوصل إلى أمنيته أمر بقتل كافة الأولاد الذكور الذين ولدوا في الليلة التي ولد فيها يسوع المسيح) (متى:2)

قلت: بلى..

قال: فقد ورد مثلها في كتب الهنود، لقد جاء فيها:(وسمع حاكم البلاد بولادة كرشنة الطفل الإلهي وطلب قتل الولد، وكي يتوصل إلى أمنيته أمر بقتل كافة الأولاد الذكور الذين ولدوا في الليلة التي ولد فيها كرشنة)[1]

ألم يرد في تاريخ المسيح:(واسم المدينة التي هاجر إليها يسوع المسيح في مصر لما ترك اليهودية هي ، المطرية، ويقال أنه عمل فيها آيات وقوات عديدة)[2]؟

قلت: بلى..

قال: فقد ورد مثلها في كتب الهنود، لقد جاء فيها:(واسم المدينة التي ولد فيها كرشنة ، مطرا، وفيها عمل الآيات العجيبة)[3]

ألم يرد في الكتاب المقدس:(وفيما كان يسوع في بيت عتيا في بيت سمعان الأبرص تقدمت إليه امرأة معها قارورة طيب كثير الثمن، فسكبته على رأسه وهو متكئ)(متى: 26/6و7)؟

قلت: بلى..

قال: فقد ورد مثلها في كتب الهنود، لقد جاء فيها:(وأتى إلى كرشنة بامرأة فقيرة مقعدة، ومعها إناء فيه طيب وزيت وصندل وزعفران وذباج وغير ذلك من أنواع الطيب، فدهنت منه جبين كرشنة

---

(1) دوان:280.

(2) المقدمة على انجيل الطفولية , تأليف هيجين, وكذلك الرحلات المصرية لسفاري: 136.

(3) تاريخ الهند: 2/318, والتنقيبات الآسيوية: 1/ 259.

بعلامة خصوصية وسكبت الباقي على رأسه)[1]

أليس من مرتكـزات المسـيحية أن المسـيح صـلب ومـات على صليب؟

قلت: بلى..

قال: فالهنود يعتقدون هذا.. فهم يقولون أن كرشنة صلب، ومـات على الصليب[2].

ألم يرد في الكتاب المقـدس:(لمـا مـات يسـوع حـدثت مصـائب متنوعة، وانشق حجاب الهيكل من فوق إلى تحت وأظلمت الشـمس من الساعة السادسة إلى التاسعة وفتحت القبـور وقـام كثـيرون من القديسين وخرجوا من قبورهم)(متى:22)؟

قلت: بلى..

قال: فقد ورد مثلهـا في كتب الهنـود، لقـد جـاء فيهـا:(لمـا مـات كرشـنة حـدثت مصـائب وعلامـات شـر عظيم، وأحيـط بـالقمر هالـة سوداء، وأظلمت الشمس في وسط النهـار، وأمطـرت السـماء نـارا ورمادا، وتأججت نار حاميـة، وصـار الشـياطين يفسـدون في الأرض، وشـاهد النـاس ألوفـا من الأرواح في جـو السـماء يتحـاربون صـباحا ومساء، وكان ظهورها في كل مكان)[3]

قال هذا، ثم صمت، أما أنا فقد بهت في هذا التطابق العجيب بين ديانة الهنود القدامى، وبين ما نقوله نحن عن المسيح.

التفت إلي، وقد رأى صمتي، فقال بعبارة ساخرة: ألا تقولون بـأن محمدا لم يأت بجديد، فأي جديد جاءت به المسيحية بعد هذا؟

1() تاريخ الهند: 2/320.

2() ذكره دوان في كتابه وأيضا كوينيو في كتاب الديانات القديمة.

3() كتاب ترقي التصورات الدينية: 1/71.

أخبرني لو أن طالبا قدم بحثه لينال أي درجة.. ثم بعد أن قدم بحثه ونال درجته وجد أنه سبق لنفس البحث، ولو ببعض وجوه المطابقات.. هل تتركون له درجته؟

قلت: لا..

قال: فكيف تتركون لمعتقداتكم التي هي نسخ طبق الأصل من هذه المعتقدات هذه المصداقية؟

سكت قليلا، ثم قال: لاشك أنك تحفظ نص قانون الإيمان المسيحي.

قلت: أجل.. وكيف لا أحفظه؟

قال: اقرأ علي.

رحت أقرأ عليه.. نؤمن بإله واحد،وأب ضابط الكل، خالق السماوات والأرض، كل ما يرى ولا يرى، وبرب واحد، يسوع المسيح ابن الله الوحيد، المولود من الأب قبل كل الدهور، نور من نور إله، حق من إله حق، مولود غير مخلوق، مساوٍ للأب في الجوهر الذي به كان كل شيء، الذي من أصلنا نحن البشر، ومن أجل خلاص نفوسنا نزل من السماء، وتجسد من الروح القدس، ومن مريم العذراء، وتأنّس (صار إنساناً) وصلب في عهد (بيلاطس) النبطي، وتألم، وقبر، وقام من بين الأموات في اليوم الثالث كما في الكتب، وصعد إلى السماء وجلس عن يمين الأب، وأيضاً أتى في مجده ليدين الأحياء والأموات، الذي ليس لملكه انقضاء)

ابتسم، وقال: حتى هذا القانون له مصدر خارجي من عقيدة الهنود القدماء في الشمس، يقول (مافير) في كتابه المطبوع عام 1895م والذي ترجمه إلى العربية (نخلة شفوات) عام 1913م: (لقد ذكر في الكتب الهندية القديمة التي ترجمت إلى الإنكليزية شارحة عقيدة الهنود القدماء ما نصه:(نؤمن بسافستري(أي الشمس) إله واحد ضابط الكل، خالق السماوات والأرض، وبابنه

الوحيد آتي (أي النار) نور من نور، مولود غير مخلوق، تجسد من فايو (أي الروح) في بطن مايا (أي العذراء)، ونـؤمن(بفـايو)الـروح الحي، المنبثق من الأب والابن الذي هو مع الأب والابن يسجد له ويمجد)

فالثالوث الهنـدي القـديم هـو: سافسـتري الـتي تمثـل الشـمس، والـتي تمثـل للمسـيحيين الآب السـماوي، وآتي: أي الابن، وهـو النـار المنبثقة من الشمس، وهو المسيح بالنسبة للمسيحيين، وفـايو، وهـو نفخة الهواء أو الروح القدس عند المسيحيين.

ليس ذلك فقط.. بل إن مقارنـة بسـيطة بين مـا يقولـه البوذيـون تؤكد أنه لا ينبغي لأي مسـيحي في العـالم أن يبحث مـع مسـلم هـذه النقطة .. لأنه في بحثه معه عنها يكون كمن يبحث عن حتفه بظلفه.

***

ما انتهينا من حديثنا إلى هـذا الموضـع حـتى دخـل علينـا ولـد لـه، صغير السن، ولكنه عظيم الأدب، فحيانا، صـافحني، وصـافح أبـاه، ثم استأذنني في الحديث مع والده، فأذنت له مبتسما، فقال لوالده: لقـد أكملت حفظ ما كتبته لي في الصـباح.. فهـل أعرضـه عليـك الآن، أم أنتظر إلى المساء؟

قال والده: إن أذن لك عمك، اعرضه علي الآن.

التفت الولد إلي، فقلت: اعرض على والدك ما تشـاء، فيشـرفني أن أرى مدى نجابتك.

لم أكن أتصور أن ما سيعرضه ولده هو القرآن..

أخذ ولده يرتل القرآن ترتيلا خاشـعا تتفطـر لـه القلـوب.. بعـد أن انتهى دعا له والـده، وقـال: اذهب لتسـتريح الآن، وسـنبدأ حفـظ ربـع جديد غدا إن شاء الله بعد صلاة الفجر.

دهشت لقوله، فصحت من غير أن أشعر: هل أسلمت؟

قال: ما كان لعقلي أن يظل على جحوده.

قلت: لم نسمع بذلك..

قال: الله سمع بذلك..

لم أدر ما أقول له، هل أبارك له إسلامه، أم ألومه عليه.

قلت: إذن لن تترجم لنا الكتاب المقدس بالصفة التي نشتهي.

قال: عساني لو أنبأتك عن سر إسلامي لم تصدق.

قلت: بلى.. أصدقك.. فمثلك لا يكذب.

قال: لقد كانت محاولاتي لترجمة الكتاب المقدس ترجمة تتصف بما ذكرته هي التي جعلتني أهتدي إلى القرآن الكريم كلام الله.

قلت: عجيب هذا.. كيف حصل ذلك؟

قال: قبل عشر سنوات خطرت على بالي الفكرة التي خطرت على بالكم.. فرحت أقرأ القرآن، وأتأمل أسرار التعبير فيه محاولا اقتناص أصولها لتطبيقها على الكتاب المقدس.

قلت: هذا ما كنت أود أن أقوله لك.

قال: لكني ما دخلت بحر القرآن حتى صرت كالسمك الذي يختنق إذا أخرج منه.

لم أستطع أن أخرج من ذلك الجمال، وتلك العظمة التي شربتها من معين القرآن العذب.

قلت: ومحاولتك ترجمة الكتاب المقدس؟

قال: حاولت.. بل بدأت.. لكني فشلت.

كلما ترجمت إصحاحا.. وملأته بكل ما قدرت عليه من محسنات التعبير، كلما كرت المعاني الوضيعة التي تمتلئ بها كثير من الأعداد

والإصحاحات على ما أرهقت نفسي فيه لتمحوه..

ظللت أكتب وأمحو.. أسجل وأقطع.. إلى أن علمت أن محاولاتي تلك تشبه محاولة عطار أتي بعجوز شمطاء سوداء ليحول منها شـابة تنافس الجميلات.

قلت: فماذا فعلت؟

قال: ما يفعل العاقـل.. أتـرى لـو خـيرت بين تلـك العجـوز.. وبين جميلة الجميلات، أترغب في العجوز!؟

التفت إلي، وقد رآني محتـارا، فقـال: لا تتعجب.. كثـير هم مثلي.. أنا لست سوى واحد منهم.. كنت مخلصا للكتـاب المقـدس.. ولا أزال مخلصا لكلمات الله المقدسة..

ليس كل ما في كتبنا مما قدر الكذبة على تحريفـه.. هنـاك أشـياء كثيرة لا تزال صحيحة.. يمكنك أن تعبر منها لتصل إلى القرآن..

لقد ذكر القرآن هذا البصـيص من النـور الـذي اهتـدى بـه أحبارنـا للقرآن وللإسلام، فقال:{ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُـودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَـارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانـاً وَأَنَّهُمْ لا يَسْـتَكْبِرُونَ (82) وَإِذَا سَـمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنْ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنْ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّـاهِدِينَ (83) وَمَـا لَنَـا لا نُـؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَـا جَاءَنَـا مِنْ الْحَـقِّ وَنَطْمَـعُ أَنْ يُـدْخِلَنَا رَبُّنَـا مَـعَ الْقَـوْمِ الصَّـالِحِينَ (84)} (المائدة)

قلت: فهل سأرجع إلي أخي خائبا؟

قال: لا.. لن ترجع خائبا.. سترجع بحيرة جديـدة.. وببصـيص جديـد من النور.. ستهتدي به بعد ذلك إلى شمس محمد.. هذا ما حصـل لي أنا.. لقد ظللت أجمع أنوار محمد إلى أن وصلت إلى شمسه.

خرجت، فحياني الحراس الذين قـابلوني تلـك المقابلـة، فـانتحيت

بأحدهم جانبا، وقلت: لم نصبكم هذا الرجل حراسا عليه؟

قال: هو لم ينصـبنا.. نحن الـذين نصـبنا أنفسـنا.. لقـد رأينـا اثـنين يهمان بقتله.

قلت: ولماذا؟

قال: أما أحدهما، فيزعم أنه أهان كتابـه، وأمـا الآخـر، فـيزعم أنـه أهان تفاسير كتابه.

عندما رجعت إلى غرفتي بتلك الحيرة، وبذلك النـور، مـددت يـدي إلى محفظـتي لأسـتخرج بعض مـا أحتاجـه منهـا، فامتـدت يـدي إلى الورقة التي سلمها لي صاحبك، فعدت أقرأ فيها..

لقــد أيقنت حينهــا أن هــذا الســور الثــاني من أســوار الكلمــات المقدســة.. ســور الربانيــة.. لم يتحقــق بــه أي كتــاب في الــدنيا غــير القرآن الكريم.

ثالثا ـ الحق

في اليــوم الثــالث.. وصــلني ظــرف محــترم من بعض أهــل الإسكندرية يريد أن يقابلني فيه.. كان الظرف رائعا.. وكـان مختصـرا جدا يدل على مدى الجد الذي يتحلى به صاحبه.. وكان ـ فـوق ذلـك ـ يدل على كون صاحبه مسيحيا ملتزمـا، فقـد كـان أسـلوب كتابتـه ينم عن علاقة وثيقة للكاتب بالكتاب المقدس.

لست أدري كيف رضيت بمقابلتـه.. مـع أني لم أكن أنـوي مقابلـة أحد في ذلـك اليـوم، بسـبب مـا امتلأت بـه في اليـوم السـابقين من الإحراج الذي أوقعني فيه الكتاب المقدس.

دخــل علي المكتب.. وكــان في غايــة التهــذيب والأدب، فــألقى التحية، وقال بعدها مباشرة من غير مقـدمات: أعرفـك بنفســي.. أنـا يعقوب سمعان.. وقد جئتـك لغـرض يرتبـط بالكتـاب المقـدس، فـإن أذنت لي أن أطرحه فعلت.

قلت: لا بأس.. أنا لم أنزل إلى بلادكم إلا لأجل الكتاب المقــدس.. فاطرح ما شئت.. فلن تجد مني إلا الآذان الصاغية.

نظر إلي نظرة كلهـا جـد، وقـال: لقـد درسـت الكتـاب المقـدس دراسة فاحصة من حيث محتوياته.. ومن حيث ما يمكن أن يؤثر تربية أو يفيد علما.

قلت: بورك لك هذا الاهتمام.

قال: لم آتك لأجل هذا.. وإنما جئتك لأجل غرض آخر.

قلت: تحدث بلا حرج.

اللغو:

أخرج الكتاب المقدس من محفظته، وأخرج معه كراسة صـغيرة،

وقال: أنا رجل جاد بطبعي.. لا أحب الكلام الكثير الذي لا تكون له أي فائدة.. وقد رأيت الكتاب المقدس ممتلئا كلاما كثيرا لا أرى أن هنــاك من يحتاج إليه في جميع هذه الدنيا[1].. بل رأيت أنــه نــوع من الثقــل يحول بين هذا الخلق وفوائد الكتـاب المقـدس الـتي جـاء من أجلهـا.. ورأيت فوق ذلك رجال ديننا منشـغلين بفـك الألغـاز الـتي لا تفـك عن الحقائق التي تصرخ كغريق لا يجد له منجدا.

قلت: فما فعلت؟.. ومـا هـذا الكـراس الـذي وضـعته بجـانبي مـع الكتاب المقدس؟

قال: هذا الكراس هو مشروعي لاختصار الكتاب المقدس.. فبـدل أن تكلفوا أنفسكم بطباعة هذا الكتاب الضـخم، اكتفـوا بطباعـة هـذه الكراسة، أو مثلها.. بحيث يسـتفيد منهـا كـل مسـيحي.. بـل يمكن أن يحفظها بسهولة.

قلت: أتقصد أن الكتاب المقدس جميعه في هذه الكراسة؟

قال: أجل.. لقد حذفت من الكتاب المقدس كل ما لا يستفيد منـه قارئه.. أنا لي خبرة طويلة في هذا المجال.. بل لي كتب كثــيرة كلهــا مختصرات للكتب المطولة.

قلت: طرحك جميل.. ولكن يحتاج إلى بعض المناقشة.. اذكــر لي ـ أولا ـ سر لجوئك إلى هذا السبيل للتعامل مع الكتاب المقدس.

قال: بصراحة.. أنا لي علاقة بالقرآن.. كتاب المسـلمين.. بطبيعـة البلد الذي أسكن فيـه.. بـل أنـا أحفـظ القـرآن.. وقـد بهـرت بجمالـه واختصاره.. تصور أنه يلخص كل عقائد المسلمين في الله في سورة واحدة.. يسمونها ثلث القرآن.. سأقرؤها عليك: { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَـدٌ (1) اللَّهُ الصَّــمَدُ (2) لَمْ يَلِــدْ وَلَمْ يُولَــدْ (3) وَلَمْ يَكُنْ لَــهُ كُفُــواً أَحَــدٌ } (الإخلاص: 4)

---

[1] () يعبر بالحق أحيانا كثيرة على الجد والمعاني الصحيحة وعلى المفيد النافع، وهو ما نريده في هذا الفصل .. أما المعنى الثـاني من معانيـه، فقـد أفردنـاه بفصـل آخـر هـو فصـل (الحقيقة)

هذه السورة القصـيرة ذوات الآيـات القصـيرة والكلمـات القليلـة تحوي كل حقائق التوحيد الذي يعتقده المسـلمون.. ليسـت هنـاك أي كلمة زائدة، أو في غير محلها.

مثل ذلك آية أخرى تصف الله، فتقول:{ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَـهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ}(البقرة:163)

ومثل ذلك آية أخرى تقول:{ نَبِّئْ عِبَـادِي أَنِّي أَنَـا الْغَفُـورُ الـرَّحِيمُ} (الحجر:49)، تليها آية أخرى خلفها تكمل معناها تقـول:{ وَأَنَّ عَـذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ} (الحجر:50)

والقرآن يعلم المسلمين كيـف يحـاورون أهـل الكتـاب من اليهـود والنصارى، فيقتصر على جملة تحتاج سفرا لتحليلها، واستنباط الفوائد منها.. إنها هذه الجملة الرائعة:{ وَلا تُجَادِلُوا أَهْـلَ الْكِتَـابِ إِلَّا بِـالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُـوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْـزِلَ إِلَيْنَـا وَأُنْـزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}(العنكبوت:46)

بل إن القرآن جميعـا تلخص أغراضـه ومعانيـه في سـورة واحـدة يكررها المسلمون في صلواتهم.. لا شك أنك تسمع بهـا.. هي سـورة الفاتحة.. وهم يسـمونها كـذلك (أم الكتـاب).. سـأقرؤها عليـك لـترى مدى جمالها.. وترى كثرة المعاني التي تحويها:{ بسـم اللـه الـرحمن الرحيم (1) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (3) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْـتَعِينُ (5) اهْـدِنَا الصِّـرَاطَ الْمُسْـتَقِيمَ (6) صِـرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْـرِ الْمَغْضُـوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّـالِّينَ (7)} (الفاتحة)

لقد اكتشفت أن الجمال والفائدة والمتعة في الاختصـار.. ألا تـرى الشجر المشذب الأغصان كيف يكسى بحلل الجمال.. وكيف بعد ذلك يعطينا لذيذ الثمار؟

لم أر الاختصار فقط في صنعة البشر.. بـل رأيتهـا قبـل ذلـك في صنعة الخالق.. فالخالق صنع كل شيء بمقدار محدد لا يتجاوزه.. لقـد ذكر القرآن هـذا.. اسـمح لي أن أذكـر القـرآن.. لأني أحفظـه.. ولأني

للأسف لم أجد في كتابنا المقدس ما يصلح أن يستشهد به.. لقد ذكـر القرآن هذا، فقال:{ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَـاهُ بِقَـدَرٍ}(القمـر:49).. ولخص القانون الذي وزعت به الأشياء في الكون، فقال:{ وَإِنْ مِنْ شَـيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ}(الحجر:21)

حتى اللغة التي نتكلمها.. حروفها قليلة محدودة.. ولكنها باجتماعها تجمع الأغراض الكثيرة.. ومثلها المـواد الأساسـية الـتي يتشـكل منهـا الكون.. هي قليلـة من حيث عناصـرها.. ولكنهـا كثـيرة جـدا من حيث محتوياتها.

لكل ذلك رأيت أنه ليس بالضرورة أن يكون كلامنا كثـيرا.. يكفينـا الكلام القليل الذي يستطيع العقل أن يركب منه معاني كثيرة نستفيد منها في حياتنا جميعا.

ألست ترى المعادلات الرياضية كيف تصاغ برموز قليلة مختصـرة مملوءة بالدقة؟.. إن ذلك هو ما حول الرياضيات أما للعلوم.

قلت: أتريـد أن نحـول صـياغة الكتـاب المقـدس إلى معـادلات رياضية؟

قال: لا أقصـد هـذا.. ولكـني أقصـد أن يحـول إلى مـا يشـبه هـذه المعـادلات من حيث تلخيص الحقـائق، والبعـد عن الشـوائب الكثـيرة التي قد تحول بيننا وبين رؤية الحقائق.

قلت: فلنبدأ بالأمر العملي.. ماذا فعلت؟

قـال: أولا.. رأيت في الكتـاب المقـدس كلامـا كثـيرا.. لا يمكن أن يفيد أي فائدة.. هو مجرد ثقل ينوء به ظهر الكتاب، وفي نفس الوقت يحول بين القراء وجمال هذا الكتاب ومعانيه السامية.

قلت: اضرب لي مثالا على ذلك.

قال: سأضرب لك أمثلة.. لـترى أي معـنى يمكن أن يحملـه مثـل هذا الكلام:

فتح الكتاب المقدس، ثم قال: اسمع لما يقول بولس في رسـالته الثانية إلي صديقه تيموثاوس:(بادر أن تأتي إلي سريعا، لأن ديمــاس، إذ أحب الحيـاة الحاضـرة، تركـني وذهب إلى مدينـة تسـالونيكي. أمـا كريسكيس، فقـد ذهب إلى مقاطعـة غلاطيـة، وتيطس إلى دلماطيـة ولم يبق معي إلا لوقا وحده خذ مرقس وأحضره معـك، فهـو ينفعـني في الخدمة. أما تيخيكس، فقـد أرسـلته إلى مدينـة أفسـس. وعنـدما تجيء، أحضـر معـك ردائي الـذي تركتـه عنـد كـاربس في تـرواس، وكذلك كتبي، وبخاصة الرقوق المخطوطة)(تيموثاوس: 4: 9)

أرجو أن توضح لي.. ما الفائـدة الـتي يمكن أن يجنيهـا قـارئ هـذا النص.. إن هـذا الكلام مجـرد رسـالة شخصـية محضـة تتعلـق بطلب بولس من صديقه الحضور سريعاً، وتتعلق بردائـه الشخصـي..فلـذلك ما ضرورة وجود مثل هذا الكلام في الكتاب المقدس!؟

قلب بعض الصفحات، ثم قـال: اسـمع مـا يقـول بـولس لصـديقه تيطس:(حالما أرسل إليك أرتماس أو تيخيكس، اجتهد أن تـأتيني إلى مدينة نيكوبوليس، لأني قررت أن أشـتي هناك)(تيطس: 3: 12)

مـا علاقـة هـذا بالمعرفـة أو التربيـة الـتي جـاء الكتـاب المقـدس لأجلهـا؟.. هـل تـرى ــ حضـرة الحـبر ــ أن في قـول بـولس لصـديقه (تيطس) أنه قرر أن يشتي في المكان الفلاني أي فائدة؟

قلب بعض الصفحات، ثم قال: اسمع ما يقول بولس في رســالته إلى أهــل روميــة (16:ــ 21):(يســلم عليكم تيموثــاوس معــاوني، ولوكيوس وياسون وسوسيباترس أقربائي. وأنا، ترتيوس الــذي أخــط هذه الرسالة، أسلم عليكم في الرب.يسلم عليكم غايوس، المضــيف لي وللكنيسـة كلهـا. يسـلم عليكم أراسـتس، أمين صـندوق المدينـة، والأخ كوارتس)

ما علاقة هذه التحيات وهذه الأسماء الكثـيرة بالمعـاني الـتي جـاء الكتاب المقدس من أجلها؟

صمت، فراح يقلب صفحات الكتاب المقدس، ثم قال: اسـمع مـا

جـاء في رسـالة بـولس الثانيـة إلى تيموثـاوس:(سـلم على برسـكا وأكيلا، وعائلة أونيسيفورس. أراستس مازال في مدينة كورنثوس. أما تروفيموس، فقد تركته في ميليتس مريضا. اجتهد أن تجيء إلي قبـل حلول الشـتاء.يسـلم عليـك إيوبـولس، وبـوديس، ولينـوس، وكلوديـا، والإخوة جميعا) (تيموثاوس: 4: 19)

إن هذا الكلام لا يحوي ـ فقط ـ لغوا كثـيرا لا نحتـاج إليـه، بـل هـو فوق ذلك يحوي أسماء كثيرة تجعل من الكتاب المقدس كتاب خاصة الخاصة.. أذكر أن بعضنا قـرأ الكتـاب المقـدس.. بـل قـرأ هـذا النص بالذات في مجمع من المجامع، فراح يحرف الأسماء واحدا واحدا مما ملأ الحضور ضحكا عليه، وربما على الكتاب المقدس..

لقـد قـرأت القـرآن كمـا ذكـرت لـك.. فلم أجـد فيـه إلا أسـماء محصـورة معـدودة ممـا تحـوج تعاليمـه تسـميتها.. فهـو يكتفي بـذكر المعنى والعبرة.. ولا يذكر الاسم إلا إذا اقتضى المقام ذلك.

اسـمع مـا يقـول القـرآن عن مـؤمن آل فرعـون الـذي دافـع عن موسى:{ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبـاً فَعَلَيْـهِ كَذِبُـهُ وَإِنْ يَـكُ صَـادِقاً يُصِـبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِـدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْـدِي مَنْ هُـوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ}(غافر:28)

أرأيت كيف اكتفى القرآن بموضع الحاجة سـماه رجلا.. بمـا تعنيـه الرجولة من شهامة ونبل وكرم خلق.. وسماه مؤمنا.. وذكر أنــه يكتم إيمانه.. ثم ذكر نص مرافعته.. ولم يذكر مع كل هذا اسمه ولا لقبه ولا نسبه ولا بلده ولا وظيفته.. ممـا نـرى الكتـاب المقـدس حريصـا على ذكره.. بل مبالغا في تفاصيل ذكره.

اسمع موضعا آخر يقول فيـه القـرآن:{ وَجَـاءَ مِنْ أَقْصَـى الْمَدِينَـةِ رَجُـلٌ يَسْـعَى قَـالَ يَـا قَـوْمِ اتَّبِعُـوا الْمُرْسَـلِينَ}(يّــس:20).. لم يسـم المدينة.. بل اكتفى بكون الرجل من أقصاها ليبين مـدى الجهـد الـذي بذله لينصر إخوانه المرسلين.

وفي آية أخرى ذكر لهذا.. ولكن الغرض فيها هو حماية مـؤمن من التعرض للقتل:{ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَـالَ يَـا مُوسَـى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِـحِينَ}(القصـص: 20)

لهذا رأيت استبدال كثير من أسماء الكتاب المقدس التي يصـعب علينا ـ معشر العامة ـ النطـق بها بلغتها الأصلية.. بمثـل مـا ورد في القرآن..

قلت: فهل تيسـر لـك أن تفعـل هـذا؟.. أرى أنـه من الصـعوبة أن تفعل هذا.

قـال: أجـل.. لـذلك اضـطررت إلى اسـتعمال المقص.. وحـذف الكثير.. واضطررت ـ كذلك ـ إلى استعمال بعض التعبيرات الخاصة.

سأذكر لك بعض الأمثلة عن القص..

لقد قصصت أكثر ما ورد في أخبار الأيام.. سأسوق لك هذا المثال من الإصحاح الأول من هذا السفر كاملا.. اسمع.

قلب بعض الصفحات، ثم راح يقرأ:(1 آدم شيث انـوش 2 قينـان مهللئيل يارد 3 اخنوخ متوشالح لامك 4 نوح سـام حـام يـافث 5 بنـو يافث جومر وماجوج وماداي وياوان وتوبال وماشك وتـيراس. 6 وبنـو جومر أشكناز وريفاث وتوجرمة. 7 وبنو ياوان اليشة وترشيشة وكتيم ودودانيم. 8 بنو حام كوش ومصرايم وفـوط وكنعـان. 9 وبنـو كـوش سبا وحويلة وسبتا ورعما وسبتكا. وبنو رعما شـبا وددان. 10 وكـوش ولد نمرود الذي ابتدأ يكون جبارا في الارض. 11 ومصرايم ولد لوديم وعناميم ولهـابيم ونفتـوحيم 12 وفتروسـيم وكسـلوحيم الـذين خـرج منهم فلشتيم وكفتوريم...)

وهكذا يمضي أكثر السفر بهـذا الأسـلوب الـذي قـد يسـتفيد منـه المؤرخ.. ولكن لن يستفيد منه أبدا أي طـالب للحـق أو الحقيقـة.. إن هذه التفاصيل الكثيرة تشغل عن المبادئ السامية والحكم المقدسة.

إن القرآن كتاب محمد لم يذكر أي شـيء.. لا عن نسـب محمـد.. ولا عن أبنـاء محمـد.. ولا عن قبيلـة محمـد.. بـل إنـه بالكـاد يسـمي اسمه..

وبمثـل ذلـك تعامـل مـع سـائر الأنبيـاء.. هـو لم يـذكر إلا نسـب المسيح.. نسبه إلى أمه للضرورة التي رآها تستدعي ذلك.. أما سـائر الأنبيـاء فإنـه يـذكر أسـماءهم غـير مخلوطـة بآبـائهم ولا أمهـاتهم ولا قبائلهم.

أما كتبنا المقدسة.. فتمتلئ بمثل هذه الأنساب التي لا أرى حاجـة إليها.. حتى المسيح، وأناجيله لم تسلم من هذا..

فبينما يبـدأ القـرآن بحمـد الله وتمجيـده وذكـر أسـمائه الحسـنى والـدعاء.. ويبـدأ في السـورة التاليـة مباشـرة بـذكر أصـناف النـاس ومواقفهم من الإيمان.. ليبدأ التفصيل المرتبط بكل ذلك نجـد أناجيلنـا تبدأ بسرد مفصل لنسب المسيح.

فتح الكتاب المقدس.. وقـال: اسـمع مـا ورد في أول سـورة من إنجيل متى.

راح يقـرأ:(كتـاب ميلاد يسـوع المسـيح ابن داود ابن ابـراهيم. 2 ابراهيم ولد اسحق. واسحق ولد يعقوب. ويعقوب ولد يهـوذا واخوتـه. 3 ويهـوذا ولـد فـارص وزارح من ثامـار. وفـارص ولـد حصـرون. وحصرون ولد ارام. 4 وارام ولد عميناداب. وعميناداب ولد نحشـون. ونحشون ولد سلمون. 5 وسلمون ولد بوعز من راحاب. وبـوعز ولـد عوبيد من راعوث. وعوبيد ولد يسى. 6 ويسى ولد داود الملك. وداود الملك ولد سليمان من التي لأوريا..)

وهكذا يستمر ذكر النسب الطويل، ومعه الأسماء الكثيرة.

قلت: ولكن القرآن ذكر كثـيرا من الأسـماء في موضـع واحـد ألم تقرأ ما ورد في سورة الأنعـام ــ مثلا ـ:{ وَتِلْـكَ حُجَّتُنَـا آتَيْنَاهَـا إِبْـرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَـاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (83) وَوَهَبْنَـا لَـهُ

إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (84) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنْ الصَّالِحِينَ (85) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (86) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ }(الأنعام: 83 ـ 87)

قال: فرق كبير بين النصين.. إن القرآن لا يذكر هنا إلا أسماء محترمة لأنبياء كرام سبق له أن ذكر فضائلهم.. يذكرهم في موكب واحد ليملأ القلوب بمحبتهم.

قلت: ومثل ذلك يفعل الكتاب المقدس.. إن كل اسم يمثل قصة من قصص الكتاب المقدس.

قال: وبماذا يذكر الاسم.. بماذا يذكر قول متى في إنجيله عند ذكر نسب المسيح:(وداود الملك ولد سليمان من التي لأوريا)(متى: 1/6).. ما فائدة ذكر زوجة أوريا هنا مع أنه لم يذكر زوجات السابقين.. أنت تعلم ذلك.. إن زوجة أوريا تمثل جريمة من أخطر الجرائم.. فهل ذكرها في النسب تكريم للمسيح أم إهانة له؟

أترى لو أنك ذكرت نسب رجل.. فرحت تنتقي من نسبه ما تهينه به.. ألا يعتبر ذلك إهانة منك؟

سكت، فقال: أكثر ما ورد من أسماء في ذلك النسب تمتلئ بالزناة والمنحرفين والمجرمين، فكيف توازن بينها وبين ما ورد في القرآن؟

حتى لو فرضنا صلاحهم، أفلم يكن كافيا أن يذكروا على سبيل الإجمال لا التفصيل.. انظر ماذا قال القرآن بعد أن عدد تلك الأسماء المحدودة:{ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ }(الأنعام: 87)

كان هذا كافيا.. ولا حاجة لكل تلك التفاصيل المملة.

سكت قليلا، ثم قال: لا بأس.. مع ذلك فأولئـك بشـر محـترمون.. وقد نحتاج إلى معرفـة أسـمائهم.. ولكن مـا الحاجـة إلى مـا ورد في سفر صموئيل.. اسمع..:(فبادرت أبيجال وأخذت مـائتي رغيـف خـبز وزقي خمــر، وخمســة خرفــان مهيئــة، وخمس كيلات من الفريــك ومائتي عنقود من الـزبيب، ومـائتي قـرص من الـتين، ووضـعتها على الحمير) (صموئيل الأول: 25/18)

لقد رأيت أنه لا فائدة من كل هذا الكلام الطويل.. فما فائدة هـذه الأعداد والأرقام التي لا حاجة لها.. إنها مجرد تطويـل يشـغل صـاحبها عن تأمل المعاني السامية التي يحويها الكتاب المقدس.

لقد قارنت بين الأعداد في القـرآن والكتـاب المقـدس.. فوجـدت الفـرق شاسـعا.. فـالقرآن لا يـذكر الأعـداد إلا للضـرورة القصـوى.. فلذلك لا تجد مثل هذه التفاصيل.. بـل القـرآن ينبـه إلى عـدم أهميـة الأعداد وتفاصيلها.. وأنه لا ينبغي الاشتغال بها عن الغايات السامية.

لقد ورد في القرآن عند ذكر أهل الكهف:{ سَيَقُولُونَ ثَلاثَـةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُـهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمـاً بِـالْغَيْبِ وَيَقُولُـونَ سَـبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِراً وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً} (الكهف: 22)

وقال عندما ذكـر مـدة لبثهم:{ وَلَبِثُـوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً (25) قُلْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَـهُ غَيْبُ السَّـمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا يُشْـرِكُ فِي حُكْمِـهِ أَحَـداً (26}(الكهف)

سكت قليلا، ثم قال: ليس الأمـر قاصـرا على هـذا.. ليس قاصـرا على جرائد الأسماء التي لا حاجة لهـا.. ولا على جرائـد الأعـداد.. لقـد طال الأمر أشياء لا تكاد تحتمل وهي الثقل بعينه.

اسـمع هـذا الوصـف الطويـل الثقيـل.. واصـبر علي، فليس هـو كلامي.. بل كلام الكتاب المقدس.. ولا شك أننا نتعبد بتلاوته.

فتح الكتاب المقدس، وراح يقـرأ:(1 وكـان في سـنة الاربـع مئـة والثمـانين لخـروج بـني اسـرائيل من ارض مصـر في السـنة الرابعـة لملك سليمان على اسرائيل في شهر زيو وهو الشهر الثاني انـه بـنى البيت للرب. 2 والبيت الذي بناه الملك سليمان للـرب طولـه سـتون ذراعا وعرضه عشرون ذراعا وسمكه ثلاثون ذراعا. 3 والـرواق قـدام هيكل البيت طوله عشرون ذراعا حسب عرض البيت وعرضـه عشـر اذرع قدام البيت. 4 وعمل للبيت كوى مسقوفة مشبّكة. 5 وبنى مـع حائط البيت طباقا حواليه مع حيطان البيت حـول الهيكـل والمحـراب وعمل غرفـات في مسـتديرها. 6 فالطبقـة السـفلى عرضـها خمس اذرع والوسطى عرضـها سـت اذرع والثالثـة عرضـها سـبع اذرع لانـه جعل للبيت حواليه من خارج اخصـاما لئلا تتمكن الجـوائز في حيطـان البيت. 7 والبيت في بنائه بني بحجارة صحيحة مقتلعة ولم يسمع في الـبيت عنـد بنائـه منحت ولا معـول ولا اداة من حديـد. 8 وكـان بـاب الغرفـة الوسـطى في جـانب الـبيت الايمن وكـانوا يصـعدون بـدرج معطّـف الى الوسـطى ومن الوسـطى الى الثالثـة. 9 فبـنى الـبيت واكمله وسـقف الـبيت بـألواح وجـوائز من الارز. 10 وبـنى الغرفـات على البيت كله سمكها خمس اذرع وتمكنت في الـبيت بخشـب ارز) (ملوك 6: 1-10)

التفت إلي، وقال: كل هذا الكلام لم أر حاجة إليه، فلهذا لم أذكره في هذا المختصر.. إن هذا الكلام قد ينفع المهندسين.. لكنـه لن ينفـع أبدا طالبي الله، والباحثين عنه..

أتعلم.. لقد طرق القرآن نفس المسألة عند ذكـره لبنـاء الكعبـة.. ولكنه ذكره بطريقة مختلفة تماما.. اسمع لما جـاء في القـرآن:{ وَإِذْ يَرْفَـعُ إِبْـرَاهِيمُ الْقَوَاعِـدَ مِنْ الْبَيْتِ وَإِسْـمَاعِيلُ رَبَّنَـا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (127) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَـا أُمَّةً مُسْـلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (128) رَبَّنَـا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِـكَ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَـابَ وَالْحِكْمَـةَ وَيُـزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (129)}(البقرة)

أرأيت كيف انشـغل القـرآن بـذكر دعـاء إبـراهيم وإسـماعيل عن وصف الحجارة وطول البيت وعرضه؟

أما الكتاب المقدس وفي هذا الإصحاح بالذات.. فلم أنتـق منـه إلا هذا النص:(11 وكـان كلام الـرب الى سـليمان قـائلا 12 هـذا الـبيت الذي انت بانيه ان سلكت في فرائضي وعملت احكامي وحفظت كل وصاياي للسلوك بها فاني اقيم معك كلامي الذي تكلمت بـه الى داود ابيك. 13 واسكن في وسط بني اسرائيل ولا اتـرك شـعبي اسـرائيل 14 فبنى سليمان البيت واكمله.)(ملوك 6: 11-14)

ولكن الكتاب المقدس لم يلبث أن عاد لعادتـه، فـراح يفصـل من جديد فيما لا يستفاد منه أي فائدة.. اسمع ما قال بعد هذا:(15 وبـنى حيطـان الـبيت من داخـل بأضـلاع ارز من ارض الـبيت الى حيطـان السقف وغشّاه من داخل بخشب وفرش ارض البيت باخشاب سرو. 16 وبنى عشرين ذراعا من مؤخّر الـبيت باضـلاع ارز من الارض الى الحيطـان. وبـنى داخلـه لاجـل المحـراب اي قـدس الاقـداس. 17 واربعون ذراعا كانت الـبيت اي الهيكـل الـذي امامـه. 18 وارز الـبيت من داخل كان منقورا على شكل قثّاء وبراعم زهـور. الجميـع ارز. لم يكن يرى حجر. 19 وهيّأ محرابـا في وسـط الـبيت من داخـل ليضـع هناك تابوت عهد الـرب. 20 ولاجـل المحـراب عشـرون ذراعـا طـولا وعشرون ذراعا عرضا وعشرون ذراعا سمكا. وغشّاه بذهب خـالص. وغشّـى المـذبح بـأرز. 21 وغشّـى سـليمان الـبيت من داخـل بـذهب خالص. وسدّ بسلاسل ذهب قدام المحراب. وغشّاه بذهب. 22 ..)

إلى آخر الإصحاح.. وهو بمثابة سورة من سور القرآن.. فانظر مـا الذي يمكن أن تجنيه من فوائد.

ثم.. ألا ترى التركيز على الذهب.. أليس في هذا نفحة من نفحات اليهـود؟.. فهم قـوم يحبـون الـذهب ويعشـقونه.. بـل بـاعوا اللـه من أجله.. لقد ذكرهم القرآن بهذا، فقال:{ وَاتَّخَذَ قَـوْمُ مُوسَـى مِنْ بَعْـدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْـدِيهِمْ سَـبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ}(لأعراف:148)

وذكـر مقـولتهم الـتي ردوا بهـا على موسـى عنـدما أنكـر عليهم، فقال:{ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (87) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُـوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ (88)}(طه)

قارن هـذا بمـا ورد في الكتـاب المقـدس.. وفي الإصـحاح الثـاني الذي أكمل ما بدأه الإصحاح الأول بنفس الوتيرة..

اسمع:(47 وترك سليمان وزن جميع الآنية لانها كثيرة جـدا جـدا. لم يتحقق وزن النحـاس. 48 وعمـل سـليمان جميـع آنيـة بيت الـرب المـذبح من ذهب والمائـدة الـتي عليهـا خـبز الوجـوه من ذهب. 49 والمنـائر خمسـا عن اليمين وخمسـا عن اليسـار امـام المحـراب من ذهب خالص والازهار والسـرج والملاقـط من ذهب. 50 والطسـوس والمقاصّ والمناضح والصحون والمجـامر من ذهب خـالص. والوصـل لمصاريع البيت الداخلي اي لقدس الاقداس ولابواب البيت اي الهيكل من ذهب. 51 واكمل جميع العمل الذي عمله الملـك سـليمان لـبيت الـرب. وادخـل سـليمان اقـداس داود ابيـه. الفضـة والـذهب والآنيـة وجعلها في خزائن بيت الرب)

هــل تســمع أصــوات الــذهب.. وهي تــرن من جنبــات الكتــاب المقدس.. إنها نصوص تمجد الذهب أكثر مما تمجد الرب..

قلت: ولكن القرآن الذي ترجع إليه كل حين تحدث عن الذهب..

قـال: لقـد رغب القـرآن في ذهب الجنـة لا في ذهب الـدنيا.. هـو يعلم أن البشر بطبعهم يحبون هذا النوع من المعـادن، فـراح يسـتغل هذا الجانب النفسـي في تنميـة السـلوك الصـالح بـترغيبهم في ذهب الآخــرة.. اســمع مــا ورد في القــرآن من هــذا، ثم قارنــه بالكتــاب المقدس:{ أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَـارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَـا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْـتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُـنَتْ مُرْتَفَقـاً}(الكهـف:31).. وفيـه:{ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَـا

الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ} (الحج:23).. وفيه:{ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}(الزخرف:71)

القرآن يذكر كل هذا وغيره في معرض الترغيب في الآخرة التي هي حصاد زرع الدنيا.. وهو بذكره هذا يزهد في ذلك الذهب الخالص الذي أغرمت بذكره كتبنا المقدسة.

قلت: سلمت لك بكثير من هذا.. ولكن القرآن نفسه يحتوي لغوا كثيرا.

قال: أين تجد هذا اللغو.. اذكر لي آية واحدة.. بل كلمة واحدة.

قلت: بل سأذكر لك كلمات.. لقد جاء فى فواتح تسع وعشرين سورة من القرآن حروفا عاطلة، لا معاني لها[1].. وأنت تعلم أن ما خوى من المعنى المفيد كان لغوا.

قال: تقصد الحروف القرآنية المقطعة؟

قلت: أجل.. هم يسمونها كذلك، ونحن نسميها الحروف العاطلة.. لأنه إن كانت هذه الحروف لا يعلمها إلا الله، كما يقول المسلمون، فما فائدتها لنا، إن الله لا يوحى إلا بالكلام الواضح أليسوا يقولون ذلك؟

قال: لست أدري هل تصدقني إن قلت لك بأن دهشة عظيمة تأخذني، عندما أقرأ هذه الحروف، وأقرأ بعدها آيات القرآن المحكمة الصادقة الجادة.

قلت: فأنت معي في هذا إذن؟

---

(1) يقصد الحروف المقطعة الواردة في أوائل السور، وهي ألر: يونس، هود، يوسف، إبراهيم، الحجر .. ألم: البقرة، آل عمران، العنكبوت، الروم، لقمان، السجدة .. المر: الرعد .. المص: الأعراف .. حم: غافر، فصلت، الزخرف، الدخان، الجاثية، الأحقاف .. حم عسق: الشورى .. ص: ص .. طس: النمل .. طسم: الشعراء، القصص .. طه: طه .. ق: ق.. كهيعص: مريم .. ن: القلم .. يس: يس.

قال: إن الدهشة التي تصيبني ليست كالدهشة التي تصيبنا من ذلك اللغو.. أنا أشعر أن هذه الكلمات التي بدئت بهذه السور تحوي معان رمزية عميقة.. لست أدري هل هي تهديد، أم معارف.. هل هي وعد أم وعيد.. لكني أدخل إلى السورة من بوابتها، فأشعر بتلك الهيبة.

قلت: الشعور وحده لا يكفي لأن يخرج اللغو من كونه لغوا.

قال: اللغو هو ما ليس له فائدة أبدا.. أما ما كان فيه فائدة، فليس لغوا.

أرأيت لو أن قوما من الناس خشوا أن يخترقوا، فاتفقوا فيما بينهم على حروف لا صلة تربطها.. ليكون ذلك واصلة عقدهم.. فهل تعتبر هذه الكلمة لغوا؟

قلت: هي لغو من حيث معناها.

قال: ولكنها أهم من كل كلام من حيث فائدتها.

قلت: أتتصور أن هذه الحروف لها هذا الدور؟

قال: قد يكون لها بعض هذا الدور.. أنا أتصور أن هذه الحروف العجيبة لها دلالة عميقة لا يفهمها إلا من أوتي حظا من علم الكتاب.. القرآن لا يعتبر الناس جميعا محلا لتنزل المعاني القرآنية العميقة.. فلذلك يقسم الناس إلى العامة.. والعلماء.. والراسخين في العلم..

اسمع ما يقول في هذا ومثله:{ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ) (آل عمران:7)

واسمع ما يقول عن قومنا من الراسخين في العلم:{ لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ

مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ وَالْمُؤْتُـونَ الزَّكَـاةَ وَالْمُؤْمِنُـونَ بِاللَّهِ وَالْيَـوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً) (النساء:162)

أتدري ما معنى الرسوخ؟

قلت: أجل.. هو التمكن.

قال: فكذلك هذه المعاني الحقيقة، والتي تبدو عاطلة في أسـماع العامة والعلماء، هي أسرار عظيمة وحكم جليلـة عنـد الراسـخين في العلم.. المتمكنين منه، وهي بذلك الشـيفرة الـتي يتواصـلون بهـا.. أو تتواصل بها المعاني فيما بينهم.

قلت: ولكنها تظل محصورة بينهم.. والقرآن للجميع.

قال: نعم القرآن للجميع.. ولكن معانيه العميقة لخاصـة الخاصـة.. نعم الكل يفهمونها.. ولكن الراسخين هم الذين يعيشونها.

سأضـرب لـك مثـالا.. هـل تسـتطيع أن تشـرح النظريـة النسـبية لعامي.. إن معادلاتهـا تشـبه هـذه الحـروف.. يفهمهـا الخاصـة.. ولكن العامة يضحكون منها أو يستغربون أو تأخذهم الدهشة.

قلت: فهل ترى من الراسخين من عرف محتواها؟

قال: كل عبر عنها بأسلوبه.. وكل شرب منها بحسب رسوخه.

قلت: فما ذكروا عن مشاربهم؟

قال: منهم من رأى أن هذه الفواتح تشير إلى إعجاز القرآن، وأنه مؤلف من الحـروف الـتى عرفهـا العـرب، وصـاغوا منهـا مفـرداتهم، وصاغوا من مفرداتهم تراكيبهم. وأن القرآن لم يغير من أصول اللغــة ومادتها شيئاً، ومع ذلك كـان القـرآن معجـزاً؛ لا لأنـه نـزل بلغـة تغـاير لغتهم، ولكن لأنه نزل بعلم الله، كما يتفوق صانع على صانع آخــر فى حذقه ومهارته فى صنعته مع أن المادة التى استخدمها الصـانعان فى النموذج المصنوع واحدة وفى هذا قطع للحُجة عنهم.

ويؤيد هذا ما ورد في القـرآن من قولـه:{ أَمْ يَقُولُـونَ افْتَـرَاهُ قُـلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَـاتٍ وَادْعُـوا مَنِ اسْـتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (13) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَـاعْلَمُوا أَنَّمَـا أُنْـزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (14)}(هود)، فهـذه تخـبرهم بـأن القرآن إنما كان معجزاً لأمر واحد هو أنـه كلام اللـه، نـازل وفـق علم الله وصنعه، الذى لا يرقى إليه مخلـوق.. أمـا اللغـة فهي نفس اللغـة التي يتحدثون بها، والتي أشارت إليها كلمة (مثل)

ومنهم من رأى أن هــذه الحــروف أدوات صــوتية مثــيرة لانتبــاه السامعين، يقصد بها تفريـغ القلـوب من الشـواغل الصـارفة لهـا عن السماع من أول وهلة.. فـ (ألم)، وهى تنطـق هكـذا (ألـف لام ميم) تستغرق مسافة من الزمن بقـدر مـا يتسـع لتسـعة أصـوات، يتخللهـا المد مد الصوت عندما تقرع السمع تهيؤه، وتجذبه لعقبى الكلام قبــل أن يسمع السامع قوله بعد هـذه الأصـوات التسـعة:{ ذَلِـكَ الْكِتَـابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ} (البقرة:2)

وإثارة الانتباه بمثل هذه المداخل سمة من سمات البيـان العـالى، ولذلك يطلق بعض الدارسـين على هـذه الحـروف فى فـواتح السـور عبارة (قرع عصى).. أي الضـرب بالعصـى على الأرض لتنبيـه المـراد تنبيهه.. وهى وسيلة كانت تستعمل فى إيقاظ النـائم، وتنبيـه الغافـل، وهى كناية لطيفة، وتطبيقها على هذه الحروف غير مستنكر.

وفي القــرآن إشــارة إلى ذلــك في قولــه:{ وَإِذَا قُــرِئَ الْقُــرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} (لأعراف:204)

ومنهم من رأى أن فى هــذه الحــروف ســرًّا دقيقــاً من أســرار الإعجاز القـرآنى المفحم، لقـد قـال هـذا الزمخشـري اللغـوي البـارع والمتعبد الزاهد لاشك أنك تعرفه.. سأسمعك قوله في هذا، لقد قال: (واعلم أنك إذا تأملت ما أورده الله عز سلطانه فى الفواتح من هذه الأسماء يقصد الحروف وجـدتها نصـف حـروف المعجم، أربعـة عشـر سواء، وهى: الألف واللام والميم والصاد، والراء والكاف والهاء، والياء والعين والطاء والسين والحاء، والقـاف والنـون، فى تسـع وعشـرين

سورة، على حذو حروف المعجم.

ثم إذا نظرت فى هذه الأربعة عشر وجدتها مشتملة على أنصـاف أجناس الحروف، بيـان ذلـك أن فيهـا:من المهموسـة نصـفها: الصـاد، والكاف، والهاء والسين والخاء.. ومن المجهورة نصـفها: الألـف واللام والميم، والراء والعين والطاء، والقاف والياء والنـون.. ومن الشـديدة نصفها: الألـف والكـاف، والطـاء والقـاف.. ومن الرخـوة نصـفها:اللام والميم، والراء والصاد، والهاء والعين، والسين والحاء واليـاء والنـون.. ومن المطبقة نصفها: الصـاد والطـاء.. ومن المنفتحـة نصـفها: الألـف واللام، والميم والراء، والكاف، والهاء والعين والسين والحاء، والقـاف والياء والنون.. ومن المستعلية نصفها: القاف والصـاد، والطـاء.. ومن المنخفضة نصفها: الألف واللام والميم، والراء والكاف والهـاء، واليـاء، والعين والسين، والحاء والنون.. ومن حروف القلقلـة نصـفها: القـاف والطاء [1].

أفهمت هذا.. إنه إعجاز واضح لمن يتـذوق أسـرار الأصـوات.. إنـه يريـد أن يقـول: إن هـذه الحـروف المـذكورة يلحـظ فيهـا ملحظـان إعجازيان:

الأول: من حيث عـدد الأبجديـة العربيـة، وهى ثمانيـة وعشـرون حرفاً، فإن هذه الحـروف المـذكورة فى فـواتح السـور تعـادل نصـف حروف الأبجدية، يعنى أن المذكور منها أربعة عشـر حرفـاً، والـذى لم يذكر مثلها أربعة عشر حرفا.

والثــانى: من حيث صــفات الحــروف وهى:الهمس فى مقابلــة الجهارة، والشدة فى مقابلة الرخاوة، والانطباق فى مقابلـة الانفتـاح، والاستعلاء فى مقابلة الانخفاض، والقلقلة فى مقابلة غيرها.

فهذه الحروف تعادل نصف أحرف كل صـفة من الصـفات السـبع المذكورة..

---

(1) الكشاف:1 /100- 103.

وبعد هذا.. منهم من فهمها شيفرة تدل على معارف إلهية عميقــة عبر عنها بما استطاع لسانه أن يعبر:

ففهم منها علي ـ صاحب النبي ومن وصفه محمد بأنه باب مدينــة العلم ــ بأنهــا أســماء جليلــة للــه، فكــان يقــول:(يــا كهيعص، يــا حم عاسق)

وفهممها آخرون أنها أبعـاض لأسـماء اللـه، فكـان بعضـهم يقـول: (ألر، حام، ن) مجموعها هو اسم الرحمن.

وروي عن ابن عباس في (آلم) أن الألف إشـارة إلى أنــه تعـالى أحــد، أول، آخــر، أزلي، أبــدي، واللام إشـارة إلى أنــه لطيـف، والميم إشارة إلى أنه ملك مجيد منان.. وقـال في { كهيعص } إنــه ثنـاء من الله تعالى على نفسه، والكاف يدل على كونه كافياً، والهاء يــدل على كونه هادياً، والعين يدل على العالم، والصاد يدل على الصادق.

وروي أنه حمل الكاف على الكبير والكريم، والياء على أنــه يجـير، والعين على العزيز والعدل.

وبعضهم فهم منهــا مــا يــدل على صـفات الأفعــال، فــالألف آلاؤه، واللام لطفه، والميم مجده.

وهكذا.. كل يعبر عن ذوقه وفهمه.

قلت: فما تقول أنت؟

قــال: لا يــزال عقلي مندهشــا.. ولــو أني أعلم أن هــذه الحــروف تخبئ أسرارا عميقة لن يطول الزمان حتى نعرفها.. بل أرانــا نقــترب منها اقترابا.

الإطناب:

قلت: سـلمت لـك بهـذا.. وعلى أقـل تقـدير فـإن هـذه الحـروف جعلت العقول تبذل كل جهدها لمحاولة فهمها.. وهو مـا يخرجهـا عمـا

صورناها به من الفراغ واللغو.. ولكن مع ذلك، فالقرآن يحوي تفاصيل طويلة في بعض الأمور.. ألم تقرأ آية الـدين.. أو آيـات المـواريث.. أو آيات المحرمات من النساء.. إن فيها كلاما طويلا مملا؟

قـال: لا.. كـل كلمـة من تلـك الكلمـات بحـر من بحـار المعـاني.. والشريعة تقتضي تلك التفاصـيل.. زيـادة على أنهـا في قضـايا كـبرى تمس الحياة الإنسانية جميعا.. والاختصار في مثلها تقصير.. سأضـرب لك مثلا بما ورد في تقسيم المواريث..

لقد جاء محمد في بيئة تجور كثـيرا في تقسـيم التركـات، فلـذلك احتـاج إلى وضـع نظـام عـادل يقضـي على ذلـك الجـور.. وهـو جـور خطير.. فالمال الذي ظل صاحبه يجمعه طول عمره سينتقل إلى أياد أخرى.. وهو أمر لا يتعلق بتلك الأيادي فقـط.. بـل بـالمجتمع جميعـا.. ولهذا ترى القرآن يذكر هذا، بل يكرر الألفاظ من باب التأكيـد حـتى لا يأتي من ينكر مثل هذه الأحكام بحجة عدم ورودها في القرآن.

ومثل ذلك القول في آية المداينة.. فقد جاء القرآن بتحريم الربـا، ووضع بدله القرض الحسن.. القرض الذي ليس فيه أي فائدة.. ولكن هذا القرض قـد يسـيء البعض اسـتغلاله، فيجحـد صـاحبه، فلـذا اهتم القرآن بتفاصيل توثيقه حتى لا يتلاعب به العابثون.. وهكذا..

زيادة على ذلـك.. قـارن ــ حضـرة الحـبر ــ بين طـول آيـة الـدين والمعاني الكثيرة التي تحويها.. وهي معان تشـمل العقيـدة والسـلوك بالإضافة إلى الأحكام المرتبطة بالدين بمـا ورد في الكتـاب المقـدس من أحكام كثيرة قد لا ترتبط بأمر ذي أهمية كبرى..

قارن هذا بما ورد في التوراة من أحكام البرص.. ألا تـرى أنـه من الغرابـة أن يحتـل موضـوع الـبرص ثلاثـة إصـحاحات كاملـة في سـبع صفحات من الكتاب المقدس[1]!؟

لقد محوتها جميعا من هذه الكراسة.. لأنها أحكام لم يعد يؤمن بها

---

(1) سنذكر هذا المثال بتفصيل في فصل (العقلانية) من هذا الجزء.

ولا يطبقهـا إلا من يمتلئ عقلـه بالخرافـة، ولا أحسـب أن هنـاك في الدنيا من بقي يؤمن بها.

سأضرب لك مثالا آخر في موضوع واحد.. لترى الفرق بينهما:

المثال هو مثال الحيض.. وهو يعتري النسـاء بصـفة دوريـة، ولهـذا اهتمت الشريعة ببيان أحكامه، سـواء الشـريعة الـتي في التـوراة، أم الشريعة التي جاء بها القرآن:

أما القرآن.. فاكتفى بهذا النص:{ وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُـلْ هُـوَ أَذىً فَـاعْتَزِلُوا النِّسَـاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُـوهُنَّ حَتَّى يَطْهُـرْنَ فَـإِذَا تَطَهَّرْنَ فَـأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَـرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ}(البقرة:222)

وهي آيـة واحـدة تحـدثت إجابـة عن تسـاؤلات النـاس عن أحكـام الحـائض، المرتبطـة بالمعاشـرة الزوجيـة، وقـد أجـاب القـرآن إجابـة شـافية عن ذلـك، فـذكر أن دم الحيض يحمـل أذى صـحيا لكـل من الزوجين، وقد رتب على هذه المضرة حكمه بوجـوب اعـتزال النسـاء إلى أن يطهرن، فـإذا حصـل الطهـر، وتطهـرت المـرأة حينـذاك تبـاح معاشرتها بالشروط التي وضـعها الشـرع، ثم ختمت الآيـة ببيـان حب الله للتوابين والمتطهرين.. لتنسجم الأحكام العاديـة مـع الصـلة باللـه التي جاء القرآن لتوثيقها.

هذا كل ما في القرآن من أحكام الحيض.

أما التوراة.. فتنص على أحكام كثيرة جدا.. سأقرأ عليك بعضها.

فتح الكتاب، وأخذ يقرأ:(وإذا حاضـت المـرأة فسـبعة أيـام تكـون في طمثها، وكل من يلمسها يكون نجسـا إلى المسـاء. كـل مـا تنـام عليه في أثناء حيضـها أو تجلس عليـه يكـون نجسـا، وكـل من يلمس فراشها يغسل ثيابه ويستحم بماء ويكون نجسا إلى المساء. وكل من مس متاعا تجلس عليه، يغسل ثيابه ويستحم بماء، ويكون نجسـا إلى المسـاء. وكـل من يلمس شـيئا كـان موجـودا على الفـراش أو على

المتاع الذي تجلس عليه يكون نجسا إلى المساء. وإن عاشرها رجــل وأصابه شيء من طمثها، يكون نجسا سـبعة أيـام. وكـل فـراش ينـام عليـه يصـبح نجسـا. إذا نـزف دم امـرأة فـترة طويلـة في غـير أوان طمثها، أو استمر الحيض بعد موعده، تكون كل أيام نزفها نجسة كمـا في أثناء طمثها. كل ما تنام عليه في أثناء نزفها يكون نجسا كفــراش طمثها، وكل ما تجلس عليه من متـاع يكـون نجسـا كنجاسـة طمثهـا. وأي شخص يلمسهن يكون نجسا، فيغسل ثيابه ويستحم بماء، ويكون نجسا إلى المساء)(سفر اللاويين:15: 19 -27)

أرأيت هذه التفاصيل المشددة التي تجعل المرأة الحائض كالكلب العقور يخشى الكل من الاقـتراب منـه.. تخيـل المـرأة يأتيهـا الطمث لمدة سبعة أيام تكون فيهـا نجسـة ومنبـوذة من الآخـرين، ثم تسـتمر بعد فترة نجاستها أسـبوعا آخـر، أى نصـف شـهر، وهـذا يعـنى نصـف سنة.. أي أنها ستظل نصف عمرها نجسة منبوذة.

إن هذه التعاليم جميعا تخلو منها شريعة محمد.. لأنهـا تعتـبر الأذى مقصورا على محله.

ليس هذا فقط هو كل شريعة التوراة المرتبطة بالحــائض.. هنــاك تكاليف أخطر.. اسمع..:(وفي اليوم الثامن تأخـذ لنفسـها يمـامتين أو فرخي حمام وتأتي بهما الى الكاهن الى باب خيمة الاجتمـاع. فيعمـل الكاهن الواحد ذبيحة خطية والآخر محرقة ويكفّـر عنهـا الكـاهن أمـام الرب من سيل نجاستها) (اللاويين (15: 29 -30)

هل ترى هذا حكما معقولا.. إن المرأة في العادة تستحي من علم أي أحد بحيضها، فكيف تفعل هذا أمام الناس، وأمـام الكـاهن.. ثم مـا جريمتها حتى تصبح نجسة.. ولماذا ترتبط أكثر أحكام التوراة بالحمـام والكباش والشواء!؟

ومثـل ذلـك أحكـام النفـاس في الكتـاب المقـدس.. اسـمع:(إذا حملت امرأة وولدت ذكرا، تظل الأم في حالة نجاسة سبعة أيام، كما في أيام فترة الحيض.. وعلى المرأة أن تبقى ثلاثة وثلاثين يوما أخرى

إلى أن تطهر من نزيفها، فلا تمس أي شيء مقـدس، ولا تحضـر إلى المقدس، إلى أن تتم أيام تطهيرها. وإن ولـدت أنـثى فإنهـا تظـل في حالة نجاسة مدة أسبوعين كما في فترة الحيض، وتبقى ستة وسـتين يوما حتى تتطهر من نزيفها)(اللاويين: 12: 1 -5)

ألا ترى الجور الذي تحمله هذه النصـوص على الإنـاث؟.. ألا تـرى كيف تجعل مدة طهارة المـرأة في حـال كـون المولـود أنـثى ضـعف طهارة كون المولود ذكرا!؟

لن ترى جميع هـذه النصـوص في كراسـتي الـتي اختصـرت فيهـا الكتاب المقدس.

سـكت قليلا، ثم قـال: ناحيـة أخـرى تـأثرت فيهـا بـالقرآن كثـيرا، وحاولت أن أطبقها في هذا المختصر الذي وضعته للكتـاب المقـدس، فلم أطق.

قلت: ما هي؟

قـال: لقـد رأيت القـرآن يعـبر عن المعـاني الكثـيرة جـدا بألفـاظ موجزة غاية في البلاغـة.. فهـو ينتقي الألفـاظ كمـا ينتقي الـتراكيب.. وكأنه يحرص على وقت القارئ أو المستمع أن يضيع في فوائد قليلة، فهو يجمعها له جمعا.

انظر مثلا قوله:{ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَـا اللَّهُ ثُمَّ اسْـتَقَامُوا }(فصـلت: 30)، هذه كلمات محـدودة.. ولكنهـا جمعت كـل أنـواع الفضـائل.. فـ (ربنا الله)جمعت جميع حقـائق الإيمـان.. و(اسـتقاموا) جمعت جميـع حقائق السلوك.

واسمع:{ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ}(يـونس: 62) لقد أدرج في هذا النص الموجز ذكر إقبـال كـل محبـوب عليهم، وزوال كــل مكــروه عنهم، فلا شــيء أضــر بالإنســان من الحــزن والخوف.. لأن الحزن يتولد من مكروه ماض أو حاضر، والخوف يتولد من مكروه مستقبل، فـإذا اجتمعـا على امـرئ لم ينتفـع بعيشـه، بـل

يتبرم بحياته، والحزن والخوف أقـوى أسـباب مـرض النفس، كمـا أن السرور والأمن أقوى أسـباب صـحتها، فـالحزن والخـوف موضـوعان بإزاء كل محنـة وبليـة. والسـرور والأمن موضـوعان بـإزاء كـل صـحة ونعمة هنية [1].

واسمع:{ الَّذِينَ آمَنُـوا وَلَمْ يَلْبِسُـوا إِيمَـانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَـدُونَ}(الأنعـام:82) فـالأمن كلمـة واحـدة تنـبئ عن خلـوص سـرورهم من الشـوائب كلهـا، لأن الأمن هـو السـلامة من الخـوف، والحزن هو المكروه الأعظم.. فإذا نالوا الأمن بالإطلاق ارتفع الخـوف عنهم، وارتفع بارتفاعه المكروه وحصل السرور المحبوب.

واسمع:{ أَوْفُوا بِـالْعُقُودِ }(المائـدة: 1)، فهمـا كلمتـان جمعتـا مـا عقـده اللـه على خلقـه لنفسـه وتعاقـده النـاس فيمـا بينهم.. وبـذلك جمعت جميع أنواع العقود.

واسمع:{ وَفِيهَا مَا تَشْـتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَـذُّ الْأَعْيُنُ }(الزخـرف: 71)، فلم يبق مقترح لأحد إلا وقد تضمنته هاتان الكلمتان، مع ما فيهمـا من القرب، وشرف اللفظ وحسن الرونق.

واسمع:{ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْـرِ بِمَـا يَنْفَـعُ النَّاسَ}(البقـرة: 164)، فهـذه الكلمـات الثلاث الأخـيرة تجمـع من أصـناف التجـارات وأنواع المرافق في ركوب السفن ما لا يبلغه الإحصاء.

واسـمع:{ فَاصْـدَعْ بِمَـا تُـؤْمَرُ }(الحجـر: 94)، فهي ثلاث كلمـات فقـط، ولكنهـا اشـتملت على شـرائط الرسـالة وشـرائعها وأحكامهـا وحلالها وحرامها.

واسـمع مـا ورد في وصـف خمـر الجنـة:{ لا يُصَـدَّعُونَ عَنْهَـا وَلا يُنْزِفُونَ} (الواقعة:19)، فهاتان الكلمتـان قـد أتتـا على جميـع معـايب الخمر، ولما كان منها ذهاب العقل، وحدوث الصداع، برأ القرآن خمـر الجنة منها، وأثبت طيب النفوس، وقوة الطبع، وحصول الفرح.

---

(1) انظر في هذا وما بعده من أنواع الإيجاز: الإعجاز والإيجاز للثعالبي.

واسـمع:{ لَأَكَلُـوا مِنْ فَـوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ}(المائـدة: 66).. فهو كلام يجمع جميع ما يأكله الناس مما تنبته الأرض.

واسمع:{ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ }(البقرة: 228)، فهـو كلام يتضمن جميع ما يجب على الرجال من حسـن معاشـرة النسـاء وصيانتهن وإزاحة عللهن وبلوغ كل مبلـغ فيمـا يـؤدي إلى مصـالحهن، وجميـع مـا يجب على النسـاء من طاعـة الأزواج وحسـن مشـاركتهم وطلب مرضاتهم وحفظ غيبتهم وصيانتهم عن خيانتهم.

واسمع:{ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَـا أُولِي الْأَلْبَـابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُـونَ}(البقرة:179)ففي اعتبار القصاص حياة حكم بليغة غاية في الإتقـان، منها إبانة العدل بذكر القصاص، والإفصاح عن الغرض المطلـوب فيـه من الحياة، والحث بالرغبة والرهبـة على تنفيـذ حكم اللـه تعـالى بـه، والجمع بين ذكر القصاص والحياة.

واسمع ما ورد في قصة إخوة يوسف:{ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيّاً }(يوسف: 80)، وهـذه صـفة اعـتزالهم لجميـع النـاس، وتقليبهم الآراء ظهراً لبطن، وأخذهم في تزوير ما يلقون به أباهم عنـد عـودهم إليه، ومـا يـوردون عليـه من ذكـر الحـادث، فتضـمنت تلـك الكلمـات القصيرة معاني القصة الطويلة.

واسمع:{ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَـوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ}(لأنفال:58)، فلو أراد أحد الأعيان الأعلام في البلاغة أن يعـبر عنـه لم يسـتطع أن يـأتي بهـذه الألفـاظ القليلـة المؤديـة للمعنى.. لأن معناهـا:(إن كـان بينكم وبين قـوم هدنـة وعهـد، فخفت منهم خيانة أو نقضاً، فـأعلمهم أنـك نقضـت مـا شـرطت لهم، وآذنهم بالحرب، لتكون أنت وهم في العلم بالنقض على سواء)

وهكـذا في كـل القـرآن.. بـل إن ألفاظـه أصـبحت أمثـالا وحكمـا يسارع الخطباء والحكمـاء لحفظهـا لـيزينوا بهـا كلامهم.. اسـمع:{ وَلا يَحِيــقُ الْمَكْــرُ السَّــيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِــهِ}(فــاطر: 43).. { إِنَّمَــا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ}(يونس: 23).. { كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ}(المـدثر:38)..

{ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ}(الرحمن:26).. { كُـلُّ نَفْسٍ ذَائِقَـةُ الْمَـوْتِ}(آل عمران: 185).. {لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْـتَقَرٌّ}(الأنعـام: 67).. { قُـلْ كُـلٌّ يَعْمَـلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ }(الاسراء: 84).. { يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ}(يوسف: 84).. { وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الـدُّنْيَا}(القصـص: 77).. { تَحْسَـبُهُمْ جَمِيعـاً وَقُلُـوبُهُمْ شَـتَّى}(الحشـر: 14).. { فَضَـرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْـفِ}(الكهف: 11).. { أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَـارا}(نـوح: 25).. { وَلا تَـزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى }(فاطر: 18).. {كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ}(المؤمنــون: 53).. { يَحْسَــبُونَ كُــلَّ صَــيْحَةٍ عَلَيْهِمْ }(المنــافقون: 4).. { وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً}(الكهف: 104)

التكرار:

لسـت أدري كيـف خطـر على بـالي التكـرار الـذي في القـرآن الكريم، فقلت من غير أن أشعر: ولكن القرآن مليء بالتكرار.. أليس في ذلك ما يخل بالإيجاز الذي تتحـدث عنـه!؟.. فكيـف تعتـبر القـرآن نموذجا حسنا للكتاب الموجز، وهو يكرر الكلمة الواحدة، بـل المعـنى الواحد مرات كثيرة!؟

قال: صـدقت في هـذا.. وقـد وجـدت هـذه الظـاهرة في الكتـاب المقدس، وحاولت المقارنة بين الأمرين، وسأذكر لك هنا مـا وجـدت، فاصبر علي.

قلت: تكلم كمـا تشـاء.. لقـد سـرتني موضـوعيتك وحرصـك.. فلا تتحرج من ذكر أي شيء.. فليس لنا من هدف إلا البحث عما نستطيع أن نخدم به كتابنا المقدس.

قال: لا شك أنك قرأت سفر الملوك الثاني (19/1 - 12) والذي يبدأ بـ:(1 فلما سمع الملـك حزقيـا ذلـك مـزّق ثيابـه وتغطى بمسـح ودخل بيت الرب. 2 وارسل الياقيم الذي على الـبيت وشـبنة الكـاتب وشيوخ الكهنة متغطين بمسح إلى إعياء النبي ابن آموص) إلى قوله:(هـل انقـذت آلهـة الامم هـؤلاء الـذين اهلكهم آبـائي جـوزان وحـاران ورصف وبني عدن الذين في تلاسّار)

قلت: أجل..

قال: فهل تراه مكررا في محل آخر؟

قلت: أجل.. هو متطابق تماما مع إشعيا (37/1 - 12) كلمة كلمة، وحرفاً حرفا.

قال: ونفس هذا التكرار نجده في إصحاحات أخرى مع تغيير بسيط لا يكاد يذكر.. قارن بين أيام (1)، 17، وصموئيل (2)، 7).. أو بين (أيام (1)ـ 18، وصموئيل (2)ـ 8).. أو بين (أيام (1)ـ 19، وصموئيل (2) 10).. وغير ذلك كثير.

قلت: أنا أعرف ما في الكتاب المقدس من تكرار.

قال: فلا تنظر القذى في عين أخيك، وتنسى الجذع في عينك.

قلت: أنا لم أرد أن أبرئ الكتاب المقدس.. بل أردت فقط أن أذكر أن هذا الإيجاز الذي تتحدث عنه لم يتحقق في القرآن كما لم يتحقق في الكتاب المقدس.. فهما سواء في ذلك.

قال: ألم أطلب منك أن تصبر؟.. لقد ذكرت لك الشق الأول من المقارنة.. ولا يصح أن نسمع في المقارنة لواحد، ونغفل عن الثاني.

قلت: فما الذي وجدته في أسرار التكرير في القرآن؟

قال: إن شئت الصراحة والموضوعية، فالقرآن لا يحتوي على أي تكرار.. بحثت عن التكرار في كل القرآن.. فلم أجده.

قلت: كيف تقول ذلك؟.. خذ هذا المثال البسيط عن التكرار.. ففي آية يقول القرآن:{ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ}(البقرة:49)، وفي آية أخرى من سورة أخرى يقول: { وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي

ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ}(ابراهيم:6)

قال: نعم[1].. هاتـان الآيتـان تتحـدثان عن موضـوع واحـد.. ولكن هناك اختلافا واضحا بين الآيتين:

فالآية الأولى خطـاب من اللـه إلى بـنى إسـرائيل يـذكرهم بنعمـه عليهم، ويمن عليهم بأنه نجاهم من آل فرعون الذين يسومونهم سوء العذاب.

أما الثانية، فهي خطاب من موسى إلى قومـه يـذكرهم بنعم اللـه عليهم، ويـذكرهم بالـذات بتلـك النعمـة الكـبرى، وهى تنجيتهم من آل فرعون الذين يسومونهم سوء العذاب.

بالإضافة إلى هذا الاختلاف نجد تغييرا فى صيغة الفعل: (نجينـاكم) و(أنجاكم)، أحدهما متعد بالتضعييف، والآخر متعـد بـالهمزة، وأحـدهما بضمير المتكلم، والثانى بضمير الغائب.

بالإضافة إلى اختلاف مهم في الجزء الخاص بالعـذاب الـذى كـان يوقعه آل فرعون ببنى إسرائيل، ففي الآية الأولى:{ يَسُومُونَكُمْ سُـوءَ الْعَــذَابِ يُــذَبِّحُونَ أَبْنَــاءَكُمْ وَيَسْــتَحْيُونَ نِسَــاءَكُمْ}.. وفي الثانيـــة: { يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ}

إن الفارق بين العبارتين لا يعدو حرفا واحدا، هو الواو التى جـاءت فى الآية الثانية قبل كلمة (يـذبحون)، ولكن انظـر كم أحـدث الحـرف الواحد من الاختلاف بين الصورتين:

فى الصــورة الأولى ينحصــر العــذاب فى قتــل الأولاد واســتحياء النساء، وفى الثانية يصبح هذا الأمـر واحـدا فقـط من ألـوان العـذاب الـتى تصـب على بـنى إسـرائيل، وإن كـان السـياق يـوحى بأنـه من أبرزها، وأشدها وأخبثها. إذ أجمل (سوء العذاب) وفصـل (قتـل الأولاد واستحياء النساء)

1() رجعنا في كثير من الأمثلة هنا إلى كتاب (لا يأتون بمثله) لمحمد قطب.

وهكذا في كل ما يبدو متشابها في القرآن.. إنه مثـل تشـابه ثمـار الجنـة الـتي ورد وصـفها في القـرآن في قولـه:{ وَبَشِّـرِ الَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَـا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَـا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}(البقرة:25)

فهي متشابهة الشكل متغيرة المعاني.

وهذا التشابه الـذى يـؤدى إلى التنـوع هـو ذاتـه لـون من الجمـال والقوة في المعاني القرآنية.

سأضرب لك أمثلة أخرى.. بتغـير حـرف واحـد أو كلمـة واحـدة أو تقديم وتأخير يتغير المعنى تماما.. إنه تماما مثل ما نغـير إلكترونـا من ذرة، فتتغير الذرة تماما.

اسمع هذا المثال:{ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْـعَى}(يّـــس: 20) وقارنه بقوله:{ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْـعَى}(القصـص: 20)

لا شك أن الآيتين متشـابهتان من حيث المحتـوى العـام، ولكنهمـا مختلفتـان في الدلالـة.. فـالتركيز فى الأولى على المجئ من أقصـى المدينة، بما يوحى بأهميـة الأمـر الـذى حفـز الرجـل على قطـع تلـك المسافة الكبيرة، والتركـيز فى الثانيـة على الرجـل ذاتـه، بمـا يـوحى باهتمامه الخاص بالأمر، وأنه حريص على سلامة موسى.

فالفرق بينهما لم يعدو التقديم والتأخير.. ومع ذلك كان للثانية من الدلالة ما ليس للأولى.

خـذ مثـالا آخـر، وهـو مـا جـاء في القـرآن عن اليهـود من أنهم { يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ}(النساء: 46)في آية.. وفي آيـة أخـرى ورد:{ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ }(المائدة: 41)

وسـر الاختلاف بينهمـا يرجـع إلى أن الأولى تشـير إلى تحـريفهم

لكلام اللـه، ومـا فى ذلـك من لـؤم والتـواء، أمـا الثانيـة فتشـير إلى تجرؤهم على الله، بأن يقرر الأمر فيقرروا غـيره من بعـد تقريـر اللـه له، وما فى ذلك من وقاحة وتمرد على الله.

وفى مثل تلـك المواضـع يكـون للتنويـع دلالـة خاصـة تضـاف إلى مجرد التنويع، الذى هو فى ذاته هدف مقصود0

قلت: فهمت هذا.. وربما لا أجادلك فيه ولكني أتحدث عن مواضـع يكاد يكون الشبه فيها تاما.. فكيف لا يكون ذلك تكرارا؟

قال: لا.. ليس تكرارا.. ألست ترانا نتحدث كلاما كثيرا له معاني لا حصـر لهـا ومـع ذلـك نسـتخدم حروفـا واحـدة لا نقـوم سـوى بتغيـير تركيبها.

وهكذا ما يتوهم من تشابه في القرآن.. فهو ليس تشابها، بـل هـو تنوع تحتاجه المعاني.. فالموضوع الواحد يعرض مرارا، ولكنـه يعـرض فى كل مرة مختلفا عما سبقه نوعا من الاختلاف، فيكـون جديـدا فى كـل مـرة، ويكـون ــ مـع التلاوة المسـتمرة للقـرآن ــ متجـددا على الدوام.

قلت: لم أفهم ما تقصد؟

قال: ألسنا نضع الملح في طعامنا.. بل والزيت والمـاء والـدقيق.. وأشياء كثيرة في أطعمة مختلفة؟

قلت: أجل.. وما علاقة ذلك بما نحن فيه؟

قال: هي مكررة في أكثر الأطعمة.. ولكن الأطعمة مع ذلك تتعدد أذواقها وألوانها.. أليس كذلك؟

قلت: بلى.. ذلك صحيح.

قـال: فهكـذا هـذا الأمـر.. لقـد رأيت من خلال تـأملي في تكـرار القرآن تشابها كبيرا بينه وبين البناء الكوني.. فالكون مبني على لبنات

محدودة.. وهكذا القرآن.. فالقصص مثلا محدودة.. ولكنها تستعمل كل مرة لبيان غرض معين.

قلت: فلم لم يستخدم القرآن قصصا أخرى.. أم أن خزان معلوماته خال من المعلومات؟

قال: خطأ الذين يرمون القرآن بالتكرار هو تصورهم أن القرآن كتاب معلومات.. هو ليس كذلك.. لذلك لا تجده يؤرخ لشيء..

قلت: فما هو إذن؟

قال: لقد نص على أنه كتاب هداية ووعظ وتربية.. وكونه كذلك يستدعي الاقتصار من القصص والأمثال على موضع الشاهد لا يعدوه إلى تفاصيله.

قلت: فلم لم يذكر التفاصيل؟

قال: لئلا ينشغل المهتدي بالتفاصيل عن موضع العبرة.

قلت: فلم ذكرت التفاصيل في كتبنا؟

قال: لأنها كتبت من الإسرائيليين وهم مغرمون بالتفاصيل.. لقد ذكر القرآن ذلك عنهم في قصة البقرة.. اسمع هذه القصة الرائعة التي تبين لك النفسية الإسرائيلية:{ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (67) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (68) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (69) قالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (70) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (71) وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (72) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ

الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آَيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (73)} (البقرة)

لا شك أنك قرأت هذه الآيـات من قبـل.. إنهـا تمثـل نفـوس بـني إسرائيل المجادلة.. إنها تصورها تصويرا كـاملا.. وعنـدما أقـرأ مـا ورد في صفة التابوت كما ورد في الكتاب المقدس[1] لا يخطر على بالي إلا هذه الصـورة.. صـورة مـوقفهم من الأمـر الإلهي بـذبح بقـرة.. أي بقرة.

قلت: عـد بنـا إلى التكـرار في القـرآن.. أرانـا تهنـا عنـه.. أم أنـك تعمدت أن نتيه عنه؟

قال: لا.. لقـد ذكـرت لـك أني مسـيحي.. ولسـت أدافـع الآن عن القرآن.. ولكني أذكر لك تأثري بأسلوبه في الإيجاز..

وصلنا في حديثنا إلى سر تكرار قصص الأنبياء في القرآن..

قلت: ذلك صحيح.

قال: لقد ذكرت لك أنه ليس تكرارا كالتكرار.. وإنما هو اسـتعمال لهذه القصص في الأغراض المختلفة.. ذلـك أن هـذه القصـص تحـوي دلالات كثيرة.. فلذلك لجأ القرآن إلى استثمارها كل مرة بطريقـة من طرق الاستثمار.

لعـل أهم مـا ورد تكـراره في القـرآن ــ بحسـب الظـاهر ــ ثلاثـة مواضـيع كـبرى هي: قصـص الأنبيـاء مـع أقـوامهم، وصـور النعيم والعـذاب فى اليـوم الآخـر، ومظـاهر القـدرة الإلهيـة.. وهي من أكـثر

---

(1) في سفر الخروج يأمر موسى بصناعة التابوت بمواصـفات دقيقـة تسـتمر تسـع صفحات، وهذا نمـوذج لمـا ورد من ذلـك (خـروج 37):« وصـنع بصـلئيل التـابوت من خشـب السنط طوله ذراعان ونصف وعرضه ذراع ونصف وارتفاعـه ذراع ونصـف. 2 وغشّـاه بـذهب نقي من داخل ومن خارج. وصنع لـه اكليلا من ذهب حواليـه. 3 وسـبك لـه اربـع حلقـات من ذهب على اربـع قوائمـه. على جانبـه الواحـد حلقتـان وعلى جانبـه الثـاني حلقتـان. 4 وصـنع عصوين من خشب السنط وغشّـاهما بـذهب. 5 وادخـل العصـوين في الحلقـات على جـانبي التـابوت لحمـل التـابوت6 وصـنع غطـاء من ذهب نقي طولـه ذراعـان ونصـف وعرضـه ذراع ونصف. 7 وصنع كروبين من ذهب. صـنعة الخراطـة صـنعهما على طـرفي الغطـاء. 8 كروبـا واحدا على الطرف من هنا وكروبا واحدا على الطرف من هناك. من الغطاء صـنع الكـروبين على طرفيه. 9)وهكذا تستمر إصحاحات كثيرة بنفس السياق من الوصف الدقيق.

الموضوعات ورودا فى القرآن، ولكنهما مع ذلـك تـرد يصـور مختلفـة كل مرة.. وفي ذلك لون من الإعجاز، فقلما يستطيع البشر أن يعبروا عن المعنى الواحد بصور تعبير مختلفة.

سأختار من الموضوع الأول مثالا يقرب لك هذا.. خذ نموذج قصـة نوح فى ثلاث سور من القرآن، هي سـورة هـود من الآيـة (25-44)، وسـورة الأعـراف من الآيـة (59-64)، وسـورة الشـعراء من الآيـة (105-122)

إنها قصة واحدة.. هي قصة نوح مع قومه، وجدالهم معـه، وردوده عليهم، وتكذيبهم له، وإغراقهم فى النهاية ونجاة المؤمنين0.

ولكنا نجد أن لها صورا متعددة في هذه السور، وإن تشـابهت فى عمومياتها، وفى بدئها، وفى نهايتها.

واختلاف الصور فى طرق السرد المختلفـة جمـال في حـد ذاتـه، لأنـه يعطينـا فى كـل مـرة جـوا مختلفـا للقصـة فى نفس القـارئ، والسامع، فكأنها قصة جديدة، مع أن الأشخاص هم هم، والوقـائع هى هى.

وقد ذكرت لك أن القصص فى القـرآن لا يـرد لمجـرد القصـص ـ وإن كـان مشـتملا من الناحيـة الفنيـة الجماليـة على عناصـر الجمـال الفنى التى تجعل له مدخلا لطيفا إلى النفس، فيكون أبلغ تأثيرا فيهـا، مما لو كان مجرد فكرة أو قضية تخـاطب العقـل وحـده ولا تخـاطب الوجدان ـ وإنما رسـالة تـؤدى هـدفا دعويـا ممـا يشـتمل عليـه كتـاب الـدعوة الأعظم، فى تناسـق كامـل بين الهـدف الـدعوى والجمـال الفنى.

ولمـا كـانت الأهـداف الدعويـة كثـيرة ومتعـددة ومختلفـة، يجئ القصص القرآنى فى صورة مختلفة فى كل مرة، متناسقة مع الهدف المقصود من إيراد القصة، مع توافر الجمال الفنى فى كل مرة.

فالهدف من إيراد القصة فى سورة هود هـو مـا نصـت عليـه هـذا

السورة في هذا النص:{ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّـهُ عَلَيْـكَ مِنْهَـا قَـائِمٌ وَحَصِـيدٌ (100) وَمَـا ظَلَمْنَـاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُـوا أَنْفُسَـهُمْ فَمَـا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آَلِهَتُهُمُ الَّتِي يَـدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَـيْءٍ لَمَّا جَـاءَ أَمْـرُ رَبِّكَ وَمَـا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (101) وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُـرَى وَهِيَ ظَالِمَـةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (102) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَـةً لِمَنْ خَـافَ عَـذَابَ الْآَخِـرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ (103)}(هود)

وفي هـذا النص:{ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْـكَ مِنْ أَنْبَـاءِ الرُّسُـلِ مَـا نُثَبِّتُ بِـهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ}(هود:120)

فهى إنذار للناس لكى يحذروا عذاب الآخرة ويتقـوه.. وهى تثـبيت لقلب محمد.. وهى موعظة وذكرى للمؤمنين.

ولذلك كان من المناسب لهـذه الأهـداف الثلاثـة تطويـل العـرض، والإكثار من ذكر التفاصيل فيما وقع بين كل رسول وقومه، وكان ذلك مناسبا بصفة خاصة للهدف المتعلـق بتثـبيت قلب محمـد، وهـو يلقى العنت من قومه.

أما الهدف من إيراد القصة فى سورة الأعراف فهو ما نصت عليه هذا السورة في هـذا النص:{ وَمَـا أَرْسَـلْنَا فِي قَرْيَـةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَـذْنَا أَهْلَهَـا بِالْبَأْسَـاءِ وَالضَّـرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّـرَّعُونَ (94) ثُمَّ بَـدَّلْنَا مَكَـانَ السَّـيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آَبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَـةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (95)(الأعراف)

فالتركيز في هذه السورة ــ حسـب هـذا النص ــ هـو على الأخـذ المباغت، وليس على ما جرى من أحداث بين الرسول وقومه، فلهـذا لم يركز عليها فى السياق.

أما فى سورة الشعراء فهدف إيراد القصة ـ كمـا هـو مـذكور فى السـورة ــ هـو أن الكفـار طـالبوا محمـدا بآيـة تجعلهم يصـدقون أنـه رسول من عند الله. فجاء التركيز فى القصـة على الآيـة، وهى إهلاك المكذبين وتنجية المؤمـنين، وليس على تفاصـيل الأحـداث كمـا كـان الحال فى سورة هود0

وهكذا يتم للقصة جمالها الفنى مع وفائها ـ فى كل مرة ـ بالهـدف من إيـراد القصـة، وتتنـوع الصـور فى كـل مـرة بمـا يناسـب سـياق العرض.

أما الموضوع الثاني، وهـو مشـاهد القيامـة الـواردة في القـرآن.. والتي قد تبدو من حيث الظاهر متشابهة.. لكنها ـ في الحقيقة ـ تتنوع هي الأخرى بحسب الظرف الذي قيلت فيه.

ولذلك تعرض أحيانا فى اختصار شديد، بل فى كلمات معـدودات، وأحيانا بالتفصيل فى آيات متواليات.. وهي فى كـل مـرة تعطى جـوا خاصـا، يتناسـب مـع قصـر السـورة أو طولهـا، ويتناسـب كـذلك مـع السياق المعروض فى السورة، فلكل سورة من سـور القـرآن جوهـا الخاص وسياقها الخاص، وإن اشـتركت جميعـا فى هـدف واحـد كبـير مشـترك، هـو مـا نص عليـه القـرآن من هدايـة للنـاس إلى ربهم، وتعريفهم به، وبما يجب عليهم تجاهه.

اسمع هذا المثال عن الإيجاز البليغ، وهو ما نص عليـه في سـورة القارعة.. اسمع السورة:{ الْقَارِعَةُ (1) مَا الْقَارِعَةُ (2) وَمَـا أَدْرَاكَ مَـا الْقَارِعَةُ (3) يَوْمَ يَكُـونُ النَّاسُ كَـالْفَرَاشِ الْمَبْثُـوثِ (4) وَتَكُـونُ الْجِبَـالُ كَـالْعِهْنِ الْمَنْفُـوشِ (5) فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُـهُ (6) فَهُـوَ فِي عِيشَـةٍ رَاضِيَةٍ (7) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُـهُ (8) فَأُمُّهُ هَاوِيَـةٌ (9) وَمَـا أَدْرَاكَ مَـا هِيَهْ (10) نَارٌ حَامِيَةٌ (11)(القارعة)

وخذ مثالا آخر عن صورة أكثر تفصيلا، ولكن فى غير طـول، وهي ما ورد في سورة الغاشية:{ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (1) وُجُـوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (2) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (3) تَصْـلَى نَـارًا حَامِيَـةً (4) تُسْـقَى مِنْ عَيْنٍ آَنِيَةٍ (5) لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ (6) لَا يُسْـمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُـوعٍ (7) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (8) لِسَعْيِهَا رَاضِـيَةٌ (9) فِي جَنَّةٍ عَالِيَـةٍ (10) لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً (11) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (12) فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَـةٌ (13) وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (14) وَنَمَـارِقُ مَصْـفُوفَةٌ (15) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَـةٌ (16) (الغاشية)

وخذ مثالا آخر عن وصف أكـثر تفصـيلا للعـذاب، وهـو مـا ورد فى سورة الحج:{ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَـرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَـوْقِ رُءُوسِـهِمُ الْحَمِيمُ (19) يُصْـهَرُ بِـهِ مَـا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (20) وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيـدٍ (21) كُلَّمَـا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (22) (الحج)

وخذ مثالا آخر عن مشهد أكثر تفصيلا من مشاهد العذاب، وهو مـا ورد في سورة الواقعة:{ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّـمَالِ (41) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (42) وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ (43) لَا بَارِدٍ وَلَا كَـرِيمٍ (44) إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ (45) وَكَانُوا يُصِـرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ (46) وَكَـانُوا يَقُولُـونَ أَئِذَا مِتْنَـا وَكُنَّا تُرَابًـا وَعِظَامًـا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُـونَ (47) أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُـونَ (48) قُـلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِـرِينَ (49) لَمَجْمُوعُـونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (50)ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّـالُّونَ الْمُكَـذِّبُونَ (51) لَآكِلُـونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ (52) فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (53) فَشَـارِبُونَ عَلَيْـهِ مِنَ الْحَمِيمِ (54) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ (55) هَذَا نُزُلُهُمْ يَـوْمَ الـدِّينِ (56)}(الواقعة)

وفي مقابله هـذا المشـهد المفصـل للنعيم، من سـورة الإنسـان:{ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (11) وَجَزَاهُمْ بِمَـا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (12) مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًـا وَلَا زَمْهَرِيـرًا (13) وَدَانِيَـةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَـا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَـا تَـذْلِيلًا (14) وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْـوَابٍ كَـانَتْ قَـوَارِيرَ (15) قَـوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (16) وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا (17) عَيْنًـا فِيهَـا تُسَـمَّى سَلْسَـبِيلًا (18) وَيَطُـوفُ عَلَيْهِمْ وِلْـدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا (19) وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِـيرًا (20) عَـالِيَهُمْ ثِيَـابُ سُـنْدُسٍ خُضْـرٌ وَإِسْـتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَـاوِرَ مِنْ فِضَّـةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (21) إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَـانَ سَـعْيُكُمْ مَشْكُورًا (22)}(الإنسان)

هذه المشاهد الكثيرة وغيرها.. والتي تختلف في طريقـة عرضـها بحسب السياق الذي وردت فيه تعطيك عرضا حيـا ممتلئـا بالحيـاة (لا

تملك ألا تنفعل به نفسك، ويتأثر به وجدانك.. بل لا تملك إلا أن تعيش فيه كأنه حاضر أمامك اللحظة، يحيط بك من كل جانب، ويأخذ عليـك أقطار نفسك، بل يصل التأثر به أن يعيش الإنسان فيـه كأنـه حاضـر، وكأن الحياة الدنيا ـ التى هى الحاضر فى الحقيقة ـ كانت واقعا قديما، حدث ذات يوم ثم مضى وانقضى، وليست هى التى يعيشها الإنســان فى هذه اللحظة، فيظل خاطر الآخرة حيا فى النفس لا يفارقهـا، بمـا تشـتمل عليـه من صـور النعيم والعـذاب، الأولى تـدفع الشـوق إلى الجنة، والثانية تحذر من الوقوع فى العذاب)[1]

أما الموضوع الثالث، والذي يتجلى فيـه التنويـع أوضـح مـا يكـون، فهو مجال الآيات الدالة على قدرة الله.. فقـد رأى القـرآن أن أوسـع الأبواب التى تعرف الناس بربهم هي الآيات الدالة على قدرته.

ولذلك اعتبر التأمل في الكون من عبادات أولي الألباب، وقـد ورد فيه هذا الوصف لهم:{ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْـلِ وَالنَّهَـارِ لَآَيَـاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَـابِ (190) الَّذِينَ يَـذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًـا وَقُعُـودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (191)(آل عمران)

وبما أن هذه الآيـات الكونيـة تتكـرر مشـاهدتها ممـا جعـل الخلـق يغيبون بألفة النظر إليها عما أودع فيها من أسرار القدرة، فإن القرآن يكرر التنبيه إلى ما فيها من أسرار الإعجاز.

والقرآن عند ذكره لهذه الصـور.. وعنـد تكريـره لهـا لا يعيـد نفس المشاهد، بل هو يغيرها بحسب مقتضيات السياق.. فهو تنوع يقتضــيه المقام لا تكرار يمل منه الطبع.

وسأضرب لـك مثـالا على ذلـك بخلـق السـموات والأرض.. فهمـا يتكـرران في القـرآن كثـيرا.. ولكنهمـا مـع ذلـك لا يـردان في صـورة واحدة، بل يردان في صور شتى تجعلها جديدة وقائمة بذاتها فى كــل مرة:

---

(1) لا يأتون بمثله لمحمد قطب.

اسـمع هـذه النصـوص الـتي تـتردد فيهـا السـماء والأرض.. ولكن بصورة مختلفة عن غيرها، وفي سياق يختلف عن سياق غيرها:

{ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعـاً ثُمَّ اسْـتَوَى إِلَى السَّـمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}(البقـرة:29).. { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْـكِ الَّتِي تَجْـرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِـهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}(البقرة:164).. { الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشـاً وَالسَّـمَاءَ بِنَـاءً وَأَنْـزَلَ مِنَ السَّـمَاءِ مَـاءً فَـأَخْرَجَ بِـهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلا تَجْعَلُـوا لِلَّهِ أَنْـدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُـونَ}(البقـرة:22).. وغيرها من الآيات الكثيرة.

إن كل آية منها ترسم صـورة لا ترسـمها غيرهـا من الآيـات، وهي بالتالي تبث معرفة لا تبثها غيرها من الآيات.

قلت: وعيت المعـنى الـديني الـذي يتطلبـه التكـرار.. وأنـا لا أكـاد أجادلك فيه، فإن تقريـر المعـاني الدينيـة تسـتدعي في أحيـان كثـيرة تكرير ذكرها ليألفهـا الـذهن، وينفعـل لهـا.. ولكـني أتحـدث معـك عن التكرار الذي لا يتوافق مع الذوق الأدبي الرفيع.. لقد سـمعتك تتحـدث عن علاقة إيجاز القـرآن بإعجـازه.. فكيـف يكـون مـوجزا، وفي نفس الوقت لا ينسجم مع هذا الذوق الأدبي الرفيع؟

قال: تريد أن نبحث إذن عن علاقة التكرار ببلاغة القرآن[1].

قلت: يمكنك أن تعبر بذلك.

قال: سأضرب لـك مجـامع أمثلـة ترشـد إلى غيرهـا.. ولنبـدأ بمـا يسمى بتكـرار الأداة، وهي أن تكـرر أدوات معانيـة لهـا معـان بلاغيـة خاصة.

من ذلك مثلا هذه الآية:{ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا

---

(1) انظر (شبهات المشككين) لوزارة الأوقاف المصرية.

ثُمَّ جَاهَـدُوا وَصَـبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْـدِهَا لَغَفُـورٌ رَحِيمٌ) (النحـل:110)، ومثلهـا مـا ورد في نفس السـورة:{ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُـوا السُّـوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِـكَ وَأَصْـلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْـدِهَا لَغَفُـورٌ رَحِيمٌ) (النحل:119)

فالظـاهر من الآيـتين تكـرار (إنَّ) فيهمـا، وهـذا يقتضـى ــ حسـب تصورك ـ الاكتفاء بـ (إنَّ) الأولى، ثم إيراد خبرها، وهو فى الموضعين { لَغَفُورٌ رَحِيمٌ } لكن هذا الظاهر خولف وأعيدت (إنَّ) مرة أخرى.

قلت: أجل.. وهو تكرار.

قال: لا.. لهذه المخالفة سـبب معقـول.. وهـو طـول الفصـل بين (إنَّ) الأولى وخبرها، وهذا أمر يُشعِر بتنافيه مع الغرض المســوقة من أجله (إنَّ) وهو التوكيد. لهذا اقتضت البلاغة إعادتها لتلحظ النسـبة بين الركنين على ما حقها أن تكون عليه من التوكيد.

زيادة على ذلك، فإنه لو أن قارئـاً تلا هـاتين الآيـتين دون أن يكـرر فيهمـا (إنَّ)، ثم تلاهمـا بتكرارهـا مـرة أخـرى لظهـر لـه الفـرق بين الحالتين: قلق وضعف فى الأولى، وتناسق وقوة فى الثانية.

هذا فيما يتعلق بتكرار الأدوات.. ويمكنك أن تطبق مثـل هـذا على كثير من هذا النوع.

هناك أيضا تكرار الكلمة مع أختهـا.. مثلمـا جـاء في الآيـة:{ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَـذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِـرَةِ هُمُ الْأَخْسَـرُونَ) (النمـل:5).. لقد تكـررت (هم) مـرتين، الأولى مبتـدأ خبرهـا (الْأَخْسَـرُونَ) والثانيـة ضمير فصل.

وقـد جئ بهـذا الضـمير لغـرض بلاغي مهم هـو تأكيـد النسـبة بين الطرفين الضمير المنفصل الأول وكلمة (الأخسرون)

ومثـل ذلـك قولـه:{ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَـرُوا بِـرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)(الرعد: 5)

فقد تكررت (أولئك) في هذه الآية ثلاث مـرات.. ولكنهـا مـع ذلـك لم تخل بجمال الآية.. بل ما زادتها إلا جمالا.. بـل مـا زادت معناهـا إلا رسوخا وثبوتا وتحقيقا:

فـالأولى والثانيـة: سـجلتا حكمـاً عامًّا على منكـرى البعث، وهـو كفرهم بربهم، وكون الأغلال فى أعناقهم.

وأمـــا الثالثـــة: فهي بيـــان لمصـــيرهم المهين ودخـــولهم النـــار ومصاحبتهم لها على وجه الخلود الذى لا يعقبه خروج منها.

ولو أسقطت(أَولئك) من الموضعين الثانى والثـالث لـرك المعـنى واضطرب، بل تصـبح الـواو الداخلـة على { الْأَغْلالُ فِي أَعْنَـاقِهِمْ) واو حال، وتصبح الـواو الداخلـة على { أَصْـحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَـا خَالِـدُونَ } عاطفة عطفاً يرك معه المعنى.

لذلك حسن موضع التكـرار فى الآيـة لمـا فيـه من صـحة المعـنى وتقويته، وتأكيـد النسـبة فى المواضـع الثلاثـة للتسـجيل عليهم بسـوء المصير.

قلت: ليس الشأن في كل ذلك.. أنا أعلم ضرورة اسـتعمال بعض الألفاظ، ولا يؤذي تكرارها، بل هي في الكلام من جوهره ولبه.

قال: أراك تحوم حول الفواصل القرآنية إذن.

قلت: أجل..

قال: إن الفواصل القرآنية حقائق كـبرى، وهي نتـائج لمـا ورد في الآيات أو أسباب لها.. ولا يضر تكرارها..

وسأضرب لك مثالا بالفاصلة المعروفة (إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ).. هذه الفاصلة، وما هو مثلها أو قريب منها تكـرر كثـيرا في القـرآن.. ولكنـه في جميع المواضع التي تكرر فيها دل على معنى خاص مرتبط بـذلك الموضع.

إنه مثل الأحكام القضائية، فقد يكرر القاضي حكما واحدا مرات كثيرة في الجلسة الواحدة، ولكنه في كل مرة يكون حكمه مرتبطا بحالة خاصة.

سأقرأ عليك بعض الآيات التي وردت فيها هذه الفاصلة لتدرك العلاقة بين هذا المثل و ما توهمته من تكرار في القرآن.. اسمع: { إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (البقرة:173)، هذه الآية تحكم برفع الإثم عن المضطر، وتعلل ذلك بكون الله غفورا رحيما، وهي بذلك تنبئ عن حكم سلوكي، ثم تبين مصدره العقدي.

ومنها { فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (البقرة:182)، فقد ارتبطت هذه الفاصلة في هذا الموضع برفع الإثم.

ومنها:{ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (البقرة:192)، فقد ارتبطت هذه الفاصلة بانتهائهم.

ومنها:{ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (البقرة:199) فقد ارتبطت هذه الفاصلة باستغفارهم.

ومنها:{ لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (البقرة:226) فقد ارتبطت هذه الفاصلة بفيئهم ورجوعهم إلى أزواجهم.

ومنها:{ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (آل عمران:89)، فقد ارتبطت هذه الفاصلة بتوبتهم وإصلاحهم.

ومنها:{ فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)(المائدة: 3)، فقد ارتبطت هذه الفاصلة بحال المضطر الذي لم يقصد الإثم.

وهكذا نجد هذه الفاصلة كالحكم، أو التعليل للحكم.. زيادة على

ما تبثـه في النفس من معـاني إيمانيـة.. فالمعـاني الإيمانيـة العميقـة تستدعي أن تقرر في النفس بإكثار ذكرها والتنبيه إليها.

قلت: ولكن هناك فواصل أخـرى.. هي آيـات قائمـة بـذاتها.. ومـع ذلك تكررت مرارا، وفي مواضع قريبـة.. بحيث لا تكـاد تـرى الفاصـل بينها.

قال: تقصد ما ورد في سورة الرحمن القمر المرسلات من تكرار آيات معينة.

قلت: أجل، فقد تكررت { فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَـذِّبَانِ) (الـرحمن:13، وغيرها)في مواضع كثيرة من سورة الرحمن.. وتكررت:{ فَكَيْفَ كَانَ عَـذَابِي وَنُـذُرِ) (القمـر:16، وغيرهـا) في مواضـع من سـورة القمـر.. وتكررت:{ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) (المرسلات:15، وغيرها) في مواضع من سورة المرسلات.

قال: فلنبدأ بالسـورة الأولى.. وهـو مـا ورد من تكـرار فى سـورة الرحمن، فقد تكررت هذه الآيـة:{ فَبِـأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَـا تُكَـذِّبَانِ } إحـدى وثلاثين مرة في السورة.. وذلك التكرار قـد نـزل على قومنـا كالمـاء البارد في جوف الظمآن.. فهم يشهرونها، ويشهرون بالقرآن بسببها.

قلت: وحق لهم ذلك.. فكيف يقـع تكـرار في سـورة واحـدة بهـذا العدد الضخم؟

ابتسم، وقال: لكن هذا التكرار ليس تكرارا لشؤون بسـيطة.. إنـه تكرار لقضايا عميقة ترتبط فيها الآية كل مرة بمعنى جديد.

إن هـذا التكـرار الـذي يـأتي مرسـلا لذيـذا دليـل عظيم على أن القرآن يهتم بالمعاني أكثر من اهتمامه بالألفـاظ.. بـل الألفـاظ عنـده حاوية للمعاني دالة عليها، لا مقصودة لذاتها.

إن الطـابع الغـالب على سـورة الـرحمن هـو تعـداد النعم على الثَقَلين من الإنس والجن، ولهذا يأتي بعد كل نعمة أو نِعَم هذه الآية:{

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }

وعلى هذا يمكن فهم عِلّة التكرار الذى حفلت بـه هـذه السـورة.. فهو تذكير وتقرير لنعم الله، وأنها من الظهـور بحيث لا يمكن إنكارهـا أو التكذيب بها.

لقـد قـال بعض الأدبـاء في تعليـل هـذا:(فتكـرار الفاصـلة فى الرحمن.. يفيد تعـداد النِّعَم والفصـل بين كـل نعمـة وأخـرى لأن اللـه سبحانه عدَّد فى السورة نعماءه وذكَّرعباده بآلائه. ونبههم على قـدرها وقدرته عليها ولطفه فيها. وجعلها فاصلة بين كل نعمة لتعرف موضـع مـا أسـداه إليهم منهـا. ثم فيهـا إلى ذلـك معـنى التبكيت والتقريـع والتوبيخ؛ لأن تعداد النِعَم والآلاء من الـرحمن تبكيت لمن أنكرهـا كمـا يبكت منكر أيادى المنعَم عليه من الناس بتعديدها)[1]

قلت: ولكن هذه الفاصلة تكررت تاليـة مـا ليس بنعمـة من وعيـد وتهديد.. ألم تقرأ في هذه السورة:{ يُرْسَـلُ عَلَيْكُمَـا شُـوَاظٌ مِنْ نَـارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنْتَصِرَانِ) (الرحمن:35)، و{ يُعْـرَفُ الْمُجْرِمُـونَ بِسِـيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ) (الرحمن:41)، و{ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ) (الرحمن:43)، فقد تليت كـل آيـة من هـذه الآيـات بتلـك الفاصلة، فكيف يستقيم ذلك.. وظاهر هذه الآيـات بلاء وانتقـام وليس بنعم.

قال: تأمل جيدا.. أليس في الإنـذار والوعيـد وبيـان مـآل الضـالين عصمة للإنسان من الوقوع فيما وقعوا فيه، فيكون مصيره مصيرهم.

قلت: أجل.. ذلك صحيح.

قـال: فبهـذا الاعتبـار يمكن اعتبـار هـذه المواضـع مندرجـة تحت النعم، لأن النعمـة نوعـان: إيصـال الخـير، ودفـع الشـر. والسـورة اشتملت على كلا النوعين فلذلك كررت الفاصلة.

قلت: وما تقول في التكرار الوارد في فاصلة فى سورة القمر؟

---

(1) خزانة الأدب للحموى: ص 144-145.

قال: فى سورة القمر تتكـرر هـذه العبـارة:{ فَكَيْـفَ كَـانَ عَـذَابِي وَنُذُرِ} (القمر:16، وغيرها)، وهي في كل موضع تعقب على قصة من القصص.

وأول القصص المـذكورة في السـورة قصـة قـوم نـوح، فبعـد أن صوَّر القرآن مظـاهر الصـراع بينهم وبين نـوح، ثم انتصـار اللـه لنـوح عليهم، حيث سـلَّط عليهم الطوفـان، فـأغرقهم إلا مَن آمن وعصـمه الله.. تأتي الفاصلة القرآنية لتنزع جلباب التاريخ من قصة نـوح وقـوم نوح وتعيد إليها الحياة بهذه الفاصلة.. والتي سبقت بهذه لآيـة:{ وَلَقَـدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ} (القمر:15)

وقد تصدرت هذه الفاصلة باسم الاستفهام (كيـف) لتـترك الـذهن يبحث في الكيفيـة العجيبـة الـتي يهلـك اللـه بهـا الظـالمين، أو ينجي المخلصين.. وهي بالتالي تعيد الحياة للوقـائع، بـل تجعـل منهـا مجـرد نماذج يمكن أن تتكرر في كل حين.

ومثل ذلك ما ورد في القصة الثانيـة، والـتي اكتنفت بـدءا وانتهـاء بهذه الفاصلة.. اسمع للآيات جميعا:{ كَـذَّبَتْ عَـادٌ فَكَيْـفَ كَـانَ عَـذَابِي وَنُذُرِ (18) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْـتَمِرٍّ (19) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (20) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (21)}(القمر)

أنت ترى أن تكرار العبارة فى البداية والنهاية يبين مـدى أهميتهـا، وكأن هذه العبارة هي المقصودة من القصة.

نحن نستعمل ذلك كثيرا.. ألا تـرى أن من وضـع خريطـة يشـرحها لغيره تجده كل حين يقول:(انظر) ونحوها.

قلت: ذلك صحيح.

قال: فهكذا القرآن يكرر هذا ليخرجنا من النظـر المـألوف، أو من الاسترواح لسماع القصص والاستلذاذ بها إلى الانفعال بمواضع العبرة منها.

وهكذا في سائر المواضع.

قلت: لقد ورد تكرار آخـر فى سـورة القمـر.. وهـو تكـرار قولـه: { وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ) (القمر:17، وغيرهـا) حيث ورد فى السورة أربع مرات.

قال: كما أن التكـرار الأول يشـير إلى أخـذ العـبرة من كـل قصـة على حدة.. فإن هذا التكرار يشير إلى أخذ العـبرة من القـرآن جميعـا باعتباره قد وضع في قالب ميسر للذكر..

قلت: وما تقول في التكرار الوارد في سورة المرسلات، فقد ورد فيهـا:{ وَيْـلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَـذِّبِينَ) (المرسـلات:15، وغيرهـا)في مواضـع منها؟

قال: إن هذه الفاصلة ترد بعد ذكـر حقـائق عظيمـة، وهي تـرهب من التكذيب بها..

قلت: فهي تستعمل منطق الإرهاب إذن؟

قال: أجل.. ذلـك أن القـرآن يخـاطب كـل وجـدان الإنسـان وكـل غرائـزه وطاقاتـه، وبمـا أن الحجب قـد تحـول بين العقـل والتفكـير السليم، بل قد يكذب العقل من غير أن يمعن النظـر، أويـدقق الفكـر بسـبب سـريان الغفلـة واللامبـالاة، فلهـذا احتـاج إلى من ينبهـه إلى خطورة المسألة وأنها تستدعي اهتمامـا كبـيرا.. ولم يكن من وسـيلة لذلك غير هذه الوسيلة.

اسمع لما ورد في السورة من هذين المثـالين، وهمـا يغنيانـك عن غيرهـا.. { أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَـاءٍ مَهِينٍ (20) فَجَعَلْنَـاهُ فِي قَـرَارٍ مَكِينٍ (21) إِلَى قَـدَرٍ مَعْلُـومٍ (22) فَقَـدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَـادِرُونَ (23) وَيْـلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (24) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا (25) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا (26) وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا (27) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (28)(المرسلات)

في هذه الآيـات نجـد { وَيْـلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَـذِّبِينَ)كـررت مـرتين، أمـا الأولى فذكرت بعد ذكر خلق الإنسان، وأما الثانية، فبعد خلــق الأرض، وقد فرق بين الموضعين بهذه الآيـة لتجعـل العقـل يسـيح متـأملا كـل مثال، ليعبر منه إلى التعرف على الله.

النسخ:

قلت: وعيت هذا.. فهل هذا كـل مـا رأيت حذفـه أو اختصـاره من الكتاب المقدس؟

قال: لا.. هناك ناحية أخرى مهمة جدا.. رأيت التقصير فيها بليغا.

قلت: ما هي؟

قال: النسخ.

قلت: لا.. لم نر قومنا يقصـرون في الحـديث عنهـا.. إنهـا أمضـى سلاح نشهره في وجوه المسلمين.. فنحن نطعن في القرآن باعتباره ينسخ مـا ورد في كتب الأنبيـاء[1].. وكتب الأنبيـاء لا ينبغي أن تنسـخ، لأنه لو قلنا بنسخها فإن ذلك يعني أن الرب عندما ينسـخ حكمـا، فهـو دليل على أنه اكتشف خطـأه في الحكم السـابق، وطبعـا لا يصـح أن ينسب هذا لإله.

قال: أنا لم أرد هذا.. ولكني مع ذلك سـأحدثك عن الحقيقـة الـتي وصلت إليها في هذا الموضوع.. والـتي قـد تصـحح هـذا الـوهم الـذي يضحك علينا صغار المسلمين؟

قلت: أتقول في أمضى سلاح نشهره وهما؟

قال: إن أردت ما يتطلبه العقل الصـريح من الحقـائق فمـا ذكـره

(1) من عباراتهم التي يتداولونها في هذا الباب قولهم:« القرآن وحده من دون سائر الكتب الدينية، يتميز بوجود الناسـخ والمنسـوخ فيـه، مـع أن كلام اللـه الحقيقى لا يجـوز فيـه الناسخ والمنسوخ ؛ لأن الناسـخ والمنسـوخ فى كلام اللـه هـو ضـد حكمتـه وصـدقه وعلمـه، فالإنسان القصير النظر هو الذى يضع قوانين ويغيرها ويبدلها بحسب مـا يبـدو لـه من أحـوال وظروف.. لكن اللـه يعلم بكـل شئ قبـل حدوثـه. فكيـف يقـال إن اللـه يغـير كلامـه ويبدلـه وينسخه ويزيله؟ ليس الله إنساناً فيكذب، ولا ابن إنسان فيندم؟! »

قومنا وهم.. بل وهم كبـير.. أمـا إن أردت التقليـد، ولـو على حسـاب الحقائق.. فلنسمه من بـاب المجاملـة سـلاحا ماضـيا.. ولـو أننـا نـراه سلاحا نقتل به أنفسنا لا المسلمين.

قلت: كيف تقول هذا؟

قال: أترى هذه الكراسة التي اختصرت فيها الكتاب المقدس؟

قلت: أجل.. ما بها؟

قال: لم أضع فيها حكما واحدا من أحكام الكتاب المقـدس.. هـذه الكراسة خالية من الشريعة خلوا تاما.

قلت: لم.. أأنت ضد الشريعة؟

قال: ما فائدة شريعة أضعها في الكتاب المقدس.. ثم أرى التعبـد في خلافها.

قلت: وضح لي ما تريد قوله.

قال: اصبر علي.. وسأثبت لك كل ما أقوله.

قلت: تحدث كما تشاء، فأنا لم أقدم بلادكم إلا لأسمع منكم.

قال: ألم تقرأ ما ورد في أعمال الرسـل عن بـولس، أنـه وأتباعـه نسخوا جميع الأحكام العملية للتوراة إلا أربعة: ذبيحـة الصـنم، والـدم، والمخنوق، والزنا، فأبقوا على حرمتها، كما جاء في (أعمـال الرسـل: 15 /24 – 29)

قلت: أجل.. وقد أبقوا على حرمـة تلـك الأربعـة لئلا ينفـر اليهـود الذين اعتنقوا المسيحية حديثاً، وكانوا يحبـون أحكـام التـوراة، ثم لمـا رأى بولس أن هذه الرعاية لم تعد ضرورية نسخها إلا حرمة الزنا كما في (رومية: 14 /14):(فأنا عالم، بل مقتنع من الرب يسـوع، أنـه لا شيء نجس في ذاته. أما إن اعتبر أحد شيئا ما نجسا، فهـو نجس في نظره)

قال: حتى الزنا.. فتحريمه يكاد يكون منسوخا..دعنا الآن نعود إلى بولس، وموقفه من الشريعة.

ألم يعتبر بولس البر بالإيمان، لا بالشريعة؟

قلت: بلى.. وقد قال في رسالته إلى أهل غلاطية (2 /20 – 21):(مع المسيح صلبت، وفيما بعد لا أحيا أنا بل المسيح يحيا في. أما الحياة التي أحياها الآن في الجسد، فإنما أحياها بالإيمان في ابن الله، الذي أحبني وبذل نفسه عني. إني لا أبطل فاعلية نعمة الله، إذ لو كان البر بالشريعة، لكان موت المسيح عملا لا داعي له)

قال: لم يكتف بذلك، بل قال ما هو أخطر من ذلك.. لقد قال في رسالته إلى أهل غلاطية (3 /10 – 13):(أما جميع الذين على مبدأ أعمال الشريعة، فإنهم تحت اللعنة، لأنه قد كتب: (ملعون كل من لا يثبت على العمل بكل ما هو مكتوب في كتاب الشريعة!) أما أن أحدا لا يتبر ر عند الله بفضل الشريعة، فذلك واضح، لأن (من تبرر بالإيمان فبالإيمان يحيا). ولكن الشريعة لا تراعي مبدأ الإيمان، بل (من عمل بهذه الوصايا، يحيا بها. إن المسيح حررنا بالفداء من لعنة الشريعة، إذ صار لعنة عوضا عنا، لأنه قد كتب: (ملعون كل من علق على خشبة)

وقال في رسالته إلى أهل إفسس (2 /15):(أي العداء: إذ أبطل بجسده شريعة الوصايا ذات الفرائض، لكي يكون من الفريقين إنسانا واحدا جديدا، إذ أحل السلام بينهما)

وقال في رسالته إلى العبرانيين (7 /12):(وحين يحدث أي تغير في الكهنوت، فمن الضروري أن يقابله تغير مماثل في شريعة الكهنوت)

ألا ترى أن في هذا القول دليلا قويا للمسلمين الذين غيروا شريعة موسى باعتبار تغير الدين؟

قلت: أجل.. ولكن من قال بأن الكهنوت قد تغير؟

قال: بولس نفسه قال ذلك.. ألم تقرأ رسالته إلى العبرانيين، لقد ورد فيها:(فلو كان العهـد السـابق بلا عيب، لمـا ظهـرت الحاجـة إلى عهد آخـر يحـل محلـه والواقـع أن اللـه نفسـه يعـبر عن عجـز العهـد السابق. وهذا واضح في قول أحد الأنبياء قديما: (لابـد أن تـأتي أيـام، يقول الرب، أبرم فيها عهدا جديدا مع بني إسرائيل وبـني يهـوذا. هـذا العهـد الجديـد ليس كالعهـد الـذي أبرمتـه مـع آبـائهم، حين أمسـكت بأيديهم وأخرجتهم من أرض مصر. فبما أنهم خرقوا ذلك العهد، يقـول الرب، أصبح من حقي أن ألغيه! فهذا هو العهد الـذي أبرمـه مـع بـني إسرائيل، بعد تلك الأيام، يقول الرب: أضع شرائعي داخل ضــمائرهم، وأكتبها على قلوبهم، وأكون لهم إلها، وهم يكونون لي شعبا. بعد ذلك، لا يعلم أحد منهم ابن وطنـه ولا أخـاه قـائلا: تعـرف بـالرب! ذلـك لأن الجميع سوف يعرفونني حق المعرفة، من الصـغير فيهم إلى العظيم. لأني سأصـــفح عن آثـــامهم، ولا أعـــود أبـــدا إلى تـــذكر خطايـــاهم ومخالفاتهم!) وهكـذا، نلاحـظ أن اللـه بكلامـه عن عهـد جديـد، جعـل العهد السابق عتيقا. وطبيعي أن كل ما عتق وشاخ، يكون في طريقه إلى الزوال!)(العبرانيين 8 /7 – 13)

صــمت قليلا، ثم قــال: أعلم أن كثــيرا من النــاس لا يقنعهم هــذا الإجمال.. فلذلك سأذكر لك من تفاصيل الأمثلة ما يقنعك.

أنت تعلم أن الطلاق يجوز في الشريعة الموسـوية لأي سـبب من الأسباب، وأنه يجوز أن يتزوج أي رجل آخر بتلك المطلقة.

قلت: أجل.. وقد ورد النص على ذلك في (التثنية 24 /1-3)

قال: بينما نجد الطلاق محرما في شـريعة عيسـى إلا بعلـة الزنـا، كما في (متى 5 /31): (وقيل أيضا: من طلق زوجته، فليعطها وثيقة طلاق. أما أنا فأقول لكم: كل من طلق زوجته لغير علـة الـزنى، فهـو يجعلها ترتكب الزنى. ومن تزوج بمطلقة، فهو يرتكب الزنى)

ولما اعترض الفريسيون عليه قال كما في (مـتى 19 /8 – 9): (أجاب: (بسبب قساوة قلوبكم، سمح لكم موسى بتطليق زوجاتكم.

ولكن الأمـر لم يكن هكـذا منـذ البـدء. 9ولكـني أقـول لكم: إن الـذي يطلق زوجته لغير علة الـزنى، ويـتزوج بغيرهـا، فإنـه يـرتكب الـزنى. والذي يتزوج بمطلقة، يرتكب الزنى)

إن هذه النصوص تبين علـة النسـخ.. وهي اختلاف أحـوال النـاس الذي يقتضي اختلاف الشرائع.. ولهـذا أخـبر المسـيح أن الطلاق كـان محرما، فنسـخت شـريعة موسـى حرمتـه، وصـار مباحـا، ثم نسـخت شريعة المسيح الإباحة مرة أخرى ورجع حكم الطلاق إلى التحريم.

سكت قليلا، ثم قال: إليك مثالا آخر على وقوع النسخ في الكتـاب المقدس.

ما الذي جاء في الختان في العهد القديم؟

قلت: لقد ورد النص على أحكامه في (سفر التكوين: 17 /9-13)

قال: لقد نص ذلك السفر على أن الختان حكم أبـدي.. ومـع ذلـك نرى بولس ينسخه، كما في رسالته إلى أهل غلاطية (5 /2ـ 6):(ها أنــا بــولس أقــول لكم: إن ختنتم، لا ينفعكم المســيح شــيئا .. ففي المسيح يسوع، لا نفع للختـان ولا لعـدم الختـان، بـل للإيمـان العامـل بالمحبــة) .. وفي نفس الرســالة إلى أهــل غلاطيــة (6 /13):(لأن الذين يختتنون هم لا يحفظون الناموس، بــل يريـدون أن تختتنـوا أنتم لكي يفتخروا في جسدكم)

وفي (أعمال الرسل 21 /21):(وقد أخبروا عنك أنك تعلم جميع اليهود الذين بين الأمم الارتداد عن موسـى قـائلا ان لا يختنـوا اولادهم ولا يسلكوا حسب العوائد)

أليس هذا نسخا صريحا لحكم نص الكتاب المقدس على أنه حكم أبدي.. بل إن الأنبياء كلهم من عهد إبراهيم وأبناءه قالوا به، ولم يجرؤ أحد على نسخه.. بل إن المسيح نفسه مختتن وبـولس نفسـه مختتن والتلاميــذ كلهم مختتنــون.. لكن بــولس أبى ذلــك ورفض أن يختتن

الناس، ونسخ شريعة الختان، وحرم الختان على الناس.

سكت قليلا، ثم قال: ألم يرد في الكتاب المقدس أن تعظيم السبت كان حكما أبديا في الشريعة الموسوية، وما كان لأحد أن يعمل فيه أدنى عمل؟

قلت: أجل.. فقد ورد في (التكوين 2 /ـ 3):(وبارك الله اليوم السابع وقدسه، لأنه استراح فيه من جميع أعمال الخلق) .. وفي (الخروج 23 /12):(اعمل ستة أيام فقط، وفي اليوم السابع تستريح لكي يستريح أيضا ثورك وحمارك، وينتعش ابن أمتك والغريب) .. وفي (اللاويين 23 /3):(ستة أيام تعملون، أما اليوم السابع فهو سبت راحة ومحفل مقدس. لا تقوموا فيه بأي عمل، بل يكون سبت راحة للرب حيث تقيمون)

قال: فما حكم من نقض السبت في العهد القديم؟

قلت: لقد جاء في (سفرالعدد 15/ـ 32-36):(ولما كان بنو إسرائيل في البرية وجدوا رجلا يحتطب حطبا في يوم السبت. فقدمه الذين وجدوه يحتطب حطبا إلى موسى وهارون وكل الجماعة. فوضعوه في المحرس لأنه لم يعلن ماذا يفعل به. فقال الرب لموسى: (قتلا يقتل الرجل. يرجمه بحجارة كل الجماعة خارج المحلة). فأخرجه كل الجماعة إلى خارج المحلة ورجموه بحجارة فمات كما أمر الرب موسى)

وقد كان اليهود المعاصرون للمسيح يؤذونه ويريدون قتله لأجل عدم تعظيم السبت، كما جاء في (يوحنا 5 /16):(فأخذ اليهود يضايقون يسوع لأنه كان يعمل هذه الأعمال يوم السبت)

وفي (يوحنا 9 /16):(فقال بعض الفريسيين: (لا يمكن أن يكون هذا الرجل من الله، لأنه يخالف سنة السبت). ولكن بعضهم قالوا: (كيف يقدر رجل خاطيء أن يعمل مثل هذه الآيات؟) فوقع الخلاف بينهم)

قال: أرأيت جميع هذه النصوص الـتي ذكرتهـا.. والـتي تجعـل من السبت شريعة من أعظم الشرائع.. لقد محوتهـا جميعـا من نسـختي هذه التي اختصرت فيها الكتاب المقدس.

قلت: لم؟

قـال: لأنـه ليس في ذكرهـا أي فائـدة.. بالإضـافة إلى أنهـا تعلم المسـيحيين التهـاون باللـه وبـأوامر اللـه.. أليس تعظيم السـبت منسوخا؟

قلت: بلى.. فقد قال بولس في رسالته إلى كولوسي (2 /16 - 17):(ـ 16.فلا يحكم عليكم أحد في قضية الأكـل والشـرب، أو في القضايا المتعلقـة بالأعيـاد ورؤوس الشـهور والسـبوت؛ فهـذه كـانت ظلالا لما سيأتي، أي للحقيقة التي هي المسيح)

قلت: فهمت هـذا ووعيتـه.. ولكن قـرآن المسـلمين لم يخلـو من نسخ.. وهو بذلك يتفق مع الكتاب المقدس في وجود ما لا فائدة فيه.

قال: مع أن أكثر علماء المسـلمين يقولـون بوجـود المنسـوخ في القرآن إلا أني بعد البحث والنظر لم أجـد شـيئا من ذلك[1].. كـل مـا وجدته أن هناك أحكامـا معينـة ترتبـط بظـروف خاصـة، فـترتفع تلـك الأحكام بارتفاع الظروف التي وجدت فيها..

ولذلك فقد رأيت القرآن جميعا كتابا محكمـا يمكن الاسـتفادة من كـل آيـة من آياتـه، بـل من كـل من كلماتـه، بـل من كـل حـرف من حروفه.

وهذا مـا نص عليـه قـرآن المسـلمين، فقـد ورد فيه:{ الـر كِتَـابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ}(هود:1).. ووصف في آية

[1] هـذا مـا يميـل إليـه المؤلـف، وهـو رأي علمـاء أجلاء في القـديم والحـديث، ومن المحدثين: الدكتور عبد المتعال الجبرى، وله فيه مؤلف خاص نشـرته مكتبـة وهبـة بالقـاهرة، والدكتور محمد البهى، والشيخ محمد الغزالى.. أما جمهور الفقهاء، وعلماء الأصول فيقرونه، وقد خصصوا له فصولاً مسهبة فى مؤلفاتهم فى أصول الفقه، قل من لم يذكره منهم قـدماء ومحدثين.

أخرى بأنه { لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ}(فصلت:42)

قلت: فقد جاء في القرآن:{ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ) (الأنفال:65) .. فهذه الآية منسوخة بالآية الأخرى في نفس السورة:{ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) (الأنفال:66)

ألست ترى بين الآيتين نسخا واضحا، فالآية الأولى توجب مواجهة المؤمنين لعدوهم بنسبة العشر، أما الثانية، فتوجب مواجهة المؤمنين للعدو بنسبة النصف؟

قال: لقد وضح القرآن السر في كلا النسبتين.. وليس بينهما أي نسخ.. فالنسبة الأولى من العزيمة المرتبطة بأولي العزم.. وأما الثانية، فرخصة مرتبطة بأصحاب الرخص.

قلت: فقد ذكر المفسرون أن قوله:{ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ } (البقرة: 256) منسوخ بقوله:{ قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} (التوبة:29)

وهو واضح.. فإحدى الآيتين تمنع الإكراه فى الدين، والأخرى تأمر بالقتال والإكراه فى الدين.

قال: لقد أخطأوا خطأ شنيعا.. إن هذا تحريف لمعاني القرآن السامية.. ألا ترى الفرق بين الآيتين واضحا؟.. إن قوله:{ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ } سلوك دائم ليس هناك ما يبطله، فلا يمكن أن يكره أحد على الدين..

أما الآية الثانية، والتي زعموا أنها الناسخة، فلها سبب نزول

خاص. فقد كان اليهود قد نقضوا العهود التى أبرموها معهم المسلمون، وتآمروا مع أعداء المسلمين للقضاء على الدولة الإسلامية فى المدينة، وأصبح وجودهم فيها خطراً على أمنها واستقرارها، فأمر الله المسلمين بقتالهم حتى يكفوا عن أذاهم بالخضوع لسلطان الدولة، ويعطوا الجزية فى غير استعلاء.

إن هذه الآية لم تأمر بقتال اليهود لإدخالهم فى الإسلام، ولو كان الأمر كذلك ما جعل الله إعطاءهم الجزية سبباً فى الكف عن قتالهم، ولاستمر الأمر بقتالهم سواء أعطوا الجزية أم لم يعطوها، حتى يُسلموا أو يُقتلوا وهذا غير مراد ولم يثبت فى تاريخ الإسلام أنه قاتل غير المسلمين لإجبارهم على اعتناق الإسلام.

ومثيرو هذه الشبهة يعلمون جيداً أن الإسلام أقر اليهود بعد الهجرة إلى المدينة على عقائدهم، وكفل لهم حرية ممارسة شعائرهم، فلما نقضوا العهود، وأظهروا خبث نياتهم قاتلهم المسلمون وأجلوهم عن المدينة.

ويعلمون كذلك أن النبى عقد صلحاً سِلْمِيًّا مع نصارى تغلب ونجران، وكانوا يعيشون فى شبه الجزيرة العربية، ثم أقرهم عقائدهم النصرانية وكفل لهم حرياتهم الاجتماعية والدينية.

وفعل ذلك مع بعض نصارى الشام. هذه الوقائع كلها تعلن عن سماحة الإسلام، ورحابة صدره، وأنه لم يضق بمخالفيه فى الدين والاعتقاد.. فكيف ساغ لهؤلاء الخصوم أن يفتروا على الإسلام ما هو برئ منه[1]؟

قلت: فما تقول في قوله:{ يَسْأَلونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا)(البقرة: 219) مع قوله:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (المائدة:90).. أليست الثانية ناسخة للأولى؟

1() انظر: شبهات المشككين.

قال: لا.. بل إن فى الآية الثانية توكيـداً لمـا فى الآيـة الأولى، فقـد جاء فى الآية الأولى:{ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَـا أَكْبَـرُ مِنْ نَفْعِهِمَـا }، أمـا الثانيـة، فقـد أكـدت هـذا المعـنى، فـبينت أن الخمـر { رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ }

قلت: والمنافع التي ذكرت في الآية الأولى؟

قـال: لقـد ذكـر القـرآن أن للخمـر منـافع، ولكنـه ذكـر أن فيهـا أضرارا.. ثم ذكر أن نسبة الضرر أكبر من نسبة المنفعة.. والعاقل هو من لا يقبل على ما فيه مضرة، فكيـف بمن غلبت مضـرته منفعتـه؟.. ولهذا توقف العقلاء عن تناول الخمر من الآية الأولى، واحتـاج غـيرهم إلى ذلك البيان الشافي الذي نزلت به الآية الثانية.

***

قال هذا.. ثم سلمني الكراسة، ففتحتها فلم أجد فيها إلا صفحات قليلة، لا تتجاوز السورة الواحدة من سور القرآن.

قلت: أهذا فقط ما أبقيت من الكتاب المقدس؟

قال: لا ينبغي أن نغفل بحجم الكتاب المقدس عن حقائقـه.. لقـد رأيت الكثـير من النـاس يسـتغل الحجم الضـخم للكتـاب المقـدس ليتلاعب بالـدين وبـالأخلاق كمـا يشـاء.. هـو يفعـل تمامـا مـا يفعلـه المحـامون الـذين يبحثـون في القـوانين الطويلـة العريضـة، ليضـربوا بعضها ببعض.

ولـذلك رأيت أن هـذه الكراسـة تكفي عن كثـير من اللغـو الـذي يمتلئ به كتابنا المقدس.

قـال ذلـك، ثم اسـتأذن في الانصـراف بـأدب.. فـأذنت لـه، وقـد شعرت بأن أشعة كثيرة من شـمس محمـد تطـل عليـه، ويوشـك أن تحتضنه.

ورأيت في نفس الوقت بعض البصيص من النور ينزل على قلـبي

ليقربني من محمد ومن شمس محمد.

مددت يدي إلى محفظتي لأستخرج بعض ما أحتاجه منها، فامتدت يدي إلى الورقة التي سلمها لي صاحبك، فعدت أقرأ فيها..

لقــد أيقنت حينهــا أن هــذا الســور الثــالث من أســوار الكلمــات المقدسة لم يتحقق به أي كتاب في الدنيا غير القرآن الكريم.

رابعا ـ الحقيقة

في اليوم الرابع.. كلفني أخي بالسير إلى موثق لنوثق عنده بعض العقود التي أجرتها مطبعة الكنيسة مع بعض المتعاملين.

سرت إليـه، وقـد حملت معي جميـع الوثـائق الـتي رأيت أنـه من المحتمل أن يطلبها مني، فأنا أعلم مدى الحزم الذي يتحلى به هؤلاء.

كان من الطبيعي أن يختار أخي موثقا مسيحيا، بل موثقا له علاقة طيبة بالكنيسة، ولكني مع ذلك سـرت، وفي نفسـي بعض الألم، لأني لا أحب الاشتغال بشـؤون الإدارة، ومـا يرتبـط بهـا، بالإضـافة إلى أني استلذذت جلساتي الحوارية في الأيـام السـابقة، فـرغبت نفسـي عن غيرها.

دخلت إلى الموثق، فوجدت مكتبه العريض مملوءا بنسخ مختلفــة للكتـاب المقـدس، وهـو يحمـل في يـده آلـة حاسـبة، وأمامـه أوراق مبعثرة، منها ما هو على مكتبه، ومنها ما هو على الأرض.

تعجبت من هذا السلوك الغريب الذي لم أعهده في أمثال هــؤلاء، فوددت أن أسأله عن سـر هـذه النسـخ من الكتـاب المقـدس، وسـر مقارناته بينها، وسر الأوراق المبعثرة، لكني لم أره يعيرني أي اهتمام، بل رأيته منصرفا كلية إلى مقارناته، وكأنه لم يشعر بدخولي عليه.

الحساب:

فجأة، أعطاني الآلة الحاسبة، وقال: احسب أنت.. لقــد مللت من تكرار الحساب.. ولست أدري هل الآلة هي المخطئة.. أم هذه النسخ هي المخطئة؟

أمســكت بالآلــة، فــراح يقــرأ دون أن ينتظــر مــني أي إجابــة: (لجرشون عشـيرة اللبنـيين وعشـيرة الشـمعيين. هـذه هي عشـائر الجرشونيين. المعدودون منهم بعدد كـل ذكـر من ابن شـهر فصـاعدا المعدودون منهم سبعة آلاف وخمس مئة) (العدد 3/21-22)..

التفت إلي، وقال: عدد الجرشـون من ابن شـهر فصـاعدا 7500 فردا.. اكتب 7500.

كتبتهـا، ثم راح يقـرأ:(ولقهـات عشـيرة العمرامـيين وعشـيرة اليصهاريين وعشيرة الحبرونـيين وعشـيرة العزيئيلـيين. هـذه عشـائر القهاتيين بعدد كل ذكر من ابن شهر فصاعدا ثمانية آلاف وسـت مئـة حارسين حراسة القدس) (العدد: 3/27-28)

التفت إلي، وقـال: عـدد بـنى قهـات أليعـازر 8600.. أضـف إلى العدد السابق 8600.

أضـفتها، ثم راح يقـرأ:(ولمـراري عشـيرة المحلـيين وعشـيرة الموشيين. هذه هي عشائر مراري. والمعدودون منهم بعدد كـل ذكـر من ابن شهر فصاعدا ستة آلاف ومئتان) (العدد: 3/33-34)

التفت إلي، وقـال: عـدد مـرارى 6200.. أضـف إلى مـا سـبق 6200.

أضفتها، فقال: احسب الآن المجموع.. كم تجده؟

حسبت، فقلت: 7500 + 8600 + 6200 تساوي 300 22.

قال: ولكن الكتاب المقدس يقـول غـير هـذا.. اسـمع.. راح يقـرأ: (جميع المعدودين من اللاويين الذين عدهم موسـى وهـارون حسـب قول الرب بعشائرهم كل ذكر من ابن شهر فصاعدا اثنـان وعشـرون ألفا)(العدد: 3/39)

أين الثلاثمائة من بني لاوي.. أين ذهب الثلاثمائة من بني لاوي..!؟

راح يكــرر ذلــك، ويضــع يــده على رأســه، وكأنــه مســؤول عن ضياعهم، ثم قال: هل الرب الذي خلق كل هذا الكون المؤسس على حساب دقيق لا يعرف كيف يحل مسألة جمع بهذه البساطة.. إن هـذا النص يكاد يجنني.

لم أجد ما أقول له.. لكنه تماسك قليلا، ثم شرب قليلا من العصير كان بجانبه، وقال: لا بأس.. قد نقبـل هـذا الخطـأ.. لكنـه ليس الخطـأ الوحيد.

أعطاني ورقة، وقال: اكتب كل ما أمليـه عليـك، ولا تكتب غـيره.. إياك أن تكتب غيره.. نحن الآن نتعامـل مـع الكتـاب المقـدس، لا مـع عقود البشر.

أمسكت بالورقة، وأنا محتار في تصرفات هذا الرجل.. ولكــني لم أظهر أي ضيق، فقد كان سلوكه العلمي يتناسب مـع مـا جبلت عليـه من اهتمام بالتحقيق والتوثيق، وبغض للتقليد والإذعان.

راح يقـرأ:(ومـا لبث الآراميـون أن انـدحروا أمـام الإسـرائيليين، فقتلت قـوات داود رجـال سـبع مئـة مركبـة، وأربعين ألـف فـارس. وأصيب شوبك رئيس الجيش ومات هناك) (صموئيل الثاني: 10 /18)

التفت إلي، وقال: اكتب..

قلت: ما أكتب؟

قال: ما سـمعته من فقـرة صـموئيل الثـاني.. لقـد ذكـر أن جيش داوود قتل من الآراميين سبع مئة مركبة وأربعين ألف فارس كما قتل شوبك رئيس الجيش.

كتبت العدد الذي طلبه مني، ثم قال: هل كتبته؟

قلت: أجل..

قـال: اسـمع مـا ورد في (الأيـام الأول 19 عـدد18) حـول نفس الموضوع:(وقتل داود سبعة آلاف من قادة المركبات، وأربعين ألفا من المشاة، كما قتل شوبك رئيس الجيش)

التفت إلي، وقال: اكتب..

قلت: ما أكتب؟

قال: ما سمعته من فقرة الأيام الأول (19عـدد 18).. فقـد ذكـر أن جيش داوود قتل في نفس المعركة مع الآرامـيين سـبعة آلاف من قادة المركبات وأربعين ألـف من المشـاة وأيضـا قتـل شـوبك رئيس الجيش.

كتبت العدد الذي طلبه مني، ثم قال: هل كتبته؟

قلت: أجل..

قال: هل هما متفقان في كل ما ذكراه؟

لم أجد إلا أن أقول: لا.. لكنهمـا متفقـان في مـوت شـوبك رئيس الجيش.

قال: أعلم ذلك.. وهـذا مـا يؤكـد أن الحادثـة واحـدة.. أريـد سـائر الأعداد.

قلت: الفرق بين الفقرتين كبير في عدد المقتولين من المحـاربين على المركبات ففي الأولى رجال سبعمائة، وفي الثانية سـبعة آلاف.. واختلف النصان في كون الأربعين ألفا المقتولين من المشــاة، أم من الفرسان.

أمسك برأسه وقال: لطالما احترت هل الحقيقة هي 700 مركبـة أم 7000 ؟، وهل هم 40.000 فارس أم هم من المشاة؟

ابتسمت، وقلت: وما الذي يحيرك في هذا.. وما اهتمامك له؟

لم أدر أنه سيغضب ذلك الغضب الذي أبداه لي، لقد احمر وجهـه، وراح يصيح: كيف تقول هذا.. أنـا مجـرد موثـق بسـيط.. أوثـق أحيانـا المـتر والمـترين والـدرهم والـدرهمين.. ومـع ذلـك لا أضـيع قيراطـا واحدا.. بل ولا حبة واحدة.. فكيف بالكتاب المقدس.. كلام الله الأزلي الوحيد.. كيف يقع في مثل هذه الأخطاء!؟

صمت، فتمالك نفسه قليلا، وقال: ارم تلـك الورقـة.. وخـذ ورقـة جديدة، واكتب ما سأمليه عليك.. لا تكتب إلا ما أمليه عليك.

راح يقرأ من (صـموئيل الثـاني: 8 /4).:(وأسـر من جيشـه ألفـا وسـبع مئـة فـارس وعشـرين ألـف راجـل، وعـرقب داود كـل خيـول المركبات باستثناء مئة مركبة)

التفت إلي، وقال: اكتب الذين أسـرهم داوود (1700) فـارس و (20.000) راجـل، أي من المشـاة.. هـذا حسـب عبـارة صـموئيل الثاني: 8 /4.. اكتب هذا أيضا.

كتبت مـا طلب مـني، ثم راح يقـرأ من (الأيـام الأول: 18 /4): (واسـتولى داود على ألـف مركبـة من مركباتـه، وأسـر سـبعة آلاف فارس وعشرين ألف راجل، وعرقب داود كل خيل المركبات)

التفت إلي، وقال: اكتب الذين أسرهم داوود ــ حسـب نص الأيـام الأول 18 عدد4 ـ هم (7000) فارس.

كتبت ما أمرني.. فقال: هل هنا فرق بين النصين؟

قلت: أجل.. وهو واضح.. زيـادة على أن نص صـموائيل الثـاني لم يذكر الألف مركبـة الـتي اسـتولى عليهـا داود كمـا في الأيـام الأول.. واستثني نص صموائيل الثاني مئة مركبة من المركبـات، بينمـا الأيـام الأول لم يستثن شيئا من المركبات.

نظر إلي، وكأنه يتهمـني بـالتحريف، وقـال: لمـاذا كـل هـذا؟.. ألم تكن النسـخ بينهم؟.. فلم لم يصـححوها كمـا صـححوا غيرهـا.. مـاذا عساي أقول لمن يضحك علي من موثقي المسلمين؟

قلت: وما علاقة المسلمين بهذا؟.. ألهم إرث من غنائم داود؟

قال: لقد شرحت كتابهم كما شرحت الكتاب المقدس.. وحــاولت أن أعثر على خطـأ واحـد، فلم أجـد.. بـل وضـعت جـائزة قيمـة لمن يكتشـف لي خطـأ واحـدا.. فلم يأخـذ جـائزتي أحـد.. وهي لا تــزال

مرصدة.. وأنا أعلم أني سأموت وأتركها.. فلن يجد أحد أي تخلف لذلك الكلام العظيم..

لقد قال ربهم في وصف كتابه، وهو يتحدى الكل: { لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [فصلت: 42]

سكت قليلا، ثم قال بقوة: ارم تلك الورقة.. سأحرقها بعد أن تخرج..

قلت: لم؟

قال: لأنها ستحرق الكتاب المقدس لو وقعت في يد عاقل من قومي وقومك.

أعطاني ورقة، وقال: خذ هذه الورقة الجديدة.. وسنجري مقارنة أخرى.. ولا تكتب إلا ما أطلبه منك.. لا تفعل مثلما فعل الكتبة الكذبة.

أمسكت الورقة، وراح يقرأ من (صموئيل الثاني:23 /8).:(وهذه أسماء رجال داود الأبطال: يوشيب بشبث التحكموني، وكان قائد الثلاثة، هاجم برمحه ثماني مئة وقتلهم دفعة واحدة)

التفت إلي، وقال: اكتب: اسم أحد رجال داود الأبطال هو (يوشيب بشبث التحكموني).. واكتب بأن هذا الرجل قد هاجم برمحه 800 رجل، فقتلهم دفعة واحدة فضلا عن أنه كان قائد الأبطال الثلاثة.. هذا كله بحسب صموائيل الثاني.

كتبت ما أمرني به، ثم راح يقرأ من (الأيام الأول: 11 /11): (وهؤلاء هم أبطال داود: يشبعام بن حكموني، رئيس الأبطال الثلاثة، هاجم برمحه ثلاث مئة وقتلهم دفعة واحدة)

التفت إلي، وقال: اكتب: نفس الرجل إسمه يشبعام بن حكموني، وقد هاجم برمحه 300 رجل فقتلهم دفعة واحدة فضلا عن أنه كان قائد الأبطال الثلاثة.. هذا ما نفهمه من فقرة أخبار الأيام

الأول.

كتبت ما أمرني به، فقال: هل هناك فرق بين النصين؟

قلت: أجل.. فهناك اختلاف في اسـم الرجـل.. واختلاف في عـدد الذين قتلهم.. ففي صموائيل ذكر (800) وفي الأخبار ذكر (300) فهناك فرق بين العددين مقداره (500) رجل.

قال: أجل.. وهو فرق كبير.. ولكن ما الصحيح؟.. هل هـو يوشـيب أم هو يشبعام ؟ .. وهل هم ثمانمائة أم ثلاثمائة ؟

أمسك رأسه بيده، وقال: وفوق ذلك كله هل يعقل أن رجلا واحدا هاجم برمحه هذا العدد من الناس، فقتلهم دفعة واحدة!؟

ضحك، وقال: هل وقف كل هؤلاء في صف واحـد منضـبط تمامـا ينتظرون أن يقذف هذا البطل الهمام برمحـه بقـوة عظيمـة ليخـترق هذا الصف من أوله إلى آخـره، فيقتـل الجميـع دفعـة واحـدة.. ثم أي رمح يطيق أن يفعل هذا!؟

سكت قليلا، ثم قال: لماذا أكلف نفسي بتوثيق مثل هذا الكتـاب.. إن توثيق عقـود اللصـوص والمجـرمين أسـهل من توثيـق مثـل هـذه النصـوص.. إن المجـرمين أكـبر عقـولا من أن يقعـوا في مثـل هـذه الحماقات.

نظـر إلي بعبـوس، وكـأني شـريك في الجريمـة، وقـال: ارم تلـك الورقة بسرعة.. إنها ستحرق علينا المكتب لو بقيت.

رميت الورقة على الأرض المملوءة بالأوراق الممزقـة.. أعطـاني ورقة أخرى، وقال: اكتب ما أمليه عليك.. ولا تكتب إلا ما أمليه عليك.

راح يقـرأ من (ملـوك الأول: 5 /11):(وأعطى سـليمان حـيرام عشرين ألف كر حنطة طعاما لبيته وعشرين كر زيت رض. هكذا كان سليمان يعطي حيرام سنة فسنة)

التفت إلي، وقـال: اكتب مـا أعطى سـليمان لحـيرام ملـك صـور مقابل الاخشاب.

كتبت ما ذكـره، فـراح يقـرأ من (أخبـار الثـانى:2 /10):(وهانـذا أعطي للقطاعين القاطعين الخشـب عشـرين ألـف كـر من الحنطـة طعاما لعبيدك، وعشرين الـف كـر شـعير، وعشـرين ألـف بث خمـر، وعشرين ألف بث زيت)

التفت إلي، وقـال: اكتب مـا أعطى سـليمان لحـيرام ملـك صـور مقابل الاخشاب.

كتبت.. فقال، وقد بدا عليه التعب: أهناك فرق بينهما؟

قلت: أجل.. فروق كبيرة.

قال بصوت ضعيف: ارم الورقة إذن.. وخـذ ورقـة أخـرى.. واكتب ما أمليه عليك.

را ح يقرأ من (أخبار الثانى: 36 /ـ 9):(كان يهوياكين ابن ثمـاني سنين حين ملك وملك ثلاثة اشهر وعشرة أيـام في أورشـليم.وعمـل الشر في عيني الرب)

التفت إلي، وقال: اكتب عمر يهوياكين حينمـا أصـبح ملكـا حسـب هذا السفر.

كتبت ما طلب مني، فراح يقرأ من (ملوك الثـانى: 24/8):(كـان يهويـاكين ابن ثمـاني عشـرة سـنة حين ملـك وملـك ثلاثـة اشـهر في أورشليم. واسم أمه نحوشتا بنت الناثان من أورشليم)

التفت إلي، وقال: اكتب عمر يهوياكين حينمـا أصـبح ملكـا حسـب هذا السفر.

كتبت ما طلب مـني، فقـال بصـوت ضـعيف: هـل تجـد من فـرق بينهما؟

قلت: أجــل.. ففي (أخبــار الأيــام الثــاني 36 عــدد 9)أن عمــر يهوياكين حينما تولى الحكم هو ثماني سنوات، وأن مدة ملكه هو ثلاثة أشهر وعشرة أيام (100 يوم) وأنه كفر في خلال مدة حكمــه هــذه أو عصى الرب وأن حكمه كان في أورشليم.

ومــا نفهمــه من فقــرة (الملــوك الثــاني 24 عــدد 8) أن عمــر يهوياكين حينما تولى الحكم أو الملك هو ثماني عشرة سنة، وأن مدة ملكه هو ثلاثة أشـهر فقـط (90 يـوم) وأن إسـم أمـه نحوشـتا بنت ناثان وأنها من أورشليم.

قال: هناك فرق واضح إذن بينهما؟

قلت: أجل.. ولكن مع ذلك، فاسمح لي أن أتدخل في ترجيح أحــد السفرين.

نظر إلي باهتمام، وأمسـك ورقـة، وقـال: إذن سـأظفر بالحقيقـة التي عشت عمري تائهـا في البحث عنهـا.. أي السـفرين محـق فيمـا ذهب؟

قلت: الثانية أكثر معقولية، لقد ورد في (الملـوك الثـاني 24 عـدد 15):(وسبى يهوياكين الى بابل وام الملـك ونسـاء الملـك وخصـيانه واقوياء الارض سباهم من اورشليم الى بابل).. فهذا النص يدل على أن لهذا الملك نساء.. ومن الممتنع عقلا أن يكون هنـاك رجـل عمـره ثماني سنوات، وعنده نساء زوجات وسراري[1].

ضحك، وقال: عن أي عقل تتحدث؟.. عقلك، أم العقل الذي صاغ الكتاب المقدس؟.. ألا تعلم أن في الكتاب المقدس طفلة بمجـرد أن فطمت حبلت وولدت؟

---

(1) لقد اعترف قامو س الكتاب المقدس نفسه بالوقوع في هذا الخطأ فلقد جاء في قاموس الكتاب تحت ترجمة إسم (يهوياكين) هكذا نصاً: يَهُوياكين: اسم عبري معناه (يهــوه يثبت)، وهو ابن يهوياقيم ملك يهوذا وخليفته. تبوأ العرش سنة 597 ق.م. وكان، كما جاء في (2 مـل 24:ـ 8) ابن 18 سـنة، وابن 8 سـنين كمـا جـاء في أخبـار الثـانى 36عـدد 9. ولكن الأرجح أن رواية سفر الملوك الثاني في الرواية الصحيحة.

ألا تعرف لورحامة بنت هوشع التي أنجبها من زوجـة زانيـة حينمـا أمره الرب أن يتزوج زانية؟

قلت: بلى أعرفها.. لقد ورد ذكرها في الكتاب المقدس.

قـال: فهـذه البنت.. لورحامـة.. بمجـرد أن فطمت حبلت وولـدت ابنا.. ولا أدري كيف تحبل بعد أن تفطم.. ومن هو زوجهـا؟.. لقـد جـاء في (هوشع: 1 /8):(ثم فطمت لورحامة وحبلت فولدت ابنا)

رمى الورقة من يده، وقال: إذا تكلمت في المـرة القادمـة فتكلم كلاما معقولا.. أعطاني ورقة أخرى بيضـاء، وقـال: ارم تلـك الـتي في يدك، وخذ هذه الورقة.. ولا تكتب إلا ما أمليه عليك.

راح يقرأ من (تكوين 6 عدد3):(فقال الـرب:(لن يمكث روحي مجاهدا في الإنسان إلى الأبد. هو بشري زائغ، لذلك لن تطـول أيامـه أكثر من مئة وعشرين سنة فقط)

التفت إلي، وقال: اكتب: لا ينبغي أن يتجاوز عمـر بشـر أكـثر من 120 سنة.. هذا هو قرار الرب حسب (تكوين 6 عدد3).

كتبت ما طلبه مني، فراح يقرأ (تكوين 9 عدد29):(من ثم مـات وله من العمر تسع مئة وخمسون سنة) وقال: هذا عمر نوح.. اكتبه.

كتبت ما طلبه مني، فـراح يقـرأ من (تكـوين:11/ـ 32):(وكـانت أيام تارح مئتين وخمس سنين)، وقال: هذا عمر تارح.. اكتبه إنه 205 سنة؟

كتبت ما طلبه مني، فراح يقرأ من (تكوين:11/21):(وعاش رعو بعد ما ولد سروج مئتين وسبع سنين وولد بنين وبنات)، وقال: عاش رعو أكثر من 207 سنة؟

كتبت ما طلبه مـني، فـراح يقـرأ من (تكـوين:11/23):(وعـاش سروج بعد ما ولد ناحور مئتي سنة وولد بنين وبنـات)، وقـال: عـاش سروج أكثر من 200 سنة.

كتبت ما طلبه مني، فقال: لدي نصوص كثيرة.. فلنكتف بالمقارنة بين هــذه النصــوص ومــا ورد في النص الأول.. النص الــذي ورد في (تكوين 6 عـدد3).. والـذي قـرر فيـه الـرب أن الـروح لن تبقى في الإنسان أكثر من مائة وعشرين سنة.. هذا قـول الـرب.. فهـل عـاش أي إنسان أكثر من مائة وعشرين سنة؟

قلت: كل من ذكرتهم عاشوا أكثر من هذا العدد.

قـال: وغـيرهم كثـير عنـدي العشـرات من الفقـرات في الكتـاب المقدس تناقض ذلك النص.. ولكن قومي مع ذلـك يصـرون على أنـه ليس محرفا.. فما هو الصحيح؟

أمسك يده برأسه، وقال: هل يمكن أن تكون 120 أكبر من 950 ..!؟ أو هـل يمكن أن تكـون 120 أكـبر من 205..!؟ وهـل يمكن أن تكـون 120 أكـبر من 200..!؟ أجـبي.. فـإن عقلي يكـاد يطـير من رأسي.

لم أجد ما أجيبه به، تمالك نفسه، ثم قال: ارم تلـك الورقـة، وخـذ ورقة جديدة، ولا تكتب إلا ما أمليه عليك.

أمسكت ورقة جديدة، ورحت أخضع لإملائه.. راح يقرأ من (ملوك الثانى: 8/ـ 26):(كـان اخزيـا ابن اثنـتين وعشـرين سـنة حين ملـك وملك سنة واحدة في أورشليم. واسـم أمـه عثليـا بنت عمـري ملـك إسرائيل)

التفت إلي، وقال: اكتب عمر اخزيا حين ملك أورشليم حسب هذا السفر.

كتبت ما طلب مني، فراح يقرأ من (أخبار الأيام الثانى: 22/ 2):(كان اخزيا ابن اثنتين وأربعين سنة حين ملك، وملـك سـنة واحـدة في أورشليم واسم أمه عثليا بنت عمري)

التفت إلي، وقال: اكتب عمر اخزيا حين ملك أورشليم حسب هذا

السفر.

كتبت ما طلب مني، فقال: هل ترى من فرق بين النصين؟

قلت: أجل.. فبين النصين إختلاف بمقدار عشرين سنة.

ثم أضفت: ولكن مع ذلك لا شك أن النص الأول هو الصحيح.. لأن أباه يهورام على حسب ما في سفر (أخبـار الأيـام الثـاني 21 /20 و 22 /1-2)..

اسمع:(كان ابن اثنتين وثلاثين سنة حين ملك وملك ثماني سـنين في اورشليم وذهب غير مأسوف عليه ودفنـوه في مدينـة داود ولكن ليس في قبور الملوك) (أخبار الثانى 21 /20)

واسمع:(وملك سكان أورشليم اخزيا ابنه الأصغر عوضـا عنـه لان جميع الأولين قتلهم الغزاة الذين جاءوا مع العرب إلى المحلـة.فملـك اخزيا بن يهو رام ملك يهوذا)(أخبار الأيام الثانى: 22/ 1)

واسمع:(كان اخزيا ابن اثنتين وأربعين سنة حين ملك وملك سـنة واحـدة في أورشـليم واسـم أمـه عثليـا بنت عمـري) (أخبـار الأيـام الثانى: 22/ 2)

فهذه النصوص تدل على أن يهورام مـات وهـو ابن أربعين سـنة ، وتولى أخزيا الملك بعد موت أبيه مباشـرة، فلـو لم يكن النص الثـاني خطأ للزم أن يكون أخزيا أكبر من أبيه بسنتين، وهو أمـر ممتنـع عنـد العقلاء من الناس.. وقد أقر آدم كلارك وهورن وهـنري وإسـكات في تفاسيرهم بأن هذا الإختلاف وقع من غلط الكاتب.

قال: ولكن قومي وقومـك يصـرون على أن الكتـاب خـال من أي تحريف.. فكيف يكون هذا!؟

سـكت قليلا، ثم قـال: ارم تلـك الورقـة.. وخـذ ورقـة جديـدة، ولا تكتب إلا ما أمليه عليك.

راح يقــرأ من (ســفر الملــوك الأول: 4 /26):(وكــان لســليمان أربعون ألف مذود لخيل مركباته واثنا عشر ألف فارس)

اكتب ما كان لسليمان من مذود الخيل.

كتبت ما طلب مني، فراح يقرأ من (سفر أخبار الأيام الثاني: 9 / 25):(وكان لسليمان أربعة آلاف مذود خيل ومركبات واثنا عشر ألف فارس فجعلها في مدن المركبات ومع الملك في أورشليم)

واكتبت ما ورد في (ســفر أخبــار الأيــام الثــاني: 1 /14):(وجمـع سليمان مركبات وفرسانا فكان له الف واربع مئة مركبـة واثنـا عشـر الف فارس فجعلها في مدن المركبات ومع الملك في اورشليم)

كتبت ما أملى علي، فقال: هل ترى من فرق بين هذه النصوص؟

قلت: أجل.. فبين النصين الأول والثاني اختلاف بزيادة (36.000) مذود في النص الأول.. وقـد قـال المفسـر آدم كلارك: الأحسـن أن نعترف بوقوع التحريف في العدد.

قال: ولكن أيهما الصحيح.. أنا موثق أبحث عن تصحيح العقود.

صمت، فقال: لقـد ذكـر دكتـور فيليب حـتى فى كتابـه عن تـاريخ سـورية أن إسـطبلات سـليمان قـد اكتشـفت حـديثا حيث كـان يضـع مركباته مرابط بصفوف مزدوجة.. وذكر أنه يمكن أن تتسع لأربعمائـة وخمسين حصانا.. فالحفريات أثبتت كذب الكتابين جميعا.

قال ذلك، ثم نظر إلي عابسا، وقال: ارم تلك الورقة.. واكتب مـا أمليه عليك فقط لا تزد حرفا واحدا.

راح يقرأ من (ملوك الأول: 7 /ـ 26):(غلظه شبر وشفته كعمـل شفة كاس بزهر سوسن.يسع ألفي بث)

كتبت ما طلب مني، فراح يقرأ من (أخبار الثانى: 4/ 5):(وغلظه شبر وشفته كعمل شفة كاس بزهر سوسـن.يأخـذ ويسـع ثلاثـة الآف

بث)

نظر إلي، فقال: هل هناك من فرق بينهما؟

قلت: أجل.. هو في ألف.. ولكن جامعي تفسـير هـنري واسـكات ذكروا أن المقصود هو الفرق بين الإتساع وما يمكن أن يحتويه.

قال: كلمة بث هي كلمة إنجليزية (BATH) ومعناهـا حـوض غسـيل أو موضع الإستحمام ، وهي مـع وضـوحها لم يتم ترجمتهـا في النسـخ العربية؟

ومن المسـتحيل أن تكـون ترجمتهـا بهـذه الصـيغة لـو تم ترجمـة معنى كلمـة (بث) وسـتكون ترجمتهـا إن أعـدنا ترجمـة العبـارة مـع كلمة (بث) هكـذا: وغلظـه شـبر وشـفته كعمـل شـفة كـأس بزهـر سوسن ، يأخذ ويسع ثلاثة آلاف حوض غسيل.

والاستحالة هنا لكونه لا يمكن القول بأنه يأخذ ويتسـع لأن اللفظـة منتهية عند يسع فاتساعه ثلاثة آلاف حوض غسيل وكفى ، فما الفائدة من اللفظة المضافة (يأخذ)

أتدري.. حينما اتضح التناقض بين النصـين في الملـوك الأول وفي أخبار الأيام الثاني وهما كلمة بكلمة متشـابهتان إلا أن الفـرق هـو بين العدد فقط.. هناك ألفان وهنا ثلاثة آلاف.. اضـطر منقحـوا ومـترجموا اللغة العربية أن يضيفوا كلمة (ويأخذ) في فقرة الأخبار حتى يـبرروا التناقض بين النصين، فيكـون المـراد في الملـوك يتسـع فقـط، ولكن في الأخبار يأخذ ويتسع.. هؤلاء هم عبـاقرة المـزورين.. ولكـني خبـير توثيق.. ولن تنطلي الحيلة علي..

التفت إلي بغضب، وقال: ارم تلك الورقة.. وخذ ورقة جديد.

فعلت ما طلب مني، فراح يقرأ من (سفر صموئيل الثاني:24 /9):(فدفع يوآب جملة عدد الشعب إلى الملـك، فكـان إسـرائيل ثمـان مئة ألف رجل ذي بأس مستل السيف، ورجال يهوذا خمس مئة ألـف

رجل)

التفت إلي، وقال: اكتب عدد المقاتلين في إسرائيل ويهوذا حسب هذا السفر.

كتبت ما طلب مني، فراح يقرأ من (أخبـار الأيـام الأول:21 /5): (فدفع يوآب جملة عدد الشـعب إلى داود فكـان كـل إسـرائيل ألـف ألف ومئة ألف رجل مستلي السيف ويهوذا أربـع مئـة وسـبعين ألـف رجل مستلي السيف)

التفت إلي، وقـال: اكتب عــدد المقــاتلين في إســرائيل ويهــوذا حسب هذا السفر.

كتبت ما طلب مني، فقال: هل هما متفقان؟

قلت: لا.. عدد المقاتلين حسب سفر صموئيل الثاني في إسرائيل (800.000)، وفي يهوذا (500.000) ، وعلى حسب أخبـار الأيـام الأول عددهم في إسرائيل(1.100.000) ، وفي يهـوذا (470.000)

قال ـ وفي عينيه بعض الوجوم ـ: أليست هذه أرقاما متشابهة؟

قلت: لا.. بين النصــين إختلاف كبــير في عــدد المقــاتلين من إسرائيل بمقدار ثلاث مئة الـف (300.000) ، وفي عـدد المقـاتلين من يهوذا بمقدار ثلاثين ألف (30.000)

قال: فمن تراه يكون صحيحا منهما؟

قلت: لقــد اعــترف آدم كلارك في تفســيره بــأن تعــيين النص الصحيح منهما عسير، لأن كتب التـواريخ وقـع فيهـا تحريفـات كثـيرة، وأن الاجتهاد في التطبيق عبث، والأحسن التسليم بالتحريف ، لأن هذا الأمر لا قدرة على إنكاره ، ولأن الناقلين لم يكونوا ذوي إلهام.

قال: ولكنهم لا يزالون يصرون على أن الكتاب المقدس خـال من

التحريف..

سكت قليلا، ثم قال: ألا تعلم خطورة كلام آدم كلارك؟.. إنه يهـدم الكتاب المقدس.. فمن جوز تحريف نص جوز تحريف غيره؟

نظـر إلي بعبـوس، وقـال: ارم تلـك الورقـة.. ولا تعـد لـذكر آدم كلارك.. انسه كما تنسى ما ذكرنا من أخطاء.. خذ ورقة بيضاء جديدة.

أخذتها، فراح يقرأ من (تكوين: 46 /ـ 26-27):(جميـع النفـوس ليعقوب التي أتت إلى مصـر الخارجـة من صـلبه مـا عـدا نسـاء بـني يعقوب جميع النفوس ست وستون نفسا. وابنا يوسف اللذان ولدا لـه في مصر نفسان.جميـع نفـوس بيت يعقـوب الـتي جـاءت إلى مصـر سبعون) وهكذا ورد في سفر (الخروج: 1 /ـ 5)، وهو مـا يؤكـد أنهم سبعون.

التفت إلي، وقـال: اكتب عـدد بـني يعقـوب إخـوة يوسـف وأهلـه حينما دخلوا إلى مصر حسب هذه الأسفار.

كتبت ما طلب مني، فراح يقـرأ من (أعمـال: 7 /14):(فأرسـل يوسف واستدعى أباه يعقوب وجميع عشيرته خمسة وسبعين نفسا)

التفت إلي، وقال: هل هناك خلاف بينهما؟

قلت: أجل.. في خمسة أنفس.

قال: لا بأس.. خمسة أنفس فقط.. لا بأس.. هذا عدد قليـل.. ارم تلك الورقة.. وخذ ورقة جديدة.

أخذت ورقـة جديـدة، فـراح يقـرأ من (أخبـار الأول:12/18-13): (وابشاي ابن صـروية ضـرب من ادوم في وادي الملح ثمانيـة عشـر الفا. (13) وجعل في ادوم محافظين فصـار جميـع الادومـيين عبيـدا لداود وكان الرب يخلص داود حيثما توجه)

التفت إلي، وقال: اكتب من الذي قتل ثمانية عشر ألفـا في وادي

الملح حسب هذا السفر.

كتبت ما طلب مني، فراح يقرأ من (صموائيل الثانى: 8 /13-14):(ونصب داود تذكارا عند رجوعـه من ضـربه ثمانيـة عشـر ألفـا من ارام في وادي الملح. وجعل في ادوم محافظين.وضع محــافظين في ادوم كلها وكان جميع الادوميين عبيدا لـداود وكـان الـرب يخلص داود حيثما توجه)

التفت إلي، وقال: اكتب من الذي قتل ثمانية عشر ألفـا في وادي الملح حسب هذا السفر.

كتبت ما طلب مني، فقال: هل هناك من فرق بينهما؟

قلت: أجل.. هناك خلاف في الذي قتل ثمانية عشر ألفا في وادي الملح هل هو داوود، أم أبشاي بن صروية؟

قـال: ومن الـذي يـدريني أنـا.. إذا كـان الكتـاب المقـدس المؤيـد بالوحي لا يدري.. فكيف أدري أنا!؟

ثم التفت إلي عابسا، وقال: ارم الورقة.. وخذ ورقة جديدة.

فعلت ما طلب مني، فراح يقرأ من (سفر صـموائيل الثـاني24 / 21):(وقـال ارونـة لمـاذا جـاء سـيدي الملـك الى عبـده. فقـال داود لاشتري منك البيدر لكي ابني مذبحا للرب فتكف الضربة عن الشعب)

وفي (صـموائيل الثـاني:24 /24):(فقـال الملـك لارونـة لا بـل اشتري منك بثمن ولا اصعد للـرب الهي محرقـات مجانيـة. فاشـترى داود البيدر والبقر بخمسين شاقلا من الفضة)

التفت إلي، وقال: اكتب بكم اشترى داوود البيدر من أرونة.

كتبت ما طلب مني، فراح يقرأ من (أخبار الأيام الأول:21 / 22): (فقال داود لأرنان اعطني مكان البيدر فابني فيه مذبحا للرب.بفضــة

كاملة اعطني اياه فتكف الضربة عن الشعب)

وفي (أخبــار الأيــام الأول: 21 /ـ 25):(ودفــع داود لأرنــان عن المكان ذهبا وزنه ست مئة شاقل)

التفت إلي، وقال: هل كتبت كل ما طلبته منك؟

قلت: أجل..

قال: هل هناك من فرق بينهما؟

قلت: أجل.. ففي سفر صموائيل الثاني نرى أن داوود اشترى من ارونه البيدر والبقر بخمسين شاقلا من الفضة وهكذا تم الإتفـاق بينهم وتم البيع والشراء على هذا السعر لكن في أخبار الأيام الأول نجد أنـه يذكر أنه اشترى الحقل بالذهب، وكان وزن الذهب ستمئة شاقل.

قال: فأي النصين نصدق؟

قلت: لا أدري..

قال: أنت لا تدري.. والكتاب المقدس لا يدري.. فمن يدري؟

ثم قال: ارم تلك الورقة.. وخذ ورقة جديدة.

فعلت ما طلب مني، فراح يقرأ من (سفر التكوين: 6 /ـ 19-20):(ومن كل حي من كل ذي جسد اثـنين من كـل تـدخل الى الفلـك لاستبقائها معك. تكون ذكرا وأنثى. من الطيور كاجناسها ومن البهـائم كاجناسها ومن كل دبابات الارض كاجناسها. اثنين من كل تدخل اليـك لاستبقائها)

وفي (سفر التكوين: 7 /ـ 8-9):(ومن البهائم الطاهرة والبهـائم التي ليست بطـاهرة ومن الطيـور وكـل مـا يـدب على الارض دخـل اثنان اثنان الى نوح الى الفلك ذكرا وانثى.كما امر الله نوحا)

التفت إلي، وقال: اكتب عدد الطير والبهائم التي أمر نوح بأخــذها

في السفينة حسب هذا السفر.

كتبت ما طلب مني، فراح يقرأ من (سفر التكـوين: 7 /ـ 2-3): (من جميع البهائم الطاهرة تأخذ معك سبعة سبعة ذكـرا وانـثى.ومن البهائم التي ليست بطاهرة اثنين ذكرا وانثى. ومن طيور السماء ايضا سبعة سبعة ذكرا وانثى.لاستبقاء نسل على وجه كل الارض)

التفت إلي، وقال: اكتب عدد الطير والبهائم التي أمر نوح بأخــذها في السفينة حسب هذا السفر.

كتبت مــا طلب مــني، فقــال: هــل هنــاك من فــرق بين هــذه النصوص؟

قلت: أجل.. فالأول والثاني يدلان على أن الله أمر نوحـا أن يأخـذ معه في السفينة من جميع البهـائم والطيـور وحشـرات الأرض اثـنين اثنين ذكرا وأنثى ، وأن نوحا قد نفذ هذا الأمر.

بينما يدل النص الثالث على أن اللـه أمـر نوحـا أن يأخـذ معـه في السفينة من جميع البهائم الطـاهرة فقـط ومن جميـع الطيـور سـبعة أزواج، أما البهائم التي ليست بطاهرة فيأخذ منها اثنين اثنين فقط.

فليس في النصين الأول والثاني ذكر للسبعة، واتفقا بـذكر الاثـنين اثنين في الجميع، وفي النص الثالث قيد الاثنين بالبهائم غير الطاهرة، ونص على السبعة في الطيور وباقي البهـائم ، وهـو منـاقض للنصـين الأول والثاني.

نظر إلي عابسا، وقال: ارم تلك الورقة.. وخذ ورقة جديدة.

فعلت ما طلب مني، فراح يقـرأ من قصـة الأعمـيين الـتي وردت في (إنجيـل مـتى: 20 /29-34).. والـتي ورد فيهـا:(29 وفيمـا هم خارجون من أريحا تبعه جمـع كثـير 30 فتحنن يسـوع ولمس أعينهمـا فللوقت أبصرت أعينهما فتبعاه)

ووردت قصة المجنونين في (إنجيـل مـتى: 8 /ـ 28-34) والـتي

ورد فيها:(28 ولما جـاء إلى العـبر إلى كـورة الجرجسـيين اسـتقبله مجنونان خارجان من القبور هائجان جدا)

التفت إلي، وقال: اكتب عدد الذين شـفاهم المسـيح حسـب هـذا السفر.

كتبت ما طلب مني، فراح يقـرأ القصـة عينهـا حسـبما وردت في (إنجيل مرقس: 10 /ـ 46-52)، والـتي ورد فيهـا:(46. وجـاءوا الى اريحـا. وفيمـا هـو خـارج من اريحـا مـع تلاميـذه وجمـع غفـير كـان بارتيماوس الاعمى ابن تيماوس جالسا على الطريق يستعطي. (47) فلما سمع انه يسوع الناصري ابتدأ يصـرخ ويقـول يـا يسـوع ابن داود ارحمني. (52) فقال له يسوع اذهب.ايمانك قد شفاك.فللوقت ابصـر وتبع يسوع في الطريق)

التفت إلي، وقال: اكتب عدد الذين شـفاهم المسـيح حسـب هـذا السفر.

كتبت ما طلب مـني، فـراح يقـرأ قصـة المجنـون حسـبما ذكرهـا (لوقا: 8 / 26-39)والتي ورد فيها:(26 وساروا الى كورة الجدريين التي هي مقابل الجليل. (27) ولمـا خـرج الى الارض اسـتقبله رجـل من المدينة كان فيه شياطين منذ زمان طويل وكـان لا يلبس ثوبـا ولا يقيم في بيت بل في القبور. (33) فخـرجت الشـياطين من الانسـان ودخلت في الخنـازير.فانـدفع القطيـع من على الجـرف الى البحـيرة واختنق)

كتبت ما طلب مني، فقال: هل هناك اختلاف بين هذه النصوص؟

قلت: أجل.. فهناك اختلاف بين إنجيل متى ولوقا في عـدد الـذين شفاهم المسيح أهما مجنونان وأعميان على حسـب إنجيـل مـتى، أم مجنون واحد وأعمى واحد على حسب إنجيل لوقا.

قال بغضب: ارم الورقة، وخذ ورقة جديدة.

فعلت ما طلب مني، فراح يقرأ من (سفر اخبار الأيام الأول: 7 / 6):(لبنيامين بالع وباكر ويديعئيل ثلاثة)

التفت إلي، وقال: اكتب أسماء أولاد بنيامين وعددهم حسـب هـذا السفر.

كتبت ما طلب مني، فراح يقرأ من (سفر اخبار الأيـام الأول: 8 / 1-2):(وبنيامين ولد بالع بكره وأشبيل الثاني وأخـرخ الثـالث ونوحـة الرابع ورافا الخامس)

التفت إلي، وقال: اكتب أسماء أولاد بنيامين وعددهم حسب هـذا السفر.

فعلت ما طلب مني، فراح يقرأ من (سفر التكـوين: 46 /ـ 21): (وبنو بنيامين بالع وباكر وأشبيل وجيرا ونعمــان وإيحي وروش ومفيم وحفيم وأرد)

التفت إلي، وقال: اكتب أسماء أولاد بنيامين وعددهم حسـب هـذا السفر.

كتبت ما طلب مني، فقال: انظر جيدا.. هل هنـاك فـرق بين هـذه النصوص؟

قلت: أجــل.. فأبنــاء بنيــامين حســب النص الأول: ثلاثــة ، وعلى حسب النص الثاني: خمسة.. فاختلف النصان في أسمائهم وعـددهم، واتفقا في اسم بالع فقط، وهـؤلاء الأبنـاء على حسـب النص الثـالث: عشرة ، فاختلف مـع النصـين السـابقين في الأسـماء والعـدد أيضـا ، واتفق مع النص الأول في إسم إثنين منهم ، وإتفـق مـع النص الثـاني في إسم إثـنين منهم ، ولم تتفـق النصـوص الثلاثـة إلا في إسـم بـالع فقط.

قال بغضب: ارم الورقة، وخذ ورقة جديدة.

فعلت ما طلب مني، فراح يقرأ من (سفر صموائيل الثاني: 24 /

13):(فأتى جاد الى داود واخبره وقال له أتاتي عليك سبع سني جوع في ارضك ام تهرب ثلاثة اشهر امام اعـدائك وهم يتبعونـك ام يكـون ثلاثة ايام وبـأ في ارضـك. فـالآن اعـرف وانظـر مـاذا ارد جوابـا على مرسلي)

التفت إلي، وقال: اكتب هذه الأعداد.

كتبتها، فراح يقرأ من (سفر أخبار الأيـام الأول: 21 /ـ 12):(امـا ثلاث سنين جوع او ثلاثة اشهر هلاك امـام مضـايقيك وسـيف اعـدائك يدركك او ثلاثة ايـام يكـون فيهـا سـيف الـرب ووبـأ في الارض وملاك الرب يعثو في كل تخوم اسرائيل. فانظر الآن ماذا ارد جوابا لمرسلي)

التفت إلي، وقال: اكتب هذه الأعداد بحسب هذا السفر.

كتبت ما طلب مني، فقال: هل هناك فرق بينهما؟

قلت: أجل.. فسفر صموئيل الثـاني ينص على أن جـاد خـير داوود أن يختار بين سبع سنين جوع أو يهرب ثلاثة أشهر أمام أعدائـه، بينمـا يفهم من سفر أخبـار الأيـام الأول أن جـاد خـير داود بين ثلاث سـنين وليس سبعة أو ثلاثة أشهر هلاك.

نظر إلي بعبوس، وقال: أخبرني.. هـل هم سـبعة سـنين جـوع أم ثلاثة سنين؟

صمت، فقال: ارم الورقة.. وخذ ورقة جديدة.

فعلت ما طلب مني.. فراح يقرأ من (سفر أخبار الأيـام الثـاني: 2 /ـ 2):(وأحصى سليمان سبعين الف رجل حمال وثمانين الف رجل نحات في الجبل ووكلاء عليهم ثلاثة آلاف وست مئة)

التفت إلي، وقـال: اكتب عـدد الـوكلاء لسـليمان على السـخرة بحسب هذا السفر.

كتبت ما طلب مني، فراح يقرأ من (سفر الملوك الأول: 5 / 16):(ما عـدا رؤساء الـوكلاء لسـليمان الـذين على العمـل ثلاثـة آلاف وثلاث مئة المتسلطين على الشعب العاملين العمل)

التفت إلي، وقـال: اكتب عـدد الـوكلاء لسـليمان على السـخرة بحسب هذا السفر.

كتبت ما طلب مني، فقال: هل هناك من فرق بينهما؟

قلت: أجل.. فسفر أخبار الأيام الثاني يـذكر أن عـدد الـوكلاء على عمال سليمان كان (3600) بينما يذكر سفر الملـوك الأول أن عـدد عمال سليمان كان (3300)، فبينهما فرق مقداره ثلاثمائة.

تنفس الصعداء، وقال: ارم الورقة.. وخذ ورقة جديدة.

فعلت ما طلب مني، فراح يقرأ (حزقيال: الإصـحاحات 45 و46)، ثم قارن بينها وبين ما ورد في (سفر العـدد: الإصـحاحات 28 و29).. وقد ورد فيها اختلافات كثـيرة في الـذبائح وأنواعهـا وأعـدادها وكيفيـة تقديمها حسب الأيام والشهور وما يقدم معها وأحكامهـا.. وقـد رميت أوراقا كثيرة بسبب هذه الاختلافات ملأت علينا غرفة مكتبه أوراقا.

مـا انتهينـا منهـا حـتى قـال: هـل تتصـور أن يكـون اللـه ــ مـدبر السـموات والأرض الـذي يقـوم كونـه على أدق حسـاب ــ لا يعـرف الحساب.. لا يعرف عمليات الجمع والطرح.. أم أن أولئـك الكتبـة هم الذين عبثوا بصفاء هذا الكتاب وقدسيته؟

سكت، فقال: فلننتقل إلى شيء آخر.. نحقق فيه.

أخذ نسخة من الكتاب المقدس، وراح يقرأ من (سفر العـدد:1 / 45-47):(فكان جميع المعدودين من بـني اسـرائيل حسـب بيـوت آبائهم من ابن عشرين سنة فصاعدا كل خارج للحـرب في اسـرائيل. كـان جميـع المعـدودين سـت مئـة ألـف وثلاثـة آلاف وخمس مئـة وخمسين.47 واما اللاويون حسب سبط آبائهم فلم يعدوا بينهم)

ثم قرأ من (سفر الخروج: 12:ـ 37):(فارتحل بنو اسـرائيل من رعمسيس الى سكوت نحو سـت مئـة الـف مـاش من الرجـال عـدا الأولاد)

التفت إلي، وقال: اكتب عدد بني إسرائيل عند خروجهم من مصر حسب هذا السفر.

كتبت ما طلب مني، فقال: ما ترى في هذه الفقرات؟

قلت: هي تنص على أن عدد الـذين يصـلحون لحمـل السـيف من بني إسرائيل ويخرجون للحرب من إبن عشرين سنة فمـا فـوق أكـثر من (603550) ، وأن جميــع الإنــاث والشــيوخ ومن هم من دون عشرين سنة من باقي الأسباط ومن سبط اللاويين كله بمـا فيـه من هم عشرين سنة وغيره أي سـبط اللاويين كامـل لم يعـد ضـمن هـذا الإحصاء.

قال: فلـو ضـممنا جميـع المـتروكين خـارج هـذا الإحصـاء مـع من أحصاهم أي 603550 زائد بـاقي جميـع الأسـباط مـع سـبط اللاويين كاملين.. فإلى كم يصل العدد؟

قلت: لا يقل بأي حال من الأحـوال عن مليـونين ونصـف المليـون على أقل تقدير.

قال: فهل تصدق هذا؟

قلت: كيف لا أصدق الكتاب المقدس؟

قال: فلنعرض المسألة على العقل.. من المعلـوم قطعـا أن عـدد بني إسرائيل حينما دخلوا مصـر كـانوا سـبعين نفسـا كمـا في (سـفر التكوين: 46 /27)، وابنا يوسف اللذان ولـدا لـه في مصـر نفسـان.. فجميع نفوس بيت يعقوب التي جاءت الى مصر سبعون، وكذلك في (سفر الخروج: 1 /5)

وأنت تعلم أن مدة بقاء بني إسرائيل في مصـر هـو 215 سـنة لا

أكثر.. ولنغض الطرف عن القتل الذي كان جاريا على بني إسرائيل في مصر وقتل أولادهم كما في (الخروج: 1 /25-16).. فكيف يكون عدد السبعين قد تكاثر في خلال 215 سنة لا أكثر من سبعين نفسا إلى مليونين ونصف أو أكثر؟

بالإضافة إلى هذا، فإن الكتاب المقدس ينص في (سفر الخروج: 1 /8-22) على أنه كان في كل بني إسرائيل قابلتان فقط.. اسم الأولى سافورا، والثانية فوعا ، فكيف تكفي هاتان أن تولدا كل هذا الشعب العظيم؟

أليس هذا غريبا!؟.. أليس هذا غريبا!؟

بقي يردد ذلك.. ثم قال: نفس الغرابة نجدها عند ذكر عدد بني إسرائيل قبل فترة التيه وبعدها.. فعلى سبيل المثال يذكر (سفر العدد 1: 40) أن أشير كانوا فى بداية فترة التيه 500 41 فردا من 20 سنة فصاعدا وفى نهاية فترة التيه وهي 38 سنة وهى المدة الفعلية، كانوا 400 53 فردا من 20 سنة فصاعدا، أى بزيادة قدرها 900 11 فردا، فهل من الممكن بعد أن مات جيل الخروج كله أن يصل العدد إلى 400 53 فردا فى 38 سنة؟

بالإضافة إلى هذا.. فإن هناك من الأسباط من حدثت فيه زيادة مقدارها (59200) فكيف تضاعف عدد الذكور فى (38) سنة التي هى المدة الفعلية للتيه على الرغم من أن جيل الخروج قد أماته الرب كله فى البرية، كما ورد في سفر (العدد: 26: 64-65):(وفي هؤلاء لم يكن إنسان من الذين عدهم موسى وهارون الكاهن حين عدا بني إسرائيل في برية سيناء 65لأن الرب قال لهم إنهم يموتون في البرية فلم يبق منهم إنسان إلا كالب بن يفنة ويشوع بن نون)

سكت قليلا، ثم قال: تعال لنتأمل ما ورد في أبعاد سفينة نوح.. لقد أمر الرب نوحا أن يبنى فلكا.. وكان هذا هو نص الأمر:(اصنع لنفسك فلكا من خشب جفر. تجعل الفلك مساكن وتطليه من داخل ومن خارج بالقار. وهكذا تصنعه: ثلاث مئة ذراع يكون طول الفلك

وخمسين ذراعا عرضه وثلاثين ذراعا ارتفاعه)(تكوين: 6/ 14-16)

وأمره الرب أن يدخل السفينة نفسه وامرأته وبنيه ونساءهم، ومن كل حى يأخذ زوجين اثنين ذكرا وأنثى إضافة إلى طعام هذه الكائنات كما في(تكوين: 6/ 19-22)

ثم أمره أن يأخذ من البهائم الطاهرة وطيور السماء سبعة أزواج ذكورا وإناثا، ومن البهائم غير الطاهرة زوجين اثنين ذكرا وأنثى، ففعل نوح كل ما أمره الرب به، كما في (تكوين: 7/ 2-5)

التفت إلي، وقال: ضع القلم.. وفكر معي جيدا.. هل يمكن أن تكفى سفينة بهذا الحجم كل هؤلاء البشر والبهائم والطيور، وكل ما يدب على الأرض، إضافة إلى طعام يكفيهم عشرة أشهر، أو سبعة أشهر؟

صمت، فقال: لماذا لم يكتف الكتاب المقدس بما اكتفى به القرآن حينما قال في نفس المشهد التوراتي:{ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ}(المؤمنون:27)

إن هذه آية واحدة.. ولكنها شملت كل شيء.. لم تته كما تاه الكتبة في التفاصيل التي جعلتهم يقعون في هذه الأخطاء التي لا تغتفر.

قلت: إن بعض قومي يذكرون أنهم وجدوا بعض الأخطاء الحسابية في القرآن[1].

امتلأ وجهه سرورا مشوبا ببعض الحزن، وقال: أين.. أخبرني بها.. وخذ تلك الجائزة؟

قلت: لقد ورد في سورة البقرة:{ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ

(1) انظر: شبهة ادعاء وجود أخطاء حسابية في القرآن الكريم، الأستاذ عبد الرحيم الشريف، موقع الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.

حَـوْلَيْنِ كَـامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَـاعَةَ)(البقـرة: 233) وورد في سـورة لقمـان:{ وَوَصَّـيْنَا الْأِنْسَـانَ بِوَالِدَيْـهِ حَمَلَتْـهُ أُمُّهُ وَهْنـاً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ) (لقمان:14)

التفت إليه، وقلت: خذ ورقة واكتب: مدة الرضاعة حولين.

أخذ ورقة، وكتب ما طلبته منه، فـرحت أقـرأ:{ وَوَصَّـيْنَا الْأِنْسَـانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهـاً وَوَضَـعَتْهُ كُرْهـاً وَحَمْلُـهُ وَفِصَـالُهُ ثَلاثُـونَ شَهْراً)(الاحقاف: 15)

التفت إليه، وقلت: اكتب.. مدة الحمـل والرضـاعة جميعـا ثلاثـون شهرا.

كتب ما طلبته منه، وقال: ثم ماذا؟

قلت: ما الفرق بينهما؟

قال: ليس هناك من فرق بينهما.. فالأولى تتحـدث عن الرضـاعة، والثانية تتحدث عن الحمـل مـع الرضـاعة.. والأصـل في المقارنـة أن تكون بين متناظرين.

قلت: ألا ترى أنه من الواضح أن مـدة الرضـاعة أقـل من سـنتين خلافا لما ورد في سورة البقرة؟

قال: لم أفهم.

قلت: مدة الحمل تسعة أشهر.. ونضيف إليها مدة الرضاعة أربعـة وعشرين شهرا، وهي مدة سنتين.. كم المجموع؟

قال: أربعة وعشرون يضاف إليهـا تسـعة أشـهر.. المجمـوع ثلاثـة وثلاثون شهرا.

قلت: أتريد خطأ فوق هـذا.. لقـد ذكـر القـرآن أن مجمـوع حملـه وفصاله هو ثلاثون شهرا.

تأمل قليلا، ثم قال: ولكن القرآن لم يذكر مدة الحمل.. أهناك آية تتحدث عن مدة الحمل في القرآن؟

قلت: لا.. ولا حاجة إلى ذلك.. فمدة الحمل معروفة للجميع.

قال: لو اعتبرنا ما قال القرآن.. فكم ستكون مدة الحمل؟

قلت، وأنا فرح من مجاراته لي: ستكون المدة بذلك ستة أشهر.

قال: وهل يمكن أن يعيش الإنسان لو ولد وله ستة أشهر؟

قلت: لست أدري.. ولعله لا يمكن أن يعيش.

قال: بل يمكن أن يعيش.. بل لقد بينت الدراسات أنه نادراً ما يعيش مواليد (22) أسبوع أكثر من (72) ساعة، أما مواليد (23) أسبوعا فاحتمال عيشهم يكون (10%) في حين أن مواليد (24) أسبوع لديهم فرصة (50%) للعيش بلا مشاكل و(20-35%) منهم لديهم مشاكل عصبية، ولكن (10%) من المصابين تكون حالتهم خطرة، بينما (2-ـ 3.5 %) من الأحياء يتعرضون لمشاكل تستدعي التدخل الطبي[1].

قلت: أفترى القرآن يشير إلى أقل مدة للحمل؟

قال: قد يشير.. وقد لا يشير.. ولكن القرآن ذكر أن مدة الرضاعة ليست هي الحولين بالضبط، فقد جاء بعد ذكر الحولين:{ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ)(البقرة: 233).. وفي ذلك دلالة على أن الرضاعة يمكن أن لا تحتاج عامين كاملين.

بخلاف من ولد لستة أشهر، فقد يحتاج إلى إكمال الرضاعة عامين كاملين باعتباره حاجته لذلك، وبذلك يتوافق القرآن توافقا تاما مع ما يقوله الواقع والعلم.

---

(1) انظر توثيق هذه المعلومات على الرابط التالي:

http://www.cps.ca/francais/enonces/FN/fn94-01.htm

سكت قليلا، ثم قال: أتعلم أن هذا الاستدلال أنقذ امرأة من تهمـة الزنا؟

قلت: كيف ذلك؟

قال: يروي المحدثون أن رجلا تزوج امرأة من جهينة، فولـدت لـه لتمام ستة أشهر، فانطلق زوجها إلى عثمـان، فـذكر ذلـك لـه، فبعث إليها. فلما قامت لتلبس ثيابها، بكت أختها فقالت: وما يبكيـك، فواللـه ما التبس بي أحد من خلق الله تعالى غيره قط، فيقضي الله سبحانه وتعالى فيَّ ما شاء. فلما أتيَ بها عثمان أمر برجمها، فبلـغ ذلـك عليـاً فأتاه فقال له: ما تصنع؟ قال: ولدت تماماً لسـتة أشـهر، وهـل يكـون ذلك؟ فقال له علي: أما تقرأ القـرآن؟ قـال: بلى. قـال: أمـا سـمعت الله عز وجل يقول:{ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُـوْنَ شَـهْرَاً}، وقـال:{ حَـوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ } فلم نجده بقي إلا ستة أشهر، فقال عثمان: والله مـا فطنت بهذا، عليَّ بالمرأة.. قال معمر: فوالله ما الغراب بالغراب، ولا البيضة بالبيضة، بأشبه منه بأبيه. فلما رآه أبوه قال: ابني والله، لا أشك فيه.

إن كـــان بقي لـــديك بعض الشـــك في هـــذا.. فـــاذهب إلى المستشفيات التي تستقبل الحوامل، فستجد الأمثلة الكثيرة على مــا ذكرت لك.

العقل:

سكت قليلا، ثم قال: دعنا من عالم الأرقام.. لقد عرفت من خلال تشــريح الكتــاب المقــدس أن الكتبــة لم يتلقــوا دروســا جيــدة في الحســـاب.. بـــل هم والحســـاب على خطين متـــوازيين.. دعنـــا من الحساب.. ولنذهب إلى العقل.. فليس بالحساب وحده تقوم الحياة.

فتح الكتاب المقدس، وقال: اسـمع.. ولا تكتب شـيئا.. وحـاول أن تتخيل ما سأقرؤه عليك..

أخذ يقرأ من (سفر يشوع: 6 /ـ 5):(ويكـون عنـد امتـداد صـوت قرن الهتاف عند اسـتماعكم صـوت البـوق أن جميـع الشـعب يهتـف

هتافا عظيما، فيسقط سور المدينة في مكانـه، ويصـعد الشـعب كـل رجل مع وجهه)

هل يمكن لعقلك أن يتصور هـذا.. أن يهتـف بنـو إسـرائيل فينهـار سور اريحا.. ينهار السور كله حول المدينة عن طريق الهتاف!؟

سكت قليلا، ثم قال: قد يكون هذا كرامة.. لا بأس.. فلنسمع نصـا آخر.. فلنسمع هذه الوليمة الأسطورية.

أخذ يقرأ من (أخبار الأيام الثـاني: 7 /5):(وذبح الملـك سـليمان ذبائح من البقـر اثـنين وعشـرين الفـا ومن الغنم مئـة وعشـرين الفـا ودشّن الملك وكل الشعب بيت الله)

هل يمكن هذا.. لقد ذبح سليمان حسـب هـذا النص 22 ألـف من البقر، و120 ألف من الغنم.. لقد قضى على جميـع الـثروة الحيوانيـة التي لبني اسرائيل في وقته، هذا كله بخلاف ما ذبحه الشعب.

سكت قليلا، ثم قـال: لا بـأس.. لقـد كـان بنـو إسـرائيل مغـرمين بالشواء.. فلذلك ربمـا احتـاجوا إلى جميـع هـذه الأبقـار والأغنـام لتملأ شهوات بطونهم.

لننتقل إلى نص آخر..

فتح الكتاب المقـدس على (سـفر القضـاة: 15 /4)، وراح يقـرأ: (وذهب شمشون وأمسك ثلاث مئة ابن آوى، وأخـذ مشـاعل وجعـل ذنبا إلى ذنب، ووضـع مشـعلا بين كـل ذنـبين في الوسـط، ثم أضـرم المشـاعل نـارا وأطلقهـا بين زروع الفلسـطينيين، فـأحرق الأكـداس والزرع وكروم الزيتون)

نظر إلي، وقال: هل يمكن هذا!؟.. كيف تركت الثعالب شمشـون يقوم بربط كل ذيلين مع بعضهما البعض؟.. وكيف تركوه يشعل النـار فيهما؟

تخيل معي الثعالب.. وهي تنظر إليه.. وهو يربـط كـل ثعلـبين مـع

بعضـهما.. تنظـر وهي تنتظـر أدوارهـا.. مـع أنـه لا يمكن أن تتحـرك الثعالب بهذه الصورة، لأن كل ثعلب يحـاول جـذب الآخـر إلى الإتجـاه المعاكس.

سـكت قليلا، ثم قـال: هـل سـمعت عن حيطـان تصـاب بمـرض البرص؟

سكت، فقال: الكتاب المقدس يذكر هذا.. فهـو يـذكر أن حيطـان المنازل تصاب بالبرص.. ويضع لذلك خطة لعلاجها.. اسمع ما ورد في (سفر اللاويين: 14: 35)

فتح الكتـاب المقـدس، وراح يقـرأ:(يـأتي صـاحب الـبيت ويخـبر الكاهن أن داء البرص قد يكون متفشيا بالبيت، فيـأمر الكـاهن بـإخلاء الـبيت قبـل أن يـدخل إليـه لئلا يتنجس كـل مـا في الـبيت، ثم يـدخل الكاهن البيت ليفحصه. فإذا عاين الإصابة ووجد أن في حيطان الـبيت نقرا لونها ضارب إلى الخضرة أو إلى الحمرة، وبدا منظرها غائرا في الحيطان، يغادر الكاهن البيت ويغلق بابـه سـبعة أيـام. فـإذا رجـع في اليوم السابع وفحصه، ووجد أن الإصابة قد امتدت في حيطان الـبيت، يأمر الكاهن بقلع الحجارة المصابة وطرحها خارج المدينة في مكــان نجس، وتكشط حيطان البيت الداخلية، ويطرحون التراب المكشـوط خارج المدينة في مكان نجس)

سكت كالمشدوه، ثم قال: هل سمعت عن أقمشة تصاب بمرض البرص؟

لم أدر بما أجبه، فقال: الكتاب المقدس يقول هذا.. اسمع مـا ورد في (سفر اللاويين: 13:ـ 47-54):(وإذا بدا داء البرص المعـدي، في ثـوب صـوف أو كتـان أو في قطعـة قمـاش منسـوجة أو محيكـة من صوف أو كتان، أو في جلد، أو في كل مصنوع من جلد، وكانت إصابة الثوب أو الجلد أو قطعة القماش المنسوجة أو المحيكة، أو في شيء مصنوع من جلد، ضاربة إلى الحمرة أو الخضـرة، فإنهـا إصـابة بـرص تعرض على الكاهن فيفحص الإصابة ويحجز الشـيء المصـاب سـبعة

أيام، ثم يفحصها في اليوم السابع. فإن وجدها قد امتـدت في الثـوب أو قطعــة القمــاش، أو في الجلــد أو في كــل مــا يصــنع من جلــد، ويستخدم في عمل ما، فإن الإصابة تكون برصا معديا وتكـون نجسـة فيحرق الكاهن بالنـار الثـوب أو قطعـة قمـاش الصـوف أو الكتـان أو متاع الجلد المصاب، لأنه داء معد لكن إن وجد الكاهن أن الإصــابة لم تمتد في الثوب أو في قطعة القمـاش المنسـوجة أو المحيكـة أو في متاع الجلد، يأمر بغسل الشيء ويحجزه سبعة أيام أخرى)

سكت كالمشدوه، ثم قال: هل سمعت عن أرنب يجـتر؟

لم أدر بما أجبه، فقال: الكتاب المقدس يقول هذا.. اسمع مـا ورد في (سـفر اللاويين: 11:ـ 6):(أمـا الأرنب فإنـه مجـتر ولكنـه غـير مشقوق الظلف، لذلك هو نجس لكم)

سكت كالمشدوه، ثم قال: هل سمعت عن ثعبان يأكل التراب؟

لم أدر بما أجبه، فقال: الكتاب المقدس يقول هذا.. اسمع مـا ورد في (سفر التكوين: 3:ـ 14):(فقال الرب الإلـه للحيـة: (لأنـك فعلت هذا، ملعونـة أنت من بين جميـع البهـائم ومن جميـع وحـوش البريـة، على بطنك تسعين، ومن التراب تـأكلين طـوال حياتـك وأثـير عـداوة دائمة بينك وبين المرأة، وكذلك بين نسليكما. هو يسحق رأسك وأنت تلدغين عقبه)

سكت قليلا، ثم قال: لا أزال أحتار منذ زمن طويل.. لماذا لم يرفع الله العقوبة عن الحية بعد صـلب المسـيح.. ألم يـأت المسـيح ليكفـر عن خطيئة آدم!؟

قلت: إن العقوبة المرادة هنا عقوبة للشيطان.. وليس للحية التي لا تعقل.

قال: لكن النص واضح في أن المـراد هـو الحيـة.. فـالنص يصـور حال الحيـة على هـذه الأرض، بعـد أن عـوقبت بالسـعي على البطن، وأنها ملعونة من بين جميع البهائم والحيوانات.

ثم هل رأيت حية تميز بين المرأة والرجـل في العـداوة.. الكتـاب المقدس ينص على هذا.. فهـو يقـول عن الحيـة:(أثـير عـداوة دائمـة بينـك وبين المـرأة، وكـذلك بين نسـليكما. هـو يسـحق رأسـك وأنت تلدغين عقبه)

ثم لماذا خص العقب باللدغ!؟.. إن ضرر الحية لا يقتصر على لدغ قدم الانسان بل ان البعض منها يقذف بالسم على بعد أمتـار، وهنـاك أنواع منها تقوم بخنق فريستها ثم بلعها.

سكت قليلا، ثم قـال: مـا دمنـا مـع الحيـة.. ألا تعلم خرافـة إغـواء الحية لحواء في الكتاب المقدس.

قلت: هي حقيقة نص عليهـا الكتـاب المقـدس، وليسـت خرافـة.. فالتوراة تؤكد في قصة الخلق أن المرأة هي المسـئولة عن الخطيئـة البشرية الأولى، وقد كان ذلك بسبب اغواء الحية لها.

وقد اعتنق بولس فكرة مسئولية المرأة عن الخطيئـة، فهي الـتي أغويت، وليس آدم، وهي التي تعدت حـد اللـه فـوقعت في الخطيئـة، فهو يقول:(لأن آدم كون أولا، ثم حواء، ولم يكن آدم هو الذي انخــدع بـل المـرأة انخـدعت، فـوقعت في المعصـية) (الرسـالة الأولى إلى تيموثاوس: 2: 12 _ 14)

قـال: أجـل.. أعلم ذلـك.. فالكتـاب المقـدس سـجل تـاريخ بدايـة الخلق.. وفيـه (هـذا وصـف مبـدئي للسـماوات والأرض يـوم خلقهـا الرب الإله. ولم يكن قـد نبت بعـد في الأرض شـجر بـري ولا عشـب بري، لأن الرب الإله لم يكن قـد أرسـل مطـرا على الأرض، ولم يكن هناك إنسان ليفلحهـا، إلا أن ضـبابا كـان يتصـاعد من الأرض فيسـقي سطحها كله. ثم جبل الرب الإله آدم من تـراب الأرض ونفخ في أنفـه نسمة حياة، فصار آدم نفسا حية. وأقام الرب الإلـه جنـة في شـرقي عدن ووضع فيها آدم الذي جبله) (تكوين: 2: 4)

وفيه:(وكانت الحية أمكر وحوش البرية التي صـنعها الـرب الإلـه، فسألت المرأة: أحقا أمركمـا اللـه ألا تـأكلا من جميـع شـجر الجنـة؟)

فأجـابت المـرأة: (يمكننـا أن نأكـل من ثمـر الجنـة كلهـا، ماعـدا ثمـر الشجرة التي في وسطها، فقد قال الله: لا تأكلا منه ولا تلمسـاه لكي لا تموتا). فقالت الحية للمرأة: (لن تموتا، بل إن الله يعـرف أنـه حين تأكلان من ثمر هذه الشـجرة تنفتح أعينكمـا فتصـيران مثلـه، قـادرين على التمييز بين الخير والشر). وعندما شـاهدت المـرأة أن الشـجرة لذيذة للمأكل وشهية للعيون، ومثيرة للنظر قطفت من ثمرها وأكلت، ثم أعطت زوجها أيضا فأكل معها)(تكوين: 3: 1-6)

وقد ذكرت التوراة العقوبة التي تلقتها الحي بسبب ذلك، فقد ورد في (تكوين: 3:ـ 14):(فقـال الـرب الإلـه للحيـة: لأنـك فعلت هـذا، ملعونـة أنت من بين جميـع البهـائم ومن جميـع وحـوش البريـة، على بطنك تسعين، ومن التراب تأكلين طوال حياتك)

سكت قليلا، القرآن يذكر هذه القصة، ولكنه لا يتطرق إلى الحيـة، ولا ينسب الوقوع في أكل الشجرة لحواء، بل ينسبها لكليهمـا جميعـا، وعندما نزلت العقوبة لم تختص بها المرأة.. بـل شـملتهما جميعـا، ثم تاب الله عليهما جميعا..

اسمع ما يقول القرآن:{ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى (116) فَقُلْنَا يَا آَدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَـكَ وَلِزَوْجِـكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَـا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (117) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (118) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى (119) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّـيْطَانُ قَـالَ يَـا آَدَمُ هَـلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْـدِ وَمُلْـكٍ لَا يَبْلَى (120) فَـأَكَلَا مِنْهَـا فَبَـدَتْ لَهُمَـا سَوْآَتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آَدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (121) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (122) قَـالَ اهْبِطَـا مِنْهَـا جَمِيعًـا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَـعَ هُـدَايَ فَلَا يَضِـلُّ وَلَا يَشْقَى (123) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَـةً ضَـنْكًا وَنَحْشُـرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124)}(طه)

هكذا يتناول القرآن القصة بكل بساطة وعقلانية وجمال.

سكت قليلا، ثم قال: هل ترى القرآن سمى الشجرة؟

قلت: لا..

قال: والتوراة؟

قلت: سمتها..

قال: وقد ذكرت أنها شجرة تجعل صاحبها يميز بين الخير والشر.. فهل في التمييز بين الخير والشر مفسدة.. وذكرت أن من أكلها يصير مثل الله.. فهل يمكن لأحد أن يصير إلها؟

سكت، فقال: ما ذنب الحية المسكينة.. نحن نراها كما نرى سائر المخلوقات.. ولماذا اختصت بعقوبة الزحف بينما يطير الشيطان وهو المجرم الأكبر حيث يشاء من دون عقوبة!؟

التفت إلي، وقال: لقد جرت هذه المآزق بعض مفسري الكتاب المقدس إلى اعتبار دخول الحية في هذه القصة خرافة دخيلة على الكتاب المقدس.

اسمع ما قال بعضهم عن مصادر سفر التكوين:(لم يتردد مؤلفو الكتاب المقدس، وهم يرون بداية العالم والبشرية أن يستقوا معلوماتهم بطريقة مباشرة أو غير مباشرة من تقاليد الشرق الأدني القديم، ولا سيما من تقاليد ما بين النهرين ومصر والمنطقة الفينيقية الكنعانية. فالاكتشافات الأثرية منذ نحو قرن تدل على وجود كثير من الأمور المشتركة بين الصفحات الأولى من سفر التكوين وبين بعض النصوص الغنائية والحكمية والليترجية الخاصة بسومر وبابل وطيبة وأوغاريت، ولا عجب في ذلك)

سكت كالمشدوه، ثم قال: هل سمعت بطيور تمشي على أربع؟

لم أدر بما أجبه، فقال: الكتاب المقدس يقول هذا.. اسمع ما ورد في (سفر اللاويين: 11:ـ 23):(أما سائر دبيب الطير ذوات الأربع الأرجل فهو محظور عليكم)

سكت كالمشدوه، ثم قال: هل سمعت ما يقول الكتاب المقدس

عن النعام؟

سـكت، فقـال: اسـمع مـا ورد في (سـفر أيـوب: 39:ـ 13-17): (يرفرف جناحا النعامة بغبطة، ولكن أهمـا جناحـان مكسـوان بـريش المحبـة؟ فهي تـترك بيضـها على الأرض ليـدفأ بـالتراب، وتنسـى أن القدم قد تطأ عليه، وأن بعض الحيوانـات الكاسـرة قـد تحطمـه. إنهـا تعامل صغارها بقسوة كأنها ليست لها، غير آسـفة على ضـياع تعبهـا، لأن الله قد أنساها الحكمة، ولم يمنحها نصيبا من الفهم. ولكن مـا إن تبسط جناحيها، لتجري حتى تهزأ بالفرس وراكبه)

سكت قليلا، ثم قال: إن الموسوعات العلمية تصـف النعـام كآبـاء مهتمين جدا ببيضهم وأولادهم.. فالأنثى تلقي بيضها على الأرض ، كما يفعـل الكثـير من الطيـور الأخـرى، وفي غيـاب الأنـثى ، يقـوم الـذكر بالرقود على العشّ لحمايـة الـبيض.. وحين الخـروج من الـبيض يلقى الفراخ اهتماما كبيرا من أمّهم، وهذا يثبت أنها أم حنون.

سـكت قليلا، ثم ابتسـم، وقـال: لا شـك أنـك مثلي، ومثـل جميـع النـاس الـذي يـذهبون إلى دور السـينما ليتفرجـوا أفلام البطـولات الشامخة.

قلت: لا.. أنا لم أذهب طول حياتي إلى السـينما.. أنـا رجـل دين.. ولا علاقة لرجل الدين بمثل تلك السفاسف.

قال: والبطولة.. أليست محبة الأبطال محبة فطرية؟

قلت: البطولة هي بطولة الروح.. لا بطولة العضلات..

قال: هذا ما تقول أنت.. أو ما يقول الكتاب المقدس؟

قلت: أنا لا أقول إلا ما يقول الكتاب المقدس.

قـال: لا.. لقـد رأيت الكتـاب المقـدس يقـول غـير هـذا.. الكتـاب المقدس متفتح أكثر منا.. ألم تقرأ فيه سيرة شمشون البطـل؟.. إنـه أعظم بطولة من عنترة ومن كل من عرفهم العالم من أبطال.

صمت، فقال: تعال لنشاهد مشاهد بطولته في الكتاب المقدس.. لقد خصص له الكتاب المقدس أربع سور كاملة في سفر القضاة تبدأ من التباشير الـتي سـبقت مولـده، وتنتهي بوفاتـه.. إنهـا تصـلح فيلمـا مطولا لرجل من رجال الله.. هو نموذج للرجولة الـتي يحبهـا الكتـاب المقدس.. وهـو بالتـالي نمـوذج للبطولـة الـتي يريـدها الـرب.. تعـال لنسمعها، ونمتلئ بما فيها من بطولة.

أخذ الكتاب المقدس، وراح يقلد الحكواتيين عنـد روايتهم لقصـص البطـولات، قـال: لنبـدأ من الأول.. لنبـدأ من السـورة الأولى، وهي الإصحاح الثالث عشر من سفر القضاة.. اسمع ما يقول هذا الإصحاح الذي يذكر الإرهاصات السابقة لميلاد هذا البطل العظيم:(ثم عاد بنـو اسـرائيل يعملـون الشـر في عيـني الـرب فـدفعهم الـرب ليـد الفلسـطينيين اربعين سـنة.. وكـان رجـل من صـرعة من عشـيرة الدانيين اسمه منوح وامرأته عاقر لم تلد. فتراءى ملاك الرب للمـرأة وقال لها: هـا انت عـاقر لم تلـدي. ولكنـك تحبلين وتلـدين ابنـا. والآن فاحذري ولا تشربي خمرا ولا مسكرا ولا تأكلي شيئا نجسـا. فهـا انـك تحبلين وتلدين ابنا ولا يعل موسى رأسه لان الصـبي يكـون نـذيرا للـه من البطن وهو يبدأ يخلص اسرائيل من يد الفلسـطينيين) (القضـاة: 5-13/1)

اسـمع.. ملاك الـرب ينهاهـا أن تشـرب الخمـر، وتأكـل النجس لا لأجل أنهما حرام، ولكن لأجل من في بطنها.

وذهبت المـرأة البسـيطة إلى زوجهـا.. (فـدخلت المـرأة وكلمت رجلها قائلة. جاء اليّ رجـل اللـه ومنظـره كمنظـر ملاك اللـه مـرهب جدا. ولم اسأله من اين هو ولا هـو اخـبرني عن اسـمه. وقـال لي هـا انت تحبلين وتلدين ابنا. والآن فلا تشربي خمرا ولا مسـكرا ولا تـأكلي شـيئا نجسـا. لان الصـبي يكـون نـذيرا للّـه من البطن الى يـوم موتـه فصلّى منوح الى الرب وقال اسألك يا سيدي ان يأتي ايضا الينا رجـل الله الذي ارسلته ويعلمنا ماذا نعمل للصـبي الـذي يولـد. فسـمع اللـه لصوت منوح فجاء ملاك الله ايضا الى المرأة وهي جالسة في الحقل

ومنوح رجلها ليس معها. فاسرعت المـرأة وركضـت واخـبرت رجلهـا وقالت له هوذا قد تراءى لي الرجل الذي جاء اليّ ذلـك اليـوم. فقـام منوح وسار وراء امرأته وجاء الى الرجل وقال لـه اأنت الرجـل الـذي تكلم مع المرأة. فقال انا هـو. فقـال منـوح. عنـد مجيء كلامـك مـاذا يكون حكم الصبي ومعاملتـه. فقـال ملاك الـرب لمنـوح. من كـل مـا قلت للمرأة فلتحتفـظ. من كـل مـا يخـرج من جفنـة الخمـر لا تأكـل وخمـرا ومسـكرا لا تشـرب وكـل نجس لا تأكـل. لتحـذر من كـل مـا اوصيتها)(القضاة:13/6-14)

كل هذا النص الطويل البسـيط أورده الكتـاب المقـدس من أجـل أن يبرز اقتناع الرجل بما طلبه الملاك، مع أن ما طلبه ليس بالشــيء الخطير.. أن لا يأكلوا النجس، وأن لا يشربوا الخمر.

وبعد أن اقتنع الرجل الذي هو أبو شمشون.. أبـو البطـل.. أراد أن يكرم الملاك، وليس لدى الإسرائيليين أحلى من جدي معزى.. (فقال منوح لملاك الرب دعنـا نعوقـك ونعمـل لـك جـدي معـزى) (القضـاة: 13/15)

وكان الملاك عفيفا زاهدا، فرفض ما عرضه عليـه أبـو شمشـون، وطلب بـدل ذلـك شـيئا للـرب.. طلب محرقـة للـرب.. (فقـال ملاك الـرب لمنـوح: ولـو عوقتـني لا آكـل من خـبزك وان عملت محرقـة فللرب اصعدها. لان منوح لم يعلم انه ملاك الرب.. فقال منوح لملاك الرب ما اسمك حتى اذا جـاء كلامـك نكرمـك. فقـال لـه ملاك الـرب لمـاذا تسـأل عن اسـمي وهـو عجيب. فاخـذ منـوح جـدي المعـزى والتقدمة واصعدهما على الصخرة للـرب. فعمـل عملا عجيبـا ومنـوح وامرأته ينظران. فكان عند صعود اللهيب عن المذبح نحو السـماء ان ملاك الرب صعد في لهيب المذبح ومنـوح وامرأتـه ينظـران فسـقطا على وجهيهما الى الارض. ولم يعد ملاك الرب يتراءى لمنوح وامرأته. حينئذ عرف منوح انه ملاك الرب. فقال منوح لامرأته نموت موتا لاننـا قد رأينا الله. فقالت له امرأته لو اراد الرب ان يميتنا لما اخذ من يدنا محرقة وتقدمة ولما ارانا كـل هـذه ولمـا كـان في مثـل هـذا الـوقت

اسمعنا مثل هذه) (القضاة:13/16-23)

بعـد هـذه المقـدمات الطويلـة يولـد شمشـون.. يولـد البطـل.. (فولدت المرأة ابنا ودعت اسمه شمشون. فكبر الصبي وباركه الرب وابتـدأ روح الـرب يحركـه في محلّـة دان بين صـرعة واشـتأول)) (القضاة:13/24-25)

بهذه الفاصلة تنتهي السورة الأولى.. لتبدأ السورة الثانية.. سـورة البطولات الخارقة.

اسمع بالعنصرية المقيتة التي تبدأ بها:(ونزل شمشـون الى تمنـة ورأى امرأة في تمنة من بنات الفلسطينيين. فصعد واخبر ابـاه وامـه وقال قد رأيت امرأة في تمنة من بنات الفلسطينيين فالآن خذاها لي امرأة. فقال له ابوه وامـه: أليس في بنـات اخوتـك وفي كـل شـعبي امرأة حتى انك ذاهب لتأخـذ امـرأة من الفلسـطينيين الغلـف. فقـال شمشون لابيه اياها خذ لي لانها حسنت في عينيّ)(القضاة:14/1-3)

هكذا تبدأ قصص كثيرة من الكتاب المقدس.. باتخاذ امرأة ولا يهم أن تكون زوجة، أو زانية.

ويعلل الكتاب المقدس سر ذلك الاختيار، فيقـول:(ولم يعلم ابـوه وامه أن ذلك من الرب لانه كان يطلب علّة على الفلسـطينيين. وفي ذلك الوقت كان الفلسطينيون متسـلطين على اسـرائيل) (القضـاة: 14/4)

إذن كـان الـرب يلتمس الأسـباب ليصـب لعنـة من لعناتـه على الفلسطينيين، فكيف رتب هذه الأسباب..

اسمع هذا التدبير العجيب الذي رتبه الرب ليقضي على جمـع من جموع الفلسطينيين:(فنزل شمشون وابوه وامه الى تمنـة وأتـوا الى كروم تمنـة. واذا بشـبل اسـد يزمجـر للقائـه. فحـلّ عليـه روح الـرب فشقه كشق الجدي وليس في يده شـيء. ولم يخـبر ابـاه وامـه بمـا فعل. فنزل وكلم المرأة فحسنت في عيني شمشون. ولما رجـع بعـد

ايام لكي ياخذها مال لكي يـرى رمّـة الاسـد واذا دبـر من النحـل في جوف الاسد مع عسل. فاشتار منـه على كفيـه وكـان يمشـي وياكـل وذهب الى ابيـه وامـه واعطاهمـا فـأكلا ولم يخبرهمـا انـه من جـوف الاسد اشتار العسل) (القضاة:14/5-10)

من هنا تبدأ البطولة.. لقد شق شمشون الأسد نصفين كما يشـق الجدي، ثم عاد بعد أن امتلأ نحلا ليأكل من عسل النحل.. لسـت أدري هل يمكن هذا.. هل يمكن للجيف أن تصبح محلا لخلايـا النحـل.. وهـل يمكن للنحل أن يوفر كل تلك الكمية من العسل، والتي جعلتـه يأكلـه هو وأهله.

لست أدري مدى صدق كل هـذا.. ومـدى عقلانيتـه.. ولكنـه هكـذا قال الكتاب المقدس، وهكذا ينبغي أن نقول.

لم تنته البطولـة هنـا.. لقـد كـان الـرب يلتمس الأسـباب ليصـيب الفلسطينيين بلعنة من لعناته.. فما كـانت تلـك الأسـباب الـتي دبرهـا المدبر الحكيم؟

يذكرها لنا الكتاب المقدس فيقول:(ونزل أبوه إلى المرأة فعمـل هناك شمشون وليمة لانه هكذا كان يفعل الفتيان. فلما رأوه احضـروا ثلاثين من الاصـحاب فكـانوا معـه. فقـال لهم شمشـون لأحـاجينكم أحجية. فاذا حللتموها لي في سبعة ايام الوليمـة واصـبتموها اعطيكم ثلاثين قميصا وثلاثين حلّة ثياب. وان لم تقدروا ان تحلّوها لي تعطوني انتم ثلاثين قميصا وثلاثين حلّة ثياب. فقالوا له حاج أحجيتك فنسـمعها. فقـال لهم من الآكـل خـرج أكـل ومن الجـافي خـرجت حلاوة. فلم يستطيعوا ان يحلّوا الاحجيـة في ثلاثـة ايـام. وكـان في اليـوم السـابع انهم قالوا لامرأة شمشون تملقي رجلك لكي يظهـر لنـا الاحجيـة لئلا نحرقــك وبيت ابيــك بنــار. ألتســلبونا دعوتمونــا ام لا. فبكت امــرأة شمشون لديه وقالت انما كرهتني ولا تحبني. قد حاجيت بـني شـعبي احجية واياي لم تخبر. فقال لها هوذا ابي وامي لم اخبرهما فهل ايـاك اخبر. فبكت لديه السبعة الايام التي فيها كانت لهم الوليمة وكـان في اليوم السابع انه اخبرها لانها ضايقته فـاظهرت الاحجيـة لبـني شـعبها.

فقال له رجـال المدينـة في اليـوم السـابع قبـل غـروب الشـمس اي شيء احلى من العسل وما اجفى من الاسد. فقال لهم لو لم تحرثـوا على عجلتي لما وجـدتم أحجيـتي. وحـلّ عليـه روح الـرب فـنزل الى اشقلون وقتل منهم ثلاثين رجلا واخذ سلبهم واعطى الحلل لمظهري الاحجية. وحمي غضبه وصعد الى بيت ابيه. فصارت امـرأة شمشـون لصاحبه الذي كان يصاحبه) (القضاة:11/14-20)

هل رأيت التدبير الذي دبرره الله لهذا الذي نزل عليـه روح اللـه.. إنه تدبير حكيم.. أليس كذلك؟

أحجية عجيبة يطلب منهم فكها.. لا تحتـاج علمـا، ولا ذكـاء، ولا أي قدرة من القدرات.. هي مجرد أحبولة فقط..

ثم إذا ما عرف القوم حلا لأحجيته يقتـل منهم ثلاثين بعـد أن يحـل به روح الـرب.. ولا يكتفي بقتلهم بـل يقلـع عنهم ثيـابهم ليفي بوعـده لمن عرف الأحجية..

مد يده إلى رأسه، وراح يصيح: أهذا كتاب مقدس؟.. أهذه تعــاليم كتاب مقدس؟.. أهذه هي الرجولة بمنطق الكتاب المقدس؟

ثم سكن قليلا، وقـال: انتهت السـورة الثانيـة من السـور الخاصـة بشمشون لتبدأ السورة الثالثة.. وهي كلها مشاهد لبطولة شمشون..

اسمع.. (وكـان بعـد مـدّة في ايـام حصـاد الحنطـة ان شمشـون افتقد امرأته بجدي معزى. وقال ادخل الى امرأتي الى حجرتها. ولكن اباها لم يدعه ان يدخل وقال ابوها اني قلت انك قد كرهتها فاعطيتهـا لصاحبك. أليست اختها الصغيرة احسن منها. فلتكن لك عوضـا عنهـا. فقال لهم شمشون: اني بـريء الآن من الفلسـطينيين اذا عملت بهم شرا) (القضاة:1/15-3)

انظـر كيـف يقـدس الكتـاب المقـدس الإجـرام.. وكيـف يقـدس المجرمين؟

لأجل خلاف بينه وبين والد زوجته التي لم تعد زوجته لأنـه رفضـها يرى أنه أصبح بريئا من أن يفعل ما يشـاء من الشـر لا بوالـد زوجتـه، وإنما بالفلسطينيين جميعا.

كيـف يقـول المسـلمون الطيبـون: إن الـديانات السـماوية الثلاث تدعو للسلام.. هل هذا النص يدعو للسلام، أو يربى على السلام؟

اسمع ما فعل المجرم شمشون:(وذهب شمشون وامسـك ثلاث مئة ابن آوى واخذ مشاعل وجعل ذنبا الى ذنب ووضع مشعلا بين كل ذنـبين في الوسـط. ثم اضـرم المشـاعل نـارا واطلقهـا بين زروع الفلسـطينيين فـاحرق الاكـداس والـزرع وكـروم الزيتـون. فقـال الفلسطينيون من فعل هذا. فقـالوا شمشـون صـهر التمنّي لانـه اخـذ امرأتـه واعطاهـا لصـاحبه. فصـعد الفلسـطينيون واحرقوهـا واباهـا بالنار.) (القضاة:15/4-6)

اسـمع تلـك الخرافـة الـتي سـبق أن تحـدثنا عنهـا.. وانظـر إلى الاحتيال في الإجرام.. والكتاب المقدس لا ينكـر أي تصـرف من هـذه التصرفات الحمقاء.. بل يقرها، ويعتبر شمشون رجل الله ووليه.

شمشون الحاقد لم يكتف بما فعلـه..:(فقـال لهم شمشـون ولـو فعلتم هذا فاني انتقم منكم وبعد اكفّ وضربهم ساقا على فخذ ضـربا عظيما. ثم نزل واقـام في شـق صـخر عيطم) (القضـاة:15/7-8).. هذه بطولة من بطولات الكتاب المقدس.

لما حصـل هـذا قـام الفلسـطينيون المسـاكين بـالبحث عن حيلـة ليقضوا بها على هذا المجرم، وكان الأصل أن يقف الرب معهم.. لكن الرب لا يقف في منطق الكتاب المقدس إلا مع المجرمين.. بل يحـل عليهم من روحه ما يجلهم الإرهاب عينه.

اسـمع هـذه المحـاولات والخرافـات المرتبطـة بهـا:(وصـعد الفلسطينيون ونزلوا في يهوذا وتفرّقـوا في لحي فقـال رجـال يهـوذا لماذا صعدتم علينا. فقالوا صعدنا لكي نوثق شمشون لنفعـل بـه كمـا فعل بنا. فنزل ثلاثة آلاف رجل من يهوذا الى شقّ صخر عيطم وقالوا

لشمشون أما علمت ان الفلسطينيين متسلطون علينا. فماذا فعلت بنا. فقال لهم كما فعلوا بي هكذا فعلت بهم. فقالوا له نزلنا لكي نوثقك ونسلمك الى يد الفلسطينيين. فقال لهم شمشون احلفوا لي انكم انتم لا تقعون عليّ. فكلموه قائلين كلا. ولكننا نوثقك ونسلمك الى يدهم وقتلا لا نقتلك. فاوثقوه بحبلين جديدين واصعدوه من الصخرة. ولما جاء الى لحي صاح الفلسطينيين للقائه. فحلّ عليه روح الرب فكان الحبلان اللذان على ذراعيه ككتان احرق بالنار فانحلّ الوثاق عن يديه. ووجد لحي حمار طريّا فمدّ يده واخذه وضرب به الف رجل. فقال شمشون بلحي حمار كومة كومتين. بلحي حمار قتلت الف رجل. ولما فرغ من الكلام رمى اللحي من يده ودعا ذلك المكان رمت لحي)(القضاة:15/9-17)

هل رأيت هذه المشاهد البطولية.. كيف يقطع الحبل.. وكيف يقضي بلحي حمار على ألف رجل.. وكل ذلك بعد أن حل عليه روح الرب.. لست أدري هل حل عليه روح الرب أم أرواح الشياطين؟

الكتاب المقدس يعتبر هذا المجرم مخلصا.. كما نعتبر نحن المسيح مخلصا.. اسمع:(ثم عطش جدا فدعا الرب وقال انك قد جعلت بيد عبدك هذا الخلاص العظيم والآن اموت من العطش واسقط بيد الغلف. فشقّ الله الكفّة التي في لحي فخرج منها ماء فشرب ورجعت روحه فانتعش. لذلك دعا اسمه عين هقّوري التي في لحي الى هذا اليوم)(القضاة:15/18-19)

هل سمعت هذه الخرافات؟ أهذا كتاب مقدس؟

تختتم هذه السورة من السور الخاصة ببطولة شمشون بتكريم عظيم من الله له.. إن المجرم لا يكرم بتكريم أعظم من أن يجعل قاضيا، وهذا ما حصل لشمشون.. (وقضى لاسرائيل في ايام الفلسطينيين عشرين سنة)(القضاة:15/20)

انتهت هذه السورة هنا.. لتبدأ السورة الأخيرة من السور المخصصة لشمشون، وتبدأ السورة بهذا المشهد الدال على براعة

الاسـتهلال الـتي يتصـف بهـا الكتـاب المقـدس.. اسـمع.. (ثم ذهب شمشون الى غزّة ورأى هناك امرأة زانية فدخل اليها)(القضاة:16/1)

هاهو البطل القاضـي يضـم على جـرائم القتـل والإفسـاد جريمـة الزنا، ثم لا ينكر عليه الكتاب المقدس أي فعـل فعلـه.. وإنمـا يمضـي ليحكي تـدبيرات الفلسـطينيين المسـاكين، وكيـف لم يكن الـرب معهم.. وكيف كان مع المجرم المنحل.

اسمع:(فقيل للغـزّيين: قـد اتى شمشـون الى هنـا. فاحـاطوا بـه وكمنوا له الليل كله عند باب المدينـة فهـدأوا الليـل كلـه قـائلين عنـد ضوء الصباح نقتله. فاضطجع شمشون الى نصـف الليـل ثم قـام في نصف الليـل واخـذ مصـراعي بـاب المدينـة والقـائمتين وقلعهمـا مـع العارضة ووضعها على كتفيه وصعد بها الى راس الجبل الـذي مقابـل حبرون) (القضاة:16/2-3).. هذا مظهر آخر من مظاهر البطولة.

والكتاب المقدس لا يكتفي به، بل يضم إليه بطولتـه مـع النسـاء.. اسمع:(وكان بعد ذلك انه احب امرأة في وادي سورق اسمها دليلـة. فصعد اليها اقطاب الفلسطينيين وقالوا لها تملقيه وانظري بماذا قوته العظيمة وبماذا نتمكن منه لكي نوثقه لاذلاله فنعطيك كـل واحـد الفـا ومئـة شـاقل فضـة. فقـالت دليلـة لشمشـون اخـبرني بمـاذا قوتـك العظيمة وبماذا توثق لاذلالك. فقال لها شمشون اذا اوثقـوني بسـبعة اوتار طرية لم تجـف اضـعف واصـير كواحـد من النـاس. فاصـعد لهـا اقطاب الفلسطينيين سبعة اوتار طرية لم تجف فاوثقتـه بهـاوالكمين لابث عندها في الحجرة. فقالت له الفلسطينيون عليك يـا شمشـون. فقطع الاوتار كما يقطع فتيـل المشـاقة اذ شـمّ النـار ولم تعلم قوتـه. فقالت دليلة لشمشون ها قد ختلتني وكلمتني بالكذب. فـاخبرني الآن بماذا توثق. فقال لها اذا اوثقوني بحبـال جديـدة لم تسـتعمل اضـعف واصير كواحد من الناس. فأخذت دليلة حبالا جديدة واوثقته بها وقالت لـه الفلسـطينيون عليـك يـا شمشـون. والكمين لابث في الحجـرة. فقطعها عن ذراعيه كخيط. فقالت دليلة لشمشون حتى الآن ختلتـني

وكلمتني بالكذب. فـاخبرني بمـاذا توثـق. فقـال لهـا اذا ضـفرت سـبع خصل راسي مـع السـدى. فمكنتهـا بالوتـد وقـالت لـه الفلسـطينيون عليك يا شمشون. فانتبه من نومه وقلع وتد النسيج والسدى. فقـالت له كيف تقول احبك وقلبك ليس معي. هـوذا ثلاث مـرات قـد ختلتـني ولم تخبرني بماذا قوتك العظيمة. ولما كانت تضايقه بكلامها كـل يـوم والحّت عليه ضاقت نفسه الى الموتفكشف لها كل قلبه وقال لهـا لم يعل موسى راسي لاني نذير الله من بطن امي. فان حلقت تفـارقني قوتي واضعف واصير كاحد الناس. ولما رأت دليلة انه قد اخبرها بكل ما بقلبه ارسلت فدعت اقطـاب الفلسـطينيين وقـالت اصـعدوا هـذه المرة فانه قد كشف لي كل قلبه. فصعد اليها اقطـاب الفلسـطينيين واصعدوا الفضة بيدهم. وانامته على ركبتيها ودعت رجلا وحلقت سـبع خصل رأسه وابتدأت باذلاله وفارقته قوته. وقالت الفلسطينيون عليك يا شمشون. فانتبه من نومه وقـال اخـرج حسـب كـل مـرة وانتفض. ولم يعلم ان الرب قد فارقه) (القضاة:16/4-20)

هل رأيت روح الرب أين كان حالا من شمشون.. لم يكن حالا في قلبـه، ولا في عقلـه، بـل كـان في شـعره.. نعم شـعره هـو مصـدر بطولته..

يواصل الكتاب المقدس حكايـة مـا حصـل لـه بعـد ذلـك (فأخـذه الفلسـطينيون وقلعـوا عينيـه ونزلـوا بـه الى غـزّة واوثقـوه بسلاسـل نحاس وكان يطحن في بيت السجن) (القضاة:16/21)

لكن البطل سرعان مـا اسـتعاد شـعره ليقـوم بعمليـة انتحاريـة.. عفوا بل استشهادية، كتلـك العمليـات الـتي يقـوم بهـا الفلسـطينيون المساكين، ثم ينكرها اليهود ونحن عليهم باعتبارها مناقضة للإنسانية.. اسمع كيف يقوم شمشون بهذه العمليـة الاستشـهادية.. إنـه أول من سـن هـذا النـوع من العمليـات.. لا مـع الجيـوش، وإنمـا مـع العامـة البسطاء..

اسمع ما يقول الكتاب المقدس:(وابتدأ شعر راسـه ينبت بعـد ان حلـق وامـا اقطـاب الفلسـطينيين فـاجتمعوا ليـذبحوا ذبيحـة عظيمـة

لداجون الههم ويفرحوا وقالوا قد دفع الهنا ليدنا شمشون عدونا. ولما رآه الشعب مجدوا الههم لانهم قالوا قد دفـع الهنـا ليـدنا عـدونا الـذي خرب ارضنا وكثر قتلانا. وكـان لمـا طـابت قلـوبهم انهم قـالوا ادعـوا شمشون ليلعب لنا. فدعوا شمشون من بيت السـجن فلعب امـامهم واوقفـوه بين الاعمـدة. فقـال شمشـون للغلام الماسـك بيـده دعـني المس الاعمدة الـتي الـبيت قـائم عليهـا لاسـتند عليهـا. وكـان الـبيت مملوءا رجالا ونساء وكـان هنـاك جميـع اقطـاب الفلسـطينيين وعلى السطح نحو ثلاثة آلاف رجل وامـرأة ينظـرون لعب شمشـون. فـدعا شمشون الرب وقال يا سيدي الرب اذكـرني وشـددني يـا اللـه هـذه المرة فقط فانتقم نقمة واحـدة عن عيـنيّ من الفلسـطينيين. وقبض شمشون على العمودين المتوسطين اللذين كان البيت قائمـا عليهمـا واستند عليهما الواحد بيمينـه والآخـر بيسـاره. وقـال شمشـون لتمت نفسي مع الفلسطينيين. وانحنى بقوة فسـقط الـبيت على الاقطـاب وعلى كل الشعب الذي فيه فكان الموتى الذين اماتهم في موته اكثر من الـذين امـاتهم في حياتـه. فـنزل اخوتـه وكـل بيت ابيـه وحملـوه وصعدوا به ودفنوه بين صرعة واشتأول في قبر منوح ابيه. وهو قضى لاسرائيل عشرين سنة (القضاة:16/22-31)

تنفس الصعداء، وقـال: هكـذا ينتهي هـذا الفيلم، ويسـدل السـتار على المجرم القاضي الزاني الذي لم يكتف بمـا فعلـه في حياتـه من جرائم ليضم إليها عند موته جريمة قتل الآلاف من الرجـال والنسـاء.. والكتاب المقدس يفخـر ببطولاتـه وبـأن (المـوتى الـذين امـاتهم في موته اكثر من الذين اماتهم في حياته)

أي رب يمكن أن يقبل هذا.. أو أن يقول هذا.. أو أن يرضى بهذا!؟

سـكت قليلا، ثم قـال: ليس شمشـون هـو البطـل الوحيـد في الكتاب المقدس.. هناك غيره.. هناك البطل يوشيبا الذي (هـز رمحـه على ثمانمائة قتلهم دفعة واحدة)(صـموئيل (2)ـ 23/8) فكم كـان طول هذا الرمح؟ وكيف تم هذا!؟

وهناك أبيشاي ويشبعام، فكلاهما قتل ثلاثمائة دفعة واحدة، وبهزة

رمح. (انظر أيام (1) 11/11، 20)

وهنـاك شـمجر بن عنـاة قتـل من الفلسـطينيين سـتمائة رجـل بمنساس البقر (انظـر القضـاة 3/31). كيـف يحصـل هـذا؟ كيـف لم يهربوا؟ هل انتظر كل منهم دوره!؟

ليست البطولة في القتل فقط.. هناك بطولـة أخـرى في الأكـل.. لقد ذكر الكتاب المقدس الوجبة الدسـمة الـتي كـان يأكلهـا سـليمان الحكيم كل يـوم.. اسـمع:(كـان طعـام سـليمان لليـوم الواحـد ثلاثين كرسميذ، وستين كر دقيق، وعشر ثيران مسمنة، وعشـرين ثـوراً من المراعي، ومائة خروف عدا الأيائل واليمامير والأوز المسمن)(ملوك (1) 4/22 - 23)

وضع يـده على رأسـه.. وقـال: هـذا غيض من فيض من بطـولات الكتاب المقدس.. فإن شئت المزيد، فعد لتقرأه من جديد.

العلم:

سكت قليلا، ثم قـال: دعنـا من كـل هـذه الخرافـات، ولنبحث في علوم الكتاب المقدس.. علم الله لابد أن يظهر أثره في كتابه..

لنبحث في علم الفلــك، ذلــك العلم الــذي اهتم بــه الســابقون.. ولكنهم وقعوا في خرافات كثيرة بسب إعمال عقولهم ومخيلاتهم..

لننظر ما يقول كلام الله الوحيد في هذا.. ولنفتح الكتاب المقدس من أوله.. من سفر التكوين..

فتح الكتاب المقدس، وراح يقرأ الإصحاح الأول كـاملا:(في البـدء خلق الله السموات والارض. وكانت الارض خربة وخاليـة وعلى وجـه الغمر ظلمة وروح الله يرف على وجـه الميـاه. وقـال اللـه ليكن نـور فكان نور. وراى الله النور انه حسن.وفصل الله بين النـور والظلمـة. ودعا الله النور نهارا والظلمة دعاها ليلا.وكان مساء وكان صـباح يومـا واحدا وقال الله ليكن جلد في وسـط الميـاه.وليكن فاصـلا بين ميـاه

ومياه. فعمل الله الجلد وفصل بين المياه الـتي تحت الجلـد والميـاه التي فوق الجلد..)

بعد أن أنهى قـراءة الإصـحاح أغلـق الكتـاب، وقـال: هكـذا يصـف الكتاب المقدس بداية الخلق.. وهو يذكر أن السموات والأرض خلقت في ستة أيام.

وجدت المجال للكلام، فقلت: وهكذا قـال القـرآن.. لقـد ورد فيـه هذا النص:{ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْـتَوَى عَلَى الْعَـرْشِ مَـا لَكُمْ مِنْ دُونِـهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا شَـفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ}(السجدة:4)

قـال: لا.. كلام القـرآن في المسـألة مختلـف تمامـا.. وأول ذلـك وأظهره أن القرآن أخبر عن سعة القـدرة الإلهيـة الـتي لم يصـبها أي مشقة في كل ذلك.. اسمع ما يقول القرآن:{ وَلَقَدْ خَلَقْنَـا السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِـتَّةِ أَيَّامٍ وَمَـا مَسَّـنَا مِنْ لُغُـوبٍ}(قّ:38) بينمـا نرى التوراة تقول:(وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمـل فاستراح في اليوم السابع من جميـع عملـه الـذي عمـل وبـارك اللـه اليوم السابع وقدسه.لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل اللـه خالقا)(تكوين:2/2-3)

والثاني أن اليوم في هذه الآيات ورد مطلقا، فلم يذكر فيه الصباح والمساء كما في التوراة، بالإضافة إلى أن اليوم في لغة العرب، وفي لغة القرآن يعني مرحلة زمنية.. وكأن القرآن يـذكر لنـا أن السـموات والأرض خلقت في ست مراحل زمنية.

القرآن يدل على هذا المعنى، فأنت تجد فيه اليوم الواحد يسـاوي ألف سنة أو خمسين ألف سنة عند الله.. اسمع نص القرآن في ذلك:{ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَـأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ}(الحج:47).. وفيه:{ تَعْرُجُ الْمَلائِكَـةُ وَالـرُّوحُ إِلَيْـهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ}(المعارج:4)

بالإضافة إلى أن القرآن يعتبر مـا يحـدث في القيامـة من أحـداث

طويلة تستغرق آلاف السنين يوما واحدا، فيقول:{ وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ}(البقرة:48)

قلت: فأنت ترى في التفاصيل التي ذكرتها التوراة أخطاء علمية؟

قال: لست أنا الذي يقول ذلك.. بل علم الفلك هو الذي يقول ذلك.. سأضرب لك مثلا على ذلك بما ذكرت التوراة أن الأرض خلقت في اليوم الثالث، بينما خلق الشمس والقمر في اليوم الرابع.

أنت تعلم أن الأرض في أصلها جزء من أمها الشمس.. وهذا يعني أنها لم تخلق قبلها.. بالإضافة إلى أن التوراة تذكر في الأعداد من 11 إلى 13 أن النبات والعشب والشجر خلقوا فى اليوم الثالث، أي قبل الشمس التي خلقت في اليوم الرابع، كما ورد في الأعداد 14 إلى 19.

وأنت تعرف أن ذلك مستحيل.. فالنباتات والأشجار لا يمكن أن توجد بدون ضوء الشمس.. لا شك أنك تعرف نظرية التمثيل الضوئي.

قلت: لقد ورد في القرآن مثل هذا الخطأ.. بل لعله أعظم من خطأ التوراة.

قال: ما هو؟.. اذكره لتنال تلك الجائزة العظيمة التي أعددتها لمن يجد تناقضا واحدا في القرآن.

قلت: اسمع ما ورد في القرآن حول هذا الموضوع:{ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (9) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (10) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعاً فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (11) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ

الْعَلِيمِ (12)}(فصلت)

قال: نعم.. هذا صحيح.. عندما نجمع هذه الأيام من دون أن يكـون معنا وعي نجمع به نحصل على ثمانية أيام.. مـع أن القـرآن ذكـر في كل المواضع أنـه خلـق السـماوات والأرض في سـتة أيـام.. هـذا هـو التناقض الذي تقصده.. وهذا هو التناقض الـذي يملأ قومنـا بـه الأرض ضجيجا.

قلت: هو تناقض واضح.. فكيف لا تسلم به؟

قال: أنا موثق صـادق.. ولا يمكنـني أن أخـون الحقيقـة لأن الـذي يقول بها غيري.. لقد بحثت في هذه المسألة، وحلها ليس بالعويص.

ذلك أن الأيام الأربعة الأولى هي حصيلة جمـع اثـنين واثـنين، فقـد خلق الله ـ بحسب القرآن ــ الأرض خلقـا أوليـا في يـومين، ثم جعـل فيها الرواسي التي هي الجبال، ووضع فيها بركتها من الماء، والــزرع، وما ادخره فيها من الأرزاق في يومين آخرين، فكانت أربعة أيام وهذا ما نص عليه القرآن في قوله:{ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَـا وَبَـارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ}(فصلت:10)

وهذه الأيام الأربعة هي حصيلة اليـومين الأولين، ويـومين آخـرين، فيكون المجموع أربعة.. وليست هذه الأربعة هي أربعة أيـام مسـتقلة أخرى زيادة على اليومين الأولين.. ومن هنا جاء الخطأ.. ثم إن اللــه ـ بحسب القرآن ـ خلق السماوات في يـومين، فيكـون المجمـوع سـتة أيام بجمع أربعة واثنين..

لا شك أنك لم تفهم ما قلت، سأضرب لـك مثـالا: لـو أن رجلا زار مصر، فقال: زرت مصـرا، فتجـولت في القـاهرة في يـومين، وأنهيت جولتي في الإسكندرية في أربعة أيام ثم عدت إلى بلدي.. لا شـك أن هـذا لم يمكث في مصـر إلا أربعـة أيـام فقـط، وليس سـتة أيـام لأن قوله: في يومين في أربعة أيام، يعني يومين في القاهرة ويومين في الإسكندرية..

ويشبه هذا ما ورد في الحديث من قول محمد:(إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما نطفة، ثم يكون علقة في مثل ذلك، ثم يكون مضغة في مثل ذلك) فإن هذا جميعه في أربعين يوما فقط، وليس في مائة وعشرين يوما، كما فهمه من فهمه خطأ، ويدل لهذا ما ورد من النصوص من أن الخلق يتم بعد اثنين وأربعين يوما.

سكت قليلا، ثم قال: لهذه المسألة تفاصيل كثيرة لا تبرئ القرآن فقط من التناقض.. بل تبرز نواح من الإعجاز لن أذكرها لك أنا.. ولعلك تجد في مستقبل حياتك من الفلكيين من يشرحها لك[1].

---

(1) انظر: رسالة (معجزات علمية) من هذه السلسلة، وفيها إجابة أخرى نرى أنها أرجح من هذه الإجابة، وهي أن أيام الخلق الستة التي ذكرتها الكتب المقدسة تمثل المدة الزمنية التي تطلبها خلق الكون منذ الانفجار الكوني العظيم الذي ملأ الفضاء بالدخان إلى أن يفنى الله هذا الكون ويعيده من حيث بدأ مصداقا لقوله تعالى:﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) (فصلت:11)، وقوله تعالى:﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ) (الانبياء:104)

وقد تفرد القرآن الكريم خلافا للكتاب المقدس بأنه قسم فترة الستة أيام التي خلق الله بها السماوات والأرض إلى فترتين: هما فترة خلق الأرض الأولية وكذلك السماوات والتي استغرقت يومين من هذه الأيام الستة، وفترة تقدير الأقوات في هذه الأرض، والتي استغرقت الأيام الأربعة المتبقية.

ففترة خلق الأرض الأولية تمثل المدة الزمنية التي مرت على الأرض منذ أن كانت في حالة الدخان إلى أن أخذت موقعها في مدار ثابت حول الشمس على شكل كرة ملساء ملتهبة ذات سطح شبه سائل.

أما فترة تقدير الأقوات فهي الأيام الأربعة المتبقية من أيام الخلق وقد حدد الله علامة بارزة لبداية هذه الأيام الأربعة التي أكمل الله فيها تجهيز الأرض وهذه العلامة هي تكون الجبال فوق سطح الأرض.

ومن الطبيعي أن تكون الجبال أول ما ظهر على سطح الأرض وبالتالي أول أحداث تهيئة الأرض فالأرض كانت قبل ذلك كرة ملساء وسطحها حار جدا وشبه سائل وكانت تغلي وتفور بسبب الحرارة الشديدة التي في باطنها كما سيكون مصيرها عند قيام الساعة لقوله تعالى: ﴿)وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً لا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلا أَمْتاً) (طـه:105-107)

وكلمة الأقوات في الآية تعني كل ما يلزم من شروط ظهور الحياة على سطح الأرض، فالقوت للكائن الحي هو ما يلزمه من طعام يبقيه على قيد الحياة.

وفي هذه الأيام الأربعة التي قدّر الله فيها أقوات الأرض تكونت الجبال والقارات والمحيطات والبحيرات والأنهار وتشكل الغلاف الجوي الذي بدأ بحماية الأرض من بقايا الشهب التي كانت ترشق الأرض من الفضاء الخارجي وامتلأ كذلك بمختلف أنواع الغازات التي ستلزم لحياة الكائنات الحية.

قلت: لدي نص آخر يدل على مخالفة القــرآن للعلم لا يمكنــك أن تجادل فيه.

قال: وما هو؟

قلت: أليست الأرض هي التي تدور حول الشمس؟

قال: بلى.. لا شك في ذلك.

قلت: ولكن القرآن يذكر أن الشمس هي التي تدور حول الأرض.

قال: أين هذا.. لقــد قــرأت القــرآن.. بــل أحفــظ الكثــير منــه، ولم أسمع نصا يحوي هذه الخرافة.

قلت: لـو تـأملت جيـدا لوجـدتها واضـحة للعيـان..إنهـا في سـورة الكهف..

ضـحك، وقــال: تقصــد مــا ورد في قولــه:{ حَتَّى إِذَا بَلَـغَ مَغْـرِبَ الشَّـمْسِ وَجَـدَهَا تَغْـرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَـدَ عِنْـدَهَا قَوْمـاً قُلْنَـا يَـا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِـذَ فِيهِمْ حُسْـناً) (الكهـف:86)، وفيهـا: { حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَــلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْراً) (الكهف:90)؟

قلت: أجل.. فهذا مخالف للعلم الثابت، ذلك لأن الشمس لا تغرب في عين ..

ابتسم، وقال: لقد ذكرتني بحادثة قبل سنوات ترتبط بهذا.

وبعد أن وفر الله كل أسباب الحياة على هذه الأرض بدأت الحياة الأولية بـالظهور عليهـا، ومن ثم خلق الله النباتات والحيوانات ومن ثم خلق الله الإنسان في آخر ساعة من سـاعات اليوم السادس من أيام الخلق كما جاء ذلك في الأحاديث النبوية.

وقـد تمكن العلمـاء في مختلـف التخصصـات من رسـم صـورة واضـحة وتفصـيلية لجميـع الأحداث التي مرت على الأرض منذ أن كانت كرة ملتهبة إلى أن أصـبحت على هـذا الشـكل البديع التي هي عليه الآن.

انظر التفاصـيل المرتبطـة بهـذا في كتـاب: بدايـة الخلـق في القـرآن الكـريم، د. منصـور العبادي، دار الفلاح للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، طبعة 2006م.

قلت: ما الذي حصل؟

قال: لقد تقدم أحدهم لينال تلـك الجـائزة بسـبب هـذا الاكتشـاف العظيم.. ولكنه ما إن كاد ينال ما طلبه حـتى شـعرت بصـوته يتغـير.. ونبراتـه ترتجـف.. ثم بكى.. وصـاح: لا أريـدها.. خـذوها أنتم.. خـذوها أنتم.. لا يمكن لهـذه الجـائزة أن يأخـذها أحـد من النـاس.. ثم خـرج.. ومن ذلك اليوم لم أره.

قلت: لم أفهم القصة.. وما علاقتها بهذا؟

قال: لقد بحثت في السبب الذي جعله يقول هـذا.. فوجدتـه سـببا معقولا.. إن الرجل كان صادقا.. ولكنه في نفس الوقت كان محتاجا.. فأراد أن يضحي بصدقه من أجل حاجتـه، ولكن اللـه وقـاه من ذلـك.. لقد أنجاه صدقه.

قلت: دعنا من حديث الرجل.. واذكر لنا ما وجدت أنت.

قال: أنت تعرف القرآن.. هو لا يهتم بالتفاصيل.. فلهذا لم يذكر لنا اسم المكـان الـذي ذهب إليـه ذو القـرنين، واكتفى من ذلـك بوصـفه بصفات قد تـدل عليـه، أو على الأقـل تعـرف بطبيعـة المنطقـة الـتي ذهب إليها.

قلت: لم أفهم.

قال: ألم يكن الناس.. ولعلهم لا زالوا يستدلون بالنجوم.

قلت: أجـل.. وقـد أشـار القـرآن إلى هـذا في قولـه:{ وَعَلامَـاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ) (النحل:16)

قـال: فهـل تـرى النجم يـنزل إلى الأرض ليصـبح لافتـة تـدل على المكان، أو إشارة مرور تدل على الاتجاه؟

قلت: يستحيل ذلك.. فأين منا النجوم؟

قال: فما مقصد القرآن من ذكر هذا إذن؟

قلت: بما أن لبعض النجوم مواقع معينة، فهم يستدلون من خلالها على الأرض، فيفرقون بين الاتجاهات.

قال: وهكذا هذا الأمر..

قلت: لم أفهم.

قـال: ألسـت تـرى السـواح يقصـدون الشـواطئ مـع غـروب الشمس؟

قلت: بلى..

قال: لم؟

قلت: يدهشهم جمال الشمس وهي تغرب في البحر.. لكأن البحر يبتلعها.. أو لكأنها تغتسل بمائه.

قال: فهل يحصل ذلك فعلا؟

قلت: لا.. هذا ما نراه.

قال: لقد فعل القرآن هذا.. لقد عبر القـرآن عن الرؤيـة البصـرية ليدل من خلالها على المكان الذي قصـده ذو القـرنين، ولم يقصـد أن الشمس بجرمها تغوص في ذلك الموضع بعينه.

أتـدري.. لقـد فهم المسـلمون البسـطاء هـذا.. مـع أن العلم لم يكشف لهم في ذلك الحين ما كشف لنا..

لقـد نقـل القفـال (429ــ507هــ /1037ــ1114م) عن بعض العلماء تفسيرًا لهذه الرؤية، متسقًا مع الحقيقة العلمية، فقال:(ليس المراد أنه (أى ذو القرنين) انتهى إلى الشمس مشرقًا ومغربًا حـتى وصـل إلى جِرْمهـا ومسَّـها.. فهى أعظم من أن تـدخل فى عين من عيون الأرض، بل هى أكبر من الأرض أضعافًا مضاعفة. وإنمـا المـراد أنه انتهى إلى آخر العمارة (أى البقاع المعمورة والمأهولة) من جهة المغرب ومن جهة المشرق، فوجـدها فى رأى العين تغـرب فى عين

حمئة، كما أنا نشاهدها فى الأرض الملساء كأنها تدخل فى الأرض، ولهذا قال:{ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْراً) (الكهف: 90) ولم يرد أنها تطلع عليهم بأن تماسّهم وتلاصقهم، بل أراد أنهم أول من تطلع عليهم)[1]

التاريخ:

سكت قليلا، ثم قال: دعنا من هذا، ولنبحث في تواريخ الكتاب المقدس.. لا شك أن الله يعرف تفاصيل الماضي، كما يعرف تفاصيل الحاضر والمستقبل، ولا يمكن أن يسجل في كلماته المقدسة ما يتناقض مع الماضي أو الحاضر أو المستقبل.

فتح الكتاب المقدس، وقال: اسمع عن تاريخ ميلاد المسيح كما ورد في (متى: 1/2).. لقد ذكر أن المسيح ولد في مِنْطَقَةِ الْيَهُودِيَّةِ عَلَى عَهْدِ الْمَلِكِ هِيرُودُسَ.

التاريخ يقول: إن هيرودس هو الذي حكم من 37 قبل الميلاد الى 4 قبل الميلاد، لذلك قد يكون المسيح قد ولد ما بين 6-4 قبل الميلاد.

بينما يذكر إنجيل لوقا أن المسيح و لد في عهد إحصاء السكان، والذي كان فيه كيرينيوس واليا على سوريا.. اسمع ما ورد في (لوقا: 2/2):(وفي تلك الأيام صدر أمر من أوغسطس قيصر بأن يكتتب كل المسكونة)

وهذا الاكتتاب الأول جرى اذ كان كيرينيوس والي سورية، و قد حصل هذا الإحصاء ما بين سنة 6-7 بعد الميلاد حسب بعض الوثائق التاريخية، أي بعد مضي عشر سنوات على موت هيرودوس.

ومن تلك الوثائق ما ذكره المؤرخ اليهودي يوسيفوس حول هذا الإحصاء، وتولي كيرينيوس للولاية.

---

(1) القرطبى، الجامع لأحكام القرآن،11 / 49.

هنـاك تنـاقضُ واضـح بين الإنجيلينِ.. فهنالـك فـرق زمـني مدتـه عشـرة سـنوات بين الروايـة الموجـودة في الإنجيـل المنسـوب إلى متى، و الرواية الموجودة في الإنجيل المنسوب إلى لوقا حـول ولادة المسيح.

سكت قليلا، ثم قال: اسمع ما ورد في إنجيل متى.

فتح الكتـاب المقـدس وراح يقـرأ:(وعنـدما أدرك هـيرودس أن المجوس سخروا منه، استولى عليه الغضب الشـديد، فأرسـل وقتـل جميـع الصـبيان في بيت لحم وجوارهـا، من ابن سـنتين فمـا دون، بحسب زمن ظهور النجم كما تحققه من المجوس عندئذ تم مـا قيـل بلسـان النـبي إرميـا القائـل: (صـراخ سـمع من الرامـة: بكـاء ونحيب شديد! راحيل تبكي على أولادها، وتأبى أن تتعزى، لأنهم قد رحلوا)

أغلق الكتاب المقدس، وقال: لقد انفرد إنجيل متى بهذه الروايـة، وهذه الحادثه لم يذكرها التاريخ، بل إنه لو قام هـيرودوس بـأمر كهـذا لقامت عليه قائمة اليهـود، ولقـاموا بعزلـه.. بـل إن المـؤرخ اليهـودي يوسيفوس لم يذكر هذه الحادثه مع كونـه كـان يـذكر كـل صـغيرة و كبيره لهيرودوس بسبب كرهه له.

بالإضـافه الى هـذا كلـه فـإن إنجيـل مـتى يعتمـد على النبـوءة المزعومه في سفر ارمياء النبي مـع أن هـذه النبـوءة ليس فيهـا إي دليل على ذلك.

اسمع النبوءة من سفر (ارمياء: 31/ـ 15):(وهذا ما يعلنه الـرب: (قد تردد في الرامة صوت ندب وبكـاء مـر. راحيـل تنـوح على أبنائهـا وتأبى أن تتعـزى عنهم لأنهم غـير موجـودين). وهـذا مـا يعلنـه الـرب: (كفي صوتك عن البكاء وعينيك عن العبرات لأن لعملك ثوابـا)، يقـول الرب، (إذ لابد أن يرجع أولادك من أرض العدو. فلغدك رجـاء)، يقـول الرب، (إذ سيرجع أولادك إلى موطنهم)

هذه النبوءة ليسـت كمـا فهمـه مـتى.. كـل مـا في الأمـر أن هـذا السفر يتحدث عن بكاء راحيل على بنى إسرائيل بعد سـبيهم.. وليس

في النص أي نبوة عن المسيح القادم، بـل ليس فيهـا أي إشـارة الى ذبح الصبيان.. والراجح أن كاتب انجيل متى قام بتأليف هـذه الروايـة، وكـان النص الـوارد في سـفر ارميـاء أحـد مصـادره المعتمـده في اختراعها.

سـكت قليلا، ثم قـال: اسـمع مـا يقـول مـتى عن سـتار الهيكـل المنشق وقارن بينه وبين ما يقول المؤرخون..

فتح الكتـاب المقـدس، وراح يقـرأ:(ومن السـاعة الثانيـة عشـرة ظهرا إلى الساعة الثالثـة بعـد الظهـر، حـل الظلام على الأرض كلهـا ونحـو السـاعة الثالثـة صـرخ يسـوع بصـوت عظيم: (إيلي، إيلي، لمـا شـبقتني؟) أي: (إلهي، إلهي، لمـاذا تركتـني؟) فلمـا سـمعه بعض الواقفين هناك، قـالوا: (إنـه ينـادي إيليـا!) فـركض واحـد منهم، وأخـذ إسفنجة غمسـها في الخـل، وثبتهـا على قصـبة وقـدم إليـه ليشـرب؛ ولكن الباقين قالوا: (دعه وشأنه! لنر هل يأتي إيليا ليخلصـه!) فصـرخ يسوع مرة أخرى بصوت عظيم، وأسلم الروح وإذا سـتار الهيكـل قـد انشق شطرين، من الأعلى إلى الأسفل، وتزلزلت الأرض، وتشـققت الصخور، وتفتحت القبور، وقامت أجسـاد كثـيرة لقديسـين كـانوا قـد رقـدوا؛ وإذ خرجـوا من القبـور، دخلـوا المدينـة المقدسـة بعـد قيامـة يسوع، ورآهم كثيرون (متى:3/45-53)

لقـد ذكـر مـتى حلـول الظلام على الأرض كلهـا، و هي حادثـه لم يذكرها إلا متى.. بالإضافه إلى أن المؤرخين الرومـان و اليهـود الـذين عاينوا ذلك العصر لم يذكروها، بل لم تـرد في أي مخطوطـه تاريخيـه في العالم مع أن النص يذكر أن الظلام حل على كل الأرض.

ثم يذكر حوادث كثيرة ليس هنالك أي ذكر لهذه الاحداث في كتب التاريخ.. ولم يخبرنا الكاتب ماذا حدث للقديسيين الذين قـاموا، وهـل رجعوا إلى قبورهم بعـد أن رآهم كثـيرون أم أنهم عاشـوا، ثم مـاتوا، ولم يذكر لنا من هم هؤلاء القديسـين.. ولم يـذكر لنـا أشـياء كثـيرة.. العقل يتيه في البحث عنها.

سكت قليلا، ثم قال ـ وكأنه يخاطب نفسه ـ: هل استولى بختنصر على مصر؟

ثم أجاب نفسه: الكتاب المقدس يقول ذلك..

فتح الكتـاب المقـدس وراح يقـرأ من (أرميـا: 46 /ـ 13-26): (الكلمة التي تكلم بها الرب الى ارميا النـبي في مجيء نبوخـذ نصـر ملك بابل ليضرب ارض مصر اخبروا في مصـر واسـمعوا في مجـدل واسمعوا في نـوف وفي تحفنحيس قولـوا انتصـب وتهيـأ لان السـيف ياكل حواليك لماذا انطرح مقتدروك. لا يقفون لان الرب قد طـرحهم. كثر العاثرين حتى يسقط الواحد على صاحبه ويقولـوا قومـوا فـنرجع الى شعبنا والى ارض ميلادنا من وجه السيف الصارم. قد نادوا هنـاك فرعون ملك مصر هالك. قد فـات الميعـاد حيّ انـا يقـول الملـك رب الجنود اسـمه كتـابور بين الجبـال وككرمـل عنـد البحـر يـأتي اصـنعي لنفسك أهبـة جلاء ايتهـا البنت السـاكنة مصـر لان نـوف تصـير خربـة وتحرق فلا ساكن مصر عجلة حسنة جدا. الهلاك من الشمال جاء جاء ايضا متسأجروها في وسطها كعجول صـيرة. لانهم هم ايضـا يرتـدون يهربون معا. لم يقفوا لان يوم هلاكهم اتى عليهم وقت عقابهم صوتها يمشـي كحيـة لانهم يسـيرون بجيش وقـد جـاءوا اليهـا بـالفؤوس كمحتطـبي حطب يقطعـون وعرهـا يقـول الـرب وان يكن لا يحصـى لانهم قد كثروا اكـثر من الجـراد ولا عـدد لهم قـد أخـزيت بنت مصـر ودفعت ليـد شـعب الشـمال. قـال رب الجنـود الـه اسـرائيل. هانـذا اعاقب آمون نو وفرعون ومصر وآلهتها وملوكها فرعـون والمتـوكلين عليه. وادفعهم ليد طالبي نفوسهم وليد نبوخذراصـر ملـك بابـل وليـد عبيده. ثم بعد ذلك تسكن كالايام القديمة يقول الرب)

هذا ما قاله الكتاب المقـدس، ولكن التـاريخ يقـول غـير هـذا.. إن التاريخ يذكر أن نبوخذ نصر لم يخرب نـوف ولم يسـتولي على مصـر أبدا، قد قامت حرب مميتة بين نبوخـذ نصـر ومصـر سـنة 600\601 وقد عـانى كثـيرا من هـذه المعركـة ورجـع لبلاده للعلاج، ولم يـرد أي مكان في التاريخ أنه دخلها.

قلت: لقد وقع القرآن في مثل هذه الأخطاء التاريخية.

قال: أين.. أخبرني لتنال جائزتك.. وإياك ان تسخر مني كما سخر غيرك.

قلت: لقد ذكر القرآن أن وزير فرعون يقال لـه (هامـان).. اسـمع ما يقول القرآن:{ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَـلْ لِي صَـرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِـعُ إِلَى إِلَـهِ مُوسَـى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ) (القصص:38)، واسمع:{ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَـانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ) (غافر:36)

قال: وما في ذلك؟.. هل ترى عجبا في كون اسمه هامان؟

قلت: أجل.. هامان المذكور في القرآن في ستة مواضـع مختلفـة كأحد المقربين إلى فرعون ليس له وجود إلا في آيات القـرآن.. ذلـك أن التوراة لم تذكر أن هامـان كـان في حيـاة موسـى على الإطلاق.. هي لم تـذكر إلا هامـان الـذي كـان وزيـراً وخليلا لأحشـوريش ملـك الفرس الذي يدعوه اليونان زركيس، أفليس هذا خطأ تاريخيا عظيما؟

ابتسم، وقال: ومن قال لنا بأن التـوارة اسـتوعبت كـل مـا يتعلـق بفرعون.. ألم يضف القرآن الكثير من المعلومات التي أغفل الكتـاب المقدس ذكرها؟

ثم إن هذه الآيات تليت على اليهـود في زمن محمـد، وكـان فيهم العلماء والأحبار فلم ينكر أحد منهم هذا الأمر.

ثم من من أخبرك بأن هامان كان وزيراً لفرعون؟

قلت: القرآن يقول ذلك.

قال: وفرعون.. هل كان اسم شخص.. أم كان لقبا للحاكم؟

قلت: بل كان لقبا للحاكم..

قال: فقد يكون هامان كذلك لقبا لا اسما.

سكت قليلا، ثم قال: لقد ذكرتني برجـل جـاءني ذات مـرة بنفس ما طرحته من الشبهة، وكان غرضه تلك الجائزة.

قلت: هل بكى هو الآخر، وتركها؟

قال: لا.. لقد اسـتمر يجـادل عن شـبهته.. لكن لسـت أدري كيـف التفت إلى جريدة كان يحملها معه، وطلبت منه أن يسـلمني لأقرأهـا، فوجدت يها ما ملأني عجبا، فأريته إياه، فقـرأه، ثم انصـرف خجلا من نفسه.

قلت: وما كان في الجريدة مما جعله يخجل من نفسه؟

قال: لقـد كـان فيهـا مقـال مهم يوضـح فيـه صـاحبه أن شخصـية هامان شخصية حقيقية تاريخية كشفت الآثار عن وجودها.. أنـا لا أزال أحتفظ بنص المقال في خزانتي هذه.

سار خطوات، وأتى بالمقال، وراح يقرؤه علي:(لقد شكك البعض في شخصية هامان.. واعتـبره شخصـية خرافيـة لا وجـود لهـا.. ولكن هـذه الادعـاءات سـقطت بعـد فـك طلاسـم الأبجديـة الهيروغليفيـة المصـرية قبـل 200 سـنة تقريبـاً، واسـم هامـان قـد أكتشـف في المخطوطات القديمةـ وقبل هذه الاكتشـافات لم يكن شـئ معـروف عن التـاريخ الفرعـوني، ولغـز الهيروغليفيـة تم حلـه سـنة 1799 باكتشاف حجر رشيد الذي يعود الى 196 قبـل الميلاد، وتعـود أهميـة هذا الحجر بأنـه كتب بثلاث لغـات: اللغـة الهيروغليفيـة والديموقيطيـة واليونانيـة وبمسـاعدة اليونانيـة تم فـك لغـز الهيروغليفيـة من قبـل شـامليون، وبعـدها تم معرفـة الكثـير حـول تـاريخ الفراعنـة، وخلال ترجمـة نقش من النقـوش المصـرية القديمـة تم الكشـف عن اسـم (هامان) وهذا الاسم أشير إليه في لوح أثري في متحـف هـوف في فينا، وفي مجموعة من النقوش كشفت لنا أن هامـان كـان في زمن تواجـد موسـى في مصـر، وقـد رُقي إلى أن أصـبح مـديراً لمشـاريع الملك الأثرية.

وقد سجل كتاب (Pharaoh Triumphant the life and times of Ramesses II K.A. Kitchen)،

الكثير من المعلومات عن هامـان: منهـا [1]:(كـان الشـاب آمن (= هـامن / هامــان) ام اينت Amen em inet في مثــل ســن الأمــير (رمسيس 2) ورفيق صباه، فلما أصبح رمسيس نائبا للملـك ووريثـا للعرش أصبح الفتى بالتبعية رفيقه وتابعه ففتح له الطريـق لمسـتقبل زاهر وهي ما تحقق فعلا.

وكان لآمن ام اينت Amen em inet (هامـان) أقـارب ذوو نفـوذ منهم عمه (لعله مِنموسى، Minmose) كبير كهنـة الإلـه مين والإلهـة ايزيس بقفط (شمال طيبة) وقائد Commandant فيـالق النوبـة، أي الساعد الأيمن لنائب الملك في النوبة.

ومنهم الفتى باكن خنسـو (والـده باسـر وزيـر الجنـوب وابن عم آمن ام اينت Amen em inet (هامـان) ص 242) مـدرب الخيـول الملكية الذي التحق بعد ذلك بالسلك الكهنوتي المسـتديم في خدمـة آمون بطيبة.

وفي موضع آخر من الكتاب قال: رقّى الملك رفيـق طفولتـه آمن ام اينت Amen em inet (هامان) إلى وظيفة قائد المركبات الملكية Royal Charioteer وناظر للخيل Super Intendent of Horse [2].

وهذا مـا يشـير إليـه القـرآن في قولـه:{ وَنُـرِيَ فِرْعَـوْنَ وَهَامَـانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ }(القصص:6)

وفي موضع آخر قال: وكان من علية القوم من اتخـذ من الخدمـة العسكرية ذريعة للوثوب إلى الوظائف المدنية العليا،وقـد تعرفنـا من هـؤلاء على..، وآمن ام اينت (هامـان) القائـد بسـلاح المركبـات ثم ميليشـيات المـدجاي Chief of Medjay-Militia، بعـدها عين مـديرا

1() رمسيس الثاني،فرعون المجد والانتصار، ترجمة د.أحمد زهير أمين، ص 55.

2() رمسيس الثاني،فرعون المجد والانتصار، ص 73.

للمصانع (وزير صناعة) [3].

أعاد المقال إلى مكانه، وقال: إن هذا النص لا يكشف عن تصحيح خطأ فقط، وإنما يكشف عن إعجاز تاريخي للقرآن.. فهامان في هذه الوظيفة يتناسب معه تماما مع ما نص عليه القرآن في قوله:{ وَقَـالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَـلْ لِي صَـرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِـعُ إِلَى إِلَـهِ مُوسَـى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ) (القصص:38)

قلت: لدي شبهة أخرى لا شك في قوتها، وهي مما يحرص قومنـا على إشاعته.

قال: اذكرها.. وخذ جائزتك.

قلت: لقد أخطأ القرآن خطأ عظيما حين اعتبر مريم أختا لهارون، وهي بذلك تكون أختا لموسى.. اسمع:{ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (27) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْـرَأَ سَـوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (28)}(مريم)

لقد خلط محمد بين مريم أم المسيح، ومـريم أخـرى كـانت أختًـا لهـارون الـذى كـان أخًـا لموسـى ومعاصـرًا لـه، ولا يوجـد مثـل هـذا التناقض فى الكتاب المقدس.

زيادة على ذلك، فإن الثابت فى القرآن كما في الكتاب المقــدس أن مريم هى ابنة عمران.. { وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَـا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَـانَتْ مِنَ الْقَـانِتِينَ) (التحريم:12).. وعمران هذا هو من نسل داود أى من سـبط ونسـل يهوذا، وليس من سبط ونسل هارون سـبط اللاويين، فكيـف اعتبرهـا القرآن أختا لهارون؟

قال: ألست ترى فرقا بين الآيتين اللتين ذكرتهما؟

(3) رمسيس الثاني،فرعون المجد والانتصار، ص 199.

قلت: أي فرق تراه أنت.. أنا لا أرى إلا أن الأولى ذكرت أن مــريم أخت لهارون، وأما الثانية، فذكرت أن عمران أب لها.

قال: أما الثانية، فنعم.. وأما الأولى فلم تذكره تقريرا، وإنما ذكرته في معرض عتاب الإسرائيليين لمريم، وهم يوبخونها.

قلت: وما الفرق بين هذين؟

قال: الفرق بينهما عظيم.. لأننا قد ننسب من نتهمه للفسقة، كمـا ننسب من نظن فيه الصلاح إلى الصديقين والقديسين.

قلت: أهذا ما يريد النص؟

قال: هذا ما علل به بعضهم النص، وهو تعليل قوي، وقـد ذكـروا ـ من باب التخمين ـ أن هارون المشـار إليـه كـان رجلاً فاسـقًا، اشـتهر بفسقه، فنسبها قومها إليه، إعلانًا عن إدانتهم لها.

وخـالفهم آخـرون فـذكروا أن هـارون كـان رجلاً صـالحًا، مشـهورًا بالصـلاح والعفـة.. فنسـبها قومهـا إليـه سـخرية منهـا، وتهكمًـا عليهـا، وتعريضًا بما فعلت، واسـتهزاء بـدعواها الصـلاح والتقـوى والتبتـل فى العبادة بينما هى ـ فى زعمهم ـ قد حملت سفاحًا..

قلت: كل هذه تعليلات تخمينية لا تنهض لنصرة القرآن.

قال: فلم يبق إلا أن تكون مريم أختا حقيقية لهارون.

قلت: وبذلك يقع القـرآن في هـذا الخطـأ العظيم، فهـارون سـبق مريم قرونا طوالا.

قال: أليس في الدنيا من له اسم هارون غير أخي موسى؟

قلت: لا.. لا زال الناس إلى الآن يتسمون باسمه.

قال: فقد يكـون مـا ذكـره القـرآن على سـبيل الحقيقـة.. لا على سبيل المجاز.

قلت: ماذا تقصد؟

قال: أن يكون لمريم أخ اسمه هارون.

قلت: ولكن الكتاب المقدس لم يذكر ذلك.

قـال: أنت تعلم أن الكتـاب المقـدس لم يحـط بكـل المعلومـات التاريخية، بالإضافة إلى أن القرآن يضيف كثـيرا لمـا ورد في قصصـه، ويصحح منه ما لا يراه..

ثم كيف نعتـبر الكتـاب المقـدس هـو الحكم، وقـد رأيتنـا أخطـاءه الكثيرة، وتناقضـاته اللامحـدودة، أفلا يمكن أن يكـون هـذا من نقصـه وتقصيره؟

صمت قليلا، ثم قال: لقد تذكرت..

ذهب إلى الخزانة، وأخرج كتابا، وقال: لقد أجاب محمـد عن هـذه الشبهة، وأرى أن ما في إجابته كاف عن كل ما قيل.. اسمع..

راح يقرأ: روى أحمـد ومسـلم والترمـذي والنسـائي وغـيرهم عن المغيرة بن شعبة قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى أهل نجران - وكـانوا نصارى - فقالوا: أرأيت ما تقـرؤون: يـا أخت هـارون؟ وموسـى قبـل عيسى بكذا وكذا؟ يعترضون على المغيرة.. قـال: فـرجعت فـذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال النبي ﷺ:(ألا أخبرتهم أنهم كـانوا يسـمون بالأنبياء والصالحين قبلهم؟)

قلت: لدي شبهة أخرى لست أدري مدى صحتها.

قال بنوع من التثاقل: ما هي.. أرجو أن لا تكون مثل أخواتها.

قلت: لقد ذكر القرآن أن السامري هو الذي أضل بـني إسـرائيل، فقد جاء في الآية:{ قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ }(طه: 85) مع أن السامريين لم يجيئوا إلا بعد سبي بابل كمـا في سـفر (1 ملوك 16: 24)

بالإضافة إلى ذلك، فإن مدينة السامرة المنسوب إليها السامري لم تكن موجودة آنذاك، بل هي بعد موسى بمئات السنين.

قال: وهل ذكر القرآن أن السامري من مدينة السامرة؟

قلت: لا.. ولكن النسبة إليها تكفي.

قال: ومن قال بأن ما ذكره القرآن نسبة وليست اسما؟

سكت، فقال: هل لديك إثبات بأن هذا الاسم لم يعرف إلا بعد بناء السامرة؟

قلت: ليس لدي هذا الإثبات.

قال: وأنا لدي إثبات بأن هذا الاسم عرف قبل بناء المدينة، فقد اشترى عمري أحد ملوك بني إسرائيل مكان هذه المدينة بوزنتين من الفضة من شخص اسمه سامر، ولم يكن اسمها معروفا، وقد سماها الملك: السامرة، باسم من اشتراها منه، ثم جعلها عاصمة مملكة إسرائيل.

قلت: ولكن الرجل اسمه سامر، وليس السامري؟

قال: أنت تعلم أن نقل الأسماء من لغة إلى لغة أخرى لا يسلم من مثل هذا التصرف، ثم ما أدرانا بصدق ما تقول التوارة.. أنت تعرف غرائبها، فإن أردت أن ترد على القرآن، فاذكر مصدرا آخر أكثر تحقيقا.

بالإضافة إلى هذا.. أنت تعلم ما يقول الكتاب المقدس، فلا تنظر القذى في عين أخيك، وتنسى الجذع في عينك.

قلت: لدي شبهة أخرى.. فالقرآن يذكر عن طالوت أنه ابتلى جنوده بعدم الشرب من النهر، كما في قوله:{ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ)

(البقرة:249)

بينما يذكر الكتاب المقدس أن هذا ليس من فعـل طـالوت الـذي هو شاول، وإنما هو من فعل جدعون كمـا في (القضـاة 7:ـ 5 -ـ 7) (فنزل بالشعب الى الماء.وقال الرب لجـدعون كـل من يلـغ بلسـانه من الماء كما يلغ الكلب فأوقفه وحده.وكذا كـل من جثـا على ركبتيـه للشرب. وكان عدد الذين ولغوا بيدهم الى فمهم ثلاث مئة رجل.وامـا باقي الشـعب جميعـا فجثـوا على ركبهم لشـرب المـاء. فقـال الـرب لجدعون بالثلاث مئة الرجل الذين ولغـوا اخلصـكم وادفـع المـديانيين ليدك.واما سائر الشعب فليذهبوا كل واحد الى مكانه)

قـال: أنت تعلم أن سـفر القضـاة سـفر تـاريخى، ومثلـه سـفر صموئيل الأول الذى أورد قصـة طـالوت وداود.. فـأى مـانع من خطـأ المؤرخ فى نقل جزء من قصة إلى قصة أخرى مشابهة لها.

قلت: ولكنه الكتاب المقدس.. وليس كتاب تاريخ.

قـال: لقـد علمت كـثرة الأخطـاء الـواردة في هـذا.. ولا يمكن أن تحكم بكتاب يحوي كـل تلـك الأخطـاء على كتـاب آخـر إلا إذا حكمت بشهادات المجرمين لتثبت اتهام العدول.

قلت: لدي شبهة أخرى حول خلاف القرآن للكتـاب المقـدس فى عصر نمـرود، فحسـب قـول القـرآن والمفسـرين فـإن نمـرودا ألقى إبراهيم فى النار، وليس من المعقـول أن يكـون نمـرود حيًّا فى زمن إبراهيم، كما في الكتاب المقدس.

قـال: لنكتفي بـالقرآن.. ولنـترك أقـوال المفسـرين.. فـأقوال المفسرين ليست قرآنا.. هل ذكر القرآن أن اسم الملك الـذي حاجـه إبراهيم كان هو النمروذ؟

قلت: لا.. ليس في القرآن هذا الاسم.

قـال: فكيـف تحكم على القـرآن من خلال من حـاول أن يفهمـه

على ضــوء مصــادرنا، بالإضــافة إلى ذلــك، فــإن القــرآن لم يــذكر أن النمروذ[1] هو الذي حاول إحراق إبراهيم.

لقد ذكر القرآن قصتين منفصـلتين، أمـا الأولى، فترتبـط بـإبراهيم مع قومه من عبدة الأصنام، كما في هذه الآيات التي تنص على موقف قوم إبراهيم منـه بعـد أن حطم الأصـنام الـتى كـانوا يعبـدونها:{ قَـالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُـرُوا آَلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَـاعِلِينَ (68) قُلْنَـا يَـا نَـارُ كُـونِي بَـرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (69) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْـدًا فَجَعَلْنَـاهُمُ الْأَخْسَـرِينَ (70) (الأنبياء)

أما الثانية، فهي محاجّة إبراهيم للملك، كما في قوله:{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَـالَ إِبْـرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَـأْتِي بِالشَّـمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَـوْمَ الظَّالِمِينَ) (البقرة:258)

قلت: لدي شبهة أخرى حول ما يـذكره القـرآن عن الإسـكندر ذى القـرنين.. لقـد مـدح القـرآن الإسـكندر الأكـبر الـذي هـو ذو القـرنين باعتباره عبدا صالحا يؤمن بالله مع أن جميع مؤرخى الإغريق يجمعون على أنه كان من عبدة الأوثان.. فكيف يجاب عن هذا؟

ابتسم، وقال: ما أهون قومنا.. لما عز عليهم أن يجدوا أخطاء في القرآن ذهبوا إلى الفهوم البشرية يضربون بها القرآن.

قلت: ما تقول؟

---

[1] فى دائرة المعارف الإسلامية التى كتبها المستشرقون ـ وقد حرر مادة (إبـراهيم) فيها ج. إيزبرغ ـ يأتى ذكر الملك نمروذ فى قصة إبراهيم دون اعتراض.. وفى أثنائها إشارات إلى مصادر عبرية أشارت إلى النمروذ ـ منها (دلالة الحائرين) لموسـى بن ميمـون ــ الفصـل 29 .. ومنها سفر هياشار فصل نوح..

وتأتى الإشارة إلى (نمرود) الملك فى سفر التكوين ـ بالعهد القديم ـ الإصحاح 10: 8ـ11 باعتباره (الذى ابتدأ يكون جبـارًا فى الأرض) وبـه كـان يُضـرب المثـل فى التجـبر.. « وكـان ابتداء مملكتـه بابـل وأرك وأكـدّ وكلنـة من أرض شـنغار. من تلـك الأرض خـرج أشـور وبـنى نينوى.. »

قال: هل ترى في القرآن اسم الإسكندر؟

قلت: لا.. ولكنه سماه ذا القرنين.

قال: ومن ذكر لك أن ذا القرنين هو الإسكندر؟

قلت: لقـد ذكـر المفسـرون ذلـك.. فقـد روي عن وهب بن مُنبِّه، وهو من سلف المفسرين هذا القول؟

قال: هل تعرف من هو وهب من منبه؟

قلت: هو من مفسري السلف الأول من المسلمين.

قال: بل هو من اليهود الذين أسلموا، ثم راحـوا يفسـرون القـرآن على حسب ما درسوه في الكتـاب المقـدس، أو في الأسـاطير الـتي كانت تنتشـر بينهم.. لقـد كـان خطـر هـؤلاء على القـرآن لا يقـل عن خطر من حاول أن يحرف ديانة موسى.

قال هذا، ثم نهض من مكانه، وقال: لـو ظللت معي شـهرا كـاملا تورد ما تشاء من الشبه، فلن تجد شبهة واحدة تصلح لتخطئة القرآن.

قـال ذلـك، ثم توجـه للنسـخ الـتي أمامـه من الكتـاب المقـدس يخاطبها كما يخاطب البشر، ويعاتبها كما يعاتب الأب أبنـاءه، ويضـرب لهـا المثـل بـالقرآن، كمـا يضـرب الأب لأبنائـه المثـل بالنـاجحين من الناس.

***

حملت ملفاتي معي، وخرجت لأتركه على تلـك الحـال.. لم أملـك أن أقدم له أي شيء، ولا أن أظهر له أي عزاء.. لقد كـان صـادقا في إخلاصــه للكتــاب المقــدس.. لكن المســكين لم يجــد في الكتــاب المقدس ما يحفظ له ذلك الإخلاص..

ما سرت قليلا حتى رأيت النـاس يحثـون الخطـا إلى الجهـة الـتي جئت منها.. التفت خلفي، فوجدت النيران تندلع من مكتبه.. أسـرعت

مع الجموع لأرى ما حصل..

رأيت جمعا كثيرا من الناس يحـاولون إطفـاء النـار بكـل السـبل.. ورأيت من جملتهم بعض الشـباب من المسـلمين بقتحمـون النـيران بشـجاعة وتضـحية، ثم يخرجـون بـه، وقـد أصـابته النـيران، ولكن الإصابات لم تكن بالغة، فقد كان يفتح عينيه، ويعلم ما يدور حوله.

اقـتربت منـه محـاولا أن أقـدم لـه أي شـيء.. فلم يكن أحـد من الناس يعلم ما حصل له غيري.

ما اقتربت منه حتى سـمعت صـوت قـارئ يجـود القـرآن بصـوت رخيم، وهو يقرأ قوله تعالى:{ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُـرْآنَ وَلَـوْ كَـانَ مِنْ عِنْـدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً}(النساء:82)

ما سمعها صاحبي الموثق حتى صاح: بلى.. يـا ربي.. لقـد تـدبرت القرآن.. فلم أجد فيه أي اختلاف.. آمنت بك يا رب.. وآمنت بكتابــك.. وآمنت بكلماتك المقدسة التي شرفتنا بها.. وأعتـذر إليـك يـا ربي من ذلك الكتاب الذي ملأني جنونا.. لقد حرفه الكذبـة الـذين حملـوا أقلام الكتبة.. فاغفر لي يا ربي.. فها أنا ذا عائد إليك.. مسلم لك.

كان الجمع الذي أنقذه يعلم أنه مسيحي، فلذلك لمـا سـمعوا منـه هـذا الكلام راحـوا يكـبرون، ولكن أحـدا من النـاس لم يكن يعلم سـر قوله هذا غيري..

سرت بحيرة جديدة.. وأنا أغبط هذا الرجل الـذي خلصـته النـيران من توأمه الذي يحول بينه وبين شمس محمد..

مددت يدي إلى محفظتي لأستخرج بعض ما أحتاجه منها، فامتدت يدي إلى الورقة التي سلمها لي صاحبك، فعدت أقرأ فيها..

لقــد أيقنت حينهــا أن هــذا الســور الرابــع من أســوار الكلمــات المقدسـة لم يتحقـق بـه أي كتـاب في الـدنيا غـير القـرآن الكـريم.

خامسا ـ العقلانية

في اليــوم الخــامس.. أرســل إلي أخي يطلبــني في أمــر مهم، فذهبت إليه، فقال: سيأتيك اليوم رجل من حكماء الإسكندرية.. لكأنـه وريث فلاسفتها.. هو مسيحي مثلنا تماما، ولكنـه صـاحب عقـل حجب بــه عن المســيح، وعن الكتــاب المقــدس.. فلــذلك تــرى لــه من الهرطقات ما لا نرتضيه.

قلت: أتريد مني أن أجادله، أو أناقشه لأقنعه؟

قــال: لا هــذا ولا ذاك.. دعــه يتحــدث كمــا يشــاء.. لا تجادلــه، ولا تناقشه، بل إن استطعت أن توفر له ما يدعوه ليفرغ كل ما في عقله من هرطقات فافعل.

قلت: لم خصصت هذا الرجل دون غيره بهذه المعاملة؟

قال: هذا الرجل فيه صفتان.. إن نفرتنـا الأولى عنـه، فـإن الثانيـة تقربنا منه.

قلت: عرفت الأولى.. فما الثانية؟

قال: هو صاحب مال كثير.. وهو وإن تناولنـا بلسـانه، فإنـه يناولنـا بيده ما يغطي جرائم لسانه.. إن كثيرا من طبعـات الكتـاب المقـدس تتم تحت نفقته.. وهو يوزعها بعد ذلك بالمجان.. بل ييسر لنا توزيعها.. إذ يخص بها طبقـات مهمـة في المجتمـع قلمـا نصـل نحن إليهـا، هي طبقات المتعلمين والجامعيين.

قلت: فليكن ما تريد.. متى يحضر هذا الرجل السخي العاقل؟

قال: بل قل: السخي الهرطقي.. سيحضر اليوم.. وستستقبله في مكتبك.

قلت: ولم لا تستقبله أنت؟

قال: أنت تعـرف قلـة صـبري أمـام كـل مـا يمس المسـيح ودين المسيح.

قلت: أجل.. فاترك ذلك لي.

لست أدري كيف شـعرت بلـذة عظيمـة، وأنـا أسـتعد لأسـمع من كلام العقل والحكمة ما ينير لي الطريق الذي كان مظلما في عيني.. لم أكن حينها لا في دين المسيح، ولا في دين محمد.. ولكنني مع ذلـك كنت أشعر أن خيوطا كثيرة بدأت تتجمع لتجذبني إلى دين محمد.

ذهبت إلى مكتبي، ففوجئت بوقوف الرجـل أمـام بابـه ينتظـرني، كان ـ بحسـب شـكله ـ رجلا منشـغلا عن نفسـه، لا تظهـر عليـه آثـار النعمة التي حدثني عنها أخي.. وكأنه اكتفى بما لديه من حكمة وعقل عن المال الذي يملكه.

رحبت به، وادخلتـه مكتـبي، وقلت مجـاملا لـه: هـا قـد جـاء حكيم الإسكندرية أخيرا لزيارتنا.. وليملأنا شرفا وحكمة.

اكتفى بالابتسامة، وقال: الحكمة لا تختص بالإسـكندرية.. والعقـل لا يختص بأحد من النـاس.. العقـل نهـر جـار ممـدود بمنـابع لا تجـف، ليصل لكل الناس.

قلت: ولكن أكـثر النـاس يغلقـون حنفيـات عقـولهم ليمتنعـوا من الارتواء بهذا النهر الجاري.

قال: أجل.. وهم لذلك يموتون عطشا.. تموت عقـولهم الـتي هي سر حياتهم.. وسر وجودهم.. وهم يتعذبون قبل موتهم.. لأنه لا لذة بلا عقل.

قلت: هل جئت تحدثني عن العقل.. أم عن الكتاب المقدس؟

قال: عن كليهما.. عن إخضاع العقل للكتاب المقدس؟ أو إخضـاع الكتاب المقدس للعقل؟

قلت: الكمال في إخضاع العقل للكتاب المقدس.

قال: أجل.. العقل لا بد أن يخضع لشيء في النهاية.. لأنه مثل مسافر يبحث عن مستقر يستقر فيه.. ويلقي عصا الترحال.

قلت: وذلك المستقر هو الكتاب المقدس.. وحقائق الكتاب المقدس.. وشرائع الكتاب المقدس.

قال: نعم.. لابد من وجود مقدس يخضع له العقل.. ولكن لا بد أن يرضى العقل عن هذا المقدس أولا.. وإلا عاش في عناء.

قلت: كيف ذلك؟

قال: عندما يؤوب المسافر إلى مستقره، فإنه يختار دارا صالحة ليعيش فيها طول عمره.. أليس كذلك؟.. أم تراه يكتفي بأي دار.. يعيش فيها، وهو لا يرضى عنها.

قلت: قد يضطر إلى أن يعيش في دار لا يرضى عنها.

قال: وسيتألم بذلك طول عمره.

قلت: وقد يتعود.

قال: أنت تتحدث عن مضطر.. فلماذا لا تنزع الاضطرار، وتلبس ثياب الغنى التي ألبستها.. العقل غني لأنه ممدود بنهر لا يجف.. فلماذا لا يرتضي من السكنى إلا ما يصلح له، ويسعد به؟

قلت: ذلك صحيح.. فمن فتح الله عليه بفتوح المال لن يعيش إلا سعيدا بمستقر صالح.

قال: ومن فتح عليه فتوح العقل كذلك.

قلت: وهل ترى هؤلاء الخلق الكثيرون ضيعوا مفاتيح عقولهم؟

قال: أكثرهم كذلك.. فلا تحزن عليهم..ولنبحث عن مفاتيح عقولنا.. فقد جئت إليك لأجل هذا.

قلت: لم أفهم ما الذي تقصد.

أخــرج من محفظتـه نسـخة من الكتـاب المقـدس، وقـال: جئت لنخضع هذا الكتاب لمـوازين العقـل.. لأنـه لا يصـح أن نسـكن عقولنـا بيوتا لا ترضاها.

قلت: أتريد أن تنتقد الكتاب المقدس الذي هو وحي وإلهام.

قـال: نحن لا ننتقـد الـوحي والإلهـام.. ولكنـا نريـد أن نبحث عن الحقيقة.. قد يكون كثير مما في هذا الكتـاب وحيـا أو إلهامـا صـادقا.. ولكن الكثير منه أيضا قد يكـون هرطقـات لبسـت لبـاس الـوحي.. أو خرافات تزينت بزينة الإلهام.

قلت: فأنت تريد أن تنقي الكتاب المقدس مما يخالف العقل.

قال: وأتقرب إلى الله بذلك.. ألسنا لا نزرع الزرع إلا بعد أن ننقي التربة؟

قلت: أجل..

قال: فكذلك لا يصح أن نعبـد اللـه وفي عقولنـا من بـذور أشـواك الكتاب المقدس ما قد يجرحنا في أي لحظة.

قلت: فكيف ننقي الكتاب المقدس؟.. وهل لديك مشروع لذلك؟

قال: أجل.. وقد جئت لأجله.. وأنا لا أمل من طرحه.

قلت: فما يتضمن هذا المشروع؟

قال: شـيئان.. الإيمـان والسـلوك.. وإن شـئت سـميتهما العقيـدة والشريعة.

قلت: أتـرى في عقائـد الكتـاب المقـدس وشـرائعه مـا يخـالف العقل؟

قال: فيه ما يخـالف العقـل، كمـا أن فيـه مـا يوافقـه.. وسـأطرح

عليك كلا الأمرين لتميز بين الطيب والخبيث، والحكمة والخرافة.

العقيدة:

قلت: فلنبدأ بالعقيدة.

قال: لقد رأيت في الكتاب المقـدس نصوصـا كثـيرة تنسـجم مـع العقل انسجاما تاما، بل تنسجم مع الكون جميعا.. وقد اعتبرتهـا أصـلا في الكتـاب المقـدس، واعتـبرت كـل مـا خالفهـا هرطقـات زجهـا الدجالون ليأكلوا بها الخبز.

قلت: فمـا هي هـذه النصـوص المحكمـة الـتي هي أم الكتـاب المقدس وأصله؟

قـال: هي نصـوص كثـيرة تـاه عنهـا المحرفـون، أو كتبوهـا وهم غافلون.. هي ــ باختصـار ــ كـل النصـوص الـتي توحـد اللـه وتعظمـه وتفرده بالعبادة:

منها ما في (سفر التثنية: 6: 4):(الرب إلهنا رب واحد)، وفيه (4: 35): (أن الرب هو الإله. ليس آخر سواه)

ومنهـا مـا في (سـفر إشـعياء: 44:ـ 24):(أنـا الـرب صـانع كـل شـيء).. وفيـه (45:ـ 5):(أنـا الـرب وليس آخـر. لا إلـه سـواي).. وفيه(46: 9):(لأني أنا الله وليس آخر.الإله وليس مثلي)

ومنها ما في (سفر هوشع: 13: 4):(وإلهاً سواي لست تعرف)

ومنها ما في (سفر حبقـوق: 1:ـ 12):(ألسـت أنت منـذ الأزل يـا ربُّ إلهي قدوسي لا تموت)

ومنها ما في (إنجيل متى: 4:ـ 10) من أقـوال المسـيح:(للـرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد)، وفيـه:((6:ـ 24):(لا يقـدر أحـد أن يخدم سيدين)، وفيـه (22:ـ 37 -ـ 38)من أقـوال المسـيح:(تحب الـرب إلهـك من كـل قلبـك .....هـذه هي الوصـية الأولى والعظمى)،

وفيـه (23:ـ 9) من أقـوال المسـيح:(لأن أبـاكم واحـد الـذي في السماء) وفيه (19: 17)، وفي (إنجيل مرقس: 10: 18) من أقوال المسيح:(ليس أحد صالحاً إلا واحد وهو الله)

ومنها ما في (إنجيل مرقس: 12:ـ 29) من أقوال المسـيح:(إن أول كل الوصايا... الرب إلهنا رب واحد)، وفيه (13: 32) من أقوال المسـيح:(وتلـك السـاعة فلا يعلم بهمـا أحـد ولا الملائكـة الـذين في السماء ولا الابن إلا الآب)

ومنها ما في (إنجيل يوحنـا: 1:ـ 18):(اللـه لم يـره أحـد قـط) وفيـه (17:ـ 3) من أقـوال المسـيح:(أنت الإلـه الحقيقي وحـدك) وغيرها من النصوص المحكمة التي تنسجم مع العقل السليم.

قلت: فما الذي تراه في الكتاب المقدس يخالف العقل من أمـور العقيدة؟

قال: نصوص كثيرة تصور الله في صـورة حقـيرة لا تليـق بجلالـه، ولا تليق بهذا الكون الذي خلقه.

قلت: ومن الذي أخبرك بأن تلـك صـورة مشـوهة؟.. ألا يمكن أن تكون هي الصورة الحقيقية؟

قال: يستحيل ذلك.. فأحكام العقل والمنطق تحيل على مبدع هذا الكون أن يكون بتلك الصفة المشوهة التي رسـمه بهـا أولئـك الكتبـة الأغبياء المشعوذون.

لقد ذكر القرآن.. وهو كتاب المسلمين المقدس.. بعض التحريـف الـذي كـان يمارسـه الكتبـة على صـفات اللـه، فقـد نص على أنهم ينسبون لله أوصافا لا تليق بكرمه ولطفـه وجلالـه.. اسـمع لمـا يقـول القرآن:{ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَـالُوا بَـلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ} (المائدة: 64)

قلت: فكيف صدقت القرآن.. وكذبت اليهود؟

قـال: بالعقـل.. العقـل دلـني على صـدق القـرآن.. وعلى كـذب اليهود.

قلت: فهل رأى عقلك يد ربك المبسوطة؟

قال: أجل.. إن الكرم العظيم الذي وفـر على مائـدة الأرض لينعم به الكـل من الإنسـان والحيـوان والنبـات والجمـاد، مـا نعلمـه ومـا لا نعلمه.. يحيل البخل على صاحب هذا الكون ومبدعه.

قلت: ألا يمكن أن يكون ما نسبه محمد لليهـود نوعـا من الدعايـة ضدهم؟.. لقد كان بينه وبينهم عداوة.

قال: ولكن عداوته لهم، أو عـداوتهم لـه.. لم تخرجـه عن الحـق.. لقد قرأت كتاب محمد بكل موضوعية وحيـاد، وعرضـته على مـوازين العقل.. فرأيته ينسجم انسجاما تاما معها.. بل إني استفدت منه فوق ذلك موازين عقلية كبرى.. كانت عندي أدق من الموازين التي ذكرهـا أرسطو وغيره من الفلاسفة.

إن القرآن ـ يا صاحبي ـ كتاب العقل.. ولا يفهمه إلا صاحب عقل.

ليس هناك كتاب في الدنيا مجد العقل، ودعا لاستعماله كالقرآن.. أقول ذلك مـع أني مسـيحي.. ولكن مسـيحيتي لن تحـول بيـني وبين الإقرار بالحق لأهله.

اسمع ما يقول القرآن، وهو ينعى المقلدين الذين اكتفوا بما ورثوه عن آبائهم، ولم يعملـوا عقـولهم:{ وَإِذَا قِيـلَ لَهُمُ اتَّبِعُـوا مَـا أَنْـزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَـا أَوَلَـوْ كَـانَ آبَـاؤُهُمْ لا يَعْقِلُـونَ شَـيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ}(البقرة:170)

بـل إنـه يعتـبر عـدم سـلوك سـبيل العقـل نوعـا من العبوديـة للشياطين، فهو يقول:{ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَـلْ نَتَّبِـعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّـيْطَانُ يَـدْعُوهُمْ إِلَى عَـذَابِ السَّـعِيرِ} (لقمان:21)

ولهـذا أخـبر القـرآن أن الحجـاب الأكـبر بين هـؤلاء الـذين حجبـوا بأسلافهم عن عقولهم واتباع الحق هو عدم اسـتعمال عقـولهم.. لقـد ورد فيه:{ فَلا تَـكُ فِي مِرْيَـةٍ مِمَّا يَعْبُـدُ هَـؤُلاءِ مَـا يَعْبُـدُونَ إِلَّا كَمَـا يَعْبُـدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ}(هود:109)

ولهــذا يــذم القــرآن كثــيرا من لا يعقلــون.. ويقصــد بهم من لا يستخدمون عقولهم، فهو يقول:{وَهُـوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَـهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلا تَعْقِلُونَ}(المؤمنون:80).. وقد ورد هـذا التـوبيخ (أفلا تعقلون) في القرآن أكثر من أربع عشرة مرة.

والقـرآن يخـبر عن الأسـف الكبـير الـذي يقـع فيـه هـؤلاء عنـدما يكتشفون الأخطاء الكبرى الـتي وقعـوا فيهـا بسـبب حجب عقـولهم، فيقول مخبرا عنهم:{ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِـلُ مَـا كُنَّا فِي أَصْـحَابِ السَّعِيرِ}(الملك:10)

وانطلاقا من هذا نجـد الأوامـر القرآنيـة الكثـيرة بـالتثبت وإعمـال العقل قبل الحكم على أي شيء، فهو يقول:{ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْـهُ مَسْـؤُولاً}(الاسـراء: 36)، ويقـول:{ يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا إِنْ جَـاءَكُمْ فَاسِـقٌ بِنَبَـأٍ فَتَبَيَّنُـوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ}(الحجرات:6)

وهـو يـبين أن الغايـة من إنـزال القـرآن هـو عرضـه على العقـل ليسـتفيد منـه، فهـو يقـول:{ إِنَّا جَعَلْنَـاهُ قُرْآنـاً عَرَبِيّـاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُـونَ}(الزخرف:3)، ويقول:{ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}(يوسـف: 2)

والقرآن بسبب هذا.. بسبب خضوعه أحكامه للعقـل المجـرد.. لم يسر شيئا، ولم يكتم شيئا من الحقائق.. بل نهى أن يكتم شـيء منـه، فهو يقول:{ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْـدِ مَـا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَـابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُـونَ}(البقـرة: 159)

ولهذا لا يوجـد في الإسـلام أسـرار.. وبنـاء على هـذا لا يوجـد في

المسلمين (رجل دين) كما نعرفه عنـدنا.. بـل حقـائق الإسـلام جميعـا يتضمنها القرآن الذي يقرؤه الكل.. الصغار والكبـار والنسـاء والرجـال والعامة والخاصة سواء بسواء.

قلت: أراك وقعت في استطراد طويل عما كنا فيه.

قال: لا.. لم أقع في استطراد.. بل كـان هـذا من صـلب مـا جئت من أجله.

قلت: حسبتك جئتك لأجل الكتاب المقدس.

قال: نعم.. جئت لأجله.. ولكن الكتاب المقدس الـذي يعـرض في بلادكم ليس هو الكتاب المقدس الذي ينبغي أن يعرض في بلادنا.

قلت: ما تقول؟

قال: نحن في مجتمع يمجد العقل.. ويخضع جميع أحكامه للعقـل، فكيف تريد منا أن نعرض عليهم الكتـاب المقـدس بمـا يمتلئ بـه من خرافات وأساطير.. أتريد أن يرموه في وجوهنا.

قلت: ولكن مجتمعنا كذلك يمجـد العقـل.. وهـل هنـاك فـرق بين المجتمعات في هذا حتى يكون لكل مجتمع كتابه المقدس؟

قال: نعم هناك فرق بين المجتمعات.. بل هناك فـروق كـبرى في المجتمعات في هذا.

سكت قليلا، ثم قال: أنا لم أقل هـذا لأسـيء إلى مجتمعـاتكم، ولا لأثني على مجتمعاتنا، فمجتمعاتكم تستعمل العقل.. بل قـد تسـتعمله أكـثر من مجتمعاتنـا.. ولكنهـا تسـتعمله في الرياضـيات والفيزيـاء والتكنولوجيا.. لذلك تفرغ طاقاتهـا العقليـة في هـذه المجـالات.. فـإذا جـاءت لشـؤون الـدين اسـتراح عقلهـا.. واكتفى بـأن يسـمع ويقلـد ويخضع.. هي تتصـور ذلـك كمـالا.. لأنهـا تتصـور قضـايا الـدين قضـايا ثانوية.

بينما في مجتمعاتنا التي يهيمن عليهـا الفكـر القـرآني تعتـبر هـذه القضايا قضايا أساسية، فلذلك تجادل وتناقش وتبحث.

إن القرآن دعا إلى النظر والاعتبار.. فـامتلأت بـه عقـول النـاس.. فصاروا يخضعون كل شيء لعقولهم.. بما فيها الدين نفسه:

فالقرآن يقول لهم:{ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِـيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ}(آل عمران:137)

لقد ورد الأمر بالنظر والبحث في مواضع كثيرة من القرآن.. فهـو يقول:{ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ}(الحشر: 2)، ويقول:{ قُـلِ انْظُـرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ }(يونس: 101)، ويقول:{ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ}(البقرة: 219)

لقد ذكر القرآن التفكر في أكثر من سبعة عشر موضـعاً.. فكيـف تسوي بين مجتمع هذا فكره.. وبين مجتمعكم الذي حجر العقـل على المـادة ومـا يرتبـط بالمـادة.. وتـرك الـدين لرجـال الـدين ليحتكـروه لأنفسهم؟

قلت: أتريـــد منـــا إذن أن نغـــير الكتـــاب المقـــدس الخـــاص بمجتمعاتكم؟

قــال: إذا أردتم أن تبقى المســيحية في مجتمعاتنــا.. فعــدلوا في الكتاب المقدس كما عدله أسلافنا وأسلافكم.

قلت: اذكر لي أمثلة عن هذه التعديلات التي تريد إجراءها.

قال: في العقيدة.. لا زلنا في العقيدة.

قلت: أجل..

قال: سأقرأ عليك نصوصا من الكتاب المقـدس لـترى هـل يمكن أن تظل هذه النصوص نصوصا مقدسة نعتبرها وحيـا للـه ونتعبـد اللـه بتلاوتها ونشرها.

قلت: اقرأ..

فتح الكتـاب المقـدس، وراح يقـرأ:(لأجـل ذلـك يـا أهوليبـة، قـال السّـيّد الـرّب: هـا أنـذا أهيج عليـك عشـاقك: يـنزعون عنـك ثيابـك.. ويتركونـك عريانـة وعاريـة، فتنكشـف عـورة زنـاك ورذيلتـك وزنـاك. تمتلئين سكرًا وحزنًـا كـأس التّحيّـر والخـراب.. فتشـربينها وتمتصّـينها وتقضـمين شـقفها. وتجتثّين ثـدييك لأنّي تكلّمتُ. فهـو ذا جـاءوا. هم الذين لأجلهم اسـتحممتِ. وكحّلتِ عينيـك وتحلّيت بـالحليّ. وجلسـتِ على سرير فاخر.. فقلت عن البالية في الزّنا الآن يزنـون زنًـا معهـا) (حزقيا23: 22)

أغلق الكتاب المقدس، وقال: هكذا يتكلم السيد الرب في الكتاب المقدس.. قارن هذا الكلام بما في القرآن.. قارنه بما يتحدث به اللــه لعباده عندما يقول:{ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْـرَفُوا عَلَى أَنْفُسِـهِمْ لا تَقْنَطُـوا مِنْ رَحْمَـةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِـرُ الـذُّنُوبَ جَمِيعـاً إِنَّهُ هُـوَ الْغَفُـورُ الـرَّحِيمُ} (الزمر: 53)

وقارنه بقوله:{ وَإِذَا سَـأَلَكَ عِبَـادِي عَنِّي فَـإِنِّي قَـرِيبٌ أُجِيبُ دَعْـوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْـتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُـوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُـدُونَ}(البقـرة: 186)

وقارنه بقوله:{قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُـوا الصَّـلاةَ وَيُنْفِقُـوا مِمَّا رَزَقْنَـاهُمْ سِـرّاً وَعَلانِيَـةً مِنْ قَبْـلِ أَنْ يَـأْتِيَ يَـوْمٌ لا بَيْـعٌ فِيـهِ وَلا خِلالٌ} (ابراهيم:31)

وقارنــه بقولــه:{ يَـا عِبَـادِيَ الَّذِينَ آمَنُـوا إِنَّ أَرْضِـي وَاسِـعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ} (العنكبوت:56)

قارن هذه النصوص القرآنية بمـا ورد مثلهـا من الكتـاب المقـدس من خطاب الرب لعباده.. اسمع..

فتح الكتاب المقدس وراح يقرأ من مواضع متفرقة:

اسمع من (عامو 7:ـ 16):(وقال الرّبّ لمصيا: أنت تقـول لا تتنبّـأ على إسرائيل. لـذلك قـال الـرّبّ: امرأتـك تـزني في المدينـة وبنـوك وبناتك يسقطون بالسّيف)

اسمع من (ارميا 8:ـ 10):(قد رفضوا كلمة الرّبّ.. لـذلك أعطي نساءهم لآخرين وحقولهم لمالكين. لأنّهم من الصّغير إلى الكبـير. كـلّ واحد منهم مولع بالرّبح من النَّبيِّ إلى الكاهن)

اسمع من (إشعيا 3: 16):(قال الرّبّ: من أجل أن بنات صهيون يتشامخن ويمشين ممدوات الأعناق وغامزات بعيونهن وخاطرات في مشيهن ويخشخشن بأرجلهن يصلِع السّيّد هامة بنات صـهيون ويعـرّي الرّبّ عورتهن)

اسـمع من (إرميـا 13:ـ 22):(لأجـل عظمَـة إثمِـكِ: هُتِـكَ ذَيلاكِ وانكشف عقباك.. فسقك وصهيلك ورذالة زناك: فأنّا أرفع ذيليك على وجهك فيُرى خزيك)

اسمع من (ناحوم 3:ـ 4):(من أجل زنـا الزّانيـة الحسـنة الجمـال صاحبة السّحر البائعة أممًا بزناها وقبائل بسحرها. ها أنذا عليك يقـول ربّ الجنود: فأكشف أذيالك إلى فوق وجهك، وأُري الأممَ عورتك)

اسمع من (تثنية 28:ـ 15):(خاطب الـرّبّ بـني إسـرائيل مهـدّدًا إيّاهم: أن لم تسمع لصوت الـرّب إلهـك: تـأتي عليـك جميـع اللعنـات وتدركك.. تخطب امرأة، ورجل آخر يضطجع معها)

اسمع من (هوشع 2:ـ 2):(حاكموا أمّكم لأنّها ليست امرأتي وأنـا لست رجلها لكي تعزل زناهـا عن وجههـا وفسـقها من بين ثـدييها لئلا أجرّدها عارية ولا أرحم أولادها لأنّهم أولاد زنـا.. والآن أكشـف عورتهـا أمام عيون مُحبّيها)

أغلق الكتاب، وقال: أهذا هو الـرب الـذي يـدل على كـل شـيء.. أهذا هو الرب الرحيم الودود.. لماذا نفخر على المسلمين بـأن (اللـه محبة) بينما نحن ننجسه بهذه الهرطقات التي نملأ بها كتابنا المقدس.

سـكت قليلا، ثم قـال: ألا تـرى العقـل يـدل على العـدل الإلهي، والرحمة الإلهية؟

قلت: بلى..

قال: لكن الكتاب المقدس يخبرنا عن رب عنصــري.. رب مختص بإرضاء بني إسرائيل.. أما من عداهم فهم كلاب أبناء كلاب.

اسمع بما يوصينا الرب في الكتاب المقدس:

اسمع ما ورد في (تثنية 23: 19):(لا تقرض أخاك بربا.. للأجنبي تقرض بربا، ولكن لأخيك لا تقرض بربـا لكي يباركـك الـرّبّ إلهـك في كلّ ما تمتد إليه يدك في الأرض التي أنت داخل إليها لتمتلكها)

واسمع (تثنية 15: 1):(هذا هو حكم الإبراء: يبرى كلّ صاحب دَيْن يده ممّا أقرض صاحبه. لا يطالب صاحبه ولا أخاه. لأنّه قد نودي بإبراء للرّبّ. الأجنبي تُطالب)

واسمع ما جاء في سـفر أشـعيا (49/22-23) من أن الـرب أمـر كـل أجنـبي إذا لقي يهوديـا أن يسـجد لـه على الأرض، ويلحس غبـار نعليه.. اسمع:(هكذا قال السيد الرب هـا اني أرفـع إلى الامم يـدي و الى الشعوب اقيم رايتي فيـاتون بـاولادك في الاحضـان و بناتـك على الاكتـاف يحملن 23 ويكـون الملـوك حاضـنيك وسـيداتهم مرضـعاتك بالوجوه الى الارض يسـجدون لـك و يلحسـون غبـار رجليـك فتعلمين اني انا الرب الذي لا يخزي منتظروه)

بل حتى المسيح قولـه الكتـاب المقـدس عن اللـه وعن عنصـرية الله ما لا يرضاه البشر لأنفسـهم.. اسـمع مـا ورد في (متّى 15:ـ 26 ف) فَأَجَـابَ: (لَيْسَ مِنَ الصَّـوَابِ أَنْ يُؤْخَـذَ خُبْـزُ الْبَنِينَ وَيُطْـرَحَ لِجِـرَاءِ الْكِلاَبِ)

واسمع مـا ورد في (مـرقص 7/ـ 27):(وارْتَمَتْ عَلَى قَدَمَيْـهِ، 27 وَلكِنَّهُ قَالَ لَهَا: (دَعِي الْبَنِينَ أَوَّلاً يَشْبَعُونَ! فَلَيْسَ مِنَ الصَّوَابِ أَنْ يُؤْخَــذَ

خُبْزُ الْبَنِينَ وَيُطْرَحَ لِلْكِلاَبِ)

بينما قرآن المسلمين ينطق بما ينطق به العقل حينما يقـول:{ يَـا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَـاكُمْ شُـعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَـارَفُوا إِنَّ أَكْـرَمَكُمْ عِنْـدَ اللَّهِ أَتْقَـاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِـيرٌ}(الحجـرات:13).. وعندما يقول:{ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَـابِ مَنْ يَعْمَـلْ سُـوءاً يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً}(النساء:123)

بل إن القرآن يأمر بالعدل مع الأعداء.. اسمع هذه الآية التي نفتقد مثلها في كتابنا المقدس:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُـهَدَاءَ بِالْقِسْـطِ وَلا يَجْـرِمَنَّكُمْ شَـنَآنُ قَـوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْـدِلُوا اعْـدِلُوا هُـوَ أَقْـرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}(المائدة:8)

بل إن القرآن يتنزل في الدفاع عن يهودي.. لا يزال قومـه أعـدى أعداء محمد.. اسمع:{ وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَـهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً}(النساء:107)

لقد نزلت هذه الآية وما بعدها دفاعا عن يهودي.. فالناس سواسية أمـام اللـه.. العقـل يقـول هـذا.. والقـرآن يقـول هـذا.. ولكن كتابنـا المقدس المشحون بالعنصرية الإسـرائيلية يخـالف هـذا.. ليجعـل من هذا الكون العريض دائرة محورها ومركزها شعب إسرائيل المدلل.

فتح الكتاب المقدس، وقال: اسمع جمال تعبير الكتـاب المقـدس حينما يريد أن يعبر عن علم اللـه:(لأن جهالـة اللـه احكم من النـاس. وضعف الله اقوى من الناس)(كورنثوس 1:25)

بينما يعبر القرآن عن نفس المعنى، فيقول:{ وَعِنْدَهُ مَفَـاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَـا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَـاتِ الْأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَـابِسٍ إِلَّا فِي كِتَـابٍ مُبِينٍ}(الأنعام:59)

ويقول على لسـان لقمـان، وهـو يعـظ ابنـه:{ يَـا بُنَيَّ إِنَّهَـا إِنْ تَـكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّـمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ

يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ}(لقمان:16)

ويعبر عن طلاقة قدرته، فيقول:{ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً} (فاطر:44)

بينما يقول الكتاب المقدس عن هذا:(وكان الرب مع يهوذا فملك الجبل، ولكن لم يطرد سكان الوادي لأن لهم مركبات حديد) (القضاة: 1: 19)

فتح الكتاب المقدس، وراح يقرأ:(وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الارض وولد لهم بنات أن ابناء الله رأوا بنات الناس أنهنّ حسنات. فاتّخذوا لانفسهم نساء من كل ما اختاروا. فقال الرب لا يدين روحي في الانسان الى الابد. لزيغانه هو بشر وتكون ايامه مئة وعشرين سنة. كان في الارض طغاة في تلك الايام. وبعد ذلك ايضا اذ دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم اولادا. هؤلاء هم الجبابرة الذين منذ الدهر ذوو اسم ورأى الرب ان شر الانسان قد كثر في الارض. وان كل تصور افكار قلبه انما هو شرير كل يوم. فحزن الرب انه عمل الانسان في الارض. وتأسف في قلبه فقال الرب امحو عن وجه الارض الانسان الذي خلقته. الانسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء. لاني حزنت اني عملتهم وأما نوح فوجد نعمة في عيني الرب)(تكوين: 6/1-8)

التفت إلي، وقال: وبعد أن محا الرب الحياة من على وجه الأرض بالطوفان ـ ماعدا نوح الذي كان من نسل أبناء الله وبنات الله ولم يكن من نسل بنات الناس ـ ندم الرب مرة أخرى، (وقال الرب في قلبه: لا أعود ألعن الأرض أيضا من أجل الإنسان لأن تصور قلب الإنسان شرير منذ حداثته ولا أعود أيضا أميت كل حي كما فعلت) (سفر التكوين: 8 / 20 - 22)

وحتى لاينسى الله عهده مع نوح بألا يُغرق الأرض مرة أخرى

وضع قوسه في السـحاب ، فعنـدما يـرى المطـر هـاطلا يضـع قـوس قزح، فيذكر أنه قد عقد عقدا مع نوح ألا يُغرق الأرض فيكف المطـر.. اسمع هذا الخبر العلمي الذي يقولـه الكتـاب المقـدس:(وقـال اللـه: هـذه علامـة الميثـاق الـذي أنـا واضـعه بيـني وبينكم وبين كـل ذوات الأنفس الحيـة الـتي معكم الى أجيـال الـدهر. وضـعت قوسـي في السحاب فتكون علامـة ميثـاق بيـني وبين الأرض فيكـون مـتى أنشـر سحابا على الأرض وتظهر القـوس في السـحاب ، أني أذكـر ميثـاقي الذي بيني وبينكم فلا تكون أيضا المياه طوفانـا.. فمـتى كـان القـوس في السحاب أبصرهم لأذكر ميثاقا أبديا بين اللـه وبين كـل نفس حيـة في كل جسد على الأرض)(سفر التكوين:9/12-17)

لم يندم الله في هذه المرات فقط.. بل له أيام ندم أخرى:

اسمع ما ورد في سفر يونان (3:5-10) عندما نـادى أهـل نينـوى بصوم لعل الله يندم عن حمو غضبه، فلمـا رأى اللـه أعمـالهم:(نـدم الله على الشر الذي تكلم أن يصنعه بهم)

أو اقرأ ما ورد في سفر العدد:(وقال الرب لموسـى: حـتى مـتى يهينـني هـذا الشـعب!! حـتى مـتى أغفـر لهـذه الجماعـة الشـريرة المتذمرة عليّ).. ولكنه ما إن قدمت له قرابين اللحم المشوي حـتى عفا عنهم وأعطاهم كل طلبـاتهم، ونـدم على مـانوى أن يفعلـه بهم.. وفوق ذلك كتب ميثاقا جديدا ليعطيهم أرض كنعان.

أو اقرأ ما ورد في سفر صـموئيل الأول (: 15:ـ 11-10) بعـدما جعـل الـرب شـاول ملكـا على بـني إسـرائيل، وفعـل شـاول جميـع الموبقات، نـدم الـرب أنـه جعلـه ملكـا.. اسـمع مـا جـاء في الكتـاب المقدس من هذا الاعـتراف الإلهي:(وكـان كلام الـرب إلى صـموئيل قائلا: ندمت على أني قد جعلت شاول ملكا ، لأنه لأنه رجع من ورائي ولم يقم كلامي. فاغتاظ صموئيل وصرخ إلى الرب الليل كله)

والعجب كـل العجب أن يثبت كـل هـذا الكلام المـدنس بتشـويه الرب بمثل هذا الكلام المقدس الذي في سفر العدد (: 23ـ 19):

(ليس الله إنسانا فيكذب ولا ابن إنسان فيندم، هل يقول ولا يفعل أو يتكلم ولا يفي)

إن هذا الكلام هو الذي يتوافق مع ما ورد في القرآن من وصف الله، فالله في القرآن فعال لما يشاء، لا يؤثر فيه شيء، ولا يتأثر لشيء.. وهو ما يتناسب مع صفات الله التي يدل عليها العقل.. فخالق هذا الكون له من العظمة والعلم والقدرة والإرادة ما لا يقهره أي قاهر.. والندم حالة من حالات الضعف لا يتصف بها الأقوياء من البشر، فكيف يتصف بها الله.

إن الندم يدل على جهل النادم بعواقب عمله.. والأكياس من البشر بنظراتهم الثاقبة للمستقبل يتحرزون منه بتلك النظرات.. فكيف بالله العليم الخبير..

اسمع ما يقول القرآن في وصف قرارات الله:{ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}(الأنعام:115) وفيه:{ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}(يونس: 64)، وفيه:{ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ}(يونس:82)، وفيه:{ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً}(الكهف:27)

وسر ذلك هو أن الله خبير عليم بالأشياء وبتفاصيل الأشياء لا يعزب عنه شيء في الأرض ولا في السماء.

العقل يدل على ذلك.. والقرآن يدل على ذلك.. فالله الذي خلق الإنسان، ويعلم خصائصه الظاهرة والباطنة،كيف لا يعلم مستقبل الإنسان.. ورد في القرآن في وصف الله:{ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}(الملك:14)

وذلك، كما أن صانع الآلة ومخترعها هو خبير بإمكانيتها، وبما يحصل لها من عطب، وبما يؤول إليه أمرها، فيتعامل معها، وكأنها جزء منه، بخلاف من يتعامل معها تعامل المستهلك الذي لا يرى منها إلا جانبها المنفعي المحدود.

سكت قليلا، ثم قال: ليس هذا فقط ما ورد في الكتاب المقــدس من تشـويه للـه.. الكتـاب المقـدس مليء بتشـبيهات غريبـة لا تليـق باللــه.. هـل ترضـى أن يشـبهك بعضـهم بصـخرة؟.. لا شـك أنـك لا ترضى.. ولكن الله ربنا يشبهه الكتاب المقدس بالصخرة.. اسـمع مـا ورد في (1صموئيل1:2):(قالت حنة: ارتفع قرني بالرب. اتسع فمي على أعـدائي. وليس صخرة مثـل إلهنـا. قسـي الجبـابرة انحطمت.. والضعفاء تمنطقوا بالبأس)

ولكن هذه الصخرة تضعف أمام يعقوب.. اسمع ما ورد في سـفر التكوين(: 32-23):(فبقى يعقوب وحده، وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر. ولما رأى أنه لا يقدر عليـه - أي لايقـدر على يعقـوب - ضـرب حُق فخذه - أي فخذ يعقوب - فانخلع حُق فخذ يعقوب في مصـارعته معه. وقال الـرب: أطلقـني، لأنـه قـد طلـع الفجـر، فقـال يعقـوب: لا أطلقك إن لم تباركني، فقال له - الرب -: ما اسمك؟ فقال: يعقــوب. فقال - الرب -: لايدعى اسمك فيما بعـد يعقـوب، بـل إسـرائيل لأنـك جاهدت - أي صـارعت - مـع اللـه والنـاس فقـدرت.. وقـال يعقـوب: أخبرني باسمك؟ فقال الرب: لماذا تسأل عن اسمي؟ وباركـه هنـاك. فدعا يعقوب اسم المكان فينئيل قائلا: لأني نظـرب اللـه وجهـا لوجـه ونجيت نفسي)

أهكذا يكون الأدب في التعبير عن الله؟

نعم نحن نتملص من الألفــــاظ ومن ظــــواهر الألفــــاظ..ولكن التشويهات التي يمتلئ بها الكتاب المقدس تغلبنا بل تصرعنا..

إن أوصاف الكتاب المقدس لا تعدو وصف بشـر.. هـو إلـه بشـر.. وليس إلها حقيقيا.. بل هو بشر إسرائيلي.. فنفسية الإنسان إسرائيلي تتجلى فيه أكثر مما تتجلى أي نفسية أخرى.

هل تتصور أن الذي خلق كـل هـذا الكـون الواسـع يصـيبه التعب.. الكتاب المقدس ينص على هـذا.. اسـمع مـا ورد في سـفر التكـوين: (وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل فاستراح في اليوم

السابع من جميع عمله الذي عمل. وبارك الله اليـوم السـابع وقدسـه لأنه فيه إستراح من جميع عمله الذي عمل الله خالقا)

هذا يناقض العقل.. ولذلك جاء القرآن ـ الذي نـزعم أنـه أخـذ من الكتاب المقدس ـ ليرد عليه.. اسمع مـا يقـول القـرآن:{ وَلَقَـدْ خَلَقْنَـا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَـا مَسَّـنَا مِنْ لُغُـوبٍ}(قّ: 38)

واسمع هذا الرد البليغ الذي ورد في آية أخرى:{ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَــقَ السَّــمَوَاتِ وَالأرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَــادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }(الأحقاف: 33)

هذه هي صفات الإله الحقيقي التي يدل عليها العقل، وتنسجم مع الوجدان.

سكت قليلا، ثم قال: هذه هي صفات الله.. أمـا أوامـره فيعتريـك منها العجب.. بل الجنون.

اسـمع مـا قـال الـرب لبـني إسـرائيل حين أرادوا الخـروج:(حين تمضون من أرض فرعون: لا تمضوا فارغين. بل تطلب كل امرأة من جارتهـا أمتعـة: فضـة وذهب وثيابـاً. وتضـعونها على بـنيكم وبنـاتكم فتسلبون المصريين) (خروج3: 21).

وتمكن بنو إسرائيل بهذا أن يسرقوا أموال المصريين. وفعـل بنـو إسرائيل بحسب قـول موسـى:(اطلبـوا من المصـريين أمتعـة فضـة وأمتعة ذهبا وثيابا. وأعطى الرب نعمة للشـعب في عيـون المصـريين حتى أعاروهم فسلبوا المصريين) (سفر الخروج 3: 12)

اسمع ما يقول القرآن في مقابل هـذا الأمـر:{ إِنَّ اللَّهَ يَـأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَـا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُـوا بِالْعَـدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً}(النساء:58)

نعم.. هذا ما ينص عليه قرآن المسلمين.. إنهـا مواعـظ.. بـل نعم

المواعظ.. وهذا ما يدل عليه العقل.. فالخالق المنعم الـذي دبـر هـذا الكون يستحيل أن يأمر بمثل تلك الأوامر.

ليست هذه فقط أوامـر الـرب في الكتـاب المقـدس.. لـه أوامـر أخرى غاية في الغرابة:

اسمع ما ورد في سفر هوشع (1: 1):(أول ماكلم الرب هوشع قال الرب لهوشع: اذهب خذ لنفسك امرأة زنى وأولاد زنى)

واسمع ما ورد في (حزقيال 4:ـ 12) قال الرّبّ لحزقيـال: وتأكـل كعكًا من الشّعير على الخراء الذي يخـرج من الإنسـان: تخـبزه أمـام عيونهم.. هكذا يأكل بنـو إسـرائيل خـبزهم النّجس.. قلت: آه يـا سـيّد الـرّبّ: هـا نفسـي لم تتنجّس ومن صـباي إلى الآن لم آكـل ميتـة ولا فريسة ولا دخل فمي لحم نجس. فقال لي: انظر قد جعلت لك خـثي البقر بدل خراء الإنسان. فتصنع خبزك عليه)

أغلق الكتاب المقدس، وقـال: هـذه هي صـفة الـرب في الكتـاب المقدس.. فهل تتصور هذا الكون الواسع العظيم البديع من صنع مثل هذا الإله.

أصدقك القـول: ليس هنـاك كتـاب في الـدنيا وصـف اللـه فـأقره العقل على وصفه مثل قرآن المسلمين.

الشريعة:

قال: هذه هي عقيدة كتابنا المقدس.. وسأحدثك عن الشق الثاني الذي جئت من أجله.. إنه الشريعة.. أنا لا يهمني مـا ذكـر من أحـداث تاريخية مما لا يتوافق مع العقل، ذلك أن الدين لا يرتبط بالتاريخ.. بـل يرتبط بالله.. وبالعقيدة نعرف الله.. وبالشريعة نعبـده، ونتعـرف على مراضيه.. بل بالشريعة نزداد حبا له، أو بغضا له.

قلت: أفي شريعة الكتاب المقدس ما يسيء إلى الله؟

قـال: أرأيت لـو نسـبت إلى كنيسـتكم المـوقرة قـرارات مثـل

القرارات التي امتلأ بها الكتاب المقدس.. أكنت ترضى بذلك؟

قلت: اضرب لي مثالا على هذه القرارات.

قال: سأضرب لك مثالا بما ورد في الكتـاب المقـدس من أحكـام ترتبط بمن أصيب بداء البرص.. وهو داء نادر على العمـوم، بالإضـافة إلى أن عصرنا قد عرف الكثير من أسراره وعلاجه، ولكنه في الكتاب المقدس يحتل مساحة مهمة.

اسمع مـا سـأقرؤه عليـك، وقارنـه بـأي شـريعة تشـاء وردت في كتاب محمد..

فتح الكتـاب، وراح يقـرأ:(وعلى المصـاب بـداء الـبرص أن يشـق ثيابه ويكشف رأسه ويغطي شاربيه، وينادي: (نجس! نجس!). ويظـل طول فـترة مرضـه نجسـا يقيم وحـده خـارج المخيم معـزولا) (سـفر اللاويين: 13: 45)

والكتـاب المقـدس لا يكتفي بهـذا، بـل يـدعي أن أثـواب الصـوف والحيطان تصاب هي الأخرى بالبرص، ولهذا إذ اشتبه أهل المنزل في مرض منزلهم بالبرص يأتون الكاهن.. سـأقرأ عليـك مـا قـال الكتـاب المقدس في هذا:(يأتي صاحب البيت ويخـبر الكـاهن أن داء الـبرص قد يكون متفشيا بالبيت، فيأمر الكـاهن بـإخلاء الـبيت قبـل أن يـدخل إليه لئلا يتنجس كل ما في البيت، ثم يـدخل الكـاهن الـبيت ليفحصـه. فإذا عاين الإصابة ووجد أن في حيطان البيت نقـرا لونهـا ضـارب إلى الخضـرة أو إلى الحمـرة، وبـدا منظرهـا غـائرا في الحيطـان، يغـادر الكاهن الـبيت ويغلـق بابـه سـبعة أيـام. فـإذا رجـع في اليـوم السـابع وفحصه، ووجد أن الإصابة قد امتدت في حيطان البيت، يأمر الكــاهن بقلـع الحجـارة المصـابة وطرحهـا خـارج المدينـة في مكـان نجس، وتكشط حيطان البيت الداخلية، ويطرحون الـتراب المكشـوط خـارج المدينة في مكان نجس) (اللاويين: 14: 35)

تصور لو أن الكنيسة أصدرت مثـل هـذا القـرار.. وأن هـذا الحكم طولب بتطبيقه في مدننا التي تصاب بالبرص.. ما الذي سيحصل؟

سكت، فقال: لم تنته أحكام البرص بعد.. فهناك برص الثياب، وهو الآخر يحتاج إلى الكثير من التفاصيل.. اسمع:(وإذا بدا داء البرص المعدي، في ثوب صوف أو كتان أو في قطعة قماش منسوجة أو محيكة من صوف أو كتان، أو في جلد، أو في كل مصنوع من جلد، وكانت إصابة الثوب أو الجلد أو قطعة القماش المنسوجة أو المحيكة، أو في شيء مصنوع من جلد، ضاربة إلى الحمرة أو الخضرة، فإنها إصابة برص تعرض على الكاهن. فيفحص الإصابة ويحجز الشيء المصاب سبعة أيام، ثم يفحصها في اليوم السابع. فإن وجدها قد امتدت في الثوب أو قطعة القماش، أو في الجلد أو في كل ما يصنع من جلد، ويستخدم في عمل ما، فإن الإصابة تكون برصا معديا وتكون نجسة. فيحرق الكاهن بالنار الثوب أو قطعة قماش الصوف أو الكتان أو متاع الجلد المصاب، لأنه داء معد. لكن إن وجد الكاهن أن الإصابة لم تمتد في الثوب أو في قطعة القماش المنسوجة أو المحيكة أو في متاع الجلد، يأمر بغسل الشيء ويحجزه سبعة أيام أخرى) (اللاويين: 13: 47 -53)

أهذا كلام يقرؤه مئات الملايين من المسيحيين في العالم، ويترجمونه إلى لغاتهم المختلفة!؟

ألا تعلم أن هذا الكلام يقرؤه الأطباء والصيادلة والعلماء على اعتباره كلاما لله.. فأي فائدة سيجنونها من المعرفة بالله، وهم يرونه يحدثهم عن أمور يضحك منها أبسط شخص منهم!؟

ألا ترى أن في هذا الكلام استغلالا خطيرا لا يختلف عن استغلال الكهان والعرافين والسحرة.. إن هذا الأبرص المسكين مكلف بكل التكاليف الثقيلة.. بالعصافير الحية.. وبالكبشين الصحيحين.. وبالنعجة الحولية.. وبالزيت.. وبالعجين.

أي تعاليم هذه تحتاج كل هذه التفاصيل!؟

سكت قليلا، ثم قال: هناك أحكام أخرى ترتبط بالطهارة لم أجد في العقل ما يبررها.

لقد جمعت تعـاليم الطهـارة في القـرآن في آيـة واحـدة لخصـت جميع أحكامها، وربطتها بحب الله للتوبة والطهارة لتربط في انسجام جميل بين الطهارة الحسية والطهارة المعنوية.

اسمع ما يقول القرآن:{ يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّـلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَـحُوا بِرُؤُوسِـكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَـاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَـى أَوْ عَلَى سَـفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَـدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْـتُمُ النِّسَـاءَ فَلَمْ تَجِـدُوا مَـاءً فَتَيَمَّمُـوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيـدُ اللَّهُ لِيَجْعَـلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَـرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيـدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَـهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْـكُرُونَ} (المائدة:6)

في هـذه الآيـة اجتمعت جميـع أحكـام الطهـارة في الإسـلام من الوضوء والغسل والـتيمم، ولم تكتـف بـذلك.. بـل ضـمت إليهـا نـواح إيمانية، ومقاصد أخلاقية عالية.

قارن هذا بالنصوص الكثيرة الـتي لا تسـتطيع العقـول تعقلهـا عن أحكـام الطهـارة في الكتـاب المقـدس.. اسـمع..:(وإذا عاشـر رجـل زوجته يستحمان كلاهما بماء ويكونـان نجسـين إلى المسـاء) (سـفر اللاويين: 15: 18)

لقد ظللت مدة أفكر في سر استمرار نجاستهما إلى المساء، مـع كونهما اغتسلا، فلم أجد لذلك جوابا.

اسمع:(أما سائر دبيب الطير ذوات الأربـع الأرجـل فهـو محظـور عليكم، فإنها تنجسكم، وكـل من يلمس جثتهـا يتنجس حـتى المسـاء. وعلى كل من حمل جثتها أن يغسل ثيابه ويكون نجسا حـتى المسـاء، وكذلك جميـع البهـائم ذوات الأظلاف غـير المشـقوقة وغـير المجـترة تكون نجسة لكم، وكل من يلمسها يتنجس. وأيضا كل حيوان يمشـي على كفوفه من جميع الحيوانات ذوات الأربع الأرجل، فهو نجس لكم، وكل من يمس جثتها يكـون نجسـا حـتى المسـاء، ومن يحمـل جثتهـا يغسل ثيابه ويكون نجسا إلى المسـاء. جميعهـا محظـورة عليكم.. إن

وقعت جثة أحد هذه الحيوانات على شيء فإنه يتنجس، سواء أكان آنية من خشب أم قماش أم جلد أم مسح، أم أي شيء يستخدم في عمل ما. يوضع في ماء ويكون نجسا إلى المساء، ثم يطهر. أما إن وقعت جثة أحدها في إناء خزفي، فإن ما في الإناء يتنجس، وأما الإناء فيكسر)(اللاويين:11: 23)

لست أدري لماذا تظل النجاسة حتى المساء؟.. ولماذا يكسر الوعاء الخزفي، ولا يغسل؟.. وما سبب نجاسة الحيوان الذي لا يؤكل؟

بالإضافة إلى هذا.. فإن هناك أحكام تعجيزية غاية في الغرابة.. اسمع هذا الحكم الغريب الذي ورد في سفر العدد (19: 1 - 10):(وقال الرب لموسى وهرون: (هذه هي متطلبات الشريعة التي آمر بها: قل لبني إسرائيل أن يأتوك ببقرة حمراء سليمة خالية من كل عيب، لم يعلها نير، فتعطونها لألعازار الكاهن، ليأخذها إلى خارج المخيم وتذبح أمامه. ويغمس الكاهن إصبعه بدمها ويرش منه نحو وجه خيمة الاجتماع سبع مرات. وتحرق البقرة بجلدها ولحمها ودمها مع فرثها على مشهد منه، ثم يأخذ خشب أرز وزوفا، وخيطا أحمر، ويطرحها في وسط النيران. ثم يغسل الكاهن ثيابه ويستحم بماء، وبعد ذلك يدخل المخيم، ويظل الكاهن نجسا إلى المساء. ويغسل الرجل الذي أحرق البقرة ثيابه بماء ويستحم، ويظل أيضا نجسا إلى المساء. ويجمع رجل طاهر رماد البقرة ويلقيه خارج المخيم في موضع طاهر، فيظل محفوظا لجماعة إسرائيل لاستخدامه في ماء التطهير. إنها ذبيحة خطيئة. وعلى من جمع رماد البقرة أن يغسل ثيابه ويظل نجسا إلى المساء، فتكون هذه فريضة دائمة لبني إسرائيل وللغريب المقيم في وسطهم)

قلت: إن شريعة التطهير بالبقرة الحمراء[1] هي شريعة موسى

1() لا تزال البقرة الصغيرة الحمراء Red Heifer (بالعبرية «باراه» أو «دوماه») موضع اهتمام كبير من اليهود، ذلك أن لهم شروطا تعجيزية فيها، ذلك أنها يجب أن تكون حمراء صحيحة لا عيب فيها ولم يعل عليها نير (عدد 19/2). وقد جاء في التلمود أن البقرة لابد أن تكون حمراء تماماً، ليس بها أية تموجات، وحتى وجود شعرتين سوداوين على ظهرها يجعلها

لا شريعتنا.. لأننا قد طهرنا بدماء المسيح.. ابن الله.

قال: ذلك أغرب وأعجب.. ولن أجادلك فيه الآن.. ولعلك ستجد من يبحث معك فيه.

فتح الكتاب المقدس، وقال: سأقرأ عليك أحكاما أخرى ترتبط بالطهارة ظللت طول عمري أبحث لها عن مناسبة عقلية، فلم أجد.

اسمع من سفر العدد (19: 11-16):(11من لمس جثمان إنسان ميت يبقى نجسا سبعة أيام، 12وعليه أن يتطهر بماء التطهير في اليوم الثالث، وفي اليوم السابع يصبح طاهرا. وإن لم يتطهر في اليوم الثالث، فلا يكون طاهرا في اليوم السابع. 13كل من لمس جثمان إنسان ميت ولم يتطهر، ينجس مسكن الرب، ويجب استئصاله من الشعب لأنه نجس، إذ إن ماء التطهير لم يرش عليه. 14أما شريعة من مات في خيمة، فإن كل من دخل الخيمة وكل من كان فيها، يكون نجسا سبعة أيام. 15وكل إناء مفتوح، لا غطاء عليه،

لا تصلح لأن تكون بقرة مقدَّسة تفي بهذا الغرض. ويبدو أن الأحمر رمز الخطيئة. والسفر الرابع من السدر السادس في التلمود (سدر طهوروت) يُدعى «باراه»، ويتناول الشعائر الخاصة بالبقرة الحمراء الصغيرة.

وسر هذا الاهتمام بها أن جثة الميت من أهم مصادر النجاسة بالنسبة للكهنة، فأي كاهن يلامس جثة يهودي أو يتصل بها، حتى ولو بشكل غير مباشر (كأن يسير على مقبرة أو حتى يوجد في مستشفى أو منزل يضم جثة) فإنها تنجسه، على عكس جثث الأغيار فهي لا تسبِّب أية نجاسة لأنها لا قداسة لها.

ولهذا يوجد الآن في إسرائيل معهد لدراسة البقرة الحمراء، وقد اقترحت إحدى المجلات العلمية الدينية في إسرائيل أن تُعزَل امرأة يهودية حامل من إحدى الأسر الكهنوتية داخل منزل يُبنى على أعمدة حتى يُعزَل المنزل نفسه عن أي جثث يهودية قد تكون موجودة تحته، ويقوم رجال آليون بتوليدها، ثم يقومون بعد ذلك على تنشئة الطفل بعيداً عن كل البشر، حتى يصل سنه الثالثة عشرة. ساعتها، يمكنه أن يصبح كاهناً طاهراً فيُضحي بالبقرة الحمراء، وتُحَل المشكلة.

وقد اقترح آخرون القيام ببعض الحفائر حول بقايا الهيكل، فقد يُعثَر على زجاجة تضم بقايا رماد البقرة الحمراء، وتُحل بذلك المعضلة.

لكن مجلة تايم نشرت في عدد 16 أكتوبر 1989 أنه تقرَّر أن يبدأ الكهنة في تطهير أجسادهم، وأن ممثلي الحاخامية الأساسية في إسرائيل قضوا أسبوعين في أوربا يبحثون عن جنين بقرة حمراء ليُزرَع في إحدى أبقار مزرعة في إسرائيل.

انظر: الموسوعة اليهودية لعبد الوهاب المسيري .. وانظر في الموسوعة نفسها عن غرائب أخرى ترتبط بالطهارة في الشريعة اليهودية.

أو غـير محكم السـد، يصـبح نجسـا. 16وكـل من لمس على وجـه الصحراء قتيلا بسيف أو ميتـا، أو عظم إنسـان أو قـبرا، يكـون نجسـا سبعة أيام)

إن هذا النص يعتبر من لامس جثة إنسان يكون نجسا لسبعة أيام، وعليه أن يتطهر في اليوم الثالث، أمـا إذا امتنـع فيقتـل أو يقطـع من بني اسرائيل لأنه يتسبب بنجاسته في تنجيس بيت الرب.

ولسنا ندري ما مصير من لامس جثة أمـه أو أبيـه أو أحـد أقاربـه الأقربين، فنسي التطهر في اليوم الثالث هل يباد ويقتل كحـال غـيره من بني اسرائيل؟!

بل إن الكتـاب المقـدس يقـرر نجاسـة الخيمـة الـتي توضـع فيهـا الجثة، ومن دخلها ومن فيها.. بل أنه يحكم بنجاسـة مـا فيهـا من أوان سواء تركت مفتوحة أو كانت عليها أغطية غـير محكمـة الاغلاق.. بـل إنه يدعي أنه إذا كان أحدهم سائرا في الصـحراء ولامس عن طريـق الخطأ جثة أو عظم إنسان أو حـتى قـبرا يصـبح نجسـا ولمـدة سـبعة أيام.

سكت قليلا، ثم ابتسم، وكأنه تذكر شيئا، ثم قال: أتـدري مـا حكم المرأة التي تتدخل لتنقذ زوجها من قبضة يد ضاربه؟

قلت: أعلم ذلك..

قال: وتستحي من ذكره.. أو يستحيي عقلـك من قبولـه.. سـاقرأ النص نيابة عنك.. أحيانا نضطر لنرفع جلباب الحياء حتى نتعـرف على الحقائق.. أخذ يقرأ من سفر التثنيـة (25:ـ 11):(إذا تعـارك رجلان فتدخلت زوجة أحدهما لتنقذ زوجها من قبضة يد ضـاربه ومـدت يـدها وأمسكت بخصيته، فاقطعوا يدها ولا تشفقوا عليها)

أتدري ماذا يفعل المحارب إذا ظفر بإمرأة جميلة؟

سكت، فقال: لقد نص على ذلك في سفر التثنية، لقـد ورد فيـه (

21: 10 – 15):(إذا ذهبتم لمحاربة أعدائكم، وأظفركم الرب إلهكم بهم، وسبيتم منهم سبيا، وشاهد أحدكم بين الأسرى امرأة جميلة الصورة فأولع بها وتزوجها، فحين يدخلها إلى بيته يدعها تحلق رأسها وتقلم أظفارها، ثم ينزع ثياب سبيها عنها، ويتركها في بيته شهرا من الزمان تندب أباها وأمها، ثم بعد ذلك يعاشرها وتكون له زوجه. وإن لم تسر بها فأطلقها لنفسها)

قلب بعض الصفحات من الكتاب المقدس، وقال: أتعلم.. لقد اكتشفت اكتشافا عجيبا في الكتاب المقدس له علاقة بالعقيدة، وعلاقة في نفس الوقت بالشريعة.

لقد عرفت أن الرب يعشق المحارق، وأن أشهى الأشياء إليه اللحم المشوي.. فلا يكاد إصحاح واحد يخلو من ذكر هذه القرابين، ومن اللحم المشوي، بل في الإصحاح الواحد نجد ذكر القرابين عشرات المرات.

وفي خضم هذه الروائح التي تفوح من ذبائح القرابين لا نجد الأنبياء من لدن آدم إلى آخر أنبياء بني إسرائيل يعبدون الله أو يدعون الناس إلى عبادة الإله الواحد الأحد.. ولا نراهم يأمرون بمعروف أو ينهون عن منكر.. بل نجدهم مع الكهنة مشغولون جدا باللحم المشوي ، والذين يحصلون بروائحه على جميع طلباتهم من تعذيب الأمم، وقتلها، وحرقها ، يدخل المعارك معهم في وسطهم داخل تابوت، ويقاتل معهم ، ويعطيهم أراضي الغير.. ويجعل الكل عبيدا لهم ، ولا يهم بعد ذلك إن عبدوا الأوثان أو سرقوا الأموال كما لا يهم أن يكون اللحم المشوي من عجول أغنام مسروقة ، كما يزعمون أن يعقوب سرق أغنام خاله وقدم اللحم المشوي للرب فتنسم الرب نسيم الرضا، وأعطى يعقوب العهد له ولأولاده وأعطاهم أرض فلسطين، وأعطاهم الأرض حولها من النيل إلى الفرات.

واسمح لي أن أذكر لك بعض النصوص التي لا ينبغي أن يكون لها أي محل في الكتاب المقدس.

ولنبدأ قصة القرابين من أولها.. من هابيل حين قرب لحما سمينا، بينما قدم أخوه قابيل شيئا قليلا من ثمار الأرض:(فنظر الرب إلى هابيل وقربانه، ولكن إلى قابيل وقربانه لم ينظر ، فأغتاظ قابيل جدا)(التكوين:4/ـ 6-3) وأدى ذلك إلى أن يقوم قابيل بقتل أخيه وارتكاب أول جريمة على الأرض.

قلت: لقد ذكر هذا في القرآن.. فهو يقع إذن في نفس ما وقع فيه الكتاب المقدس..

قال: لا.. القرآن لم يذكر هذا بهذا الأسلوب.. لقد صور القرآن صورة هابيل.. الرجل الصالح الطيب.. نعم كلاهما قرب قربانا، ولكن قربان هابيل كان مضمخا بروائح الإخلاص التي يحبها الله.. لقد قال القرآن في هذه المناسك:{ لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ }(الحج: 37)

والآن.. فاسمع قصة قابيل وهابيل في القرآن.. وإن شئت قارنها بمثيلتها في الكتاب المقدس لترى الفرق بينهما.. اسمع:{ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ} (المائدة:27) اسمع.. لقد ذكر هابيل علة القبول.. ليست هي اللحم، أو الزرع.. العلة هي التقوى.. فلذلك قد تتقرب بزرع، ويكون أزكى عند الله من جميع أبقار الدنيا وأغنامها.

والقرآن يصور نفس هابيل خير تصوير حين يذكر الصراع الذي حصله بينه وبين أخيه، فيقول:{ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ}(المائدة: 28 -29)

هذا هو أول قربان ذكر في الكتاب المقدس.. يليه القربان الثاني.. بعد أن أغرق الله الأرض بالطوفان.. وما تكاد السفينة تستقر على جبل أراراط حتى يخرج نوح ويقدم قربانا للرب كما جاء في

سفر التكوين:(وبني نوح مذبحا للرب. وأخذ من كل البهائم الطـاهرة ومن كل الطيور الطاهرة وأصعد محرّقات على المذبح. فتنسم الرب رائحة الرضا. وقال الرب في قلبه لا أعود ألعن الأرض أيضا من أجـل الإنسان) (تكوين:8/20-21)

ثم يأتي ابراهيم فلا نراه ـ كما نراه في القرآن ــ داعيـة إلى اللـه، ومعرفا به، وصاحب حجة يناضل بها الوثنيين وعبدة الكـواكب وعبـدة الملوك، بل نراه في الكتاب المقدس لا ينكر على قومه مـا هم فيـه من عبادة الأوثان، بل ولا ترد قصته مـع النمـرود ولا مجادلتـه لـه ، ولا قصته مع أبيه. بل كل مايرد أن إبراهيم يقدم محرقات للرب فيتنسـم الرب رائحة اللحم المشوي (فيقول الرب لإبـرام: اذهب من أرضـك وعشيرتك ومن بيت أبيك الى الأرض التي أريك. فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك)(سفر التكوين: 12)

وبعـد رحلات طويلـة يعـود ابـراهيم من مصـر، وقـد ملـك أمـوالا ضخمة من الذهب والفضة والأغنـام الـتي أعطاهـا لـه فرعـون مصـر عندما قدم ابراهيم زوجته سارة ليتزوجها فرعون حسب زعمهم.

وقدم إبراهيم اللحم المشوي مرة أخـرى (في ذلـك اليـوم قطـع الرب مع إبرام - أي إبراهيم - ميثاقا قائلا: لنسلك أعطي هــذه الأرض من نهـر مصـر إلى النهـر الكبـير نهـر الفـرات القينـيين والقـنزيين والقدمونيين والحثيين والفرزيين والرفائيين والأموريين والجرجاشـيين واليبوسيين)(سفر التكوين: 15: 18-20)

قارن هذا كلـه وغـيره كثـير، بالعقـل وبـالقرآن.. ثم أخـبرني مـاذا ترى؟

***

ما إن وصل من حديثه إلى هذا الموضـع حـتى قلت لـه: أرى لـك تعلقا شديدا بالقرآن.

قـال: أجـل.. أنـا أقـرؤه.. ولا أمـل من قراءتـه.. أشـعر أن جميـع

حقائق الأزل تختزن في كلماته..

قلت: فلم نراك تنشر كتابنا المقدس.. ولا تنشر القرآن؟

قال: كم وددت لو أتيح لي نشر مصحف واحد؟

قلت: فما الذي يحول بينك وبين ذلك.. ألست ذا مال؟

قال: بل ذو مال كثير.. ولكن لي أخا توأما يحول بيني وبين ما يتقبله عقلي..

قلت: فلم رضي بنشرك للكتاب المقدس؟

قال: هو لا يبالي إذا لم أنشر القرآن بنشري لغيره.

قلت: فلم اخترت الكتاب المقدس؟.. ولم اخترت نشره بين طبقات المتعلمين؟

قال: لقد وجدت أن خير ما يقرب من القرآن هو الكتاب المقدس.. يوشك كل من يملك نسخة من الكتاب المقدس أن يملك نسخة من القرآن.. فلذلك عمدت إلى الكتاب المقدس ليكون مقدمتهم إلى القرآن.

قلت: أنت مسيحي وتقول هذا؟

قال: أنا مسيحي.. ولولا أخي التوأم لضممت إلى مسيحيتي عقل محمد، ودين محمد، وشمس محمد.. ولن يكون ذلك بعيدا.

قال ذلك بنبرة قوية، ثم انصرف ليتركني في حيرة جديدة، وببصيص جديد من النور اهتديت به بعد ذلك إلى شمس محمد.

مددت يدي إلى محفظتي لأستخرج بعض ما أحتاجه منها، فامتدت إلى الورقة التي سلمها لي صاحبك، فعدت أقرأ فيها..

لقد أيقنت حينها أن هذا السور الخامس من أسوار الكلمات المقدسة لم يتحقق به أي كتاب في الدنيا غير القرآن الكريم.

سادسا ـ الروحانية

اليوم السادس، كان يوم أحد، وقد كلفوني بإجراء الطقوس الدينية، وقراءة الموعظة، لكني أبيت، وطلبت من أخي أن يقوم بدلا مني بذلك.. لقد كان يتقن فن التأثير في مثل هذه المجامع إتقانا عظيما.. وبسبب هذا الإتقان ترقينا في مراتب الكنيسة إلى الكرسي الذي كنا نحلم به جميعا.

جلست أنا مع المصلين في كرسي من الكراسي، وقعدت أسمع كما يسمع سائر المصلين، وأتحرك كما يتحركون.

كان بجواري رجل.. كان يفعل مثلما أفعل.. ولا يبدو عليه أي تأثر مثلما لا يبدو علي.. لقد كانت النغمات جميلة تهز الجبال بجمالها، ولكني في نفس الوقت كنت أفتقد المعنى الذي يهز نفسي لجمالها.

لقد كان الكلام الذي يردد في هذه المجالس التي نسميها صلاة هو نفس الكلام الذي أسمعه في بلادي.. إنه نوع من النواح على المسيح وصلب المسيح.. وهو في نفس الوقت نوع من العزاء.. فالمسيح الذي صلب لم يكن إلا جسدا.. أما المسيح الإله.. فهو إله دائما.

كان هذا أكثر ما نسمعه، ولم يكن هذا يكفي لملأ روحي التي لا تقل عن عقلي شوقا لعالم الحقائق.. العالم الذي يجتمع فيه المنطق العقلي مع الأشواق الروحية.

بعدما خرجنا من الكنيسة فوجئنا بصوت الآذان يرتفع من مآذن الإسكندرية.. لقد كان صوتا حانيا قويا عميقا.. لكأنه يأتي من السماء، ولا يرتفع من الأرض.. لقد كان هناك فرق كبير بين الأجراس التي ندقها.. وبين الآذان الذي ينادي به المسلمون.

بقيت مستغرقا أتأمل ألفاظ الآذان ومدى انسجامها مع العقل.. ومدى صلاحها لإرواء الروح.. ومدى اتفاقها مع الدعوة إلى الصلاة.

بينما أنا كذلك إذ أمسك بيـدي من كـان يجـاورني في الصـلاة في الكنيسة، وقال: مرحبا بك في بلدك.. أنا من أبنـاء الإسـكندرية.. وقـد تشرفت اليوم بالصلاة بجانبك.

قلت: شكرا على هذا الأدب.

قـال: إذا سـمحت لي تجـولت بـك في بعض شـوارع الإسـكندرية العتيقة.. لعلك ترى فيها ما لم تره في الإسكندرية الجديدة.

قلت: بورك فيك.. أنا أحب زيارة المدن القديمـة.. فهيـا سـر بي.. فليس لي اليوم أي عمل عدا التجوال.

امتطينا سيارة نزلت بنا بعض الشوارع، وتركتنـا فيهـا لنسـير معـا في حي من الأحياء القديمة.

ما سرنا قليلا حتى صادفنا مسجد بسـيط.. والنـاس يـدخلون إليـه لأداء الصلاة.

قال لي، وقد رآني أنظر إليه بنوع من اللهفة والشوق: هذا مسجد قديم من مساجد الإسكندرية.. لقـد ظـل يحتفـظ بكسـوته هـذه منـذ قرون طويلة.

منذ قرون طويلة.. والمصلون يدخلون من هـذا البـاب.. والمـؤذن يؤذن من تلك الزاوية.

أنا أعرف إمام هذا المسجد.. فإن شئت دخلنا جميعا لترى عمرانه الداخلي فعلت.

قلت: ولكني سمعت أن المسلمين لا يأذنون لمن ليس من دينهم بدخول مساجدهم، أو بلمس مصاحفهم.

قال: ذلك قول بعض فقهائهم.. ولكن إمام هذا المسجد يخالفهم.. ويأخذ بأقوال فقهية أخرى[1].. وهو يـرى أنهـا هي الأقـوال الصـحيحة

(1) انتصرنا لهذه الأقوال في سلسلة (فقه الأسرة برؤية مقاصدية) في الجزء الخاص بـ (الأبعاد الشرعية لتربية الأولاد)

لأنها تنسجم مع ما فعله محمد مع وفد زار مدينته من المسيحيين.

لقد روى ابن إسحق وهو يؤرخ حياة نبيهم أن وفـد نجـران ــ وهم من المسيحيين ـ لما قدموا على محمد بالمدينة، دخلوا عليه مسـجده بعد العصر، فكانت صلاتهم، فقاموا يصلون في مسجده، فأراد النـاس منعهم، فقال محمد:(دعوهم) فاستقبلوا المشرق فصلوا صلاتهم.

قلت: فهم مختلفون في هذه المسألة إذن.

قال: أجل.. وإمام هذا المسجد يرى هـذا الـرأي.. ولهـذا كثـيرا مـا تجد المسيحيين، بل وغيرهم من أهل الديانات المختلفة يـزورون هـذا المسجد ليروا كيفية أداء المسلمين شعائرهم الدينية.

وقد وضع إمام المسجد لأجل هذا محلا خاصا بهؤلاء حتى لا يحصل أي تشويش على المصلين.

قلت: فلم لم يصدر رؤساء دينهم قرارات ترفع هذه الخلافات؟

قال: لا.. الأمر مختلف عند المسلمين.. هم يتصـورون أن الوحـدة في التعدد، وأن الفرقة في جبر الناس على التوحد.

قلت: كيف ذلك؟.. كيف تصبح الوحدة فرقة؟

قال: أنت تعلم قيمة العقل في الإسلام.. وتعرف أن بنـاء الأحكـام الشرعية ينطلق من النصوص، ولكنه لا يفهم إلا بالعقـل.. ولـذلك قـد تختلف العقول أحيانـا.. ولا يصـح لعقـل أن يسـلم لعقـل آخـر.. لكـأن الإسلام قصد هذا الاختلاف حتى يكون توسعة للناس..

تصـور.. لـولا أن هنـاك خلافـا في المسـألة لمـا وجـدنا مثـل هـذا المسجد، ولا إماما كإمامه.

قلت: هيا ندخل.

دخلنا مع المصلين.. وجلسنا في الـركن المخصـص للضـيوف من غير المسلمين.

ما لبثنا حتى قامت الصـلاة، وقـام المسـلمون يسـوون صـفوفهم خلف الإمام، وقد استووا جميعا يصلي غنيهم بجنب فقـيرهم، وقـويهم بجنب ضعيفهم، فليس هناك في مساجد المسلمين أي طبقيـة تـوزع محال المسجد بين المصلين.

كـان الإمـام يصـلي بهم رافعـا صـوته بـالتكبير والتسـميع.. وهم يقتدون به في جميع حركاته.

كانت صورة الصلاة غريبة بالنسبة لي.. ولكني كنت أشعر أن هذه الحركات تحتوي رموزا عميقة لن يصعب على العقل إدراكها.

انتهت الصلاة.. وتفـرق المصـلون بعـدها.. منهم من قـام مسـرعا إلى حذائـه ينتعلـه، ويخـرج بعـد أن أدى واجبـه.. ومنهم من بقي في المسـجد يصـلي أو يـذكر أو يقـرأ القـرآن.. وقـد كـان منظـرا جميلا.. منظر الحرية الشخصية في التعبد في المسجد.

شد انتباهي رجل لم يكن بعيدا عـني.. كـان يقـرأ القـرآن..وعينـاه تفيضان من الدموع.. كان الخشـوع باديـا على وجهـه، وكـانت الأنـوار تكسوه بهالة من الوقار لم أرها في أحد طيلة حياتي.

اسـتأذنت صـاحبي في أن أقـترب من ذلـك القـارئ، فـأذن لي.. فاقتربت منه، وحييته بتحية الإسلام احتراما للمحل الـذي أجلس فيـه، فرد علي السلام.

لم أرد أن أظهـر أمامـه باعتبـاري مسـلما، فلـذلك قلت: أنـا مسيحي.. زرت هذه البلاد في مهمة خاصة..

نظر إلي، وهو يبتسم، وقـال: جئت لأجـل الإشـراف على طباعـة طبعة خاصة من الكتاب المقدس.

قلت: أجل.. وما أدراك بذلك؟

قال: أنا أعمل في تلك المطبعة منذ سنوات طويلة.

قلت: لم أكن أعلم أن تلك المطبعة توظف مسلمين.

قال: ومن قال لك بأني مسلم.. أنا مسيحي.

ازداد عجبي، وقلت: أأنت مسـيحي؟.. وتجلس في المسـجد كمـا يجلس المسلمون، وتقرأ القرآن كمـا يقـرؤون، بـل وتبكي كمـا يبكي خاصة المسلمين.

قال: لذلك قصة قد لا تهمك تفاصيلها.. ولكني سأذكر لك منها مــا قد ينفعك في يوم من الأيام، فتجلس مثلي في مثل هذا المجلس.

قلت: قصها علي.. فإني أرى تصرفك تصرفا غريبا.

قـال: لقـد ذكـرت لـك أني مسـيحي.. بـل من عائلـة عريقـة في مسـيحيتها.. وقـد هـداني حـبي لعـالم الـروح إلى العمـل في مطبعـة الكتاب المقدس مع أنه قد أتيح لي وظائف كثيرة في غيرهــا.. إلا أني آثرت الارتباط بالدين، وبرجال الدين.

قلت: هذه علاقتك بالكتاب المقدس.. فكيف تحولت إلى القرآن؟

قال: لقد كان الكتاب المقدس هو مقـدمتي للقـرآن.. أو قـل هـو دليلي إلى القرآن.

قلت: لم أفهم ذلك.

قال: لقد ذكرت لك أني أبحث عن أشواق روحي الفائضة..

أنا أشعر أننا ـ معشر البشر ـ من عالم آخر.. عالم مليء بالجمال، له صلة عميقة بخالق هذا الكون ومدبره.

وقد بحثت عن جذور هذه الصلة وحقيقتهـا في الكتـاب المقـدس، فلم أجد إلا إشارات اهتديت بها إلى القرآن..

فلذلك جئت إلى القرآن.. لأبحث فيه عنها.

قلت: فهل وجدت في القرآن ما يروي ظمأ روحك؟

قال: لم يمض لصحبتي للقرآن إلا أسابيع محـدودة.. وأنـا في كـل يوم أكتشف أشياء كثـيرة.. أشـياء تملأ روحي بمشـاعر لا أجـدها عنـد قراءة الكتاب المقدس، ولا عند قراءة غيره.

الصلة بالله:

قلت: أريدك أن تصور لي بعض هذه المشاعر.

فتح المصـحف، وقـال: اسـمع هـذه الآيـات مثلا:{ إِنَّ فِي خَلْـقِ
السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْـلِ وَالنَّهَـارِ لآيَـاتٍ لأُولِي الأَلْبَـابِ (190)
الَّذِينَ يَـذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامـاً وَقُعُـوداً وَعَلَى جُنُـوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْـقِ
السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُـبْحَانَكَ فَقِنَـا عَـذَابَ النَّارِ (
191) رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلْ النَّارَ فَقَـدْ أَخْزَيْتَـهُ وَمَـا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَـارٍ (
192) رَبَّنَا إِنَّنَا سَـمِعْنَا مُنَادِيـاً يُنَـادِي لِلإِيمَـانِ أَنْ آمِنُـوا بِـرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَـا
فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْـرَارِ (193) رَبَّنَـا وَآتِنَـا مَـا
وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ إِنَّكَ لا تُخْلِـفُ الْمِيعَـادَ (194)
فَاسْـتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِـيعُ عَمَـلَ عَامِـلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَـرٍ أَوْ أُنْثَى
بَعْضُــكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَــاجَرُوا وَأُخْرِجُــوا مِنْ دِيَــارِهِمْ وَأُوذُوا فِي
سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْـرِي مِنْ
تَحْتِهَـا الأَنْهَـارُ ثَوَابـاً مِنْ عِنْـدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْـدَهُ حُسْـنُ الثَّوَابِ (195)(آل
عمران)

رتلها بصوت خاشع كما يرتل المسلمون، ثم قال: في هذه الآيـات تجتمع جميع أشواق الروح المنسجمة مع العقل..

تبدأ الآيات بمنظـر السـموات والأرض، وهمـا ينزعـان ثيـاب نظـر الغفلة ليلبسا ثيـاب نظـر الاعتبـار.. ويـبرز بعـدها أولـو الألبـاب الـذين اكتحلت عيـونهم بتلـك النظـرة المقدسـة، فيهرعـون إلى ذكـر اللـه، والبحث عنه في ملكه وملكوته.

ثم لا يلبثون أن يهتدوا إلى الله، فتحلق أرواحهم إليه، وتجلس بين يديـه، وتمـد يـدها إليـه بالـدعاء.. وتنتهي الآيـات بـذكر اسـتجابة اللـه

لدعواتهم وتبشيره لهم.

إنه مشهد حي يمكن أن يفعله أي مسلم في أي محل ومن غير حاجة إلى أي واسطة.

تحكي عائشة زوج محمد أثر هذه الآيات على محمد عندما نزلت عليه، فتقول لمن سألها عن أعجب شيء رأته من محمد، فَبَكَتْ، وقالت: كُلُّ أمره كان عجبا، أتاني في ليلتي حتى مس جلده جلدي، ثم قال: ذريني أتعبد لربي، قالت: فقلت: والله إني لأحب قربك، وإني أحب أن تَعبد لربك. فقام إلى القربة فتوضأ ولم يكثر صب الماء، ثم قام يصلي، فبكى حتى بل لحيته، ثم سجد فبكى حتى بَل الأرض، ثم اضطجع على جنبه فبكى، حتى إذا أتى بلال يُؤذنه بصلاة الصبح قالت: فقال: يا رسول الله، ما يُبكيك؟ وقد غفر الله لك ذنبك ما تقدم وما تأخر، فقال:(ويحك يا بلال، وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل عليّ في هذه الليلة:{ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأولِي الأَلْبَابِ }، ثم قال:(ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها)[1]

ذرف بعض الدموع، ثم قال: بالقرآن تعيش أجواء روحية عالية تفتقد مثلها، وأنت تقرأ الكتاب المقدس.

لقد قارنت بين الدعاء في القرآن، والدعاء في الكتاب المقدس، فوجدت فرقا كبيرا:

الدعاء في القرآن ينبئ عن علاقة روحية عميقة للداعي بالله، فهو يستشعر قربه وحضوره، وكرمه، فهو لا يدعوه فقط ليحقق مطالبه، وإنما يشعر بأنه يتقرب إليه، ويقترب منه.

اسمع إخبار الله عن إجابة دعوات عباده:

يقول القرآن:{ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ}(البقرة:

1() رواه ابن مردويه، وعَبْد بن حُمَيد.

186).. وفيه:{ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾(غافر: 60)

ليس ذلك فقط، بل اعتبر عدم رفع الأيدي بالدعاء نوعا من أنــواع الكبر، فقد جاء تتمة للآية التي ذكرتها:{ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (غافر: 60)

والقرآن يحكي دعوات المؤمنين ولجوءهم الدائم إلى الله:

ففي الــوقت الــذي يهتم فيــه الكتــاب المقــدس بتفاصــيل بنيــان الهيكل، وما وضع فيه من الـذهب الخـالص، وفي الـوقت الـذي يـذكر الصفحات الكثيرة في صفة التابوت.. يقتصر القرآن عنــد إخبــاره عن بناء إبراهيم للكعبة، هو وابنه إسماعيل على دعاء الله والتوجــه إليــه.. اسمع ما يقـول القـرآن:{ وَإِذْ قَـالَ إِبْـرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَـلْ هَـذَا بَلَـداً آمِنـاً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (126) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْـرَاهِيمُ الْقَوَاعِـدَ مِنْ الْبَيْتِ وَإِسْـمَاعِيلُ رَبَّنَـا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّـمِيعُ الْعَلِيمُ (127) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِــكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَـا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الـرَّحِيمُ (128) رَبَّنَـا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُـو عَلَيْهِمْ آيَاتِـكَ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَـابَ وَالْحِكْمَـةَ وَيُـزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (129)(البقرة)

وهكذا تجد في المواقف المختلفة إبراهيم، وهو دائم الصلة باللــه، يلجأ إليه كل حين داعيا، أو مناجيا.. اسمع هذه الدعوات الرقيقة الـتي صاحت بها روح إبراهيم بعد أن ترك زوجه وابنها في تلك البريـة الـتي لا تنبت زرعا، ولا تمطر غيثا:{ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْـنَامَ (35) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْـلَلْنَ كَثِـيراً مِنْ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَــانِي فَإِنَّكَ غَفُــورٌ رَحِيمٌ (36) رَبَّنَــا إِنِّي أَسْـكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِـوَادٍ غَيْـرِ ذِي زَرْعٍ عِنْـدَ بَيْتِـكَ الْمُحَـرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُـوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنْ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنْ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (37) رَبَّنَـا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَـا نُخْفِي وَمَـا نُعْلِنُ وَمَـا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَـيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّـمَاءِ (38) الْحَمْـدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبِّي لَسَـمِيعُ الـدُّعَاءِ (39) رَبِّ اجْعَلْنِي

مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَـاءِ (40) رَبَّنَـا اغْفِـرْ لِي وَلِوَالِـدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (41)(إبراهيم)

وفي موقف آخر يقول لقومه، وهو يمزج خطابه لهم بدعاء الله:{ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (75) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الأَقْـدَمُونَ (76) فَـإِنَّهُمْ عَـدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ الْعَــالَمِينَ (77) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُــوَ يَهْــدِينِ (78) وَالَّذِي هُــوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79) وَإِذَا مَرِضْـتُ فَهُـوَ يَشْـفِينِ (80) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (81) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الـدِّينِ (82) رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّـالِحِينَ (83) وَاجْعَـلْ لِي لِسَـانَ صِـدْقٍ فِي الآخِرِينَ (84) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (85) وَاغْفِـرْ لأَبِي إِنَّهُ كَـانَ مِنْ الضَّالِّينَ (86) وَلا تُخْـزِنِي يَـوْمَ يُبْعَثُـونَ (87) يَـوْمَ لا يَنْفَـعُ مَـالٌ وَلا بَنُونَ (88) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89)(الشعراء)

اسمع هذه الدعوات الرقيقة الخاشعة الحامـدة للـه والمنيبـة لـه، وقارنهـا بمـا ذكرتـه أناجيلنـا عن المسـيح، فقـد كتب مـتى في البـاب السابع والعشرين:(ونحو الساعة التاسعة صرخ يسوع بصـوت عظيم قــائلاً: إيلي إيلي لمــا شــبقتني. أي إلهي إلهي لمــاذا تركتــني)، وفي الباب الخامس عشر من إنجيل مـرقس:(الـوى الـوى لمـا شـبقتني. الذي تفسيره إلهي إلهي لماذا تركتني)

قارن تلك الدعوات المتوجهة لله المسلمة له بهذه الشكوى.

القرآن يذكر لجوء الأنبياء الدائم إلى الله في الـوقت الـذي يظهـر الكتـاب المقـدس هـؤلاء الأنبيـاء بصـورة مشـوهة تجعـل كـل هممهم متوجهة لمكاسب بسيطة لا تعدو المجتمع الإسـرائيلي البسـيط الـذي كانوا يعيشون فيه.

فموسى الـذي شـوهت صـورته في الكتـاب المقـدس يظهـر في القرآن بصورة مختلفة تماما.. يظهـر بصـورة الأواب اللاجئ إلى اللـه في كل حين:

اسـمع قصـة موسـى في القــرآن وقارنهــا بمثيلتهــا في الكتــاب المقدس.. القرآن يخبر عن صلة موسى الدائمة بالله.. اسمع:{ وَجَاءَ

رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنْ النَّاصِحِينَ (20) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} (القصص:21)

ثم سار إلى مدين هربا من المصريين، القرآن يخبر عن ذلك، فيقول:{ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (22) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنْ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (23) فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (24) فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (25) قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ (26) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَةَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّالِحِينَ (27) قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (28)} (القصص)

هذه القصة نجد مثلها تماما في العهد القديم، ولكنها نجدها تفتقد أهم شيء.. تفتقد تلك الروحانية العميقة التي تفيض بها روح موسى.. إن التوراة تقصها كما تقص قصة أي رجل قتل قتيلا، ثم هرب خوفا من أن يقتلوه.

اسمع ما ورد في التوراة:(وحدث في تلك الأيام لما كبر موسى أنه خرج إلى إخوته لينظر في أثقالهم. فرأى رجلا مصريا يضرب رجلا عبرانيا من إخوته فالتفت الى هنا وهناك ورأى ان ليس احد فقتل المصري وطمره في الرمل) (الخروج:2/11 -12)

لاحظ.. إن التوراة تجعل موسى متعمدا للقتل.. وتعتبره عنصريا، فهو لم يقتله إلا لأنه مصري، بينما القرآن يصور هذا بصورة مختلفة تماما.. لقد جاء في القرآن:{ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً

وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (14) وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (15) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (16) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ (17) فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ (18) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنْ الْمُصْلِحِينَ (19)(القصص)

موسى في القرآن يظهر بمظهر المنيب التائب بينما تصوره التوراة بصورة المجرم الذي يتلفت ذات اليمين وذات الشمال ليمارس جريمته.

لا زال الخلاف بين القرآن والتوراة عميقا في سيرة موسى.. اسمع ما تقول التوراة في مقابلة ما قرأناه من القرآن:(ثم خرج في اليوم الثاني واذا رجلان عبرانيان يتخاصمان. فقال للمذنب لماذا تضرب صاحبك. فقال من جعلك رئيسا وقاضيا علينا. أمفتكر انت بقتلي كما قتلت المصري. فخاف موسى وقال حقا قد عرف الامر فسمع فرعون هذا الامر فطلب ان يقتل موسى. فهرب موسى من وجه فرعون وسكن في ارض مديان وجلس عند البئر وكان لكاهن مديان سبع بنات. فاتين واستقين وملأن الاجران ليسقين غنم ابيهنّ فاتى الرعاة وطردوهنّ فنهض موسى وانجدهنّ وسقى غنمهنّ. فلما اتين الى رعوئيل ابيهنّ قال ما بالكنّ اسرعتنّ في المجيء اليوم. فقلن رجل مصري انقذنا من ايدي الرعاة وانه استقى لنا ايضا وسقى الغنم. فقال لبناته واين هو. لماذا تركتنّ الرجل. ادعونه لياكل طعاما. فارتضى موسى ان يسكن مع الرجل. فاعطى موسى صفورة ابنته. فولدت ابنا فدعا اسمه جرشوم. لانه قال كنت نزيلا في ارض غريبة) (الخروج:2/13-22)

وعندما تريد أن ترسم التوراة صلة الله بعباده في هذا النص تعود لتشوه الله ورحمة الله.. اسمع ما ورد بعد ذلك النص كتمهيد لنبوة موسى:(وحدث في تلك الايام الكثيرة ان ملك مصر مات. وتنهّد بنو اسرائيل من العبودية وصرخوا. فصعد صراخهم الى الله من اجل العبودية. فسمع الله انينهم فتذّكر الله ميثاقه مع ابراهيم واسحق ويعقوب. ونظر الله بني اسرائيل وعلم الله) (الخروج:2/23-25)

القرآن لا يقصر هذا اللجوء على أنبيائه.. بل هو يعممه على كل الصالحين الذين يرجعون إلى الله في كل حين، ولكل سبب.

اسمع ما يقول القرآن عن الجيش الذي قاتل مع طالوت الذي ندعوه شاول:{ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ } (البقرة:250)

واسمع هذه الدعوات الفائضة من حناجر المؤمنين:{ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (285) لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (286) (البقرة)

واسمع هذا اللجوء إلى الله:{ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (7) رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (8) رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (9)(آل عمران)

واسمع هؤلاء الداعين وصفاتهم:{ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ

اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنْ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (15) الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (16) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ (17)}(آل عمران)

واسمع القرآن وهو يصف قومنا حين يسمعون آيات القرآن: { لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (82) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنْ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنْ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (83) وَمَا لَنَا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنْ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (84) فَأَثَابَهُمْ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (85)}(المائدة)

واسمع إليه، وهو يردد أوصاف عباد الرحمن، ويذكر دعواتهم: { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً (62) وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمْ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً (63) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً (64) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً (65) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً (66) وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً (67) وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً (68) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً (69) إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (70) وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً (71) وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً (72) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً (73) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً (74) أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاماً (75) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً (76) قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً (77)}(الفرقان)

واسمع إليه، وهو يردد دعوات الأجيال المؤمنة لبعضها بعضـا على امتداد التاريخ:{ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَـا الَّذِينَ سَـبَقُونَا بِالإِيمَـانِ وَلا تَجْعَـلْ فِي قُلُوبِنَـا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُـوا رَبَّنَـا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ }(الحشر:10)

عبودية الروح:

صمت قليلا، ثم قـال: ليس ذلـك فقـط.. الكتـاب المقـدس يركـز كثيرا على الطقوس.. ويتصور الطهارة ـ التي هي في عمومها طهارة حسية ـ قمة قمم الرقي الإنساني.

بينما القرآن يعتـبر الطهـارة هي بدايـة الـرقي.. فـالروح تبـدأ من الطهارة لترتقي في درجات الكمال التي لا تنتهي..

ودرجات الكمـال في القـرآن تبـدأ من القلب.. بتطهـيره من كـل الأوزار التي تحول بينه وبين صحبة الله.. فاللـه لا يحب إلا الطـاهرين، ولا يصحبه إلا الطاهرون، ولذلك لا ينجو عند اللـه إلا أصـحاب القلـوب السـليمة:{ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَـلِيمٍ}(الشـعراء:89)، وقـد أثـنى القرآن على إبـراهيم أعظم الثنـاء، ففيـه:{ إِذْ جَـاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَـلِيمٍ}(الصافات:84)

فإذا تطهر القلب نال من الكمال الروحي بحسب سيره..

والقرآن يذكر هـذا السـير القلـبي، ويركـز عليـه، ويعتـبره حقيقـة الإيمان، فالإيمان لا يعبر عنه اللسان بل يعبر عنه القلب، ولهذا يقــول القرآن في أوصاف المؤمنين:{ لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِـرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَـاءَهُمْ أَوْ أَبْنَـاءَهُمْ أَوْ إِخْـوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُـوبِهِمُ الْأِيمَـانَ وَأَيَّدَهُمْ بِـرُوحٍ مِنْـهُ وَيُـدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِـيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُـوا عَنْـهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}(المجادلة:22)

هذه الآيـة تتحـدث عن هـذا السـير القلـبي.. فـالولاء القلـبي للـه، والرضـى التـام عن اللـه، هـو الـذي يجعـل المـؤمن من حـزب اللـه

المفلحين.

ونتيجة لكون السير الروحي لله هـو الأسـاس في علاقـة المـؤمن باللـه، فاللـه ينفي الإيمـان عمن تمسـك بـالطقوس، ولم تكن تلـك الطقوس نابعة من القلب، اسمع:{ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُـلْ لَمْ تُؤْمِنُـوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْأِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ}(الحجرات: 14)

فالإيمان لا يصح.. ولا يكمل.. والسير إلى الله لا يبدأ إلا إذا انطلـق من القلب.. القلب التي هي روح الإنسان الواعية.

فالقلب ـ لا الجسد ـ هو الذي يؤمن، وهو الذي يكفر، ولذلك يركـز القرآن كثيرا على القلب، فيربط كل سلوك به:

فالكافر إنما يكفر لأنه ختم على قلبه، وطبـع عليـه، فصـار لا يعي الحقـائق الـتي يشـرق بهـا الوجـود:{ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُـوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}(البقرة:7)

والله لا يطبع على قلوب عباده، ولا يختم عليها إلا بعد أن تمـارس من الرذائل ما يعميها عن الحقائق.. فالختم من الله، ولكن المتسـبب هي القلوب نفسـها، كمـا ورد في القـرآن عن بـني إسـرائيل:{ فَبِمَـا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْـرِهِمْ بِآيَـاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَـاءَ بِغَيْـرِ حَـقٍّ وَقَـوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَـعَ اللَّهُ عَلَيْهَـا بِكُفْـرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُـونَ إِلَّا قَلِيلاً}(النسـاء: 155)

وقال عنهم وعن غيرهم:{ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُـوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَـاذَا قَـالَ آنِفـاً أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَـعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ}(محمد:16)

وأخـبر أن أسـاس التحريـف الـذي حصـل للكتب المقدسـة هـو قساوة القلوب.. فلولا قساوة القلـوب مـا جـرأت الأيـدي على تغيـير كلام الله:{ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُـونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلا تَزَالُ تَطَّلِـعُ عَلَى خَائِنَـةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ فَـاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْـفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِـنِينَ}

(المائدة:13)

واسمع الآية الأخرى التي تقسم الإيمان إلى إيمـان قلـبي وإيمـان شـفوي:{ يَـا أَيُّهَـا الرَّسُـولُ لا يَحْزُنْـكَ الَّذِينَ يُسَـارِعُونَ فِي الْكُفْـرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَـادُوا سَـمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِـعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَـهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ}(المائدة:41)

ولهذا فإن القرآن يرجع كـل سـلوك ظـاهري إلى منبعـه البـاطني سواء كان سلوكا طيبا، أو سلوكا خبيثا:

فالقرآن يرجع سر عدم التضرع إلى الله، وعـدم اللجـوء إليـه إلى قساوة القلوب:{ فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُـنَا تَضَـرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَـتْ قُلُـوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}(الأنعام:43)

وهو يرجع كل سـلوك طيب إلى منبعـه القلـبي:{ إِنَّمَـا الْمُؤْمِنُـونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِـرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُـوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُـهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانـاً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}(لأنفال:2).. { وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}(لأنفـال:63).. { الَّذِينَ آمَنُـوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُـوبُهُمْ بِـذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِـذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}(الرعد:28)

انطلاقا من أهميـة البـاطن والقلب في التوجيـه الـروحي للقـرآن نجد القرآن هو المنبع الذي استقى منه علماء السلوك من المسلمين جميع مقامات الدين ومنازله:

فمنزلـة الإرادة الـتي هي نقطـة بدايـة السـالكين نص عليهـا في قوله:{ وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَـهُ مَـا عَلَيْـكَ مِنْ حِسَـابِهِمْ مِنْ شَـيْءٍ وَمَـا مِنْ حِسَـابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَـيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ}(الأنعام:52)، وقوله:{ وَاصْـبِرْ نَفْسَـكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَـدَاةِ وَالْعَشِـيِّ يُرِيـدُونَ وَجْهَـهُ وَلا تَعْـدُ عَيْنَـاكَ

عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً}(الكهف:28)

ومنزلة التوكل التي تـدل على ثقـة المـؤمن في اللـه ثقـة تجعلـه يسلم كل أمرو إليـه، نجـد أصـولها ومبادئهـا وكيفيـة التحقـق بهـا في القرآن.. اسمع لما تبثه هذه الآيات من أصول التوكل:{ وَلَئِنْ سَـأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِـفَاتُ ضُـرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَـةٍ هَـلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْـهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُـونَ) (الزمـر: 38)

إن هذا التوكل هو الذي ملأ نفوس المؤمـنين بالسـعادة والسـكينة في الـوقت الـذي تنخلـع فيـه القلـوب..:{ الَّذِينَ قَـالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَـالُوا حَسْـبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) (آل عمران:173)

لقد أخبر القرآن عن موقف موسى المتوكل على الله عندما صار البحـر أمـامهم، والعـدو خلفهم، فقـال:{ فَلَمَّا تَـرَاءَى الْجَمْعَـانِ قَـالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (61) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَـيَهْدِينِ (62)}(الشعراء)

لقد نصت التوراة على هذه الحادثـة، ولكن البـون شاسـع بين كلا التعبيرين.. التعبير الذي تمتلئ به الروح شفافية، والتعبـير الغـارق في الحس والكثافة.. اسمع لما تقول التـوراة في هـذا، واعـذرني لطـول النص، فهذا هو كتابنا المقدس:(فلما أخبر ملك مصر ان الشـعب قـد هرب تغيّر قلب فرعون وعبيده على الشعب. فقالوا ماذا فعلنـا حـتى اطلقنا اسرائيل من خدمتنا. فشدّ مركبته واخذ قومه معه. واخذ ست مئة مركبة منتخبة وسائر مركبات مصر وجنودا مركبيّـة على جميعهـا. وشدّد الرب قلب فرعون ملك مصر حـتى سـعى وراء بـني اسـرائيل وبنــو اســرائيل خــارجون بيــد رفيعــة. فســعى المصــريون وراءهم وادركوهم. جميع خيل مركبات فرعون وفرسانه وجيشه وهم نـازلون عند البحر عند فم الحيروث امام بعل صفون فلما اقترب فرعون رفع

بنو اسـرائيل عيـونهم واذ المصـريون راحلـون وراءهم. ففزعـوا جـدا وصرخ بنو اسرائيل الى الرب وقالوا لموسـى هـل لانـه ليسـت قبـور في مصر اخذتنا لنموت في البرية. ماذا صنعت بنـا حـتى اخرجتنـا من مصر. أليس هذا هو الكلام الذي كلمناك به في مصر قائلين كـف عنـا فنخدم المصريين. لانه خير لنا ان نخدم المصريين من ان نمــوت في البرية. فقال موسى للشـعب لا تخـافوا. قفـوا وانظـروا خلاص الـرب الذي يصنعه لكم اليـوم. فانـه كمـا رأيتم المصـريين اليـوم لا تعـودون ترونهم ايضا الى الابد. الرب يقاتل عنكم وانتم تصـمتون فقـال الـرب لموسى مالك تصرخ اليّ. قل لبـني اسـرائيل ان يرحلـوا. وارفـع انت عصاك ومدّ يدك على البحر وشقّه. فيـدخل بنـو اسـرائيل في وسـط البحر على اليابسة)(خروج:14/5-16)

والقرآن لا يكتفي بكل هذا، بل يعتبر التوكل عبـادة من العبـادات، فلهذا يأمر به كما يأمر بسـائر العبـادات:{ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَـانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُـونَ) (آل عمـران:122).. {فَـإِذَا عَـزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَـوَكِّلِينَ)(آل عمـران: 159))إِنْ يَنْصُـــرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَـــالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْـــذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْـدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُـونَ) (آل عمـران:160).. {وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُـولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُـونَ فَـأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً) (النساء:81).. { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُـونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِـرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُـوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) (لأنفال:2)

وهكذا في مقام يسميه العلماء مقام الخشية، وهو هيبـة مختلطـة بحب.. نعم.. قومنا يضحكون من هذا، ويسخرون منه.. ولكن لابد من هذا المقام.. فالنفس الغارقة في الأوحال لا بد لها من سـياط تنبههـا، وتعيد إليها توازنها.

قلت: فلم لا نعيد لهـا توازنهـا بالمحبـة؟.. لمـاذا يكـثر القـرآن من الحـديث عن العـذاب المولـد للخشـية.. لمـاذا لم يسـلك في التربيـة والإصلاح مسالك أخرى تطغى فيها اللــذة على الألم، والـترغيب على

الترهيب، والحب على الخوف؟

قال: كلاهما علاج.. ولا ينبغي للعاقل أن يترك دواء من الأدوية لأنه يتناول دواء آخر.

صمت قليلا، ثم قال: ألا ترى الطبيب يحذر مريضه من أنواع كثير من الشهوات، وقد يبين له آثارها الخطيرة على مستقبل قالبه الطيني.

ومثله الشرطي الذي يحذر المدني من كل سلوك لا ينسجم مع القوانين التي كلف برعايتها، ويفتح له أبواب السجون أو ينصب له حبال المشانق إن خالف تلك القوانين.

ومثلهما الأستاذ الذي يحذر طلبته من كل تهاون في مذاكرتهم ويحذرهم من الرسوب وعواقبه عند مخالفته لأوامره.

وهكذا.. كل شخص يمارس كل أساليب الترهيب مع غيره ويمارسها معه غيره، وقد تتحقق بعض المصالح في ذلك وقد تتخلف، وقد يفي هؤلاء بوعيدهم وقد يتخلفون.

وهكذا الأمر إذا تعلق بإخبارات الله ووعيده، فالله كما نرجوا وعده نخاف وعيده، وكما نطلب رحمته نفر من عذابه.

والخطأ الذي يقع فيه من لم يجمع بين هاتين المعرفتين هو أنه رسم صورة خاطئة في ذهنه عن ربه، بل هو يراه من زاوية أهوائه ومصالحه لا من الزاوية الحقيقية التي تدل عليها كل الدلائل.

قلت: ولكن المسيحية تركز على المحبة.

قال: هذه المعرفة المتكاملة هي الطريق للمحبة، لأن المحبة المبنية على بعض المعرفة محبة ناقصة، قد يؤثر فيها ما ينكشف لصاحبها من جهله المركب بربه.

والدلائل تدل على إمكانية وجود العذاب في الكون، فالآلام نراها

من حولنـا، ونعيشـها في أنفسـنا، ونـذوقها بين الحين والآخـر بصـور مختلفة محتملة، وهي تنبيه لما هو أكبر منها، لنعبر إلى مـا لانـراه بمـا نراه.

وكما أن لنعيم الجنة بعض المظاهر الدنيويـة الدالـة عليـه، والـتي تقرب صورته للذهن، وتملأ القلب بالرجاء لـه والشـوق إليـه، فكـذلك لعذاب الله مظاهره الدنيويـة الدالـة عليـه، والـتي تملأ القلب مخافـة منه، وحذرا من أسبابه.

ولهذا لا حجة لمن ينكـر العـذاب الـذي تطفح الـدلائل على إثباتـه، ولهذا أخبر القرآن أن المكذبين بعذاب اللـه، أو المنكـرين لكـون اللـه قــادرا على تعــذيبهم، والمعللين ذلــك بعلــل مختلفــة هي من وحي الشياطين لا من وحي رب العالمين، بأنهم يوم القيامة يكتشفون هذه الحقيقـة بعـد أن يفـوت الأوان اسـمع مـا يقـول القـرآن:﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيــلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَـذِّبُونَ) (السـجدة:20)...﴾ فَـالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَلا ضَرّاً وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ) (سـبأ:42)

فلذلك..فإن الأفكار الإرجائية التي توضع في غير محلهـا هي وحي من الشياطين، وإن ألبسها بعضهم لباس المعرفة، وقد أشـار القـرآن إلى هذا الوحي الشيطاني عند ذكره لخطبة الشيطان في أهل جهنم، فقـال:﴿ وَقَـالَ الشَّـيْطَانُ لَمَّا قُضِـيَ الْأَمْـرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَـدَكُمْ وَعْـدَ الْحَـقِّ وَوَعَـدْتُكُمْ فَـأَخْلَفْتُكُمْ وَمَـا كَـانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُـلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَـوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَـا أَنَـا بِمُصْـرِخِكُمْ وَمَـا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْـرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْـلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَـذَابٌ أَلِيمٌ) (ابراهيم:22)

وأخبر القرآن عن بعض نماذج الإضلال الشـيطاني بهـذه الـدعاوى وأمثالها، فذكر مثالا عن إضلال أهل العلم الذين لم يقدروه حق قدره، فقال:﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَـلَخَ مِنْهَـا فَأَتْبَعَـهُ الشَّـيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ

فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَـوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَـصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) (لأعـراف:175 ـ 176)

وذكـر مثـالا عن الـذين آتـاهم اللـه النعيم بأجمـل مظـاهره، فلم يقـدروه حـتى فقـدوه، فقـال ﷻ عن قـوم سـبأ:﴿ وَلَقَـدْ صَـدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) (سـبأ:20)

وذكر مثالا عن الذين أوتو القوة، ولم يحموها بالتواضع لله:﴾ وَعَاداً وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّـبِيلِ وَكَـانُوا مُسْتَبْصِـرِينَ) (العنكبـوت:38)، فالآيـة تخـبر أن الشيطان أغواهم مع أنهم كانوا ذوي بصيرة ونظر.

ولهذا فإن القـرآن يـذكر عن أهـل اللـه الـذين هم النمـوذج الـذي يحتذى به في أي سلوك، وهم المثل السامي الذي تتطلع إليه الأرواح الطاهرة، فيصفهم بقوله:﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الـدُّنْيَا حَسَـنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) (البقرة:201)، وهذا الـدعاء يـبين حقيقة تصور المؤمن للحياة مقارنة مع دعاء الغافلين الجاهلين الـذين أخـبر اللـه ﷻ عنـه بـأنهم يقتصـرون في دعـائهم على حاضـرهم المشهود:﴾ فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَـهُ فِي الْآخِـرَةِ مِنْ خَلاقٍ)(البقرة: 200)

عندما أقرأ هذه الآية أتـذكر صـلاتنا عنـدما نقـول:(أبانـا الـذى فى السماوات ليتقـدس اسـمك، ليـأت ملكوتـك، لتكن مشـيئتك كمـا فى السماء كذلك على الأرض. خبزنا كفافنا أعطنا اليوم. واغفر لنا ذنوبنـا كما نغفر نحن أيضا للمذنبين إلينا. ولا تدخلنا فى تجربـة،لكن نجنـا من الشرير. لأن لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد. آمين)

قلت: هذه الصلاة ينبغي أن نفخـر بهـا لا أن نتـألم لهـا.. حـتى أننـا نقول فيها:(خبزنا كفافنـا أعطنـا اليـوم)، فـالمؤمن يعتمـد على اللـه حتى فى حاجاته الضرورية. وهذه الطلبة تمثل طلبنا لكافـة الحاجـات الخاصة بالجسد.

ثم لاحـظ أننـا لا نطلب شـيئا للترفيـه والتنعم، بـل نطلب الحاجـة الضرورية فقط (خبزنا كفافنا). كما أننا لا نطلب لكى نكنز، بل لاحتياج اليوم فحسب.

ابتسـم وقـال: قـارن هـذه الصـلاة بسـورة الفاتحـة الـتي يقرؤهـا المؤمنون في كل صلاة، وبالمعاني السامية التي تحملها مقارنة بهـذه الصلاة، وسترى ما رأيت من العجائب.

قلت: والمحبة؟

قال: القرآن هو كتاب المحبة.. ليس هناك كتاب في العـالم يحبب الله إلى عباده مثل القرآن..

ولذلك لم تقم أمة في الأرض على أساس محبة اللـه كمـا قـامت أمة محمد..

لقد بنى محمد كل بنائه على المحبة.. حتى عبر القرآن عن علاقة المؤمنين باللـه، فقـال:{ يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا مَنْ يَرْتَـدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِـهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَـوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَـهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُـؤْمِنِينَ أَعِـزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْـلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِـعٌ عَلِيمٌ) (المائـدة:54)، وقـال:{ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُـوا أَشَـدُّ حُبّـاً لِلَّهِ)(البقرة: 165)

المحبة هي المعراج الذي يعرج به المـؤمن من خلال القـرآن إلى الله.. فلـذلك لا ينبغي أن نفخـر على المسـلمين بمحبتنـا للـه، فليس هناك من يحب الله صادقا في محبته غير المسلمين، لأنه ليس هنـاك كتاب يلقن متبعيه محبة الله الحقيقية مثل القرآن.

عبودية الجسد:

قلت: ولكني أرى المسلمين يمارسون من الطقوس ما نمارس.. إنهم يغرقون في عبودية الظاهر، وفي الاشتغال بالرسوم.

قال: صدقت.. وقد تأملت في هذه الظـواهر السـلوكية، وحـاولت أن أبحث في علاقتها بالباطن الذي يعبد الله به، فوجدت تلازمـا كبـيرا بين السلوك الظاهر والترقي الباطن.

لقد تصور بولس أن السلوك الظاهر حجاب عن السلوك البــاطن فوقع في الزندقة.. نعم أنا مسيحي.. وأقول ذلك.

ذلك أن الله يعبـد بالظـاهر ويعبـد بالبـاطن، ولا يمكن للبـاطن أن يصـلح إلا بأسـلحة الظـاهر، ولهـذا نص القـرآن على الاسـتعانة على التحقق بالإيمان الباطني بالسلوط الظاهري، فهو يقـول:{ وَاسْـتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ}(البقرة:45)، ويقول:{ يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا اسْـتَعِينُوا بِالصَّـبْرِ وَالصَّـلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَـعَ الصَّـابِرِينَ} (البقرة:153)

والقرآن يضع لتحقيق ذلك من العبـادات الظـاهرة مـا يملأ النفس بالمعاني الباطنة:

وأولها الصلاة، فالصلاة تشـكل ركنـا أساسـيا من أركـان الإسـلام، وهي لذلك يكثر الأمر بها في القرآن.. ويكثر الأمر بها بصـيغة الإقامــة المعــبرة عن الأداء الحقيقي الكامــل، والقــرآن يخــبر أن مثــل هــذه الصلاة سوف توفر لصاحبها الاستقامة على منهج الله:{ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْـكَ مِنَ الْكِتَـابِ وَأَقِمِ الصَّـلاةَ إِنَّ الصَّـلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَـاءِ وَالْمُنْكَـرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ}(العنكبوت:45)

والقرآن يأمر بالصلاة الخاشعة الـتي يجتمـع فيهـا الجسـد والقلب على التوجـه للــه، ففي القــرآن في صــفة المفلحين:{ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ}(المؤمنون:2).. بل هو يخبر أنه لا ينتفـع بالصـلاة إلا الخاشعون الذين تخف عليهم حركاتهم لإدراكهم لرموزها:{ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ}(البقرة:45)

ســكت قليلا، ثم قــال: لقــد تــأملت في جميــع حركــات الصــلاة وأقوالها، فوجدتها كلها تنهض لترسيخ معاني العبودية لله.. كـل حركـة منها سلم يرتقي فيه القلب إلى الله..

لقد ذهبت أبحث في كتابنا المقدس عن الصـلاة الـتي نؤديهـا الآن في كنائسـنا، فلم أجـد لهـا وجـودا.. بـل وجـدت أن الصـلاة الـتي في الكتاب المقدس تشبه كثيرا الصلاة التي يصليها المسلمون:

لقد ورد في أعمـال الرسـل(20/36):(ولمـا قـال هـذا جثـا على ركبتيه مع جميعهم وصلّى)، وفيها (9/40):(فـأخرج بطـرس الجميـع خارجا وجثا على ركبتيه وصلّى ثم التفت الى الجسـد وقـال يـا طابيثـا قومي. ففتحت عينيها. ولما ابصرت بطرس جلست)

وفي (2صموائيل: 1/ـ 12):(وندبوا وبكوا وصـاموا الى المسـاء على شاول وعلى يوناثان ابنه وعلى شعب الرب وعلى بيت اسرائيل لأنهم سقطوا بالسيف)

وفي (تكوين:22:5:ـ 5):(فقال ابراهيم لغلاميه اجلسا انتما ههنـا مع الحمار.وأما انا والغلام فنذهب الى هناك ونسجد ثم نرجع اليكما)

وفي (1ملوك 18/ـ 39):(فلما رأى جميع الشعب ذلـك سـقطوا على وجوههم وقالوا الرب هو الله الرب هو الله)

وفي (2أخبـار:20/ـ 18):(فخـرّ يهوشـافاط لوجهـه على الارض وكل يهوذا وسكان اورشليم سقطوا امام الرب سجودا للرب)

وفي (تكوين: 33/ 3: وأما هو فاجتاز قدامهم وسجد الى الارض سبع مرات حتى اقترب الى اخيه)

وفي (2ملوك: 4/ـ 37):(فاتت وسـقطت على رجليـه وسـجدت الى الارض ثم حملت ابنها وخرجت)

وفي (تكوين: 18/ 2):(فرفع عينيه ونظر وإذا ثلاثة رجال واقفون لديه.فلما نظر ركض لاستقبالهم من باب الخيمة وسجد الى الارض)

وفي (متى: 18/ـ 26):(فخر العبد وسجد له قائلا يـا سـيد تمهـل عليّ فاوفيك الجميع)، وفيه (20/ـ 20):(حينئذ تقـدمت اليـه ام ابـني زبدي مع ابنيها وسجدت وطلبت منه شيئا)

وفي (لوقا 4/ـ 8):(فأجابه يسوع وقال اذهب يا شيطان انه مكتوب للرب الهك تسجد واياه وحده تعبد)، وفيه (24/ـ 52): (فسجدوا له ورجعوا الى اورشليم بفرح عظيم)

وفي (يوحنا4:/ـ 21):(قال لها يسوع يا امرأة صدقيني انه تأتي ساعة لا في هذا الجبل ولا في اورشليم تسجدون للآب. (22) انتم تسجدون لما لستم تعلمون.اما نحن فنسجد لما نعلم.لان الخلاص هو من اليهود. (23)ولكن تأتي ساعة وهي الآن حين الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق.لان الآب طالب مثل هؤلاء الساجدين له)

هذه هي الصلاة كما بقيت أصولها في الكتاب المقدس، ولكنا لا نجد لها في واقعنا أي أثر.. لأنا اقتفينا آثار المضللين المبتدعين.

الروحانية الاجتماعية:

سكت قليلا، ثم قال: في القرآن اكتشفت نوعا جميلا من الروحانية لم أجده في كتابنا المقدس.

قلت: ما هو؟

قال: يمكنك أن تسميها (الروحانية الاجتماعية)

قلت: لم أسمع بهذا المصطلح من قبل.

قال: لأنا تعودنا على أن العلاقات الاجتماعية ترتبط بروابط مادية، أو روابط ألفة طبعية شكلية.. ولكن القرآن يؤسس لروابط روحية.. تبدأ من محبة الله لتنطلق إلى محبة خلقه.

في سورة الفاتحة التي هي صلاة المؤمنين تتجلى هذه الروحانية في أعمق صورها، فالمؤمن فيها لا يكتفي بالدعاء لنفسه، بل هو يدعو للمؤمنين الذين يرتبط بهم في عالم الروح:{ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6)}(الفاتحة)

وهو يفسر الصراط المستقيم بأنه صراط المنعم عليهم:{ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْـرِ الْمَغْضُـوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّـالِّينَ) (الفاتحـة:7)، وكـأن المـؤمن بـذلك يطلب من اللـه أن يلحقـه بأولئـك الـذين أنعم عليهم.

لقـد نص القـرآن على ذلـك، فقـال:{ وَمَنْ يُطِـعِ اللَّهَ وَالرَّسُـولَ فَأُولَئِكَ مَـــعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّـــدِّيقِينَ وَالشُّـــهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً) (النساء:69)

حتى أن الله يخـبر أن روح المـؤمن إذا قبضـت تـدخل في عبـاده الصـالحين.. اسـمع:{ يَـا أَيَّتُهَـا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِـيَةً مَرْضِـيَّةً (28) فَـادْخُلِي فِي عِبَـادِي (29) وَادْخُلِي جَنَّتِي (30) (الفجر)

وفي الجنــة يلتقي الإخــوان المؤمنــون بعضــهم ببعض.. اســمع:{ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ} (الحجـر: 47)

قلت: لم أفهم سر هذا النوع من الروحانية وما آثاره.

قال: القرآن يؤسس لتوحد اجتماعي في عبادة الله وفي معرفته.

قلت: ما تقصد؟

قال: أن يصـبح هم المجتمـع جميعـا التعـرف على اللـه ومحبتـه.. ولذلك يكون اللقاء بينهم على هذا الأساس.. وتصير الألفـة بينهم على هذا الأساس.

قلت: سألتك عن ثمرة هذا.

قال: عندما تصل القلوب إلى هذه الحالة يتأسس بنيان اجتمــاعي وروحي عظيم.. لن تبقى هناك طبقية اجتماعية.. لأن الكل متوجه لله بالعبودية..

لقد أمر اللـه محمـدا وكـل الأمـة أن لا تميـل إلى الـدنيا، وتنسـى صحبة أولئك الطيبين الذين لا يريدون إلا وجه الله:{ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَـهُ وَلا تَعْـدُ عَيْنَـاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً) (الكهف:28)

ابتسمت، فقال: تلك الآيات تشير إلى العلاقة الروحية الـتي ينبغي أن تكون بين المؤمنين.

قلت: فهل أسس القـرآن لهـذه الروحانيـة الاجتماعيـة.. أم اكتفى بالإشادة بها؟

قال: بل وضع أسسها التشريعية والأخلاقية.. وأنا مـا جلسـت هـذا المجلس اليوم إلا لأبحث عن التفاصيل المرتبطة بها.

قلت: فما وجدت؟

قال: القرآن الكريم جميعا إذا قرئ من هذه الزاويـة كـان أساسـا لهذه الروحانية الاجتماعية.. ابتداء من أول آياته.. وانتهـاء بآخرهـا.. إن أرواح المؤمـنين تمـتزج فيـه لا يحـول بينهـا أي حائـل.. لا الزمـان، ولا المكان.

فالمؤمن يشعر بوحدة روحية عميقة مع المؤمنين في كل الأزمنة وفي كل الأماكن.

فهو مع إبراهيم الخليـل، ومـع موسـى الكليم، ومـع المسـيح روح الله وكلمته.

ومع آدم أبي البشر، ومع صالح.. ومع هود..

وهو مع كل النبيين والصديقين يعيش نماذجهم وروحانيتهم ويذوب فيها.

لقد عبر سيد قطب.. وهو ممن أوتي فهما في القـرآن.. عن هـذا

المعنى، فقال في مقدمة ظلاله:(والمؤمن ذو نسب عريق، ضارب في شعاب الزمان. إنه واحد من ذلك الموكب الكريم، الذي يقود خطاه ذلك الرهط الكريم:نوح وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق، ويعقوب ويوسف، وموسى وعيسى، ومحمد.. عليهم الصلاة والسلام { إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ) (الانبياء:92)

هذا الموكب الكريم، الممتد في شعاب الزمان من قديم، يواجه - كما يتجلى في ظلال القرآن - مواقف متشابهة، وأزمات متشابهة، وتجارب متشابهة على تطاول العصور وكر الدهور، وتغير المكان، وتعدد الأقوام. يواجه الضلال والعمى والطغيان والهوى، والاضطهاد والبغي، والتهديد والتشريد. ولكنه يمضي في طريقه ثابت الخطو، مطمئن الضمير، واثقا من نصر الله، متعلقا بالرجاء فيه، متوقعا في كل لحظة وعد الله الصادق الأكيد:)وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (13) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (14)(إبراهيم).. موقف واحد وتجربة واحدة. وتهديد واحد. ويقين واحد. ووعد واحد للموكب الكريم.. وعاقبة واحدة ينتظرها المؤمنون في نهاية المطاف. وهم يتلقون الاضطهاد والتهديد والوعيد)

ولهذا يمزج القرآن بين الروحانية المتوجهة لله، والروحانية التي تربط بين المؤمنين في علاقاتهم الاجتماعية، في مواضع كثيرة من القرآن.. اسمع هذه الآية الجامعة لأوصاف كل من صحب محمدا على امتداد الأزمنة:{ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْأِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً) (الفتح:29)

***

قرأ هذه الآيات بخشوع.. ثم قال: أتسمح لي ـ أخي المحترم ـ أن أكمل جلستي مع القرآن.. فقد ملكت علي هذه الآيات قلبي وعقلي.. ولا أراني أستطيع أن أفيدك غير ما أفدت.. فإني لا أزال في أول طريقي في البحث عن شمس محمد.

قال ذلك، ثم انصرف إلى مصحفه يقرأ فيه، وعينيه تغرورقان بدموع لا يكاد يستطيع حبسها.

تركته.. وفي عيني قلبي ما في عيني رأسه..

عندما عدت آخر المساء إلى البيت، مددت يدي إلى محفظتي، فامتدت إلى الورقة التي سلمها لي صاحبك، فعدت أقرأ فيها..

لقد أيقنت حينها أن هذا السور السادس من أسوار الكلمات المقدسة لم يتحقق به أي كتاب في الدنيا غير القرآن الكريم.

سابعا ـ الشمول

في اليوم السـابع.. خـرجت ظهـرا بعـد أن أنهيت أشـغال يـومي، لأزور بعض المراكز العلمية الموجودة بالإسكندرية، فقد كـان لي منـذ صـباي اهتمـام بجميـع العلـوم الـتي أبـدعتها الإنسـانية في مختلـف أطوارها.. بل كان لي شـغف لأن يكـون لي عقـل موسـوعي يشـمل جميع تلك العلوم ويحيط بها.. لهذا كنت أكره التخصـص وأمقتـه، لأنـه يحول بين عقلي وبين رحاب واسعة من المعارف يشتاق إليهـا عقلي اشتياقا.

وصلت إلى هذا المركز.. وقد كان ـ على حسب مـا يبـدو ــ يضـم في تلك الأيام نشاطا علميا محترما..

كانت هناك إعلانات كثيرة معلقة عن المحاضرات التي يضمها هذا النشاط، وعن الأساتذة الذين سيلقونها، اقـتربت من أحـدها، وقـرأت لائحة المواضيع والمحاضرين، فوجدتها كلها تـدور حـول القـرآن، ومـا يحتويه من المعارف والعلوم.

لقـد كـانت أول مـرة أرى فيهـا كتابـا مقدسـا يبحث فيـه بهـذه الطريقة.. لقد رأيت عناوين غريبة وشـاملة وموسـوعية تتناسـب مـع احتياجاتي العقلية والنفسية والاجتماعية.

ففي اللائحة محاضرات عن العلوم النفسية والعلـوم الاجتماعيـة.. بل والعلوم الطبية والجغرافية والفلكية والجيولوجية.. كل تلك العلوم وعلاقتها بـالقرآن.. والإشـارات القرآنيـة أو التصـريحات القرآنيـة لمـا يرتبط بها من حقائق.

لم أفاجأ بتلك العناوين فحسـب، وإنمـا فـوجئت بـأن المحاضـرين الذي يتناولون هـذه المواضـيع بالدراسـة والبحث أسـاتذة لهم قيمتهم في البحث العلمي.. لقد كـانوا كلهم خـبراء في اختصاصـاتهم.. ويبعـد أن يتكلم الخبير فيما لا يعلم.

لكني مع ذلـك.. ولسـت أدري لم.. لم أكن أتصـور أن يكـون كـل ذلك صادقا، بل ولا بعضه صادقا.. فكيف لكتاب جاء من تلـك القـرون الطويلة، من بيئة بدوية، ومن رجل أمي أن تكون له هذه الموسـوعية والشمولية.

بينمـا أنـا أسـير تلـك الخـواطر إذ أمسـك بي رجـل، ظن أني لم أعـرف قاعـة المحاضـرات، وقـال: تعـال معي لأدلـك على قاعـة المحاضرات.. أنا سائر الآن إليها.. في هذا المسـاء محاضـرة ممتـازة عن أسباب سقوط الحضارات من خلال القرآن الكريم.

لم أدر إلا وأنا أسير معه، ولكني ـ خشية أن يتعامل معي كمسـلم ـ قلت لـه: أنـا مسـيحي.. فهـل يـأذنون للمسـيحيين بـدخول هـذه المحاضرات؟

ابتسم، وقال: ومن تظنني!؟.. أنا مسيحي مثلك.. بل فوق ذلـك.. ستستمع إلى محاضر مسيحي.. ولكنه مسيحي منصف..

قلت: كيف ينصر مسيحي دين غيره؟

قال: هـو لا ينصـر.. ودين محمـد لا يحتـاج من ينصـره.. لقـد جـاء لتقديم هذه المحاضرة بعد أن اقنع اقتناعا تاما بـالعلاج القـرآني لهـذه الظاهرة.. ظاهرة سقوط الحضارات.. بل فـوق ذلـك كلـه، فـإن هـذا الرجل لإخلاصه لم يتقاض ما يقدم لغـيره من الأسـاتذة من مكافـآت على محاضـراته.. بـل فـوق ذلـك كلـه طلب أن يوضـع نصـيبه من المكافأة في خدمة البحوث المرتبطة بالقرآن.

قلت: ما الذي دعاه إلى كل هذا الزهد؟

قال: أنا أعرف هذا الرجل.. بل تشـرفت بالتلمـذة عليـه في يـوم من الأيـام.. فهـو مـع مسـيحيته المتجـذرة ــ إلا أنـه يفتخـر بانتمائـه للحضـارة الإسـلامية.. هـو يعتبرهـا الحضـارة الإنسـانية الوحيـدة على الأرض.. وهو لذلك ينتقد الحضارة الغربيـة انتقـادا شـديدا.. بـل يراهـا أعظم الحظارات خطرا على المسيحية.

قلت: لقد شوقتني لسماع هذا المحاضر..

قال: هيا ندخل.. لقد وصلنا إلى قاعة المحاضرات..

دخلنا.. وما لبثنا حتى صعد المحاضر إلى المنصـة.. وقـد كـان أول ما بدأه أن قرأ بصوت جميل قولـه تعـالى:{ وَإِذَا أَرَدْنَـا أَنْ نُهْلِـكَ قَرْيَـةً أَمَرْنَـا مُتْرَفِيهَـا فَفَسَـقُوا فِيهَـا فَحَـقَّ عَلَيْهَـا الْقَـوْلُ فَـدَمَّرْنَاهَا تَـدْمِيراً} (الاسراء:16)

فرحت فرحا شديدا لابتدائه بهذه الآية.. لقد كانت هذه الآية سـهما من السهام التي يسلطها قومي على المسلمين.. فقد كانوا يفهمــون منها بـأن اللـه إذا أراد هلاك قريـة بعث رسـالة إلى مترفيهـا، أو بعث فيهم نبيـــا يطلب منهم أن يفســـقوا فيهـــا ليـــنزل عليهم العـــذاب، فيدمرهم.

لكن الرجل بدأ يذكر من الأسرار المرتبطة بهذه الآية ما نفى عنها كل شبهة.. بل ما جعل منها فوق ذلك تضـم قواعـد مهمـة تـدل على أسباب سقوط الحضارات المعبر عنها في القرآن بالقرى.

واسمح لي أن أذكر لك بعض ما ذكره في تلك المحاضرة.

لقد بدأ بذكر ما ورد في كلمة (الأمر) من أقوال، وهي ثلاثة:

الأول: أنه من الأمر، وفي الكلام إضـمار، تقـديره: أمرنـا مترفيهـا بالطاعة، ففسقوا، ومثله في الكلام: أمرتـك فعصـيتني، فقـد علم أن المعصية مخالفة الأمر.

والثـاني: كثَّرنـا يقـال: أمـرت الشـيء وآمرتـه، أي: كثَّرتـه، ومنـه قولهم: مهرة مأمورة، أي: كثيرة النتاج، يقال: أَمِـرَ بنـو فلان يـأمرون أمراً: إذا كثروا.

والثالث: أنَّ معنى أَمرنا أمّرنا، يقال: أَمرت الرجل، بمعنى، أمّرته، والمعنى: سلّطنا مترفيها بالإمارة.

ثم أخذ في تطبيقها على الآية.. وعلى المجتمعات:

فاســتنتج من المعــنى الأول أن الــترف يــؤدي لا محالــة إلى الفسوق.. ذلك أن للترف من التسلط على أتباعه مـا يمنـع من رؤيـة الحق أو الإذعان له، وذلك لأن المـترف لا يـرى من الحيـاة إل جانبهـا الجسدي، ولا يرى من جانبها الجسدي إلا ما يملأ عليه شهواته الـتي لا تنتهي، فهو في شغل عن عبادة الله أو الاستماع لأوليائه، ولـذلك جـاء في القرآن:{ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِـهِ الَّذِينَ كَفَـرُوا وَكَـذَّبُوا بِلِقَـاءِ الْآخِـرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُـلُ مِمَّا تَـأْكُلُونَ مِنْـهُ وَيَشْــرَبُ مِمَّا تَشْــرَبُونَ﴾ (المؤمنــون:33).. ففي قوله:{ يَأْكُــلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْـرَبُ مِمَّا تَشْـرَبُونَ } دليـل على أهم لم يكونـوا يـرون من نبيهم إلا الطعام الذي يأكله، والشـراب الـذي يشـربه.. بـل كـانوا يتصورون أن معجزة النبي ينبغي أن تكـون طعامـا فارهـا، وأن كتابـه المقدس ينبغي أن يكون كتاب طبخ يدلهم على أجمل الوصفات التي ترضي شهواتهم.. فلذلك تجد خشوعهم أمام من يصف لهم المطاعم والمشارب أعظم من خشوعهم أمام من يؤدبهم بآداب الله، ويهديهم إلى سبيله.

واستنتج من المعنى الثاني أن الترف يشبه الفيروس الـذي ينشـر العـدوى بين النـاس، فلا يكتفي بالأغنيـاء يسـتل مـا في خـزائنهم من ثروات، بل يلجأ إلى الفقراء يستل ما في جيوبهم منها.. ولهـذا مـا إن يقدم غني من الأغنياء على عرف من الأعراف يستحدثه حـتى يسـرع الفقـراء إلى كتب أولادهم ودفـارتهم يبيعونهـا ليشـتروا بـدلها الـترف الذي ابتدعه الغني.. وهو ما يتسبب بعد ذلك في انحرافـات اجتماعيـة كثيرة تؤدي لا محالة إلى انهيار القرى والحضارات.

واسـتنتج من المعـنى الثـالث أن انتشـار فكـر الـترف بين العامـة والذي دل عليه المعنى الثاني يعميهم عن الصالحين، فلا يرون صـالحا للحكم غير المترفين، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى عن الطريقة التي تربع بها فرعـون على العـرش:{ فَاسْـتَخَفَّ قَوْمَـهُ فَأَطَـاعُوهُ إِنَّهُمْ كَـانُوا قَوْمـاً فَاسِـقِينَ} (الزخـرف:54).. فقـد ربـط تعـالى بين اسـتخفافه

وفسقهم، فلولا فسقهم، ما استخف بهم.

انتهى المحاضر من محاضـرته بعـد أن ملأهـا بالشـواهد التاريخيـة الكثيرة التي تؤكد ما ورد في القرآن.. ثم طبق ما تقـع فيـه الحضـارة الغربية على ما ورد في القرآن من حضارات مختلفة ليبين أن مصـير هذه الحضارة لا يختلف عن مصير تلك الحضارات.

لقد كانت محاضرة اسـتفدت منهـا كثـيرا.. ورأيت امتلاء الكثـيرين من الحاضرين بالبشر لشعورهم بما تضمنته المحاضرة من معلومات منطقية مدعمة.

بعد انتهائه من المحاضرة، وانصرافه، حثثت الخطى حتى وصــلت إليه، وانتحيت بـه جانبـا بمعـزل عن المحيطين بـه، وعرفتـه بنفسـي، ففـرح بي كثـيرا، فقلت لـه: أنـا أدعـوك الآن لتحاضـر لنـا في بعض مؤسســاتنا عن نفس الموضــوع.. ولكن بحســب نظــرة الكتــاب المقدس، لا بحسب القرآن.

اكفهـر وجهـه، وقـال: أعتـذر إليـك يـا أخي.. أنـا بـاحث علمي.. والباحث لا يتكلم إلا بمـا يهديـه إليـه بحثـه، فـإن شـئت أن أقـدم لكم محاضرة بحسب ما يهديني إليه بحثي فعلت.

قلت: ونحن لا نطلب إلا ذلك.

قال: ولكنها لا ترضيكم.

قلت: كيف لا ترضينا.. نحن نحب الحقائق ونبحث عنها.

قال: أرأيت نتيجة هذه المحاضرة؟

قلت: أجل.. لقـد كـانت نتيجتهـا طيبـة.. وذلـك مـا رغبـني في أن تتناول هذا الموضوع، فإن لطريقة بحثك تأثيرا عظيما في النفوس.

قـال: لا.. أنت تنسـب الأمـور لغـير أهلهـا.. القـرآن هـو صـاحب الحقائق.. أمـا أنـا، فلم يكن لي من دور إلا كشـفها وتبيينهـا والبرهنـة

عليها.

قلت: فافعل ذلك مع الكتاب المقدس..

قال: أتراني ـ وأنا مسيحي ـ لو وجدت في كتـابي مـا يهـديني إلى هذا وغيره أكون مقصرا..

لقد بحثت هذه النقطة بالذات في الكتاب المقدس قبل أن أبحث عنها في القرآن.. لقد كـان الموضـوع الأصـلي الـذي أعددتـه هـو في استنباط سقوط الحضارات من خلال الكتاب المقدس.. لكني لم أجد مـا يرويـني.. بـل وجـدت مـا يثنيـني، فعـدت إلى القـرآن لا لأظهـر محاسنه، بل بنية أن أجد فيه مـا وجـدت في كتابنـا المقـدس.. لكـني بهـرت بمـا رأيت فيـه من حقـائق مدعمـة بكـل الأدلـة.. وقـد دعـاني الإنصاف لأذكر ما ذكرت.

قلت: لقد ورد في الكتاب المقـدس ذم الـترف.. وذم المـترفين.. وتبـيين مـا وقـع لبـني إسـرائيل من السـقوط بسـبب فسـوقهم وعصيانهم.. ألم يكن ذلك كافيا؟

قال: لقد رأيت ما يناقضه.. الكتاب المقـدس كتب بأيـدي مختلفـة متناقضة.. فلا تتكلم عن شيء إلا وجـدت من يـرد عليـك من الكتـاب المقدس نفسه.. وأنا لست مستعدا لأن أدافع عن شيء يحمل دلائـل إدانته.

سـكت قليلا، وقـال: بالنسـبة لمـا ذكـرت.. جمعت الكثـير من النصوص الدالة على ذلك وحللتها.. لكني سرعان مـا وجـدت الكتـاب المقـدس يناقضـها مناقضـة تامـة.. فهـو يصـف داود وسـليمان بكـل الرذائل.. ثم بعد ذلك يكرمهما كل التكريم.

وهو يصف لوطـا بـالنبي المصـلح، ثم ينثـني ليتهمـه بالزنـا بابنتيـه وبشرب الخمر..

هو هكذا في كل الأمور لا يملأك سرورا حتي ينثني ليملأك حزنا.

فكيف تريد مني أن أتكلم عن موضوع كل الناس يعرفــون تكلفي في الكلام عنه..

أنا شخص أحـترم تخصصـي ومـوقفي، وأعتـبر أن الكلمـة أمانـة، فلـذلك لا أتكلم إلا بمـا يهـديني إليـه بحـثي.. فـاعطني كتابـا مقدسـا منقحا.. وسأتكلم لك عما تريد.

قال ذلك، ثم انصرف ليتركني في حيرتي، وببعض نور محمد..

***

سرت بتلك الحيرة، ومعها ذلـك النـور مطـأطئ الـرأس خجلا من نفسي.. بينما أنا كذلك إذ ناداني رجل كـان مسـتلقيا على عشـب في ساحة ذلك المركز، وقال: أرى في عينيك الهمـوم.. مـا بالـك؟.. أأنت حـزين؟.. إن كنت كـذلك، فسـأعطيك دواء يرفـع عنـك كـل الهمـوم، ويمسح عن قلبك كل الغموم.

قلت: أفي الدنيا علاج مثل هذا؟

قـال: نعم.. وقـد عـولج بـه ملايين النـاس، فشـفاهم، بـل ملأهم بسعادة يحسدهم عليها الملوك.

قلت: ما هذا الدواء العجيب الذي لم أتشرف بمعرفته؟

أخرج من جيبه مصحفا، وقال: هـذا هـو الـدواء.. هـذا هـو القـرآن الكريم.. هذا هو ربيع القلوب.. وربيع العقول.. وربيع الأرواح.

قلت: أنا مسيحي.. ولي كتابي الذي هو ربيع قلبي.

ابتسم وقال: هل أنت صادق في ذلـك؟.. وأين تجـد ربيـع قلبـك.. أفي الأنساب، أم في الأوصاف، أم في الحكايات، أم في الآثام؟

قلت: لا يحق لك أن تتهجم على كتابي المقدس.

قال: الكتاب المقدس كتاب الجميـع.. وليس كتابـك وحـدك.. وأنـا

مسيحي مثلك، ولكني أرغمت على قول هذا.

قلت: من أرغمك.. أخبرني عن هـؤلاء المجـرمين الـذي يكرهـون الناس على الاستهزاء بأديانهم.

قال: ليس المجرمون هم الذين أكرهوني.. الكتـاب المقـدس هـو الذي أكرهني.. لقد كنت أقرؤه.. ولكني لا ألبث أن أمل من قراءتــه.. فلما جربت القرآن وجدته يتحدث معي وعني وعن كل شيء.. وجدته يعطيني الإجابات الشافية التي ترضي عقلي وقلبي وروحي ونفسي.. لم أجد فيه أي شيء يتناقض مع حقيقتي أو حقيقة الكـون، بـل فـوق ذلك وجدته يشبه الكون.. هو شامل كشمول الكون، واسع كسعته.

في القرآن الكريم كل حقـائق الوجـود، وكـل من تعلم من مدرسـة القرآن الكريم لم يشعر تلك المشاعر المحيرة التي تنتـاب من دخـل كـل الجامعات ونسي أن يدخل جامعة القرآن الكـريم، لقـد ذكـر القـرآن هـذه الناحية المهمة فيه، بل صرح بهذه الحقيقة الـتي هي أم الحقـائقن فقـال: { وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ }(النحل: 89)

بل أخبر أن القرآن أنزل بعلم الله الشـامل، فقـال:{ لَكِنِ اللَّهُ يَشْـهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً }(النسـاء: 166)، وقـال:{ قُـلْ أَنْزَلَـهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّـرَّ فِي السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً}(الفرقان:6)

بل أخبر أن أول من يعرف القرآن وحقـائق القـرآن هم أهـل العلم، اسمع:{ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُـوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْـزِلَ إِلَيْـكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ}(سـبأ:6)

قلت: لقد قرأت القرآن.. فلم أجد فيه ما تقول.

قال: لقد ذكر الغزالي هذا.. لا شك أنك تعرفه.. ذلك القديس المسلم الذي سبح في بحار القرآن ليستنبط منها اللآلئ..

لقد ذكر سر ما وقعت فيه، فقال.. وكأنه يخاطبك، ويخاطب أمثالك:(إني أنبهك على رقدتك أيها المسترسل في تلاوتك، المتخذ دراسة القرآن عملا، المتلقف من معانيه ظواهر وجملا.. إلى كم تطوف على ساحل البحر مغمضا عينيك عن غرائبها، أوما كان لك أن تركب متن لجتها لتبصر عجائبها، وتسافر إلى جزائرها لاجتناء أطايبها، وتغوص في عمقها، فتستغني بنيل جواهرها.. أوما تعير نفسك في الحرمان عن دررها وجواهرها بإدمان النظر إلى سواحلها وظواهرها، أوما بلغك أن القرآن هو البحر المحيط، ومنه يتشعب علم الأولين والآخرين، كما يتشعب عن سواحل البحر المحيط أنهارها وجداولها.. أوما تغبط أقواما خاضوا في غمرة أمواجها، فظفروا بالكبريت الأحمر، وغاصوا في أعماقها فاستخرجوا الياقوت الأحمر والدر الأزهر والزبرجد الأخضر، وساحوا في سواحلها، فالتقطوا العنبر الأشهب، والعود الرطب الأنضر، وتعلقوا الى جزائرها واستدروا من حيواناتها الترياق الأكبر والمسك الأذفر)[1]

قلت: أنا أعرف الغزالي وأحترمه وكثير من قومي يحترمونه، ولكنه يعبر عن وجهة نظره الشخصية.. وربما تطغى الذاتية على صاحبها، فتحول بينه وبين الحقائق.

قال: فما الذي جعلك تعتبر كلامه صادرا من ذاته.. لا من الحقيقة التي عاش من أجلها.

قلت: أرى أن هذا الكتاب مهما حوى من التفاصيل إلا أنه أقصر من أن يضم جميع الحقائق التي تروي الحاجات البشرية.. إن الحاجات البشرية كمحيط واسع لا تكفيه جميع بحار الدنيا.. فكيف يكفيه كتاب يضم كلمات محدودة وصفحات معدودة؟

(1) جواهر القرآن للغزالي.

قال: لقد تحدث الإمـام بـديع الزمـان عن هـذا.. لا شـك أنـك تعرفه.. لقد أرسل رسـالة إلى بابـا الفاتيكـان في حياتـه.. وأنتم لا تكنون له إلا الاحترام.

قلت: أجل.. أعرفه.. لا شك في صدقه.. فما قال؟

قال: لقد رد على ما وقع في نفسك من تلك الشبهة بقولـه:(نعم! انك اذا نظرت الى الآيات الكريمة من خلال وضـعك الحاضـر الـذي اسـتنار بنـور القـرآن منـذ ذلـك العصـر حـتى غـدا معروفـاً، واضاءته سائر العلوم الاسلامية، حتى وضحت بشمس القـرآن. أي اذا نظرت الى الآيات من خلال ستار الأُلفة، فانك بلا شـك لا تـرى رؤية حقيقية مدى الجمال المعجـز في كـل آيـة، وكيـف انهـا تبـدد الظلمات الدامسة بنورهـا الوهـاج. ومن بعـد ذلـك لا تتـذوق وجـه اعجاز القرآن من بين وجوهه الكثيرة)

وكعادته في استعمال الأمثال، فقد ذكر المثال المقرب لهـذه الحقيقة، فقال:(واذا أردت مشاهدة اعظم درجـة لأعجـاز القـرآن الكثيرة، فاستمع الى هذا المثال وتأمل فيه: لنفرض شجرة عجيبة في منتهى العلو والغرابة وفي غاية الانتشـار والسـعة؛ قـد اُسـدل عليها غطاء الغيب، فاستترت طي طبقات الغيب.

فمن المعلوم أن هناك توازناً وتناسباً وعلاقاتِ ارتباط بين اغصـان الشجرة وثمراتهـا واوراقهـا وازاهيرهـا - كمـا هـو موجـود بين اعضـاء جسم الانسان - فكل جزء من أجزائها يأخذ شكلاً معيناً وصورة معينـة حسب ماهية تلك الشجرة.

فاذا قـام احـدٌ - من قِبـل تلـك الشـجرة الـتي لم تُشـاهَد قـط ولا تُشـاهد - ورسـم على شاشـةٍ صـورةً لكـل عضـو من اعضـاء تلـك الشجرة، وحـدّ لـه، بـأن وضـع خطوطـاً تمثـل العلاقـات بين اغصـانها وثمراتها واوراقها، وملأ ما بين مبدئها ومنتهاها - البعيدين عن بعضـهما بما لايحد - بصورٍ وخطوط تمثل اشكال اعضائها تمامـاً وتـبرز صـورها كاملة.. فلا يبقى ادنى شك في أن ذلك الرسام يشاهد تلـك الشـجرة

الغيبية بنظره المطلع على الغيب ويحيط به علماً، ومن بعد ذلك يصوّرها.

قلت: ما علاقة هذا المثال بالقرآن؟.. أو كيف طبق هذا المثال على القرآن؟

قال: لقد ذكر بديع الزمان ذلك، فقال:(فالقرآن المبين - كهذا المثال - ايضاً فان بياناته المعجزة التي تخص حقيقة الموجودات (تلك الحقيقة التي تعود الى شجرة الخلق الممتدة من بدء الدنيا الى نهاية الآخرة والمنتشرة من الفرش الى العرش ومن الذرات الى الشموس) قد حافظت - تلك البيانات الفرقانية - على الموازنة والتناسب واعطت لكل عضو من الاعضاء ولكل ثمرة من الثمرات صورة تليق بها بحيث خَلُص العلماء المحققون - لدى إجراء تحقيقاتهم وابحاثهم - إلى الانبهار والإنشداه قائلين: ما شاء الله.. بارك الله. ان الذي يحل طلسم الكون ويكشف معمّى الخلق إنما هو أنت وحدك ايها القرآن الحكيم!

سكت قليلا، ثم قال: لا شك أنك تريد مثالا على ذلك.

قلت: أجل.. فبالمثال يتضح المقال.

قال: أنت ترى علوما كثيرة وحقائق كثيرة تمتلئ بها الكتب أوالمصنفات على امتداد التاريخ وامتداد الوجود.. أليس كذلك؟

قلت: لا شك في ذلك.. فما علاقة القرآن بهذا؟

قال: القرآن يربط بين جميع الحقائق التي قد نتوهم الصراع بينها.. لقد ذكر النورسي هذا.. لقد قال في مثال الشجرة:(فنرى أن القرآن الكريم يبين تلك الحقيقة النورانية بجميع فروعها وأغصانها وبجميع غاياتها وثمراتها بياناً في منتهى التوافق والانسجام بحيث لا تعيق حقيقةٌ حقيقةً اخرى ولا يفسد حكمُ حقيقةٍ حُكْماً لأُخرى، ولا تستوحش حقيقة من غيرها. وعلى هذه الصورة المتجانسة المتناسقة بيّنَ القرآن الكريم حقائق الاسماء الإلهية والصفات الجليلة

والشؤون الربانية والافعال الحكيمة بياناً معجزاً بحيث جعل جميع أهل الكشف والحقيقة وجميع اولي المعرفة والحكمة الذين يجولون في عالم الملكوت، يصّدقونه قائلين امام جمال بيانه المعجز والاعجابُ يغمرهم:(سبحان الله! ما اصوبَ هذا! وما اكثر انسجامه وتوافقه وتطابقه مع الحقيقة وما اجمله وأليقه)

قلت: لقد قرأت اهتمام المسلمين بما ورد في القرآن من الحقائق، بل إنهم يذكرون أنه ما من رطب ولا يابس إلا وفي القرآن نبأه .. أفلست ترى في ذلك تكلفا؟

قلت: لا.. لا أراه التكلف.. لقد ذكر النورسي هذا.. وأجاب عنه.. اسمع ما قال ذلك الرجل الرباني:(نعم! في القرآن كل شئ. ولكن لا يستطيع كل واحد أن يرى فيه كلَّ شئ. لأن صور الاشياء تبدو في درجات متفاوتة في القرآن الكريم، فأحياناً توجد بذور الشئ أو نواه، واحياناً مجمل الشئ أو خلاصته، واحياناً دساتيره، واحياناً توجد عليه علامات. ويرد كل من هذه الدرجات؛ اما صراحة أو اشارة أو رمزاً أو ابهاماً أو تنبيهاً. فيعبّر القرآن الكريم عن اغراضه ضمن أساليب بلاغته، وحسب الحاجة، وبمقتضى المقام والمناسبة)

كان لهذه الأحاديث لذة في نفسي لا تعدلها لذة.. وكان لصدق محدثي وإخلاصه ما رغبني في الجلوس إليه والاستماع منه.

اتكأت على عشب الساحة كما اتكأ رافعا عن نفسي كل كلفة، وقلت: لقد بدأت حديثك عن علاج الكآبة.. فهل في القرآن رقية السرور؟

أمسك المصحف بيده، وقال: ليس هناك رقية تمسح الآلام كهذا الكتاب.. إن شئت سمه (كتاب السعادة الأبدية) إنه لا يحل بواد مقفرا إلا ملأه ريا، ولا بضرع جاف إلا ملأه لبنا، ولا بسواد إلا ملأه بياضا.. إنه كتاب الابتسامة العذبة المشرقة.

قلت: لا يهمني اللبن ولا البياض.. بل تهمني الابتسامة.. أحيانا تمتلئ نفسي بكآبة مخيفة.. أشعر أن باطني أدغال تقيم فيها الغيلان

والعفاريت.. فهل في القرآن ما يقيـني شـر هـذه الغيلان، وأذى هـذه العفاريت؟ وهل في الخلق من قتل غيلان نفسه بحروف القرآن؟

قال: إن النماذج الرفيعة التي عاشـت بـالقرآن، وتنعمت بـالقرآن وقتلت أحزانها ويأسها وآلامها بالقرآن لا حصر لهـا، وهي منتشـرة في كل مكان، وفي كل زمان، وهي من الكـثرة مـا يجعـل قـدرة القـرآن على هذا حقيقة علمية تبز جميع الحقائق من جميع الوجوه.

ولكني سأذكر لك عينة وهبها الله من قوة التعبير مـا اسـتطاع أن يعـبر بـه عن قـوة القـرآن العجيبـة في استئصـال الكآبـة وغـرس الابتسامة.

وهي لم تعش في القصور، ولم تنعم بما ينعم به أكثر أهـل الـدنيا من صنوف الرخاء، بل لم يكن لها مما يملكه أكثر أهل الدنيا من أمن واستقرار.

فقد عاش حيـاة تحوطهـا المحن وصـنوف البلاء مـا لا تقـوى على تحمله الجبال الرواسي.

ولم يكن لها في هذا الجو الكئيب زوج مؤنس، ولا ولد مشفق، بل حرم في أكثر الأحيان من الصديق والأنيس.

وكـانت مـع كـل هـذا معرضـة للمـوت في كـل لحظـة، فحبـال المشانق معدة لها، كما تعد للصوص والمجرمين.

ولكن مـع ذلـك تطفح من كلامهـا من صـنوف البشـر وأمـارات السعادة ما لا يصدر من المترفين المنعمين الآمنين.

قلت: رغبتني فيها، فمن هي؟

قال: إنه بديع الزمان النورسي الذي تعـرض لصـنوف البلاء، لكنـه خرج منها جميعا بنور القرآن، وسأذكر لك هنـا نموذجـا لبعض الأدويـة القرآنية التي خرج بها من أحزانه، ومن وقائع الألم التي مر بها، لـترى من خلالها قوة القرآن في إحلال السكينة في النفوس المستعدة.

يقول بديع الزمان:(ذات يوم من الايام الأخيرة للخريـف، صـعدت الى قمـّة قلعة انقرة، التي اصابها الكـبر والبلى اكـثر مـني، فتمثـلـّت تلك القلعة امامي كأنهـا حـوادث تأريــخية متحجـرة، واعـتراني حـزن شـديد واسـى عميـق من شـيب السـنة في موسـم الــخريف، ومن شيبي انا، ومن هرم القلعة، ومن هرم البشرية ومن شيخوخة الدولـة العثمانية العلية، ومن وفاة سلطنة الـخلافة، ومن شيخوخة الدنيا)

فهذه الآلام الكثيرة التي قد نبصر مثلها، وقد لا نبصره، ولكنـه مـع ذلك يعشش في قلوبنا ويملؤنا أسفا وحزنا، دعـا بـديع الزمـان للبحث عن ترياق يعالج به هذه الكآبـة، قـال:(فاضـطرتني تلـك الــحالة الى النظر من ذروة تلك القلعة الـمرتفعة الى اوديـة الــماضي وشـواهق الــمستقبل، أنقب عن نـور، وابــحث عن رجـاء وعـزاء ينـير مـا كنت أحسّ به من اكثف الظلمات الـتي غشـيت روحي هنـاك وهي غارقـة في ليل هذا الهرم الـمتداخل الـمحيط)

وهذا العزاء الذي بحث عنـه بـديع الزمـان يبحث عنـه كـل إنسـان شعر أو لم يشعر، ولكن يختلفـون فقـط في الجهـة الـتي يولـون لهـا وجوههم للبحث عن هـذا العـزاء، وكـانت الجهـة الأولى الـتي قصـدها بديع الزمان هي الجهـة الـتي يـولي لهـا أكـثر النـاس وجـوههم، وهي الجهة البعيدة عن الحقائق القرآنية، وهي بجهاتها الست لا تزيد القلب إلا غما وهما، قال بديع الزمان:(فـحينما نظرت الى اليـمين الذي هــو الـماضي باحثاً عن نور ورجاء، بدت لي تلك الـجهة من بعيد على هيئة مقبرة كبرى لأبي واجدادي والنوع الانسـاني، فأوحشـتني بـدلاً من ان تسلـّيني)

أما اليسار الذي هو الـمستقبل:(فـتراءى لي على صـورة مقـبرة كبرى مظلمة لي ولأمثالي وللجيـل القابـل، فأدهشـني عوضـا من ان يؤنسني)

أما الأمام وهو الزمن الـحاضر (فبدا ذلك اليوم لنظـري الــحسير ونظـرتي التأريــخية على شـكل نعش لــجنازة جسـمي الــمضطرب كالـمذبوح بين الـموت والـحياة)

أما القمة التي تمثل قمة شجرة العمر (فرأيت ان على تلك الشجرة ثمرة واحدة فقط، وهي تنظر اليّ، تلك هي جنازتي)

أما الأسفل الذي يمثل جذور شجرة العمر (فرأيت ان التراب الذي هناك ما هو الاّ رميم عظامي، وتراب مبدأ خلقتي قد اختلطا معاً وامتزجا، وهما يُداسان تحت الاقدام، فأضافا الى دائي داء من دون ان يمنحاني دواءً)

أما الخلف الذي يمثل عمر الدنيا (فرأيت ان هذه الدنيا الفانية الزائلة تتدحرج في اودية العبث وتنحدر في ظلمات العدم، فسكبتْ هذه النظرة السمَّ على جروحي بدلاً من ان تواسيها بالمرهم والعلاج الشافي)

فهذه الجهات الست، والتي نتصورأنها تمثل الحقائق المطلقة، والتي نعزي أنفسنا بأنه لا محيد عنها، ولا مخرج منها، ثم نهرب منها لأي شيء نجعل ننساها يتكفل العلاج القرآني بمداواتها، قال النورسي يحكي عن تجربته الإيمانية مع القرآن:(وفيما كنت مضطرباً وسط الجهات الست تتولى عليّ منها صنوف الوحشة والدهشة واليأس والظلمة، اذ بأنوار الإيمان المتألقة في وجه القرآن المعجز البيان، تمدني وتضيء تلك الجهات الست وتنورها بانوار باهرة ساطعة ما لو تضاعف ما انتابني من صنوف الوحشة وانواع الظلمات مائة مرة، لكانت تلك الانوار كافية ووافية لإحاطتها)

وقد كان أثر أنوار القرآن الكريم عظيما:(فبدّلت - تلك الانوار - السلسلة الطويلة من الوحشة الى سلوان ورجاء، وحولّت كل المخاوف الى انس القلب، وامل الروح الواحدة تلو الاخرى)

فالقرآن الذي هو قبس الإيمان (مزق تلك الصورة الرهيبة للماضي وهي كالمقبرة الكبرى، وحوّلها الى مجلس منوّر أنوس والى ملتقى الاحباب، وأظهر ذلك بعين اليقين وحق اليقين)

أما المستقبل الذي كان يمثل قبرا واسعا كبيرا، فإنه استحال بالنظرة القرآنية (مجلس ضيافة رحمانية أعدّت في قصور السعادة

الـخالدة)

أما تابوت الـزمن الحاضـر، فقـد صـوره القـرآن الكـريم (متجـرا أخرويا، ودار ضيافة رائعة للرحـمن)

أما الثمرة الوحيدة التي هي فوق شـجرة العمر على شـكل نعش وجنازة، فإنها بـالقرآن لم تبـق كـذلك، (وانــما هي انطلاق لـروحي - التي هي أهل للـحياة الابدية ومرشـحة للسـعادة الابديـة - من وكرهـا القديـم إلى حيث آفاق النـجوم للسياحة والارتياد)

حتى تلك الصور المريعة التي كانت الغفلـة تصـور بهـا (عظـامي ورميمها وتراب بداية خلقتي) لم تبق (عظامـاً حقـيرة فانيـة تـداس تـحت الاقدام، وإنما ذلك التراب باب للرحـمة، وستار لسرادق الـجنة)

أمـا أحـوال الـدنيا واوضـاعها الــمنهارة في ظلمـات العـدم الـتي نبصرها بنظر الغفلة، فإنها لم تبق كذلك بنور القرآن الكريم (بل انهـا نوع من رسائل ربانية ومكاتيب صمدانية، وصحائف نقـوش للاســماء السبحانية قد أتّمت مهامها، وأفادت معانيها، واخلفت عنها نتائجها في الوجود، فأعلمني الإيـمان بذلك ماهية الدنيا علم اليقين)

أما القبر، فلم يبق قبرا، بل هو بنظر القرآن الكريم (بـاب لعالــم النور) ومثله ذلك الطريق الـمؤدي الى الابـد، فـإن لم يبـق (طريقـاً مـمتداً ومنتهياً بالظلمات والعدم، بل انه سبيل سوي الى عالـم النور، وعالـم الوجود وعالـم السعادة الـخالدة)

وهكذا بددت النظرة القرآنيـة كـل الأوهـام الـتي سـربتها الغفلـة، وأصـبح مـا كـان يتصـور داء عين الـدواء، يقـول النورسـي:(وهكـذا اصبحت هذه الاحوال دواء لدائي، ومرهماً له، حيث قـد بـدت واضـحة جلية فأقنعتني قناعة تامة)

قلت: وهل عاش هذا الرجل سعيدا؟

قال: أجل.. بل أعظم سـعيد.. مـع أنـه أمضـى أكـثر حياتـه منفيـا مسجونا يدس له السم كل مرة.. وفوق ذلك يبعد عنه كل قريب.. بل يحرم كل أسباب الحياة.

***

قرأ جميع هذا الكلام.. وسكت.. وغابت عيناه في الأفق البعيد.. ثم راح يقول بينه وبين نفسه: لماذا لم يظهـر في قومنـا من يـذكر مثـل هذا؟

ثم راح يرسل ضحكات غريبـة، وهـو يقـول: يـا تـرى مـاذا عسـاه سـيقول هـذا المسـكين الـذي كتب لـه أن يعيش في ظـل تناقضـات الكتاب المقدس.

سـكت قليلا، ثم قـال: إن الكتـاب المقـدس يبحث عمن يرفـع تناقضه وقصوره.. فكيف يكون إجابـة اللـه الشـافية لحاجيـات عبـاده التي لا تنتهي؟

احتبسـت دمـوع في عيـوني منعتـني من الكلام.. بقيت واجمـا لحظة، ثم انصرفت.. وأنا مملوء حيرة..

عندما عدت آخر المساء إلى الـبيت، مـددت يـدي إلى محفظـتي، فامتدت إلى الورقة التي سلمها لي صاحبك، فعدت أقرأ فيها..

لقـد أيقنت حينهـا أن هـذا السـور السـابع من أسـوار الكلمـات المقدسة لم يتحقق به أي كتاب في الدنيا غير القرآن الكريم.

ثامنا ـ الأدب

في اليوم الثامن.. خرجت إلى المطبعة الـتي يطبـع فيهـا الكتـاب المقـدس، وقـد كنت أود من خلال زيـارتي هـذه التعـرف على حـال العمال الذين كلفـوا بهـذه المهمـة الخطـيرة.. مهمـة إخـراج الكتـاب المقدس للناس.

كـانت المطبعـة في غايـة النظافـة والتنظيم، وكـان الهـدوء يملأ أركانها، فلا تسـمع فيهـا إلا صـوت الآلات، وهي تـؤدي وظائفهـا بغايـة الإتقان والجودة.

اقـتربت من بعض العمـال، وقلت لـه: مبـارك لكم هـذا العمـل العظيم.. لقد انتدبكم الله لنشر الكتاب المقـدس.. أنتم الآن تقومـون بنفس الدور الذي قام به الأنبياء.

نظر إلي بعين حزينة، وقال: شكرا.. سيدي..

انصرفت لأتحدث مع عامل آخر، فاستوقفني، وقال: هل تـأذن لي ـ سيدي ـ في أن أقول لك شيئا؟

قلت: أنا طوع أمرك.. مـا الـذي تريـده.. لا تسـتح.. إن كنت تريـد مالا، فسنعطيك ما يسد حاجتك؟

قال: لا.. أنتم تعطونني فوق حاجتي.. ولكـني أريـد شـيئا آخـر.. لا أجرؤ على قوله.

قلت: لا حـرج عليـك.. فلن تـرى مـني إلا الرحمـة.. ألسـنا أتبـاع المسيح؟

قال: بلى.. وأبارك لك هذا الخلق الرفيع.. ولكن الكلام الذي أريــد أن أقوله لك له علاقة بالكتاب المقدس.

خشيت أن يكون قد فطن لما قـام بـه أخي من حـذف للأقـواس، وخشيت أن ينكر ذلـك علينـا، وقـد ينشـر ذلـك الإنكـار، فنفتضـح بـه،

فقلت: لقد جعـل اللـه الكتـاب المقـدس منـارة تهتـدي بهـا الأجيـال، فلذلك قد يعرض للأجيـال في أطوارهـا المختلفـة مـا يسـتدعي بعض التصرفات.. هي ليست تحديثات، ولكنها توضيحات.

إلتفت إليه، فرأيته واجما، وكأنه لم يع ما قلت، فقلت: ألست ترى القوانين تغير كل حين، أو تبعث معها مذكرات تفسيرية تـبين معانيهـا المرادة حتى لا يتيه الناس في الجدل حولها.

قال: فـأنت تـرى حاجـة الكتـاب المقـدس الدائمـة للرعايـة، ولـو ببعض التحويرات البسيطة التي لا تؤثر على معانيه السامية؟

قلت: أجل.. ذلك صحيح.. وذلك ما جئت أنا وأخي لأجله.

رأيت وجهه، وقد انطلق بابتسامة عريضـة، مسـحت ذلـك الحـزن الذي كان يملأ وجهه، وقال: لقـد أزحت عن كـاهلي ثقلا عظيمـا كـان ينوء به.. وكان يمنعني من التصريح بما أريد أن أصارحك به.

قلت ـ وأنا لا أزال أتصور أنه يتحدث عما فعلـه أخي ــ: إن الحـوار يقرب المفاهيم كثيرا.. فلذلك لو لجأ الخلق إليـه، لكفـوا عن أنفسـهم كثيرا من أعباء الحروب التي تقتل السلام بينهم.

قال: صدقت.. وقد فتحت لي الباب على مصـراعيه لأحـدثك عمـا ظللت طول عمري أفكر فيه.

تعجبت من قوله هذا، وقلت: طـول عمـرك!؟.. إن مـا فعلـه أخي لم يكن إلا هذا الأسبوع.. فكيف ظللت تفكر فيه طول عمرك؟

قال: وماذا فعل أخوك؟.. لم أسمع بهذا.

قلت: دعنا منه.. وحدثني عما تريد أن تصارحني به أنت.

قال: أخبرك أولا بأني مسيحي.. بل مسيحي متـدين.. ولهـذا، فأنـا أحرص الناس على هذا الكتاب.. على هذه الـثروة الإلهيـة العظيمـة.. ولكني مع ذلك أشعر أن هذه الثروة تبتذل من بعض السـفهاء، أو هم

يسيئون فهمها، فلذلك رأيت أن نحذف من الكتاب المقدس ما يــؤدي إلى هذا.. ألم تخبرني بأن الكتاب المقـدس قـد وضـع بين أيـدي أهـل الله ليتصرفوا فيه وفق ما يتطلبه واقعهم.

لم أدر كيــف أجيبــه، ولكــني تعمــدت أن أواصــل الحــديث معــه، لأعرف تفاصيل ما الذي يريد حذفه، قلت: أنا معك فيمـا تقـول.. فمـا الكلمات التي تريد حذفها؟

قال: ليست كلمات فقط.. بل فقرات كثيرة.. بل أسفارا، لا أراهـا تختلف عن أي كتاب من تلـك الكتب المنحرفـة الـتي تنشـر الرذيلـة، وتسد أبواب الفضيلة.

قلت: ما تقول يا رجل!؟

قال: ما ذكرت لك.. فمع أني مسيحي.. بـل مسـيحي متـدين.. إلا أني لا أضع في بيتي نسخة واحدة من الكتاب المقدس.

قلت: لم؟

قــال: خشــية على أولادي المــراهقين من أن تــؤثر فيهم تلــك العبارات الخطيرة التي تفوح بروائح الرذيلة.

انتحيت بـه جانبـا خشـية أن يسـمعنا أحـد، وقلت: تعـال معي إلى مكتبي، وسنتحدث بتفصيل عن خطة الحذف التي تريدها.

سر لما قلت له، وحمل معه نسخة من الكتـاب المقـدس، وقـال: شكرا على هذا الكرم العظيم الذي قابلتني به..

ثم أشار إلى نسخة الكتاب المقدس التي كان يحملها، وقال: لقــد وضعت في هذه النسخة نماذج لأكـثر مـا نحتـاج إلى حذفـه أو تعديلـه من الكتاب المقدس.

سرنا إلى مكتبي، وأخذنا مجالسنا فيــه، وقلت لــه: تكلم الآن كمـا تشاء.. وأخبرني عما تريد حذفه.

قاطعني، وقال: أو تعديله.. ليس بالضرورة نحذف..

قلت: إن اضطررنا فلنحذف..

قال: لو فعلنا ذلك فإن الكتاب المقـدس سيصـغر حجمـه كثـيرا.. ولذلك أرى أن نستبدل الحذف بالتعديل.

قلت: لا بأس.. ما الذي تريد تعديله؟

الأدب المكشوف:

فتح الكتاب المقدس، وقال: فلنبدأ بسفر نشيد الإنشاد..

قلت: اقرأ علي النص.

قال: يبدأ الإصحاح الأول من هـذا السـفر بقولـه:(ليقبلـني بقبلات فمه، لأن حبك أطيب من الخمر، لرائحة أدهانك الطيبـة، اسـمك دهن مهراق، لذلك أحبتك العذارى. اجذبني وراءك فنجري، أدخلـني الملـك إلى حجاله، نتبهج ونفرح بك، نذكر حبـك أكـثر من الخمـر.. مـا أجمـل خديك بسموط، وعنقك بقلائد، نصنع لك سلاسل من ذهب مع جمــان من فضة.. حبيبي لي، بين ثديي يبيت..) (نشيد 1/1 - 15)

وبهذا الأسلوب الفاضح تستمر بقية إصحاحات السـفر، بـل تصـل أحيانا إلى قمة السوء حين تنزع كل أثواب الحياء.. اسمع:(في الليــل على فراشي طلبت من تحبه نفسي، طلبته فما وجدته.. حتى وجدت من تحبه نفسي فأمسكته، ولم أرخه حتى أدخلتــه بيت أمي، وحجــرة من حبلت بي.. قد خلعت ثـوبي فكيـف ألبســه.. حبيـبي مـد يـده من الكوة، فأَنَّت عليه أحشائي..)(نشيد 3/1 - 5)

واسمع إلى هذا الأدب المكشوف الصريح في هذه الفقـرات:(مـا أجمل رجليكِ بالنعلين يا بنت الكريم. دوائر فخذيك مثل الحلي، صنعة يدي صـناع. سـرتك كـأس مـدورة لا يعوزهـا شـراب ممـزوج. بطنـك صبرة حنطة مسيجة بالسوسن. ثدياك كخشفتين توأمي ظبية. عنقك كبرج من عـاج.عينـاك كـالبرك.. مـا أجملـك ومـا أحلاك أيتهـا الحبيبـة

باللذّات. قامتك هذه شبيهة بالنخلة، وثـدياك بالعناقيـد..وتكـون ثـدياك كعناقيد الكرم ورائحة أنفـك كالتفـاح، وحنكـك كـأجود الخمـر لحبيـبي السائغة المرقرقـة السـائحة على شـفاه النـائمين، أنـا لحبيـبي، وإليّ اشتياقه. تعال يا حبيبي لنخرج إلى الحقل ولنبت في القـرى. لنبكـرنّ إلى الكروم لننظر هل أزهر الكرم هل تفتح القعال؟ هل نور الرمـان. هنالك أعطيك حبي.. ليتك كـأخ لي، الراضـع ثـديي أمي، فأجـدك في الخـارج وأقبلـك، ولا يخزونـني. وأقـودك وأدخـل بـك بيت أمي، وهي تعلمني، فأسـقيك من الخمـر الممزوجـة من سـلاف رمـاني، شـماله تحت رأسي، ويمينه تعانقني) (نشيد 1/7-13)

حاولت أن أجد مخرجا لما أوقعني فيه، فقلت: أولا .. هـذا السـفر يمكن أن يفهم فهما سليما، وسيبعد عنه ذلك الفهم السيئ الذي يبدو في ظاهر عباراته.

قال: فما هو هذا الفهم الذي يزيل عنا هذا الوهم؟

قلت: أولا.. يمكن أن يقبل ظاهره على أساس أنـه يصـف الحيـاة الزوجية بما فيها من متع جنسية.. ولا خطأ في الجنس الـذي هـو في إطار الزواج.

قال: فلنمنعه إذن عن غير المتزوجين.. إنهم يتضررون بـه كثـيرا.. أو فلنكتب على هذا السفر عبـارة تحـذير حـتى لا يقـدم على قراءتـه المراهقون.

قلت: أو فلننشر بدل ذلك المعاني الرمزية الجميلـة الـتي يفهمهـا القديسون من هذا السفر؟

قال: وما تلك المعاني الجميلة؟

قلت: لقد اعتبر علماء اللاهوت أسلوب هذا السفر أسـلوبا رمزيـا يعلن عن الحب المتبـادل بين اللـه وكنيسـته، أو بين اللـه والنفس البشرية كعضو فى الكنيسة، وهو لذلك يذكر مناجـاة الكنيسـة للسـيد المسـيح الـذي هـو عريسـها، فتطلب قبلات فم الآب، أى تـدابيره

الخلاصية..

قال: ولكن أسلوب هذا السفر واضح في الدلالة على أن الخطاب من امرأة لعشيقها، والعشيق يـرد.. إن الأسـلوب الخطـابي واضـح لا يمكن أن يفهم منه إلا ظاهره.

قلت: فلنرفع وعينا لنفهم أسـرار الكتـاب المقـدس.. فشخصـيات السفر ـ على حسب فهم القديسين ـ هي العـريس الـذي هـو السـيد المسيح (شيبارد) الذى يخطب الكنيسة عروسا مقدسـة لـه (أف 5: 27)، و يشبه السيد المسيح بالظبى (الغزال)

والعـروس هى الكنيسـة الجامعـة، أو المـؤمن كعضـو حى فيهـا، وتسمى (شولميث)

والعـذارى هم المؤمنـون الـذين لم يبلغـوا بعـد العمـق الـروحى، لكنهم أحرزوا بعض التقدم فى طريق الخلاص.

وبنات أورشليم يمثلن الأمة اليهودية التى كان يليـق بهـا أن تكـرز بالمسيا المخلص.

وأصدقاء العريس هم الملائكة الذين بلغوا الأنسـان الكامـل (أف 4: 13).

والأخت الصغيرة تمثل البشرية المحتاجة من يخدمها ويرعاهـا فى المسيح يسوع.

وبنـاء على هـذا، فـإن الكنيسـة (شـولميث) تطلب من اليسـوع (شـيبارد) أن يُقبلهـا من فمهـا، لأن فمـه أطيب من الخمـر ورائحـة الطيب المنبعثة منه والتي من خلالها أحبه الذي آمنوا به..

والكنيسـة (شـولميث) مـازالت تطلب من يسـوع (شـيبارد) أن تتعلق به من ورائه ويفرون إلى النعيم ويختلوا ببعض لتفـرح الكنيسـة بيسوع، ويتذكروا مع بعضهم حبه للكنيسة.

قال: أنا لا أجادلك في كل هذا، فهذا السفر يحـوي معـاني رمزيـة سامية.. ولكن هل تتصور أن هؤلاء العامة يفهمون هذه المعاني؟.. إن وعيهم لا يعدو ظواهر العبارات، فلذلك يتضررون بسماعها.

ولهذا أقترح أن نبدل هذه العبـارات الفاضـحة بمعانيهـا الرمزيـة.. وبذلك نيسر على الناس فهم الكتاب المقدس من جهـة، ونقي كتابنـا المقدس من أيادي الابتذال من جهة أخرى.

صمت قليلا، ثم قلت: أهذا هو النص الذي تريد حذفه؟

قال: أنا أطالب بتعديله فقط.. فأنا لا أجرؤ على حـذف هـذا النص بالذات.

قلت: هل لديك نصوص أخرى؟

قال: أجل.. وهي للأسف كثيرة.

قلت: فاذكر لي بعضها.

قال: أرى أن نعدل النصـوص الكثـيرة الـتي تصـف المـرأة وصـفا مكشوفا، فتصف ثدييها وحلقات فخذيها، وتـرائب عـذرتها، ومـا خلـف ذلك وما أمامه، وما أعلاه وما أدناه.

قلت: اذكر لي هذه النصوص.

قال: هي كثيرة.. ولا شك أنك تعلمها.. ولكن ــ بنـاء على طلبـك ـ سأذكر لك منها غرام الكتاب المقدس بوصف الثديين.. ولســت أدري لماذا الثديين خاصة!؟

ففي ســفر الأمثــال (5 /ــ 19):(الظبيــة المحبوبــة والوعلــة الزهية.ليروك ثدياها في كل وقت وبمحبتها اسكر دائما)

وفي (نشيد1 /13):(صرة المرّ حبيبي لي.بين ثديي يبيت)

وفيه:(قامتك هذه شبيهة بالنخلة وثدياك بالعناقيد قلت إني اصـعد

إلى النخلة وأمسك بعذوقها.وتكون ثدياك كعناقيد الكرم ورائحة انفـك كالتفاح)(نشيد 7 عدد7-8)

وفيه أيضا:(لنا أخت صغيرة ليس لها ثديان.فماذا نصنع لأختنـا في يوم تخطب) (نشيد8 عدد8)

وفيه:(انـا سـور وثـدياي كـبرجين.حينئـذ كنت في عينيـه كواجـدة سلامة)(نشيد8 عدد10)

وفي (إشعياء32 عدد12):(لاطمات على الثدي من اجل الحقول المشتهاة ومن اجل الكرمة المثمرة)

وفيه:(وترضعين لبن الامم وترضعين ثدي ملوك وتعرفين اني انـا الرب مخلصك ووليك عزيز يعقوب) (إشعياء60 عدد16)

وفيـه:(لكي ترضـعوا وتشـبعوا من ثـدي تعزياتهـا.لكي تعصـروا وتتلذذوا من درة مجدها)(إشعياء66 عدد11)

وفي (أيوب3 عـدد12):(لمـاذا أعـانتني الـركب ولم الثـدي حـتى أرضع)

أما حزقيال.. فأنت تعرف ما فيه.. وفيه من الحديث عن الثديين:(جعلتك ربوة كنبات الحقـل فربـوت وكـبرت وبلغت زينـة الازيـان.نهـد ثدياك ونبت شعرك وقد كنت عريانة وعارية)(حزقيال16 عدد7)

وفيه (وزنتا بمصر.في صباهما زنتا.هنـاك دغـدغت ثـديّهما وهنـاك تزغزغت ترائب عذرتهما)(حزقيال23 عدد3)

وفيه:(وافتقدت رذيلة صباك بزغزغة المصريين ترائبك لأجل ثدي صباك) (حزقيال23 عدد21)

وينقل حزقيال كلام الرب فيقول:(فتشربينها وتمتصينها وتقضمين شقفها وتجتثّين ثدييك لأني تكلمت يقول السـيد الـرب)(حزقيـال23 عدد34)

أما هوشع الذي كان أول ما كلمه الرب أن قال لـه: اذهب واتخـذ لنفسك امرأة زنا.. ثم بعد أن تزوجها قرر أن يفضحها كما في (هوشع 2 عدد2):(حاكموا أمكم حـاكموا لأنهـا ليسـت امـرأتي، وأنـا لسـت رجلها لكي تعزل زناها عن وجهها وفسقها من بين ثدييها)

وفيـه هـذا الـدعاء الغـريب:(أعطهم يـا رب.مـاذا تعطي. أعطهم رحما مسقطا وثديين يبسين) (هوشع9 عدد14)

وفي (يوئيـل 2 عـدد16):(اجمعـوا الشـعب قدسـوا الجماعـة احشدوا الشيوخ اجمعوا الاطفال وراضعي الثدي ليخرج العـريس من مخدعه والعروس من حجلتها)

وغيرها من النصوص الكثيرة التي تتحدث عن الثديين لحاجة وغير حاجة.

قلت: فهل ترى استبدال هذه النصوص بنصوص أخرى؟

قال: نعم.. نرى من الأصـلح أن نسـتبدل النصـوص الفاضـحة بمـا ترمز إليه من رمز حتى نحفظ أولادنا وأنفسنا من آثار هذا الكلام.

أتعلم.. لقد رأيت بعض المسلمين يتهكم من هذه النصوص.. وهـو يجمعها ليرميها في وجوهنا بعد ذلك، ويسبنا بها؟

هل ترضى أن يصبح الكتاب المقدس لعبة بأيدي هؤلاء؟

قلت: فتعلموا كيف تواجهون هؤلاء.. اقرأوا عليهم فضـائح كتـابهم المقدس ليحذروا من الكلام في كتابكم المقدس.

قال: وتحسب أنا لم نفعل.. ولكنا لم نجد في كتابهم مـا يرضـينا.. لقد قرأنا كتابهم المقدس مرات ومرات.. فلم نجـد شـيئا يسـتحق أن يلمزوا بسببه.

لقد بحثت عن الثـدي في كتـابهم المقـدس.. كمـا بحثت عنـه في كتابنا، فلم أجد له أي وجود.. فرحت أبحث عن الرضـاعة.. لعلي أجـد

فيها ما يمكن أن ينهرهم، فوجدت هذا اللفظ في خمسة مواضع.

قلت: فواجههم بها.. نعم خمسة أقل بكثير مما عنـدنا.. ولكن مـع ذلك، فإن حجم كتابنا المقدس أكبر من حجم قرآنهم.

تنفس الصعداء، وقال: بماذا أواجههم ـ يا سيدي ــ ليس في هـذه المواضع الخمسة أي شيء يخدش الحياء، أو يسيء إلى الأدب..

لقد ذكرت الآية الأولى أحكام الرضاعة، ومدتها، وحق المرأة فيها، وواجب الرجل.. وهي أحكام غاية في السمو، جاءت بألفاظ غايـة في الأدب.. اسمع ما تقـول:{ وَالْوَالِـدَاتُ يُرْضِـعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَـوْلَيْنِ كَـامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلا مَوْلُودٌ لَـهُ بِوَلَـدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَـالاً عَنْ تَـرَاضٍ مِنْهُمَـا وَتَشَـاوُرٍ فَلا جُنَـاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ فَلا جُنَـاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَـلَّمْتُمْ مَـا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِـيرٌ}(البقـرة: 233)

وفي سورة النساء وردت عند ذكر المحرمات من النساء معتــبرة المرأة المرضع بمثابة الأم، وابنتها بمثابة الأخت، لقد جاء فيها عند عـد المحرمـات:{ وَأُمَّهَـاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَـعْنَكُمْ وَأَخَـوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَـاعَةِ} (النساء: 23)

وفي سورة الحج ذكر لذهول المرضع عن ابنها نتيجة الأهوال التي تعاينها:{ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ }(الحج: 2)

وفي سورة القصص ذكر لأم موسى:{ وَأَوْحَيْنَـا إِلَى أُمِّ مُوسَـى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَـافِي وَلا تَحْـزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ}(القصص:7)

وفي سورة الطلاق ذكر لوجوب إعطـاء المطلقـة المرضـع أجـرة رضاعها:{أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْـلٍ فَـأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَـعْنَ حَمْلَهُنَّ فَـإِنْ

أَرْضَـعْنَ لَكُمْ فَـآتُوهُنَّ أُجُـورَهُنَّ وَأْتَمِـرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْـرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَـرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى}(الطلاق:6)

ليس في هذه النصوص جميعا ـ حضرة الحـبر ـ أي نص تسـتحيي من قراءته مع أولادك.. بالإضافة إلى أن كل ذلـك وضـع في موضـعه السليم.. فهي أحكام غاية في السمو.. بالإضـافة إلى كـل ذلـك، فهي معان ظـاهرة بألفـاظ ظـاهرة لا تحتـاج إي تفسـيرات تحـل رموزهـا، وتوضح معانيها.

قلت: لقـد ورد في كتـابهم ذكـر ملاعبـة الرجـل لزوجتـه.. أليس كذلك؟

قال: بلى..

قلت: فواجهوهم بتلك النصوص؟

قال: لقد بحثت في هذا أيضا.. لكـني لم أجـد إلا الأدب الصـرف.. والتعبير الجميل.. لقد ذكر القرآن ذلك عند ذكر أحكام الصوم، فقـال: { أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَـاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَـاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَـالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْـطِ الْأَسْـوَدِ مِنَ الْفَجْـرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّـيَامَ إِلَى اللَّيْـلِ وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}(البقرة:187)

قلت: فقـد ذكـرت هـذه الآيـة الـرفث.. والـرفث هـو مقـدمات المباشرة، أو هو المباشرة ذاتها.

قـال: أجـل.. ولكن القـرآن لم يفصـل في ذكـر شـيء من هـذه الملاعبـات، كمـا نـرى الكتـاب المقـدس.. ولـو كـان الأمـر يتعلـق بالزوجين.. لأن هذه من الخصوصـيات الـتي لا تحتـاج تعليمـات إلهيـة تبين كيفيتها.

بالإضافة إلى هذا، فإن القـرآن يرفـع من هـذه المباشـرة ليملأهـا بالمعاني الإنسانية الرفيعة، فيعتبر المرأة لباسا للرجل، والرجل لباس للمرأة.. واللباس لا يوحي إلا بالستر والصيانة والأدب..

لا كما رأينا في الكتاب المقدس من الحديث عن العري..

لقد بحثت في هذا.. بحثت في النصوص التي تتحدث عن العــري، فرأيتها لا تقـل عن النصـوص الـتي تتحـدث عن الأثـداء.. ففي (سـفر حزقيال: 16 / 35):(لِذَلِكَ اسْمَعِي أَيَّتُهَا الزَّانِيَةُ قَضَاءَ الرَّبِّ: مِنْ حَيْثُ أَنَّكِ أَنْفَقْتِ مَالَكِ وَكَشَفْتِ عَنْ عُرْيِـكِ فِي فَوَاحِشِـكِ لِعُشَّـاقِكِ.. هَـا أَنَـا أَحْشِدُ جَمِيعَ عُشَّاقِكِ الَّذِينَ تَلَـذَّذْتِ بِهِمْ، وَجَمِيـعَ محبيـك مَـعَ كُـلِّ الَّذِينَ أَبْغَضْتِهِمْ فَأَجْمَعُهُمْ عَلَيْكِ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ، وَأَكْشِـفُ عورتـك لهم لينظـروا كل عورتك.. وَأُسَلِّمُكِ لأَيْدِيهِمْ فَيَهْدِمُونَ قبتك وَمُرْتَفَعَةَ نُصُبِكِ، وينزعون عنك ثيابك وَيَسْتَوْلُونَ عَلَى جَوَاهِرِ زِينَتِكِ وَيَتْرُكُونَكِ عريانة وعارية)

ومن النصوص التي تجعل الله بكشف العورات ما جاء في سفر (إشعيا: 3: 16):(وَيَقُولُ الرَّبُّ: لأَنَّ بَنَاتِ صِهْيَوْنَ مُتَغَطْرِسَاتٌ، يَمْشِينَ بِأَعْنَاقٍ مُشْـرَئِبَّةٍ مُتَغَـزِّلاَتٍ بِعُيُـونِهِنَّ، مُتَخَطِّرَاتٍ فِي سَـيْرِهِنَّ، مُجَلْجِلاَتٍ بِخَلاَخِيلِ أَقْدَامِهِنَّ. سَيُصِيبُهُنَّ الرَّبُّ بِالصَّلَعِ، وَيُعَرِّي عَوْرَاتِهِنَّ)

بــل إن النصــوص المقدســة لا تكتفي بــذكر العــري المرتبــط بالزانيات، بل تتعداهن، فتذكر عري الأنبياء.. بل تغرم بذكر هذا:

لقد ذكرت عن نوح:(وابتدأ نوح يكون فلاحا وغرس كرما. وشرب من الخمر فسكر وتعرّى داخل خبائه)(تكوين 9: 20)

وذكرت عن داود:(ورجـع داود ليبـارك بيتـه فخـرجت ميكـال بنت شاول لاستقبال داود وقالت: ما كان أكرم ملك اسـرائيل اليـوم حيث تكشّـف اليـوم في أعين إمـاء عبيـده كمـا يتكشّـف احـد السـفهاء) (صموئيل الثاني: 6: 20)

وذكرت عن إشعيا:(في ذلك الوقت تكلم الرب عن يد اشعياء بن آمـوص قـائلا. اذهب وحـلّ المسـح عن حقويـك واخلـع حـذاءك عن

رجليك. ففعل هكذا ومشى معرّى وحافيا.فقال الرب كما مشى عبدي اشعياء معرّى وحافيا ثلاث سنين آية واعجوبة على مصر وعلى كوش)(إشعيا: 20: 3 _ 5)

وذكرت عن شاول:(فخلع هو أيضا ثيابه وتنبأ هو أيضا امام صموئيل وانطرح عريانا ذلك النهار كله وكل الليل)(صموئيل الأول: 19: 24)

وذكرت عن ميخا:(لهذا أنوح وأولول وأمشي حافيا عريانا)(سفر ميخا: 2: 8)

وذكرت عن المسيح:(قام عن العشاء وخلع ثيابه وأخذ منشفة واتزر بها ثم صب ماء في مغسل وابتدأ يغسل أرجل التلاميذ ويمسحها بالمنشفة التي كان متزرا بها) (يوحنا 13: 4-5)

قلت: لقد ذكر القرآن عين العملية الجنسية في قوله:{ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ}(البقرة:223).. وفي قوله:{ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ}(لأعراف:189)

قال: لقد قرأت هاتين الآيتين.. ولكنهما لا تصلحان لمواجهتهم بها.

قلت: لماذا؟.. إنها تتكلم عن هذه العملية بكل صراحة.

قال: ولكنها تتكلم عنها بأدب.. إنها تعلمهم الغاية من العملية، وآدابها، ومثل ذلك ما ورد في اعتزال الحائض، فقد جاء فيها: { وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذىً فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} (البقرة:222)

إن هذه الآية كالتي قبلها تتحدث بأدب رفيع عن آداب العملية

الجنسية حتى لا يجاوز بها حدها المؤذي.. إنها تضع الضوابط التي تقي هذه العملية من كل شذوذ.

قـارن هـذه النصـوص الـتي تمتلئ بـالأدب بمـا ورد في كتابنـا المقدس..

لقـد ورد في سـفر حزقيـال هـذه العبـارة المملـوءة بالبـذاءة: (وعشقت معشوقيهم الذين لحمهـم كلحـم الحمـير ومـنيهم كمـني الخيـل)(حزقيال: 23: 20)

قلت: أجل.. هذه عبارة لا تصلح.. وهي تحتاج إلى تغيير ترجمتها.

قال: أتعلم ـ حضرة الحبر ـ أن هـذه العبـارة هي أصـلح العبـارات المهذبة؟

قلت: كيف ذلك؟.. ألم تذكر لي أنهـا عبـارة لا تصـلح في الكتـاب المقدس؟

قال: هي عبارة مهذبـة مقارنـة بالعبـارة الأصـلية الـتي وردت في الكتاب المقدس المكتوب بالإنجليزية.. والتي منها ترجم إلى العربيـة، فقد وردت هذه العبارة في الأصل الإنجليزي بطبعة New World هكـذا: (ولقد دفع بك شبق العاهرات بائعـات إلي أعضـاء الـذكورة للأجـانب الشبيهة بأعضاء الذكور لدى الحمير التي تنزل منياً كمني الخيول)

شعرت ببعض الغثاء، فلاحظ علي ذلك، فقـال: نحن نشـعر بـذلك جميعا.. فلماذا لا نضـع حـدا لمثـل هـذا الكلام.. إنـه كلام يتنـاقض مـع الـذوق العـام.. تصـور لـو أن رجلا أراد أن يـربي أولاده، ففتح الكتـاب المقدس على هذا الموضع ماذا عساه يقرأ لهم.

سـكت قليلا، ثم قـال: إن السـلطات في كثـير من دول العـالم تحظـر طبـع ونشـر بعض الكتب لـورود الكلام الفـاحش الخـارج عن الـذوق العـام فيهـا، وهـو أقـل فحشـاً من مثـل هـذا الكلام المطبـوع المنشور على صفحات الكتاب المقدس.. فكيف نرضـى إبقـاءه.. بـل

كيف نجعله مواعظ نعظ بها الناس؟

هل ترى أن نسلم الكتاب المقدس لهـؤلاء الـذين ملأت الشـوارع نفوسهم شهوات ونزوات حيوانية ليتخلصوا بالكتاب المقدس من تلك النزوات؟

ألا نخاف على هـؤلاء أن يجعلـوا من الكتـاب المقـدس كتابـا يمـد شهوات بالغرائز الحيوانية الآثمة؟

ســكت قليلا، ثم قــال: لقــد تعجب ول ديــورانت في (قصــة الحضارة)، وحق لـه أن يتعجب، لقـد قـال:(مهمـا يكن من أمـر هـذه الكتابات الغرامية فإن وجودهـا في العهـد القـديم سـر خفي.. ولسـنا ندرى كيـف غفـل أو تغافـل رجـال الـدين عمـا في هـذه الأغـاني من عواطف شهوانية وأجازوا وضعها في الكتاب المقدس)

ولهذا جاء في مقدمة الآباء اليسوعيين:(لا يقـرأ نشـيد الإنشـاد إلا القليل من المؤمنين، لأنه لا يلائمهم كثيراً)

أدب الرذيلة:

قلت: لا بأس.. ما دام الأمر يرتبط بمجموعة ألفاظ تجـرح الحيـاء العام.. فسنفكر في السبيل الذي نعدل بـه كتابنـا المقـدس ليتناسـب مع هذا الذوق.. خاصة، وأن ذوق هذا العصر ذوق ناقـد، لا يسـلم كمـا سلمت سائر العصور.

قال: ليس هذا فقط، حضرة الحبر.

قلت: أهناك شيء آخر؟

قال: ليس الأمر قاصرا على ألفاظ يمكن تبـديلها، بـل هـو أخطـر من ذلك.

قلت: ما تقصد؟

قال: ألم يرد في (تيموثاوس):(كل الكتاب هو موحى به من الله،

ونافع للتعليم والتوبيخ، للتقويم والتأديب الذي في الـبر) (تيموثـاوس (2) 3/16)

قلت: أجل.. صدق بولس فيما قـال، ومـا كـان لـه إلا أن يصـدق.. أليس هو رسول الأمم؟

قال: فهل تحقق هذا في الكتاب المقدس؟

رأى في وجهي بعض التغــير، فقــال: لا أقصــد مــا فهمت.. أنــا مسيحي كما ذكـرت لـك.. ولم يـدفعني إلى التكلم معـك في هـذا إلا حبي للمسيحية، وتعصبي لها، وتعصبي للكتاب المقدس.

إنني مثل والد يحب ولده، ويحرص عليـه، ويحـرص على سـمعته، فلذلك اعذرني إن كان في كلامي أي إساءة.

قلت: لا.. تكلم.. يظهر عليك الصدق.. تكلم كمـا تشـاء، ولن تجـد مني إلا الآذان الصاغية.. بل إني أحاول خدمتك بقدر الإمكان.

قال: لقد امتلأت أسفار الكتاب المقدس ـ بكل أسـف ــ بالحـديث عن رذائل مارسها بنو إسرائيل وغـيرهم، وحكت طـويلاً عن سـكرهم وزناهم ووثنيتهم.

قلت: نعم.. إن الكتاب المقدس كتاب واقعي.. يـذكر الواقـع كمـا هو.. ثم ينثني ليصلحه.

قال: أمـا الشـطر الأول من كلامـك فصـحيح.. فهـو يـذكر الواقـع بصفة مفضوحة تماما.. لكني لا أرى أنه ينثني عليه ليصلحه.

قلت: كيف ذلك؟

قال: لقد ذكر العهد القديم أمثلـة كثـيرة من هـذا الأدب الـواقعي المكشوف، وقد بحثت في كل هذه الأمثلـة عن عقوبـة للمجـرم فلم أجد.. إذ لم يخبرنا أن حد الزنـا المـذكور في سـفر اللاويين (20/17) قد طبق مرة واحدة.

قلت: لقد ورد في سفر صموئيل عن عالي رئيس الكهنة وقاضـي بني إسرائيل هذا النص الذي يفيـد إنكـار مثـل هـذه الرذائـل:(وشـاخ عالي جداً، وسمع بكل ما عملـه بنـوه بجميـع إسـرائيل، وبـأنهم كـانوا يضاجعون النسـاء المجتمعـات في بـاب خيمـة الاجتمـاع. فقـال لهم: لماذا تعملون مثل هذه الأمور؟ لأني أسمع بأموركم الخبيثة من جميـع هذا الشعب، لا يا بني لأنه ليس حسناً الخبر الذي أسمع) (صموئيل (2) 2/22 - 24)

التفت إليه، فرأيته يبتسم، فقلت: ما الذي يضحكك؟

قال: يضـحكني هـذا الرجـل.. بـل هـذا القاضـي الـذي هـو رئيس الكهنة.. أهذا كل ما استطاع قوله لهم.. وهو رجل الدين وهو القاضي في نفس الوقت، أهذا كل ما صنعه مع أولئك الذين يزنون في خيمــة الاجتماع!؟

صـمت، فقـال: ليت الأمـر كـان قاصـرا على هـذا.. إن كثـيرا من نصوص الكتاب المقـدس لا تكتفي بعـدم النهي عن الرذيلـة، بـل هي تكاد تحث عليها.

قلت: ماذا تقول؟

قال: سأقرأ عليك بعض النصوص التي أقترح التصرف فيها.. فهي خطيرة جدا على مراهقينا وعلى كتابنا المقدس.

فتح الكتاب المقدس، وقال: اسـمع..:(وأوحى إلي الـرب بكلمتـه قائلا: (ياابن آدم، كانت هناك امرأتان، ابنتا أم واحدة، زنتا في صـباهما في مصر حيث دوعبت ثديهما، وعبث بترائب عذرتهما. اسـم الكـبرى أهولة واسم أختها أهوليبة، وكانتا لي وأنجبتا أبناء وبنات، أما السـامرة فهي أهولة، وأورشليم هي أهوليبـة. وزنت أهولـة مـع أنهـا كـانت لي، وعشقت محبيها الأشوريين الأبطال. اللابسـين في الأرديـة الأرجوانيـة من ولاة وقادة. وكلهم شـبان شـهوة، وفرسـان خيـل. فأغـدقت على نخبة أبناء أشور زناها، وتنجست بكـل من عشـقتهم وبكـل أصـنامهم. ولم تتخل عن زناها منذ أيام مصر لأنهم ضاجعوها منذ حداثتها، وعبثوا

بترائب عذرتها وسكبوا عليها شهواتهم، لذلك سلمتها ليد عشاقها أبناء أشـور الـذين أولعت بهم. ففضـحوا عورتهـا، وأسـروا أبناءهـا وبناتهـا، وذبحوها بالسيف، فصارت عبرة للنسـاء ونفـذوا فيهـا قضـاء.ومـع أن أختها أهوليبة شهدت هذا، فإنها أوغلت أكثر منهـا في عشـقها وزناهـا، إذ عشقت أبناء أشور من ولاة وقادة المرتدين أفخر اللباس، فرسـان خيل وجميعهم شبان شهوة. فرأيت أنها قد تنجست، وسـلكتا كلتاهمـا في ذات الطريق. غير أن أهوليبـة تفـوقت في زناهـا، إذ حين نظـرت إلى صور رجال الكلدانيين المرسومة على الحائط بالمغرة، متحزمين بمناطق على خصـورهم، وعمـائمهم مسـدولة على رؤوسـهم، وكلهم بدوا كرؤساء مركبات مماثلين تماما لأبنـاء الكلـدانيين في بابـل أرض ميلادهم، عشـقتهم وبعثت إليهم رسـلا إلى أرض الكلـدانيين. فأقبـل إليها أبناء بابل وعاشروها في مضجع الحب ونجسوها بزناهم. وبعد أن تنجست بهم كرهتهم. وإذ واظبت على زناها علانيـة، وتبـاهت بعـرض عريها، كرهتها كما كرهت أختها. ومع ذلك أكثرت من فحشـها، ذاكـرة أيام حداثتها حيث زنت في ديار مصر. فأولعت بعشاقها هنـاك، الـذين عورتهم كعورة الحمير ومنيهم كمني الخيل. وتقت إلى فجور حداثتك حين كان المصريون يداعبون ترائب عـذرتك طمعـا في نهـد صـباك) (حزقيال: 23: 1 -21)

أغلق الكتاب، وقال: ما فائدة جميع هذه التفاصيل الـتي ليس لهـا من أثر إلا تهييج الشهوات والحث على الرذيلة!؟

قلت: إن التقصير ليس في الكتاب المقدس.

قال: فيم إذن؟

قلت: في تفسـير رجـال الكنيسـة للكتـاب المقـدس.. لـو أنهم شرحوا للناس المعاني الرمزية العميقة التي تتضمنها هـذه النصـوص لذهب عنهم كل ذلك الوهم الذي ساقته إليهم غرائزهم.

قـال: لقـد فعلـوا.. ولكنهم لم يزيـدوا الطين إلا بلـة.. لقـد جعلـوا الدعارة رمـزا للكنيسـة.. بـل إن الكنيسـة عنـدهم لـو تجسـدت، فلن

تتجسد إلا في عاهرة..

سأذكر لك مثالا على ذلك.. من تفسير رؤساء ديننا لسفر راعـوث جدة المسيح.

ساقرأ عليك النص أولا لتتذكره..

فتح الكتاب المقدس، وقال: راعوث هي تلك الأرملة التي نصحتها كنتها بإغراء بوعز كما جاء في السفر الذي يحمل اسمها.. اسـمع بمـا نصحتها:(فاغتسلي وتطيبي وارتدي أجمل ثيابـك واذهـبي إلى البيـدر، ولا تدعي الرجل يكتشـف وجـودك حـتى يفـرغ من الأكـل والشـرب. وعنـدما يضـطجع عـايني موضـع اضـطجاعه، ثم ادخلي إليـه وارفعي الغطاء عند قدميه وارقدي هناك، وهو يطلعك عمـا تفعلين) فأجابتهـا: (سأفعل كل ما تقولين)(راعوت 3:3-5)

وذهبت راعوث ليباركها بوعز.. اسمع:(فبعد أن أكل بوعز وشرب وطابت نفسه ومضى ليرقد عند الطرف القصـي من كومـة الشـعير، تسللت راعوث ورفعت الغطاء عند قدميه ونامت وعند منتصف الليل تقلب الرجل في نومـه مضـطربا، ثم اسـتيقظ والتفت حولـه وإذا بـه يجـد امـرأة راقـدة عنـد قدميـه، فتسـاءل: (من أنت؟) فأجـابت: (أنـا راعـوث أمتـك، فابسـط هـدب ثوبـك على أمتـك لأنـك قـريب وولي) فقـال: (ليباركـك الـرب يـابنتي لأن مـا أظهرتـه من إحسـان الآن هـو أعظم مما أظهرته سابقا، فأنت لم تتهافتي على الشبان، فقراء كانوا أو أغنياء)(راعوت 3:7-10)

هذا هو النص.. أما تفسير رجال ديننا له، فسأسوق لك بعضه..

يقول أحد مفسرينا:(سفر راعوث هو السفر الوحيد الـذى سـمى باسم امرأة أمميـة فى الكتـاب المقـدس نظـراً للرتبـة الفائقـة الـتى بلغت إليهـا راعـوث، الـتى صـارت أمـاً للمسـيح الأمـر الـذى كـانت المؤمنـات ًجميعـا يشـتهين إيـاه، كمـا حسـبت رمـزا لكنيسـة الأمم عروس المسـيح القادمـة من ًمـوآب إلى بيت لحم، لقـد جـرى دمهـا وهى أممية فى عروق مخلص العالم)

ثم يقول هذا المفسـر:(ورمزيـا:- فراعـوث تشـير لكنيسـة الأمم التى التصقت بنعمى (كنيسة اليهـود) ونعمى كـانت ذاً قرابـة بالجسـد مع بوعز أى أن المسيح جاء بالجسد من كنيسة اليهود، وراعـوث أتت إلى حقل بوعز لتلتقط سـنابل هـذا يشـير للكنيسـة الـتى جـاءت فى أواخر الأزمنة تجمع مـا قـد سـبق وتعب فيـه الأبـاء والآنبيـاء كمـا في (يوحنا: 4 38،37)، ولاحظ أنها جاءت إلى بيت لحم أى بيت الخـبز لتصير راعوث هى أيضـا ليسـت ذات قرابـة لبـوعز بـل عروسـا لـه.. ونحن الكنيسة عروس المسيح ً جبـار البـأس الـذى بعـز وقـوة يسـند نفوس عروسته الخـائرة ويرفعهـا فـوق الضـيق والألم. وراء من أجـد نعمة فى عينيه.. لاحظ أن راعوث تركت تدبير الأمر كله لله والله دبر عجبا)

إن هذا المفسر يقول كلاما خطيرا.. إنه يريد أن يقـول: إن علاقـة راعوث ببوعز علاقـة ترمـز إلى ضـم الأمميين الي الكنيسـة، وبـذلك تكون تلك العلاقة غير الشرعية رمزا للكنيسة..

والأخطر من ذلك كله أن يقال: إن ما حدث في تلك الليلـة تـدبير رباني مبارك.. أي تدبير هذا ــ حضـرة الحـبر ــ ومن دبـر هـذا التـدبير العجيب؟.. أرملة شابة تزينت وتعطرت، ثم اجتمعت مع رجل سكران علي سرير واحد، تحت ثوب واحد في مكـان بعيـد عن أعين النـاس.. أهذا هو التدبير؟

وبعـد كـل هـذا الفحش، تسـمي هـذه العـاهرة (امـرأة فاضـلة): (والآن يا بنتي لا تخافي.كـل مـا تقـولين افعـل لـك.لان جميـع أبـواب شعبي تعلم أنك امرأة فاضلة) (راعوث 3:11)

سكت قليلا، ثم قال: سأذكر لك مثلا آخر.. يرتبط هو الآخـر بجـدة من جدات المسيح.. وهي راحاب المذكورة في سفر يشوع.

لقـد ورد في هـذا السـفر:(فأرسـل يشـوع بن نـون من شـطّيم رجلين جاسوسين سرّا قائلا: اذهبا انظـرا الأرض وأريحـا فـذهبا ودخلا بيت امرأة زانية اسمها راحاب واضطجعا هناك) (يشوع 2:1)

يقول أحد رجال ديننا:(امرأة زانية اسمها راحاب كانت صاحبة خان (فندق) لذلك نزل الجاسوسين عندها، وكلمة صاحبة خان وكلمة زانية تقريبا هما نفس الكلمة، فقديما كانت صاحبة الخان ليست بعيدة عن ًالشبهات في نظر الناس، ولعل سلمون زوجها كان أحد الجاسوسين (متى:5/1)[1] وعموما فسلمون زوجها هو شخص من سبط يهوذا، وهو أبو بوعز زوج راعوث)

وكما اعتبر رجال ديننا راعوث رمزا للكنيسة كذلك فعلوا مع راحاب.. لقد قال بعضهم:(وراحاب هذه بإيمانها صارت رمزاً لدخول الأمم للإيمان، بل صارت أما للمسيح)

ويضيف قائلا:(وإن كان يشوع يرمز للمسيح، فالجاسوسان يرمزان لتلاميذ المسيح، وهم اثنين رمز لإرسال المسيح رسله لليهود والأمم)

سكت قليلا، ثم قال: سأذكر لك مثلا آخر.. يرتبط هو الآخر بجدة من جدات المسيح.. وهي زوجة أوريا التي وردت قصتها في سفر صموئيل الثاني.. اسمع..

فتح الكتاب المقدس، وراح يقرأ:(وكان في وقت المساء، أن داود قام عن سريره، وتمشى على سطح بيت الملك، فرأى من على السطح امرأةً تستحم. وكانت المرأةُ جميلةَ المنظر جداً. فأرسل داود، وسأل عن المرأة، فقال واحدٌ: أليست هذه بتشبع بنت أليعام، امرأة أوريا الحثي؟ فأرسل داود رسلاً، وأخذها، فدخلت إليه، فاضطجع معها.. ثم رجعت إلى بيتها. وحَبِلت المرأة، فأرسلت وأخبرت داود، وقالت: إني حُبلى) (2صموئيل11:2-5)

أنت تعرف نهاية القصة.. وأنا لم أسقها لك إلا لأسوق لك معها ما يقول رجالنا المباركون.. إنهم يزيدون الطين بلة.. لقد شرح بعضهم هذا النص، فراح يقول:(إن بتشبع قصدت هذا أن تجذب أنظار

(1) يشير بهذا لينبهنا أن الإنجيلي متي ذكر بوعز وأمه الزانية في سلسلة نسب يسوع، وسلمون ولد بوعز من راحاب.وبوعز ولد عوبيد من راعوث.وعوبيد ولد يسى ويسى ولد داود الملك.وداود الملك ولد سليمان من التي لأوريا. (متي 1 الفقرات 5 و 6)

الملك، هى رأت أنـه فخـر لهـا أن تكـون زوجـة الملـك فهى تعلم أن سـطوح الملك يكشفها)

أترى داود في الكتاب المقدس كيف صار رمـزا للرذيلـة.. إن هـذا الحـدث الـذي ورد في صـمويل كـان في الـوقت الـذي كـان جيشـه يحارب فيه؟

وفي الوقت الذي كان أوريا يضحي بنفسه كان عرضه ينتهـك.. ثم ينسى أوريا ليمجد داود، ويتشرف بأن يكـون أبـا للمسـيح.. أليس في هذا تمجيدا للرذيلة؟

سكت قليلا، ثم قال: ليست جدات المسـيح فقـط هن الفاضـلات اللاتي مارسن هذه المهنة الخسيسة.. لقد ذكر الكتاب المقدس نساء أخريات.. مجـدهن، وخلـدهن.. ليكن رمـزا للفضـيلة.. سـأقص عليـك قصص بعضهن.. لترى هل يمكن أن تكون مثل هذه النصوص وســيلة للتربية أم قنطرة للغواية.

سأبدا بـامرأة خلـدها العهـد القـديم فى سـفر كامـل أفـرد لهـا، و باسمها، ليحكى قصتها.. لا شك أنك تعرفها.. إنها يهوديت.. تلك المرأة اليهودية الـتى يـردد ملايين اليهـود والمسـيحيين قصـتها فى قـراءتهم لكتبهم المقدسة.. ويتعبدون بتلك القراءة، لينطبع في نفوسهم مـا مـا رسته من سلوك.

ولنبـدأ بـأول قصـتها من السـفر المسـمى باسـمها.. يصـفها هـذا السفر قائلا:(وكانت يهوديت قد بقيت أرملـة منـذ ثلاث سـنين وسـتة أشهر.. وكانت قد هيأت لها في أعلى بيتها غرفة سـرية، وكـانت تقيم فيها مع جواريها وتغلقها.. وكان على حقويها مسح وكانت تصوم جميع أيام حياتها ما خلا السبوت ورؤوس الشهور وأعياد إسـرائيل.. وكـانت لها شهرة بين جميع الناس من أجل انهـا كـانت تتقي الـرب جـدا ولم يكن أحد يقول عليها كلمة سوء.. وكانت جميلة المنظر جدا وقد تـرك لها بعلها ثروة واسعة وحشما كثيرين وأملاكـا مملـوءة باصـورة البقـر وقطعان الغنم)(يهوديت:4 -7)

لا شك أن هذه أوصاف طيبة، لو اكتفى الكتاب المقدس بها لكفت، ولكانت هذه المرأة نموذجا صالحا لأي امرأة مؤمنة.

ولكن الكتاب المقدس لم يذكرها لأجل هذا.. ولو اكتفت هذه المرأة بهذا النوع من السلوك، فلن تحظى بذكر اسمها في الكتاب المقدس، فكيف بأن يكون لها سفر باسمها.

إن ما دفع الكتبة ليخصوا سفرا باسمها هو ما نص عليه الكتاب المقدس من تمجيد لسلوك سلكته، وكأنه يدعو بذلك إلى سلوكه.

لقد ظهرت يهوديت فى ظروف قرر فيها اليهود تسليم مدينتهم إلى الأشوريين.. فغضبت و قررت التدخل لمحاولة منع هذه الهزيمة من الحلول بقومها.. فلنسمع لما يقول الكتاب المقدس:(ودعت وصيفتها و نزلت الى بيتها و ألقت عنها المسح و نزعت عنها ثياب إرمالها.. واستحمت و ادهنت بأطياب نفيسة وفرقت شعرها وجعلت تاجا على رأسها ولبست ثياب فرحها واحتذت بحذاء، ولبست الدمالج والسواسن والقرطة والخواتم، وتزينت بكل زينتها.. وزادها الرب أيضا بهاء من أجل أن تزينها هذا لم يكن عن شهوة، بل عن فضيلة ولذلك زاد الرب في جمالها حتى ظهرت في عيون الجميع ببهاء لا يمثل.. وحملت وصيفتها زق خمر وإناء زيت ودقيقا وتينا يابسا وخبزا وجبنا وانطلقت، فلما بلغتا باب المدينة وجدتا عزيا وشيوخ المدينة منتظرين، فلما رأوها اندهشوا وتعجبوا جدا من جمالها، غير أنهم لم يسألوها عن شيء بل تركوها تجوز قائلين إله آبائنا يمنحك نعمة ويؤيد كل مشورة قلبك بقوته حتى تفتخر بك أورشليم ويكون اسمك محصى في عداد القديسين و الابرار) (يهوديت:2 -8)

ألا ترى هؤلاء الشيوخ الأجلاء كيف يرون هذه المرأة الصالحة الجميلة تذهب إلى عدوهم الذي لن يقصر في انتهاك عرضها، ومع ذلك يدعون لها، ولا يمنعونها، بل إن في كلامهم هذا تشجيعا ظاهرا لها.. أين الغيرة والرجولة في نفوس هؤلاء؟.. إن الكتاب المقدس بهذا لا يكتفي بتزيين الرذيلة، بل يوفر البيئة الصالحة لتقبلها وتشجيعها.

لا يكتفي السفر بهذه التفاصيل.. بل هو مغرم بتفاصيل الرذيلة حتى تمتلئ العين بمشاهدتها.. اسمع ما يقول السفر:(فدخل حينئذ بوغا على يهوديت وقال: لا تحتشمي أيتها الفتاة الصالحة أن تدخلي على سيدي و تكرمي أمام وجهه و تأكلي معه وتشربي خمرا بفرح.. فأجابته يهوديت من أنا حتى أخالف سيدي، كل ما حسن وجاد في عينيه فأنا أصنعه وكل ما يرضى به فهو عندي حسن جدا كل أيام حياتي.. ثم قامت و تزينت بملابسها و دخلت فوقفت أمامه، فاضطرب قلب أليفانا لأنه كان قد اشتدت شهوته، وقال لها أليفانا: اشربي الآن واتكئي بفرح فإنك قد ظفرت أمامي بحظوة، فقالت يهوديت: اشرب يا سيدي من أجل أنها قد عظمت نفسي اليوم أكثر من جميع أيام حياتي، ثم أخذت و أكلت و شربت بحضرته مما كانت قد هيأته لها جاريتها، ففرح أليفانا بازائها وشرب من الخمر شيئا كثيرا جدا أكثر مما شرب في جميع حياته (يهوديت: 12-20)

وهكذا يستمر هذه السفر في إعطاء المرأة هذه الوسيلة.. وسيلة الإغواء.. لتستعملها بعد ذلك في كل ما تريد تحقيقه.

ليست يهوديت وحدها من مجدت لأجل هذا السلوك.. توجد أخرى نجحت فى أن يكون لها سفر هي الأخرى باسمها.. إنها استير.. تلك المرأة التى نجحت فى انقاذ شعب الله المختار من أعدائه مستفيدة من سلوك يهوديت.

سكت قليلا، ثم قال: لقد بحثت في آثار هذه الكلمات في تاريخ الكنيسة القديم والحديث فوجدت العجب العجاب..

لقد علمت من مصادر مطلعة في أمريكا أن أربعة من كل مئة من القساوسة متهم بالاغتصاب.. فإن أضفت إلى هذه النسبة تلك الحالات التي تتم عن تراض.. وأضفت إليها حالات الاغتصاب التي لم يكشف عنها، فماذا ستجد حضرة الحبر؟

قلت: أنت تحدثني عن عامة تلبسوا بلباس رجال الدين.. الدين يمثله الخاصة لا العامة.

قال: أي خاصة تقصد؟

هل تقصد البابا إسكندر السادس الذي اتخذ له عشيقة اسمها (جيلبا فارنيس) التي كانت باهرة الجمال، صغيرة السن، اغتصبها من خطيبها ـ اقتداءا بما فعله داود ــ واحتفظ بها بعد ارتقائه كرسي البابوية!؟

أم تقصد البابا يوحنا الثاني الذي كان خليعاً ماجناً اتُّهِمَ من قِبَل أربعين أسقفا وسبعة عشر كاردينالاً بأنه وقع في الفاحشة مع عدة نساء.. وأنه ـ فوق ذلك ـ قلّدَ مطرانية (طودى) لغلام لم يتجاوز عشر سنوات، ثم قُتِلَ، وهو متلبس بجريمة الزنا مع امرأة، وكان القاتل له زوجها!؟

أم تقصد البابا اكليمنضوس الخامس عشر الذي كان يجول فيينا وليون لجمع المال مع عشيقته!؟

أم تقصد البابا يوحنا الثالث والعشرين الذي اتهم بأنه سمَّم سلفه، وأنه باع الوظائف الكنسية، وأنه كان كافرا لوطياً!؟

أم تقصد البابا اينوسنت الرابع الذي كان متهماً بالرشوة والفساد!؟

أنت تعرف هؤلاء وغيرهم.. ولا شك أنك قرأت ما قاله الراهب جروم في كشفه عن منابع الفساد في مراكز المسيحية.. لقد قال: (إن عيش القسوس، ونعيمهم، كان يزرى بترف الأغنياء والأمراء.. ولقد انحطت أخلاق الباباوات انحطاطاً عظيماً، واستحوذ عليهم الجشع، وحب المال، وعدوا أطوارهم حتى كانوا يبيعون المناصب والوظائف في المزاد العلني، ويؤجرون الجنة بالصكوك، ويأذنون بنقض القوانين، ويمنحون شهادات النجاة وإجازة حل المحرمات والمحظورات، ولا يتورعون عن التعامل بالربا والرشوة)

والمؤرخون يذكرون أنه بلغ من تبذيرهم للمال أن البابا اينوسنت الثامن اضطر إلى أن يرهن تاج البابوية..

ويذكرون عن البابا ليو العاشر أنه أنفق ما تـرك سـلفه من ثـروة، بالإضافة إلى دخله وإيراد خليفته المنتظر.

ولم يكتفوا بكل هذا الفسـاد.. بـل راحـوا يفرضـون الإتـاوات على النــاس، ويســتخدمون أبشــع الوســائل في اســتيفائها من الأغنيــاء والفقراء على السواء.

بل كانوا يسـتوفون هـذه الإتـاوات من البغايـا اللـواتي يسـتخدمن أعراضهنَّ للحصول على المعيشـة.. بـل كـانوا يشـجعون على البغـاء العلني بإعطاء التراخيص والإجازات لمن يريد من العاهرات ممارسـة البغاء.

لقــد أحصــى عــدد من حصــلن على الــتراخيص في عهــد أحــد الباباوات، فوجد أن عددهن يتجاوز ستة عشرة ألف امرأة في مدينــة روما وحدها.

هـؤلاء هم خصـوص المسـيحيين.. وهـذه سـمعتهم كمـا تنشـرها وسائل الإعلام..

عن أي خصـوص تتحـدث.. والكتـاب المقـدس الـذي نتعلم منـه الخصوصية والقديسية يعُج بقصـص زنـا الأنبيـاء وفجـورهم وعبـادتهم الأوثان:

ألست ترى نبي الله إبراهيم يبيع عرضه كما ورد في (تكـوين 12: 11-16):(وحدث لما قرب ان يدخل مصر انـه قـال لسـاراي امرأتـه اني قد علمت انك امرأة حسـنة المنظـر فيكـون اذا رآك المصـريون انهم يقولون هذه امرأته. فيقتلونـني ويسـتبقونك. قـولي انـك اخـتي. ليكون لي خير بسببك وتحيا نفسي من اجلك فحدث لمـا دخـل ابـرام الى مصر ان المصريين رأوا المـرأة انهـا حسـنة جـدا. ورآهـا رؤسـاء فرعـون ومـدحوها لـدى فرعـون. فأخـذت المـرأة الى بيت فرعـون. فصنع الى ابرام خيرا بسببها. وصار له غنم وبقر وحمير وعبيـد وامـاء وأتن وجمال. فضـرب الـرب فرعـون وبيتـه ضـربات عظيمـة بسـبب ساراي امرأة ابرام. فدعا فرعون ابرام وقال ما هذا الذي صنعت بي.

لماذا لم تخبرني انها امرأتك. لماذا قلت هي اختي حتى اخذتها لي لتكون زوجتي. والآن هوذا امرأتك. خذها واذهب. فاوصى عليه فرعون رجالا فشيعوه وامرأته وكل ما كان له)[1]!؟

ألست ترى الجرائم الكثيرة التي وقع فيها سليمان.. لقد ورد فيه هذا النص الطويل الذي يفوح بألوان الجرائم:(وكان سليمان الملك قد أحب نساء كثيرة غريبة، وابنة فرعون، ونساء من بنات الموابيين، ومن بنات عمون، ومن بنات أدوم، ومن بنات الصيدانيين، ومن بنات الحيثانيين من الشعوب الذين قال الرب لبني إسرائيل لا تدخلوا إليهم، ولا يدخلوا إليكم لئلا يميلوا قلوبكم إلى آلهتكم، وهؤلاء التصق بهم سليمان بحب شديد وصار له سبعمائة امرأة حرة، وثلثمائة سرية، وأغوت نساءه قلبه فلما كان عند كبر سليمان أغوت نساءه إلى آلهة أخر، ولم يكن قلبه سليماً للّه ربه مثل قلب داود أبيه وتبع سليمان عستروت إله الصيدانيين وملكوم صنم بني عمون وارتكب سليمان القبح أمام الرب ولم يتم أن يتبع الرب مثل داود أبيه ثم نصب سليمان نصبة لكاموش صنم مواب في الجبل الذي قدام أورشليم، ولملكوم وثن بني عمون وكذلك صنع لجميع نسائه الغرباء، وهن يبخرن، ويذبحن لآلهتهن فغضب الرب على سليمان حيث مال قلبه عن الرب إله إسرائيل الذي ظهر له مرتين ونهاه عن هذا الكلام أن لا يتبع آلهة الغرباء، ولم يحفظ ما أمره به الرب فقال الرب لسليمان: إنك فعلت هذا الفعل، ولم تحفظ عهدي ووصاياي التي أمرتك بهن، أشق شقاً ملكك، وأصيره إلى عبدك(سفر الملوك الأول: 11/ 1 -11)

ربما أنتم في ألمانيا لا تتعرضون لأي نقد.. فأنتم في مجتمعات قد لا تهتم كثيرا بمثل هذه الأمور.. لكنا في مجتمعات محافظة.. العرض عندها أهم من كل شيء.. إن القبيلة جميعا تعرض نفسها للخطر من أجل حماية امرأة واحدة..

(1) ورد حديث في مثل هذا .. ولا شك أنه من الإسرائيليات المنقولة عن أهل الكتاب..

لست أدري كيف خطر على بالي أن قلت له: ليس الكتاب المقدس وحده من ذكر هذا.. لقد ذكر القرآن قصة مراودة امرأة العزيز ليوسف.. ألم يرد فيه:{ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا } (يوسف:24).. واجهوهم بهذه الآية.. فستردعهم هذه الآية عن أي نقد يوجهونه لكم، ولكتابنا المقدس.

ابتسم، وقال: لو ذكرنا لهم هذه الآية، فإننا نكون كمن سلم عدوه سلاحا حادا ليقتله به.. إننا نصير حينها كمن يبحث عن حتفه بظلفه.

قلت: ما تقصد؟

قال: هذا هو النص الوحيد في القرآن الذي يذكر قصة إغراء.. لكن الأسلوب القرآني، والأدب القرآني يحولها بذوقه الرفيع إلى قصة العفاف في أعلى درجاتها.

قلت: ولكنه ذكر همه بها.

قال: ألست تراني عربيا!؟

قلت: وما علاقة ذلك بهذا؟

قال: إن المعنى الظاهر للنص واضح لأي عربي يفهم لغته، فهو يدل على أنه لولا أن يوسف رأى برهان ربه لهم بها، ولكن لما رأى البرهان ما هم؛ ففي الكلام تقديم وتأخير كعادة العرب، وكما هو الشأن في كثير من تعابير القرآن الكريم.

قلت: أنت تفهم هذا.. وتعرف ما قال النحاة.. ولكن أكثر الناس لا يعرفون ما تعرف.

قال: حتى لو ذكرنا أن المراد بالهم العزم على المعصية، فإن ذلك لن يفيدنا في شيء.. لأنه سيفسر حينها على أن المراد هو الدلالة على الطبيعة البشرية ليوسف، وبالتالي يكون لعفافة معنى صحيحا.. لأن العفاف لا يكون إلا مراغمة للشهوة.

زيادة على هذا.. فقد جعلت هذه السورة يوسف مثالا للعفاف.. بل جعلته العفاف نفسه، فهو لا يكتفي بالهروب من المعصية، بل يؤثر السجن عليها، لقد ورد في القرآن:{ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ}(يوسف:33)

فهل ترى عفافا فوق هذا العفاف؟

إن هذا الدعاء الذي يفيض من بحار العفاف لا نجده في كتابنا المقدس مع أنه يقص قصة يوسف من أولها إلى آخرها، ولا يغفل عن أدق التفاصيل.. اسمع ما ورد في التوراة:(وحدث بعد هذه الأمور أن امرأة سيده رفعت عينيها إلى يوسف وقالت: اضطجع معي، فأبى وقال لامرأة سيده: هوذا سيدي لا يعرف معي ما في البيت، وكل ما له قد دفعه إلى يدي، ليس هو في هذا البيت أعظم مني. ولم يمسك عني شيئا غيرك لأنك امرأته. فكيف اصنع هذا الشر العظيم واخطئ الى الله.. وكان إذ كلّمت يوسف يوما فيوما أنه لم يسمع لها أن يضطجع بجانبها ليكون معها، ثم حدث نحو هذا الوقت أنه دخل البيت ليعمل عمله ولم يكن إنسان من أهل البيت هناك في البيت، فأمسكته بثوبه قائلة: اضطجع معي. فترك ثوبه في يدها وهرب وخرج الى خارج.. وكان لما رأت انه ترك ثوبه في يدها وهرب الى خارج أنها نادت أهل بيتها وكلمتهم قائلة انظروا. قد جاء إلينا برجل عبراني ليداعبنا. دخل اليّ ليضطجع معي فصرخت بصوت عظيم. وكان لما سمع أني رفعت صوتي وصرخت أنه ترك ثوبه بجانبي وهرب وخرج إلى خارج فوضعت ثوبه بجانبها حتى جاء سيده إلى بيته فكلمته بمثل هذا الكلام قائلة دخل اليّ العبد العبراني الذي جئت به إلينا ليداعبني وكان لما رفعت صوتي وصرخت انه ترك ثوبه بجانبي وهرب إلى خارج فكان لما سمع سيده كلام امرأته الذي كلمته به قائلة بحسب هذا الكلام صنع بي عبدك أن غضبه حمي فأخذ يوسف سيده ووضعه في بيت السجن المكان الذي كان أسرى الملك محبوسين فيه. وكان هناك في بيت السجن) (التكوين:39/7-20)

هكذا أرخت التوراة للحادثة.. ألا ترى كيف تتردد كلمـة (اضـطجع) ومشتقاتها في هذا النص القصير.. إن القرآن يخلـو منهـا تمامـا.. إنـه يكتفي بأن يذكر ما قالت له على سبيل التورية لا على سبيل التصريح الذي قد يؤذي المستمعين، وقد يحرك نوازع الشهوة فيهم.

اسمع ما يقول القرآن مؤرخا لنفس مـا أرخت لـه التـوراة:{ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمـاً وَعِلْمـاً وَكَـذَلِكَ نَجْـزِي الْمُحْسِـنِينَ (22) وَرَاوَدَتْـهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتْ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَـالَ مَعَـاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَـنَ مَثْـوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (23) وَلَقَـدْ هَمَّتْ بِـهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَـاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (24) وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَـا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِـكَ سُـوءاً إِلاَّ أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (25) قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَـهِدَ شَـاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَـا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنْ الْكَـاذِبِينَ (26) وَإِنْ كَـانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُـوَ مِنْ الصَّـادِقِينَ (27) فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَـهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْـدِكُنَّ إِنَّ كَيْـدَكُنَّ عَظِيمٌ (28) يُوسُـفُ أَعْـرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِـذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنْ الْخَـاطِئِينَ (29) وَقَـالَ نِسْـوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً إِنَّا لَنَرَاهَـا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (30) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتْ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَـهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ (31) قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَـدْ رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِـهِ فَاسْتَعْصَـمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَـلْ مَـا آمُـرُهُ لَيُسْـجَنَنَّ وَلَيَكُـوناً مِنَ الصَّـاغِرِينَ (32) قَـالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنْ الْجَاهِلِينَ (33) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْـهُ كَيْـدَهُنَّ إِنَّهُ هُـوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (34) ثُمَّ بَـدَا لَهُمْ مِنْ بَعْـدِ مَـا رَأَوْا الآيَـاتِ لَيَسْـجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ }(يوسف:22- 35)

ألا ترى الفرق الكبير بينهما.. لقـد ذكـر القـرآن أحـداثا لم تـذكرها التوراة، كما أن التوراة ذكرت أحداثا لم يذكرها القرآن.. ولكن شـتان ما بين الأمرين.. التوراة تؤرخ.. والقرآن ينتقي مواضع العبرة.. ليجعل

من يوسف مثالا للعفاف والصيانة والأدب..

فكيف تريد منا حضرة الحبر أن نواجههم بيوسف، وهم يواجهوننا به.

إن القرآن.. كل القرآن.. لم يذكر قصة زنا واحدة.. بل إنه لا يذكر هذا وغيره إلا مشددا في ذكره محذرا من الاقتراب منه.. لقد ورد في القرآن هذه الآيات التي نفتقد مثلها في كتابنا المقدس:{ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ }(الأنعام: 151).. { وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً} (الاسراء:32)

والقرآن يفصل في ذكر الحصون التي تمنع من مجرد الاقتراب من الفواحش، فيأمر الرجال بغض البصر عن المحارم.. لقد ورد فيه: { قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ}(النور:30)

ويأمر النساء بغض البصر مثل الرجال، وعدم إبداء زينتهن إلا لمحارمهن:{ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْأِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}(النور:31)

وليردع القرآن من الزنا وما يقرب منه وضع الحدود التي تزجر الشهوات، وتؤدبها، وتبين المحل الخطير الذي تنزل فيه هذه الشهوات من سلم المعاصي..لقد ورد فيه:{ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}(النور: 2)

بل إن من تمام عقوبة الزاني، ومن مظاهر الدلالة على خطر

الجريمــة الــتي يقــع فيهــا أن يحــال بينــه وبين العفيفــة، وأن يشــبه بالمشرك، لقد ورد في القرآن هذا الزاجر الخطير:{ الزَّانِي لا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنْكِحُهَـا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْـرِكٌ وَحُـرِّمَ ذَلِـكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ}(النور:3)

هـذا كـل مـا ورد في القـرآن عن الزنـا.. ليس هنـاك أي نص في القرآن يصف المخادع، وتزين النساء، وتعرضهن للرجال.

وليس هنــاك أي نص يصــف أي جــزء من المــرأة.. بــل هنــاك النصــوص الكثــيرة الــتي تــأمر بالتحصــن والعفــة وتحــذر من مغبــة مخالفتها، كما تبشر بالجزاء العظيم لمن انصاع لما فيها.

أدب الشذوذ:

سكت قليلا، ثم قال: ليت الأمر اقتصر على كل هذا.

قلت: أهناك غير هذا؟

قال: هناك ما هو أخطر وأعظم..

قلت: لكأني بك تريد أن نغير جميع الكتاب المقدس.

قال: ربما لا تشعرون أنتم ـ بطبيعة الجو الـذي تعيشـونه ــ بكثـير مما ذكر سابقا، ولكن هذا ـ خصوصا ـ لا يصطدم مع بيئتنا فقـط.. بـل يصطدم مع كل ذوق إنساني.

قلت: ماذا تقصد؟

قال: أدب الشذوذ.

قلت: ما أدب الشذوذ؟

قال: زنا المحارم.. ألست ترى الكتاب المقدس يضـم هـذا النـوع أيضا من الفواحش، بل ينسبه للأنبياء والصالحين!؟

فتح الكتـاب المقـدس، وقـال: اسـمع هـذه القصـة عن زنـا الأب

بابنتيه:(وصعد لوط من صـوغر وسـكن في الجبـل وابنتـاه معـه لأنـه خاف أن يسكن في صـوغر فسـكن في المغـارة هـو وابنتـاه وقـالت البكر للصغيرة: أبونـا قـد شـاخ وليس في الأرض رجـل ليـدخل علينـا كعادة كل الأرض.. هلم نسقي أبانا خمرا ونضـطجع معـه فنحـيي من أبينــا نســلا، فســقتا أباهمــا خمــرا في تلــك الليلــة ودخلت البكــر واضطجعت مع أبيهـا ولم يعلم باضـطجاعها ولا بقيامهـا.. وحـدث في الغد أن البكـر قـالت للصـغيرة: إني قـد اضـطجعت البارحـة مـع أبي نسقيه خمرا الليلة أيضا فادخلي اضطجعي معه فنحيي من أبينا نسلا، فسقتا اباهما خمرا في تلك الليلة أيضا، وقامت الصغيرة واضـطجعت معه ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامهـا، فحبلت ابنتـا لـوط من أبيهمـا، فولدت البكر ابنا و دعت اسمه مواب و هو أبـو الموابـيين إلى اليـوم، والصغيرة أيضا ولدت ابنا و دعت اسمه بن عمي و هو أبو بني عمون إلى اليوم) (التكوين:19/30- 38)

أغلق الكتاب، ثم التفت إلي، وقال: أتـرى أن هـذا فعـل يمكن أن يصدر من لوط وابنتيه)!؟

لقد كانت قريتا سدوم وعمورة تفعلان المنكـرات، وكـان أفضـعها إتيان الرجال بعضهم لبعض من دون النساء.. وكان ذلك سببا لإرسال الملائكة لتدميرهما بما فيها من البشر من دون استثناء مـا عـدا لـوط وبيته.. فاستثنوا وحـدهم لطهـرهم.. فهـل يعقـل أن ينجى اللـه لوطـا وابنتيه، ثم يرتكبوا ما هو أفضع من فعل القريتين؟

ثم بعد ذلك لا نرى الرب يغضب.. بل يكتفي بذكر اسـم الولـدين، والقبائل التي كانت من ذينك الولدين.. أهو كتاب أنساب أم كتاب رب يربي عباده ويؤدبهم؟

لقد قرأت قصة لوط في القرآن.. فامتلأت حبا للوط، وحبـا لبناتـه الطاهرات، اسمع إلى القرآن.. وهو يتحدث عن لوط:{ وَلُوطاً إِذْ قَـالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَـدٍ مِنْ الْعَـالَمِينَ (80) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (81) وَمَـا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ

(82) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنْ الْغَابِرِينَ (83) وَأَمْطَرْنَـا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ} (الأعراف:80 ـ 84)

وقال:{ وَلُوطاً آتَيْنَـاهُ حُكْمـاً وَعِلْمـاً وَنَجَّيْنَـاهُ مِنَ الْقَرْيَـةِ الَّتِي كَـانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ}(الانبياء:74)

هذا كل ما تحدث به القرآن عن لوط وبناته الطاهرات.. لقد جعله الله نموذجا للإنسـان الطـاهر الـذي قـد تقـع بـه الظـروف في البيئـة المنحرفـة، فلا يتـأثر بانحرافهـا، بـل يسـعى بكـل وسـيلة لنهيهـا عن انحرافها.

إنه نماذج الإنسان المؤثر، لا المتأثر.. الإنسان الصـالح الـذي يحب الطهارة، ويسعى لتربية المجتمع عليها.

هل تتصور أن هذا الإنسان الذي أنقـذه اللـه من بـراثن الانحـراف يقع في هذه الهاويـة السـحيقة!؟.. أهـذا هـو جـزاء طهارتـه وصـلاحه وصبره ودعوته!؟

أحسب لو أن جماعة من تينك القريتين تآمروا على لوط ليشوهوا سمعته ما كانوا يقدرون على ما قدر عليه الكتاب المقدس.

وكــأن الكتــاب المقــدس اختص بتــدنيس الطــاهرين.. وتنجيس الصـالحين.. ليجعـل منهم نمـاذج للمجتمعـات تسـير سـيرها، وتخطـو خطاها.

قلت: فمـا تـرى في هـذه القصـة.. هـل تـرى حـذفها من الكتـاب المقدس؟.. فما الذي نضعه بدلها.. والقصة لا تكتمل إلا بها؟

قال: إن شئت النصح.. لم لا نترجم ما ورد عن لوط في القـرآن.. أو نعيد صـياغته.. ثم نملأ بـه ذلـك المحـل الـذي حـذفناه من الكتـاب المقدس.. سيكون ذلك التعويض أفضل نص، وأجمل نص في الكتاب المقدس.

أظهـرت بعض الغضـب، وقلت: كيـف تقـول هـذا؟.. إن هـذا كلام

خطير.

قال: هي أول مرة أقوله.. ولعلها آخر مرة.. إن هذه النصوص تثير فينا من الغضب ما يجعلنا لا ندري ما نقول.

وسأقص لك قصة حدثت لي.. ستعرف فيها عذري..

لقد حاولت مرة بكل جهدي.. وبكثير من المال وهبته لي الكنيسة أن أدخل مسلما الكنيسة ليعمد فيها.. ووهبته الكنيسة نسخة مزخرفة من الكتاب المقدس.. وكان الرجل قد تعـود أن يقـرأ على أولاده من الذكور والإناث القرآن كل مساء يربيهم به.. فلما تعمد، أراد أن يزاول نفس تلك العادة مع الكتاب المقدس..

ولكن لسوء حظنا سقط على هذا النص.. لم يكن يعلم به.. فـراح يقرأ.. ولم يدر ما يقرأ.. أما أولاده فقد راحوا يبكـون على هـذا التغـير المفـاجئ الـذي أصـاب أبـاهم، وعلى هـذا السـباب الـذي راح يلقيـه عليهم، بدل القرآن الطاهر الذي كان يرتله على مسامعهم.

في الغد جاءني بنسخة الكتاب المقدس التي وهبناها لـه.. ومعهـا جميـع المـال الـذي رشـوته بـه.. وألقى ذلـك في وجهي.. وقـال: إني أستحيي أن أدين بدين يحوي كتابه المقدس مثل هذه الرذائل.

قلت: معك حق في كل ما قلت.. ولكن لا تخـف.. ربمـا يـأتي من يحتال لهذا النص بأي حيلة.. ليطهر الكتاب المقدس منه.

قال: ليت الأمر كان قاصرا على هذا النص.. إذن لهانت.

قلت: أهناك غيره؟

قال: ذلك النص نموذج عن زنا الأب ببناتـه.. وهنـاك أنـواع أخـرى من زنا المحارم تحتاج أن تذكر لها النماذج التي ترتبط بها.. أتريد كتابا مقدسا ناقصا؟

سكت قليلا، ثم قال: هنـاك نمـوذج الزنـا بـالأخت.. وقـد مثـل لـه

الكتاب المقدس بزنـا ابن داود بأختـه.. وابن داود هـذا هـو نفسـه ابن المرأة التي ذكر الكتاب المقدس أن داود زنا بها، وبعث زوجها لحتفه.

فتح الكتاب المقـدس، وقـال: اسـمع إلى هـذا النمـوذج الثـاني..: (وجرى بعد ذلك أنه كان لابشالوم بن داود أخت جميلة اسـمها ثامـار فأحبها امنون بن داود، وأحصر أمنون للسقم من أجل ثامار أخته لأنها كانت عذراء وعسر في عيني أمنون أن يفعل لها شيئا. وكان لأمنـون صـاحب اسـمه يونـاداب بن شـمعى أخي داود. وكـان يونـاداب رجلا حكيما جدا)(صمويل(2): 1/13-3)

نظر إلي، وقال: اسمع جيدا خبر هذا الرجل الحكيم جدا.. واسـمع نوع الحكمة التي يبشر بها الكتاب المقدس.

واصل قراءته:(فقال له (أي الرجل الحكيم جـدا): لمـاذا يـا ابن الملك أنت ضعيف هكذا من صباح إلى صباح. أمـا تخـبرني. فقـال لـه امنون: إني أحب ثامار أخت ابشالوم أخي. فقـال يونـاداب: اضـطجع على سريرك وتمارض. وإذا جاء أبوك ليراك فقل له: دع ثامـار أخـتي فتأتي وتطعمني خـبزا وتعمـل أمـامي الطعـام لأرى فآكـل من يـدها) (صمويل(2): 4/13-5)

نظر إلي، وقـال: انظـر إلى حكمـة الكتـاب المقـدس، وهي تلقن المراهقين حيـل الاسـتيلاء على معشـوقاتهم.. والمعشـوقة هنـا بكـل أسف هي أخته.

واصل قراءتـه:(فاضـطجع أمنـون وتمـارض فجـاء الملـك لـيراه. فقال أمنون للملك: دع ثامار أختي فتأتي وتصنع أمامي كعكتين فآكـل من يـدها.. فأرسـل داود إلى ثامـار إلى الـبيت قـائلا: اذهـبي إلى بيت امنون أخيك واعملي له طعاما.. فذهبت ثامـار إلى بيت امنـون أخيهـا وهو مضطجع. وأخذت العجين وعجنت وعملت كعكـا أمامـه وخـبزت الكعك وأخذت المقلاة وسكبت أمامـه فـأبى أن يأكـل. وقـال امنـون: أخرجوا كل إنسان عني. فخرج كل إنسان عنه.. ثم قال أمنون لثامـار ايتي بالطعام الى المخدع فآكل من يدك. فاخذت ثامار الكعـك الـذي

عملته وأتت به امنون اخاها الى المخدع. وقدمت له لياكـل فامسـكها وقال لها تعالي اضطجعي معي يا أختي فقالت له: لا يا أخي لا تـذلني لانه لا يفعل هكذا في اسرائيل. لا تعمـل هـذه القباحـة. أمـا أنـا فـأين أذهب بعاري وأما أنت فتكون كواحد من السفهاء في اسرائيل. والآن كلم الملك لانه لا يمنعني منك. فلم يشأ ان يسمع لصـوتها بـل تمكن منها وقهرها واضطجع معها)(صمويل(2): 13/6-14)

نظر إلي، وقال: أرأيت هذا التصوير.. بـل الإطنـاب في التصـوير.. وفوق ذلك كله لا يذكر الله أبدا.. وكل مـا تخافـه المـرأة على نفسـها هو العار.. وكل مـا تخافـه على أخيهـا هـو أن يصـير من سـفهاء بـني إسرائيل.. ثم كيف يترجم هذا الكتاب لجميع لغات العالم، ويوزع بينها، وهو يعتبر هذه الجريمـة لا ينبغي أن تفعـل فقـط في إسـرائيل.. لقـد قالت له:(لأنه لا يفعل هكذا في إسرائيل)!؟

واصل القـراءة:(ثم أبغضـها امنـون بغضـة شـديدة جـدا حـتى أن البغضة التي أبغضها إياها كانت أشد من المحبة التي أحبها إياها. وقال لها امنون: قومي انطلقي. فقـالت لـه: لا سـبب. هـذا الشـر بطـردك اياي هو أعظم من الآخر الذي عملته بي. فلم يشأ ان يسـمع لهـا بـل دعا غلامه الذي كان يخدمـه، وقـال اطـرد هـذه عـني خارجـا وأقفـل الباب وراءها وكان عليهـا ثـوب ملـون لان بنـات الملـك العـذارى كنّ يلبسن جبّات مثل هـذه. فاخرجهـا خادمـه إلى الخـارج واقفـل البـاب وراءها. فجعلت ثامار رمادا على رأسها ومزقت الثوب الملـون الـذي عليهـا ووضـعت يـدها على رأسـها وكـانت تـذهب صـارخة فقـال لهـا ابشالوم اخوها هل كان أمنون اخوك معـك. فـالآن يـا اخـتي اسـكتي. اخوك هو. لا تضعي قلبك على هذا الأمر. فاقـامت ثامـار مستوحشـة في بيت ابشـالوم أخيهـا ولمـا سـمع الملـك داود بجميـع هـذه الامـور اغتـاظ جـدا. ولم يكلم ابشـالوم امنـون بشـر ولا بخـير لان ابشـالوم ابغض امنون من اجل انه اذل ثامار أخته)(صمويل(2): 13/15-22)

نظر إلي، وقال: لست أدري ما الذي يقصد بإذلالهـا.. هـل هـو مـا مارسه من الفاحشة معها، أو هو طردها من بيته وإهانتها..

لم يكتــف الكتــاب المقــدس بــأن يعلمنــا كيــف نحتــال لــنرتكب الفواحش.. بل ها هو يعلمنا في تتمة القصــة كيــف نحتــال لنقتــل من نريد قتله.

أخذ يقرأ:(وكان بعد سنتين من الزمان انه كان لابشالوم جزّازون في بعل حاصور التي عند افــرايم. فــدعا ابشــالوم جميــع بــني الملــك وجاء ابشالوم الى الملك وقال هوذا لعبدك جزّازون. فليــذهب الملــك وعبيده مع عبدك فقال الملك لابشالوم لا يــا ابــني. لا نــذهب كلنــا لئلا نثقل عليك. فالحّ عليه. فلم يشأ ان يذهب بل باركــه. فقــال ابشــالوم اذا دع اخي امنون يذهب معنا. فقال الملك لمــاذا يــذهب معــك. فــالحّ عليه ابشالوم فأرسل معه امنون وجميع بني الملك فاوصى ابشــالوم غلمانه قائلا انظروا. متى طاب قلب امنون بالخمر وقلت لكم اضربوا امنون فاقتلوه. لا تخافوا. أليس اني انا أمرتكم. فتشددوا وكونوا ذوي بأس. ففعل غلمان ابشالوم بامنون كما امر ابشالوم. فقام جميع بني الملك وركبوا كل واحد على بغله وهربوا وفيما هم في الطريق وصل الخبر الى داود وقيل له قد قتل ابشالوم جميع بــني الملــك ولم يتبــق منهم احد فقام الملك ومزق ثيابه واضطجع على الارض وجميع عبيده واقفون وثيابهم ممزقة. فاجاب يوناداب بن شمعى اخي داود وقال لا يظن سيدي انهم قتلوا جميع الفتيان بــني الملــك. انمــا امنــون وحــده مات لان ذلك قد وضع عند ابشالوم منذ يوم اذل ثامار اختــه. والآن لا يضعن سيدي الملك في قلبه شيئا قائلا ان جميع بني الملك قد ماتوا. انما امنون وحده مات. وهرب ابشالوم. ورفــع الغلام الــرقيب طرفــه ونظر واذا بشعب كثير يســيرون على الطريــق وراءه بجــانب الجبــل. فقال يوناداب للملك هوذا بنو الملك قد جاءوا. كما قال عبــدك كــذلك صار. ولما فرغ من الكلام اذا ببني الملك قد جــاءوا ورفعــوا اصــواتهم وبكوا وكذلك بكى الملك وعبيده بكــاء عظيمــا جــدا. فهــرب ابشــالوم وذهب الى تلماي بن عميهود ملك جشور. ونــاح داود على ابنــه الايــام كلها. وهرب ابشالوم وذهب الى جشور وكان هناك ثلاث سنين. وكان داود يتوق الى الخروج الى ابشالوم لانــه تعــزّى عن امنــون حيث انــه مات) (صمويل(2): 13/23-39)

نظر إلي، وقال: أرأيت داود.. لم يهتز لـه عـرق عنـدما سـمع بمـا فعل ابنه من فواحش مع أخته، ولكنه حصل له ما حصل عند سـماعه بموته.. أي نفوس هذه؟.. وأي أخلاق ينشرها هـذا الكتـاب.. وتنشـرها معه هذه الكلمات!؟

ألا ترى أن الكتاب المقدس صار مأوى للرذائل..

لقد قرأت قصة داود في القرآن.. فرأيتهـا تفـوح بالطيبـة والطهـر والشكر لله.. إن داود في القرآن مثال للنبي الصـالح الأواب الـذي لم يصرفه ملكه وسلطته عن الله، بل لم تصرفه أي قـوة من القـوى أو رغبـة من الرغبـات عن سـموه وعفتـه وطهارتـه إلى درجـة أن أوبت الجبال معه والطير.

سـكت قليلا، وقـال: بقي مثـال آخـر عن زنـا المحـارم.. وهـو بين زوجة الابن وحميها.. اسمعه لننهل جميعا من أنوار الكتاب المقدس..

أخذ يقرأ:(فأخبرت ثامار وقيل لها هـوذا حمـوك صـاعد الى تمنـة ليجزّ غنمه فخلعت عنها ثياب ترملها وتغطت ببرقع وتلفّفت وجلسـت في مدخل عينايم التي على طريق تمنة. لانها رأت ان شـيلة قـد كـبر وهي لم تعط له زوجة. فنظرها يهوذا وحسبها زانيـة. لأنهـا كـانت قـد غطت وجهها. فمال إليها على الطريق وقال: هاتي أدخل عليـك. لأنـه لم يعلم أنها كنته. فقالت: ماذا تعطيـني لكي تـدخل عليّ. فقـال: إني أرسل جدي معزى من الغنم. فقالت: هل تعطيني رهنا حـتى ترسـله. فقال: ما الرهن الذي أعطيك. فقالت: خاتمك وعصابتك وعصاك التي في يدك. فاعطاها ودخل عليها. فحبلت منه) (التكوين: 38: 13 -18)

نظـر إلي، وقـال: أرأيت.. بكـل بسـاطة يـذكر الكتـاب المقـدس حوادث الزنا.. هو يذكرها كما يذكر أبسط الحوادث.. بل هو يكاد يعتبر وجود الزواني في الشوارع ظاهرة طبيعية لا تستحق أي إنكار.

واصل القراءة:(ثم قامت ومضـت وخلعت عنهـا برقعهـا ولبسـت ثياب ترملها فأرسل يهوذا جدي المعزى بيـد صـاحبه العـدلامي ليأخـذ

الرهن من يد المرأة. فلم يجدها. فسأل أهل مكانها قائلا: أين الزانيــة الــتي كـانت في عينـايم على الطريـق. فقـالوا: لم تكن ههنـا زانيـة) (التكوين: 38: 19 -21)

قال: أرأيت.. هو يسأل أهل الحـارة عن الزانيـة كمـا يسـألهم عن محل البقالة..

واصل القراءة:(فرجع الى يهوذا وقـال لم أجـدها. وأهـل المكـان ايضا قالوا لم تكن ههنـا زانيـة فقـال يهـوذا: لتاخـذ لنفسـها لئلا نصـير إهانة. إني قد ارسلت هـذا الجـدي وأنت لم تجـدها) (التكـوين: 38: 22 -23)

قال: انظر.. الإهانة هي في عدم أخـذ أجرتهـا لا فيمـا ارتكبـه من الفواحش.

واصل القراءة:(ولما كان نحو ثلاثة أشهر أخبر يهوذا وقيل لـه قـد زنت ثامار كنتك. وها هي حبلى ايضا من الزنى. فقال يهوذا: اخرجوها فتحرق أما هي فلمـا أخـرجت أرسـلت إلى حميهـا قائلـة من الرجـل الذي هذه له انا حبلى. وقالت حقّق لمن الخاتم والعصابة والعصا هذه فتحققها يهوذا وقال: هي ابـرّ مـني لاني لم أعطهـا لشـيلة ابـني. فلم يعد يعرفها أيضـا وفي وقت ولادتهـا اذا في بطنهـا توأمـان. وكـان في ولادتها ان احدهما اخرج يدا فاخذت القابلـة وربطت على يـده قرمـزا قائلة هذا خرج اولا ولكن حين ردّ يده اذ اخوه قد خرج. فقـالت لمـاذا اقتحمت. عليك اقتحام. فدعي اسمه فارص. وبعـد ذلـك خـرج اخـوه الذي على يده القرمز. فدعي اسمه زارح)(التكوين: 38: 24-30)

نظر إلي، وقال: تأمل كل عبارة ترد في هذه القصة.. ثم أخــبرني عن عــبرة واحــدة يمكن أن تســتفيدها منهــا.. إنهــا قصــص كتبهــا منحرفون.. ثم طلبوا منا أن نتعبد الله بتلاوتها.

أدب الشتائم:

سكت قليلا، ثم قال: ائـذن لي أن أنصـرف.. لقـد قلت مـا ظللت

طول عمري أتردد في قوله.. وأشكرك.. واشكر سعة خلقـك.. فلـولا ذلك ما أطقت أن أقول كلمة واحدة.

خرجت معه إلى المطبعة لأواصل تفقـدي للعمـال، بقيت أتحـدث معه عن شؤونه الخاصة..

أمـام أحـد الآلات اسـتوقفتنا خصـومة بين عـاملين، وسـأنقل لـك المشهد كما رأيته:

قال الأول: لماذا تسبني كل هذا السب؟.. ألا تحـترم المكـان على الأقل.. إنه مطبعة الكتاب المقدس.. إنه المطبعة التي يطبع فيها كلام الله ووحيه لأنبيائه.. إنه المطبعـة الـتي تطبـع كلام اللـه الوحيـد الـذي تكلم به للإنسان.

قال الثاني: أتحسب أني انحرفت بهذا السـباب.. لقـد تعلمتـه من الكتـاب المقـدس.. تعلمتـه من كلام اللـه لأنبيائـه.. ومن كلام السـيد المسيح..

أتحسب أنك وحدك تعرف الكتاب المقدس.. ألم تقرأ مـا ورد في الأسـفار المقدسـة من أنـواع السـباب.. ألم تقـرأ:(اللـه قـد تكلم بقدسه..موآب مرْحضتي، وعلى أدوم ألْقي حـذائي) (مزمـور60/6-8)!؟

ألم تقرأ ما تنقله الأسفار المقدسة عن شاول أنـه قـال ليوناثـان: (يا ابن المتعوّجـة المتمـردة، أمـا علمت أنـك قـد اخـترت ابن يسّـى (داود) لخزيك وخزي عورة أمك) (صموئيل (1)20/30)!؟

ألم تقرأ ما قال أشعيا لبني إسرائيل:(أما أنتم فتقدموا إلى هنا يـا بني السامرة، نسل الفاسق والزانية..)(أشعيا: 57/3)!؟

ألم تقرأ قول المسيح في الإنجيـل:(وكـان يقـول للجمـوع الـذين خرجوا ليعتمدوا منه يا أولاد الأفاعي من أراكم أن تهربوا من الغضـب الآتي)(لوقا 3:7)

ألم تقـرأ مـا في الإنجيـل من قـول المسسـيح:(فَـالْتَفَتَ وَقَـالَ لِبُطْـرُسَ: (اذْهَبْ عَنِّي يَـا شَـيْطَانُ. أَنْتَ مَعْثَـرَةٌ لِي لأَنَّكَ لاَ تَهْتَمُّ بِمَـا لِلَّهِ لَكِنْ بِمَا لِلنَّاسِ) (متى 16: 23)!؟

ثم أنت تلومـني على بـذاءة لسـاني.. لقـد تعلمتهـا من الكتـاب المقدس.. ألم تقرأ ما في العهد القديم أن الرب قال لنبيـه حزقيـال: (وتأكل كعكاً من الشعير على الخراء الذي يخرج من الإنسان تخـبزه أمام عيونهم. وقال الرب: هكذا يأكل بنو إسرائيل خبزهم النجس بين الأمم الذين أطـردهم إليهم. فقلت آه، يـا سـيد الـرب، هـا نفسـي لم تتنجس ومن صباي إلي الآن لم آكـل ميتـةً أو فريسـةً، ولا دخـل فمي لحم نجس. فقـال لي: انظـر قـد جعلت لـك خنـثى البقـر بـدل خـراء الإنسان، فتصنع خبزك عليه)(سفر حزقيال: 4: 12)

ومثلها ما ورد في سفر ملاخي (2: 3) حين يقول الرب:(ها أنا أعـاقب أولادكم، وأنـثر روث الحيوانـات الـتي تقـدمونها لي على وجوهكم)

ثم ماذا تراني قلت لك، لم أقل لك سوى:(يـا كلب) وأنـا صـادق في ذلك.. فكلانا كلب.. أنا وأنت.. وكل من يعمـل في هـذا المصـنع.. لقد نص على هـذا الكتـاب المقـدس.. وأنـا لم أعـدو مـا في الكتـاب المقدس.. بل لم أعدو كلام المسـيح.. ألم تقـرأ مـا ورد في الأناجيـل من اعتبار كل من لا ينتمي لليهود نسبا كلبا؟

وإن نسيت، فسأقرأ لك..:(ثم غادر يسـوع تلـك المنطقـة، وذهب إلى نواحي صور وصـيدا. فـإذا امـرأة كنعانيـة من تلـك النـواحي، قـد تقدمت إليه صارخة: (ارحمني ياسيد، يـاابن داود! ابنـتي معذبـة جـدا، يسكنها شيطان) لكنه لم يجبهـا بكلمـة. فجـاء تلاميـذه يلحـون عليـه قائلين: (اقض لها حاجتها. فهي تصرخ في إثرنا!) فأجاب: (ما أرسلت إلا إلى الخـراف الضـالة، إلى بيت إسـرائيل!) ولكن المـرأة اقـتربت إليه، وسجدت له، وقالت: (أعني ياسيد!) فأجاب: (ليس من الصواب أن يؤخذ خبز البنين ويطرح لجراء الكلاب!) (متى: 15/21-26)

قـال الأول: مـا دمت تعـرف الكتـاب المقـدس.. وتقـرأ مـا فيـه.. فلماذا تلومني على فعل فعله الأنبياء من قبلي؟.. أم تحسب أني أكثر منهم عصمة أو طهارة؟

أنا لم أتعلم من الكتاب المقدس إلا أن أذنب، ثم أتوب، ثم أواجــه كل من يرميني بالمعصية، بأن أقول له:(إن كنت بلا خطيئة، فـارمني بحجارة)

لقد تعلمت من بولس.. بولس العظيم.. بـولس الـذي فتح للنفس كل أبواب شهواتها أني لن أتبرر بالطاعة.. فلذلك ما حاجتي إليها.

التفت إلى صـاحبي، فوجدتـه يسـتجمع قـوة، وكأنـه ادخرهـا منـذ سـنين، وراح يصـيح: الآن.. الآن فقــط.. نــزل علي من الأشــعة مــا اهتـديت بـه إلى شـمس الحقيقـة.. نعم.. إن الكتـاب المقـدس ليس كتاب شتائم.. هكـذا قـالت لي العـذراء.. لكن أخي تـوأمي أبى إلا أن يقف حجابا بيني وبين الحقيقـة.. لكـني الآن تحـررت.. حررتـني هـذه الشتائم المقدسة..

نعم أنــا الآن حــر.. سـأتنور بشــمس الحقيقــة الـتي ظلت روحي مشتاقة لها منذ دهور..

أنا الآن.. لن أشعر أبدا بالحاجة للدفاع عن هذا الكتاب.. إن ما فيه لا يمكن أن يدافع عنه أمهر المحامين في الدنيا.

اقبل استقالتي ـ حضرة الحبرة ـ فيؤسفني أن أعمـل في مطبعـة تكتب كتابا يعلم هذا الخلق الشتائم..

لقـد قـرأت القـرآن من أولـه إلى آخـره.. فلم أجـد فيـه شـتيمة واحدة.. حتى أولئك الذين امتلأوا عداوة لـه.. لم يخـاطبهم القـرآن إلا بالرحمـة والمـودة.. بـل نهى عن سـبهم.. أنـا أقـرأ في القـرآن:{ وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ } (الأنعام: 108)

اسمعوا يا قوم هذه الكلمات الفائضة من بحار الحقيقة.. هذه هي كلمات الإله.. إنه ينهى عن سب أعدائه، بـل يـبين عـذرهم.. هـذا هـو الإله الذي نعرفه.. وهذه هي كلماته.. فيستحيل على كلمـات اللـه أن تختلف عن صفات الله..

قال ذلك، ثم خرج من المعمل، وهـو يقـول: وداعـا أيهـا الرفـاق.. وأرجوا أن تتـأملوا الحقـائق بكـل موضـوعية لتظفـروا بالأشـعة الـتي ظفرت بها..

خرج الرجل الذي شـيعه العمـال، وفي عيـونهم دمـوع لا يملكـون حبسها، وفي وجوههم علامات اسـتفهام كثـيرة لم أسـتطع أ ن أجيب عنها.

في مساء ذلك اليوم.. وبعد أن سمع أخي بالحادث.. جمع العمـال في المساء.. وألقى عليهم محاضرة في الرمـوز الـتي تحويهـا شـتائم الكتاب المقدس.. لقد تحولت في أذهانهم شتائم مقدسة لا يمكن لها أن تحجبهم عن المسيح، ولا عن كنيسة المسيح.

وفي ذلـك المسـاء.. ومن خلال تلـك المحاضـرة دب إلي بصـيص جديد من النور الذي اهتديت به بعد ذلك إلى أشعة شمس محمد.

مددت يـدي في ذلـك المسـاء إلى محفظـتي لأسـتخرج بعض مـا أحتاجه منها، فامتدت يدي إلى الورقة التي سلمها لي صاحبك، فعدت أقرأ فيها..

لقـد أيقنت حينهـا أن هـذا السـور الثـامن من أسـوار الكلمـات المقدسة لم يتحقق به أي كتاب في الدنيا غير القرآن الكريم.

تاسعا ـ التربية

في اليوم التاسع.. كلفني أخي بالذهاب إلى مدرسة من المدارس التابعة للكنيسة، وقد كـانت هـذه المدرسـة في ضـاحية من ضـواحي الإسكندرية، وكانت تحتـل موقعـا رائعـا، تحيـط بهـا الأشـجار، وتغمـر ساحتها بساتين الورود بأشكالها.. ليعطي كل ذلك توافقا بين التعـاليم التي تدرس، والجو الذي يدرس فيه.

زرت بعض الأقسـام، فبهـرت بمـدى نظامهـا، وجمالهـا، ومـدى انضباط طلبتها، لقد شجعني كـل ذلـك تشـجيعا عظيمـا.. اكتفيت بـه لأعود إلى أخي لأبشره بما رأيت.

لكني لم أسر إلا قليلا في ساحة المدرسة حتى اسـتوقفني رجـل يظهر من شكله أنه معلم بالمدرسة.

وقفت، ورحبت بـه، وقلت: لا شـك أنـك معلم بهـذه المدرسـة المحترمة.

قـال: أجـل.. وأنت ضـيفنا العزيـز الـذي قـدم من بلاده البعيـدة ليشرفنا بزيارته.

قلت: أجل.. لقد تعمدت أن تكون زيارة قصـيرة لئلا أشـغلكم عن وظائفكم النبيلة الـتي تقـدمونها للبشـرية.. أنتم ـ معشـر المعلمين ـ خلفاء رسل المسيح، وحفظة الكتـاب المقـدس.. ولا ينبغي أن تضـيع دقيقة من حياتكم في غير الرسالة التي وكلت لكم.

قال: شكرا على هـذا التقـدير.. وإن سـمحت لي أن أجلس معـك لأحـدثك عن بعض العقبـات الـتي تعترضـنا من أجـل الأداء الأمثـل لوظيفتنا أكون لك شاكرا.

قلت: مـا جئت إلا لأجـل هـذا.. لكـني لم أسـمع من زملائـك من المعلمين إلا الثناء العطـر على الـبرامج وعلى الإدارة وعلى الكنيسـة الراعية.

قال: لقـد منعهم حرصـهم على مناصـبهم من البـوح بمـا أريـد أن أبوح لك به.

قلت: حدثني.. ولا تتحرج من شيء.. فلا ينبغي أن يحول بيننا وبين مصالح متعلمينا أي حائل.

دعاني للجلوس على كرسي من كراسـي السـاحة المليئـة بـأنوع الزهور، وقال: أنت تعلم أن الوظيفة التربوية الكاملة تستدعي تحديـد الغاية التي نريد أن نشكل بها شخصية من نربيه.

قلت: أجل ذلك صحيح..

قال: لقد وضعنا في صلب أهداف هذه المدرسة تشكيل شخصـية تتوافق مع تعاليم الكتاب المقدس.

قلت: كل مدارس الكنيسة تضع هذا الهدف النبيل.

قال: هو هدف نعم.. ولكني ـ للأسف ـ أشك في نبله.

قلت: ما تقول؟.. أتشكك في الحقائق القطعية؟

قـال: أنـا لم أجلس إليـك لأبـوح لـك بمـا أريـد أن أبـوح إلا لعلمي بعقلك ونزاهتك وحرصك على الحق الذي يهدي إليه المنطق السليم.

قلت: أجل.. أنا أحرص الناس على المنطق العقلي السليم.. فهل لديك أي إثباتات على ما تقول؟

قـال: لـو لم أتثبت من كـل كلمـة أقولهـا لمـا جلسـت معـك هـذا المجلس.

قلت: فحدثني عن زبدة ما جعلك تذهب إلى ما ذهبت إليه.

قــال: لقــد عــرفت من خلال اســتقراء حاجــات المتعلمين أنهم يحتاجون ـ لتشكيل شخصـية سـوية ــ إلى تحقيـق ثلاثـة أبعـاد: البعـد الإيماني، والبعد الأخلاقي، والبعد الاجتماعي.

البعد الإيماني:

قلت: فما تريد بالبعد الإيماني؟

قال: جميع المعارف الإيمانية العميقة التي تشكل قناعات المؤمن العقلية والروحية، والتي تبرمجه بعد ذلك ليسير في الحياة وفق ما تمليه حقيقة الكون والإنسان والحياة.

قلت: فقد جاء الكتاب المقدس ليقرر هذه المعارف الكبرى التي تنبني عليها القناعات.

قال: أجل.. وأنا لا أشك في ذلك.. لكني لا أرى للكتاب المقدس كبير اهتمام بهذه الناحية.

قلت: ما تقول؟

قال: مع أن القضايا الإيمانية هي المحور الأساسي للدين إلا أني أجد الكتاب المقدس يكاد يعتبرها قضايا ثانوية.. بل هو أحيانا يسيء إليها من خلال أشياء كثيرة.

قلت: هذا كلام مجمل.. هات تفاصيله.

قال: لو جمعنا جميع ما تحدث به الكتاب المقدس عن الله وصفات الله لم يشكل جميع ما جمعناه إصحاحا واحدا ذا صفحات محدودة.. إن ما ذكره الكتاب المقدس عن صفة الهيكل أو صفة التابوت أو وكلاء داود أكثر بكثير من حديثه عن الله وعن صفات الله وعن قضايا الإيمان.

فكيف تريد من هذه القضايا أن تتقرر في نفوس طلبة الكتاب المقدس، وهم يرون هذا الاحتقار للإيمان في كتابهم الذي ينهلون منه؟

سكت قليلا، وكأنه يريد أن يقول شيئا، ولكنه يتردد في قوله، فأردت أن أزيح تردده، فقلت: كلامك صحيح.. أنا ــ شخصيا ــ أشعر

بهذا.. أفتح الكتاب المقدس لأتعرف على الله.. فأجدني أتيه عن اللــه بأنساب بني إسرائيل.

شعر ببعض الشجاعة، فراح يقول: أجـل.. أحيانـا يخيـل إلي ــ أنـا كذلك ـ أنه كتاب تاريخ.. بل تاريخ أسرة من الأسر البشرية..

والقصور ليس في هذه الناحية فقط.. حتى الأسفار الـتي تتحـدث عن قضايا الإيمان تتحدث عنها بنوع من الإلغـاز لا يفهمهـا إلا خاصـتنا، ولا يفكونه إلا بضروب من التأويل المتكلف.

قلت: كل ما تقوله صحيح.. ولكن ما الحل؟

قال: لست أدري..

ولكـني وجـدت في كتـاب المسـلمين المقـدس نموذجـا صـالحا للكتاب الذي يقرر قضايا الإيمان تقريرا منسجما مع الأهداف التربوية.

لم أكن أتصور أن يحـدثني أحـد في هـذه المدرسـة عن القـرآن.. ولكن الله شاء أن أسمع هذا.. وأسمع معه مقارنة جديدة بين القـرآن والكتاب المقدس لأتعرض لبصيص جديد يقربني إلى محمد ﷺ.

فتح الرجــل شــهيتي للحــديث، فقلت: وهــل تتصــور أن كتــاب المسلمين كتاب ينسجم مع القواعد التربويـة في تشـكيل الشخصـية السوية؟

قال: أجل.. لقد رأيته يركز على الإيمان.. بل ليس هناك كتاب في الدنيا يتحدث عن الإيمان كما يتحدث عنه القرآن.. إن كل صـفحة من صفحاته، بل كل آية من آياته تعرف بالله، وتحبب العباد فيه.. حتى مـا ارتبط منها بالقصص المحض، أو الأحكام المحضة:

اسـمع في القصـص مثلا، وقـارن بين قصـة يوسـف كمـا هي في كتابنا المقدس، وبين قصـة يوسـف في القـرآن، ولنقتصـر منهـا على الفترة التي سجن فيها يوسف.

لقد وضع الكتاب المقدس إصحاحا كاملا لذلك.. فاسمع له لتقارن بينه وبين ما ورد في القرآن من نفس القصة..

أخرج الكتاب المقدس من محفظتـه، وراح يقـرأ (تكـوين: 40/1-23):(وحدث بعد هذه الامور أن ساقي ملك مصر والخبـاز اذنبـا الى سـيدهما ملـك مصـر. فسـخط فرعـون على خصـيّيه رئيس السـقاة ورئيس الخبـازين. فوضـعهما في حبس بيت رئيس الشـرط في بيت السجن المكان الذي كان يوسف محبوسا فيه. فاقـام رئيس الشـرط يوسف عندهما فخدمهما. وكانا اياما في الحبس وحلما كلاهمـا حلمـا في ليلة واحدة كل واحد حلمه كل واحد بحسب تعبـير حلمـه. سـاقي ملك مصر وخبازه المحبوسان في بيت السجن. فدخل يوسف اليهمـا في الصباح ونظرهما واذا هما مغتمّان. فسأل خصيّي فرعـون اللـذين معه في حبس بيت سيده قائلا لماذا وجهاكما مكمّدان اليوم. فقالا لـه حلمنا حلما وليس من يعبره. فقال لهما يوسف أليسـت للـه التعـابير. قصا عليّ فقصّ رئيس السقاة حلمه على يوسف وقـال لـه كنت في حلمي واذا كرمة امامي. وفي الكرمة ثلاثـة قضـبان. وهي اذ أفـرخت طلع زهرها وانضجت عناقيدها عنبا..) إلى آخر ما ورد.

أغلق الكتاب المقدس، وقال: القرآن يتناول نفس المشهد، ولكنه يتناولـه بصـورة مغـايرة تمامـا.. فبينمـا يركـز المشـهد التـوراة على الأحداث في حد ذاتها، فيفصل في ذكر الأحلام وأخبار الحالمين، وفي النتيجة النهائية التي تتوافق مع تعبـير يوسـف، ولا يـذكر في كـل هـذا الزخم الله، وكأن القصة ليس لها من هدف إلا الأحداث التي تحملها.

بينما القرآن يخالف ذلك، فيملأ القصة بذكر الله، ليقـرب القلـوب منه، ويبني الشخصية السوية على التعـرف عليـه.. اسـمع لمـا يقـول القرآن.. أخرج مصحفا من محفظته، وراح يقرأ:{ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّـجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقَالَ الآخَـرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِـلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَـرَاكَ مِنْ الْمُحْسِـنِينَ } (يوسف:36)

نظر إلي، وقال: لقد اكتفى القرآن بهذا الموجز المختصر من ذكر

الحلم ليترك الحصة الأكبر للإيمان.. اسمع ما ذكره يوسف إجابة لهما: { قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (37) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (38) يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (39) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (40)(يوسف)

أرأيت.. أربع آيات تتحدث عن الله والتعريف به وتحبيب القلوب فيه، ليعود بعدها ليفسر الحلم في آية واحدة، ويكتفي بها عن كل تلك التفاصيل التي ساقها الكتاب المقدس.. اسمع:{ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ} (يوسف:41)

سكت قليلا، ثم قال: في جميع قصص القرآن نجد هذا الأسلوب.. القرآن لا يقصص القصص لأجل القصص، وإنما لأجل تثبيت قضايا الإيمان.. هو يتخذ من القص الذي تشتهيه النفوس وسيلة لجذبها إلى الإيمان.

وفي الأحكام نجد نفس الأسلوب.. وتستطيع أن تجري مقارنة بسيطة بين النصوص التي وردت في أحكام الطلاق في الكتاب المقدس، وبين مثيلتها في القرآن.

ففي الكتاب المقدس، وفي (تثنية: 24/1-5):(ـ 1 اذا اخذ رجل امرأة وتزوج بها فان لم تجد نعمة في عينيه لانه وجد فيها عيب شيء وكتب لها كتاب طلاق ودفعه الى يدها واطلقها من بيته ومتى خرجت من بيته ذهبت وصارت لرجل آخر فان ابغضها الرجل الاخير وكتب لها كتاب طلاق ودفعه الى يدها واطلقها من بيته او اذا مات الرجل الاخير الذي اتخذها له زوجة لا يقدر زوجها الاول الذي طلقها ان يعود ياخذها لتصير له زوجة بعد ان تنجست. لان ذلك رجس لدى الرب.

فلا تجلب خطية على الارض التي يعطيك الرب الهـك نصـيبا اذا اتخـذ رجل امرأة جديدة فلا يخرج في الجند ولا يحمـل عليـه امـر مـا. حـرا يكون في بيته سنة واحدة ويسرّ امرأته التي اخذها)

أرأيت.. الكتاب المقدس ينص على الأحكام كما تنص عليها جميـع قوانين الدنيا.. وإذا ذكر الله ذكـره بعنصـرية مقيتـة:(لان ذلـك رجس لدى الـرب. فلا تجلب خطيـة على الارض الـتي يعطيـك الـرب إلهـك نصيبا)

بينما القرآن يتناول مسائل الطلاق بتفصيل كثير، ويربطها بالإيمان ربطا وثيقا.. اسمع:{ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ وَلا يَحِـلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحاً وَلَهُنَّ مِثْـلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِـالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَـالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَـةٌ وَاللَّهُ عَزِيـزٌ حَكِيمٌ (228) الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلاَّ أَنْ يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَـا حُـدُودَ اللَّهِ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ (229) فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْـدُ حَتَّى تَنكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَـا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُـونَ (230) وَإِذَا طَلَّقْتُمْ النِّسَـاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِـكُوهُنَّ بِمَعْـرُوفٍ أَوْ سَـرِّحُوهُنَّ بِمَعْـرُوفٍ وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَـلْ ذَلِـكَ فَقَـدْ ظَلَمَ نَفْسَـهُ وَلا تَتَّخِـذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً وَاذْكُـرُوا نِعْمَـةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَـا أَنـزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ الْكِتَـابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَـيْءٍ عَلِيمٌ (231) وَإِذَا طَلَّقْتُمْ النِّسَـاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُـلُوهُنَّ أَنْ يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِـرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَـرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُـونَ (232)} (البقرة)

هل رأيت الفرق.. لا يكاد يمـر سـطر من سـطور هـذه الآيـات إلا وهو يذكر الله، ويذكر به، وهو يذكر بإله العالمين لا إله إسرائيل، وهـو

يصف الله بالأوصاف التي تحبب القلوب فيه، وتربط الشخصية به.

وهكذا في جميع أحكام القرآن.. وهكذا في جميـع أحكـام الكتـاب المقدس.

القرآن يستغل كل مناسبة ليعرف بالله، ويكون الشخصية السوية على أساسـه، بينمـا يتيـه الكتـاب المقـدس في جزئيـات الأحكـام وتفاصيلها.

البعد الأخلاقي:

قلت: عـرفت مـا تريـد من البعـد الإيمـاني.. فمـا تريـد من البعـد الأخلاقي؟

قـــال: أنت تعلم أن الأخلاق هي تنظيم ســـلوك النفس بحيث تنسجم مع نفسها ومع العلاقات التي ترتبط بها.

قلت: أجل.. وقد أحسنت في ذكرك لانسجام النفس مع نفسـها.. فأول الخلق يبدأ من النفس ومع النفس.. ومن لم يتخلـق مـع نفسـه لم يتخلق مع غيرها.

قال: أجل.. ولكن الشأن ليس في تعريف الخلق، وإنما في تربيـة النفس عليه.

قلت: ألا ترى في الكتاب المقدس ما يكفي لهذه الناحية؟

قال: أصدقك في هذا البعد كمـا صـدقتك في ذلـك البعـد.. لسـت أدري أي شخصية أخلاقية يمكن للكتاب المقدس أن يؤسسها؟

قلت: ما الذي تقصد؟

قال: في الكتـاب المقـدس نمـاذج متناقضـة.. ولسـت أدري أيهـا يصلح لأن يكون محل قدوة.. فهناك العفيف الذي لا يمد حتى بصـره، وهناك المنحرف الذي لا ينجو منه حتى محارمـه.. وهنـاك المسـالم.. وهناك المحارب الظالم..

قلت: هذه نماذج الناس.. ولا بد أن يتحدث الكتاب المقـدس عنهـا جميعا.

قال: ليس العيب في أن يتحدث عنهـا.. ولكن العيب في أن يثـني عليها.. بل يدعو لها.

سكت قليلا، وقال: إذا درسنا للطالب نموذج شمشون.. فما تـراه يخرج لنا؟

لم أدر بما أجيبه، فقال: سيخرج لنا طلبـة يمارسـون مـا يمارسـه الفتوة.

قلت: فدرسوهم نماذج أخرى.

قال: كل نموذج ندرسه نجد فيه من العيـوب مـا يحـول بيننـا وبين اعتباره نموذجا مثاليا لصاحب الخلق الرفيع.. بالإضافة إلى ذلك لا نجد في الكتاب المقدس احتراما للأخلاق، ولا تعظيما لها، ولا تبينـا لسـبيل تحصيلها، ولا ذكرا لآحاد أفرادها مما يملأ النفس بها.

قلت: هـذه الأمـور ممـا يجتهـد فيـه العقـل.. ولا علاقـة للكتـاب المقدس بمثل هذا.

قـال: ولكـني رأيت كتـاب المسـلمين.. القـرآن.. وكأنـه مدرسـة متكاملة في الأخلاق.. فهو يعظمها، ويحترمهـا، ويصـف بهـا المقـربين الصالحين.

وهو لا يكتفي بذلك، بل يضم إليها التعريـف بآحـاد الأخلاق، وتبـيين كيفية تحصيلها.

لقـد قـرأت القـرآن من أولـه إلى آخـره، وأعـدت قراءتـه مـرات عديدة، فلم أجد فيه إلا تعليم الكمال الخلقي، بل تمرين النفس عليه.

لست أدري كيف قلت له من غـير أن أشـعر: حـدثني عن الأخلاق في القرآن كما حدثتني عن الإيمان في القرآن.

قال: أول ما يشدك في القرآن من تعظيمه للخلق هو ما ورد فيه من الثناء على محمد بحسن الخلق.. إنك تجد فيه هذه الآية العظيمة التي تجعل من كل قلب متلهفا لتحصيل معناها:{ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم:4)

ولهذا صار مقياس الكمال عند المسلمين هو حسن الخلق.. فنبيهم يقول لهم:(خياركم أحاسنكم أخلاقا)[1]، ويقول لهم:(إن من أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا، وخياركم خياركم لنسائهم)[2]، ويقول لهم:(إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا وإن من أبغضكم إلي وأبعدكم مني يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيقهون) قالوا:(يا رسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون) قال:(المتكبرون)[3]

ويجعل الدرجات العليا والأجور العظيمة من نصيب من حسن خلقه، فيقول:(ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق، وإن الله تعالى ليبغض الفاحش البذيء)[4]، ويقول:(أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقا، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحا، وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه)[5]، بل أخبر محمد أن (المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم)[6]

قلت: طلبت منك أن تحدثني عن القرآن لا عن أقوال محمد.

---

(1) رواه أحمد.

(2) رواه الترمذي.

(3) رواه الترمذي.

(4) رواه الترمذي.

(5) رواه الطبراني.

(6) رواه أبو داود.

قال: أقوال محمد تفسير للقرآن وبيان له.. بل كان محمد بسلوكه ينهج نهج القرآن، ويحاول أن يكون النموذج المثالي الذي تطبق به تعاليم القرآن.

ومع ذلك سأذكر لك من القرآن ما تقر به عينك:

إن القرآن لا يتعامل مع الأخلاق كما يتعامل معها الفلاسفة وعلماء النفس ممن يهتمون بتأصيلها.. القرآن لا يهتم بالتأصيل بقدر ما يهتم بغرس بذور الأخلاق لتنمو بعد ذلك طيبة يانعة.. اسمع هذا النص الذي يريد أن يربي نموذج الإنسان المثالي الذي يفي بنذره وعهوده، والذي يبذل ماله في سبيل معونة غيره من غير أن ينتظر منهم جزاء ولا شكورا..

إن القرآن يلتف حول رغبات النفس ورهباتها ليربي فيها هذه الأخلاق الرفيعة.. اسمع الآيات وحاول أن تتخيلها، وتعيش معانيها: { إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (5) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (6) يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (7) وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (8) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (9) إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (10) فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (11) وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (12) مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا (13) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا (14) وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ (15) قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (16) وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا (17) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا (18) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا (19) وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا (20) عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (21) إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا (22)(الإنسان)

لقد اكتنف تلك الأخلاق الرفيعة التي ذكرها القرآن ترغيب وترهيب لتنطلق النفس من نفسها، ومن قناعاتها الإيمانية لتمارس

الخلق من غير أن تنتظر من أحد جزاء ولا شكورا.

واسمع هذا النص الذي يحتل فيه الباذلون المضحون المؤثرون قمم الكمال الإنساني بالنظرة القرآن.. { لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (8) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (9)}(الحشر)

فالصدق والفلاح ـ حسب هذه الآيات ـ محصور في أولئك الباذلين المضحين الذين ضحو برغباتهم الشخصية من أجل القيم التي يؤمنون بها.

وهكذا في كل القرآن..لا نجد الثناء إلا على النماذج الرفيعة التي تمثلت فيها الأخلاق بأكمل مظاهرها.. اسمع هذه الآية:{ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (الأحزاب:35)

بل إن القرآن لا يكتفي بذلك الثناء على أصحاب الأخلاق الرفيعة، ولا بتلك الأجور التي يدخرها لهم.. بل يخبر أن محبة الله قاصرة على هؤلاء.

ففي القرآن الآيات الكثيرة الدالة على حب الله لعباده الصالحين، وذكر الأوصاف التي استحقوا بها تلك المحبة الشريفة، وفي ذلك أعظم ترغيب في تلك الأخلاق.

ويتربع عرش هذه الأوصاف صفة الإحسان الجامعة لجميع مجامع الخير.. { وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (البقرة:195).. { الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ

وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (آل عمران:134)..{ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (آل عمران:148).. { فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (المائدة: 13).. { لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (المائدة:93)

والسر في هذه المحبة ما وضحه محمد بقوله:(إن الله جميل يحب الجمال)[1]، والمحسن هو الذي اكتمل جمال روحه حتى صار مجلاة للحق، وصار بذلك أهلا لمحبة الحق، كما ورد في القرآن:{ هَلْ جَزَاءُ الْأِحْسَانِ إِلَّا الْأِحْسَانُ) (الرحمن:60)، وفيه:{ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (يونس:26)

ومن أوصاف المحبوبين التوبة والطهارة، لقد جاء في القرآن: { إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) (البقرة: 222).. { لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ) (التوبة:108)

ومن أوصاف المحبوبين صفة التقوى الحاجزة عن المعصية.. { بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) (آل عمران:76)..{ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) (التوبة:4)..{ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) (التوبة:7)

ومن أوصاف المحبوبين الصبر:{ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ) (آل عمران:146)

---

(1) رواه مسلم.

ومن أوصاف المحبوبين التوكل على اللـه:{ فَبِمَـا رَحْمَـةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيـظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّـوا مِنْ حَوْلِـكَ فَـاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَـإِذَا عَـزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) (آل عمران:159)

ومن أوصـاف المحبـوبين القسـط::{ وَإِنْ حَكَمْتَ فَـاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)(المائدة: 42)..{ لا يَنْهَـاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَـاتِلُوكُمْ فِي الـدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُـوكُمْ مِنْ دِيَـارِكُمْ أَنْ تَبَـرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) (الممتحنة:8)

ومثل ذلك ما ورد من النصـوص الـتي تـبين الأمـور الـتي لا يحبهـا الله:{ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَـدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) (البقرة:190).. {وَإِذَا تَوَلَّى سَـعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِـدَ فِيهَـا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ) (البقرة:205).. { يَمْحَــقُ اللَّهُ الرِّبا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ) (البقــرة:276).. { قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَـإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَـافِرِينَ) (آل عمران:32).. { وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـالِحَاتِ فَيُـوَفِّيهِمْ أُجُـورَهُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ) (آل عمـران:57).. {وَاعْبُـدُوا اللَّهَ وَلا تُشْـرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُـرْبَى وَالْجَـارِ الْجُنُبِ وَالصَّـاحِبِ بِـالْجَنْبِ وَابْنِ السَّـبِيلِ وَمَـا مَلَكَتْ أَيْمَـانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَـانَ مُخْتَـالاً فَخُـوراً) (النسـاء:36).. {وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانـاً أَثِيمـاً) (النسـاء:107).. { لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْـرَ بِالسُّـوءِ مِنَ الْقَـوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً) (النساء:148).. { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَـدِينَ) (المائـدة: 87).. { يَا بَنِي آدَمَ خُـذُوا زِينَتَكُمْ عِنْـدَ كُـلِّ مَسْـجِدٍ وَكُلُـوا وَاشْـرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ) (لأعراف:31).. { ادْعُـوا رَبَّكُمْ تَضَـرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) (لأعراف:55)

والقرآن لا يكتفي بكل ذلك، بـل يضـع أصـول الأخلاق الـتي تجمـع فروعها، وأول ما يفاجئنا في القرآن من هـذه الأصـول هـو هـذه الآيـة

التي تجتمع فيها جميع مكارم الأخلاق:{ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْـرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (لأعراف:199)

وقد حاول علماء المسلمين انطلاقا من هذا أن يبينوا وجه انحصار الأخلاق في هــذه الأصــول، فقــال القرطــبي:(هــذه الآيــة من ثلاث كلمات، تضمنت قواعد الشريعة في المأمورات والمنهيات. فقولــه:{ خُذِ الْعَفْوَ } دخل فيه صلة القـاطعين، والعفـو عن المـذنبين، والرفـق بالمؤمنين، وغير ذلك من أخلاق المطيعين. ودخــل في قولـه:{ وَأْمُـرْ بِـالْعُرْفِ } صـلة الأرحـام، وتقـوى اللــه في الحلال والحـرام، وغض الأبصـــار، والاســـتعداد لـــدار القـــرار. وفي قولـــه:{ وَأَعْـــرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ } الحض على التعلـق بـالعلم، والإعـراض عن أهـل الظلم، والتنزه عن منازعة السفهاء، ومساواة الجهلة الأغبياء، وغير ذلــك من الأخلاق الحميدة والأفعال الرشيدة)[1]

ومن الآيات الجامعة أصول الأخلاق ما جاء في القــرآن في ذكــر أوصـاف المؤمـنين:{ إِنَّمَـا الْمُؤْمِنُـونَ الَّذِينَ آمَنُـوا بِاللَّهِ وَرَسُـولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (الحجرات:15)

وقد انطلق الغزالي.. وهو عالم الأخلاق المسـلم.. من هـذه الآيـة ليـبين الأصـول الـتي تجتمـع فيهـا الأخلاق، فقـال:(فالإيمـان باللـه وبرسوله من غير ارتياب هـو قـوّة اليقين، وهـو ثمـرة العقـل ومنتهى الحكمة، والمجاهدة بالمال هـو السـخاء الـذي يرجـع إلى ضـبط قـوة الشهوة، والمجاهدة بالنفس هي الشجاعة الـتي ترجـع إلى اسـتعمال قوّة الغضب على شرط العقل وحدّ الاعتدال)

وبما أن الأخلاق تعني التوازن بين لطـائف النفس وطاقاتهـا، فإنـا نرى القرآن يحض على الاعتدال.. وكمثـال قـرآني على ذلـك موقـف القـرآن من أكـل الشـهوات أو اسـتعمالها، والـذي تنشـأ عنـه الأخلاق الخاصة بهـذه القـوة من قـوى الإنسـان، فقـد ورد ذكـره في القـرآن

(1) القرطبي: 7/344.

الكــريم مقيــدا بمــا يمنعــه من الطغيــان:{ وَهُــوَ الَّذِي أَنْشَــأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَـاتٍ وَغَيْـرَ مَعْرُوشَـاتٍ وَالنَّخْـلَ وَالـزَّرْعَ مُخْتَلِفـاً أُكُلُـهُ وَالزَّيْتُـونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُـوا مِنْ ثَمَـرِهِ إِذَا أَثْمَـرَ وَآتُـوا حَقَّهُ يَـوْمَ حَصَادِهِ وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (الأنعام:141)

ففي هذه الآية دعوة للأكل تنافي ما يدعو إليه الرهبان من الجوع، ولكنها لا تنسجم كذلك مع ما يدعوا إليه أهل الشـهوات من الاقتصـار على الأكل المجرد، بل تضم إليه أمرين: الأول عدم الإسراف، حتى لا ينمي هذا الأكل في الإنسان أخلاق اليهيمية التي لا تبالي ما تأكـل، ولا كيف تأكل، وهذا ما نص عليه القـرآن:{ يَـا بَنِي آدَمَ خُـذُوا زِينَتَكُمْ عِنْـدَ كُـــــلِّ مَسْــــجِدٍ وَكُلُـــــوا وَاشْـــــرَبُوا وَلا تُسْـــــرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (لأعراف:31)

والثاني البـذل، وعـدم نسـيان المحتـاجين، لأن الشـهوة قـد تولـد الحرص المولد للبخل، فلذلك تعارض الشهوة بالبذل.

ومن الأمثلـة ــ كـذلك ــ مـا ورد في القـرآن من الحض في وقت واحـد على الإنفـاق والتقتـير:{ وَلا تَجْعَـلْ يَـدَكَ مَغْلُولَـةً إِلَى عُنُقِـكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً﴾ (الاسـراء:29)، فغـل اليـد إلى العنق يولد صفة البخل، وهي من شر الصفات، وبسـط اليـد كـل البسط، قد يولد الفاقة والفقر، وهو كذلك منبع من منابع الانحراف.

وبما أن الأخلاق تحتاج إلى ضوابط تحميها من من طرفي الإفراط والتفريط، وتجعلها متناسقة مع بعضها البعض، فلا يطغى فيهـا جـانب على جانب بحيث يؤثر ذلك في جماله وكمالـه، فقـد عـبر القـرآن عن هذه الضوابط التي تحمي الأخلاق بمصـطلح (الاسـتقامة)، الـذي ورد في مواضع متعددة من القرآن:{ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَـزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَـــةُ أَلَّا تَخَـــافُوا وَلا تَحْزَنُـــوا وَأَبْشِـــرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَـدُونَ﴾ (فصـلت:30)،{ إِنَّ الَّذِينَ قَـالُوا رَبُّنَـا اللَّهُ ثُمَّ اسْـتَقَامُوا فَلا خَـوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُـونَ﴾ (الاحقـاف:13)،{ وَأَلَّوِ اسْـتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً﴾ (الجـن:16)

البعد الاجتماعي:

قلت: فما تريد بالبعد الاجتماعي في التربية؟

قال: هو البعد الذي يهيء الفرد للتعايش الإيجـابي مـع المجتمـع.. وهو يقتضـي السـلوك الأمثـل الـذي يجعـل الفـرد إلفـا مألوفـا، محبـا محبوبا، وهو ما يطلق عليه (آداب العلاقات الاجتماعية)

ويقتضي التأثير الإيجابي في المجتمـع بخدمتـه وإفادتـه، ومحاولـة الاسـتغناء عنـه، وهـو مـا يطلـق عليـه (المسـاهمة في التنميـة الاجتماعية)

قلت: هل ترى الكتاب المقدس اهتم بهاتين الناحيتين؟

قال: يؤسفني أن أذكر لك بأنه يناقض ما تتطلبه هاتين النـاحيتين.. فالسـلوك الـذي يظهـر بـه من يعتـبرهم قـدوة يتنـافى مـع السـلوك الاجتماعي السليم..

فالمسيح الذي هو الرمز والمثال والنموذج الأمثل.. يقوله الكتـاب المقدس أقوالا كثيرة تتنافى مع السلوك الاجتماعي السليم:

فهو يهين أمه وسط الحضور، ويقول لها:(مـالي ولـك يـا إمـرأة) (يوحنا:2: 4)؟

وهو يهين معلمي الشريعة بقوله لهم:(يا أولاد الأفـاعي)(مـتى:3: 7)؟.. وبقوله لهم:(أيها الجهال العميان)(متى:23: 17)؟

وهو يهين تلاميذه، ويشتمهم، إذ قال لبطرس كبير الحـواريين:(يـا شيطان) (متى:16:ـ 23)، وشتم آخرين منهم بقولـه:(أيهـا الغبيـان، والبطيئا القلوب في الإيمان) (لوقا 24: 25).. مع أنه هو نفسه الذي قال لهم:(قد أعطى لكم أن تفهموا أسـرار ملكـوت اللـه)(لوقـا: 8: 10)؟

وهو الذي يشتم أحد الـذين استضـافوه ليتغـدى عنـده، وجعلتمـوه

يشتمه في بيته:(سأله فريسي أن يتغذى عنده، فدخل يسـوع واتكـأ، وأما الفريسي فلما رأى ذلك تعجب أنـه لم يغتسـل أولاً قبـل الغـداء، فقال له الرب:(أنتم الآن أيها الفريسيون تنقون خـارج الكـأس، وأمـا باطنكم فمملوء اختطافاً وخبثاً يا أغبياء، ويـل لكم أيهـا الفريسـيون)، فأجـاب واحـد من الناموسـيين، وقـال لـه: يـا معلم، حين تقـول هـذا تشتمنا نحن أيضاً، فقال:(وويـل لكم أنتم أيهـا الناموسـيون) (إنجيـل لوقا:11: 39)؟

وهـــو الـــذي يطلب من تلاميـــذه عـــدم إفشـــاء الســـلام في الطريق(لوقا: 10: 4)؟

وهـو الـذي يقـول:(لا تعطـوا القـدس للكلاب ولا تطرحـوا درركم قدام الخنازير)(متى:7: 6)؟

وهو الذي يكـذب على إخوتـه، كمـا في إنجيـل يوحنـا(7:ـ 3) أن إخوة المسيح طلبوا منه أن يصعد إلي عيد المظال عنـد اليهـود، فـرد عليهم قائلاً:(اصعدوا انتم إلي العيد، فأنا لا أصعد إلي هذا العيد.. ولما صعد إخوته إلي العيد، صعد بعدهم في الخفية لا في العلانية)؟

قلت: ولكن المسيح أوصانا بمحبة أعدائنا.

قال: نعم.. هو أوصانا بـذلك.. ولكنـه قـال في نفس الـوقت بكـل قسوة:(أما أعدائي الذين لم يريدوا أن أملك عليهم فأتوا بهم إلى هنا واذبحـوهم قدامي) (لوقا: 19: 27)

نعم.. نحن نروي وصيته لنا بأعدائنا، ولكنا في نفس الوقت نجعلـه يأمرنا بكل قسوة ببغض أقرب الناس إلينا.. لقـد جـاء في (لوقـا:14: 26):(إن جاء إلي أحد، ولم يبغض أباه وأمه وزوجتـه وأولاده وإخوتـه وأخواته، بل نفسه أيضا، فلا يمكنه أن يكون تلميذا لي)؟

بل إنـه يقـول:(لا تظنـوا أني جئت لألقي سـلاما على الأرض. مـا جئت لألقي سلاما، بل سيفا.فإني جئت لأجعل الإنسان على خلاف مع أبيه، والبنت مع أمها، والكنة مع حماتها) (متى: 10: 34)

بل جعله الكتـاب المقـدس يقـول:(جئت لألقي على الأرض نـارا، فلكم أود أن تكون قد اشتعلت؟) (لوقا 12: 49)

الكتاب المقدس لم يكتف بكل ذلك، بل إنه جعلت المسيح يتجـرد من أبسط مظاهر الرحمة ليلعن شجرة مسكينة لا ذنب لها سوى أنها لم تثمر.. ولم تثمر من عندها، بل لأنه لم يكن وقت الثمر.. لقـد جـاء في (مرقس:11:ـ 12):(وفي الغد، بعدما غادروا بيت عنيا، جـاع. وإذ رأى من بعيد شجرة تين مورقة، توجه إليها لعله يجد فيها بعض الثمر. فلما وصل إليها لم يجد فيهـا إلا الـورق، لأنـه ليس أوان الـتين. فتكلم وقال لها: (لا يأكلن أحد ثمرا منك بعد إلى الأبد)؟

ولم يكتف بالشجر، بل راح يلحـق الأذى بالحيوانـات البريئـة.. بـل يتسبب بمقتل ألفي حيوان في وقت واحد.. كما في (مرقس: 5: 11):(وكان هناك قطيع كبير من الخنازير يـرعى عنـد الجبـل، فتوسـلت الأرواح النجسة إلى يسوع قائلـة: أرسـلنا إلى الخنـازير لنـدخل فيهـا، فأذن لها بذلك، فخرجت الأرواح النجسة ودخلت في الخنازير، فاندفع قطيع الخنازير من على حافة الجبل إلى البحيرة، فغـرق فيهـا، وكـان عدده نحو ألفين)؟

أذكر أني درست النص على طلابي، فقال لي أحـدهم بكـل جـرأة ما ذنب الخنـازير وصـاحب الخنـازير، حين أراد إخـراج الشـياطين من المجنون؟

وقال لي آخر: ألم يكن من الأجدى إخراج الشياطين دون الإضرار بالخنازير؟!

أما سائر الطلاب، فضحكوا..

لقد شوه هذا النص وغيره كل ما نقوله لهم عن سـماحة المسـيح وسلام المسيح.

هذا بعض ما في كتب البشارات..

أما العهد القديم.. فحدث ولا حرج..

قلت: أعرف هذا وغيره.. فهل ترى القرآن خاليا من مثل هذا؟

قال: ليس خاليا فقط.. بـل في القـرآن نظـام اجتمـاعي متكامـل يخدم كلام الجانبين: السلوك الاجتماعي، والمساهمة الاجتماعية.

قلت: فحدثني عن السلوك الاجتماعي في القرآن.

قال: ذلك طويل.. ولكني سأقرأ لك فقط بعض الآيات الـتي تـبين اهتمام القرآن بالآداب الاجتماعية.. لقد ورد في موعظة لقمــان:{ وَلا تُصَــعِّرْ خَــدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحــاً إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُــلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (لقمان:18)

وورد في القرآن التنبيـه إلى كثـير من أصـول الآداب الاجتماعيـة، كآداب الاستئذان، كمـا في هـذه الآية:{ وَإِذَا بَلَـغَ الْأَطْفَـالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَـذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِـهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (النور:59)

أو آداب الزيـارة كمـا في هـذه الآية:{ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَـرَجٌ وَلا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُـوتِكُمْ أَوْ بُيُـوتِ آبَـائِكُمْ أَوْ بُيُـوتِ أُمَّهَـاتِكُمْ أَوْ بُيُـوتِ إِخْـوَانِكُمْ أَوْ بُيُـوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُـوتِ أَخْـوَالِكُمْ أَوْ بُيُـوتِ خَالاتِكُمْ أَوْ مَـا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَـهُ أَوْ صَـدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَـاحٌ أَنْ تَـأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (النور:61)

أو آداب المجالس، كما في هذه الآية:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا إِذَا قِيـلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيـلَ انْشُـزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (المجادلة:11)

أو آداب الكلام، كما في هذه الآيات:{ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ

مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ (لقمان:19)..﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ (الحجرات:2)

أو آداب التحية، كما في هذه الآية:﴿ وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً﴾ (النساء:86)

أو آداب المشي، كما ورد في موعظة لقمان:﴿ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (لقمان:18)،ـ وكما في هذه الآية:﴿ وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾ (الاسراء:37)

أو آداب التعامل مع مختلف أصناف الناس بما يناسبهم، كما في هذه الآية:﴿ لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً ﴾ (النور:63)

وهكذا في آيات قرآنية كثيرة.. وهذه الأوصول تدعم كل واحد منها أحاديث كثيرة، ومباحث فقهية واسعة تخدمها وتخدم الطريقة المثلى لتنفيذها.

أما المساهمة الاجتماعية فنجدها واضحة في القرآن.. واضحة المعالم، واضحة الأصول:

وتبدأ هذه المساهمة بالتناصح بين المؤمنين، والتواصي بينهم على الحق..:﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ (البلد:17)..﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (العصر:3)

وإلى هذا الإشارة بقول لقمان في وصيته لابنه:﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (لقمان:17)

وقد اعتبر القرآن هذا التناصح خاصة من خصائص أمة محمد، فقال:{ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران: 110)

بل اعتبر أداء هذا الركن من علامات المؤمنين الصادقين، فقال:{ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (آل عمران:114)، وقال:{ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة:71)، وقال:{ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ_ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (التوبة:112)

بل إعتبره من صفات الرسول الأساسية:{ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْأِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (لأعراف:157)

واعتبره بعد ذلك من علامات صحة التمكين في الأرض:{ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (الحج:41)

والقرآن لا يكتفي بهذه المساهمة مع أهميتها بل يضم إليها رعاية جميع الحاجات.. ابتداء من الحاجة إلى الطعام، وانتهاء بالحاجة إلى الأمن:

فالقرآن يحض على رعاية هذه الحاجات، فيقول:{ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ

وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ (المدثر:38 ـ 48)

فقد اعتبرت هذه الآيات عدم إطعام المساكين من الجرائم التي تسبب الدخول في جهنم، بل تقرن هذه الجريمة بترك الصلاة، ثم تقدم على التكذيب بالدين، ثم يتوعدون بعدم نفع الشافعين فيهم.

بل لم يعف القرآن الكريم من هذا الواجب حتى العامة من الناس الذين لا يملكون ما يطعمون غيرهم، لأنه لم يأمر بالإطعام فقط، بل أمر بالحض على الإطعام، ليشمل هذا الأمر الجميع:{ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمّاً وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً﴾ (الفجر:17 ـ 20)

ويذكر القرآن موقفا من مواقف القيامة الشديدة، فيقول:{ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ لا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ (الحاقة:30 ـ 37)

بل نجد هذا في سورة كاملة تكاد تكون خاصة بهذا الجانب يعتبر من لا يحض على طعام المسكين مكذبا بالدين:{ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ }(الماعون:1 ـ 7)

أما المساهمة في الأمن الاجتماعي، فقد برر القرآن الأمر بالجهاد مع كونه إزهاقا للأرواح التي جاءت الشريعة لحفظها بكونه وسيلة لحفظ أرواح المستضعفين:{ وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً﴾ (النساء:75)

***

ما إن وصل من حديثه إلى هذا الموضع حتى رأينا مدير المدرسة وهو قادم نحونا، فصافحني الأستاذ وانصرف.. وهو يقول: اكتم عني ما ذكرته لك.. فلم أذكره في جميع حياتي لغيرك.

قلت: لا حرج عليك.. وأنت لم تقل إلا خيرا.. لم تقل إلا ما هداك إليه عقلك.

انصرف شاكرا.. وقد بدت عليه أنوار كثيرة يمنعها الخوف من الظهور.. ولكنها يوشك أن تتمرد على خوفها لتتمتع بأشعة شمس محمد.

مددت يدي إلى محفظتي لأستخرج بعض ما أحتاجه منها، فامتدت يدي إلى الورقة التي سلمها لي صاحبك، فعدت أقرأ فيها..

لقد أيقنت حينها أن السور التاسع من أسوار الكلمات المقدسة لم يتحقق به أي كتاب في الدنيا غير القرآن الكريم.

عاشرا ـ الجمال

في اليـوم العاشـر من رحلـتي إلى الإسـكندرية، جـاءتني رسـالة مسـتعجلة من كنيسـتنا في ألمانيـا تطلب مـني الحضـور السـريع.. دهشت لهذه الرسالة، ولهذا الاستعجال الذي لم أتعوده منها.

حزمت أمتعتي، وودعت أخي الذي واصل مكوثـه في الإسـكندرية لإكمال ما أوكل إلينا من مهام..

بحثت عن سـيارة توصـلني إلى القـاهرة، لأمتطي الطـائرة الـتي تعود بي إلى بلدي، فلم أجد.. لم أعرف السبب حينها، ولكني عــرفت بعد ذلك أن الله أراد أن لا أجد أي سيارة، لأتعـرض لشـعاع جديـد من أشعة محمـد ﷺ، ولأتعـرف على السـور الأخـير من أسـوار الكلمـات المقدسة..

اقترب مني أحد العمال في مطبعتنا، وقال: أراك مســتعجلا.. إلى أين تريد الذهاب؟

قلت: إلى القاهرة.. لقد جاءتني رسالة مستعجلة، ولا بد أن أكون مساء هذا اليوم في القاهرة لأرحل غدا باكرا إلى بلدي.

قال: لدي حل إن كنت تقبله.

قلت: وما هو؟

قال: لدينا شاحنة تذهب كل أسبوع إلى القاهرة لتحمل نسخا من الكتاب المقـدس إلى كنائسـنا ومكتباتنـا هنـاك.. وهي ستسـير الآن.. فإن كـان ذلـك لا يضـيرك، فتعـال لـتركب فيهـا، فتتشـرف الشـاحنة، ويتشرف صاحبها بصحبتك.

قلت: شكرا على هذا العرض الطيب.. بـل الشـرف لي أن أركب شاحنة تحمل نسخ الكتاب المقدس.

قال: فهيا إذن..

سـرت معـه إلى الشـاحنة، وجلسـت في المقعـد أمـام السـائق، وانتظرت برهة، فإذا بالعامل نفسه يجلس في كرسي السائق، قلت: أنت هو السائق إذن؟

قـال: أجـل.. لقـد كنت أراك دائمـا.. وكـان لي شـوق أن أجلس معك، وقد أتاح الله لي هذه الفرصة لتسير معي كل هذه المسافة.

قلت: ما اسمك؟

قال: لويس بشارة..

قلت: أنت مسيحي إذن؟

قـال: لا شـك في ذلـك.. كيـف أكـون عـاملا في مطبعـة الكتـاب المقدس، ثم لا أكون مسيحيا؟

قلت: لا أقصد بالمسـيحية الانتمـاء.. بـل أقصـد الـدين.. هـل أنت متدين؟

قال: أجل.. أنا ملتزم بكل شعائر الكنيسة وطقوسـها، ولـولا ذلـك ما اشتقت للجلوس إليك.

قلت: شـكرا على هـذه المجاملـة.. ولكـني متعب.. ولـدي سـفر طويل.. ولهذا ـ ربما ـ لا أستطيع أن أرضيك بما تشتهي من مواعظ.

قـال: لا بـأس.. يشـرفني أن تجلس معي فقـط.. فقـد تتحـادث الأرواح بما لا تتحادث به الأجساد.

أعجبت بقوله هذا.. ثم سرنا برهة لا يحدث بعضنا بعضـا.. رأى في وجهي بعض الضيق، فقال: لعلك تريد أن تسمع شيئا.. لـدي أشـرطة كثيرة.. ما الذي تريد أن تسمع منها؟

قلت: ما تقصد؟

قال: الموسيقى.. ألست تحب الموسيقى؟

قلت: أجـــل.. ولكـــني أحب ســـماع الصـــوت البشـــري الممتلئ بالإيمــان.. فهــو أحب إلى نفســي من تلــك الأجــراس الــتي تــدقها الموسيقى.. خاصة موسيقى هذه الأيام.

قال: أنت مثلي إذن.. فأنا لا أحب إلا سماع الأصوات الــتي أشــعر بصدقها.. إنني أحلق معها في عــوالم الجمــال الــتي لا يطيــق لســاني التعبير عنها.

قلت: وهل لك أشرطة تحوي مثل هذه الأصوات؟

ســكت قليلا، ثم قــال: أجــل.. ولكــني أخــاف منــك أن تغضــب إن علمت بوجودها عندي.

قلت: ما تقصد؟

قال: أنا أخفي هــذه الأشــرطة عن أعين زملائي خشــية أن تصــل أخبارها إلى مسؤول المطبعة، فيعاقبني، وقد يطردني.

قلت: ما تقول؟.. أتحمل ممنوعــات في هــذه الشــاحنة؟.. ألســت تحمل الكتاب المقدس؟

قال: أجل.. أنا أحمل الكتاب المقدس.. ولكني ـ لطول الطريــق ـ أستمع إلى بعض الأشرطة التي تيسر علي قطع الطريق.

قلت: ومن يمنعك من سماعها؟

قال: أتأذن لي في سماعها؟

قلت: لا حرج عليك.. بل لعلني سأتمتع بها كما تتمتع بها أنت أيضا.

أوقف الشاحنة، ثم فتح حقيبته، وأخرج أشــرطة محفوظــة بعنايــة كما تحفظ الممنوعات، ثم قال: أنا أغامر الآن بسماع هــذه الأشــرطة أمامك، فأرجو أن يبقى هذا سرا بيني وبينك.

قلت: لا بأس.

وضـع الشـريط على القـارئ، وبقيت منتظـرا بلهفـة سـماع هـذه الأشرطة الـتي ملأتـه بالأشـواق والمخـاوف، فـإذا بي أفاجـأ بـالقرآن الكريم يقرأ بصوت عذب.. مملوء بالإيمان.

لقد شعرت حينها بقشعريرة لذيذة تسري في جسـدي، فتملـؤني بمشاعر لا أستطيع وصفها.

إلتفت إلى صاحبي، فـإذا بدموعـه تكـاد تفيض، قلت: أهـذا قـرآن محمد؟

قال: أجل.. فاستر ذلك علي.

قلت: ولم تضع قرآن محمد.. وأنت تحمل الكتاب المقدس؟

قال: لقد ذكرت لك أني أشعر عند سماعه بمتعة لا تـدانيها متعـة، وبلذة لا تدانيها لذة.

قلت: فكيف اخترته من بين كل الأصوات الجميلة التي تنبعث من حناجر العالم؟

قال: لست أدري متى بدأ ذلك.. وكيف بدأ.. ولكني كلمـا سـمعت القرآن يتلى كلما امتلأت بهذه المشاعر اللذيذة.. أتدري؟

قلت: ماذا؟

قال: أنـا أصـاحب باعـة الأشـرطة لسـبب واحـد هـو سـماع تلـك الأصوات الجميلة التي تنبعث من حناجر قارئي القرآن.

خطـرت على بـالي فكـرة وضـع تراتيـل للكتب المقـدس تضـارع تراتيل القرآن، فرحت أسارع بطرحها عليه، قلت: أتدري.. لقد جعلني كلامك هذا أفكر في وسـيلة مهمـة قـد تجـذب ملايين المسـلمين إلى المسيحية، وفي نفس الوقت ترضي نهم المسيحيين إلى هذا الجمال الذي يتمتع به قرآن محمد.

قال: أعلم تلك الفكرة.. لقد خطرت على بالي منذ سـنوات.. بـل

رحت أحاول تنفيذها.. لكني لم أزد طين كتابنا المقدس إلا بلة.

قلت: اسمع الفكرة أولا.. ثم ناقشها.

قال: ولماذا أسمعها منك.. وقد سمعتها من نفسي منذ سنوات؟

قلت: أي فكرة تقصد؟

قال: أنت تبحث عن وضع تراتيل للكتاب المقدس تشبه تراتيل المسلمين.. أهذه هي فكرتك؟

قلت: أجل.. فما الذي يحول بيننا وبين تنفيذها؟.. أم أنك ترى بأن المسلمين سيخرجون إلى الشوارع في انتفاضة عارمة؟

قال: لا أقصد هذا.. حتى لو خرجوا.. فما عساهم يفعلوا؟.. إنهم سرعان ما يتأقلمون وينسون.. ولكن أخشى أن توضع هذه التراتيل في المسرحيات الكوميدية لتملأ أفواه الناس بالضحك، لا قلوبهم بالخشوع.

قلت: ما تقول؟

قال: إن المرتل لقرآن المسلمين يبدأ القرآن من أوله إلى آخره.. فلا يزيد سامعيه إلا خشوعا [1]..

---

(1) ذكرنا رأيا في كتاب (الأبعاد الشرعية لتربية الأولاد) من سلسلة (فقه الأسرة برؤية مقاصدية) هذا نصه:« بل نرى رأيا لا نجد المقام للاستدلال عليه هنا، وهو أن تسجل التلاوات للقرآن المترجم باللغات المختلفة، مرتلة بالأصوات الرخيمة الجذابة المؤثرة، على أن تكون الترجمة نفسها في قمة البلاغة الممكنة، ثم تشاع في البلاد التي لا تعرف العربية، ليكون ذلك طريقا من طرق إيصال هداية الله إليها.

ولا مانع من ذلك، فيما نرى، إلا أعراف تعارفناها جعلتنا نحتكر القرآن الكريم مع كونه كلام الله تعالى الموجه للبشرية جميعا، فصرنا نتصور أن حرمته تكون بكتابته كتابة مزخرفة، ثم يوضع في لوح مكنون لا يمسه أحد، ولا يسمع به أحد، ليبقى طاهرا مقدسا، غافلين عما أمرنا به من الجهاد بالقرآن الكريم.

وإنما ذكرنا هذا، لأن في الإنسان ميلا إلى الكلام المؤثر سواء في بلاغته أو طريقة أدائه، ولذلك كان القرآن الكريم في قمة البلاغة، وقد أمرنا بتزيين الأصوات به، ومن احتكار القرآن الكريم اعتبار ذلك خاصا بالعربية لا بغيرها من اللغات مع أن أكثر هذه الأمة ــ أمة الإجابة أو أمة الدعوة ـ من غير العرب.

قلت: فليبدأ القارئ تراتيله للكتاب المقدس من أوله إلى آخره..

قال: سأسلم لك.. بل سأطبق هذا أمامك، فقد وهبني الله صوتا لا يقل عن صوت هؤلاء القراء.. بالإضافة إلى أني أملك قدرة على التقليد لا تضاهى.. ولذلك سأقلد القارئ المعروف (عبد الباسط عبد الصمد) في قراءته للسور القصار.. فاختر أي جزء من الكتاب المقدس أقرؤه عليك.

قلت: اقرأ ما تشاء.

قال: أنا أحفظ إنجيل متى عن ظهر قلب.. ولذلك سأقرؤه عليك من أوله.

بدأ القراءة، لقد كان صاحب صوت جميل جدا.. بدأ إنجيل متى من أوله:(كتاب ميلاد يسوع المسيح ابن داود ابن ابراهيم. ابراهيم ولد اسحق. واسحق ولد يعقوب. ويعقوب ولد يهوذا واخوته. ويهوذا ولد فارص وزارح من ثامار. وفارص ولد حصرون. وحصرون ولد ارام. وارام ولد عميناداب. وعميناداب ولد نحشون. ونحشون ولد سلمون. وسلمون ولد بوعز من راحاب. وبوعز ولد عوبيد من راعوث. وعوبيد ولد يسى. ويسى ولد داود الملك. وداود الملك ولد سليمان من التي لأوريا وسليمان ولد رحبعام. ورحبعام ولد ابيا. وابيا ولد آسا.)(متى: 1/1ـ 7)

تركته يقرأ إلى أن وصل إلى قوله:(فجميع الاجيال من ابراهيم الى داود اربعة عشر جيلا. ومن داود الى سبي بابل اربعة عشر جيلا. ومن سبي بابل الى المسيح اربعة عشر جيلا)(متى: 1/17)

لست أدري كيف لم أملك نفسي من الضحك.. لقد ضحكت كما لم أضحك في حياتي، التفت إلي، وقال: ألم أقل لك: إن اقتراحك يصلح لإضحاك الناس لا لإبكائهم.

بعد أن عادت إلي نفسي، اصطنعت الجد، وقلت: أجل.. كلامك صحيح.. ولكن ما السر في اختلاف كتاب المسلمين عن كتابنا في

هذه الناحية؟

قال: لقد بحثت في ذلك..

قلت: فما وجدت؟

قال: أربعة أسباب.

قلت: فما هي؟.. عسانا نوفرها لكتابنا المقدس.

قال: ذلك محال.. لقد جربت كل الوسائل.. وكانت النتيجة لا تختلف عن تلك الضحكات التي أرسلتها.. إن تلك المعاني الأربع لم تتحقق إلا في كتاب محمد.

قلت: فما هي؟

قال: التعبير الفني، والتصوير الفني، والنظم الفني، والنغم الفني.

التعبير الفني:

قلت: فما تريد بالتعبير الفني؟

قال: بإمكانك أن تقارن القرآن بأي كتاب في الدنيا، فستجد فيه من عذوبة التعبير وجماله ما يقصر دونه كل كلام.

قلت: وما أدراك أنت باللغة وشؤون البلاغة فيها.. لو كنت شاعرا قبلت قولك، ولو كنت خطيبا ربما وثقت بحكمك.. لكنك لست سوى سائق؟

قال: أجل.. أنا لست سوى سائق.. ولكني مع ذلك أتذوق الكلام، كما أتذوق الطعام.. إن للكلام الطيب حلاوة لا تحوجنا إلى مختصين ينوبون عنا في تذوقها.

ومع ذلك.. فقد عرفت أن القرآن تحدى أهل عصره بمن فيهم من البلغاء والفصحاء، فلم يملكوا إلا أن يقروا بما لم تقبله مني.

لقد استقل العرب في البدء من شأن القرآن، فراحو يقولون: { لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ }(لأنفال: 31)، وقالوا:{ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ } (النحل: 103)) وقالوا:{ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ }(الأنعام: 91)

لكنهم سرعان ما تراجعوا عن هذه الأحكام المستعجلة التي أفرزها كبرهم لا عقولهم.. لقد كانوا في ذلك أشبه بطفل صغير يريد أن يواجه مصارعا خطيرا.. فلا يملك بعد حين من المواجهة إلا أن ينكص على عقبيه.

لما قالوا ذلك، رد عليهم القرآن.. وهم الفصحاء البلغاء.. الشعراء الخطباء.. طالبا منهم أن يواجهوا تحديه، لقد قال لهم بصراحة لا تعلوها أي صراحة:{ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لا يُؤْمِنُونَ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ }(الطور:33 ـ 34)

بل نزل.. فاكتفى بأن يحدد لهم عشر سور مثله مفتريات فيما كانوا يزعمون:{ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ }(هود:13)

ثم زاد، فنزل.. واكتفى بأن يطلب منهم أن يأتوا بسورة من مثله.. بأي سورة، ولو سورة قصيرة، لقد قال لهم:{ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ }(يونس:38)

فلم يجرؤوا أن يفعلوا.. لقد بقي يطالبهم أكثر من عشرين سنة بذلك، مظهراً لهم النكير، زارياً على أديانهم، مسفهاً آراءهم وأحلامهم.. ومع كل ذلك لم يجرؤوا على الاقتراب منه..

نعم لقد نابذوه وناصبوه الحرب التي هلكت فيه النفوس، وأريقت المهج، وقطعت الأرحام، وذهبت الأموال.. أترى أنهم لو كانوا قادرين على مواجهته بكلام مثل كلامه كانوا يقصرون!؟

لقد كان القرآن يقول لهم متحديا:{ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا }

(البقـرة: 24)، انظـر.. إنـه تحـد ليس فوقـه تحـد.. بـل هـو يضـيف فيطلب منهم أن يجتمعوا بإنسهم وجنهم على مواجهته، فيقول:{ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْأِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِـهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً}(الاسراء:88)

قلت: لقد كـان لانشـغالهم بمواجهتـه أثـر في سـكوتهم عن الـرد عليه.. أحيانا يجد الإنسان نفسه ـ تحت ضغط ظروف معينة ـ يتصرف بعيدا عن عقله.

قال: لا.. لقد كان قومه موصوفين برزانة الأحلام ووفارة العقـول، وقد كان فيهم الخطباء المصاقع، والشعراء المفلقون.. بل إن القرآن وصفهم بالجدل واللدد، فقال:{ مَـا ضَـرَبُوهُ لَـكَ إِلَّا جَـدَلاً بَـلْ هُمْ قَـوْمٌ خَصِمُونَ}(الزخرف: 58)، وقـال:{ فَإِنَّمَـا يَسَّـرْنَاهُ بِلِسَـانِكَ لِتُبَشِّـرَ بِـهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدّاً}(مريم:97)

قلت: أحيانـا ينبـغ رجـل من النـاس بين قومـه.. ولن تجـد أحـدا يستطيع مواجهتـه.. ألسـت تـرى الملاكمين العـالميين الـذين يتهـاوى الرجال أمامهم كما يتهاوى البنيان؟

قال: أليس عجيبا أن ينهض رجل أمي عاش بينهم أربعين عاماً لم يسمعوا منه بيتاً من الشعر، أو قـولاً بليغـاً، ليـأتيهم بكلام يتحـداهم بـه جميعا، بجيمـع شـعرائهم وبلغـائهم وعلمـائهم من الإنس والجن لا في زمانه فحسب، بل في كل الأزمنة؟

لقد احتاروا في سر تلك الجاذبية التي يجذبهم بها القرآن، فراحـوا يقولون:{ لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيـهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُـونَ (فصـلت: 26)

قلت: فأنت ترى أن سر إعجاز القرآن الذي يذكره المسلمون هو تعبيره الذي حير البلغاء.

قال: لا.. هذا جزء من إعجازه.. إعجازه لا يمكن التعبير عنه.

قلت: فكيف تسمي ما لا تستطيع التعبير عنه معجزا؟

قال: إن نواحي الإعجاز في القرآن أكثر من أن تحصرها العبـارة.. وما الإعجاز البلاغي إلا ناحية من نواحيه.

قلت: أنت تتلقى كل ذلك تقليدا.. فلست تذكر سوى ما ذكر لك.

قال: لا.. نعم أنا سائق.. ولكني ابن لهذه اللغة، محب لهـا عشـت أقرأ شعرها ونثرها، وأتنعم بقصصها ورواياتها، ولـولا ذلـك مـا حـدثتك بهذا.

قلت: فحدثني عما رفع القرآن إلى تلـك الآفـاق الـتي عجـز عنهـا سائر الكلام.

قال: أول شيء تتذوقه من القرآن هو تلك المعاني الجميلـة الـتي جاء بها، وكساها بثياب معجزة من البلاغة.

قلت: أي إعجاز في هذا.. إن من قدر على شيء يقدر على غيره.

قال: لا.. لا يمكن ذلك.. هل تراني ـ وأنا سـائق الشـاحنة ــ قـادرا على أن أسوق الطائرة؟

إن قدرات البلغاء محدودة.. سل الشعراء والبلغاء ليخبروك.. وإن شئت أن تتحدى أكبر الشعراء في أن يسوغ لـك قـوانين المـرور في قصيدة فافعل، فسيعجز عن ذلك لا محالة.

قلت: والقرآن؟

قال: لقد انتظم القرآن كل المعاني.. ومع ذلك لم يخل في معنى من المعاني بما أودع فيه من أسرار الإعجاز..

لقد كانت بلاغة العرب ــ الـذين هم قـوم محمـد ــ لا تعـدو وصـفا لمشاهداتهم، مثل وصف بعير أو فرس أو جارية أو ملـك أو ضـربة أو طعنة أو حـرب أو غـارة.. أو لغـو كثـير لأجـل أمـر حقـير.. وليس في القرآن ـ الـذي جـاء بـه محمـد في تلـك البيئـة ــ أي شـيء من هـذه

الأشياء.

وهذا وحده معجز.. أليس للبيئة والعصر آثارا في نفوس البلغاء.. ألستم تتعرفون من خلال الكتاب المقدس على البيئة التي كتب فيها.. لكن القرآن يخلو من كل ذلك، وكأن الذي كتبه ليس في الأرض.. إنه من عالم آخر!؟

صمت قليلا، ثم قال: بالإضافة إلى هذا ألست ترى الشعراء والبلغاء قد يحسنون في فن، ويسيئون في غيره؟

قلت: بلى.. ولهذا قالوا في شعر امرئ القيس: يحسن عند الطرب وذكر النساء وصفة الخيل.. وقالوا: شعر النابغة عند الخوف، وشعر الأعشى عند الطلب ووصف الخمر، وشعر زهير عند الرغبة والرجاء.. وهكذا كل شاعر يحسن كلامه في فنّ، فإنه يضعف كلامه في غير ذلك الفن.

قال: إلا القرآن[1].. فإنه جاء فصيحاً في كل الفنون على أعلى طبقات الفصاحة:

اسمع ما يقول في الترغيب:{ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}(السجدة:17).. ويقول:{ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}(الزخرف:71) أترى كلاما يمكن أن يرغبك في شيء كما يرغبك هذا الكلام.. إنه يجعل لنفسك الحرية في اختيار ما تشتهي، كما يجعل لبصرك الحرية في اختيار ما يرى.. إنك لو جمعت جميع أصناف النعيم في قصيدة ألفية ما استطاعت أن تعبر بمثل هذا المختصر الوجيز.

ثم اسمع ما يقول في الترهيب:{ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً}(الاسراء:68).. ويقول:{ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ

(1) الاستثناء هنا منقطع بلا شك .. فالقرآن ليس شعرا.

مَاءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُ وَلا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ} (إبراهيم:15ـ17) انظر المخاوف التي تحملها هذه الآيات.

وقال في الزجر ما لا يبلغه وهم البشر:{ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (العنكبوت: 39 ـ 40)

وقال في الوعظ:{ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ }(الشعراء: 205 ـ 207) هل ترى وعظا أعظم تأثيرا في النفس من هذا الوعظ؟

وقال في وصف الله:{ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}(البقرة:255)

وهكذا الشأن في كل المواضيع التي طرقها القرآن، وهي مواضيع لا تعد كثرة.

وفوق هذا كله.. لقد التزم القرآن الصدق في كل ذلك، مع أن البلاغة أحيانا قد تتطلب من التعابير ما يحوجها إلى الكذب والزيادة والنقصان.. ألست ترى كل شاعر ترك الكذب، والتزم الصدق نزل شعره ولم يكن جيداً، ألا ترى أن لبيد بن ربيعة وحسان بن ثابت لما أسلما نزل شعرهما ولم يكن شعرهما الإسلامي في الجودة كشعرهما الجاهلي؟

لكن القرآن ـ مع التزامه الصدق التام ـ جاء في قمة قمم البلاغة.

قلت: إلى الآن.. لم أفهم سـر حرصـك على هـذه القمم الـتي تتحدث عنها بثقة عجيبة.. لو كنت مسلما، لقلت: إن الرجـل مسـلم.. ويجب عليه أن يقـول هـذا وإلا طـرد من سـاحة المسـلمين، فتطلـق زوجته، ويرمى في غير مقابر المسلمين، ولكني أراك مسيحيا، فكيف تصر على هذا؟

قال: إن كوني مسيحيا لا يحول بيني وبين الاعتراف بالحق لأهله.. لقد رأيت كثيرا من إخواننا المسيحيين يعلمون أولادهم القرآن حرصـا على تنمية قدراتهم البلاغية.. وقد فعل والدي ذلك.. فلذا تراني أحفظ القرآن.. لقد حفظته في الكتاب مع أولاد المسلمين.

قلت: فما الذي جعلك تصر على اعتباره أبلغ كلام وأفصحه؟

قال: أنت تعرف أن الكلام من حيث بلاغته ثلاثة أنواع: فمنه البليغ الرصين الجزل.. ومنه الفصيح القريب السهل.. ومنـه الجـائز الطلـق الرسل.

كل الكلام البليغ لا يخـرج عن هـذه الأنـواع.. فالقسـم الأول أعلى طبقات الكلام وأرفعـه.. والقسـم الثـاني أوسـطه وأقصـه.. والقسـم الثالث أدناه وأقربه [1].

قلت: فأنت ترى أن القسم الأول هو الذي ينتمي إليه القرآن؟

قال: لو كـان كـذلك لمـا كـان معجـزا.. أو لكـان معجـزا بالنسـبة للقسم الذي ينتمي إليه..

قلت: فإلى أي قسم ينتمي إذن؟

قال: إلى الأقسام الثلاثة.. لقد حازت بلاغات القرآن من كل قسم من هـذه الأقسـام حصـة، وأخـذت من كـل نـوع من أنواعهـا شـعبة، فـانتظم لهـا بـامتزاج هـذه الأوصـاف نمـط من الكلام يجمـع صـفتي

---

(1) ذكر هذا النوع من الإعجاز البلاغي القرآني أبو سليمان حمد بن محمد بن إبرهيم الخطابي البستي (توفي سنة 388) في رسالته الوجيزة التي وضعها في بيان إعجاز القرآن، وهو من السابقين الباحثين في هذا الباب.

الفخامة والعذوبة.. وما أصعب أن تجمع بين الفخامة والعذوبة.

قلت: لم؟

قال: لأنهما عند الإنفراد في نعوتهما كالمتضادين، فالعذوبة نتاج السهولة، والجزالة والمتانة تعالجان نوعاً من الوعورة.. فلهذا كان اجتماع الأمرين في نظمه، مع بعد كل واحد منهما على الآخر فضيلة خص بها القرآن.

قلت: فلم عجز البشر عن الإتيان بمثل هذا؟

قال: إن كل كلام لابد له من ثلاثة أمور: لفظ حامل، ومعنى قائم به، ورباط لهما ينظمهما.. وقد حاز القرآن كل هذه الأمور في منتهى كمالها، فلذلك لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه.. ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً وأشد تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه..

أما المعاني، فأنت تعرف المعاني السامية التي جاء القرآن لتقريرها وتأكيدها وتربية النفوس عليها.. إنها المعاني التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها، والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نوعتها وصفاتها.

قلت: ولكن مثل هذا قد يوجد في كلام البلغاء؟

قال: يوجد مفرقا لا مجموعا.. ولهم العذر في ذلك.. لأن من رام ذلك يجب أن يكون محيطا بجميع العربية وألفاظها ثم يحيط بجميع دلالاتها.. والبشر جميعا لا تدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ، ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء جميع وجوه النظوم التي بها يكون ائتلافها وارتباط بعضها ببعض، فيتوصلوا باختيار الأفضل عن الأحسن من وجوهها، إلى أن يأتو بكلام مثله.

قلت: فأنت ترى أن القرآن إنما صار معجزاً، لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف، مضمناً أصح المعاني.

قال: أجل.. ولا يمكننا ـ ولو طفنا على الأرض بهذه الشاحنة ــ أن

نستوفي ما يتطلبه هذا الإجمال من تفصيل، وهذه القواعد من أمثلة.

ولكني أكتفي بأن أذكر لك بأن الكتاب الذي يحتوي على كل هـذه المعاني السـامية، من وصـف لله، ودعـاء إلى طاعتـه، وبيـان منهـاج عبادته، من تحليل وتحريم، ومن وعظ وتقويم، وأمـر بمعـروف ونهي عن منكر، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق، وزجـر عن مسـاوئها، مودعـاً أخبار القرون الماضـية، ومـا نـزل من مثلات اللـه بمن عصـى وعانـد منهم، منبئاً عن الكوائن المستقبلة في الأعصـار الباقيـة من الزمـان، جامعاً في ذلك بين الحجة والمحتج له، والدليل والمدلول عليه، ليكون ذلك أوكد للزوم ما دعا إليه، وإنباء عن وجوب ما أمر بـه ونهى عنـه.. كتاب يعجز جميع البشر.. بل تعجز جميع الكائنات أن تأتي بمثله.

صمت قليلا، وكأنه يسترجع أنفاسه، ثم قال: ناحيـة أخـرى جـديرة بالاهتمام.. وهي أن الكلام الفصيح والشعر الفصيح، يتفق ـ عادة ـ في القصيدة في البيت والبيتين والباقي لا يكون كذلك.. فتكتفي القصيدة بالتزين ببيتها أو بيتيها، وتظل عاطلـة في سـائر أبياتهـا.. أمـا القـرآن، فإنه كله فصيح يعجز الخلق عن آحاده كما يعجزون عن جملته.

ثم إن من قال كلاما فصـيحا في وصـف شـيء فإنـه إذا كـرره لم يكن كلامه الثاني في وصف ذلك الشـيء بمنزلـة كلامـه الأول.. بينمـا نجـد في القـرآن تكـرار كثـير، ومـع ذلـك، كـل واحـد منهـا في نهايـة الفصاحة ولا يظهر التفاوت أصلاً.

زيـادة على هـذا فـإن في مواضـيع القـرآن مـا قـد يـوجب اختلال فصاحة أي فصيح، ولكن القـرآن يطرقهـا طرقـا جميلا، فلا تـؤثر فيـه المواضيع مهما تبادعت أغراضـها، اسـمع إليـه، وهـو يعـبر عن أركـان طهارة المسلمين وأنواعها في إيجاز بليغ:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّـلاةِ فَاغْسِـلُوا وُجُـوهَكُمْ وَأَيْـدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِـقِ وَامْسَـحُوا بِرُؤُوسِـكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبـاً فَـاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَـفَرٍ أَوْ جَـاءَ أَحَـدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْـتُمُ النِّسَـاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْـهُ مَـا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ

لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}(المائدة:6)

ولهذا تجد القرآن أصلا للعلوم كلها، فعلم لاهـوت المسـلمين كلـه في القرآن، وعلم الفقه كله مـأخوذ من القـرآن، وعلم أصـول الفقـه وعلم النحو واللغة، وعلم الزهد في الدنيا وأخبـار الآخـرة، واسـتعمال مكارم الأخلاق كلها مستنبطة من القرآن مأخوذة منه.

فـالقرآن لا يقصـد الكلام البليـغ لـذات الكلام البليـغ، بـل يقصـده ليستخدمه وسيلة لتبليغ أغراضه.. وهذا خلاف سائر الكلام.. فالشعراء الذين اهتموا بتزويق الكلام والحرص على زينتـه تـاهوا فيمـا لا حاجـة فيه من وصف النساء أو الخيل أو الخمر، أو في مدح شخص معين أو فـرس أو ناقـة أو حـرب أو كائنـة أو مخافـة أو سـبع، أو شـيء من المشاهدات المتعينة التي لا تفيد شـيئًا إلا قـدرة المتكلم المعـبر على التعبير على الشيء الخفي أو الدقيق أو إبرازه إلى الشـيء الواضـح، ثم تجد له فيها بيتًا أو بيتين أو أكثر هي بيوت القصيد وسـائرها هـذر لا طائل تحته.

وأما القرآن فجميعه فصـيح في غايـة نهايـات البلاغـة.. إن تـأملت أخبـاره وجـدتها في غايـة الحلاوة، سـواء كـانت مبسـوطة أو وجـيزة، وسواء تكررت أم لا، وكلما تكرر حلا وعلا لا يَخلق عن كـثرة الـرد، ولا يمل منه العلماء، وإن أخذ في الوعيد والتهديد جاء منه ما تقشعر منه الجبال الصم الراسيات، فما ظنك بالقلوب الفاهمـات، وإن وعـد أتى بما يفتح القلوب والآذان، ويشـوقها بحيث تتحـرك إلى مـا طلبـه منهـا عن رضا وطيبة نفس.

قلت: لقـد سـاعدت اللغـة العربيـة القـرآن على اقتحـام هـذه المجاهيل.. فهي لغة ثرية غنية بمفرداتها وتراكيبهـا.. ولولاهـا مـا كـان للقرآن هذا الجمال، وهذه القوة.

قال: نعم.. اللغة العربية كما ذكرت.. وأكـثر ممـا ذكـرت.. ولكنهـا في نفس الوقت كان فيها كلاما كثيرا من الغريب والألفـاظ الحوشـية الثقيلـة على السـمع.. وهـو مـا لجـأ إليـه مضـطرا الكثـير من البلغـاء

والشعراء.. ولكن القرآن تجنب ذلك كلـه، ولم يخـتر من اللغـة إلا مـا اجتمع فيه المعنى الرفيع مع اللفظ الجميل.

اسمع ما يقول الشنفرى:

وَلي دونَكُم أَهلَونَ سيدٌ عَمَلَّسٌ وَأَرقَطُ زُهلولٌ وَعَرفاءُ جَيأَلُ

وفيها يقول:

دَعَستُ عَلى غَطشٍ وَبَغشٍ وَصُحبَتي سُعارٌ وَإِرزيزٌ وَوَجرٌ وَأَفكُلُ

فَأَيَّمتُ نِسواناً وَأَيتَمتُ آلَدَةً وَعُدتُ كَما أَبدَأتُ وَاللَيلُ أَليَلُ

لقد تجنب القرآن أكثر الألفاظ الغريبة التي استعملها هذا الشـاعر وغيره.. فلا تجد في القرآن مع سعة حجمه مقارنـة بقصـائد الشـعراء ألفاظا مثـل مسشـزرات، وجحلنجح، والبخصـات، والملطـاط، وغـير ذلك كثير.

ولا تجد تعابير مثل هذه التعابير التي قالها بعض المتقعرين:(دنها، فـإذا همت تأتـدن، فلا تخلهـا تمرخـد، وقبـل أن تقفعـل، فـإذا ائتـدنت فامسحها بخرقة غير وكيلة، ولا جشـيّة، ثم امعسـها معسـاً رقيقـاً، ثم سـن شـفرتك، وأمههـا فـإذا رأيت عليهـا مثـل الهبـوة فسـن رأس الأزميل)[1]

ولا تجد القرآن واقعيا يعبر بالألفاظ السوقية التي يأبى معانيها، فلا تجد فيه كلمة المرباع التي تعـني ربـع الغنيمـة إلى الـذي كـان يأخـذه الرئيس في الجاهلية، ولا تجد النشيطة وهي ما أصـاب الـرئيس قبـل أن يصـير إلى القـوم، أو مـا يغنمـه الغـزاة في الطريـق قبـل بلـوغ الموضع المقصود، ولا تجد المكس، وهو دراهم كانت تؤخذ من بـائعي السلع في الأسواق الجاهلية، ولا تجـد قـولهم للملـوك:(أبيت اللعن)

1() رواه القالي في أماليه لأبي محلم الشيباني في أواخر القرن الثاني من كتاب إلى بعض الحذائين في نعل.

وغير ذلك مما اتفق على التعبير به المجتمعات الجاهلية التي عاش بينها محمد.

قلت: فالقرآن يتخير ألفاظه اختيارا إذن؟

قال: أجل.. وسأذكر لك بعض الأمثلة التي تقرب لك هذا[1]:

لقد جاء في القرآن:{ مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتاً) (النساء:85)

أتدري لم قال عن الشفاعة الحسنة (يكن له نصيب منها) وعن الشفاعة السيئة (يكن له كفل منها)؟

---

(1) انظر في هذا ما كتب في الإعجاز البياني في القرآن الكريم، وهي كثيرة، ومن الكتب المعاصرة الميسرة:

1. خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية للدكتور عبد العظيم المطعني. حصل من خلالها على مرتبة الدكتوراه مع مرتبة الشرف الأولى من كلية اللغة العربية / الأزهر سنة1974م. وهي مطبوعة في مجلدين سنة 1992م مكتبة وهبة / مصر.
2. سر الإعجاز في تنوع الصيغ المشتقة من أصل لغوي واحد في القرآن للدكتور عودة الله منيع القيسي. وحصل بها على درجة الدكتوراة من كلية الآداب الجامعة الأردنية. ونشرتها دار البشير في عمان سنة 1996م.
3. الترادف والاشتراك والتضاد في القرآن لمحمد نور الدين المنجد. وحصل بها على شهادة الماجستير من جامعة دمشق بتقدير ممتاز . طبعته دار الفكر سنة 1999م.
4. إعجاز القرآن الكريم البياني ودلائل مصدره الرباني، د. صلاح الخالدي، دار عمار، عمان، ط2، 2004م.
5. بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، د. فاضل السامرائي، دار عمار، عمان، ط2، 2001م.
6. التعبير القرآني، د. فاضل السامرائي، دار عمار، عمان، ط2، 2002م.
7. لمسات بيانية في نصوص التنزيل، د. فاضل السامرائي، دار عمار، عمان، ط2، 2001م.

ومن هذه المراجع استقينا بعض هذه الأمثلة.

قلت: هو مجرد تنوع في الألفاظ ليتخلص من التكرار.

قال: لا.. لقد وضع القرآن كل لفظة في محلها الخاص.. فمن معاني (الكِفل) في اللغة: النصيب المساوي، والمثل، والكفيل يضمن بقدر ما كفل ليس أكثر.. أما (النصيب) فمطلق غير محدد بشيء معين.

ولهذا جاء التعبير عن السيئة بقوله:{ يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا }؛ لأن السيئة تجازى بقدرها، كما ورد في الآية الأخرى:{ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا)(غافر: 40)

أما الحَسَنة فتضاعف، فلهذا عبر عنها بقوله { يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا }، وقد جاء في القرآن الإخبار بهذا، ففيه { مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا }(الأنعام: 160)، وفيه:{ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا }(القصص: 84)، وفيه:{ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ)(غافر: 40)

ولهذا قال عن حامل السيئة أن له الكفل أي المثل، أما صاحب الشفاعة الحسنة فله نصيب منها، والنصيب لا تشترط فيه المماثلة.

سكت قليلا، ثم قال: سأضرب لك مثلا آخر.. لقد جاء في قصة خلق آدم في سورة الأعراف هذا النص:{ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ) (لأعراف:12)

لقد أثبت القرآن (لا) في هذا الموضع، ولكنه لم يُثبتها في سورة (ص) { قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ} (صّ:75)

أتدري سر ذلك؟

قلت: أرى فرقا بين التعبيرين.. ولكني لست أدري سره.. أليست (لا) في الأعراف زائدة؟

قال: لا.. ليس في القرآن حرف واحد زائد.. إنه محكم غاية

الإحكام.

لقـــد كـــان الســـؤال في ســـورة (ص) عن المـــانع لإبليس من السـجود.. أي: لمـاذا لم تسـجد؟ هـل كنت متكـبراً أم متعاليـاً؟ فقـد ذكـرت الآيـة سـببان قـد يكونـان مـانعين للسـجود، همـا الاسـتكبار والاستعلاء.

أما السـؤال في سـورة الأعـراف فإنـه عن شـيء آخـر.. ويكـون معنى السؤال: ما الذي دعاك إلى ألا تسجد؟

والـدليل على ذلـك وجـود (لا) النافيـة في الآيـة الـتي تـدل على وجود فعل محذوف تقديره: ألجأك، أحوَجَك..

فالسؤال هنا عن الدافع لـه لعـدم السـجود، وليس عن المـانع لـه من السجود.

والجمع بينهما أن السـؤال جـاء على مرحليـتين: في الأولى سـئل عن السبب المانع من السجود.. وامتناع إبليس عن السجود قاده إلى عدم السجود.

وفي الثانية: السؤال عن السبب الحامـل لـه على عـدم السـجود بعد أن أمره بذلك.

والحكمة من السـؤال الثـاني هـو أنـه من الممكن عقلا أن يكـون هنالك سببان: سبب يمنع عن فعـل شـيء، وسـبب يحمـل على تـرك شيء.

فقولك لأحدهم: لماذا لم تفعل كذا؟ يختلف عن سؤالك للآخر: مـا الذي حملك على ترك كذا؟

سـكت قليلا، ثم قـال: سأضـرب لـك مثـالا آخـر.. لقـد جـاء في القرآن:{ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَـذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) (العنكبوت:41)

قلت: إن قومي يتعلقون بهذه الآية.. ويرمون بها المسلمين.

قـال: أعلم ذلـك.. هم يقولـون: إن هـذه الآيـة تخـالف الحقيقـة العلمية الثابتة بأن خيط العنكبوت أقوى من مثيله من الفولاذ.

قلت: أجل.. أليس ذلك صححيا؟

قال: يكون ذلك صحيحا لو قال القـرآن:(إن أوهن الخيـوط خيـط العنكبوت)

قلت: وما الفرق بينهما؟

قال: عظيم.. الخيوط هي مادة البناء.. والبنـاء لا يحتـاج إلى مـادة فقط.. بل يحتاج قبل ذلك إلى اختيار محل، وتأسـيس قاعـدة، ونـواح هندسية كثيرة ليستقيم البناء.

أرأيت لو رصفنا طوبا كثيرا من أقـوى أنـواع الطـوب من غـير أن يكـون ذلـك على حسـب القواعـد الهندسـية.. هـل يمكن أن يسـتمر البنيان قائما؟

قلت: لا.. لعل أضعف ريح يمكنها أن ترديه أرضا.

قال: ولهذا عبر القرآن عن وهن البنيان، ولم يعـبر عن وهن مـادة البنيان.

سـكت قليلا، ثم قـال: أتـدري لم نكـرت كلمـة (أحـد) في سـورة الإخلاص، بينما عرفت (الصمد).. فقد جاءت هذه السورة هكذا:{ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ(1)اللَّهُ الصَّمَدُ(2)لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ(3)وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَـدٌ(4)(الإخلاص)

قلت: لا.. ولكني أشعر أنه لابد أن تكون كذلك.

قال: نعم.. لابد أن تكون كذلك.. ولكن العلمـاء حـاولوا أن يعرفـوا سر ذلك.

قلت: فما وجدوا.

قال: إن كلمة (أحد) مسبوقة بكلمتين معرفتين (هـو اللـه)، وهمـا مبتدأ وخبر.. وبما أن المبتدأ والخبر معرفتان ودلالتهمـا على الحصـر.. فقد استغني بتعريفهما ودلالتهما على الحصر عن تعريف (أحد)

فجاء لفظ (أحـد) نكـرة على أصـله.. لأن الأصـل في الكلمـة هـو التنكير.. فهو نكرة ويعرب خبرا ثانيا.

كما أن لفظ (أحد) جاء على التنكير للتعظيم والتفخيم والتشريف، وللإشـارة إلى أن اللـه تعـالى فـرد أحـد لا يمكن تعريـف كيفيتـه ولا الإحاطة به سبحانه وتعالى.

أما (الصمد)، فقد جاء معرفة في الآيـة الثانيـة لأن (اللـه الصـمد) مبتدأ وخبر.. وجاءا معرفتين ليطابقا (هو الله) في الآية الأولى.. وقـد جاء تعريف (الله الصمد) ليدل على الحصر أيضاً.

فقوله (هو الله أحد) يدل على الحصر لتعريف المبتدأ والخبر.. أي أن الأحدية محصورة بالله.

وقولـه (اللـه الصـمد) يـدل على الحصـر أيضـا لتعريـف المبتـدأ والخبر.. وذلك ليدل على أن الصمدانية محصورة بالله.

سكت قليلا، ثم قال: أتدري الفرق بين تعبـير القـرآن عن السـلام ليحي والسلام للمسيح؟

قلت: أجل.. أعرف ذلك.. فقد جاء السلام على يحي منكـرا:{ يَـا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَـبِيًّا(12)وَحَنَانًـا مِنْ لَـدُنَّا وَزَكَـاةً وَكَانَ تَقِيًّا(13)وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِـيًّا(14)وَسَـلَامٌ عَلَيْـهِ يَـوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا(15)(مريم)

بينما جاء على المسيح معرفا:{ قَـالَ إِنِّي عَبْـدُ اللَّهِ ءَاتَـانِيَ الْكِتَـابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا(30)وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَـانِي بِالصَّـلَاةِ وَالزَّكَـاةِ مَـا دُمْتُ حَيًّا(31)وَبَـرًّا بِوَالِـدَتِي وَلَمْ يَجْعَلنِي جَبَّارًا شَـقِيًّا(32)وَالسَّـلَامُ

عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا(33)(مريم)

قال: أتدري ما سر هذا التفريق؟

قلت: ما سره؟

قال: لقد جاءت كلمة (السلام) نكرة في قصة يحيى، لأن ذلك جاء في سياق تعداد نعم الله عليه، وفيها إخبار من الله بأنه قد منح يحيى (سلاما) كريما في مواطن ثلاثة: يوم ولادته، ويوم موته، ويوم بعثه حيا في الآخرة.

أما (السلام) في قصة المسيح، فقد جاء معرفة، لأن لفظ (السلام) هو كلام من المسيح، حيث دعا ربه أن يمنحه السلام في ثلاثة مواطن: يوم ولادته، ويوم موته، ويوم بعثه حيا في الآخرة.

فبما أن المسيح هو الذي دعا، فمن المؤكد أنه سيُلح في الدعاء، فيطلب المعالي.. فلذلك عرّف السلام دلالة على أنه يريد السلام الكثير العام الشامل الغزير.

وفي هذا إشارة كذلك إلى أن السلام الذي حصل عليه المسيح كان أخص من السلام الذي حصل عليه يحيى، وأن المسيح أفضل من يحيى.

سكت قليلا، ثم قال: لقد وردت آيتان تتحدثان عن أمر واحد في سورة واحدة.. ومع ذلك اختلف التعبير في كل منها..

أما أولاهما، فقد ذكر فيها القرآن أن الله سيرى العمل هو ورسوله واكتفى بهما:{ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}(التوبة:94)

وأما الثانية، وهي في نفس السورة، فقد ذكر بأنه سيرى الله عملهم هو ورسوله والمؤمنون:{ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}(التوبة:105)

أتدري ما سر ذلك؟

تأملت قليلا، ثم قلت: ما سر ذلك؟

قال: لقد وردت الآيـة الأولى في سـياق الحـديث عن المنـافقين.. وهم كفار اتخذوا وسيلة إظهار الإسلام وإبطان الكفــر محاولــة لنقض الإسلام من داخلـه.. أمـا الثانيـة فقـد جـاءت في سـياق الحـديث عن المؤمنين الصالحين ودعوتهم إلى العمل الصالح وخاصة دفع الزكاة.

فلهذا حذفت كلمة (والمؤمنون) في سياق الآية الأولى، لأن الكلام فيها عن المنافقين.. ولطبيعـة النفـاق فـإن المسـلمين لا يعلمـون مـا يخفي المنـافق في قلبـه، لأنهم لا يعلمـون الغيب، واللـه عـالم السـر وأخفى، وهو أخبر محمدا بأسمائهم كلهم.. ولهـذا كـان اللـه ورسـوله يعلمان كذبهم، لكن باقي المؤمنين لا يعلمون ذلك.

أما في الآية الثاني فهي في سياق الحديث عن أعمال المسـلمين الظــاهرة المكشــوفة من صــلاة وزكــاة.. والــتي يراهــا إخــوانهم المسلمون ويطلعون عليها.

سكت قليلا، ثم قال: لقد تكررت كلمـة واحـدة ثلاث مـرات، ومـع ذلك أفادت معاني ثلاثة لا معنى واحدا.. أتدري ما هي؟

تأملت قليلا، ثم قلت: لا أدري.

قال: لقد ورد في سورة الـروم:{ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَـعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُـوَّةٍ ضَـعْفًا وَشَـيْبَةً يَخْلُـقُ مَـا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ}(الروم:54)

فلكمة (ضـعف) نكـرة تكـررت في نفس الموضـع ثلاث مـرات، وذلك يفيد أن الضعف الأول غير الثاني وغير الثالث.

قلت: كيف عرفت ذلك؟

قال: هناك قاعدة بيانية متفق عليها عنـد علمـاء العربيـة تـذكر أن

النكرة إذا تكررت، فإنها في كل مرة تفيد معنى جديداً.

ولهذا، فإن المـراد من الضـعف الأول هـو النطفـة، وهي ضـعيفة، لأنها من ماء مهين.

والمراد من الضعف الثاني الطفولة، لأن الطفل بحاجة إلى رعاية أمه في مرحلة الرضاع، وعناية خاصـة حـتى يجتـاز مرحلـة المراهقـة ويصل البلوغ.

والمراد من الضعف الثالث: الشـيخوخة، لأن الإنسـان يتحـول في مرحلة الشـيخوخة ضـعيفا عـاجزا.. ضـعيف الفكـر.. ضـعيف الحركـة والسعي والنشاط.

واللطيف في الآية أن (قوة) وردت نكرة وكررت مرتين، وبـذلك تختلف دلالتهمـا كـذلك.. فـالقوة الأولى، تعـبر عن قـوة فـترة الصـبا، فالصـبي قـوي منـدفع كثـير الحركـة، والقـوة الثانيـة تعـبر عن قـوة الشباب، وهي قوة الجسم والمشاعر والأحاسـيس والهمـة والعزيمـة والانطلاق في الفكر والأحلام والطموح.

فهذه الآية بهذا الفهم تلخص حياة الإنسان على الأرض وأنها تقوم على خمس مراحل: ثلاثة منها ضعف، وهي: كونه جنينا في بطن أمه، وكونه رضيعا في حضن أمه، وكونه شيخا عجوز هرم.

واثنان منها قوة: وهي كونـه صـبيا نشـيطا منـدفعا، وكونـه شـيخا عجوزا هرما.

لقـد عـبر القـرآن عن كـل هـذه المعـاني بـأدق الألفـاظ وأرقهـا وأوجزها.

سكت قليلا، ثم قال: القرآن لا يختـار الكلمـات فقـط.. بـل يختـار وجوه بنائها ليضعها في المواضع المناسبة لها.

سأذكر لك مثالا مقربا لذلك.

أنت تعلم الفرق بين صيغ المبالغة.. لاشك في ذلك؟

قلت: ما الذي تريد منها؟

قـال: أخـبرني عن الفـرق بين صـيغة مبالغـة على وزن (فعّـال)، وصيغة المبالغة على وزن (فعلة)

قلت: صيغة مبالغة على وزن (فعّال) ـ كما يقول أهل اللغة ـ تـدل على الحِرفـة والصـنعة، فيقـال لمحـترف النجـارة نجّـار، ولمحـترف الحِدادة حدّاد، وتشتهر عندهم أسماء المهن على هذا الوزن كالفتــال والزراد والخراط والصفار والنحـاس والـبزاز. فكلمـة (كـذاب) عنـدما تطلق على أحد فإنها تدل على أن الكذب صار حرفتـه الـتي يحترفهـا كمـا أن حرفـة ذاك هي النجـارة أو الحـدادة. وهـذه الصـيغة تقتضـي المزاولة، لأن صاحب الصنعة يداوم على صنعته.

قال: ووزن (فعلة)؟

قلت: له دلالتان: ما أصله غـير مبالغـة، ثم بولـغ بالتـاء، كـالراوي، فنقول عند المبالغة (راوية).. والثاني ما أصله صيغة مبالغـة، ثم تـأتي التاء لتأكيد المبالغة وزيادتها، مثـل: (هُمـزة) فأصـلها (هُمَـز) وهي من صيغ المبالغة مثل (حُطَم ـ لُكَع ـ غُـدَر ــ فُسـق)، فنـأتي بالتـاء لزيـادة المبالغة.

ويقول أهل اللغـة:مـا بولـغ بالتـاء يـدل على النهايـة في الوصـف، والغاية فيه، فليس كل (نازل) يسمى (نازلة)، ولا كل (قـارع) يســمى (قارعة) حتى يكون مستطيرا عامـا قـاهرا كالجائحـة، ومثلهـا القيامـة والصاخة والطامة.

قـال: فنحن أمـام صـيغتين للمبالغـة إحـداها تـدل على المزاولـة، والأخرى على النهاية في الوصف.

قلت: أجل.. هذا هو الفرق بينهما.

قال: لهذا ترى القرآن يستعمل كل صيغة في محلها الخاص، فقـد

جاء في سـورة نـوح مثلا:{ إِنَّكَ إِنْ تَـذَرْهُمْ يُضِـلُّوا عِبَـادَكَ وَلا يَلِـدُوا إِلَّا فَـاجِراً كَفَّاراً) (نـوح:27)، فالآيـة تشـير إلى أن الكفـر صـار ديـدنهم ومهنتهم اللازمة لهم، وأنهم لن يخرجوا عنه.

وفي نفس السورة نقـرأ:{ فَقُلْتُ اسْـتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَـانَ غَفَّاراً) (نوح:10)، أي أن الله غفار، وكلما أحـدث العبـد ذنبـا أحـدث اللـه لـه مغفرة.

ليس هـذا فقـط.. بـل إن القـرآن قـد يـذكر الكلمـة الواحـدة في موضـع ببنـاء خـاص، ثم يـذكرها في موضـع آخـر ببنـاء آخـر لاقتضـاء السياق ذلك.

سأضرب لك مثلا على ذلك بكلمة (الهمز)، فقد جاءت مـرة على صيغة (فُعَلَة) في قوله:{ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ) (الهمـزة:1)، وجـاءت مرة على صيغة (فَعّـال) في قوله:{ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ) (القلم:11)

سر ذلك يرجع إلى السياق الذي وردت فيه.. فمن استقراء سورة القلم التي جاءت فيها الكلمة على صيغة (فَعّـال) نلاحظ أنهـا تتحـدث عن التعامل مع الخلق بين النـاس، فكـل مشـاهد السـورة أو أغلبهـا تـدور حـول هـذا الأمـر.. حـتى أن فيهـا هـذه الآية:{ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُـقٍ عَظِيمٍ) (القلم:4).. فهي تتنــاول الســلوكيات، ولا تــذكر العاقبــة إلا قليلا[1].

أما في سورة الهمزة، فقد ذكـر النتيجـة وتعـرض للعاقبـة، لـذلك ناسب أن يذكر بلوغه النهاية في الاتصاف بهذه الصفة، وناسـب أيضـا أن يذكر في الجـزاء صـيغة مماثلـة فقـال:{ كَلَّا لَيُنْبَـذَنَّ فِي الْحُطَمَـةِ) (الهمـزة:4)، والنبـذ إذلال، والحُطَمـة صـيغة مبالغـة بالتـاء تـدل على النهاية في الحطم، وهي تفيد أن الجـزاء من جنس العمـل فكمـا أنـه يبالغ في الهمز، فسيكون مصيره مماثلا في الشدة.

---

[1] وهي الـتي وردت في قولـه تعـالى:﴿ سَنَسِـمُهُ عَلَى الْخُرْطُـومِ) (القلم:16)ـ

سكت قليلا، ثم قال: أتدري لم قال القرآن على لسان الشيطان:{ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ) (لأعـراف:17)، فقـد ذكـر الجهـات الأربـع.. ولم يذكر من فوقهم ومن تحتهم؟

قلت: لا أعرف.. ما سر ذلك؟

قال: لقد ورد في القـرآن الإخبـار بـأن هـاتين الجهـتين مختصـتان برحمة الله وعذابه.. ففي الرحمة جاء في القـرآن:{ وَلَـوْ أَنَّهُمْ أَقَـامُوا التَّوْرَاةَ وَالْأِنْجِيلَ وَمَا أُنْـزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُـوا مِنْ فَـوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ) (المائدة:66)

وجاء في العذاب:{ قُلْ هُـوَ الْقَـادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَـذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَـكُمْ بَـأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآياتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ) (الأنعام:65)

سكت قليلا، ثم قـال: أتـدري لم قـال القـرآن:{ وَاشْـتَعَلَ الـرَّأْسُ شَيْباً)(مريم: 4).. أتدري ما الحكمة من لفظ (اشتعل) في الآية؟

قلت: ما الحكمة من ذلك؟

قال: الاشتعال هو عمليـة تحـول المـادة المشـتعلة من حالـة إلى حالـة أخـرى مـع اسـتحالة رجوعهـا للحالـة الأولى أي حالـة مـا قبـل الاشتعال.. وهذا التصور والوصف ينطبق على سـواد الشـعر وبياضـه، أي أن البياض يستحيل أن يتحول إلى سواد.

سكت قليلا، ثم قال: أتدري لم أضاف القرآن الإنارة إلى السـراج مـع أن السـراج لا يكـون إلا منـيرا في قولـه:{ وَدَاعِيـاً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِـهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً) (الأحزاب:46)؟

قلت: لا أدري.. وأنا أتعجب من ذلك، وأتصوره إطنابا لا مبرر له.

قـال: ليس في القـرآن إطنـاب.. كـل مـا في القـرآن لـه دلالتـه الخاصة..

أنت تعلم أن الضوء هو امتزاج الحرارة بالنور كما جاء في القـرآن عن الشمس:{ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً)(يـونس: 5)، والنـور هـو تجريد الضوء من الحرارة كما جـاء في القـرآن عن القمـر:{ وَالْقَمَـرَ نُوراً)(يونس: 5)، والحـرارة سـلب والنـور إيجـاب لـذلك جـاء تعـالى بلفظ (منيرا) لاشتمال مضيئاً على جـانب سـلبي، وهـو النـار، وهـو لا يليق بوصف يمدح به محمد.

سـكت قليلا، ثم قـال: حـرف واحـد قـد يـؤثر في المعـنى تـأثيرا عظيما.. اسمع هذه الآية التي تصف سوق الكفار إلى جهنم:{ وَسِـيقَ الَّذِينَ كَفَـرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَـراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَـا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَـا وَقَـالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُـونَ عَلَيْكُمْ آيَـاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْـذِرُونَكُمْ لِقَـاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ) (الزمـر: 71)

واسمع هذه الآية التي تصف سوق المؤمنين إلى الجنـة:{ وَسِـيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَـراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَـا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَـا وَقَـالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ) (الزمر:73)

لقد ذكر الفتح في كلا الموضعين.. لكنه بفارق حـرف واحـد، فقـد دخلت (الواو) (وفتحت)عند ذكر أصـحاب الجنـة، ولم تـدخل (فتحت) عند ذكر أصحاب النار.

أتدري ما سر ذلك؟

قلت: ما سر ذلك.. أليس هي مجرد زيادة؟

قال: تستحيل الزيادة في القرآن.. كل حـرف لـه دلالتـه الخاصـة، وعمله الخاص.

أما هنا، فقد عملت (الواو) عملا بالغ الضرورة، إذ أن أصحاب النار قد سيقوا إلى جهنم، وهي بعـد لم تفتح، حـتى إذا وقفـوا على أبوابهـا فتحت عن جملة عذابها، فكان هذا عذابا ضعفا عليهم.

أما أصحاب الجنة فقـد سـيقوا إلى الجنـة وأبوابهـا قـد فتحت لهم قبل مجيئهم أي أن تقدير الآية:(حتى إذا جاءوها وقد فتحت أبوابهـا)، وهذا من زيادة الترحيب بأهل الجنة وتعجيل البشارة لهم.

سكت قليلا، ثم قال: وهكذا فـإن القـرآن معجـز من حيث اختيـار الكلمات التي يعبر بها عن أغراضه، وقد سمعت كثيرا من المختصـين في العلوم المختلفة يبينون دقة القرآن في استعمال كلماته:

فأهل التشريع والقانون يبيّنون إعجاز القرآن التشـريعي، ويـبينون اختيارات الألفاظ التشريعية في القرآن ودقتهـا في الدلالـة على دقـة التشريع ورفعته ما لا يصح استبدال غيرها بها، وأن اختيار هذه الألفاظ في بابها أدق وأعلى مما نبيّن نحن من اختيارات لغوية وفنية وجمالية.

وأهل الطب يذكرون أسـرار التعبـير القـرآني من الناحيـة الطبيـة التشريحية ودقتها.. ومن ذلك أن ما ذكره القـرآن من مراحـل تطـور الجنين في الرحم هي التي انتهى إليها العلم مما لم يكن معروفاً قبل هذا العصر، فاختيار تعبير (العلقة) و (المضغة) أعجب اختيار علمي:

فاختيار التعبير بـ (العلقة) اختيار له دلالته، فإن المخلوق في هــذه المرحلة أشبه شيء بالعلقة وهي الطفيلية المعروفة. وكـذلك التعبـير بـ (المضغة)، فالمضغة هي القطعة من اللحم قدر ما يمضغ الماضــغ. ولكن لاختيار كلمة (مضغة) سبب آخـر، ذلـك أن المضـغة هي قطعـة اللحم الممضوغة أي التي مضغتها الأسنان، وقـد أثبت العلم الحـديث أن الجنين في هذه المرحلة ليس قطعة لحم عاديـة بـل هـو كقطعـة اللحم التي مضـغتها الأسـنان، فاختيـار لفـظ (المضـغة) اختيـار علمي دقيق، فالقرآن لم يقـل (قطعـة لحم صـغيرة)، ولـو قـال ذلـك لكـان صواباً ولكن قال (مضغة)

وهكذا في كل تخصص[1]..

وقد قرأت فيما توصل إليه علم التاريخ ومـا دلت عليـه الحفريـات

---

(1) انظر الأمثلة الكثيرة المثبتة لهذا في رسالة (معجزات علمية) من هذه السلسلة.

الحديثـة من أخبـار ذي القــرنين أدق الكلام وأدق الأخبـار مـا لم يكن يعرفـه جميـع مفسـري القـرآن فيمـا مضـى من الزمـان. وأن الـذي اكتشفه المؤرخون والآثاريون وما توصلوا إليه في هذا القرن منطبــق على ما جاء في القرآن الكريم كلمة كلمة ولم يكن ذلك معلوماً قبــل هذا القرن.

وقـرأت في اختيـار التعبـير القـرآني لبعض الكلمـات التاريخيـة كـ (العزيز) في قصة يوسف، وكاختيار تعبير (الملك) في القصة نفســها، واختيار كلمة (فرعون) في قصة موسى، فعـرفت أن هـذه ترجمـات دقيقة لما كان يُستعمل في تلـك الأزمـان السـحيقة فــ (العزيـز) أدق ترجمة لمن يقوم بذلك المنصـب في حينـه، وأن المصـريين القـدامى كانوا يفرقون بين الملوك الذين يحكمونهم فيما إذا كـانوا مصـريين أو غير مصريين، فالملك غير المصـري الأصـل كـانوا يسـمونه (الملـك)، والمصري الأصل يسمونه (فرعون)، وأن الـذي كـان يحكم مصـر في زمن يوسف غير مصري، وهو من الهكسـوس فسـماه (الملـك)، وأن الذي كان يحكمهـا في زمن موسـى هـو مصـري فسـماه (فرعـون)، فسمى كل واحد بما كان يُسمى في الأزمنة السحيقة.

إن التعبير القرآني الواحد قد ترى فيه إعجازاً لغوياً جماليـاً، وتــرى فيه في الوقت نفسه إعجازاً علمياً، أوإعجازاً تاريخياً، أو إعجازاً نفسياً، أو إعجازاً تربوياً، أو إعجازاً تشريعياً، أو غير ذلك.

قلت: ولكن مع ذلك.. ففي القـرآن الكثـير من الكلمـات الغريبـة، والتي تؤثر فيما ذكرته من بلاغة القرآن [1] ..

قال: اذكر لي أمثلة لذلك.. فكـل دعـوى لابـد لهـا من دليـل يـدل عليها، أو مثال ينبه إليها.

قلت: لســت بحاجـة إلى ذكـر أمثلـة لـذلك، فوجـود الغـريب فى القرآن من المشهور الـذي لا شـك فيـه.. لقـد ألـف العلمـاء في هـذا

---

[1] هنا نرد على شبهة وجود الغريب في القرآن الكريم، وهو ما يمنع من فهمه، وهي من الشبه المشتهرة لدى المبشرين وغيرهم. انظر في الرد عليها (شبهات المشككين).

الفن.. فالإمـام محمـد بن مسـلم بن قتيبـة وضـع كتابـاً فى (غـريب القرآن)، وأورده على وفق ما جاء فى سـور القـرآن سـورة سـورة.. ومثله فعل السجستانى، وتفسيره لغـريب القـرآن مشـهور، ومثلهمـا الراغب الأصفهانى فى كتابه (المفردات) فى شـرح غـريب القـرآن.. ومثلهم جميعـا جلال الـدين السـيوطى، الـذي لـه كتـاب يحمـل اسـم (مبهمات القرآن)

ألا يُعد كل ذلك اعترافاً صريحاً من هؤلاء الأئمة بورود الغـريب فى القرآن؟

بالإضافة إلى ذلك.. فإن جميع مفسرى القـرآن قـاموا بشـرح مـا رأوه غريباً فى القرآن.. فكيف يسوغ القول بإنكار وجـود الغـريب فى القرآن أمام هذه الحقائق التى لا تغيب عن أحد؟

وإن أردت أمثلــة على ذلــك.. ففي القــرآن مثلا هــذه الكلمــات (فاكهـةً وأبًّا، غسـلين، حنانـا، أوَّاه، الـرقيم، كلالـة، مبلسـون، أخبتـوا، حنين، حصحص، يتفيؤا، سربا، المسجور، قمطرير، عسعس، سـجيل، النـاقور، فـاقرة، اسـتبرق، مـدهامتان.. وغيرهـا من الألفـاظ الغريبـة المخالفة لما تقتضيه البلاغة من يسر الألفاظ وقربها.

قال: الغريب غريبان، غريب مطلق، وهو ما كان غريبا في تركيبه، وهـو الـذى يعـد عيبـاً فى الكلام، وإذا وجـد فيـه سـلب عنـه وصـف الفصاحة والبلاغة.. ولا وجود لهذا النوع فى القرآن.

ومنـه غـريب نسـبي، وهـو مـا اختلـف النـاس في التعـرف عليـه بحسـب مسـتوياتهم اللغويـة.. ألا تـرى أن ألفاظـا كثـيرة هي ألفـاظ سلسة طبيعية عند الأدباء أو الشعراء.. ولكنهـا قـد تكـون غريبـة على من لم يحترف حرفتتهم، ولم يتعلم علومهم؟

بل إن هذا النوع من الغريب لا يخلو منه أحـد من النـاس، فاللغـة واسعة، وكل كلمة جديدة على الـذهن تبـدأ غريبـة، ثم تـزول غرابتهـا بالإدمان على استعمالها.

ولتفسير هذا النوع من الكلمات جاءت المؤلفات التي ذكرتها مما يسمى بـ (غريب القرآن)، وأول مؤلف وضع فى ذلك هو كتاب (غريب القرآن) لابن قتيبة فى القرن الثالث الهجرى، وكونه في هذا القرن دليل على أنه لم يكتب للمسلمين العرب، بل كان القصد منه هو أبناء الشعوب غير العربية التى دخلت فى الإسلام، وكانت جديدة المعرفة بالعربية.

وكل المؤلفات التي ألفت في هذا الباب تحت هذا الاسم أو غيره ألفت لهذا الغرض.

فما يطلق عليه (غريب القرآن) فى المؤلفات التراثية أو كتب علوم القرآن، وما تناوله مفسرو القرآن فى تفاسيرهم، هو غريب نسبى لا غريب مطلق.

والغريب النسبى بكل الاعتبارات غريب فصيح سائغ، وليس غريباً عديم المعنى، أو لا وجود له فى معاجم اللغة ومصادرها، بل هو موضع إجماع بين علماء اللغة والبيان فى كل عصر ومصر.

قلت: فقد وردت قصة عن ابن عباس تدل على غرابة كلمات قرآنية كثيرة على العرب.

قال: تقصد ما يسمى بـ (مسائل ابن الأزرق)؟

قلت: أجل.. فهي مسطورة فى كثير من كتب التراث مثل ابن الأنبارى فى كتابه (الوقف)، والطبرانى فى كتابه (المعجم الكبير)، والمبرد فى كتابه (الكامل)، وجلال الدين السيوطى فى كتابه (الإتقان فى علوم القرآن)، وغيرهم.

وإن كنت لا تذكر القصة، فهي تنص على أن عبد الله بن عباس كان جالساً بجوار الكعبة يفسر القرآن، فأبصره رجلان هما: نافع بن الأزرق، ونجدة بن عويمر، فقال نافع لنجدة:(قم بنا إلى هذا الذى يجترئ على القرآن ويفسره بما لا علم له به)، فقاما إليه فقالا له: (إنَّا نريد أن نسألك عن أشياء فى كتاب الله، فتفسرها لنا، وتأتينا بما

يصادقه من كلام العرب، فإن الله أنزل القرآن بلسان عربى مـبين)، فقال ابن عباس: سلانى عما بدا لكما. ثم أخذا يسألانه وهـو يجيب بلا توقف، مستشهداً فى إجاباته على كل كلمة، قرآنيـة سـألاه عنهـا بمـا يحفظـه من الشـعر العـربى المـأثور عن شـعراء الجاهليـة، ليـبين للسائلين أن القرآن نزل بلسان عربى مبين.

قلت: فما في هذا من الشبهة؟

قـال: لـولا أن في القـرآن غريبـا لمـا احتـاج هـذان الـرجلان إلى تفسيره.

قال: هذا مما يدلك على قوة لغة القرآن لا على ضعفها.

قلت: كيـف ذلـك.. وقـد اسـتعمل غريبـا لا يعرفـه هـؤلاء العـرب الخلص.

قال: لقد احتوى القرآن على معان كثيرة جليلة لا تستطيع الوفـاء بها الكلمات القليلة التي يتداولها الناس فيمـا بينهم، فلـذلك لم يكتـف بها، بل استعمل خزان العربية الثري، لينهل منـه الألفـاظ الدالـة على المعاني بدقة.

وإن شـئت دليلا على هــذا.. فــاذهب إلى القــواميس الخاصــة بالمصطلحات المرتبطة بكل فن من الفنون.. فأنت تجد في كل يـوم مصطلحات جديدة للدلالة على المعاني الجديدة.

قلت: وما علاقة ذلك بالقرآن؟

قال: لقد جـاء القـرآن بعلـوم كثـيرة، ومواضـيع كثـيرة لم تعهـدها العـرب في كلامهـا، فلـذلك اختـار التعـابير المناسـبة لتلـك المعـارف العميقة..

بـل إنـه لم يكتـف بـذلك.. بـل وضـع مصـطلحات دالـة على هـذه المعاني.. كالصلاة والزكاة والذكر.. ومثلهـا كثـير من المصـطلحات لا نجدها إلا في القرآن.. ولكنا نجد أصولا لها في اللغة العربي.

وهذا ما فسره ابن عباس لذلك الرجل..

فالقرآن لم يبتدع ألفاظا لا يعرفها أحد من الناس، وإنمـا اسـتعمل ما يعرفه الناس ليعبر عن المعاني التي يريد.

وفي هـذا يـدخل مـا ذكرتـه من الكلمـات الـتي تصـورت غرابتهـا ككلمة (غسلين) التي تعني الصديد، أى صديد أهـل النـار، ومـا يسـيل من أجسادهم من أثر الحريق، ولما كان يسيل من كل أجسامهم شبه بالماء الذى يُغسَل به الأدران.

فهذه الكلمة تدل على معنى غير موجـود في لغـة العـرب.. ولكن القرآن استخدم اللفظ القريب المؤدي للمعنى.

بل قد قد يستعمل القرآن أحيانـا ألفاظـا أعجميـة عربتهـا العـرب وجعلتها على موازينها..وذلـك مثـل إسـتبرق، وسـندس، واليم، فهـذه الألفاظ كانت مأنوسة الاستعمال عند العرب حتى قبل نزول القـرآن، بل كانت شائعة شيوعاً ظاهراً فى محادثاتهم اليومية.

وهى مفردات وليست تراكيب، بل هي أسماء مفردة لأشخاص أو أماكن أو معادن أو آلات.

ثم إنهـا وإن لم تكن عربيـة الأصـل، فهى ــ بالإجمـاع ــ عربيـة الاستعمال. ومعانيها كانت ــ ومـا تـزال ــ معروفـة فى القـرآن، وفى الاستعمال العام.

وهـذه الظـاهرة ليسـت خاصـة بالعربيـة.. فاسـتعارة اللغـات من بعضها من سنن المجتمعات البشرية، وهي دليل على حيوية اللغة.

بـل نجـد هـذه الظـاهرة فاشـية فى العصـر الحـديث، ويسـميها اللغويون بـ (التقارض) بين اللغات.. تستوي في ذلك اللغـات جميعـا.. سامية أو غيرها كالإنجليزية والألمانية والفرنسية وفى اللغة الأسـبانية كلمات مستعملة الآن من اللغة العربية.

أما مااقترضته اللغة العربية من غيرها من اللغـات القديمـة أو مـا

له وجود حتى الآن فقد اهتم به العلماء المسلمون ونصوا عليـه كلمـة كلمة، وأسـموه بــ (المعـرَّب)، مثـل كتـاب العلامـة الجـواليقى، وقـد يسمونه بـ (الدخيل)

قلت: فكيف يستقيم هـذا مـع مـا نص عليـه القـرآن في مواضـع متفرقة من أنه أنزل بلسان عربي مـبين.. ألم تقـرأ فيـه:{ إِنَّا أَنْزَلْنَـاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (يوسف:2).. {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُـونَ إِنَّمَـا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـذَا لِسَـانٌ عَـرَبِيٌّ مُبِينٌ} (النحل:103)..{ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَـاهُ قُرْآنـاً عَرَبِيّـاً وَصَـرَّفْنَا فِيـهِ مِنَ الْوَعِيـدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْـدِثُ لَهُمْ ذِكْـراً) (طــه:113).. {كِتَـابٌ فُصِّـلَتْ آيَاتُـهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُـونَ) (فصـلت:3).. { وَلَـوْ جَعَلْنَـاهُ قُرْآنـاً أَعْجَمِيّـاً لَقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِـفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُـونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْـرٌ وَهُـوَ عَلَيْهِمْ عَمىً أُولَئِكَ يُنَـادَوْنَ مِنْ مَكَـانٍ بَعِيـدٍ) (فصـلت:44).. {إِنَّا جَعَلْنَـاهُ قُرْآنـاً عَرَبِيّـاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُـونَ) (الزخرف:3)

فكيف يمكن أن يكون عربيا، وفيه هذه الألفاظ الأعجمية[1]؟

كيف يكون القـرآن عربيًّا مبينًـا، وبـه كلمـات أعجميـة كثـيرة: من فارسية، وآشورية، وسريانية، وعبريـة، ويونانيـة، ومصـرية، وحبشـية، وغيرها؟

وإن شئت التمثيل لذلك.. فكل هذه الكلمات كلمات أعجمية (آدم أباريق إبراهيم أرائك استبرق إنجيل تابوت توراة جهنم حبر حور زكـاة زنجبيل سبت سجيل سـرادق سـكينة سـورة صـراط طـاغوت عـدن فرعون فردوس ماعون مشكاة مقاليد ماروت هاروت..)

صمت قليلا، وكأنه يستجمع أفكاره ليجيبـني، ثم قـال: هـل قـرأت دائرة المعارف الإسلامية؟

قلت: أجل.. اطلعت على الكثير منها، فهل فيها الإجابة على هــذه

1() هنا نرد على شبهة وجود الكلمات الأعجمية في القرآن .. انظر المصادر السابقة.

الشبهة؟

قال: أجل.. ولكن في نسختها العربية فقط.

قلت: لقـد قرأتهـا.. وقـرأت مـادة القـرآن فيهـا، ولكـني لم أجـد الجواب عن هذه الشبهة.

قلت: هل أنت متأكد من أنك قرأت النسخة العربية منها؟

قلت: أجل.. مثلما أنا متأكد من وجودك معي.

قال: لعلك قرأت نسخة مختلطة.. ليست عربية محضة.

قلت: بل قرأت نسخة عربية محضة.

قال مبتسما: بلسان عربي مبين.

قلت: أجل.. بلسان عربي مبين.. فقد أشرف عليها لغويون كبار.

قال: لقد أجبت نفسك عن شبهتك.

قلت: كيف ذلك؟

قال: ألا توجد في تلك النسخة كلمات أعجمية؟

قلت: أجـل.. يوجـد الكثـير منهـا.. وهـو ضـرورة.. فأحيانـا يحتـاج الكاتب إلى نقل النص بلغتـه الأصـلية، بالإضـافة إلى أن هنـاك أعلامـا لابد أن تكتب بتلك الصيغة.

قال: وهكذا القرآن.. فهـو بلسـان عـربي مـبين.. وكونـه كـذلك لا يمنع من وجود بعض الألفاظ القليلة التي تأتي على سبيل النــدرة من الكلمات الأعجمية.

فوجود مفردات أجنبية فى أى لغـة سـواء كـانت اللغـة العربيـة أو غــير العربيــة لا يخــرج تلــك اللغــة عن أصــالتها، ومن المعــروف أن الأسماء لا تـترجم إلى اللغـة الـتى تسـتعملها حـتى الآن.. فالمتحـدث

بالإنجليزية إذا احتاج إلى ذكر اسم من لغة غير لغتــه، يــذكره برســمه ونطقه فى لغته الأصلية.

ومن هذا ما نسمعه فى نشرات الأخبار باللغات الأجنبية فى بلادنا، فإنها تنطق الأسماء العربيــة نُطقــاً عربيًّا، ولا يقــال: إن نشــرة الأخبــار ليست باللغة الفرنسية أو الإنجليزية مثلاً، لمجــرد أن بعض المفــردات فيها نطقت بلغة أخرى.

والمؤلفــات العلميــة والأدبيــة الحديثــة الــتى تكتب باللغــة العربيــة ويكثر فيها مؤلفوها من ذكــر الأســماء الأجنبيــة والمصــادر الــتى نقلــوا عنهــا ويرســمونها بــالأحرف الأجنبيــة والنطــق الأجنــبى لا يقــال: إنهــا مكتوبة بغير اللغة العربيــة، لمجــرد أن بعض الكلمــات الأجنبيــة وردت فيها، وهكذا.

ولهذا، فإن كل ما فى القرآن من كلمات غــير عربيــة الأصــل إنمــا هى كلمات مفردات، وهي في معظمها أسماء أعلام مثل (إبــراهيم، يعقوب، إسحاق، فرعون)

زيادة على ذلك، فإن القرآن يخلو تمامًا من تــراكيب غــير عربيــة، فليس فيه جملة واحدة اسمية، أو فعلية من غير اللغة العربية.

قلت: ليست الخطورة في هذا.. ولكن الخطورة في مصــطلحات كثيرة ورد بها القرآن.. وهي دليل على تأثره بمصادر أجنبية.

قال: ما أمثلة ذلك؟

قلت: هي كلمات كثيرة لها دلالاتها الخاصــة، كالزكــاة، والســكينة، والحور، والسبت، والسورة، وعدن.. بل حــتى كلمــة (اللــه) الــتي هي علم على إله المسلمين.

قال: من أخبرهم بأن هذه كلمــات أعجميــة.. هــذه كلمــات عربيــة أصيلة لها جذور لغُوية عريقة فى اللغة العربية، وقد ورد فى المعــاجم العربية وكتب فقه اللغة وغيرها تأصيل هذه الكلمات عربيًّا، فالزكــاة ـ

مثلا ـ من زكا يزكو فهو زاكٍ، وأصل هذه المادة هى الطهـر والنمـاء.. والسكينة، بمعـنى الثبـات والقـرار، ضـد الاضـطراب لهـا جـذر لغـوى عميـق فى اللغـة العربيـة، يقـال: سـكن بمعـنى أقـام، ويتفـرع عنـه: يسكن، ساكن، مسكن، أسكن.. وهكذا سائر الكلمات..

ومن أكذب الادعاءات أن يقال: إن لفـظ الجلالـة (اللـه) عـبرى أو سريانى، وأن القرآن أخـذه عن هـاتين اللغـتين، إذ ليس لهـذا اللفـظ (الله) وجود فى غير العربية.

فالعبرية مثلاً تطلق على (الله) عدة إطلاقات، مثـل ايـل، الـوهيم، وأدوناى، ويهوا أو يهوفا.. فأين هذه الألفاظ من كلمة (الله) فى اللغـة العربية؟

ومثلها في اللغة اليونانيـة الـتى تـرجمت منهـا الأناجيـل إلى اللغـة العربيـة حيث نجـد اللـه فيهـا (الـوى) وقـد وردت فى بعض الأناجيـل يذكرها المسـيح مسـتغيثاً بربـه هكـذا (الـوى الـوى)، وترجمتهـا إلهى إلهى.

بالإضافة إلى هذا كله.. فإن هذه المفردات ــ الـتي وصـفت بأنهـا غير عربية ـ وإن لم تكن عربية فى أصل الوضع اللغـوى، فهى عربيـة باستعمال العـرب لهـا قبـل عصـر نـزول القـرآن.. وبهـذا الاسـتعمال فارقت أصلها غير العربى، وعُدَّتْ عربية نطقاً واستعمالاً وخطاًّ.

صـمت قليلا، سـمعنا خلالهـا سـورة الضـحى بصـوت الشـيخ عبـد الباسط عبد الصـمد..كـانت قـراءة خاشـعة تحلـق بـالروح لسـموات جميلة مملوءة بفضل الله ورحمته وقربه من عباده.

بعد أن انتهى القارئ من قراءتـه، قـال: لا شـك أن هـذه القـراءة هزت أعماقك.. هي تفعل ذلك معي.. وهي لا تفعل ذلـك بسـبب أداء القارئ فقط.. بل بمعانيها.. وبالكسوة التي كسيت بها معانيها.

التصوير الفني:

قلت: وعيت مرادك من التعبير الفني، وأشـهد صـادقا أن القـرآن

يحوي من جمال التعبير ما يسلب الألباب.. فمـا مـرادك من التصـوير الفني؟

قال: هي ناحية أخرى من نواحي المتعة فيه.. إن القرآن لا يصـف لك الأحادث كما يصفها البلغاء، فتتيه بألفـاظهم وجمـال تعـابيرهم عن الأحداث التي يريدون وصفها لك.. بل إنـه ينقـل لـك الأحـداث لتراهـا بعينيك، وتسمعها بأذنيك، وتشمها بأنفك.

إنه يختصر مسافات المكان والزمان لينقلك لترى الحقائق بصورة مشاهد تعيشها، وتنفعل لها..

وهذا التصوير الجميل لم يكتمـل إلا في القـرآن.. فالقـارئ فيـه لا يقرأ، وإنما يشاهد ويعيش ويتحقق.. ولذلك كـان تـأثير القـرآن أعظم من كل تأثير.

إنني أقرأ في الكتاب المقدس قصة موسى.. وأرى الأحداث الـتي مر بها، فلا تختلف قـراءتي فيـه عن قـراءتي لأي كتـاب في التـاريخ.. بينما أرجع إلى القرآن.. فأجد قصة موسى حية، تنبعث الحياة في كل جزء من أجزائها..

إنني أقرأ التوارة.. فلا أجد فيها مثل هذا النص الجميـل:{ وَأَوْحَيْنَـا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ}(القصص:7)

إن هـذا النص يصـور أم موسـى، وهي خائفـة وجلـة على ابنهـا، فيأتيها الأمر الإلهي الحي بأن تلقيه في اليم، وبـأن لا تخـاف عليـه ولا تحزن، بل تستبشر لأن الله سيرده إليها، وسيجعله من المرسلين.

إنك في هذا الحادث الذي تكاد تبصـره بعينيـك لا تـرى أم موسـى فقط.. بل ترى رحمة الله وفضله على عباده.. فالله لا يعـبر في هـذه الآية بصيغة الغائب، وإنما يعبر بصيغة المتكلم الحاضر.

وأقرأ في القرآن قصة رحيل موسى إلى مـدين، فـأمتلئ بمعـاني

سامية أكاد أبصرها بعيني، وألمسها بيدي.. اسمع إلى هذا النص الجميل:{ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنْ النَّاصِحِينَ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنْ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَةَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّالِحِينَ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ }(القصص: 20 ـ 28)

إن هذا المشهد لا يروي مخيلتك فقط بالمشاهد، بل ينقل لك معها نفس موسى الطيبة وروحانيته، وتقواه، ومروءته، إنها صور كثيرة، لا لأشياء محسوسة فقط.. بل لأشياء لا يمكن أن تلمسها، ولا أن تراها.

قلت: إن أي قصة في الدنيا يمكن أن تتحول إلى مشاهد في ذهن المستمع.. وليس للقرآن مزية في ذلك.

قال: إن المشاهد القرآنية مختلفة تماما، إن حياتها لا تنبعث من تصويرها للأحداث المحسوسة، بل تنبعث من تصويرها لما وراء الأحداث، ولما قبلها، ولما بعدها.

ومع ذلك.. فاسمع أي موضوع في القرآن تجده يصور لك أي شيء مهما غمض وخفي..

إنه يصور النفوس في اضطرابها وحيرتها وقلقها وخوفها، فيقول:

{ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُـونَ أَصَـابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَـذَرَ الْمَـوْتِ وَاللَّهُ مُحِيـطٌ بِالْكَـافِرِينَ يَكَـادُ الْبَـرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيـهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَـامُوا وَلَـوْ شَـاءَ اللَّهُ لَـذَهَبَ بِسَـمْعِهِمْ وَأَبْصَـارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُـلِّ شَـيْءٍ قَـدِيرٌ} (البقرة:19 ـ 20)

إن هذا مشهد عجيب، حافل بالحركة، مشـوب بالاضـطراب، فيـه تيـه وضـلال، وفيـه هـول ورعب، وفيـه فـزع وحـيرة، وفيـه أضـواء وأصداء.. صيب من السماء هاطل غزير فيـه ظلمـات ورعـد وبـرق.. كلما أضاء لهم مشوا فيه.. وإذا أظلم عليهم قـاموا حـائرين لا يـدرون أين يذهبون، وهم مفزعون يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت.

إن الحركـة الـتي تغمـر المشـهد كلـه من الصـيب الهاطـل، إلى الظلمات والرعد والبرق، إلى الحائرين المفزعين فيه، إلى الخطوات المروعة الوجلة التي تقف عندما يخيم الظلام.. إن هـذه الحركـة في المشهد لترسم - عن طريق التأثر الإيحائي - حركة التيه والاضـطراب والقلق والأرجحة التي تعيش فيها نفوس أولئك المنافقون بين لقائهم للمؤمنين، وعودتهم للشياطين.. بين ما يقولونـه لحظـة، ثم ينكصـون عنه فجأة.. بين ما يطلبونه من هدى ونور، وما يفيئون إليه من ضـلال وظلام.. فهـو مشـهد حسـي يرمـز لحالـة نفسـية؛ ويجسـم صـورة شعورية[1].

قلت: هو تصـوير بـارع.. نعم.. ولكن مـا تـأثير هـذا على الأهـداف التي جاء القرآن ليقررها، ويربي النفوس عليها؟

قال: لا يمكن أن تتحقق أي أهداف في الـدنيا حـتى تصـبح صـورا ومشاهد تملأ نفوس أصحابها.

لقـد اعتمـد القـرآن هـذا الأسـلوب التصـويري ليملأ التفـوس بالطهارة، والأرواح بالسمو.

(1) من الظلال بتصرف.

صمت قليلا، قرأ القارئ خلالها بصوته الجميل قوله تعالى:{ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ وَأَشْرَقَتْ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} (الزمر: 68 ـ 75)

أغلق الجهاز، ثم قال: هل رأيت هذا المشهد؟

قلت: ما تقصد؟

قال: هذا المشهد العظيم الذي ذكره القرآن.. إني أسمعه كلما قطعت هذه الطريق، ومع ذلك لا أمل من سماعه.. إن القرآن ينقل لي أحداثا كثيرة لا تزال لم تحدث بعد.. ليجعل عيناي تريانها بكل دقة.

إن هذا المشهد يملأ النفوس طهارة.. والأرواح رفعة..

إنه برفعك إلى آفاق سامية لا يستطيع أي جدل عقلي، ولا منطق حسي، ولا قصيدة وجدانية أن ترفعك إليها.

وهو لا يكلف عقلك أي عنت لتفهم ما تقول.. بل يكفي أن تسرح لمخيلتك العنان لتعيش ما تسمع.. ثم تملأ النفس بعدها بالحقائق التي لا يستطيع الجدل أن يبلغها.

إنه (مشهد رائع حافل، يبدأ متحركاً، ثم يسير وئيداً، حتى تهدأ كل

حركة، وتسكن كل نأمـة، ويخيم على سـاحة العـرض جلال الصـمت، ورهبة الخشوع، بين يدي الله)

إنك ترى فيه الأرض، وقد طـوي بسـاطها، والسـماء وقـد التحفت بإشراقة النـور، إنـك تـرى فيـه العـالم بصـورة مختلفـة.. صـورة تملأ النفس بالمواجيد الصادقة.

قلت: هي مشاهد جميلة.. نعم.. وتـروي الخيـال.. نعم.. ولكن مـا علاقة كل ذلك بالسلوك؟

قال: كل سلوك صالح ينطلق من هذه المشاهد.. ألم تسمع ذلــك الوصف لسوق أهل الجنـة.. إنهم يقـادون إلى الجنـة كـالملوك.. وهم يوصفون بالأتقيـاء لتتحـرك في همـة كـل من يـرى هـذا المشـهد إلى التحقق بالتقوى.

وهو يصف أهل جهنم الـذين يقـادون إليهـا أذلاء بـأنهم من الكفـار لتمتلئ النفوس خوفا من الكفر الذي يوردها هذا المورد..

إنه ليس مشهدا فقط.. إنه مدرسة تربوية كاملة.

ولهذا لما امتلأ أصحاب محمد بمثل هذه المشاهد امتلأت نفوسهم بحب الجنة.. ولما امتلأت بحب الجنة امتلأت بما يقربهم إليها.

اسمع الحارث بن مالك الانصاري، وهو أحد أصـحاب محمـد، وهـو يصف تأثير هذه المشاهد على نفسه، قال: مـررت بـالنبي ﷺ فقـال: كيف أصبحت يا حارث؟ قلت: أصبحت مؤمنـا حقـا، فقـال: انظـر مـا تقول! فان لكل شئ حقيقـة فمـا حقيقـة إيمانـك؟ قلت: قـد عـزفت نفسي عن الدنيا، وأسهرت لذلك ليلى وأظمأت نهاري، وكـأني أنظــر إلى عرش ربي بارزا، وكـأني أنظـر إلى أهـل الجنـة يـتزاورون فيهـا، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها، فقـال:(يـا حـارث! عـرفت فالزم) - قالها ثلاثا[1].

---

[1] رواه الطبراني في الكبير وأبو نعيم.

ومما يروى من ذلك عن جبير بن مطعم أنه قال:(سـمعت النـبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآيـة:{ أَمْ خُلِقُـوا مِنْ غَيْـرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (35) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (36) أَمْ عِنْدَهُمْ خَـزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَـيْطِرُونَ (37)}(الطـور) كـاد قلبي أن يطير).

صـمت قليلا، ثم قـال: بهـذا الأسـلوب يصـور لـك القـرآن كـل المشاهد.. الحسية والمعنوية.. وكل الحقائق.. العلوية والسفلية.. إنـه يتكلم عن كل شيء.. ويصور كل شيء.

سأضرب لك مثالا على كيفية تصوير القرآن لمعنى النفور الشديد من دعوة الإيمان.. اسمع هذه الآيات:{ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (49) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (50) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (51)}(المدثر)

ففي هذا النص تشترك مـع الـذهن حاسـة النظـر وملكـة الخيـال وانفعال السخرية وشعور الجمال.. السخرية من هؤلاء الـذين يفـرون كمـا تفـر حمـر الـوحش من الأسـد لا لشـيء إلا لأنهم يـدعون إلى الإيمان، والجمال الذي يرتسم في حركة الصورة حينما يتملاّها الخيال في إطار من الطبيعة تشرد فيه الحمـر تيبعهـا قسـورة، فـالتعبير هنـا يحرك مشاعر القارئ، وتنفعل نفسه مع الصورة التي نُقلت إليه وفي ثناياها الاستهزاء بالمعرضين.

واسمع إلى القرآن كيف يصور عجز الآلهة التي يعبدها المشركون من دون اللـه:{ إِنَّ الَّذِينَ تَـدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُـوا ذُبَابًـا وَلَـوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَـيْئًا لَّا يَسْـتَنقِذُوهُ مِنْـهُ ضَـعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ}(الحج: 73)

فالصورة الفنية هنا هي الربط بين قدسية الآلهـة المزعومـة حيث وُضـعت في أذهـان معتنقيهـا في أقـدس صـورة، والربـط بينهـا وبين مخلوق حقير.. ولم يكتف بهذا الربط بل حشد لهذا المخلـوق جموعـاً ضخمة، فعجزوا عن خلقه، ثم في الصورة التي تنطبع في الـذهن من طيرانهم خلف الذباب لاستنقاذ ما يسـلبه، وفشـلهم مـع اتبـاعهم عن

هذا الاستنقاذ.

النظم الفني:

قلت: فما تريد بالنظم الفني؟

قال: لقـد تمـيز القـرآن بنظم خـاص لا يشـاكل فيـه أي نظم في الدنيا.

قلت: ما تقصد؟

قال: ارجع إلى كل ما كتب في الدنيا من شـعر ونـثر وقـارن بينـه وبين القرآن، فستجد للقرآن أسلوبه الخاص الذي جمـع بين محاسـن الشعر ومحاسن النثر، ووقي في نفس الوقت من مساوئهما.

لقد ذكر أبو العلاء المعري الشاعر الأديب المتهم بمعارضة القرآن هذه الخاصية فقال:(وأجمع ملحد ومهتد أن هذا الكتاب الذي جـاء بـه محمد كتاب بهر بالاعجاز، ولقى عدوه بالارجاز، مـا حذى على مثـال ، ولا أشبه غريب الأمثال ،.. ما هو من القصيد الموزون ، ولا الرجز، ولا شـاكل خطابـة العـرب ولا سـجع الكهنـة، وجاءكالشـمس ، لـو فهمـه الهضب لتصدع ، وإن الآية منـه أوبعض الآيـة لتعـرض في أفصـح كلم يقـدر عليـه المخلوقـون، فتكـون فيـه كالشـهاب المتلالىء في جنح غسق، والظهرة البادية في جدوب)

والتفت إليها قبلـه الوليـد بن المغـيرة المخـزومي، وهـو عـدو من أعداء محمد الأولين، وقد عرف بين عرب الجاهليـة بكياسـته وحسـن تدبيره ، حتى سمي ريحانة قريش.. سمع آيات من سورة غافر فرجع الى قومه، فقال لهم:(واللّه لقد سمعت من محمد آنفا كلامـا مـا هـو من كلام الانس ولا من كلام الجن ، وإن لـــه لحلاوة ، وإن عليـــه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغـدق ، وإنـه ليعلـو ومـا يعلى عليه)[1]

---

(1) روى هذا الحاكم، وصححه عن ابن عباس.

وقد حجب الكثير من المتنبئين بهذا النوع من جمال الأسلوب عن حقائق القرآن التي تلبس تلك الثياب الجميلة، فرحوا يحـاولون تقليـد القرآن.. فضحكوا، واضحكوا عليهم الناس.

التفت إلي، فرآني واجما، فقال: سأذكر لك منها ما يغسل صدرك غسلا.. ستضحك كما لم تضحك من قبل.

لا شك أنك تعرف مسيلمة.. ذلك المتنبئ الكـاذب.. قـال ــ فيمـا يزعم أنه نزل عليه من السـماء ــ:(والليـل الأضـخم، والـذئب الأدلم، والجذع الأزلم، ما انتهكت أسيد من محرم) ذكر ذلك في خلاف وقـع بين قوم أتوه من أصحابه.

وقال فيهم:(والليل الدامس، والذئب الهـامس، مـا قطعت أسـيد من رطب ولا يابس)

وكـان معجبـا بـأنواع من الحيوانـات، فلـذلك ضـم قرآنـه بعض أوصـافها، فهـو يقـول في الغنم:(والشـاء وألوانهـا، وأعجبهـا السـود، وألبانها، والشاة السوداء، واللبن الابيض، إنه لعجب محض، وقد حــرم المذق، فما لكم لا تجتمعون)

التفت إلي، وقد غلبني الضـحك عن نفسـي، فـراح يكمـل: وكـان يقــول:(ضــفدع بنت ضــفدعين، نقى مــا تنقين، أعلاك في المــاء وأسفلك في الطين، لا الشارب تمنعين، ولا الماء تكـدرين، لنـا نصـف الارض ولقريش نصفها، ولكن قريشا قوم يعتدون!)

وكـان يقـول:(والمبـديات زرعـا، والحاصـدات حصـدا، والـذاريات قمحا، والطاحنات طحنا، والخابزات خبزا، والثاردات ثردا، واللاقمــات لقما، إهالة وسمنا، لقـد فضـلتم على أهـل الـوبر، ومـا سـبقكم أهـل المدر، ريفكم فامنعوه، والمعتر فآووه، والباغى فناوئوه)

وبمثل ذلك نطق أكثر المتنبئين.

اصطنعت الجد، وقلت له: أتصدق أن مثل أولئك قالوا مثل هذا.

قال: قد كنت أكذبه.. حتى ظفرت بأدلة تصدق ذلك.

قلت: وما ظفرت.. أرأيت مخطوطا تركه مسـيلمة عليـه بصـمات يده فيه هذا الهذر.

قال: لا.. لقد كتب قومي وقومك مثل قـول مسـيلمة، فاسـتدللت به على صدق ما ورد عن مسيلمة.

قلت: ما تقول؟.. لم أسمع أن قومنا فكروا في تقليد القرآن.

قال: لا.. بل فعلوا.. لقد كان هذا آخر اختراع اخترعوه في حـربهم التي يشنونها على القرآن.

قلت: ومن أين لهم الأدباء الفضلاء الذين انتدبوهم لهذا الغرض؟

قـال: لقـد اشـتروا بعض الألسـن الفارغـة، والعقـول السـخيفة، فراحت تهذر بنظم لا يختلف عن نظم مسيلمة[1].

قلت: فأسمعني بعض ما قالوا.

قال: سأسمعك قرآنا جديدا.. لم تمض مـدة طويلـة على تأليفـه.. سماه مؤلفه، أو مؤلفوه (الفرقان الحق).. وهو محاولة عصرية لتقليد النص القرآني لفظاً ومعنىً وأسلوباً وصياغة[2].

لا يمكنني أن أقرأ عليك هذا الفرقان جميعا.. فلن تطيق سماعه.. ولهذا سأقتصر على بعض سوره.. أو أربع منها.. ربما كانت أفضلها.

أما السورة الأولى.. فهي (سـورة الحـق)، وأول آيـة منهـا تقـول: (وأنزلنا الفرقان الحقَّ نوراً على نور محقاً للحقّ ومزهقاً للباطل وإن كره المبطلون)

ابتسمت استغرابا لهذا التقليد العجيب، فقال: هذه آية واحـدة من

1() انظر التفاصيل المرتبطة بهذا في رسالة (النبي المعصوم) من هذه السلسلة.

2() انظر: أكذوبة الفرقان الحق، للباحث: ياسر الأقرع، من موقع الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.

هذه السورة.. ولكنها مع ذلـك تمتلئ أخطـاء في الحـروف والكلمـات والأفعال والأسماء:

فهذا النص يبدأ بـ (بالواو) وهي على تعدد أنواعها لا تأتي في هذا الموضع إلا على احتمالين:إما أن تكون اسـتئنافية، أو تكـون عاطفـة.. وفي كلا الحـالين لابـد من كلام قبلهـا، لنسـتأنف بـالواو مـا بـدأناه، أو نعطف بها على جملة سبقتها.

فلابـدّ إذاً من تقـدير جملـة محذوفـة قبـل الـواو، غـير أنـه لا بـد للمحذوف من كلام يدلّ عليه أو يشير إليه، وليس فيمـا يلي الـواو مـا يدلّ على معنى سابق مقدّر، فما الحاجة إليهـا إذاً وهي لم تُفِـدْ شـيئاً، ولم تضف معنى؟ بل يمكن الاسـتغناء عنهـا، أو إبـدالها حـرف توكيـد، حيث تتأتى من ذلك فائدة ليست في وجود الواو في هذا الموضع.

ثم جـاء الفعـل (أنزلنـا).. وهـو تعبـير مقتبس من القـرآن كسـائر الكلمات.. فلم اقتبسـوه، ولم لم يقولـوا قـدّمنا أو كتبنـا أو أرسـلنا أو ألّفنا.

ثم لماذا وصفوا الفرقان بكونه حقا، مع أن الفرقان اسـم معـرف بـأل وهـذه الـ (أل) تفيـد في أحـد أمـرين فإمـا أن يكـون المتكلم والمخاطب متفقين على المعـرّف بحيث تـدل هـذه الـ (أل) على مـا تعارفا عليه كقولك لمن وضعت عنده كتابـاً (أين الكتـاب؟) فيناولـك إياه.

أو تفيد الكمال أي تقول (هـذا الكلام) أو (هـذا الرجـل) وتقصـد الكلام الكامـل كمـا يجب أن يكـون والرجولـة الكاملـة كمـا يجب أن تكون.

والفرقان بذكره معرّفاً بـأل يفيـد الكمـال أي كمـال التفريـق بين الحـق والباطـل ومن هنـا فلا يضـيف وصـفه بــ (الحـقّ) إلى معـنى الفرقان جديداً، فتنعدم بذلك الفائدة من الصفة.

فلو قيـل (الفرقـان) دون وصـفه لكـان المعـنى الفرقـان الـذي

يفرق بين الحق والباطل بشكله الكامل الذي لا نقص فيه فهو (الحقّ)

وثمة احتمال آخر وهو أن يكون ثمة فرقان آخر، هو الباطل وهـذا الفرقان هو الحق فالصـفة تفـرّق بين اسـمين مشـتركين في اللفـظ فتقول (مررت بزيد القائم) وهذا يقتضي وجود رجل اسمه زيد وهـو غير قائم.

لكن كلمة الفرقان وحدها تكفي لتفند دعاوى من يدّعي باطلاً بأنه فرقان، ومن يكون حقاً فرقاناً، فلو ادّعى مجموعة أشخاص بـأن كلاً منهم هو حكم أو عادل، ثم أشـرت إلى رجـل وقلت (هـذا الحكم) أو (هذا العادل)، لكفاك ذلك في دحض دعاوى غـيره بـأنهم الحكـام أو العادلون.

قلت: دعـني من مناقشـة مـا قـالوا.. واذكـر لي مـا قـالوا.. فلا أحسبني جاهلا باللغة إلى درجة أن يؤثر في أي كلام.

قال: بعد تلك الآيـة تـأتي هـاتين الآيـتين:(ففضحَ مكـر الشـيطان الرجيم، ولو تنزّل بوحي ملك رحيم، وأبطل فرية رسله الضالين، ولـو نطقوا بما أعجز الأميين)

غلبني الضحك، فقلت: هل قال:(ولو نطقوا بما أعجز الأميين)

قال: أجـل.. هـل رأيت حمقـه وكذبـه وتحاملـه على القـرآن.. إن القرآن تحدى أصحاب البلاغة والفصاحة والعلم والمعرفة.

قلت: حدثني عن سورة أخرى من هذه السور العجيبة.

قال: سأذكر لك الآية الأولى من سورة الفاتحـة الـتي اسـتهل بهـا مسـيلمة الجديـد فرقانـه الحـق.. إن هـذه السـورة تسـتدعي براعـة الاستهلال ـ كمـا يسـميها البلاغيـون، وهي تقتضـي أن تحـوي عبـارات موجزة وإشارات دالة يسـتطيع القـارئ بواسـطتها أن يفهم مضـمون الكتاب المقدم على قراءته ـ اسمع ما قال في هذا:(هـو ذا الفرقـان

الحق نوحيه فبلغه للضالين من عبادنا وللنـاس كافـة ولا تخش القـوم المعتدين)

غلبني الضحك، وقلت: لمـاذا قـال:(للضَّـالين من عبادنـا وللنـاس كافـة).. هـل الضـالون من العبـاد لا ينـدرجون تحت اسـم (النـاس كافة)؟

زدني سورة أخرى..

قلت: سأقرأ عليك بعض سورة حملت اسم (سورة الضّالين)

ضـحكت، فقـال: سـأقرأ عليـك الآيـة الأولى منهـا، وهي:(وألبس الشيطان الباطلَ ثوب الحقّ وأضفى على الظلم جلباب العدل، وقـال لأوليائه أنا ربكم الأحد لم ألد ولم أولد ولم يكن لي منكم كفواً أحد)

قلت: هذا كتبه حاقد.. ولم يكتبه متحد صـادق.. وإلا فكيـف يختـار تعابير القرآن بل كلمات القرآن وأسلوب القرآن؟

قال: أجـل.. إنـه لم يفعـل سـوى أن غـير رصـف كلمـات القـرآن لينشئ منها ما توهمه تحـديا.. اسـمع الآيـة الثانيـة من هـذه السـورة: (فأنا الملـك الجبـار المتكـبر القهـار القـابض المـذل المميت المنتقم الضّار المغني فإياي تعبدون وإياي تستعينون)

قلت: ما الـذي جـاء بـه من عنـده؟ كـل مـا ذكـره ألفـاظ قرآنيـة ومعاني قرآنية أعاد رصفها وصياغتها.

قال: سأكمل لك الآيات المتبقية من هذه السورة.. اسمع:((2) مهيمن يحطم سيف الظلم بكف العدل ويهدي الظالمين (3) ويهدم صرح الكفر بيد الإيمان ويشيد موئلاً للتائبين (4) ويـنزع غـلَّ الصـدر شذى المحبة ويشفي نفوس الحاقدين (5) ويطهّر نجس الزنى بماء العفـة ويـبرئ المسـافحين (6) ويفضـح قـول الإفـك بصـوت الحـق ويكشف مكر المفـترين(7) فيـا أيهـا الـذين ضـلّوا من عبادنـا توبـوا وآمنوا فأبواب الجنة مفتوحة للتائبين)

بهذه الآيات السبعة التي تتفق مع سورة الفاتحة في عددها تنتهي هذه السورة العجيبة التي تصور صاحبها أنه يعارض بها القرآن.

قلت: دعنا من هذا الجنون.. وعد بنا إلى القرآن.. ما سر جمال النظم القرآني؟

قال: إن القرآن ليس كلمات مرصوفة تبحث عن فاصلة تنتهي بها، بل هو حقائق تنساب كما ينساب الماء العذب في المنحدرات.. فلذلك كان له الجمال الذي لا يمكن وصفه.

قلت: فكيف يفهم الغير سر إعجازه إذا لم تقدر على وصفه؟

قال: الأشياء التي ينتهي فيها الجمال إلى مراتب لا تطاق لا يمكن وصفها.. لقد عبر عن ذلك ابن أبى الحديد، وهو عالم من علماء المسلمين، وأديب من أدبائهم، فقال:(اعلم أن معرفة الفصيح والأفصح، والرشيق والأرشق، والجلى والأجلى، والعلى والأعلى من الكلام أمر لا يدرك إلا بالذوق، ولا يمكن إقامة الدلالة المنطقية عليه، وهو بمنزلة جاريتين: إحداهما بيضاء مشربة حمرة، ودقيقة الشفتين، نقية الشعر، كحلاء العين، أسيلة الخد، دقيقة الأنف، معتدلة القامة، والأخرى دونها في هذه الصفات والمحاسن، لكنها أحلى في العيون والقلوب منها، وأليق وأملح، ولا يدرى لأي سبب كان ذلك، لكنه بالذوق والمشاهدة يعرف، ولا يمكن تعليله.. وهكذا الكلام.. نعم، يبقى الفرق بين الوصفين أن حسن الوجوه وملاحتها وتفضيل بعضها يدركه كل من له عين صحيحة، وأما الكلام فلا يعرفه إلا بالذوق، وليس كل من اشتغل بالنحو أو باللغة أو بالفقه كان من أهل الذوق، وممن يصلح لانتقاد الكلام، وإنما أهل الذوق هم الذين اشتغلوا بعلم البيان وراضوا أنفسهم بالرسائل والخطب والكتابة والشعر، وصارت لهم بذلك دربة وملكة تامة، فإلى أولئك ينبغى أن يرجع في معرفة الكلام وفضل بعضه على بعض)[1]

سكت قليلا، ثم قال: لقد حاول بعض المحللين معرفة بعض سر

(1) نقلا عن الإتقان للسيوطي.

ذلك، فذكر أن كون النظم معجـزاً يتوقـف على بيـان نظم الكلام، ثم بيان أن هذا النظم مخالف لنظم ما عداه.

ثم ذكـر ان مـراتب تـأليف الكلام خمس.. تبـدأ بضـم الحـروف المبسوطة بعضها إلى بعض لتحصـل الكلمـات الثلاث الاسـم والفعـل والحـرف.. والثانيـة: تـأليف هـذه الكلمـات بعضـها إلى بعض لتحصـل الجمل المفيدة، وهو النوع الذي يتداوله الناس جميعاً في مخاطبـاتهم وقضاء حوائجهم، ويقال لـه المنثـور من الكلام.. والثالثـة: يضـم بعض ذلك إلى بعض ضماً لـه مبـاد ومقـاطع ومـداخل ومخـارج، ويقـال لـه المنظوم.. والرابعة: أن يعتبر في أواخر الكلام مع ذلك تسجيع، ويقال له المسجع.. والخامسة: أن يجعـل مـع ذلـك وزن، ويقـال لـه الشـعر والمنظوم، إما محـاورة ويقـال لـه الخطابـة، وإمـا مكاتبـة ويقـال لـه الرسالة.

فـأنواع الكلام لا تخـرج عن هـذه الأقسـام، ولكـل من ذلـك نظم مخصوص، والقرآن جامع لمحاسن الجميع على نظم غير نظم شـيء منها يدل على ذلك، لأنه لا يصح أن يقال له رسالة أوخطابة أو شـعرا أوسجعا، كما يصح أن يقال هوكلام، والبليغ إذا قرع سمعه فصـل بينـه وبين ما عداه من النظم، ولها ورد في القـرآن:{ وَإِنَّهُ لَكِتَـابٌ عَزِيـزٌ لا يَأْتِيـهِ الْبَاطِـلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْـهِ وَلا مِنْ خَلْفِـهِ تَنزِيـلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيـدٍ } (فصـلت:42) تنبيهـاً على أن تأليفـه ليس على هيئـة نظم يتعاطـاه البشر، فيمكن أن يغير بالزيادة والنقصان كحالة الكتب الأخر[1].

سكت قليلا، ثم قال: لا شك أنك ترى القرآن مختلفا عن الشـعر.. لقد ذكر القرآن ذلك، فقد جاء فيه:{ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَـا يَنْبَغِي لَـهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ}(يّـس:69)

ومع أن العرب كانوا يدركون أن القرآن ليس كالشعر إلا أنهم في خصومتهم شـبهوه بالشـعر.. وقـد جـاء في القـرآن حكايـة عن كفـار العرب:{ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَـا

(1) الإتقان للسيوطي.

أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ}(الانبياء:5)

وصدق القرآن، فليس هذا النسق شعراً.. ولكن العـرب كـذلك لم يكونوا مجانين ولا جاهلين بخصائص الشعر، يوم قالوا عن هذا النسق العالي: إنه شعر!

لقد راع خيالهم بما فيه من تصوير بارع، وسحر وجدانهم بمـا فيـه من منطق ساحر، وأخذ أسماعهم بمـا فيـه من إيقـاع جميـل.. وتلـك خصائص الشعر الأساسية، إذا نحن أغفلنا القافية والتفاعيل.

على أن النسق القرآني قد جمع بين مزايـا النـثر والشـعر جميعـاً، فقد أعفى التعبير من قيود القافية الموحـدة والتفعيلات التامـة، فنـال بـذلك حريـة التعبـير الكاملـة عن جميـع أغراضـه العامـة.. وأخـذ في الـوقت ذاتـه من خصـائص الشـعر، الموسـيقي الداخليـة، والفواصـل المتقاربة في الوزن التي تغني عن التفاعيل، والتقفية التي تغـني عن القوافي[1].

النغم الفني:

قلت: فمـا تريـد بـالنغم الفـني.. هـل القـرآن أغنيـة لهـا نغماتهـا المطربة.

قـال: القـرآن أجمـل أغنيـة لمن كـان لـه سـمع وذوق.. ألم ترنـا نطرب لسماع ترتيله، بل نحلق في الأجـواء العاليـة مـع كلماتـه الـتي تترنم بها الحناجر الخاشعة.

لقد ذكر القرآن كل ذلـك، فقـال عن تـاثر القلـوب المؤمنـة لـدى سماعه:{ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَـدِيثِ كِتَابًـا مُتَشَـابِهًا مَثَـانِيَ تَقْشَـعِرُّ مِنْـهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُـودُهُمْ وَقُلُـوبُهُمْ إِلَى ذِكْـرِ اللَّهِ ذَلِـكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَـهُ مِنْ هَـادٍ}(الزمـر: 23)

1() التصوير الفني في القرآن لسيد قطب.

وأخبر عن أثره في القلوب التي تحن إلى الحق عندما تسمعه، فقال:{ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ} (المائدة: 83)

بل أخبر عن أثره في الجبال لو أنزل عليها:{ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}(الحشر:21)

إن هذا التأثير العجيب الذي يحدثه سماع القرآن في النفوس إعجاز قائم بذاته.. لقد ذكر بعض القدماء من علماء المسلمين ذلك، فقال:(في إعجاز القرآن وجه آخر ذهب عنه الناس، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم، وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا منثوراً، إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في الحال، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه، تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق، وتغشاها الخوف والفرق.. تقشعر منه الجلود، وتنزعج له القلوب، يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها، فكم من عدو للرسول من رجال العرب وفتاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله فسمعوا آيات من القرآن، فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول، وأن يركنوا إلى مسالمته ويدخلوا في دينه، وصارت عداوتهم موالاة، وكفرهم إيماناً)[1]

لم يكن هذا اكتشاف الأقدمين فقط.. بل إن المحدثين بما طوروه من علم الموسيقى اكتشفوا كثيرا من هذه الأنظمة الصوتية الدقيقة التي كسي بها القرآن.. إنه أنغام تبهر العقول، وتذهل النفوس، رصفت ألفاظه وعباراته على ترصيفات موسيقية رقيقة، متناسبات الأجراس، متناسقات التواقيع، في تقاسيم وتراكيب سهلة سلسة، عذبة سائغة، ذات رنّة وجذبة شعرية عجيبة، واستهواء سحريّ غريب.

(1) انظر: الإتقان للسيوطي.

لقد ذكر سيد قطب[1] هذا النوع من الجمال القرآني، فقـال:(إن هذا الإيقاع متعدد الأنواع، ويتناسق مع الجو، ويـؤدي وظيفـة أساسـية في البيان)

وذكر أن هذه الموسيقي القرآنيـة إشـعاع للنظم الخـاص في كـل موضع، فهي تابعة لقصر الفواصل وطولهـا، كمـا هي تابعـة لانسـجام الحــروف في الكلمــة المفــردة، ولانســجام الألفــاظ في الفاصــلة الواحدة..

وحيثما تلا الإنسان القرآن أحس بذلك الإيقاع الداخلي في سياقه، يبرز بروزاً واضحاً في السور القصار، والفواصـل السـريعة، ومواضـع التصوير والتشخيص بصفة عامـة، ويتـوارى قليلاً أو كثـيراً في السـور الطـوال، ولكنـه ــ على كـل حـال ــ ملحـوظ دائمـاً في بنـاء النظم القرآني.

وذكر مصطفى محمود الأديب الذواقة هذا الإحساس الـذي يجـده سامع القرآن وقارئه، فقـال يحـدث عن تجربتـه: لقـد اكتشـفت منـذ الطفولة دون أن أدري، حكاية الموسيقى الداخلية الباطنة في العبارة القرآنية، وهذا سر من أعمق الأسرار في التركيب القرآني.. إنه ليس بالشعر وبـالنثر، ولا بـالكلام المسـجوع.. وإنمـا هـو معمـار خـاص من الألفاظ صفت بطريقة تكشف عن الموسيقي الباطنة فيها.

ويـذكر الفـرق بين النـوعين من الموسـيقى، الموسـيقى الباطنـة والموسيقى الظاهرة، فيضرب مثالا على ذلك ببيت للشاعر عمــر بن أبي ربيعة، اشتهر بالموسيقي في شعره.. وهو البيت الذي ينشد فيه:

قال لي صاحبي ليعلم ما بي أتحب القتول أخت الرباب؟

ثم قــال: أنت تســمع وتطــرب وتهــتز على الموســيقي.. ولكن الموسيقي هنـا خارجيـة صـنعها الشـاعر بتشـطير الكلام في أشـطار

---

[1]() وذلك في كتابـه (التصـوير الفـني) في فصـل خـاص عن الإيقـاع الموسـيقي في القرآن، وذكر أن الموسيقيّ المبدع الأستاذ (محمد حسن الشجاعي) تفضل بمراجعته وضبط بعض المصطلحات الفنية الموسيقية عليه.

متساوية، ثم تقفيل كل عبارة تقفيلاً واحداً على الباء الممدودة.

الموسيقي تصل إلى أذنـك من خـارج العبـارة وليس من داخلهـا، من التقفيلات (القافية)، ومن البحر والوزن.

ثم قارن ذلك بأسلوب القرآن، فقـال: أمـا حينمـا تتلو:{ وَالضُّحَى وَاللَّيْـلِ إِذَا سَجَى} (الضـحى:2)، فـأنت أمـام شـطرة واحـدة.. وهي بالتالي تخلو من التقفية والوزن والتشـطير، ومـع ذلـك، فالموسـيقي تقطر من كل حرف فيها، من أين، وكيف؟

هذه هي الموسيقى الداخلية، والموسيقى الباطنة، سر من أسرار المعمار القرآني، لا يشاركه فيه أي تركيب أدبي.

وضـرب مثـالا آخـر على ذلـك بمـا ورد في القـرآن حينمـا يقـول: { الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}(طـه:5) وحينمـا يتلـو كلمـات زكريـا لربه:{ قَـالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْـتَعَلَ الـرَّأْسُ شَـيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً}(مريم:4)، أو كلمة الله لموسى:{ إِنَّ السَّـاعَةَ آتِيَـةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى}(طـه:15) أو كلمـة اللـه وهـو يتوعد المجرمين:{ إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُـوتُ فِيهَـا وَلا يَحْيَى} (طـه:74)

ثم يقول: كل عبارة بنيان موسيقي قائم بذاته تنبع فيه الموسيقي من داخل الكلمات ومن ورائهـا ومن بينهـا، بطريقـة محـيرة لا تـدري كيف تتم؟!

وحينما يروي القرآن حكايـة موسـى بـذلك الأسـلوب السـيمفوني المذهل:{ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقـاً فِي الْبَحْـرِ يَبَسـاً لا تَخَـافُ دَرَكـاً وَلا تَخْشَـى فَـأَتْبَعَهُمْ فِرْعَـوْنُ بِجُنُـودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنْ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى (طه: 77 - 79)

كلمات في غاية الرقة مثـل (يبسـا) أو لا تخـاف (دركـاً) بمعـنى لا تخاف ادراكاً.. إن الكلمات لتذوب في يـد خالقهـا وتصـطف وتـتراص

في معمار ورصف موسيقي فريد، هو نسيج وحده بين كل ما كتب بالعربية سابقاً ولا حقاً لا شبيه بينه وبين الشعر الجاهلي، ولا بينه وبين الشعر والنثر المتأخر، ولا محاولة واحدة للتقليد حفظها لنا التأريخ، برغم كثرة الأعداء الذين أرادوا الكيد للقرآن.

في كل هذا الزحام تبرز العبارة القرآنية منفردة بخصائصها تماماً، وكأنها ظاهرة بلا تبرير ولا تفسير، سوى أن لها مصدراً آخر غير ما نعرف.

***

ما وصل صاحبي من حديثه إلى هذا الموضع حتى لاحت لنا القاهرة بمآذنها وعماراتها، فكف عن الحديث، ثم أخذ تلك الأشرطة، وخزنها في الموضع الذي أخرجها منه، والتفت إلي، وقال: هل تستر علي ما حدثتك به ؟

قلت: لا حرج عليك.. ولكني محتار فيك.. إن لك علما واسعا باللغة العربية، وبالقرآن، فكيف آثرت العمل في مطبعة الكتاب المقدس على أن تكون معلما من معلمي المسلمين، أو أستاذا من أساتذتهم.. أم أنهم يرفضون أن يدرسهم مسيحي؟

قال: لذلك قصة طويلة لا يكفي ما بقي من طريق لأحدثك عنها.. ولكن هذه القصة لن تستمر طويلا.. سيأتي اليوم الذي ترتفع فيه تلك الحجب التي تحول بيني وبين الشمس..

أنا الآن في شتاء تتجمع فيها الغيوم لتحجب أشعة الشمس.. لكن الربيع قادم.. وستشرق الشمس علي كما أشرقت على الملايين من مثلي..

أنا مشتاق لذلك اليوم.. ومتلهف لوصوله..

قلت: لم تفهم ما الذي تقصد.

قال: ستفهم حين يحصل لك ما يحصل لي.. كل من تعرض

لشعاع من أشعة شمس تلك الحقيقة لابد أن يحن إليهـا، فـإذا اجتمـع الحنين، وامتلأ القلب بالأشواق ضمته الشمس إليها، فصار شعاعا من أشعتها.

لسـت أدري هـل فهمت مـا كـان يقصـد، أم لم أفهم، ولكن نـبرة صوته أوحت إلي أن الرجل قريب جدا من شمس محمد، وأنه يوشك أن تضمه إليها كما ضمت الملايين من أمثاله.

عندما وصلنا إلى المطار مد يده إلي، وصافحني بحرارة، ثم قـال: لقد أعجبني إنصاتك.. فاستمر عليه.. فمن أنصت، فقـد أذن للحقـائق أن تصـل إلى قلبـه وعقلـه، ومن أذن للحقـائق أن تصـل إلى عقلـه وقلبه، فقد أذن لعقله وقلبه أن يتقبلها.

قال ذلك، ثم مد يده إلى جيبه، وأخرج مصحفا صغيرا، وقـال: خـذ هذا المصحف معـك.. واقـرأة.. وقـارن بينـه وبين الكتـاب المقـدس.. فبالمقارنة تتميز الحقائق.

ثم ركب شــاحنته، وســار.. مــددت يــدي إلى محفظــتي لأضــع المصحف، فامتدت يدي إلى الورقة التي سلمها لي صـاحبك، فعـدت أقرأ فيها..

لقد أيقنت حينها أن السور الأخـير من أسـوار الكلمـات المقدسـة لم يتحقق به أي كتاب في الدنيا غير القرآن الكريم.

في ختـــام رحلـــتي القصـــيرة المباركـــة إلى الإســـكندرية ركبت الطـائرة، وبمجـرد اسـتقراري على كرسـيها أخـذت المصـحف الـذي أعطانيه سائق الشاحنة، ورحت أقرأ فيه بحـرارة.. لسـت أدري كيـف انجذبت إليه كـل ذلـك الانجـذاب.. لقـد كـانت المعـاني تلـوح لي من كلماته، وكأنه بحر زاخر لا ساحل له.

لقد انشغلت عن الطائرة، وركاب الطائرة.. وكل شـــيء.. إلى أن كدنا نصل إلى البلاد التي جئت منها، فالتفت إلى الذي بجانبي، فإذا به ذلك الهادي الذي أهداه الله إلي، بصمته وسكينته ووقاره، التفت إلي، وابتسم، وقال: لقد عدت تحمل كتابا مقدسا آخر..

قلت: لا.. هذا القرآن.. هذا قرآن المسـلمين.. هـو كتـاب مقـدس عندهم.

قال: ولكني رأيتك تغرق في بحره.. ورأيت أسارير وجهك تنم عن مشاعر لم أرها في المرة السابقة؟

قلت: لست أدري.. أرى هذا الكتاب يتحدث بلغة غريبة.

قال: لابد أن تكـون لغـة الكتـاب المقـدس لغـة غريبـة.. لأنهـا من مصدر غير الإنسان.

قلت: ولكنها توجه للإنسان.. فكيف تكون غريبة عنه؟

قال: هي توجه لكـل الإنسـان بكـل لطائفـه وطاقاتـه.. أمـا سـائر الكلمات، فتوجه لبعض لطائف الإنسان، وتغفل عن غيرها.. قد تتوجه إلى العقل، وقـد تتوجـه إلى النفس، وقـد تتوجـه إلى المشـاعر.. قـد تخاطب فردا، وقد تخاطب مجموعا.. وقد تتحدث مـع زمـان، وتغفـل عن زمان.. وقد تتحدث إلى مكان، وتغفل عن أمكنة..

قلت: والكلمات المقدسة؟

قال: تجمع الكل.. ويجتمع لديها الكل.. وهي لـذلك كلمـات غريبـة في نظمهـا وأسـلوبها ومعانيهـا وموضـوعاتها.. لأن الـذي قالهـا فـوق الكل، ومبدع الكل.

قلت: أشعر بهذا نحو القرآن.

قال: فهو كلمات مقدسة إذن.

قلت: لا أجـرؤ أن أقـول ذلـك.. ولا أجـرؤ أن أقـر بـذلك.. مـع أني أشعر أنه كذلك.

قال: فاذبح توأمك إذن.

قلت: هو أخي.. فكيف تريد مني أن أذبحه؟

قال: اذبح تلك الخيوط التي تربطك به، أو تجعلك أسيرا له.

قلت: ولكنه يموت إن بقي وحده.

قال: ولكن قلبك وعقلك وروحك وسـرك يمـوت إن بقي مرتبطـا به.

قلت: فما أعمل؟

قال: أنت الذي تعمل.. وأنت الذي تفكر ماذا تعمل.. وأنا لا طاقــة لأن أرشدك لشيء.. فأنت الذي تبني، وأنت الذي تهدم.

قلت: إن في نفسي من آثار البابا الذي زارنا ما لا يمحى.

قال: فابحث عن الأشعة التي تنمحي بنورها كل الظلمات.

قلت: قد ظفرت بكثير من الأشعة.. لكنها لم تطفئ ظلمتي بعد.

قـال: فليصـحبك الشـوق إلى الأشـعة.. فـإن الشـوق ينـير درب الأشعة.

قلت: أتريـد مـني أن أبحث أنـا عن الأشـعة.. لا أن أتركهـا تبحث

عني؟

قال: كن صادقا في طلبها فقط.. وهي تأتيك، بل تهرول إليك.

جاءت المضيفة.. وأخذته كعادتها.. وتركتني أسير حيرتي.

***

التفت الشيخ إلي، وقال: كـانت هـذه هي رحلـتي إلى الكلمـات المقدسة، وقد تعرفت من خلالها على القرآن الكـريم.. وعـرفت أنـه بحد ذاته شمس عظيمة.. كل آية فيه، بل كل كلمـة، بـل كـل حـرف، شعاع من الأشعة يدل على الله.. ويـدل على محمـد ﷺ.. ويـدل على الإنسان.

لقـد ظـل ذلـك المصـحف الـذي أهـداه إلي ذلـك المتنعم بجمـال القرآن يصـاحبني إلى اليـوم.. كنت أقـرأ فيـه.. وأبكي أحيانـا كثـيرة.. وترتجف جميع أوصالي..

ولكني ما إن ألتقي أخي التـوأم حـتى تنسـدل الحجب على قلـبي لتجعلني أتعذب.. فلا أنا مع محمد.. ولا أنا مع أخي..

ولكني كنت أشعر في كل قراءة للقرآن الكريم أن تلـك الخيـوط التي تربطني بأخي بدأت تتقطع، وأن تلـك الأشـعة الـتي تقربـني من محمـد بـدأت تجتمـع ليتشـكل منهـا في الأخـير الخيـار الـذي اخترتـه لحياتي.. وهو أن أعيش صحبة محمد ﷺ.. وصحبة الكلمات المقدسـة التي تتنزلت عليه.

هذا الكتاب

يحكي رحلة يقوم بها رجل دين مسيحي إلى الإسكندرية، هو وأخوه التوأم [الذي يمثل نفسه وهواه المانع له من الإيمان] لطباعة الكتاب المقدس، وفي كل يوم من الأيام يلتقي بشخص من عمال المطبعة أو غيرهم، يثير له شبهات حول الكتاب المقدس، ويدعوه إلى مقارنتها بالقرآن الكريم.

وهي من خلال تلك الحوارات الكثيرة تحاول إثبات قدسية الكلمات التي تنزلت على محمد ﷺ ، وعقد المقارنات العلمية والدقيقة والموضوعية بينها وبين الكتاب المقدس، وقد اشتملت المقارنات على عشرة نواح، هي: الحفظ، والربانية، والحق، والحقيقة، والعقلانية، والروحانية، والشمول، والأدب، والتربية، والجمال.